

لِجَيِّدٍ وَعَدِّ الْكَامِلِينَ

الْإِمَامُ

عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ

عَبْدُ الْفَتْاحِ عَبْدُ الْقُصُودِ



مَنْشُورَاتُ مَكْتَبَةِ الْعِرْفَانِ - بَيْرُوتَ



www.haydarya.com

الامام
عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ

الجزء الأول

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

مَنْشُورَاتُ مَكْتَبَةِ الْعِرْفَانِ
بِكُوتْ

٣٩٢٢٨



هدية الشهيد السيد
السيد عز الدين بحر العلوم
لمكتبة الروضة الحيدرية

هذا البيت

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ
الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ ، رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ
السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ،
وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ،
وَتُبَّ عَلَيْنَا ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ *
رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ
آيَاتِكَ ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ،
وَيُزَكِّيهِمْ ، إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . »

أيام خزاعة راحت مع التاريخ .. مات سيدهم حليل فانتهى بهذا شرفهم في العرب . وابتدأت دولة في الناس شمسها تبزغ ، وتملاً بنورها المستفيض رباع مكة .

واشرابت اعناق القبائل الى الملا تنظر وتدير الأعين بين قصى ومن ظاهره من بطون قريش ، وبين أولئك المغلوبين على أمرهم واحلافهم من بنى بكر .

ماذلت خزاعة حتى تدع البيت لهذا الصهر الذى عدا على حقها فاستلبه ، وان فيها من هو أولى بها منه ، وأوثق صلة بأجيال من آبائها توارثوا حجارة الكعبة والقيام على شأن حجيجها من رفادة وسقاية . وان دون فوز هذا الفتى من مضر لصبغ هذه البطاح باللون القانى !..

ذاك رأى خزاعة وقد تجنت !.. فما عدا الأمر - اذ أصبحت مفاتيح الكعبة في يد قصى - أن ارتد الحق الى أهله . وانما كانت ولاية البيت قبلها في مضر ، ثم بنيه من بعده ، فلما بغت قبيلة اياد في الحرم وأخرجها المضيرون منه ومن مكة ، عمد بعصها ذات ليلة الى الحجر الأسود فاقتلعه ثم دفنه في الأرض حتى يذهب باختفائه هذا الشرف الذى تستطيل به مضر في بلاد العرب .

واصبح العوم والبيت غير البيت ، والكعبة غاب عنها الحجر مناط التقديس ومهوى الأرواح والنفوس .. وأرسلوا البصر ثم حملقوا ولم يصدقوا . واقبل كل على أخيه لا يقوى على كتمان ما بنفسه من هم غالب .

وفي مثل الملح طار النبا واستشرى كالنار . وغشيت الكأبة مكة ولدا وشيخا كيفما اختلفت فيها البطون والافخاذ .. ان الحجر الأسود كان رمز ايمانها جميعا ، وكان الشراء والنعمة لأهلها ، بما يجذب نحوها من حجيج يطوون النجاد والوهاد ، ويحملون اليها متجرا أو يبذلون مالا تنفق بهما السلع أو تروج الأسواق .

غشيت الكأبة مكة كلها الا نفسا ظلت وحدها هادئة بين هذه الآلاف لا يملأها القلق ولا يفعمها الحزن الذى عم الجميع . بل بقيت ، كلما لاقت من هم الناس ، تشيح عنهم حتى لا يروا في عينيها ومضة

الهدوء ، ولا على ثغرها بسمة السخر والرائاء .. تلك كانت امرأة شاء لها حظها أن تعلم وهم في بيداء حدسهم يضربون .
واقبلت على قومها في نجوة من غيرهم تهتف :
« يا بنى خزاعة ! .. » .

فالتفوا بها . وتسابقوا يسألون :
« نيم هذا الهتاف يا أمة الله ؟ » .
« في عز الدنيا وشرفكم بين العرب ، وإن كليهما لفي كفى هاتين ! » .



وكان حديثها نصيحة وقصة . أما القصة فقد أطرب جرسها الأسماع وأفاءت على النفوس السكون . وأما النصيحة فقد ادخرتها لسادة القبيل دون العامة . أفضت بها اليهم في حديث خافت كالمناجاة ثم راحت من بعد تحضهم وتقول :

« فاملكوا أمركم بينكم فلا تستطيل عليكم بعدها مضر أبدا .. » .
أجل وأنه لكما أوصت . وإن الحظ الذي ساقها تلك الليلة الى الخروج لبعض شأنها للذي واتي خزاعة فسودها بولاية البيت الحرام . كانت المرأة تدلج على مقربة من الحرم في ظلال كثيفة من الظلام ، فاذا أشباح رجال يدلفون من البيت في خطى المستريب ، في أيديهم قد احتملوا شيئا .. ووقفت الخزاعية في عجب تنظر ، وتصطنع الحذر قدر الجهد حتى لا يروها . ثم راحت تتأرهم البصر وقد حجبتها عنهم الظلال ، وراتهم يقربون بعيرا ، ثم ينيخونه ، ثم يحملونه .. فما أعجب أن رزح لتوه على الرمال لا ينهض كأنما قد حملوه جبلا أو شد الى أديم الأرض ! .. وحاول القوم أن يستنهضوا الدابة فذهبت محاولتهم مع الريح ، فالتمسوا عنها ثانية أقوى أودعوا ظهرها ما ناء به ظهر اختها من قليل ، ثم ضربوا آباطها الى غايتهم . ولكنها رزحت كسابقتها وشد بطنها الى صفحة الرمال ما شد الاولى من أصابع المجهول . وعجب القوم . وعالجوا البعير بالحيلة وبالغنف وبالجهد فأعياهم ما بدلوا من حيلة وعنف وجهد .. وكانت المرأة واقفة “ تبرح من حيرة ومن ذهول . وترسل نظراتها خلال الظلمة الى ثلاثة الدواب رازحة على الرمال كالأخريين تحت حملها الصغير فلم تملك الا الاقتراب مستخفية بستر الليل عساها تقف على ما ملأ قلبها توجسا وخوفا .

وكانما أيس أصحاب الليل أن يستعملوا ظهرا ، أو استبدت بهم فزعة ، أو خشوا أن يفجأهم في مكانهم نور الفجر . فسارعوا الى الوسق يدفنونه في طوايا الرمال .

في هذه اللحظة تبينت الخزاعية الأمر كله اذ التمعت امام عينيها صفحة الحجر الأسود تنم عنه ، وتكشف عما دعا بنى اباد الى اخفائه . لقد علمتهم قوما موتورين ، وجدوا على ولد مضر فأرادوا أن يحرموهم ما رفع هامهم على قبائل العرب اجمعين . . . وضمت المرأة على السر شفتيها كما انضمت على مكنونها هذه الرقعة من الأرض ، ثم ذهبت مع الصباح الى قومها تقص الخبر وتزجي النصح لاشياخهم أن يساموا مضر على رد الحجر لو نزلت لهم عن مفاتيح البيت الحرام يتولونه دونها . واخلق بخزاعة أن يطير بهذا شأنها في القبائل .

ما كان قصي لينسى هذه الأحدثنة التي سمعها صغيرا ، ثم وعها كبيرا ، ثم أبت من بعد أن تبرح ذهنه كلما طاف بالبيت فرأى شيخ خزاعة يقوم به ويدفع بابه للحجيج من وفود الجزيرة لقضاء حق ربهم فيه . وكان قصي ذكيا أريبا ، نما في قلبه على الأيام حب هذا السؤدد الذي انساب من يدي قومه بمكيدة امرأة كما تنساب حفنة مياه من بين أصابع قابض عليها . وأخذ طوال ما فات من سنيه يدبر لاستعادة المجد الذاهب . فاذا بلغ مبالغ الرجال كانت حجابة البيت امنية حياته . ولمن كانت له مثل عزماته وقوة قلبه تتداعى الصعاب وتنهار حتى لتصبح رواسيها الشم في يديه رملا هشا ماله من قوام .

وأجال قصي فيما حوله بصره : هذا حليل بن حبشية سيد خزاعة يشرف به العمر على غايته أو يكاد ، ويلعب الوهن بجسمه حتى تهجره القوة فلا يستطيع دفع الباب كما اعتاد وهو شاب مفتول عامر بالحياة ، بل يرى في الحجابة جهدا فيسلم المفاتيح الى هذا يوما وإلى ذاك يوما يقومون بالعمل عنه . . . ثم يسلمها اياما وإياما الى أبي غبشان سليم ابن عمرو وارث الشرف من بعده في القبيل . ثم هذا أبو غبشان صاحب زق وخمر ، لا يكاد أن يرى الا مخمورا . وما على شاكلته يكون سادن بيت الله الحرام ، وما لمثله يستجيب الناس أن أراد القيام فيهم بأمر دينهم أو دنياهم .

دبر قصى الحساب فما فاتة الصواب ، واصبح عليه صباح مثنى فيه الى دار حليل ، يضرب بابا ويستأذن .
وقال الفتى بعد أن استقر به المقام وخاض من الحديث فيما لم يبق بعده الا صفوة الكلام :

« ذكرت اليك حبي يا بن حبشية » .

فرمقه الشيخ برهة ثم سأل :
« لك أنت يا زيد ؟ » .

« نعم وعساك ترضى » .

« مرحبا وأهلا » .

وكان هذا الزواج صفقة رابحة في نظر الشيخ فتهللت أساريره وتاه زهوا بصهره الذى ينتهى اليه أمر قریش سيادة وأصلا ووفرة مال . وانتقلت حبي الى حياة جديدة ودار كسبت لها السمو على كل دار . ولكن أحدا من رجال خزاعة لم يجلب بذهنه وقتئذ أن ولاية البيت قد افلتت منهم الى سواهم . لقد اخذ تفكير حليل يسير في منحى سوى منحاه راحت به مفاتيح الكعبة في كف حبي ثم في كف زوجها يقوم عنها اكثر الأوقات بما هو أجمل بالرجل أن يقوم به . وكلما طالت الايام طال قيام قصى بحجابه البيت ، وكلما اضطلع بعمله هذا اطبقت أصابعه على المفاتيح شدا . وكلما مر الزمن نبه ذكره وعظم خطره وزاد ولده فزاد بهم قربا من قلب حليل .

ثم ما لبثت اللحظة التى انتظرها بيقين الرائق أن جاءت . فقد احتضر كبير خزاعة . وانه لعلى فراشه يجود بنفسه فيطلب ابنته . ويطلب ولدها وزوجها يملا من طلعاتهم عينيه ويلقى عليهم نظرات الوداع . ثم تأخذه صحوة فيهم ناهضا من فراشه ما وسعه ، وقد اتكأ على حشيته بذراع . ويخاطب سيد قریش في صوت خافت خفيض :
« يا بنى ... انك على أمرى من بعدى ... »

قال قصى يسأل وان لم يفت عن ذكائه الجواب المرجو :
« وسليم ؟ » .

« مالى ولسليم ؟ : هذا امر ليس يقيمه صاحب خمر » .
« فان أبت خزاعة ؟ »

فصاح به الشيخ كالاستنكر وهو يشير الى أحفاده :
« خزاعة !... وهل خزاعة الا هؤلاء ؟... انما ولدك بنو ابنتى - ولدى - وانت أحق بأمرى حتى يخلفوك » .

وقد تم هذا حقا .. رسمته الوصية ثم أدعته من بعدها الدماء .
ابت خزاعة وظاهرتها بنو بكر ، وأبى قصى عليهم ذلك الآباء
وظاهره قوم أبيه قريش وكنانة وقوم أمه من ربيعة قضاة .
واقتل الفريقان قتالا مرا أهلك منهم الخيل والرجل ، وحصد
عديدهم حصدا .

واشفقت العرب من عقبى الحرب فمشت بينهما تحضهما على
الصلح وفض النزاع حتى قبلا أن يحكما في الأمر يعمر بن عوف .
وقال يعمر يقضى بعد سماع الحجة من كلا الخصمين :
« يا بنى خزاعة أراكم جرتم فانه والله لبيت أبيه .. الا فما كان
من دماء رجاله ففيه الدية ، وما كان من دمائكم فاني اضعه !... »
وكذلك انتصر صاحب الحق القديم واستعاد نرائه . اما خزاعة
فقد نفاه عن البلدة وأخرجها منها ، وأما قريش فقد ألفها حوله ،
وجمعها وكانت قبله مزقا وحلولا متفرقة ، ثم أقطعها بلدة البيت .
وراحت أيام خزاعة من التاريخ ، وبدأت دولة في الناس شمسها
تبزغ وتملأ بنورها المستفيض رباع مكة ...



شرف قصى حتى تسنم الذروة . وكان رجلا فيه هبة ، وفيه
حزم ، وفيه فيض ، فأنته الأقبام منقادة ، عن رهبة أو عن رغبة .
وأحسن امساك الزمام ، فما تفلتت منه توافه الأمور ، هو الذي تعلم
أن يصانع العظام حتى تستقيم له ...
وأصبحت له مكة ملكا وان قل له أن يصير ملكا . فكان للناس
أبا وسعهم حنانه قبل أن يضمهم سلطانه .
وفي الحق لم تر تلك الرقعة من الأرض رجلا مثله تداعت له
السيوف والقلوب ، لا يأتمر كلاهما بأمر سواه . وان القوم ليهمون
بالحرب فلا يعقد لواءها لهم الا قصى . وان الرجل ليتخذ شريكة حياته
بعد أن يرضى عن زواجهما قصى . وان الراحل لا يرحل والعائد
لا يعرف الطريق الى داره حتى يمرأ أولا بدار قصى ... قوة لا يحدها
سلطان ، وسلطان أشبه بإيمان لا يملك أن يعصيه انسان .
واقبلت عليه في ملكه الأيام ، ثم تداولته الأعوام حتى شعر أن قد
أمهل له في عمره ما لم يبق معه بقية أمهال ، فانطلق بفكره يتزود من

هذه البقاع الحبيبة الى النفس ، ويتدبر فيمن عسى أن يبقى لها مر بعده عزها وعز ولده . حمداً لله فليس ينقصه المال ولا كثرة الرجال! . وهؤلاء قومه قد جمعهم ولفهم حول آله لفا . وهؤلاء بنوه قد شرفوا امام عينيه واستطال مجدهم . وهم فتية . فايهم تولى امر هذه الاقوام ، قام به فأحسن القيام .

في دخيلة نفسه احب لو اوصى لولده عبد مناف اذ خبر فيه عزما وهيبة وفيضا كأنما نحله كل ما فيه دون بقية بنيه . ولكن قصيا على قوة قلبه كان امرا ذا طيرة - شأنه في هذا شأن الكافة من سكان الجزيرة الذين غلبت عليهم الأوهام واستعبدت عقولهم أيما استعباد في ذلك الزمن الغابر وهن جلده ولم تهن ذاكرته ، فاستطاع أن يرتد القهقري بخياله ليرى ما حدث ذات ليلة في دار ولده المفضل .

. كانت عاتكة الكبرى بنت مرة قد جاءها ما يجيء النساء عندما توشك أن تنسلخ عنهن حياة جديدة ، واقتعد نسوة البيت حولها ينتظرن . وراح عبد مناف بلا قرار يجوب الحجرات في انتظار ما تأت به زوجه من أخ لبكره المطلب يعز به في الناس نفرا .

واشتد بعاتكة الألم حتى إعتصرت عينها ، واشتد بالزوج القلق حتى ذهب ذهنه في اليأس كل مذهب لم تكن هكذا حالها حين وضعت وليدها الأول ، ولم تلق كهذا العسر . فلما طال اليوم عليها أمرها وحزب ، خشى زوجها المغبة وراح في حرارة يبتهل . ودخل اذ ذاك قصى ، مديدا فارعا موفور القوة كمن له نصف عمره ، فاتجهت نحوه الأبصار - وملاؤها - اذ بدت طلعتة - نظرات فيها هدوء وقرار ان اليمن لفي محياه ، وان البركة لبين يديه ، وان الخير لاينما حل ، فليس اذن ما يخشونه على الام .

وقد صدقت حقا فراستهم اذ كان ميمون الطلعة مباركا ، ما استوى مجلسه حتى تيسر لعاتكة أمرها وجاء البشير بأنها وضعت حملها واستراحت .

لم تعدل فرحة عبد مناف بنجاة زوجه الا الفرحة التي هزت قلبه وهو يرى وليديه قد خلاصا من أمهما وهمت أن تتلقفهما أيدي النسوة . ولدت له عاتكة توأمين . . ذكرين كانا! وان في هذا عزا له ما بعده عز في بلد استحيى ناسها الابن وكرهوا الابنة حتى ليودعنوها بطن الأرض ولما يستقر على ظهرها هيكلها الغض . واسرع الرجل تحمله الفرحة ، وسبقه الشيخ الى الوليدين يريد أن يلا بهما عينيه كما امتلا - قبل

النظر اليهما - فؤاده . ولكنه مامد اليهما كفيه حتى تقبضتا دونهما رهبة، ثم استرسلتا الى جواره وعيناه تولىان الصغيرين دهشة وحيرة .
وحق لقصى ان يدهش ، وان تأخذ الحيرة وهو يلح في الوليدين شذوذا دفع اليهما الابصار تنتهبهما انتهابا . . . كانا متصلين على غير المألوف في التوائم ، لا من جنب ولا من بطن ولا من ظهر ، بل لصقت بجهة احدهما قدم الآخر كأنما هي منها قطعة .

واسرع القوم اليهما يعالجونهما حسبما اسعف كلا جناحه . وكثرت فيهما الآراء وتشعبت نواحيها . ولكن رأيا واحدا لم يلم على جانب من التوفيق . وما اجدت المحاولات شيئا .

وأقبل عجوز من خزاعة له كهانة وله علم ، كانوا قد استقدموه ليستخبروه ما جهلوا : قلب الوليدين في يده برهة يفحصهما ؛ ثم قال يهدوء :

« ما أرى الا أن انفصلا عن دم » .

فسأله عبد مناف بلهفة :

« ولا خطر » .

فكان الى العمل منه الى الجواب أسرع ، فما لبث الطفلان أن انفصلا كلا الى ناحية ، جهة من أسموه عبد شمس تشخب دما ، وقدم توأمه عمرو خضيبه بذلك الدم .

وقال الكاهن ، وهو يهم أن يبرح ، وعلى شفثيه بسمة خابية ، وفي عينيه سهوم كمن كان يستوحى المجهول :

« الا انها والله لآية لمن علم ، وليكونن بين ولديهما خصومة ودم ! »

وكان من هذه الكلمات لقصى طيرة . . . وفي مجلسه بداره ذلك الصباح منطويا على نفسه ذكر نبوءة الكاهن وما كان من شأن الطفلين . وقام الى الندى يمشى الهوينا ، خافض الرأس مشغول البال . ما له في أمره اذن من خيار . وما عليه ليجنب قريشا مصارعها ، وليبعد الشر عن الوقوع في آله ، الا أن ينأى بعبد مناف عن تولى الأمر من بعده ، حتى لا تشب الفتنة بينه وبين توأمه عبد شمس أن ورث الأول ونفس الثانى على أخيه الشرف الموروث .

وبقى الأمر محصورا في عبد الدار ، بكر قصى ، وان عرفه لا يقوم مثل مقام أخويه . ولكنه رأى أن يوليه شأن القوم حتى لا يستطير الشر ويستشرى في بنيهِ أو يملأ بدمائهم أرجاء مكة .

وقام الرجل بوصى بما قرأه عليه وفي باله أن وصيته مجنية أهله
ويل المقدور ، ووقف ينادى ، على مشهد من بنيه ومن أشراف قومه :
« يا آل فهر .. يا آل غالب .. يا آل لؤى .. يا آل كعب ..
يا آل كلاب .. » .

فلما اجتمع له الناس من كل جانب يحيطون به ، التفت الى بنيه
يهتف :

« يا بنى قصي » .

فنادوا جميعهم :

« لبيك ! » .

قال الرجل وهو يشير الي بكره :

« فاني أشهدكم بأنى أوصى لابنى هذا ... »

وأدار عينه الفاحصة فما رأى الا الموافقة والاقرار . ما كان لهم
بمعصياته طاقة ولا عن طاعته محيص .

وقال الشيخ لوصيه أمام بقية ولده بعد أن انفض الناس :

« انما شرف عبد مناف . وذهب في زمانى كل مذهب . وارتحل
عبد العزى وحل فأصاب من الدنيا وأصاب منى منه ، وتخلفت أنت
يا بنى ... اما والله لالحقنك بالقوم : لا يدخل رجل الكعبة حتى تكون
أنت تفتحها له ، ولا يعقد لقريش لواء حرب الا أنت بيدك . ولا
يشرب أحد بمكة الا من سقايتك . ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعاما
الا من طعامك . ولا تقطع قريش أمرا من أمورها الا في دارك ... »
ونهض فحف به بنوه يمشون بين يديه . ولم ينس وهو يغادرهم
أن يلقيا اليهم كلمة فيها جماع أمره :

« الا قد بلغت ! ... »

٣

حتى اكتهل عمرو ، واتبع خطوه في طريق العمر توأمه عبد شمس ،
وشب لهما من الولد ما لكليهما مناط فخره ، ظلت نبوءة كاهن خزاعة
جنينا في بطن الزمن لم يبرز عليه نهار .

وتداولت قريشا أحداث شتى فيها حلوفها مر ، وعبد الدار
ولى بيتها وندوتها . وما اتصل بهذه أو بتلك من شئون . لم تقرر
ضعفه قارعة تدموه الى استنباط قوة ليست فيه ، بل سارت له

الأمور مستأنية يحفها هدوء ولين ، يقوم بما وكل اليه فيسدن ، ويرفد ، ويسقى ، ويعقد ويشير ، وقومه جميعا من خلفه - كما أوصى قصي - لا ينفسون ولا ينقمون ، استجابة منهم لأمر سيدهم الذى طواه التراب ، ووقفت عاجزة دون طي ذكره الاحقاب .

وورث بنو عبد الدار فخر أبيهم فاستطالوا بما في أيديهم عزا . ولم يقصر عن مجد بنى عمهم عبد مناف بل لعله بلغ شأوهم ثم زاد رفعة . فقد ذهب عبد شمس يجوب الآفاق متجرا فيصيب خيرا ويسيب حنكة ودراية بالناس . وهو باتجاره هذا يشبع نفسه المطبوعة على المداورة وبعد الغور والدهاء . ونبه ذكر عمرو كما لم ينبه لأحد من بنى أبيه ذكر حتى سوده القوم عن غير وصية سابقة من صاحب سلطان ... كان الله قد جبله من خلق متين ثابت الأركان وأورثه من جده قصي صفته وان لم يورثه عرضه ، فراح اسمه في الآفاق قصيدة طيبة الروى . أبياتها ساحة وفيض وقوة جنان ، لا يمل ترديدها لسان ، ولا يدانى شأوها في اقوامه انسان .

هنا لعبت حنكة الأيام بالرجل الذى جبلته الدنيا على المداورة وبعد الغور والدهاء ... نظر عبد شمس الى الأمور نظرة تاجر لا يفوته في صفقاته التزام الحساب ، فوجد بنى عبد الدار أقل ولد جده خطرا . ولولا أن كانت لهم ولاية البيت وما تبعها مما أوصى به قصي ما بزوا امرءا من عامة قريش . افتراه يتركهم يفضلونه امام الخاصة والسوقة بهذا الفخر الذى لم يأتهم عن عزم أو قوة أو فضل بل اتاهم منة من كريم وهم بنو الضعيف الواهن المهيض ؟

اذن فقيم كان له الدهاء لو ترك لهم ولاية البيت وما يلحقها من الشرف الموروث ؟ وهل ترى يكبو ذكاؤه دون بلوغ مآرب نفسه ؟ . ان الرجل قد عنى ذهنه أن يكدح ليفوز بما يعلو به فوق بنى عمه شرفا . وكانت فيه نزع للسيطرة جامحة الى جوارها مداورة تفل من حد جموحها أن يبين ، فلم ينس أنه ليس بخير بنى عبد مناف في عيون قومه ما بقى فيهم توامه حيا يأسر الناس فيضه ، على أن الكرم ليس بما يعسر على عبد شمس أن يسطنع له من جنسه ما يذيع ذكره ويعطف النفوس اليه ، ولم يكن هو معدما ولا مقلدا وان لم يبلغ من الثراء مبلغ عمرو . لم يكن بالأضال حسبا اذ كلاهما من عبد مناف ، ثم ليس بعد هذا بالأقل أو الأذل ولدا . . وكفاه أن قد انجب أمية الذى لاح - مذ اكتملت فتوته - كبير المطمع نزاعا الى العلياء .

وكذلك بدا عبد شمس ينسج خيوطه فراح يتألف حوله ذويه . ثم راح يجتمع بأشياخ قومه يحدثهم في اخراج الأمر من بنى عبد الدار . فلا ينكرون عليه سعيه وهم يقرون بعلو عبد مناف على عبد الدار . ثم أتى أخيرا عمرا متألفا آونة مداورا أخرى حتى مال وسكنت اليه نفسه . فلما اكتمل له رضا الأكثرين انبث بين اسد وزهرة وتيم والحارث يبذر فكرته حتى اقبلوا معاقدن معاھدين ان يخرجوا الحجابة والرفادة والسقاية واللواء والندوة جميعا من بنى عمه الى الأعزین : بنى عبد مناف بن قصي سادة الناس وأولاهم بشئون حرمهم بيت الله . واجتمع له القوم الى جوار الكعبة بينهم جفنة ملئت طيبا غمسوا فيها الأكف ثم مسحوها بأستار الكعبة وهم يقسمون على النصر والوفاء بالعهد .

ورد بنو عبد الدار ومن والاهم على حلف المطيبين هؤلاء بحلف آخر فاجتمعوا الى جفنة دم يتعاقدون عليها . ومن خلف أولئك وهؤلاء وقفت العرب ترقب ما عسى أن تأتي به الاحداث بين بنى هذا البيت الذين فرقت بينهم عروض الحياة حتى صاروا اصحاب طيب أو لعقة دماء .

ثم سلت السيوف وأشرعت الأسنة وكادت الحرب أن تشب فتأكل نارها من القوم أو تذر ، فاذا بلغت الفتنة غايتها وأدرك التأهب مداه مشى من ذوى المروءة بين الفريقين من سمعوا له فتداعوا الى الصلح ابقاء على قريش .

وهكذا حكموا بينهم من ارتضوا فحكم بأن يترك لبنى عبد الدار من تراثهم حجابة البيت والندوة وعقد اللواء . ويعود بنو عمهم بالسقاية ورفادة الحاج .

واجتمع المطيبون في دار عبد شمس يتشاورون فيما اصابوه من ثمار فقام صاحب الدار فيهم يقول :

« يا بنى عبد مناف هذه غنيمتكم قد احتلبناها من بنى عبد الدار احتلابا وانى والله .. » .

فقطع عليه حديثه من قال :

« بل عاد الينا بعض ما ترك قصي ، ولنحن أهله ، ولم نبتز احدا حقه » قال عبد شمس :

« فهذا . وهلموا امركم بينكم فانظروا . » .

فعاد محاوره ثانية يقول :

« انه لأمر بين . قوموا فادفعوا بهما الى خير قصي » .
ثم التفت الى عمرو يهتف به :
« فما ترى يا أبا يزيد ؟ » .
« روا رأيكم .. » .

ولم يزد . وتلبث القوم يتفكرون برهة - اما عبد شمس فقد امتلأ
بالثقة قلبه ان لن يعدل المجتمعون به سواه . اليس هو مؤلب الناس
حولهم ، والمشير عليهم بالانتقاض على بني عمومته ، والداعى الى
ثورته حتى باعوا بعد بالذى غنموه ؟

لكنه حساب اخطأ وتقدير كبا دون الغاية . فما هو الا قليل حتى
تبدى على وجهه الذهول وقد نمت الى سمعه صوت يقول :
« يا بني عبد مناف . ألا تهتدون وفيكم عمرو ! »
فكانما هي الصخرة التى حولت التيار .. نادى رجل :
« يا عمرو الحيا أنت لهما ، فوالله ما طعمت مكة ولا سقيت من يدين
أبسط من كفيك ! .. »

قال عمرو تواضعا وكرما :

« بل هذا اخى أبو أمية ادفعوا اليه الأمر .. »

ولكن كبيرهما المطلب سارع يقول :

« وما لعبد شمس وهذا الأمر ؟ .. انه قام فينا فأحسن القيادة
وأسلسنا المقادة . وانما الأمر اليوم لصاحب دار بلا باب ، وفيض بلا
حساب ، وانه والله لانت ! .. »

٤

ولاية صادفت أولى الناس بها في حساب الجميع ، وان كانت أخطأت
وليها ، مذكى فتنتها ، والساعى الى فخرها في حساب عبد شمس .
وكان لابد ان يتألم الرجل ، وان يبرم ، وان يضيق برأى قومه فيه
ضيقه برأيهم في أخيه . ولكنه صانع وداور ، وتحلب مر الهزيمة وهو
يكظم حنقه في قاع نفسه البعيدة المهوى ، وما له عن هذا معدى ولا
محيص .

وجلس يتربص بالأيام عساها أن تعود فتبه النصف أو يقع فيها
على فرجة ينفذ منها بحنكته الى اقتناص ما فات .

حكمة داهية اريب . ذاق من الدنيا وذاقت منه ، لا يسعه الا ان يبطن حين لا يضره اسرار ولا يجديه اظهار .

ولكن الايام لم تقبل مطلقا عليه وفي وفاضها الفرصة التي منى النفس ان يجرب فيها ثانية دهاءه ، وان كانت قد اقبلت على توأمه توسع له وتوثق من نظرة قومه فيه . . .

كل ما اصابته مكة من خير كان عن عمرو ، وكل شر اصببت به لم ينفضه او يكفكف من حدته عنها سيد سواه .

كان هو الرجل الذي لم يخطيء فيه تقدير الناس ، لان الاقدار شاءت له ان يصيب . وكفاه جدارة بما اصاب ان قرىشا كانت تسمع له وتلتف به ، وسلطانها ما زال في يد غيره من بنى عبد الدار .

ولم يكن هذا اكبرها سنا ، ولا اكثرها ولدا ، ولا اعزها اهل بيت بعد ان مالت عنه نفوس عبد شمس وبنيه ومن صانعهم وصانعوهم ، وانما كان اكبرها قلبا ، واسمحتها كفا ، واعزها خصالا وطيب خللا . وفي سنى الجاهلية كانت المكرمة الواحدة تشغل شاعرا او راوية ، فما بالك بهذا الذي لم يكن ليعز عليه اية مكرمة من المكرمات؟ . .

كان ملاك نفس عبد شمس بيده ، لانه مداور داهية استطاع ان يصطبر ولكن ملاك امية ابنه افلته لانه عجز امام سطوة الحسد ان يمسك بزمام نفسه .

وكان هذا أولى به لانه كان فتيا ، فيه خفة ، وفيه نزق وحدة واندفاع ، وفيه ولع بالمجد الذي اخطأ طريقه ابوه . ثم هو بعد هذا لم يخل قلبه من بغض لمن ظنه نافس اباه في ميدانه وحاز السبق من دونه . فقام يلعب الدور الذي جلس عبد شمس طويلا ينتظر عبثا ان تهيئه له الايام .

سقى عمرو فسقى امية ، واطعم فاطعم ، واعطى فاعطى ، لا يدع وسيلة الا تذرع بها كي يفعل كفعله عسى ان يطير في الملا ذكره كذكر عمه ار يزيد رفعة .

ولكنه كان دائما الصورة الخرساء للأصل الناطق . قلد وليس بوسعه الاحسان فاخطاه الاتقان ! .

ثم كبا به فجأة عندما ضاق بالجود ماله المحدود .

وكان هذا حينما أصابت مكة سنة شديدة ، اذابت الشحم وبرت العظم واكلت اللحم . لم ينج من شرها حضر ومس ضرها الوبر . فذاق ذو الترف الطوى ، واضنك كل ذى سعة حتى لم يسمعه الا أن يقبض كفه .

وجرى امية في السخاء شوطا ثم اقصر واقفز منه الميدان . ثم بقى عمرو وحده ملاذ البلدة الحرام ، لا يفلق باب داره دون الناس ولا يمسك راحته عنهم . . حتى اذا اشتد القحط بمكة أيما شدة ولم يعد في خيرها ذماء ، زم الرجل عليه دثاره ، وحمل ماله ، وشد رحاله وخرج بليل يضرب في الأرض الى مكان .

وأصبح الناس يسعون الى بيته فلا يجدونه فكأنما استلبتهم الدنيا ما بقى لهم من مأمل في الحياة . فلقد كانوا يدرأون الجوع بجفانه والرزء بحنانه والشدة بإيمانه . . أما وقد غاب عن عيونهم محياه فقد انطوا على أنفسهم في ذلة ، طاوين . ينتظرون مصارعهم والاملاق يشد على الخناق ، والامحال ينذر بشر حال .

ثم فتحوا أعينهم ذات صباح ، وكلهم هزيل معروق ، لاصق البطن ، منهوك الدهن ، فاذا عير قيد الأبصار قد انتشرت على حد الأفق حتى لتوشك أن تملأ فراغه . واستبقوا اليها راجين ان يكون الله قد ساق لهم فيها خيرا . وراحت الابل في سيرها الوئيد ، تطوى ما بينها وبينهم مخلقة وراءها طريق الشام ، الكعبة مقصدها وغايتها ، وقد بدا ، يقود أولها بخطمه ، رجل ما وقعت عليه الأنظار حتى تصايح القوم من كل مكان فرحين :

« الفيض ! » .

« هذا أبو يزيد ! » .

« انه عمرو ورب الكعبة ! »

ثم التفوا به يتواثبون كالصبية حول أب بار عاد بعد طول غيبة ، ولم يتلبث هو بهم ليسألوه أو يستخبروه شأنه ، بل مضى سريعا الى السوق فأنزله . والى الفرائز التي احتملتها ابله يحلها ، والى الخبز الذى كان حثوها يهشمه ، ثم أمر بالجفان فملئت ، وبهذه الابل كلها فنحرت ، واشتغلت في طهيها الطابخات اياما لا تخبو لهن نار .

عرفت مكة الشبع بعد الطوى والجوع ، وانجابت عنها غمة الايام السالفة فتجاوبت نواحيها منة هذا الكريم الذى أحتمل امواله جميعا الى الشام فاشترى بها طعاما لناسه وما أبقي درهمها لنفسه . وسرى ذكره في الآفاق حتى خبت أمام جذوة اسمه الوهاج لمعة اسماء غيره من الأسخياء . قريش كلها تحدثت به بطاحها وظواهرها ، ثم الجيرة المتاخمة من القبائل ، ثم الأعراب في بواديهم والرعاة في مناخ دوابهم على الكلا في الوديان والشعوب ، ومن وراء كل هؤلاء الجزيرة من طرفيها ما سار فيها ظاعن يتنقل معه الذكر اينما حل من بلادها في مكان .

لم يحدث مطلقا أن تحدثت الناس بمثل ما قالوا عن عمرو : نحلوه أحسن النعوت والصفات التى تعنى بسطة الكف ما وسعتهم أعرب اللغات ، فلما قصرت عن مرادهم الألفاظ اتخذوا له من فعله علما جديدا كأنما قد أحبوا - اذ يدعونه به - أن يذكروا صنيع يديه حين هشمت لهم خبزه ليطعموا ، فكان « هاشما » مذا فعم لهم قدوره وجفانه حتى تلتئم في مستقبل الدنيا رقعة الأرض والسماوات .

رجل تجسد كرما . وكرم جرى كلاما . وكلام انتظم سطورا طارت في جوانب الآفاق قصيدة طيبة الروى على كل لسان ، ندية الوقع في السامع وفي الأذان .

ولكنه لم يسعد مطلقا بما أصاب من فخر وطيب ذكر ، وهو لا يفتأ يرى بعين خياله أشباح القحط تحوم دائما حول مكة ، وتهم أن تجتاحها مرة أو مرات . . انها بلد غير ذى زرع ، حبيس جبال وشعاب ، يستجدى الحيا أن يصيبه لمما حتى يبتل أوام أرضه فتنبت . فاذا أقلعت سماؤه انقطع مأؤه وراح نهبا للجذب وأن يسر على أهله الحال احتملوا من سلمهم القليلة الى الجيرة من البلدان فساوموا وباعوا ثم عادوا ببعض ما ينفعهم وهو الكفاف أو ما لا يدانى الكفاف .

كان هذا حال البلدة الحرام في تلك الايام ، بينما على تخوم الجزيرة امصار اوسع لها في الرزق وسهل عليها العيش . ولم يكن العسير على قوافل مكة أن تسير الى الشام أو اليمن أو سواهما فتبيع وتبتاع وتصيب من الخير ما يستطاع . ورأى هاشم بشاقب نظره أن وقوع بلدته على الطريق بين شمال الجزيرة وجنوبها ، يهيء لها مكانة مرموقة ، فلو جعل منها مجازا لتجارة الشام واليمن كلاهما الى الأخرى لأصبحت سوقا تجارية لا تدانيها بلدة عربية في الرواج .

ولهذا شد رحاله الى الشام فدخل على عاهلها يعرض ان يتبادل البلدان تجارتيهما ، وهو الضامن الا تعدو اعراب الطريق على قوافلهما المزجاة . وكان لهاشم عند قيصر الروم منزلة يسرت له امره عند الحاكم ، فأقر عرضه ، وعقد واياه حلفا تجاريا . وعاد سيد قريش راضيا من الشمال ليتبع رحلته هذه بأخرى الى الجنوب ، ويعاقد اقبال اليمن على مثل ما تم من معاقدته هرقل الشام .

فلما اينع له سعيه واثمر . رأى ان يزيد قومه خيرا ، فأركب البحر أخاه المطلب ، رسولا منه الى نجاشي الحبشة ، ليربط بين البلدين بحلف تجارى آخر .

وراح اهل مكة بعد هذه المعاهدات يختلفون بسلعهم وسلع تلك البلدان الى الشمال والجنوب في الصيف والشتاء . واصبحت مكة سوقا تجارية عامرة ، يزيد ناسها على الأيام غنى وثروة ، بما اضفت عليهم رحلتا الايلاف .

٥

في احدى رحلاته قافلا الى مكة ، نزل أمية بغيره على ماء في الطريق يستقى ويستريح . وكان متكرما لا يمسك كفه سعييا من وراء نباهة الذكر وحسن الاحدوثة ، فما استقر به ركبته حتى نحر واطعم وتفضل على اهل الماء بما اطلق السنتهم بمستفيض الشاء .

وجلس الرجل يسمر بين صحبه ، وقد التف بهم أصحاب الدارة يذكرون صنيعه فيزهي بمدحهم ويود في خاطره لو حضره عمه فراى بعينيه ما لابن عبد شمس من مكانة في كلا الصحاب والأغراب ، رفعته الى شأوها كف ندية ، لعل بسطتها - فيما ذهبت اليه نفسه - لا تقل عن كف عمرو وان جرت بذكر هذه انهار السطور ووعت جودها البطون والصدور .

وأحب أعرابي من القوم ان يجزى أمية عن فضله حمدا ، فهداه خياله الى التزام أسلوب من الحديث فيه مسحة من وقار الكاهن وقراسة الملهم . قال الأعرابي وهو يتفرس في أمية هنية :

« فيك من أجواد العرب والله لسمات » .
فابتسم له هذا يسأل :
« فمن أجوادها ؟ » .
« قريش » .
« فمن خير قريش ؟ » .
« أصحاب البطاح ، جيرة الحرم ، منابع الكرم » .
فازدهى أمية الفخر وسره أن يطول بينه وبين الأعرابي الحديث ،
وقال مؤمنا :
« أصبت . أصبت » .
« فمن أيها ؟ » .
« من قصي » .
« صاحب البيت واللواء ؟ » .
« وثلاث آخر » .
« فمن أي ولده ؟ » .
« من عبد مناف » .
« أعفهم لسانا ، وأعلاهم بيانا ، وأقواهم جنانا » .
« وكان هذا وغيره للشيخ » .
« فأنت اذن أوسط قريش دارا ، وأعزها جارا ، وأذكها نارا :
هاشم وخلالك دم ! » .
فكأنما قد لسعت أمية نار !.. هب واقفا من مكانه يحاول جهده
أن يستر ما به ويدارى غيظه ، ثم سارع على عجل الى العير ، يلام
الركب للعودة ، وهو يهمس من بين أسنانه :
« تعس أمه !.. أخطأ الاحسان وأصاب الاساءة ! » .



ثم استحث عيره ، فلما أقبلت به على مكة كان قد عاوده ما ذهب
عنه الى حين من نفسه على هاشم وعظم حسنه اياه . فما تريت
الا بقدر أن حط على الأباغر حملها ثم راح يمنح يمين وشمال . وتلفت
الناس مأخوذين لهذا الكرم الذي جاوز المعهود في ابن عبد شمس

وعهدهم به العطاء بحساب . ولكنه بادرهم من لدنه بالجواب حتى انبرى يفخر أو يدس بين المجالس من ذويه من يترنم بسماحته التي يحسبها تجب ما قبلها من سماحة الأولين . ثم زاد انسياقه لهواه ، فمضى يفاخر عمه ولا يثنيه عن هذا حق قرابة ، ولا وقار سن ، كأنما الجواد من كرمته كفه ، وان خست نفسه . وما كان لعربي أن يقطع الا لولا أن تكون موجدته قد بلغت به ابعاد مدى واقصاه .

وراح هذا الفخر يفعل فعله في نفوس أهل البيت ومن انحاز اليهما من أحلاف واتباع . واستمرت ناره واحتدم أواره . أما الفتية من آل عبد شمس فقد أغرقوا فيه ، وانحرفت بهم الألسن حتى جاوزت المفروض من توقير أخى أبيهم وسيد آلهم والقوم اجمعين . وأما هاشم فظل كعهده الكريم نفسا . هان عنده ما صنعوا فلم يلق الى مهاتراتهم بالا . وأما الناس - وهم يعرفون من أمر الرجلين ما يعرفون - فقد عجبوا لقزم حاول أن يفرع ويستطيع على المارد الجبار طولا فتناولوه بالدعابة والتندر حتى امتلأت بحديثه المسامر .

واغضبه هذا أشد الغضب ، وأعماه الحنق حتى مشى الى عمه يدعو ان يتنافرا ويقيما بينهما من يحكم لايهما انتهى اليه الجود . وأغضى الشيخ عن غضبة الفلام ، واتسع لسخفه حلمه فما زاد هذا أمية الا زهوا وتصعير خد . وأشفق آل هاشم ومن تابعهم أن يسرى في العرب اغضاء سيدهم فيفهمه البعض كأنه احجام ويظن الجاهلون الظنون به ، فألحوا وتمادوا في إلحاحهم على هاشم ليضع سفيهه عبد شمس عند حد محدود .

وما كان الناس اجمعين بحاجة الى من يرشدهم الى الأعلى بين الرجلين وان أصر أمية على أن يقف امام عمه في ميدان مفاضلة وترجيح . وبحسبهم ان خبروا الأول فراوا فيه خلقا هو صورة خلقه ، بما اجتمع له من صفات لا تتصل بالحسن والوسامة ، وعرفوا الثانى مثلا لما يمكن أن تسمو اليه طبائع الانسان .

أصر أمية على منافرة عمه ، وبات لا يسكت له لسان ولا تنقطع مفاخرة ولا مباهاة . ولا يلقى رجلا من قوم الا صور اغضاء هاشم وتعففه في صورة النكوص خوف الخذلان ، فلما لج وأبى الا ركوب شططه ، دعاه عمه ذات ليلة فقال له ناصحا معاتبا :

« يا ابن أخى ، ان لى سسنا ، وان لى عليك حقا ، وقد بلغنى ما أحب أن أدفعه عنك ، فاتق الله في قالتك عنى .. » .

فلم تعطفه رقة الحديث بل قال ينطقه صلفه :
« ما تكلمت الا حقا ! » .

فابتسم الرجل الحليم وأجابه :

« انما شرفي شرفك ، وان تمسه لا تعز » .

« تعزنى كفى هذه ، وقد والله فعلت ! » .

ولوح بيده كأنما ينتهى اليها الجود ، فسارع هاشم يقول له :

« على قدرها يابنى ! » .

« وانها لخير الاكف » .

« في بنى ابيك ! » .

فما وسع ابن عبد شمس امام لسع السخرية الا ان يغضب
ويصيح :

« وفي عبدمناف ، فنافرنى » .

قال له الشيخ بهدوء :

« افعل » .

« فاختر حكما » .

« اختر لى ولك ، وانى لراض » .

وكذلك انتهى الأمر بين الرجلين الى الاحتكام ، وسارا ، القمىء

الضئيل ينفضه كبره ويكاد من زهوه الا تثبت تحت قدميه الأرض ،
والكريم المديد يملأه - الى جانب الثقة بنفسه - رثاء لهذا المكابر
العنيد .

وقال سيد قریش ناصحا لابن أخيه وقد أوفيا على الحكم :

« يا ابن أخى ، انك تابى الا المضى لما استبطنت ، وانى والله

ما دعوت وما رضيت ، ولكننى لا آخذك بما قلت ، فان شئت ان
ترجع .. » .

فقاطعه غير متريث :

« ما لهذا اتيت » .

« فشانك . وانى اذن انافرك على ثلاث » .

« فقل » .

« أنافرك على خمسين من الابل سود الحديق » .

« رضيت » .

« وأنافرك على الا يأخذها احدنا بل تذبح ببطن مكة ويخلى بينها

وبين الناس » .

« وهذه » .

« وأنافرك على ان تخرج عنا عشر سنين ، لا تراك البلدة الحرام

ولا تراها ان نصرت عليك » .

فلاح كأنما قد حال لون امية وغاض من وجهه معين الدم . هذا

ما لم يدر له مطلقا في بال وما لم يحسب التحدى يصل الى مداه ؛

ولكنه امعن في الاساءة فحق عليه ان يجرع كأسه .

وقال هاشم بصوت رتيب لم تخف من نبراته رنة تهكم :

« فان احببت فشأنك ، وان احببت ان ترجع عما دفعتنى اليه

فانى والله لا آخذك بما قلت .. » .

فيالها من دعوة كريمة الى الاقرار بالهزيمة !..

واجاب امية وقد سد امامه طريق النكوص :

« بل اقبل » .

وما اسرع ان خسر بهذا القبول ، فقد حكم عليه واصابه الخذلان .

وخسر في التوايله الخمسين ، سود الحديق ، ثم رآها تنحدر امام

عينيه ببطن مكة ويتغذاها الناس وهو يهيم نفسه للرحيل .

وخسر الفخر الذى طالما استطار به وامضى السنين الطويلات في

رفع ذراه .

ثم خرج بعد هذا خافض الراس ، مقهورا الى منفاه ، وفي قلبه

يعتمل الحقد على عمه ريفور ، وخلف مكة خلفه تتحدث بما كان من

خزيه ويسير منها نبؤه مع الركبان .

وحط رحاله بالشام ففيها من قبل كان اتجاره وفيها من بعد

قامت دولة عريضة الجاه والسلطان من بنيه . وكان مثابرا دعوبا ،

فلم ينس لحظة واحدة مطعمه السالف ، بل جعل شغله ان يصطنع

ما عسى ان يعود به فيفاخر هاشما ويبرز عليه ثم يحتلبه ذلك الشرف

المرموق . وفي حساب امية كان الماس سلمه الى الغاية فيه يتألف

اقلوب الناس ما عرفت كفه الانفاق . وان امامه ما هنا في هذا البلد

لعشر سنوات طويلات أحر به أن يجمع خلالها ثروة ترفعه فوق هام قريش والعرب أجمعين .

وهكذا سارت به الأيام في دار غربة ما لبثت أن غدت دار صحبة ، كان حديث الناس فيها عنه مقياس بذنه . وكلما تقلص الزمن زاد ثروة ثم زاد منعة ثم فوق هذا وذلك زاد حفيظة ومر حقد على ذلك الوائر القريب البعيد ..



ثم حسم الموت ما أثارتته الحياة بين الرجلين من نزاع ، فقد مضى هاشم لسبيله ، على أعناق قومه ، الى منزل في الثرى نزله قبله أبوه ونزله جده ، وأصبح مثلهما على أفواه الناس حديثا .

وعض أمية غضبا على ناجذيه والبريد يحمل اليه مع خبر وفاة هذا العم الكريم المبعوض نبأ تولى عمه المطلب الأمر من بعده ، وعادت ذاكرته الى موقف هذا الوارث الجديد يوم احتلب بنو عبد مناف رفادة الحاج والسقاية من بنى عبد الدار ، وراحوا يتشاورون فيمن هو أولى بها فيهم . ذكر أمية هذا وذكر خذلان أبيه ذلك المساء لأن المطلب أشار بأن تكون لهاشم ، فما استطاع الا أن يمتلكه الحق ويقول: « المطلب ! رد عمرو عليه شطره ! » .

وقطع من بعد شوطه في الدنيا ثم طوته الأرض . ولكن الأيام لم تطو معه الحقد لأن جذوره كانت قد امتدت الى القاع وأثمر تراثا من الأضغان في قلوب بنى هذا الرجل على بنى خاذل أبيهم وجدهم أمر خذلان . فاذا دار الزمن وخلف شيبة بن هاشم عمه على أمر أبيه ، فلقد أوشك اذن أن تسطع من سلالته شمس تضيء العالم ، ويعم نورها القلوب قبل الأبصار ، وتأنف حولها الأرواح رويدا رويدا الا أرواح أولئك الحاسدين الذين أبى حقدهم الا التالب على نورها يريدون أن يطفئوه .

مكة أصبحت لا تستطيع صمتا .. في كل ناحية جمع لعبت في
 حلوقهم الألسن فساد الهمس ثم علا كلاما . كل كلمة تتحدث عن
 عبد المطلب أو تطوف حوله وحول نذره . وقد كان القوم بداوا
 أحاديثهم عابثين أو متنكرين بشيخ قريش حتى رأوا العزم في وجهه
 فانقلب تندرهم جدا يغلب عليه الخشية والاشفاق . وبحسبهم أن
 رأوه يسوق أمامه أحب إليه إلى الحرم وقد أمسكه بيد وأمسك
 بالآخرى نصلا ، ولم يبق على إيفاء نذره وتحقيق ما وعد به ربه إلا أن
 تمر السكين على رقبة الغلام .

وتألب الناس من كل فج . وتهاتف الصبية ، واستنكر الرجال ،
 وصاحت النساء ، ولكن عبد المطلب أبى إلا المضي بشأنه ساكن
 القسمات طاويا في قلبه أساه . إلا لو أن عبد الله عصى أو عارض لوجد
 الشيخ « مشيئة » قد توقفه أمام نذره ! . ولكن الغلام كان راضيا ،
 طائعا ، شديد الرضوخ لينا في كف أبيه كالطين لو أحب أن يحيله
 كيفما شاء ما استعصى . وكان هذا الرضا اقرارا منه بحق عبد المطلب
 عليه ، ورغبة لا يشوبها طيف شك في أن يصل ما بين أبيه وبين ربه
 ولو كان هذا بوجأ عنقه .

ها هي ذى قصة تتكرر ، أعاد فيها التاريخ نفسه ، ونشر من
 صحائفه صحيفة مطوية سطرها الماضي ثم كررها الحاضر كأنما قد دبت
 الحياة ثانية في أبطال الغابر .

يتقدم عبد المطلب إلى أحب ولده وأقربهم إلى قلبه فيقول :

« يا عبد الله ، انى نذرت لو استحيى رب هذا البيت لى عشرة من
 ولدى لأذبحن أحدهم له في بيته .. وانتك انت يا بنى نذرى » .

فلا يزيد الفتى على أن يقول :

« يا أبت أفعل ما ترى ولن تجدنى إلا طائعا صابرا » .

فكانما هذه كلمات اسماعيل عادت تتردد في أجواء مكة لأبيه
 إبراهيم بعد هذه الحقب المتلاحقة من السنين .

وكانه تصنيف من القدر أن يعيد الصورة على هيئتها الأولى في

نفس البيت بين ولد وابيه كلاهما حفيد لبانى البيت وابنه الذى فداه الله .

ولكن الذى فدا اسماعيل وقد همت به السكين شاء ثانية ان ينقذ سليل بيته الطاهر الكريم على نحو آخر من الفداء . . .
مشى الى عبد المطلب أشرف قومه ، ومشى اليه آله ، ومشى اليه أخوال ابنه من بنى النجار يعرضون أن يدع الفتى حتى لا يكون ذبح الأبناء من بعده سنة في العرب ، ولآلهته بعد هذا ما ترضاه من فداء .
وتردد الشيخ حتى أفتاه كهان الدين بصحة ما يطلبون .
ورمى بالقداح على فتاه وعلى عشر من الإبل هى دية النفس كما تواضع عليه أهل تلك الأيام .

وخرج قدح عبد الله فضاعف الدية عسى أن يرضى ربه . . ثم ظل يضاعف الإبل مرة فمرات حتى بلغت المائة فبرز قدحها دون قدح الغلام .

ولكن الشيخ لم يقطع بصحة الفداء ولا برضاء ربه حتى رمى ثلاث مرات استوثق بعدها من نجاة عبد الله فنحر الإبل ببطن مكة وترك لحمها لقي للناس أو لوحش السماء .

وأكرم الله من بعد ذكرى عبد الله فسن الإسلام دية الإنسان مائة بعد أن كانت عشرة .

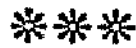
وعاد عبد الله بين أخوته الى بيته معافى . لأن الله أراد أن يستأخره لأمر عظيم .



أما الناس فقد أعظموا عبد المطلب غاية الأعظام اذ خبروا فيه تألها لا يخسر ميزاته ، وإن كان حبه الولد جاء في كفة أمام حبه دينه .
وقديما رأوا فيه من هذا التأله علامات سمت بها روحه على مشيلاتها وشفت كأنها ماء الصخور صفاء ورقة .

كان الرجل ذا ورع وتقية ، يابى الدنية ويعال الصغار ، حتى لقد كاد أن ينسلخ بعذب صفاته مما عرف من خلال قومه الموغلين في الأنام .
وكان يركب نفسه دائما بالزهد ، ويروضها على ما لا تحتمله الأنفس سواها ، استجابة منه لنزعة فيها ، لا تميل به وفرقة المال ولا صحبة

الضلال . ولقد طالما ضمته المسامر فأغرق السمار في عبثهم فما انحاز اليهم ، وفي خمرهم فما ذاقها شفتاه . وفشا الخنا فعزف عنه تعففا ، وذاع الفجور فتحصن . . وبقي القوى - وهو الأقوى - فأمسك كرما ، ثم ذهب يتلمس السبيل الى ضعيف يرعاه ويأخذ له ؛ أو جبار يقمعه ويأخذ منه ؛ وهو بعد هذا كله أحنى على الناس منهم على أنفسهم ، يسير فيهم سيرة هاشم أبيه حتى لم تجف على أرض مكة دماء الذبائح التي كان ينحرها طعاما للجائع الفقير ، ويحتمل منها الى الجبال ماكلا للوحش وجارح الطيور .



وأما عبد المطلب فان روعه سكن ثابت نفسه وهو يرى رب البيت قد أحله من نذره وأبقى عليه أحب بنيه .
وأسرع بعد قليل الى داره يستقبل فتاه ، فلما لقيه شامت في قلبه الفرحة حتى أضاء محياه ، وقال :
« يا بني تهياً فانا نرحل » .
« الليلة ؟ » .

« الليلة . وتخفف ، فلن يطول بقاء » .

وترك الفتى تهياً ، وراح وهو ينعم بحلم جميل طالما رقص في أخيلته .

ان كان ربه قد أبقى له عبد الله فلامر يضمه أبقاه ، ولخير . وان عبد المطلب مع صفاء روحه صفاء يشفى بها على مراتب الالهام لاتستطيع بصيرته ان تنفذ الى الغيب المكنون . ولكن نفسه ما فتئت تحدثه عن خير قريب مذ عاد من رحلة اليمن بعد سماعه نبوءة كاهن حمير . .

كان هذا ذات يوم غير بعيد وقد نزل عبد المطلب على صاحب له عظيم من عظماء حمير . وان مجلسه لما يستو به حتى اقتحم عليهما المكان غريب سدد خطاه الى سيد قریش كأنما كان مسوقا نحوه بقوة دافعة . وجلس عبد المطلب يرقب الرجل ساكنا ، فيراه يطيل التأمل فيه ، والتطلع الى وجهه ولس شعره وملامح محياه ، حتى فاض عجبه وضاق ذرعه ، فصاح برب البيت :

« ما للشيخ المفتون ولى ؟ » .

وأجاب المضيف في هدوء وعلى ثغره ابتسامة :
« هذا كاهن من اليمن قرأ كتب الأوائل وله علم ، وما احسب
الا له شأن واياك .. » .

فانفثا غضبه وقال ضاحكا :

« سأنظر .. » .

ثم التفت الى الكاهن يسأله :

« فما ترى يا أخا حمير مما حدثتك عنى كتبك ؟ » .

قال الرجل بصوت أجوف عميق ، ولا زالت عينه على جبين
عبد المطلب :

« أرى .. ملكا » .

فرد صاحب الدار :

« ما هذا علينا بجديد فانه سيد قومه » .

« .. وأرى نبوة » .

« نبوة ؟ » .

فهز رأسه مؤمنا وهو يتم لسيد قريش :

« نعم . وانها لفيك أو في أحد بنيك » .

« فأيهم يا رجل ؟ » .

« في صاحب الغرة ، أو في المصهر الى زهرة » .

وخلف لهما المكان .

وكانت لعبد المطلب في رأسه شبيبة ، دعى بها في طفولته وكانت
علما عليه ، بيضاء في منبت شعره من فرق الجبهة بين سواد شعره ،
لعل الكاهن عناها بقوله . فان كانت الاولى فما عدا شيخ حمير
ذو العلم ما تحدث به الناس لفرط ما عرفوا من تقوى سيد بنى
عبد مناف حتى كانوا دائما يقولون :

« لو كان نبي على عهد عبد المطلب لكان نبي العرب » .

وان كانت الأخرى فما أقرب اليه من يشرب ، بلدة أمه ، ولن تعجز
الابل أن تدركها فيصهر الى زهرة نفسه ، ولأحب ولده حتى لا يفوت
أحدهما هذا الخير .

ولهذا سرى بهما الركب على درب يشرب .

ولم يطل بهما هناك بقاء ، ثم عادا ولعبد الله آمنة بنت وهب ابن عبد مناف بن زهرة ، ولأبيه ابنة عمها هالة بنت وهيب .
ثم دار الزمن ينثر على الناس ما في وفاضه . وحملت هالة وحملت آمنة . ووضعت كلاهما غلاما ذكرا .

أما عبد المطلب فقد تلقفت كفاه وليده حمزة . وأما عبد الله فقد شاء له ربه أن يطويه مثواه وطفله الحبيب جنين في بطن أمه لما يكتمل نموه فلم تشهد طلعتة مطلقا عيناه .

ولو أنه امتد به أجله أو استأخر شهورا قليلة لقرت عينه بغلام لم تمتلئ أعين البشر من قبل ، ولن تنعم من بعد بمتله ملاحه وحسن سميت وطلاقة محيا .

ولو أنه استأخر أعواما لشهده فتى تلتئم قبائل العرب برأيه الرجيع وهي تمسك بأطراف برده بعد أن كادت تمزقها آراء شيوخها وساداتها .
ثم لو استأخر بعد هذا قليلا لعرف أى فتى في الرجال انجب ، ولطار به فخره كل ناحية وهو يرى ولده - بعد أن ضم العرب - يلم الدنيا حوله من أطرافها كثوب ، ويحتويها في كفه ، لا بحد السيف وشفرة السنان ، وإنما بقوة اليقين وسطوة الإيمان .

٧

ضجت العرب لو كان ينفع الضجيج أصحابه ، ثم جزعت ، ثم اجتمعت في نديها تتحدث وتقلب بينها الأمر . وما عسى يفيد الحديث في خطب واقع ما له من دافع ؟ . هذه الحبشة أقبلت من اليمن ، بعد إذ أذلت عزتها تنتشر جنودها كالجراد وهي تيمم بلدة البيت العتيق .
إلا لو أنها أقبلت غازية لهان على قریش الكرب ولشمرت للحرب سراعا . ولكن أبرهة إنما جاء قاصدا المسجد يريد أن يسوى بناءه بالأرض هدمًا ، بعد أن فشل عن تحويل وجوه العرب عنه إلى معبده الجديد : القليس .
وانتظر القوم على مثل الجمر عودة عبد المطلب وفي قلوبهم تتراوح الآمال . لقد ذهب إلى لقاء الغازي العاتى عسى يستطيع بحسن تدبيره أن يصلحه على ما يبقى لهم بيت إبراهيم ، وجلسوا يتهامون في صوت خفيض وهم يحدسون . وإذا سيد قریش قد طلع عليهم وعلى وجهه عبسة توشك أن تنطق بأن الشر لا معدى عنه ولا مناص . والقوا إليه

الاسماع والابصار وهو يشق طريقه في الجمع ، ساكتا لا ينبس حتى اعداهم صمته ، فجمدت على أفواههم كلمات هموا أن يستنبثوه بها ما تم في اللقاء . واتخذ بينهم مجلسه ، ووقفوا حوله متلهفين للانصات أو الكلام بعد أن ران السكون على النفوس ، وثقل عليها كالصخر . وقال هو بعد قليل ، بصوت فيه رهبة وحزن :

« يا قوم . ما أرى إلا أن تخرجوا عن مكة الى الشعاب » .

فأجفلوا وانطلقت عيونهم تدور بينهم ، ذهبت ريحهم أذن وقضى الأمر وما هي إلا ساعات حتى يجدوا الحبشة في ديارهم مصبحهم . ولكن الحمية ، أو أرادة الخلاف ، أخذت حرب بن أمية فصاح :

« فالحرب والله أجدى يا أبا الحارث » .

قال عبد المطلب بنبرات هادئة لم تغب عنها السخرية والتهكم :

« قول هين وهلك أهون ! » .

وقام عنهم . فاذا بهم يلاحقونه ويلتفون به كأنما كان لهم صخرة النجاة وكان حريا بهم أن ينوبوا اليه بعد إذ خبروه زمانا فعرفوه صادق النظرة نفاذها الى عقبى الأمور كمن يتحدث ويصدر في أعماله عن وحى . اما وقد قال قوله فلم يبق لهم إلا احدى اثنتين : اما طاعة واما فناء . وقال لهم ورجله خارج الباب :

« ألا انى لكم نذير من كربة يوم عظيم ، فما لكم بصاحب الفيل طاقة » .

فسأله رجل منهم :

« فما قلت له وما قال لك ؟ » .

« ما قلت ولا قال ؛ ولكنى طلبت ابلا لى أصابها في مرعاها ، فأعطانيها » .

فكأنما لمس عصب الغضب في نفوسهم ، وتصايح الكثيرون ولغظوا ، وانبرى له من بينهم حرب يسخر .

« تمنع الابل وتدع الحرم ؟ .. يا أبا الحارث ما كنت رشيدا ! .. » .

« أما والله لم يفتنى الرشيد .. ابلى أنا ربها ، أمنعها ، وقد فعلت .

أما البيت فله ربه يمنعه ! » .

واستمع القوم له ، وعملوا بما أشار به فما لبثت جموعهم أن خرجت الى شعاب مكة تمتنع فيها من الغزاة ، واخرج عبد المطلب آله وماله وساروا جميعا الى الجبال .

وخوة البلدة ولكن شيخها لم يدعها حتى جاس خلالها يستحث المتخلفين على أن يبرحوها . فلما لم يبق بها ساكن اعتلى شعبا اشرف منه على نواحيها وراح يتطلع الى يمين ويسار ، ويمعن النظر فيما يبدو امامه وفي همه ان يعرف من أى فج سوف يدهمها عدوها . ولم تغض للرجل عين طوال ليلته ، ولم تسكن حركته لحظة . ثم بدا في أفقها الصباح ينشر بياضه ومعه انتشر على مدى البصر سواد يتحرك ويقترب ويبدأ حتى كاد أن يبلغ أطراف مكة . وسارع عبد المطلب فنزل يهرول ، وانحدر كالسيل منطلقا صوب البلدة الى البيت العتيق يمسك حلقة بابه فيقرعها بقوة وهو يرفع الى السماء عينين فيهما دموع يسيل صيبها على وجنتيه ويبل لحيته ، والرجل يردد على دوى الدقات .

لا هم ، ان العبد يمنع حله ، فامنع حلالك
لا يفلن صليبهم ومحالهم ، غدوا محالك
ان كنت تاركهم وقبلتنا .. فأمر ما بدالك !

ثم عاد مهرولا كما جاء الى مكانه من الشعب وقد كادت أن تطأ طليعة الجيش أطراف ثوبه .

ووقف الناس ، من عل ، ينظرون معقولى الالسن . لقد نصحهم حقا سيدهم فما لأحد من العرب بمثل هذا الجيش قبل ، وما منهم واحد رأى فيلا ، قبل يومه هذا ، يجيش ويتخذ عدة حرب . وهذه الحبشة قد جيشت فيلة ضخاما ، اقبلت تدب امام الرجال فتهتز لسرها الأرض ، وعلى رأسها دابة منها هى اعظمها جثة وأنفسها ثوبا ، كانت مركبا لاميرهم أبرهة الأشرم .

ثم وقف الناس ، من عل ، ينظرون ثانية معقولى الالسن . ما للفيلة تحجم ولا تقدم ؟ وما للجند يتهافتون وتكل تحتهم الأرض فيسقطون على الأديم صرعى بغير سيف ولا مرماة ؟ وما للجيش كله

ينتفضض بعضه على بعض ويسوده هرج لا يعرف مأناه ؟ في مثل الملح امتلات الأجواء بصرخات الجرحى المفزوعين والأرض بأشلاء القتلى المجندلين من جيش الفزاة ، وفي مثل الملح التوى الأمر على أجناد الحبشة وقادتهم كما التوت أعنة أفراسها وفيلتها حتى ارتدت مولية بينهم تطأهم سنايبها وتحصدهم حصدا .

وأمسك أهل مكة أنفاسهم تهيبا . وقفت شعورهم رهبة بادية الأمر ؛ ولكنهم لم يلبثوا حتى تصايحوا فرحين اذ منع الله بيته ، ومنع بلدته . وأرسل من لدنه جنودا لم يتبينوا منها الا كمثل الحصى يأتى على جناح الريح من ناحية البحر ، ولا تصيب حصاة منه رجلا الا كفاته هامدا أو نفذت من بعض بدنه ، ثم تركته يحشرج . وتسابق القوم من بعد الى عبد المطلب يلتفون به ويقبلونه . وقد تقدمهم اليه حرب بن أمية ينطق بما ينطقون ويقول :

« صدقت والله يا أبا الحارث فقد منع الله بيته .. »

وقد صدق أبو الحارث حقا وتحقق في هذه المرة أيضا حدسه الموفي على الإلهام ، فعاد الى مكة جأشها وبقي بيتها في الأوابد ، منعه ربه أن تمتد اليه يد بسوء ليكون في قابل الأيام مطاف خيرته من أهل الإيمان ، وان الذين أقاموا بالشعاب خلال ليلة الخطب تلك عساهم لم يلقوا الأبصار الى وليد في ثانی شهوره كان بين جموعهم المستعصمة بالجبال . ولو رأوه لحسبوه وليدا كأي وليد ، ولكنهم لو استطاعوا قراءة الغيب لعرفوا أن وجوده بينهم كان رحمة من عند الله . وان بقاءهم بعيدا عن متناول أكف الأعداء ذلك اليوم المصيب كان اثرا من آثار يمن الصغير . وان ربهم شاء لهم هذا لأنه أراد أن يستأخرهم ليوم معلوم يشب فيه الوليد وينطلق بهداية الله داعيا الى نهج جديد قويم لم يأت بمثله انسان سواه من قديم ، ولن يبعث بمثله أحد غيره ما بقيت الأرض والسموات . حتى اذا رنت اليه الأعين واصاحت الأسماع ، استطاع بقوة قلبه أن يؤلف حوله هؤلاء الأعراب الجفاة ، ويدفعهم في شعاب الأرض يحملون عنه مشاعل رسالة تضيء طرائق الحياة ...

ولئن بلغ ابن هاشم بعد هذا مبلغه من الهيبة في قومه ورفعة الشأن ، فإن نعمته كانت جديرة بحسد الحاسدين . ولن يعجز التاريخ أن يكشف عن حاسد عبد المطلب ما بلغه ، حاقداً على مكانته في الناس ما دامت نواة الحسد له ولآبائه قد نمت دوحة في بنى عمومته حتى فرعت . فكما وقعت البغضاء في الأصول دبت ديدانها في الفروع والأغصان . وللورثة دائماً في النفس . كمثلته في ملامح الأبدان . وما عبد المطلب إلا من هاشم ، وما حرب إلا من أمية وعبد شمس !..

وهكذا نرى التاريخ يعيد نفسه . . ان أمية لم يبلغ وطره من عمه ، الذي أخرجه منفاً من مكة ، ولم يبلغ ثأره . ولكنه خلف لبنيه تراثاً من الأحقاد وفع حرباً الى التوسل بالتوافه لمخاصمة عبد المطلب . وكما ذهب أمية يستطيل على هاشم ويستعلى ثم يستنفره أن ينافره ، فكذلك ذهب أيضاً حرب يسير في سبيل أبيه . ولم يكن هذا عن إيمان بعلوه أو ثقة بفضل له ولكنه كان أرضاء لقلبه المفعم بالحقد الموروث . ولكنك لن تجد للمبطل منصفاً في ذى انصاف . ما مشى الرجلان الى نفيل بن عبد العزى يحكمانه بينهما حتى صاح بحرب صيحة المفيظ الغاضب :

« يا أبا عمرو ، أتناقر رجلاً هو أطول منك قامة . وأعظم منك هامة ، وأوسم منك وسامة ، وأقل منك لامة ، وأكثر منك ولداً ، وأجزل منك صفداً ، وأطول منك مذوداً ؟ أما والله أنك لمبطل كما كان أبوك » .

فما استطاع ذاك الحاسد المغلوب إلا أن يقول :

« فدع أبى عنك يا نفيل فإنه ليس بشر من أبيه . . » .

« هيهات أن يقرنا ، أو تقرنا . . »

أبوك معاهر وأبوه عف وذاد الفيل عن بلد حرام

فانتفض حرب مقهوراً، وهو يهمس من بين أسنانه اذ يغادر المكان:

« ان من انتكاث الزمان ان جعلناك حكماً ! » .

كأنما لم يكن من انتكاث الزمان أن يطاول عبد المطلب أو يحسبه ندا !

ومع ذلك فقد كان في هذا الفرع من عبد مناف اجترأ على الحق

حتى لا يدفعهم عن امعائهم في الإبطال دافع . وانهم ليرون دائماً في

باطلهم حقاً وفي حق غيرهم نهياً هم الاحقون باستلابه . ولسوف نراهم

يركبون كل مركب الى اهدافهم ولا يقعدهم عن التماس غاياتهم لوم الناس ، بل سيشهرون السيف ويعقلون الألسن ويمضون قدما الى زمان غاب منصفه وكثر مرجفه فنصبوا فيه حكما هم أعلم بحكمه لهم قبل نطقه به . ولن يكون هذا رجلا كنفيل وانما رجالا او صور رجال جبلوا هم طينتهم كما شاءت لهم أهواء النفوس وصاغوا منهم دولة عاتية بين قرنى الشمس . وحتى تؤذن تلك الفترة سنراهم دائما سباقين الى رى دوحه الحقد التى كانت نواة لتظل مورقة ابدا شائكة ابدا ولتصيب اشواكها حتى ذلك الوليد الذى سطع ضياؤه في الازل قبل خلق السموات ، ولتدمينه وان تقدم اليهم ببرهان الله لأنه لم يكن مثلهم من عبد شمس وانما من هاشم !.

٨

اكانت تلك مكربة أخرى من القدر أثر بها آل هاشم دون غيرهم من بيوتات العرب في الجزيرة فأضاف بها الى مفاخرهم ، أم هي الصدفة وحدها لعبت دورا ؟ . . . في كل ما فات بالدنيا من افرادهم نرى صفحات من الحياة ، تلتهم امام البصائر النعما : رجالهم في الرجال سادة تهوى اليهم الانفس وتستظل من محامدهم بأورف ظل . فيهم الشريف الماجد . والكريم الرائد ، والتقى العابد الى اشواط لا تبلغ غايتها افراس السجايا عند سواهم من خيار الناس . . . ونسائهم في النساء اعلام الصفاء وصحائف النقاء . لم يخض مطلقا في ذكرهن لسان الا بثناء في أيام كان جل نسوتها متهمات مشوبات السير والاعراض بغير تحيز ولا اغراق ، وان في هذا كله لسرا لن تلبث أن تكشف عنه حياة فرد منهم اصطفاه ربه لينحدر من أصلابهم ومنهن فاخترهم جميعا - من أجله - أعفاء مطهرين ، جديرين بانجاب سيد الخلق أجمعين .

ولكن المكربة الجديدة صافت رجلا من بنى هاشم ليس بالموسر فيعزه ماله ، ولا بالنجب فيحمله عياله ، بل كان الى الحاجة أميل منه الى الشراء . لا يملك الا نسبا وطيب خلة ، ولا يستطيع - لو اراد - أن يستطيل على قریش أو يسبقها وفي أيدي الكثيرين منها عدة من عرض

الدنيا ونشبهها ترجح عدته ، ليس يعوز قوما تيسر لدبهم المال أن تنسى لهم خفضة النسب أمام الناس ، ما استطاعت أموالهم أن تعطف عليهم النفوس وتملك الحواس .

اجل لقد واجه أبو طالب دنياه فقيرا ، ومات عبد المطلب عنه وهو بعد في نحو من السن لم يكن كدحه قد افاء عليه من الخير ما يستتفيه . ولم يورثه أيضا سيادة القوم لأنه أوصى لآخر من بنيه هو الزبير . فلئن اقبلت الدنيا على هذا الفقير فحبته بمكرمة هي آية المكرمات فقد كان هذا من القدر غاية المرتجى عند ذي رجاء .

كان اقدس الأرض عند العرب مكة . وكان اقدس مكة بيتها العتيق . وكان اقدس حرمها هذا الكعبة لا يطوف بها من القوم الا محلق مفتسل طاهر مع ما كانوا فيه من الامعان في الضلال والمباهاة بسوء الخلال . وقد مضت عليهم الأحقاب تتلاحق - مذ ابتناه ابراهيم - وهم لا يعدلون ببيتهم شيئا حتى لينحرزوا ان يذكروه بغير اعظام في ذات انفسهم سرا ومناجاة وهم يأمنون على اذهانهم السميع الرقيب . ولو احبوا لأمر من أمورهم نفاذا لأبرموه فيه أو بجوار استار كعبته ، كأنما يشهدونها على خلوص النية وصدق العزم على المضي في انفاذه لأنهم قد اكسبوه من قداسة ذلك المكان . فكل ما جاور الكعبة مقدس أو حرام أو هو موقف على غاية التقديس والاعظام .

كذلك كان الشأن لدى العرب لا فرق فيهم بين خاصة ودهماء . وانهم جميعا ليحملون الأمور على معانيها قبل مبانيتها ، وعلى جواهرها قبل مظاهرها ، فاذا تم لأبى طالب الفقير المعسر بعض أمره في جوار كعبة الحرم ، فان أمره هذا لجليل في عيون القوم لأنه اكتسب ابلغ شرف بأشرف جوار في اقدس دار ، فكيف لو تم له أمره ذاك بغير سابق ترتيب منه ، بل بصدقة هي عند أولئك الناس منة من الله وحظوة أراد أن يشرف بها ابن عبد المطلب كما لم يشرف بمثلها قبله أو بعده من الرجال كثير ولا قليل ؟

تلك ليلة فذة في الليالى ، أضاء نجمها على الدنيا مرة ثم لم يقدر بعدها لضوئه أن يبزغ نائية كمثل بزوغه لأن مثيلاتها لا تعود . ولكن ضياء أشد لمعاناً من نور النجم توهج ، ثم سطع ، ثم فاض بنوره على الآفاق سيرة كوجه الشمس رفافة الاشرار .. سيرة ان قاتها ان تنفرد وحدها بالمبنى الساحر فقليل سواها ضم ما كان لها من معنى قاهر ، بل اقل القليل ، بل الأندر منه . ولو انك استطعت ان تتحلل من شباك الزمن وتنفض خيوطها عنك ، وسبحت عائدا الى الماضى لرأيت ابنة أسد - فاطمة - نجول بالبيت الحرام تلتمس البركة ، لأنها سيدة تجمعت فيها مزايا آلهة الكرام وامناً - كمنلهم - قلبها طهراً . ثم لرأيتها تأتى الكعبة فتطوف بها مرة فمرات متمسحة بأستارها آونة مفيلتها اخرى . ولكنك لا تلبث حتى تشهدها وقد أوشك أن يصيبها اعياء تكاد أن تنوء به ، وتنكر هى - بادىء الامر - ما تحسه ، ثم تمضى متجلدة تستحث نفسها وتستنهضها . ولكنها رغم هذا لا تقوى ، ولا تستطيع أن تقوم عودها . واذا هى تتشبث اصابعها بأستار الكعبة تستعين بها وقد اخذت تحس شيئاً غاب عن ذهنها ، وتقف مجهودة لا يستفر بها موطىء القدمين ، كمن على طرف كنيب رخو من الرمال . ونجيل فما حولها عينا حائرة لعلها تبصر زوجها أبا طالب يسمى هنا أو هناك فتجد لديه عوناً على ما تلقى ، ولكنها لا تراه لأن ما حضرها في هذه اللحظة غاب عن حسابه ..

ثم لعلك تتبعها وقد خشيت هى ان تلقفها الأبصار المتطلعة ممن حضر من اناس كان دأبهم الاجتماع في أروقة البيت وفي امنائه فاذا رأيتها قد انحازت ناحية ، ودلفت الى أستار الكعبة فنوارت خلفها عن عيون القوم فكفاك ما شهدت . وقف منها على ملقط السمع دون مرمى العين لأنها شاءت ان تتخذ من الستر المقدس رداء . واسمع بعد هذا حسياساً خافتاً يأتيك من لدنها . وانينا يحكمه الجلد واصطناع الاحتمال ، وصرخات مكتومة تكاد ان نضلها الاذن كأنها تأتى من مهبوى سحيق بعيد القرار . ثم اسمع نبرة بكاء تخالط هذه الصرخات ، لها غير جرسها وغير رنتها ، رقيقة ، رنانة في غير حدة ، كأنها شدو طائر تفتحت عيناه على شعاع فجر اسفر أو أوشك على اسفار . وقد تأخذك العجب ، وتملكك الدهشة ، ولكنه عجب قصير أجله ، ودهشة

لن يطول بك مداها ما دامت فاطمة قد بدت ثانية لناظريك ، واهنة ،
واشد ضعفا مما رأيتها من قبل ، كسا وجهها الشحوب ومشت في
اوصالها رجفة الاعياء ، وقد احتملت - مدثرا - بستر الكعبة الشريف -
وليدها بين صدرها وكفيها .

تلك ولادة لم تكن قبل طفلها هذا الوليد ولم يحز فخرها بعده
وليد اكرمه بها الله واكرم امه واباه ، فكان تكريما لفرعى هاشم الذى
انحدر منه الطفل عن فاطمة وعن أبى طالب حفيدى الأصل الثابت
الكريم .

واقبل القوم - حين انتبهوا - يستبقون الى السيدة ، يعاونونها :
وياخذون بيدها ، ويملاون الأبصار بطلمة ذاك الذى كان بيت الله
مولده ، وستر الكعبة نوبه ، كأنما أوسع له في الشرف باجتماعه في
كلا المولد والمحتد وهم لو استطاعوا أن يسبقوا زمانهم كما تأخرت
انت لراوه أيضا يجتمع له نفس هذا الشرف حين يقبل عليه الموت
فيلقاه في بيت الله يهم أن يقوم بالصلاة ...

أما فاطمة فقد أحبت أن تحي في وليدها اسم أبيها فدعته بمعناه
وان لم تدعه بلفظه ، وقالت لزوجها وهى تحاوره :
« هو حيدرة » .

وأما أبو طالب فقد كان أكثر توفيقا حين اختار . رأى وليده قد
علا شرفا بمكان مولده كما علا من قبل بأصله الرفيع فقال :
« بل على » .

وبدأت عند هذا حياة الرجل الذى سابر أخطر الأحداث في هذه
الدنيا ، وعاشر أظهر الخلق وسيد النبيين ، وأحتمل نصيبه من عبء
كبير القاه الله على مختاره الأمين ، الذى خصه بوحيه ورسالته
الالهية لهداية العالم .

وعاش على عمره لغيره من المثل ومن الرجال ، فكان في صباه
القريب المفتدى ، وفي شبابه الصديق المقتدى بالنبي الكريم ، وبين
هذا وذاك من أطوار العمر وما جاء في أعقابها من فترات ، التزم
قايات الكمال في الفعّال والخلال ، فلما انطوى بعض أجله ، ومضى
من الدنيا وعن هاديه ، كان المعقب له وقد ذهب المعقب . وأجل من
أخذ عنه فأجاد ، وركب جادته فما حاد .

شِرُوق

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ
يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا
فَتَنُصِّرُوا لَهُمْ وَأَضَلِّ أَعْمَالَهُمْ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَرَهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَخْبَطَ أَعْمَالَهُمْ » .

١

الفتى حائر الفكر ، بين كفيه امسك رأسا يحسب فيه من
الخواطر ما يملأ كل هذه الفجاج لو تركها تنثال على رفعة الرمال
المبسوطة أمام ناظره عن يمين وشمال .

ثم رفع الى السماء بصره . ليته بها يستهدي - هذه الأنجم
الزهر التي يتخذها راكب البید دليلا ... ولكنها بدت خابية .
وحالت الألوان فيها الى مثل الفضة كساها من الترب كساء . فلقد
بدا له نور المشرق كما انفتحت كوة في القبة فوقه واندفع منها
الضياء وئيدا وئيدا نحوه ، تلمع تحت سيله مكة ويفمرها منه غامر
الحياة .

وكان صاحي اللب ، ما انتبه حتى تحولت عينه الى هذا المبنى
المقدس الذي بان له من قريب ، شامخ العمدة ، فسيح الرحبة ، في
أوسطه الحجر الأسود الذي وضعه محمد حيثما وضعه من قبل
جده ابراهيم .

ها هنا كان قديما محراب الله ، فكيف أصبح ليراه محراب
العزى ، أو اللات ، أو ايما أسماء نحلها قومه حجارة لا تنفع ؟ ..
أو لم يصدقه محمد ؟ ألا ان محمدا عنده غير متهم ، شادت بصدقه
العرب جمعاء حتى أصبح « الأمين » عليه علما ، وسرت - كلما سار -
بين القوم همسات اكبار واعجاب ليحسبها الفتى تند عن تاج يزدان
بمفرق ذلك الصادق الحبيب لو جمع أناسه في الزمان ملك مدعم .
ولكن محمدا كان عزوفا ، قام ليله وعاف الرقاد زلفى الى رب جده
باني البيت . وعمل نهاره من أجل صفاره ومن أجل هذا الريب
الذي ضاق به طوق أبي طالب فاحتمله فضله . وانه ليخصف نعله
ويخيط ثوبه بيديه لا يغريه بالدنيا عرض أو مأرب . وانه ليكدح
كدح العامة ولو كان له مندوحة من مال خديجة ، وانه لتمر به
الأيام لا يتزود فيها بتوى تمرات جافة تقيمه وتعينه على القيام
بأمر ربه ... نأى بنفسه عن ترف القوم وخمرهم ولهوهم الى غار

في الجبل اعواما ، صادفا بها عن جهالات قریش وأربابها المقدودة من حجارة سماء الى رب واحد ما له من شريك .

ما كانت دعوة محمد بغريبة عن قلب الفتى ولا بالتى يعاف جرسها سمعه . فانه ، وان يك لم يتجاوز حلمه الا قليلا . قد كان يشمر في قراراته انه غريب في معبد الاصنام ! .. انه لم يول وجهه شطرها مرة ، ولم يتولها بالتقدس كما فعل دووه ، ولم يطف بساحتها ظوفة او الم بهيكلها من قريب او من بعيد . ولم يدرك ان هذا الهاما من الله ام هو جرى في اتباعه مجرى ابن عمه مريه . . . ولعل الثانية ارجح . لانه يذكر ما يأخذ به نفسه بين الفينة والفينة من تقليد محمد حتى لا يصبح من فرط تعلقه به واتخاذة قدوة يصوره اصدق التصوير في الكثير من الفعال والحركات . . . يهش ويفرج عن ثناياه ولا يلقي الناس عبوس - تماما كما تضيء البسمات وجه ابن عمه - ويسير على نمط سيره فيتكفا في مشييته وهو يسرع كأنما لا يحده في انصبابه حد . . . فلعله اذن ما نأى عن اصنام القوم الا اقتداء منه بهذا الكافل العظيم .

وعاودته في مكانه ذكرى الليلة التى أصبح عليها صباحها الان بما ملك الا ان يبسم متعجبا من شأن نفسه . كيف اباح لفكره ان يرجىء تلبيته دعوة الحق التى اليها دعاه النبي بحجة انه سيشار اباه ؟ .. الا لقد اخطأه التوفيق وضل نهاه وهو الحرى بان يسبق بالاستجابة تلك الدعوة الى عبادة رب ابراهيم .

... كان قد دخل الحجرة كما اعتاد ان يفعل ليانس بجلسة الى ابن عمه بين خديجة الرؤوم وفاطمة الصغيرة ، فما راعه وهو يدفع الباب الا ان رآهما يركمان ويسجدان والطفلة تتابعهما بالمحاكاة . وتوسم فيما يأتیان خشوعا ، وتوسم عملا غير مألوف ، فوقف في مكانه لا يبرح . ومضت الى سمعه قراءة ساحرة ، يرتلها محمد بصوت عذب ، ما سمع مثل طلاوتها ، ولا رنتها ، ولا بلاغتها من قبل . واخذته من الكلمات نشوة لفت مشاعره فلم ينتبه الا وكف ابن عمه على كتفه تلمسه لمسا رقيقا وتعيده الى نفسه . وعاد هو من عجة الى الاستفسار يستوضح محمدا ويستزيده مما سمعه . وانست روحه للترتيل . وامتلا قلبه بما فاض به الى الحكيم من روعة

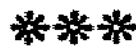
معنى وحسن بيان ، وهو بعد هذا ينتقل مع الآيات الى آفاق جديدة فيها هداية ونور . الا قد صدق محمد حقا . وما كانت هذه الآيات بالتى يستطيعها بشر بل هى من كلام اله .

وابتسم ثانية استحياء اذ تذكر هذا وتذكر ما قاله حين دعاه محمد الى متابعته ونبد عبادة الاحجار الصم الى عبادة واحد قهار ، يسمع ويبصر ولا تدركه الابصار . . . ابتسم استحياء لانه ذكر جوابه وما كان أعجبه من جواب .

قال كما اعتادت ان تقول السنة امثاله من الصغار :

« امهلنى أشاور ابا طالب » .

فابتسم له ابن عمه بسمة حانية كلها عطف ، وربت كتفه راضيا ، ثم تركه عساه ان ينطلق الى أبيه فيتزود منه بالراى قبل ان يفصل في مصير دينه بقرار .



ولكنه لم يغادر البيت وان ترك الحجرة ، ولم يشاور ابا طالب ، وانما قضى ليله كالمحموم ، تحت السماء يقلب الامر في عقله ، اما وقد استبان له الرشد الآن كما بان ضوء الفجر الوليد في أطراف الأفق الادكن ، فان به لشوقا ان يقتحم على محمد حجرته فيطلب منه ان يقبله في الدين الجديد عابدا جديدا .

ونهض على وسار يتكفأ في مشيته على نحو يقارب مشية النبى . وأشرف على الحجرة فمنعه حياؤه ان يدخل . ولم يجد بدا ان يصرف عن نفسه الحاح الشوق الى حين ؛ فبرح الدار وضرب هنيهة امامها ثم انشئ الى الدرب فاذا صحبة من فتية قریش تبرز في غبشة الصبح يرونه فيهتف احدهم به :

« حيدرة ! » .

« فلا يطيب له سماع الاسم الذى خلعه عن نفسه من قديم ، ولا يطيب له ايضا ان يعتكر خواطره الصافية حديث . ولكنه لا يستطيع ان يجد منفلتا من الصبية وقد قاربوه وسأله منهم سائل :

« بكرت يا ابن أبى طالب وانه للسعى الى البيت ؟ » .
فيوجز - متبرما - الجواب :
« ما اليه ! » .

« فهل معنا ، ما لم يحبسك حابس ، فانا سنطوف به » .
« لك شأنك دونى » .

وكان صاحبه يعلم انه لن يفور منه الا بهذا الخطاب . فضحك معاتبا وقال :

« عجباً لك يا ابن أبى طالب ! تضعك أمك في حرم الأصنام » .
فأسرع يقطع حديثه ويقول :

« في حرم أبى ابراهيم ، أما صواحبكم تلك فأكرم عن مراها وجهى ! » .

وود في تلك اللحظة لو استطاع ان يفتح عيون هؤلاء العمى لبروا النور الذى أخذت تباشيره تبرز من أفق محمد ، ويحدثهم بهذا الدين الجديد الذى علم به ليلة الأمس عسى ان يتبعوا الهدى والصواب . ولكنه أمسك لانه ليس بعد في حل من أن يفشى على ابن عمه أمره .

وانثنى عن الطريق مخلفا أصحابه لشأنهم ليعود الى الدار . فاذا محمد بهم أن يبرح . واستقبله النبى الكريم هاشا ، يد نحوه ذراعيه ، وفي عينيه من ضياء حنانه فيض ، وتوقف الفتى أمامه برهة اخذه فيها الحسر حتى لا يعرف بأى الكلمات يبدأ الحديث . وترفق به محمد لا يسأل ولا يتعجل : بل يدعه حتى يجمع شتات ذهنه .

ويقول الفتى وقد هدا جاشه :

« يا ابن عمى ، انى سمعت واجبت . وانى اشهد بشهادة الاسلام أن لا اله الا الله ، وانك لرسوله » .

فأنما كان بهذه الكلمات سحر . ما ان جاوزت شفتيه حتى احس بذاته خفيفة رقيقة لها لطف النسمة . تكاد تعلو به الى الطباق وتسرى محلقة في الافاق .

وابتسم له محمد ، ومسح بكفه على راسه وعلى صدره . وخشى على في هذه الآونة أن يطوف بظن نبيه انما كان اسلامه بمشورة أبيه فسارع يضيف :

« يا رسول الله ما كنت لأسمع لآبى طالب او اشاوره في ديني ،

فقد خلقني الله ولم يشوره في خلقى ! .. اتى هديت يا رسول الله
بك الى ربى فلأعبدنه ابتغاء وجهه ... »

وانبسطت للفتى رقعة الدين الجديد وما كان ليقتصر عنها باعه
وهذا باسطها دائما امامه . ورويت بفضائل الاسلام روحه من نبع
محمد . فما تنفس صبح الا تلمس وجهة النبی ، وما جن ليل الا
دلج خلفه كظله ، وهو في هذا لا يملك الا أن يكون مستخفيا بدينه عن
قومه على سنن صاحبه . ما كره أن يعلم عنه انضواؤه تحت راية
الاسلام وانما خشي أن يذيع عنه ما لم يرد محمد له بعد أن يذيع ...
وكنتم في نفسه أمره وهى جياشة به ، حنانة الى اشهاره عسى أن
يهدى الله به من يعرفه الى مثل ما هداه . ولكنه كان دائما يمسك
عن الحديث كلما أراد اخوانه أن يستخبروه بعض ما شاع من الشائعات
حول محمد ودينه الجديد . واكتفى سنوات ثلاثا طويلات الأيام
والليالى بالألا يكشف عن سره الا لحراء حين يتبع اليه صاحبه في
الأمسيات مع من سار كنهجه من أوائل المسلمين حين يقضون حق
رهم بمنأى عن عيون المنربصين ... حتى أبو طالب نفسه كان بعيدا
ايضا عن ذات نفسه بعد قومه ، لا يعلم عنه الا ما تتلقفه الأسماع وتردده
الشفاه حدسا .

ولكن السر الذى حرص طويلا على كتمانہ آن له أخيرا أن يذيع .
ولم يتوجس على خيفة من هذا بل انشملته البفرحة وطابت به نفسه .
انه كان دائما فخورا بأمه التى تفتح قلبها للدين الجديد تفتح الزهرة
لندى الصباح . فخورا بسبقها بنات جنسها الا واحدة ، الى تلبية
نداء الله ، فضلا عن سبقها نساء بيتها ، حتى صارت الأولى اسلاما في
بيت هاشم . ولكم أحب الفنى هذه السيدة الفضلى ! ... احبها
حين : حب الابن للأم ، ثم حبا بحبها محمدا الذى لم يحجب هو مثله
في الوجود أحدا . ولقد انشرح صدره لاسلامها لانه أمل أن تصيب اباه
منها عدوى الايمان ، وتلبث تلك الفترة من الأعوام لا يفتر أمله ،
ويداعب خياله حلمه الجميل . فلما كر ذات ليلة قافلا من حراء
وصادف اباه على مقربة من الغار ، سره أن يقبل عليه الشيخ مستفسرا
عن سبب وجوده بهذه الناحية التى لا يطرقها الا القليل . . سره هذا

لأنه كان يوقن أن الحديث سيتمخض في النهاية عن تحقيق رجائه المنشود .

قال له أبو طالب :

« يا بني أين كنت وليس لك الشعب بملمب ؟ »
اجاب :

« به يا أبت . »

« وفيم ؟ » .

« أقضى به حق ربي . »

فهر الشيخ متمهلا رأسه وهو بقول :

« أصبت ، لو أصبت ! » .

فرد عليه بحماس :

« نبعته في صواب ، وما عرف الناس عنه إلا حقا » .

« أمحمدا عنيت ؟ » .

كان الرجل قد سرى اليه همس الناس .

وقال على :

« هو يا أبت ، وأنه لرسول الله » .

« فحدثني بما يمشى به عنه الناس . ما هذا الدين الذي اسمع أنه

يدين به ؟ »

« دين الله ، ودين ملائكته ، ودين رسله . دين ابينا الخليل

ابراهيم » .

« وما لابن أخى به ؟ » .

« بعثه الله به رسولا الى الخلق كافة » .

فتفرس الشيخ برهة في عيني ولده ، ثم قال

« يا بني أراك اتبعته » .

« آمنت بالله ، وآمنت برسوله ، وصدقت بما جاء به » .

وطاطا أبو طالب رأسه برهة يفكر وقد عجب لهذا الحماس الذى

يراه قد اشتعل فتاه . وبدأ حلم على يتجمع في خياله ، ثم يتحرك ،

ثم يكاد أن يبرز حقيقة سافرة وهو يلوح السطور التى خطها التفكير

على جبين أبيه . يا ترى هل آن للشيخ أن يصيب هداه ؟

وأسرع في لهفة يستحث الرجل ويدعوه :

« اى ايت !.. انه والله للحق وانت احق من استمع اليه واعان عليه . اى ايت فهل اليه ! » .

ولكن ابا طالب بدا كمن لم يستمع الى ندائه وان قال :
« اى بنى !.. اما انه لم يدعك الا لخير ، فالزمه .. » .
ومضى عنه .

٢

لم يطل بالفتى بعد هذا انتظار ، فقد أوسك ان يتسهر دين الله بين الناس فيعرف من حدس مدى الصدق في حدسه ثم يعلم القوم ان كان محمد قد صبا - كما ظنوا - عن دين آبائه عنتا واعراضا ، ام اتاهم حقا من لدن ربه بالهدى والنور .

وامتلأت الدار الصغيرة حركة . وامتلات نفوس اصحابها القلائل بشتى خلجات : فيها ثقة ، وفيها قلق ، وفيها اشفاق . لن يلبث الاقربون من الآل ان تضمهم وليمة محمد ثم يستمعوا اى حديثه عن رسالة الله . اما خديجة فقد ظلت هادئة النفس يملأ قلبها اليقين بان الله ناصر صاحبها . لم ترتب في هذا اقل ريب ولم بعثورها شك ، بل بقيت لها نفس الثقة التى شعرت بها ليلة عاد اليها زوجها من حراء خائفا فزعا اول ما تنزل عليه وحى السماء . واما محمد فلم يستطع ان ينزع عنه خشيته وهؤلاء أدنى العشيرة ، ان جاءوا فسمعوا ثم اعرضوا عنه لا يلبون ، فقد مالت اليهم دونه قلوب العرب فكذب واشتد عليه بعدها الامر .. واما على فقد لعب به القلق آونة ولعب به الرجاء آونات . وكان ذهنه لا يقع الا على ابيه ، ولا تلتئم خواطره الا عنده مذ راى فيه ذلك التسامح الفذ يوم أقره على الدين الجديد ولم يلوه عنه . كان هذا التسامح من الشيخ معقد رجاء الفنى ومناط آماله . لان ابا طالب راس آله وصاحب الكلمة فيهم ، وحرى بالقوم ، ان راوه استمع الى محمد فأحسن الاستماع ثم جنح الى اتباعه ، ان يستجيبوا هم ايضا الى نداء الاسلام .

وامتلأت الدار ببنى عبد المطلب وبنى هاشم وغيرهم من رجالات

الأسرة وذوى الكلمة فيها . فلما اكتمل الجمع ، أشار النبی الى علی وقال :

« هلم طعامك ! » .

فسارع يصدع بالأمر ، وتقدم الى الضيوف بالطعام فوضعه امامهم : شريدة ان كان الرجل لياكل مثلها وحده فلا تكفيه : وتهامس الحاضرون ، وتبادلوا بينهم نظرات ساخرة وان لم يسمعهم الا ان يمدوا اصابعهم الى الشريدة فيصيبوا منها . واصابوا ، ثم اصابوا منها ، ولا تكاد ان تنقص في صفحتها . واخذهم العجب ، وخفت همسهم وان دارت عيونهم دهشة واحسوا بطونهم لا تطلب مزيدا فامتلاوا حيرة بعد ان امتلاوا شبعاً .

وسرى صوت محمد ثانية يقول للفتى :

« اسقهم » .

فطاف عليهم باناء هو رى أحدهم شربوا منه جميعاً ولم يوف على نقصان .

هنا كانت الحيرة قد سدت مسالك التفكير عند أبى لهب فتتمم من بين أسنانه موجدة وحقدا :

« سحرکم والله محمد » .

فلم يلق اليه النبی بالا . انه ليعلم مأتى حقه على كل حال ، لان النساء وحى الأزواج ، وما كان أبو لهب ليتخذ غير موقفه هذا وزوجه أموية هي أم جميل ابنة حرب بن أمية ، وما كان لتبقى له هاشميته وقد نام مع سليمة الاصفان في فراش !

اغضى محمد عن وخز عمه ، وقام عن مكانه ليحدث ضيوفه عن رسالة ربه . وود على في هذه اللحظة المخرجة لو كان له على لسان أبيه سلطان . ولكنه جلس صامتا - كالأخرين - يسمع ونفسه فريسة رجائه وقلقه . وتكلم النبی ، فلم تنفذ كلماته من اذن الصبي ، بل اتخلت طريقها الى قلبه . وانه ليحس بروحه قد فنيت في ابن عمه فناء . ويحس مشاعره قد خرجت عن نطاق عزمة وقدرته ولم يعد لها كيان خاص . ويحس ذاته جميعاً معلقة بما يقول الرسول او أسلس قياداً . كأنها بعض كلمه الذي تنطق به شفتاه . . كان سحراً ما قال محمد او هو اقوى اثراً في النفوس من السحر . وان أولئك الذين

ضمهم المجلس ذلك اليوم ليشعرون كمثل شعوره . ولعلمون رنة الصدق في الحديث وان ابت يد الضلالة الا أن تشتد على قلوبهم وتضرب اكنتها . وانهم ليرون انفسهم مسوقة وحديث النبي خلفها كالسيل . يجرفها تياره القهار . فينأى بها رويدا رويدا الى دنى جديدة فياضة بالسمو والطهر ، بعيدة كل البعد عما اعتادوا من أفكار دينهم ودنياهم ، وان بقيت أغلال العادة تربطهم بماضيهم .

ولكن للشقاوة سطوتها أيضا ، ولها سلطاتها ، ولها شيطانها الغلاب على مراض القلوب . ولقد شاء ابليس ان يتخذ له من بين أولئك الجلوس عونا ، فأثر أن يكون حليفه اموى القلب ! . أجل الى الشيطان بنزغه عبد العزى بن عبد المطلب . ابا لهب . فاذا الرجل تركبه العزة بالاثم فينتفخ نحره ، ويتلون وجهه الأبيض الوانا رسمها غضب الحنق والحقد والضغينة . ويستبد به غضبه حتى يكاد ان ينبثق من وجهه الدم . ويلعب في عينيه انسان مجنون فلا يترث . ولا ينتظر ان يتم ابن أخيه حديثه الذى دعاهم له ، بل ينتفض واقفا والكلمات تندفع كالرغوة من فيه :

« أتأتينا يا بن عبد الله بقالة من لدنك - ان هى الا رثى - تزعم ان ربك ادلاها اليك من السماء ثم تحسب انا مصدقوك ! » .

فلا يغضب محمد ، ولا يصيبه من جراء هذا الهجوم حسر ، بل يقول بمألوف حلمه في صوت هادى رقيق :

« ما أعلم انسانا في العرب أتى قومه بأفضل مما جئتم به : . » .

فيصيح ثانية ذاك الصاحب الزارى :

« جئنا باله واحد ولنا دونه ما يكثرونه ، آلهة شتى خير منه ! » .

« قد جئتم بخير الدنيا والآخرة » .

« فهذا لك ندعه يا محمد » .

ويحسب أن سخريته تلك قد أغنت عنه فينطلق ضاحكا يقهقه . ولكنها كانت على أى حال علامة الفصل إذ أغرت الاكثرين بالابتسام وتركتمهم لا ينصتون . وسرت المهمة في الحضور ، وسرى الهمس فاذا بهم بين مكذب وهازى . . حتى أولئك الذين تابعوا محمدا على دينه فيما أقبل من الايام كالعباس وحزمة ، فاتهم ان يتبينوا - في تلك اللحظة - حد الرشد وحد الغى . ثم علا الهمس فاستطار كلاما ، سافرا ساخرا لاذع الوقع . وظل ابو طالب في مكانه صامتا لا ينبس .

وهو بقلب ناظريه كأنما لم يع بعد ما يدور . أو كأنما قد اشفق أن يرجح إحدى الكفتين على أختها برأى يسوقه خلال هذا النضال الروحي المرير . أو كان أجيالا من ضلال الغابرين وقفت دونه ودون آية الحق كالسد الحائل ..

وتململ على في مكانه . واخذ الغضب يملأ قلبه وهو يرى أباه في موقفه هذا ، وكاد - أن استطاع - أن يمقت الشيخ ويملاً نفسه بالحق عليه . أن أبا طالب وحده كان في مقدوره أن ينصر الرسول أو يشد أزره أو يثبت قدميه في أوج محنة بكلمة تصديق واحدة يلقوها أمام القوم . ولم يكن هذا بالعسير على الرجل . ولا بالذي يُبَاه ضميره إذ كان أعلم الناس بمحمد صبيبا ورجلا . لم يعرف عنه الكذب مرة وعرف له الصدق خلة هي إحدى كرائم الخصال فيه ، ومن لا يكذب على الناس لا يكذب على الله . وكانت لهذا اليتيم سمات في حدائته من النبل والقداسة عرفها أبو طالب وجعلته والكثيرين من ذوى العلم في الناس يتوقعون لابن عبد الله بين العرب مكانة لن يبلغ شأوها في أقوامهم بالغ ، ولكن الشيخ ، مع هذا ، تجلج بالصمت وجلس ينظر . وإن هي إلا شقاوة شاءها له طالع سوء . به على الشر كبا ، وعن الخير نبا .

وصاح زوج أم جميل ابنة حرب ثانية ، يقطع ما يلقيه محمد على عشيرته صدوعا بأمر ربه :

« يا محمد إن لحدثك هذا لسحرا ، وإن له لموقعا في الأفهام وأنرا على الأحلام . ولكنه - والله - ما يغلبنا على ديننا سحر »
ونرك بمقعده وهو يلتفت الى الجمع ويقول :

« قد سمعتم أيها الناس فقوموا لا يفتنكم الغلام ! » .

فلما رأى النبي أنهم كادوا يبارحونه ولما تصب رسالته من نفوسهم مكانا ، قام فأقبل عليهم ، بإسقاط نحوهم ذراعيه ، هيب بهم ، ويستحثهم ويتوسل اليهم أن ينصروه فينصروا الله بنصره ، وأن يثبتوا أقدامه بين الناس ، وأن يظاهروا دعوته حتى يذيع في الآفاق دين الهدى والنور :

« قد أمرني ربي أن أدعوكم اليه .. فأياكم يؤازرنى على هذا الأمر ، وإن يكون أخى ووصيى ، وخليفتى فيكم ؟ » .
فلم يلب الدعوة منهم أحد ، وانتقل عنه أبو لهب جانبا وهو يسخر :

« تزعم ان قد بعثك الله وتطلب منا النصر ؟ . ألا كف عنا دينك وربك فانا لا نجيبك ! » .

هنا لم يعد في طاقة على حبس لسانه وراء شفتيه وان كان احدث الحاضرين سنا وأحمشهم ساقا ، فقام مسرعا صوب الرسول يعد اليه يديه ويهتف به .

« لا يحزنك والله اعانت القوم فعليهم ضلالتهم . واني انا يا رسول الله عونك .. انا حرب على من حاربت ا » .

والتفت في هذه الآنة الى ابي طالب من قال :

« يا ابا طالب الا ترى ابنك ؟ » .

فأجابه الرجل :

« دعوه . فقد عرفت انه لن يآلو اين عمه خيرا » .

ولسكنهم رغم هذا راوا في حماس الفتى مادة جديدة للتندر

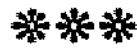
والاستهزاء فقال احدهم ورجله على الباب :

« كفاك الغلام ، نطب به يا محمد ! » .

٣

في الأعوام القلائل التالية بمكة ، لم يجد في حياة على الا ما جد في حياة الدعوة الاسلامية حتى ليتمكن أن يؤرخ لاحداهما بتاريخ الأخرى فلا تكاد أن تختلف فيهما الأحداث . شهدا صبيبا بهم أن يخلع عذار صباه فكان أول معتنقيها من الناس بعد خديجة . لم يتأخر عن سبقها الا بقدر ما ينتقل سر الرجل بعد امراته الى اقرب اهله ومحبيه . وصحبها فتى بادی العنفوان وقد أوشك أن يصير لها كيان معلوم بين الناس لما اذاع صاحبها امره . ثم سايرها شابا حديد البأس فذاق من عائبها كأس عنت دارت على أوائل المسلمين فجرعوها وان اختلفت انصبتهم من صابها المرير . ولقد كان له في أبيه رداء يحد ايداء قريش ويمسك اكفهم عنه وعن محمد وان لم يقف بهم دون صحبه وازع من اناس ولا من ضمير .. فما أسرع ما تبدلت مكة وانقلبت اتونا قاسي الالهيـب على أولئك الذين كرسوا حياتهم لنشر الدين وحمل مشاعل

الهدى يستثير بها في احشاء الجهالة كل عاقل بصير . وتوالت الايام عليهم
تباعا لا ينقضى منها شديد حتى يخلفه أشد بالغ البأس عصيب . ولكن
الشدة لم تكن شرا بقدر ما كانت اختبارا للنفوس يمتحن الصبر وقوة
العزم واليقين . وانها لقياس الاحتمال وبوتقة الرجال انصهر فيها
اصحاب النبی ، وكانوا من قبل كقطع الحديد المتناثرة ، فاذا بهم
يصيرون ذوبا ائتلفت فيهم وتماسكت حتى أصبح لها كيان واحد .



وقدمت قريش رءوسها وأعيان بيوتها حشدا مجيشة تناجز رسالة
السماء لم يتقدم منهم واحد بحجة بالغة ولا واهية تؤيد بقاءه على
جاهليته وان تقدموا جميعا بسلاح العاجز المغلوب في صراع العقول
والقلوب ... تقدموا بالبذاءة والأكف والسيوف . يصارعون رجالا
لا سلاح لهم سوى كلمة الله ويركبونهم بكل ايداء وتكال ، وغدت مكة
مسرحة للتعذيب . ضحاياها تلك الحفنة التي تألفت منها أولى كتائب
الايمان . ولقد شهد على من هذا التعذيب مشاهد قف لها شعره
واختلج جلده وسالت عيناه شئونا . وانه ليرى ببطحاء مكة حبشيا القى
على رمضائها ساعة الظهيرة ويدعوه سيده امية بن خلف الى الشرك
وقد ركز على صدره صخرة عظيمة يكاد ثقلها أن يذهب بالعبد في
الأرض ..

يقول السيد المغرور العاتى :

« لا والله يا بلال ... لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ،
وتعبد اللات والعزى كما نعبد » .

فيجاهد المعذب المكدود ليحبيب على هذه الدعوة الخاسرة بكلمة
واحدة هي رمز التوحيد :

« أحد .. أحد ! » .

فيطير هذا الاصرار صواب سيده ، ويدفعه الى الافتنان في التنكيل
بعبده . ويشهد ذات يوم هذا الثبات ورقة بن نوفل ، فتأخذه روعة
الايمان وقوته في قلب بلال فيقبل على ابن خلف يقول :

« احلف بالله لئن قتلتموه على هذا لاتخذنه حنانا » .

يمر على ذات يوم الى جوار رسول الله فاذا عمار بن ياسر بين

أبويه قد اتقد عليهم لفتح الهاجرة واجتمع بنو مخزوم يلهبون ظهورهم بالسياط ولا يكفون عنهم أو يفتنوا عن دين الله . ويلمح عمار النبي فتضيء عيناه ويرفع بصره الى محمد ويقول :
« يا رسول الله ! » .

فيسارع النبي اليه يشدد عزمه وهو لا يملك له غير الرثاء والحنان :
« صبرا أبا اليقظان » .

ولكن الرجل المتوسل يملأ بالحسرة قلبه الا يجد مخلصا لأمه سمية من جلاديهها ، وقد نسي أمام محنتها ما يصيبه من عذاب ، فيعود الى المناجاة :

« يا رسول الله بلغ العذاب من أمي كل مبلغ . . . » .

وقد بلغ بها العذاب حقا أوجه وهي مستمسكة بدينها مستهينة بما تلقى في سبيل الله ، وليس لمحمد في حالها تلك سبيل سوى أن يرفع يديه الى السماء ويجأر الى ربه بالدعاء :

« اللهم لا تعذب أحدا من آل عمار بالنار . . . » .

فتطيب نفوسهم برثاء الرسول لهم وبدعائه ، وينسون النكال المصوب على أجسادهم ما داموا قد افادوا طهر الأرواح ؛ وأن العذاب لشهي ، والأيذاء ليلقى منهم الترحيب ولا تنفرج الشفاه عن كلمة شرك وان أمعن في التنكيل بهم هؤلاء الطفافة ، وان هدد أبو جهل أن يخترم المرأة برمحه أمام الولد وأبيه ، وان أردف التهديد بالتنفيذ فألقاها على الرمال جثة شوهاء فارقتها الحياة . . .

يمر على هؤلاء وبغيرهم كثيرين البسوا أذراع الحديد وحميت تحتهم النيران ، كصهيب وخباب وسواهما من المستضعفين من العبدان والاماء الذين لا ذوا بمحمد ودين الحق الذي جاء به رحمة للناس من لدن ربه . يمر هؤلاء جميعا ويشهد ما يلقون من ضيق على أيدي رجال من قريش لم يرعوا فيهم ضعفا ولم يعرفوا رحمة ، فيعصر عينيه أسي ، وتفيض نفسه هما ، ويمتلئ قلبه كمدًا لأن محمدا يدع قريشا سادرة في بغيتها ولا يوفيهما عنها صاعا بصاع ؛ ويراود الفتى نفسه على الصبر ، ويملكها أن يخرج بها الغضب عما رسم النبي لدعوته من انتهاج انسلم دون العدوان ، ثم يسير كاظما غيظه وهو يعلم أن الزمان لا بد سيأتيه بفرجة ينفذ بها الى الاقتصاص .

ثم لم يعد ثمة رداء لمحمد يقية هو الآخر مما لقي على يدي قريش صحبه ...

يموت أبو طالب الرجل الذي وقف دائما في صف ابن أخيه يحميه من بقى قومه ويدفع عاديهم عنه .

ويقبل على يحمل النبأ . انه لم ينس مطلقا موقف أبيه ذلك اليوم حين كان يوسعه أن ينصر محمدا بلسانه فمنعه اخلاصه العميق لجاهليته العمياء أن يلفظ كلمة واحدة قد كانت كفيلة بتمهيد الطريق الشائكة تحت أقدام الرسول . لم ينس على أن أباه يخلف عن الايمان بمحمد وهو أولى الناس بالمسارعة الى هذا الايمان . ولئن كان أبو طالب قد زاد الناس عن ابن أخيه . فلغير وجه الله ولغير دينه ، وانما لوشائج القربى وصلة الدم .

يقبل على وفي خاطره كل هذا فيلقى رسول الله ويقضى بالنبا اليه بكلمات قصار ، صريحة ، لا مواربة فيها ولا مداجاة وان آذى بها أباه : « يا رسول الله ، ان عمك الشيخ الضال قدمات » .

وكذلك وسع قريشا أن تسفر عن احقادها وضغائنها بعد أن خلا طريق الايذاء من الصخرة الكأداء ، وأبيح لهم بعد موت الشيخ ما لم يكن يباح ، فانطلقوا يصوبون من أعناتهم وطفيانهم على محمد جامات وجامات .

ولم يكن هذا لأنهم أسوا من دينه زيفا عن الحق أو ميلا مع الهوى ، ولم يكن لأنهم لمسوا في خلق النبي مغمزا يغريهم به ، ولكن لأن الأهواء لعبت بنفوسهم الضعيفة فمالت بها الى عصبية الجاهلية قبل الغضب لدن الآباء .

كانوا يرون في محمد رجلا يهم أن يحمل اللواء بين قبائل العرب ، زعيما ، نافذ الكلمة مستطير السلطان حري أن تذهب بظهوره ريحهم وتخبو عظمتهم فقاموا يناجزونه قبل أن يستفحل أمره ، ليحفظوا على أنفسهم ما لها من مكانة في الناس ، وليحولوا بين أحد بنى هاشم وبين الاستعلاء عليهم كما استعلى قبله ذووه ...

ذات يوم ذهب الأخنس بن شريق الى أبي سفيان بن حرب يقول :

« يا أبا حنظلة اسمعنى رايك ... » .

« فيم ؟ » .

« في الذي سمعت بالأمس من محمد » .

وكان الرجلان بالأمس قد جلسا مجلسا أنصتا منه لرسول الله وهو يتلو بعض آي الكتاب .

وأجاب أبو سفيان وهو لا يستطيع أن يخفى إعجابه .

« يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف ما يراد

بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . . . »

« وأنا والذي حلفت به كذلك . . . »

ثم يدعه إلى زميل ثالث في الانصات هو الحكم بن هشام ، يسأله :

« وأنت فقل يا أبا الحكم . ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟ » .

فيلوى الرجل شفتيه استياء وموجدة ، ويأبى عليه حقه إلا

أن يقول :

« ماذا سمعت ! . . . تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف :

أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تحاذينا

على الركب وكنا كفرسى زهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من

السماء . . . فمتى ندرك مثل هذه . . . ؟ والله لا نؤمن به أبدا ولا

نصدقه » .

وهكذا كانت نظرة القوم إلى الإسلام كفخرتهم أن تستعلى به

أسرة على الجميع فحق أن يلقي الداعي إليه كل خذلان ! . . . فإذا

قيل شنان قريش بما فيها من بطون وأفخاذ ، وقيل شنان بنى مخزوم

كما بدا من كلمات سيدها أبي جهل الحكم بن هشام ، فكيف استطاع

هذا الشنان لأحد بنى عبد مناف من أحد بنى عبد مناف ؟ . . . ولكن

أبا سفيان استطاعه على أي حال . ودعا إليه الناس وحضهم عليه

ثم البهم عادة مناوئين مع المؤلبين الكثيرين من قريش . . . ذلك لأنه

كان من عبد شمس قبل عبد مناف فغفر لأبي جهل حسده إذ

استجاب له ما في قلبه هو وقلوب آل . وبحسبه أن رأى في سيد

بنى مخزوم ظهيرا يعينه على إرواء حقه القديم بمناجزة سليل هاشم

الكريم .

٤

... ماذا بقى بمكة بعد هذا لعلى ؟.. أولئك الذين احبهم ملء
فؤاده مضوا عنها . طوى القبر اباه فخلف دنياه ونأى بخيره وشره ،
ولئن اخذ الفتى عليه استمساكه بضلالة الأوثان حتى توسد في لحده
فانه لم ينس له مطلقا حق الوالد على ولده . ثم ان الاحداث ليست
ببعيدة عنه وقد طالما رأى في الشيخ درعا واقيا لمحمد يرد عوادي
الناس والزمان عنه ... ومضت خديجة ايضا - تلك السيدة التي
عرفها دائما اما وقد تربى في حجرها قبل أن تحتضن وليدا من
أولادها ؛ ولقد كانت تكتبه بها نكبتان : رزء الريب ، واسى الحبيب
لأجل الحبيب ... أجل فلم يفته أن يلحظ كيف خط الألم في جبين
محمد سطوراه بعد اذ سطا الموت على الزوج الفضلى وغيبها عن
ناظريه . لكانما كانت لرسول الله كل عالمه وما ضمت بين رحابها آفاق
دنياه ، حتى اذا ذهبت فرغ عليه الكون لولا مسكة من الصبر اودعها
الله قلبه الكبير . وكان في هذا افدح الألم لعلى كلمالقى بصره على
حبيبه المختار فطالعت في وجهه أطياف حزن عميق ، ليس يقوى على
اخفائها تجلد واصطبار .

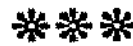
ثم ذهب ايضا جعفر وقد كان له أخا دم وأخا دين ... خرجا
سويا من صلب أبى طالب ، ولكن الاسلام سبق النسب بالحب الى
القلب . وان أولئك الذين اشربت أرواحهم شرع محمد لجديرون
بأن تمتلئ قلوبهم بهذا الاعزاز الذى يحسونه لآخوانهم في الاسلام ولا
تكاد أن تبلغ مبلغه العواطف الناشئة عن صلات الأرحام ... كان
ايمان فاطمة أمه - في البدء - خير عزاء لعلى عن ضلال أبيه ، فلما
ذهب جعفر ، ذات يوم ، الى رسول الله يبأيعه على الاسلام ، وصل
الفرح بعلى حد الفخر ، ولولا أن تلكا بعدهما أخوهما عقيل ولم يسارع
الى الهداية مثلهما لكان سرور ابن أبى طالب قد بلغ الشاؤ . ولكنه
اليوم بمكة يقلب بصره فلا يقع على أبى طالب بعد أن اكتنفه التراب ،
ولا يقع على خديجة وقد تقطعت بها من الحياة الأسباب ، ولا يقع على

جعفر وقد لاذ بالحبيشة فرارا الى جوار الغريب من جور القريب . .
اما عمه العباس ، واما عمه عبد العزى أبو لهب . واما أبو سفيان بن
الحارث بن عبد المطلب فكل أولئك وسواهم من آل بيته لم تكن صلته
بهم الآن لتعدل لحظة واحدة يقيمها بمكة بينهم بعد أن وصل العنت
من بعضهم والتخاذل من البعض الآخر ، الى الحد الذي لم يترك لمحمد
معدى عن الخروج بليل ، مخلفا وراءه بلدته ، هاجرا داره فرارا مما
كاد ان يلحق به من ائتمار اصحاب الضلالة ، ليضرب في قفار الجزيرة
نحو يشرب كى يلوذ فيها بمن صدقوا وآلوا امام ربهم على ان ينصروه .
اجل ، لم يبق لعلى بمكة مقام وقد نزع عنها رسول الله ، وتسلسل
اصحابه واحدا اثر واحد : منهم من سبقه ومنهم من تبعه . وراجع
الفتى نفسه قبل أن يخرج هو الآخر ضاربا في الصحراء ، فلما أيقن أن
قد نفذ ما أوصاه به محمد ، ورد للناس ودائع كانوا قد ائتمنوا عليها
النبي ، قام يسعى على درب يشرب يسبقه اليها شوقه .

ولم يكن له مركب ولا ظهر أبل ، وانما سخر قدميه وأمعن بهما
في الرمال مستخفيا عن الأعين ، ولم يكن له في رحلته صاحب ، ولكنه
تألف خواطره حتى لزمته ، ان أشرق الصبح توارى يتعبد او جن الليل
تفكر وتدبر فيما يقع تحت ناظريه من جلال خلق الله . ولقد ظل في
رحلته تلك ليالى اربع عشرة وحيدا يسبح في بحر لجى من الرمال
تحتنه ومن الأنجم والكواكب فوقه . ولعل هذه الآونة كانت أكثر
الآونات في حياته اثرا وابعدها غورا حتى طبعت نفسه بطابعها مدى
ما عاشه بعدها من سنيه . وان الامام الذى صار هذا الفتى فيما
اقبل من الايام لهر حقا وليد تلك الليالى التى اكتنفتها الوحدة بدءا
ونهاية : منبسط النفس كرقعة السماء ، جلد القلب والجنان ، حديد
العزم كالسنان ، يعزف عن اللهو الى التأمل ، ويصدف عن اللغو
الى التصوف والتبتل . وهل كان لن اخذ نفسه بهذه الرحلة ليشق
مجاهل الصحراء وحده ويعانى من اخطارها كل شدة الا ان يصحب
فكره فيجلو بالتأمل بصيرته ، ويروض صبره فيرهف بالصبر عزيمته ؟

كذلك مضى على يركب البید ، وتنثال خواطره امامه ، تسبقه
وتؤلف له من نفسها قافلة شوقه حاديها . . تماما . ولو استطاع

ان يتخذ حنينه الى محمد ظهرا لقطع به وحدات الزمن جميعها في طرفة عين . ولكنه ، مع ذلك ، نعم بتذكر ما فات من ليلاليه مذ شب على يدى النبی حتى بدأ عنفوانه . . . افكانت آصرة الدين وحدها مثير هذا الحنين ؟ . ما كان على ليستطيع ان يدلى في هذا برأى قاطع لان مدى ما يذكره من هذا الأمر انه لم يشعر مطلقا - مذ ولدته أمه - انه كان على غير دين محمد يوما واحدا من أيام عمره ؛ ولعل هذا لأنه عاشر الرجل من الطفولة فجذبه الى شخصيته الغالبة القاهرة جاذب سرى من الجنان الى الجنان قبل ان تسرى الى سمعه ترتيلة الايمان . وكذلك نسى في رحلته لفح الهجير ولسمع الزمهرير ، ومضى قدما صوب يشرب . . وطبيعى ان متاعب الطريق وما لقيه من صعاب لم تكن لتستطيع ان تلقى من نفسه حرفا من انتباهة وهو الذى لم يلق - قبل رحيله بثلاث ليال - بالا الى عصابة التفوا بداره ، في ايديهم الاسياف القواطع ، يحومون حول فراشه على مبعدة خطوات فلا يعصمه من بطشهم عاصم الا ايمانه .



الا ما اعزلها ليلة بين ليلاليه ، ما اعزلها ليلة تفضل كل ليلاليه ! . ها هو ذا على فراش الرسول ، مسجى بيرده الاخضر حتى لا يستطيع ان يرى اتقدم القوم نحوه خطوات أم ما زال عن اسلحتهم بمنجاة . ولكن اصواتهم كانت تسرى دائما الى سمعه ، هامة كأنها طنين نحل ، تطوف به هممتها مخافتة . وكان صافي الذهن حاضره ، صاحى العين لم يطف بعينه نوم . . . اترى وجد في اليقظة متعة فراض نفسه على السهر ليشهد كيف تستقبل هذه الطغمة فشلها حين تتبين فرار محمد ؟ . . . كان هذا بعض ما جال بذهنه ، واما بقيته فارتقاب طعنة الموت يتلقاها من سنان حائق . لن يسر القوم أن يلعب الفتى لعبته فيفقدهم صيدهم وهم على حافة النصر ، وليس بمستبعد اذن ان يأخذوا الفادى الحاضر بالمفتدى المهاجر .

ولعب على شفتيه طيف بسمة ، نصفها رضا ونصفها سخرية . ان الموت كان غاية المأمول من حياته لأنه الوسيلة الى حياة عقيدته ، وليكونن في مقتله لقريش والعرب قارعة اى قارعة ، لأن دمائه لن

تذهب لقي ، بل سوف تدعو من بين قومه اناسا للشار له انتصارا
لحرمة الدم . ولئن كانت قريش قد اجمعت امرها على قتل محمد ،
فقد تذرعت لجرمها هذا بأن رسول الله شق عصاها وبذر بدعوته
الجديدة في صفوفها الفرقة . اما ابن ابي طالب فلن تنهض لقريش
حجة امام ذويه على قتلها اياه .

ولكن عنقه لم يمسه السيف المأمول !...
كان القوم ، خارج الدار ، قد اخلدوا الى السكينة مطمئنين الى
نجاح المؤامرة التي دبوها لاغتيال محمد . في اكفهم التمتع شفرات
السيوف تحت اشراقة انجم الصحراء ، وانعكس بريقها على وجوه لم
تخف البسمات الساخرة ما انطوى في قلوب أصحابها من احقاد .
وكانوا جميعا كرجل واحد ارهاف حس وحضور ذهن ونفاذ عين .
سبق الغل ابصارهم الى الباب حتى لا تفوتها النملة ان دبت آتية
منه . هذه ليلتهم حقا ، ساعتهم المرتجاة .. اللحظة الحاسمة في
تاريخ الجزيرة التي عبئت بها مدى اجيال عبادة الأصنام : وكانوا هم
مختارى قريش وممثلى أسرها جميعا لاداء رسالة هذه الأصنام !...

اجل قد اجتمعت فيهم كلمة قريش ، ولم تجتمع لها قبل اليوم
كلمة منذ اجيال . هذه الأسرة الوثيقة القربى كانت محلولة العرى
مفككة الأوصال حتى لطالما وقف منها البيت أمام البيت يحتكمون
جميعا الى لسان السيف .. ولكنها الآن التأم منها ما تفرق ، واتحد
فيها الأشراف والأشباب ، واجتمعت على القدر قلوبها وايديها ،
لتمزق محمدا قطعا بقدر ما يمسك اولئك المتربصون به من قطع
السلاح ، فاذا انت لحظتهم ، ضربوا ، وادوا عن آلهم حق الأصنام ،
وزهد دم الرجل في القبائل كلها فلا يطيق ذووه أن يعادوا من أجله
قريشا كافة .

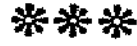
ذلك كان اجماعهم وما حسبه ومن وراءهم احكام تدبير . ولكنه
اجماع مفضوض وتدبير خاسر ... ولن يلبث أن يتبين لهم بعد أعوام
كم كانوا في ليلتهم تلك عمى القلوب والبصائر وان حدث منهم العيون
والنواظر . فلم يكن محمد ليبغى ملكا ، ولا جاها ، ولا مالا . ولم يأتهم

ليسلبهم ما بأيديهم من تراث وانما ليمنحهم من لدن ربه تراثا تلتئم به اقطار الأرض كلها كعقد حول اجيادهم ، ثم يجتمع بهم مالم يحلموا به من ملك وجاه ومال . ولكن الضغن آفة الحكم . ولو كانوا قد استطاعوا أن يتجردوا من اضعفانهم لحظة طوقوا داره لما اشرعوا في ايديهم رمحا الا من اجله وفي سبيل دعوته ، ولاجتمعا حوله ولم يجتمعوا عليه . ولذكر الكثيرون منهم أن هذا الرجل ، الذي لموا شعئهم لناهضته والقضاء عليه ، هو الشاب الذي جعلهم ذات يوم سالف يغمدون اسياهم ويبقون - بفضل رأيه - على جمعهم أن يتمزق ويذهب بددا . ولعل فيهم الآن من يعرف لمحمد هذا الفضل الماثور ويعرف قصته . ورواها لغيره من الناس بعد أن رواها له غيره أو شهد فصولها بنفسه . . . هذا حدث ليس تنساه الأذهان وما كان اختلاف الزمان بالذي ينسيه . وما من واحد في العرب الا يذكر كيف اختلفت قبائل مكة ، حين أعادت بناء الكعبة ، على أيها يحوز شرف وضع الحجر الأسود في مكانه حيث وضعه من قبل ابراهيم الخليل . ولقد بلغ اذ ذاك الخلاف اشده حتى أدنى القبائل من مهوى الحرب ، ولكن شابا واحدا حسم الأمر ، طلع عليهم في هذه الآونة العصبية محياه الاصبح فطرد امامه شيطان الشر واستطاع بكلمة واحدة نطقها وهو بعد في أولى مراحل الشباب أن يطفىء ما كادت أن تسعره حماقة الشيوخ . نشر امامهم ثوبه ووضع الحجر عليه ودعا برؤوس العشائر المختلفين أن يأخذ كل من الثوب بطرف ويرفعوه الى مستوى الكعبة ، فلما فعلوا وسد الحجر بيده موضعه فولى الخلاف وأغمدوا السيوف .

ولكنهم اليوم عمى القلوب والبصائر وان حدثت منهم العيون والنواظر ، بل انهم ما لبثوا أن فقدوا أيضا حدة البصر وحضور الذهن حين اخترق محمد جمعهم ومر بالنطاق الذي ضربوه حول الدار . وكان على في مرقدده ، واجف القلب اشفاقا على الرسول ، يرى بلحظ الخيال دون رأى اللحظة ، اليه يسرى ترتيل محمد ، اذ يسير خلفا المكان ، خافت الرنين رافع اليقين : « وجعلنا من بين ايديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون » .

وحقت كلمة الله فلم يره منهم راء ولم يسمع خطوه سميع . واطمان قلب على وسكنت نفسه حين تلاشى رويدا رويدا جرس الآيات وراح في السكون . ثم أغرقت البسمة شفقيه ، ناطقة بفرحة قلبه لنجاة محمد ونفاذه من بين عدوه كسريان النسمة ، ترعاه عين الله وتظله رعايته ،

وتحولة يد عنايته الالهية وهى توجه خطوه خارج مكة ، صوب الشمال ، الى يثرب . . ارض النصر !



تلك كانت أولى لحظات الفتى بالخلود ، شعر سعتها بالسعادة كما لم يشعر بمثلها مطلقا قلب انسان . ولم يكن هذا لنجاة محمد فحسب ، لأنها كانت في قلب على راسخة رسوخ اليقين وان شق عليه ان يرد المامة من جزع طافت به وهو يرهف سمعه لخطو النبى اذ يسير مجتازا باب الدار وحلقة الثوار . ولم يكن من أجل انتفال الدعوة الاسلامية من بلدة شائثة جاحدة الى ارض طيبة صالحة للحياة والنماء فهو وطيد الايمان بالمستقبل المسطور لدين الله في لوحة القضاء . . . لا لهذا أو ذاك غمر الفتى من سعادته ورضاه ما ملأ أجواء دنياه . ولكن لأنه رقد يرتقب ان يمس عنقه سيف تحركه يد حائق من القوم ويجهز عليه به ، لأن موته العاجل ها هنا فيه نصرة لدينه وعزة لنبيه وخدينه . لقد استخلص الفتى هذا بعد أن فكر وقدر وما كان ذوو قرباه من قريش ليغفروا لقاتليه قطرة دم تراق منه ، بل سيجتمعون على الثأر له : قاصيهم ودانيهم ، حاضريهم وغائبهم ؛ ولن يتخلف منهم عن تلبية نداء الدم عباد اصنام واتباع اسلام .

كذلك فكر على وقدر فأصاب . ولم يكن مبالغا ، بل كان يستخلص النتائج بقياس حدثه على غيره من أحداث . فلقد تطلع بذاكرته الى يوم من الماضى قريب ، وقع فيه مثل ما رجا ان يقع له وان كانت المشابهة بين الواقعتين في أضيق نطاق . . . كان ذلك حين أدلهم الخطب على النبى وصحبه واخذت قريش لا ترعى حرمة فتركب محمدا بالعت آونة وبالايداء آونات . في ذات امسية من ذلك العهد وقد مضى النهار الا اقله ، ومالت الشمس الى مرقدها في المغرب ، وجلس العلية كدأبهم يسمرون عند الكعبة ، بدا للقوم حمزة بن عبد المطلب ، فارعا مهيبا ، في خطوه اعتداد يكاد ان يجنح به الى حد الفخر ، قد زين قلنسوته بريشات تماوجت مع انسام الغروب ، وتمنطق بقوسه ، وتدلّت من كتفه جعبة السهام لم يتكلم ، ولم يلق الى الجالسين بسلام . ولم يطف بالكعبة كما اعتاد كلما عاد من رحلة صيد ، بل أرسلها نظرة عجلى

خلال القوم ، ثم ارتد . وأوجسوا اذ رأوه ، فلأمر ما مشيت غصبة الليث في عينيه وفارقه المعهود من بشره ... اما هو فقد تركهم يوجسون ويحدسون ما شاءوا ، واندفع كاندفاع السيل الى دار أبى جهل بعد أن افتقده في السامر فلم يقع عليه .

وضرب الباب فبرز اليه الرجل يتلقاه بالترحاب .

« أبو عمارة ؟ مرحبا وادخل ... »

فلم يهش ، ولم يدخل ، بل بادره يقول :

« تعدو على ابن أخى فتلطمه وانا بين الناس حى ! »

فأجفل العادى أمام غصبة خصمه وقال يتلمس المَعذرة بأسلوب

لين ناعم :

« ما كنت لأفعل يا أبا عمارة ، ولكنه عاب آلهتنا ، وسبها ... »

« وأنا أعيبها ، وأسبك ، وأرد عليك لطمتك ! » .

وسبقت يده الكلمات فاذا حديدة قوسه ترتطم بجبهة أبى جهل في ضربة قاسية شجتها شجرة منكرة يتفجر منها الدم . ووقف حمزة هنيهة يرقب فريسته ويتهيا لها ، ولكنها كانت أذل من أن ترد عليه ضربته أو تنضح عن نفسها بمعاية لسان أو بلفظ استهجان .

وشهد الجالسون الى جوار الكعبة تلك الأمسية حمزة يعود ثانية ، يسبقه اليهم غضبه ، ثم يقترب منهم حتى يصبح مشرفا على النطاق وعلى بقية الملائ القريبين ، فيرفع فيهم صوته ويقول :

« أيها الناس ! ... انى اخلع الآن رداء كبرى ، وانى على دين ابن

أخى وانى لناصره بلسانى وسيفى ... الا فليتقين سفيهم غضبتى ! ... »

أى ربح هذا الذى ربحه دين الله من وراء لطمة ، وأى ربح ذاك

الذى كان لا بد أن يربحه من وراء دم ! .

ولكن اولئك الذين عصف الغضب بجوانحهم حين حسروا الغطاء فلم يروا محمدا تحته ، عرفوا كيف يملكون سورتهم عند حد ، فلم يفز الفتى بأمنيته - لم يقتل ! ... لم ترفرف روحه في القضاء تدعو آل عبد المطلب وآل هاشم ومن تابع هؤلاء واولئك الى الثأر له والانضواء

تحت لواء واحد قد كادوا أن يجتمعوا تحته تلبية لنداء الدم . . . ولئن أفلتت من على هذه الفرصة فلسوف تواتيه الأيام وشيكا بغيرها من فرص سانحات . ولن يلبث أولئك الذين تركوه ولم يضرخوا الفراش بدمه أن يندموا لانهم تلك الليلة ، ابقوا على حياته فأحيوا فيه شبح الموت الذى ظل يلاحقهم بعدها مدى أعوام وأعوام . . . !

٥

كان على منجل الموت الذى أخذ يلاحق رعوس قريش من اعداء دين الله فيقطعها قطفا ويخطفها خطفا . . تسقط تحت سيفه كالثمر وتتراكم عند قدميه في عدد المدر . وذلك الفتى الذى كان في صباه سباقا الى الدين أصبح اليوم - في فجر شبابه - سباقا الى ضرب الهام وشق الأجسام . وفي كلا ناحيتي شجاعته المعنوية والمادية كان المؤيد دائما برسول الله ، المقرب اليه ، المرموق منه بعين الحب والرعاية . لم تفت به فرصة واحدة مد دخوله المدينة الا اجتباه الرسول دون سواء من قادة الاسلام فأثره بفخر يرفع من قدره فوق ارتفاع ، ويشرف به على جلة الصحابة والاتباع . لئن كان أبو بكر من نبي الله وزيره الصادق فان عليا كان منه الظل اللاصق ، لم ينا عنه ، ولم يبعد الا كلما أرسله محمد ليكون له على أعدائه عينا او لرجال طليعة . حتى في بدء ذلك الوقت ، الذى اخذ رسول الله يكون فيه ملكه الصغير ويربط بين المهاجرين والأنصار بالمدينة ، لم يفته أن يؤثر باخائه عليا دون الباقيين . . أخى بين صحبه الخارجين من ديارهم معه وبين أصحاب البلدة الذين آووا ، فتخير أن يكون على أخاه في الدين . لم يؤاخ ابا بكر ، ولم يؤاخ عمر ، ولم يؤاخ حمزة أسد وأسد الله ، ولكنه اصطفى لهذه الاخوة المعنوية بعد اخوة الدم فتاه الربيب فأثره على كل حبيب بعيد وقريب . ولا شك انها كانت من النبي لفتة كريمة لها في النفوس ما قد تشيره من احياء يكاد أن يفصح عن التقريب والاجتباء ، وكانت حياة على بعد هذا مناط الكثير من كريم اللغات . حتى في ساعة الحرب ، والنفس البشرية مشغولة عن دنياها جميعا بلحظة

الطعان المنتظرة ، كان النبي حين سعى الى بدر بجيوش المسلمين ، يسير آونات الى جوار بعيره ويدعه مطية لابن عمه ليخفف عنه بعض مشقة الطريق ..

ولم يكن هذا وحده دليل التقدير الفرد الذي توج به محمد هامة صفيه ومجتباه ، بل كانت صفحات حياة الرسول كلها آيات متلاحقة من التقدير والتفضيل . طبيعى أن تعطفه صلات القربى اليه . ولكن ادنى الأقربين من آله لم يلقوا منه مثل ما لقي ابن أبى طالب ، صغيرا وكبيرا ، من صادق اعزاز ، كان في السلم يختصه بالرفقة حتى أصاب الفتى من ينبوع النبوة والحكمة ما شاء ، وكان في الحرب يقدمه لأنه خبر فيه صلابة العزم وصدق البلاء .. حتى اذا داخل نفسه الكريمة على رجاله خالج اشفاق ، سبق خوفه على فتاه خوفه على الجمع من الصحب والأعوان فود أو جعله عن رماح الأعداء في حرز حصين ، ثم كان الحرص ، كلما تقدمت بالنبي السن ، يزيد على على أن بلغ أقصاه بعد استشهاد جعفر بن أبى طالب بمؤتة ، حتى لم يعد محمد بعدها يرسل صفيه في وجهة من وجوه القتال الا رفع يديه الى السماء يستهل الى ربه أن يبقى له عليه ويقول :

« رب لا تذرني فردا وانت خير الوارثين » .

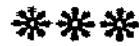
وكذلك عند صمت الموت ، واستواء الكافة من الناس على حافة اللحد لم يعد محمد فضلا آخر في جعبة الايثار يختص به ربيبه المحبوب ويزيده به قربا الى النفوس والقلوب . وكان ذلك عند وفاة فاطمة ابنة أسد ، زوج أبى طالب وام على ، واسبق نساء العالمين الى الاسلام بعد خديجة الطاهرة .. فاطمة الفضلى التي لم يسبقها في الدنيا الى اعتناق دين الله الا غلام ، وامرأة ، وثمانية رجال . تقدم الرسول فألبسها فوق كفنها قميصه ، ثم نزل الى القبر فسواه بيده الكريمة ، واضطجع الى جوارها فيه .. وعجب الناس لهذا الصنيع الذى لم يروا محمدا من قبل يوليه احدا من أقرب خاصته ومريديه فراحوا يسألونه :

« ما رايناك صنعت ، يا رسول الله ، بأحد ما صنعت بهذه ؟ » .

فكان جوابه أن قال :

« انه لم يكن احد بعد ابي طالب ابر بى منها .. وانما البستها القميص لتكسى من حلل الجنة ، واضطجعت معها ليهون عليها ضغطة القبر » .

وكم من اموات المسلمين قبلها ضمتهم اللحد ووارى التراب اجسادهم فلم يفوزوا من نبيهم من هذا الصنيع بقليل ولا كثير . ولكنه اسدى لها في موتها ابلغ تعظيم ، واسدى بهذا لابنها في حياته اجل تكريم .



... وكانت بدر كلها نصرا هو فاتحة النصر المبين لراية الدين ، بل كانت المنفذ الذى اجتازه هواء الحياة الى رئة الاسلام . جازت محنتها الفئة القليلة فغلبت الفئة الكثيرة باذن الله . ولئن كان النصر سبقت انباؤه الى لوح القضاء طعان الابطال ، فان عليا كان الأسبق يدا وسيفا الى أعناق الأعداء . لم يكن في المسلمين أسنهم ، ولا أشدهم ساعدا ولا أبعدهم صيتا في مجال الكفاح يوم خاض غمار هذه الواقعة البعيدة الأثر في تاريخ الانسان . ولم يكن قط مارس من الحرب ما مارسه الكثرة من صحابة المسلمين ، اذ كان بعد بالدنيا حديث عهد ، لم يجاوز العشرين الا بقليل . ولكنه كاد أن ينفرد بجنان ثبت وقلب جلد لا يستطيع ان يطرقة خوف أو تطوف بساحته رهبة . ولم يكن فوق هذا وذاك كأولئك الشجعان الذين ينسون في معمعان المعركة كيانهم ، ويفنون فيها فناء يحجب عن ابصارهم سيرها ، وانما كان مرهف الحواس متمالك الجأش ، يقظا غاية اليقظة امام كل صغيرة وكبيرة تبدو اثناء الصراع من مناجزيه حتى كأنما جسمه كان عيونا تنظر . وما من شك في انه لم ينفرد وحده بالصيال ولكن الثابت ثبات اليقين انه وحمزة عمه كانا فرسى رهان .. وكانا دائما سباقين الى رعوس الكفر وأشياخ قريش الضالين يضربان الهام كأنما تخيرا ذلك اليوم أن يحفرا قبور الأصنام . اما حمزة فكانت له في المعركة غضبة الليث ودفعة السيل ، الرهبة دائما تسبق سيفه يتلوها الموت وان كان حماس الصراع يستغرق حواسه ويملك منه الزمام فيندفع كلسان النار بين الأعداء وهو لا يكاد أن يرى سوى فريسته التى الى اصطيادها والاجهاز عليها . ولقد علم أعداء الاسلام في أسد الله هذه

الدفعة فاستفلوها في الكيد له ، ولم يكد يتكامل الحول حتى عرفوا كيف يثأرون لأنفسهم منه ويكفون رقابهم حد سيفه بأن دفعوا اليه يوم احد عبدا حبشيا من عبيدهم تربص له حتى اذا رآه قد ران على عينيه غضبه ، وعبست أساريره ، وفنيت ذاته في حماس الصراع قفز اليه العبد بحربته فأراد . .

وأما على فقد تهيب الناس فيه صدق حمله وخذ نصله ، فكانوا ان آثروا التبات لا يملكون الا الوقوع صرعى تحت قدميه ، او فضلوا السلامة ادبروا يفرون او ارتدوا ينكصون بعدا منه ، ثم كان يبعثهم كربهم أحيانا على اصطناع الحيلة كيلا يعمل في اقفيتهم سلاحه فيكشفوا عن عوراتهم اذ علموه يربا بناظريه ان يريا سواة . وكانت يقظته لا تغادره لحظة مهما تأجج لهب الحرب ، بل يظل أبدا متمالك الأعصاب يتحرك كمن في نزهة فلا تفوته من صفوف مناجزيه اجمعين لفظة او حركة وقد بقيت يقظته هذه الدرع الواقية والحصن الذي حال طوال حروبه بينه وبين اعدائه المتوالين ان ينالوا منه وان رصدوا له العيون والأرصاد وكتلوا بين يديه وخلفه حشدهم بالمرصاد .

* * *

كانت بدر نصرا كلها للدين وللمسلمين رفع لواءه عاليا على ، وباء بالخذلان أئمة الكفر الذين أفلتوا من السيف والسنان . وهكذا ثبت الله قدم نبيه وأعز أمره ، وصدقت رؤيا عاتكة ! . . أجل صدقت رؤيا عاتكة ابنة عبد المطلب وتحققت واقعا ملموسا تراه العيون . وان أولئك الذين سخرُوا منها أمس بدر لهم أشد الناس ايمانا بصدقها غيب الواقعة . فلقد أصبحت مكة على غير ما تعودت ان تصبح . . فارقتها كبرها ، وأشرها ، وفخرها ، وهي تنظر الى فلول جيشها المهيض الجناح عائدة تجر الخزي في أعقاب هزيمة مرة . وتلفتت عيون السادة الذين تخلقوا بالبلدة عن المعركة الى الآيبين منها . . أين سيدهم الحكم بن هشام أبو جهل ؟ . . أين أمية بن خلف ؟ أين عتبة بن ربيعة رأس بنى عبد الدار وصاحب اللواء ؟ . . أين أخوه الوليد وأين ابنه شيبة ؟ . . أين كل أولئك وغيرهم ممن غادروا مكة بالأمس دارعين مزهوين ، اقلهم املا كان لا يستطيع ان يكبح نفسه عن العودة من المعركة الا ورأس محمد في كفه ؟ . . كلهم راح لقي هناك على ثرى بدر ومن عليهم محمد بالمضجع وبش المضعج ! . . كلهم طواه

القلب تستوى فيه الأشراف والأوشاب ورنث في آذانهم - موتى -
صرخة محمد وهو يناديهم من مثاويهم ويقول :
« يا أهل القلب ، بئس عشيرة النبی كنتم لنبيكم ! كذبتُموني
وصدقني الناس ، واخرجتموني وآواني الناس . وقاتلتُموني ونصرني
الناس !.. هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ، فاني وجدت ما وعدني
ربي حقا ؟.. » .

ولكنهم سمعوا وما استطاعوا أن يقلبوا في التراب جنوبا . وخلفوا
الدنيا التي غرهم فيها الجاه وغرتهم الكثرة وكانوا يستعلون فيها
ويستطيون كبرا . وعاد الحثالة من اقوامهم الى دورهم وبقوا هم
حبسى الأرض .. عادت الحثالة من اقوامهم الى مكة نوازي أساها
وقد فرت دون مواراة قتلها . وان في قلب كل رجل من قریش كلما
حرام على عينيه بعده ان تنام ان لم تشهد نأرها في محمد وصحبه .
وان في كل بيت لنائحة بين اليتامى وبين الأيامي .. في كل بيت فلقة
من الصخرة التي راتها عاتكة في رؤياها فلم يبق لهم بد من أن يصبحوا
مصدقين وكانوا منها أمس ساخرين .

كانت عاتكة قد فرغت ليلة بدر الى أخيها العباس تقول :
« يا أخى .. » .

فسارع نحوها وقد لمح على محياها الخوف :
« لييك !.. ما أفزعك ؟ » .
« انى رأيت الليلة رؤيا أفظعتنى .. » .
« وما رأيت ؟ » .

« وانى اتخوف ان يدخل منها على قومك شر ، فاکتم عنى
أحدثك » .
« أفعل » .

« رأيت راكبا اقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ، ثم صرخ
بأعلى صوته : الا انفروا يا آل غدر لمصارعكم !.. فأرى الناس اجتمعوا
اليه .. ثم أخذ صخرة فارسلها فأقبلت تهوى ، حتى اذا كانت بأسفل
الجبل ارفضت فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار الا دخلتها منها
فلقة » .

وسمع اخوها فتجهم ولكنه لم يکتم !.. وسار نبا الرؤيا من لسان
الى آذان حتى وصل أبا جهل فانطلق الى العباس ساخرا يقول :

« يا بنى عبد المطلب . أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ
نساؤكم » .

ومع هذا فقد صدقت رؤيا عاتكة يوم بدر . ويا ليت أبا جهل
يستطيع الآن أن ينطق ليحدثنا بأثر صدقها فيه ، وفي ناصريه ! .

ولكن ذهب الى الأرض كما ذهب الآخرون . وخلفه الأحياء من
قومه لمصرعه ، كما خلفوا معه سادة سواه كانت دنيا قريش بأمرهم
تدين ، وفروا ناجين من أسياف حداد أعمت آونة في هام الكثيرين
وآونة في أافية الباقيين حتى خلصوا بجلودهم مدحورين .

وكذلك كانت بدر نصرا كلها وان أفلتت الدائرة أبا سفيان بن
حرب وغيره الذين من أجلهم نزلت حشود المسلمين الى ساحة
القتال ولكن أبا سفيان لم يكن كل قريش ، ولم يكن خيرا من
أولئك الذين حصدتهم رحي السيوف أو لم يكن شرا منهم ! . بل
لقد خسر في المعركة زيادا ابنه أسيرا وحنظلة قتيلا لحق شرف مصرعه
بسيف على كما لحق به شرف جز رقاب سواه من بنى عبد شمس
وأصهارهم من عبد الدار . وان الذى يأخذ نفسه بإحصاء من جندلهم
ابن أبى طالب في بدر ، ثم فيما تلاها من وقائع ، ليعجب أشد العجب
ويتساءل أكانت المصادفة وحدها هى السبب في أن تكون كثرتهم من
ذلك البيت الذى اشتهر بامتلاء قلوب آله بالحقد على هاشم وسلالته
أم ترى كان ينتقى عامدا غرماءه من بينهم ثم يعمل في رقابهم نصاله ! .
كان عجيبا حقا غاية العجب أن يتفق له في بدر قتل حنظلة بن أبى
سفيان والعاص بن سعيد بن العاص بن أمية ، والوليد بن عتبة
صهرهم اخا هند زوج أبى سفيان . ثم عقبة بن أبى معيط والد الوليد
أخى عثمان لأمه والذى بفرع عبد شمس تربى . . . ثم بعدهم غيرهم
من أحلافهم ومن لاذ بهم بنسب أو بسبب .

وكانما كان هذا الفتى منجل الموت المسنون الذى أرففه على
رقاب أولاء ولعلمهم ندموا لأنهم ليلة الهجرة خلوا بين على وبين الحياة
ولم يقتلوه في فراش الرسول ولكنه ندم ليس بنافعهم اليوم فتिला ولا
بدافع عنهم ضره في كلا جاهليتهم واسلامهم لأنهم رضعوا من ثدى
أمهاتهم مقتنه ومقت آله صفارا فاصطفوا يناجزونه كبارا ، ولم
يتحروا - اذا فعلوا - أن يكونوا له المناجزين الأكفاء .

٦

انجلى النقع ، وانجابت الغبرة ، وعادت قريش وفي عيونها دموع
وفي قلوبها صدوع . وعاد على في صحبة النبي يتوثب فرحا ، لا يبالي
ان انضمت جوانح بنى امية على ضغن جديد يجتمع الى ذخيرة اضعافها
على بنى هاشم . ما كان الفتى ليبالى شيئا اليوم ما دامت بدر قد
افاءت عليه من خيرها ما يبلغه الوطر من امانى حياته ... لقد طالما
سخر من النشب ولم يعرف قيمة للمال الا أن يرد به جوع جوعان
او عرى عريان . لم يتخذ لنفسه منه ذخرا ، ولم يجمعه ، ولم يبق
مطلقا على درهم جاءه في صباح الى يوم تال . بل كانت كفه كالمصفاة
اسبق الى البذل والعطاء منها الى الحفظ والابقاء . بلغت ثروته ذات
يوم اربعة دراهم فكره من اجلها نفسه ، وسعى سعيه بالليل والنهار
حتى انفقها على ذوى حاجات فجاءه جزاء هذا الاحسان من عند الله
آية كريمة نزلت فيه وخلدت صنيعة وسماحة كف هي احوج الى
السماحة من أن تكون مسماحة :

« الذين ينفقون اموالهم بالليل والنهار . سرا وعلانية ... »

كان يحرم دائما نفسه من كسب يده التى ورثت الجود عن
اجواد ... عمل مذ دخل المدينة في زراعة يهود حتى يقى نفسه
« ضيافة » الانصار ، فكان يسقى هذه الزراعة حتى تمجل يداه ،
حتى اذا انتهى النهار ونقدوه أجره دفعه او دفع أكثره الى سائل
او محروم ثم لا يأبه ان كان يبيت هو على الطوى . لم يستهوه مطلقا
بهرج الصبا ولا زهو الشباب بل عاش فيهما كعابد في محراب . وكان
قوته دائما الخبز الجاف ، واحيانا البر ، وغطاؤه الوبر وثوبه مرقعة
قصيرة من ليف واهاب ، لأن غايته من دنياه ركوب نفسه بالاذلال
والحرمان لتخلص له تقية بلا شائبة .

ولكنه اليوم ، وقد عاد من بدر ، احس بالسعادة اذ افاء الله
عليه بعض مغنم . ولم تكن سمعاده بالافتناء لذات الافتناء ، بل لانه

الوسيلة الى بلوغ مقصده . انه يستطيع الآن ، وقد ملك شيئاً ذا بال ، ان يتقدم الى رسول الله متحدثاً اليه في شأن كتبه عنه طويلاً في ذات نفسه . كم طالما هفت روحه وقد بلغ مبالغ الرجال ، الى ان تكون له أسرة ويسكن الى زوج . وتلك الأعوام ، التي انقضت مذ تفتحت عيناه في هذه الحياة ووعي ما يراه ، علمته الا يستوعب ذهنه أو تتطلع عينه لغير صورة واحدة من بنات حواء ... صورة واحدة منهن، حملها وليدة ، ولاعبها طفلة ، واكن لها صبية بعض ما كان يكن لابیها العظيم من خالص الحب والولاء .

انه يستطيع الآن ان يتحدث الى رسول الله بما مّد عليه آفاق التفكير ، ولكنه ما لبث وقد اشرف على باب محمد ، ان اخذته الرهبة ولعب بخطوه التردد ... كيف نسي ان ابا بكر - وله في قلب النبي ما له من مكانة - جاء رسول الله يطلب منه فاطمة فلم يفر منه بغير ان اجاب : « انتظر بها القضاء ! » وكيف نسي ان عمر بن الخطاب تقدم بعد الصديق الى الرسول يطلب فاطمة لنفسه عساه ان يفوز بخير مما اصابه صاحبه فلم يسمع هو أيضاً الا نفس الجواب : « انتظر بها القضاء » ... ؟ افابى على محمد لين طبعه وترفقه بصاحبيه الا ان يجيبهما بمثل كلماته القصار التي توحى بصريح الرد والاباء وان غلف اللفظ الناعم الجواب الحاسم ؟ ... وما عسى سوف يلقي على من ترفق النبي ؟ ... ان ثقة الفتى بنفسه لم تخنه ابداً . ولم تقعد به ، حتى في أهول المواقف وأكثرها شدة لم تخنه . وانه ليعلم قربه من قلب محمد قرباً يتقدم به سواه من الأقران والرفاق . ولكنه في هذه اللحظة تردد ونكص على عقبيه بعد ان كاد يمضي قدماً ، وولى ظهره للباب قبل ان يجتازه وفي خاطره ان الفرصة لعلها غير مواتية الآن ، وان جواب النبي لصاحبيه قد يتكرر ... ثم سار ، حائر الفكر ، موزع القلب بين احجام واقدام ، يذرع الارض في خطو متمهل وثيد .

ولقيه بعد هنيهة صاحب أنكر منه ما بدا على وجهه من سهوم بعد تطلق وبشر ، فأقبل عليه متسائلاً يقول :

« ما بدا لك يا بن أبى طالب ؟ »

فترث قليلاً قبل ان يجيب :

« خاطر بشر ، وخاطر نفر ! »

فضحك صاحبه وقال يداعبه :

« هلا تطلقت ، بالله فانى اراك قد أسهم لك ... ؟ »

« فيئى هذه الدرع » .

« ولا تراها كفاء ؟ » .

« حتى تثين غزوة » .

« او خطبة ! » .

ورمقه صاحبه يستنبيء مدى اثر الكلمة فيه فقد كان يعلم بأى الامور هو مشغول . وصمت على يتطلع كالمتوجس ولا يجيب ، اما الآخر فقد عاود ما كان فيه من حديث :

« فهل يا بن ابى طالب فانها كفاء ... وانطلق » .

« لاين ويحك ! » .

« الى رسول الله تذكر عنده الزهراء ! » .

فغض الطرف ، وهمس :

« ايها عنك ! » .

« فهل ! »

« بعد ابى بكر . وبعد عمر ؟ » .

« نعم . فان لك عليهما - والله - لسابقة » .

وتزيث ليسمع منه فلما وجده ممعنا في صمته ، يبدو ترده على محياه ، عاد يستحثه ويقول :

« لانت اول الناس اسلاما ، واقربهم من رسول الله رحما : ولد

عم ، وابن ضم ، واخو دم . فإى الرجلين في هذا يعدل مكانك ؟ » .

لم يكن هذا الرأى على ذهن على بجديد . انه عالم به ، مؤمن اشد الايمان بمعناه ، واثق تمام الوثوق من المنزل الذى يحتله الان بقلب راعينه .

بل لقد استطاع ان يعرف طوال عشرته لمحمد انه كان دائما منه خيرا مما قاله الناس عنه . ولكنه في هذه اللحظة بدا له رأى صاحبه بكرا لم تنفرج عنه قبل اليوم شفتان ، وبدا قبسا من نور بدد غياهب التردد . فما لبث ان انطلق لتوه ، يسرع الخطا ، منصبا كالسيل ،

متقلعا في مشيئته على نحو ما اعتاد ان يفعل دائما ، متشبها بمشيئة نبيه .

ولم يطل به المقام في حضرة الرسول الا بقدر ان تمالك جأشه ووسعه ان يمسك اضطراب نفسه .

قال له محمد باسمه ، يستفسر :

« ما حاجة ابن أبى طالب ؟ » .

فغالب حياءه برهة ، ثم أجاب :

« ذكرت فاطمة با رسول الله » .

« مرحبا وأهلا » .

* * *

بهذا اليسر تمت خطبة على . وبحثله وبأسر منه تم زواجه الذى كان أغلى آمنيات الحياة عنده ، بعد ان لقي لدى فاطمة قبولا . وحمل الشاب درعه التى افاءتها عليه بدر فباعها بسوق المدينة بدراهم دفعها الى رسول الله مهر ابنته . وأرسل النبی بلالا فاشترى طيبا بجانب من الصداق ، وأرسل أم سلمة فاشترت بعض حوائج العروس . واجتمع في دار النبی ، ليلة الزفاف ، أهله ، والكثرة من صحبه المهاجرين والأنصار ، يحتفلون ، فقام رسول الله فيهم يخطبهم بما اقتضاه المقام .

وقال في ختام حديثه :

« ان الله تعالى امرنى ان ازوج فاطمة من على . واشهدكم انى زوجت فاطمة من على ، على أربعمائة متقال فضة ، ان رضى بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة ... »

وانتهى بهذه الكلمات امر العقد ، وشهد الحضور واقبلوا على العروس مهئين ، وكان حلواء الحفل بعض التمر اتى به النبی في وعاء فقدمه اليهم وهو يقول :

« تخاطفوا » .

فتخاطفوا . وانفض السامر .

وبقى ان يعرس على بأهله فلم يجد الا منزلا مستاخرا بالمدينة عن منزل رسول الله ، فاتخذة دارا لأسرته الجديدة . وكانت فرحة

العمر تملأ قلبه تلك الليلة وهو جالس ينتظر بين هنيئة وأخرى أن يحضر النبي فيبارك له ولزوجه . وكانت فاطمة يطويها الاستحياء وأم أيمن إلى جوارها تخفف بحديثها من بعض هيبتها حين دقت الباب يد رفيقة .

وانفلتت أم أيمن من مجلسها تفتح ، ثم ما لبثت أن سمعها الزوجان تهتف بصوت فياض بالبشر :

« رسول الله ! » .

قال لها النبي يسألها :

« أتم أخى ؟ »

وملكت الدهشة نفس المرأة :

« بأبى أنت وأمى يا رسول الله !... فمن أخوك ؟ »

« على بن أبى طالب »

« وكيف يكون أخاك وقد زوجته ابنتك ؟ » .

« هو ذلك يا أم أيمن » .

ودخل فنهض له الزوجان أجلا وترحيبا . ودعا هو بماء في أناء فتوضأ فيه ، ثم نادى عليا فجلس الشاب متهيئا بين يديه . ونادى فاطمة فأقبلت بغير خمار تتمثر في ثوبها من الحياء . وراح رسول الله يأخذ من الماء فينضح به على الفتى آونة وعلى الفتاة أخرى وهو لا ينى يرفع صوته بالدعاء إلى الله :

« اللهم بارك فيهما .. وبارك عليهما .. وبارك لهما في نسلهما .. » .

ولما غادر المكان وهم أن يجتاز الباب إلى الخارج ، كان حنان الأب وعطفه وشدة تعلقه بفتاته المحبوبة ، وحرصه على إسعادها غاية الحرص ، تتجمع كلها في رقة نظراته وهو يلتفت إليها إذ يودعها ويقول :

« والله ما ألوت أن زوجتك خير أهلى ... »

ثم ترك بينهما الوفاق والوفاء وبركة الدعاء ...

V

لم يطل مقام فاطمة بهذا الزواج بعيدا عن أبيها ، لانه لم يطق صبرا على ان يفصلها عن بيته اكثر من جدار ... فلم يكن يمضى قليل حتى سار به حبه اليها ...
قال لها :

« انى اريد ان احولك الى ... »

فتفكرت هى هنيهة عسى ان تذكر حلا يرضى رغبة هذا القلب الرؤوف الرحيم ، ويرضى شغف قلبها هى الاخرى بأن تكون دائما الى جواره الكريم . ان هناك اذن بيت حارثة لا يكاد يفصله عن دار رسول الله شىء ، فلو انه حدثه ...
وقالت له وهى تكاد تنهيب الكلام :

« فكلم حارثة بن النعمان أن يتحول عنى ... »

ذلك انها كانت تعلم ان هذا على أبيها شديد لفرط ما أفسح حارثة في بيوته لرسول الله . ولقد جاءها رد النبى مصداق ظنها حين قال :

« قد تحول حارثة عنا حتى قد استحييت منه !... »

ومع ذلك فقد شاء الله ان يحقق لنبيه هذه الرغبة الصغيرة .
فما أصبح صباح حتى تحول حارثة عن الدار المرموقة وجاء يقول لرسول الله :

« يا رسول الله ، انه بلغنى أنك تحول فاطمة اليك ، وهذه منازل وهى أسقب بيوت بنى النجار بك ، وانما أنا ومالى لله ولرسوله ... والله يا رسول الله المال الذى تأخذ منى أحب الىّ من الذى تدع » .
وكذلك تحولت فاطمة الى ما شاء لها قلب أبيها وما شاء لها قلبها من قرب الدار ، واقامت وزوجها في بيتهما الجديد بخير جوار .
ولم تكن حجرتها تلك تتصل بسبب من أسباب الشبه بما نعرف عن بيوت اليوم ، وانما كانت تلائم ما اشتهر عن فقر على وفقر زوجة .
لا تكاد ان تقع فيها العين الا على جلد كبش هو فراش الزوجين بالليل ، ومذود العلف لبعيرهما في النهار .
ولكنها - مع ذلك - كانت في عينيها القصر المنيف الداهب العمد

في أجواز الفضاء ... فالبيوت دائما يساكنيها لا يصنوف الاثاث والرياش فيها . فقد اجتمع لفاطمة في على كل ما ضم افق تفكيرها عن الرجل الأمثل ، وكان أمثل الرجال لديها محمد ، وكان على اقرب الناس اجمعين شبيها به في الاقوال والأفعال .

وكانت هي من قبل دائمة الكتابة ، كثيرة الهموم . بالغة الصمت مذ ماتت أمها وتركته تضطلع وحدها - في بكور صباها - بشئون ابيها ، وتقوم عنده مقام الزوج رعاية ، ومقام الأم عطفاً ، ومقام الابنة تقانيا ومحبة . ولقد صحبته خلال اشد ايام الدعوة واقساها محنة عليه ، وشهدت عن كثب ايداء قريش له ، وعيشها به فكان قلبها - الى جانب سيله حشرات على أمها الفقيدة - يسيل حنانا وحزنا من أجل هذا الوالد المضطهد الكريم ، وكانت عينها لا يكاد أن يرقأ دمعها وهي تراه يقف من اعدائه موقف الداعية المسالم فيقفون هم منه مواقف العدوان الصارخ الظالم . ولا تملك هي أن تدفع عنه الشدة أو البلاء الا أن تفصل له ثوبا رماء سفهاؤهم بالأدران ، أو تنفض عن وجهه ترابا حثوه به ، أو تمسح جرحا سالت دماؤه منه ... ثم هاهي اليوم قد ضمها بيت على ، رجل ساير ايام الدعوة جميعا ، وكان لهذا الوالد الحبيب خير دافع عنه بسيفه وبنفسه ، وخير ناهل منه ما جاء به قومه من هدى ومعرفة ، وخير مترسم خطاه في كل صغيرة وكبيرة من أفعال حياته لأنه شب له ربيبا أوواه ظله ... حتى بعد الزواج) لم يال على جهدا ليكون الصورة الصادقة لمحمد . كان هذا - بلا ريب - بدافع من الحب لفاطمة والاشفاق عليها والرحمة لحزنها الذي أصبح من كيائها جزءا ثابتا فوق رغبته الصادقة في احتذاء آثار النبي . فقد سرى أثر الحزن من نفسها الى جسمها حتى أضحت هشة واهية الاحتمال حتى لم يجد مندوحة عن بذل كل ما في طاقته ليخفف عنها ما هو أخرى بالمرأة أن تقوم به من شئون منزلها . لم يدعها مطلقا تؤدي عنه عملا يستطيعه ، بل كان دائما يسبق يدها اليه . ولم تكن لهما في بيتها خادم تعمل عنهما ، فكان هو يقوم بأمور نفسه . فيخطط ثوبه ، ويخصف نعله ، ويهييء من شأنه كما يشاء . فاذا أقبلت هي على عملها سارع يساعدها فيحلب عنها ، أو يتزجج الماء من البئر ويحمله لها ، أو يشاركها فيما تقوم به من مهن البيت : وله في رسول الله الاسوة الحسنة

اذ عرفه دائما في مهنة اهله حين وجوده في بيته حتى يخرج الى الصلاة ...

على هذه الشاكلة مضت الحياة بفاطمة رتيبة وثيدة في بيت على ، لا تكاد نحس انها فارقت دار رسول الله ما دامت قد توفر لها في بيتها الجديد كل ما كان لها من قبل ، وما دام رسول الله لم يتخلف عن زيارتها خلال ساعات ليل او اثناء نهار . بل عساها احست ان بعض اعبائها النفسية قد انجاب عنها بهذه البشاشة التي تطلق بها محيا زوجها ابدا حتى اعداها بشره ، وبهذا الحب الدافق الذي غمرها به حتى كادت تنسى في غماره ما كان من حزنها القديم . واخذت الراحة ننشر لواءها عليها رويدا رويدا ، والسعادة بظل دارها الصغيرة بتحليلها جنة مليئة بالهناء او تكاد .

ولكن سخابة قائمة ما لبثت ان حلقت فوق الدار وكدرت الصفو الى حين . فلقد تهامس الناس فيما بينهم عن خطبة جديدة وعن زواج جديد يهم ان يقبل ابن ابي طالب عليه ، ولئن دل هذا الحادث على شيء قد لاته واضحة على مدى سعى الناس الى على يخطبون وده ويلتمسون فيه لبناتهم زوجا حتى ليمشون هم اليه ؛ والعرف يقضى بأن يمشى اليهم الزوج . ودل أيضا دلالاته التي لا تقبل الشك على اعظام رسول الله لأمر زهرائه وارتفاعه بها عن مستوى كافة النساء في وقت كان تعدد الزوجات سنة جارية بين الاعراب ...

وقف النبي على منبره ، وقد تكاثرت في الناس الساعات ، فقال وهو لا يحاول ان يدفع عنه غضبه :

« ان بنى هشام بن المغيرة استأذنونى في ان ينكحوا ابنتهم على بن ابي طالب . فلا آذن ، ثم لا آذن ... الا ان يريد على بن ابي طالب ان يطلق ابنتى وينكح ابنتهم ، فانها بضعة منى ، يريبنى ما رابها . ويؤذبنى ما آذاها ... »

وما كان على بالذى يعدل بفاطمة غيرها وان كانت سليمة الأكاسرة او القياصرة في النساء ... وعادت السعادة ثانية ازهى لونا الى الدار .

ولكن الأمر الذى اخذ عليه مسالك تفكيره منذ الزواج ، وظل يقض عليه مضجعه دائما هو ذلك النحول والضعف والتهافت الذى كانت تقاسيه فاطمة من الصغر ويدعها لا تقوى معه على احتمال . ولقد بلغ على القلق عليها غايته يوم جاءته تخبره على استحياء ان في بطنها جنينا اخذت تسير في اوصاله الحياة . انه ليلمح على محياها اطياف الفرحة التى تخالج الأم ولكنه يشعر فى قرارته بصدى فرحتها قلعا على مصيرها . ان الامومة لتلهم السعادة كل فتاة ولتحيل حياتها كلها املا معسولا فى انتظار الوليد ، وان الأبوة لمنتهى رجاء العربى . ولكن هذا الشاب كان يخشى غاية الخشية ان تنوء زوجه بالحمل ولا يقوى جسدها الواهن على احتمال ثقله وبرحاء الوضع . فلما تصرمت الايام وانتهت المدة ، وجاءت الآونة المرتقبة ثم وضعت فاطمة حملها فى سلام لم تكن فرحة على الا بنجاة زوجه لا بمجىء الغلام ...

وضعت فاطمة وليدها الاول . واولئك الذين شاهدوا طلعتة توسموا فيه محيا جده الكريم ، لان صورة النبی اسبق الصور الى اخيلتهم من سواها . وكان الوليد هكذا حقا ، وان كان أيضا يكاد أن يطابق أمه شبا لأنها كانت من أبيها صورة ناطقة القسمات والملامح فى أجلى بيان .

واقبل على يحتمل الطفل فرحا اذ صار به لرسول الله ذرية منه يتيه بفخر نسبها اليه على كافة الناس . وراح كفيره من الآباء يجيل بذهنه أجمل الأسماء لينتقى خيرا للوليد ، ولكن ما فيه من طبيعة الكفاح غلب عليه والناس دائما الى طبائعهم اميل ... عجم على جعبة الأسماء فلم يدع الغلام باسمه هو ولا باسم أبيه ، ولا باسم جده لأبيه وان كان خير الأسماء ، وانما دعاه بما هو اميل اليه فى هذه الدنيا دون كافة الأسماء . اختار ان يكون له « حرب » علما عليه لأن الحرب كانت صناعة أبيه بالسيف واللسان ، كما شاء القدر وشاءت له قبل سنوح فرصها ميول الوجدان ...

ولكن هذه التسمية كانت رغبة لم يتح لها مطلقا ان تتحقق ، فقد اقبل النبی مسرعا حين بلغه النبأ السار ليمتع ناظره بطلعة سبطه ، وليهبه من لدنه البركة والدعوات الصالحات .

وقال ولما يستقر به المقام :

« ارونى ابنى ... »

فدفعوه اليه يحتمله بين يديه ، ويقرب فمه من أذنه الصغيرة يهمس فيها أذان الاسلام ، ثم يلتفت ثانية ويسال :
« ما سميتموه ؟ »

قال على :

« سميته حربا »

« بل هو حسن »

فكان كما قال رسول الله .

ثم عاودت الخشية ثانية عليا وهو ينظر فيرى زوجه مقبلة على وضع جديد . انها هذه المرة أهش قواما وأضعف عودا بعد ما بذلت من نفسها وقوتها في سبيل تربية صغيرها والقيام على شأنه . ولقد بلغ من وهنها أن الجنين في بطنها لم يتم شهوره وخرج الى النور بعد ستة شهور .
وكما ود على في البدء فقد ود لو كان اسم ثانى وليسديه « حربا »
لولا أن اختار له رسول الله اسم « حسين » ..

وأصبحت الحجرة الصغيرة أجل عند ساكنيها من قصر منيف رفيع الدرا والعماد بعد قدوم هذا الرفيق الصغير . وأصبح على أكثر بشاشة وأضحك سنا . وعرفت البسمات أخيرا طريقها الى ثغر فاطمة فلم تعد تضل عنه بعد أن وهبها الله زينة الحياة .

ولكن الله ، بهذين الصغيرين ، لم يهب الزوجين وحدهما العقب الصالح ، بل وهب الدنيا كلها نسمة عاطرة ونعمة طيبة من ربح النبوة الزكية . وقدم في شخصيهما للأجيال المقبلة ، حتى زوال الأرض وانفطار السماء ، ذرية رسول الله . الذي اقتضت حكمة ربه ألا تكون له من صلبه سلالة ، فشرف عليا بأن جعل من صلبه هو سلالة النبي الكريم ، فأضاف بهذا الشرف الى ابن أبى طالب مجدا جديدا في سلسلة أمجاده ومفاخره التي اختص بها وحده دون الناس أجمعين : من ناصرين ومن شائين ...

٨

في « أحد » قاد أبو سفيان الرجال وأحقاد الرجال ، وقادت زوجته هند النساء وأحقاد النساء !.

كان الرجل ، طوال ما فات بعد « بدر » من أيام تجاوز العام ، لا يجد له شاغلا في الحياة بمكة إلا التجهز بالمال والعتاد ليوم القصاص هذا ، فرصد تجارة عظيمة - اشترك فيها أهل بلدته اجمعين - على النيل من محمد بالحرب والقتال ليردوا عليه ما ناله منهم . ثم اخذ نفسه بانماء أحقاد القلوب واضغان النفوس ما وسعه الأمر حتى لقد جعلها تكتم في قراوتها التفجع والحزن على قتلها ولا تفضي به ، فحرم على الرجال الحداد ، وعلى النساء والأطفال البكاء الى يوم يحين لهم فيه الثأر من واثريهم ، يحق فيه الندب والبكاء ، وتطيب فيه الفرحة بالقصاص من الأعداء ..

واقبل الرجل ، وقد اصطفت حشود قريش في الميدان ، على حملة اللواء من بنى عبد الدار ، يشير حميتهم فيقول :

« يا بنى عبد الدار انكم قد وليتم لواءنا يوم بدر فأصابنا ما قد رايتم ، وانما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، اذا زالت زالوا ... »

فساله طلحة بن ابي طلحة :

« وما ترى يا ابا حنظلة ؟ »

« ارى اما ان تكفونا لواءنا ، واما ان تخلوا بيننا وبينه فنكفيكموه » .

فثارت لهذه نخوة طلحة ، وثارث معه نخوة آلِه من بنى عبد الدار فاستمسكوا باللواء وهم يقسمون ليرقعنه عزيزا حتى ينتهى قتالهم بالنصر .

ولكنها كانت نخوة كلفتهم غاليا ، واقتضتهم تسعة رءوس من اكابرهم ضريبة للحرب دفعوها ولما يبرحوا أماكنهم من الميدان ، وكان على وحده مقتضيتهم راسين ! ..

... برز طلحة من بين صفوف قومه ، مدلا بالبطولة والفروسية يدعو نظائره من رجال المسلمين الى المبارزة فاسرع اليه ابن ابي طالب

مستجيبا لدعوته في غير ما صلف ولا كبرياء ، وما هي الا لمعة السيف في ضوء الشمس حتى لقي ذلك المدل المعتز رجفة الموت الناقع على يد الشاب الحبي المتواضع .

ثم برز من بعد عثمان بن ابي طلحة ياقف الرابة التي تفلنت من بين أصابع اخيه المحنل الصريع . فما هم حتى بطشت به كف القسورة حمزة . ولما آن لثالث الاخوة من بنى عبد الدار وقت حينه وحن اجله ، رماه قدره هو الآخر فريسة سهلة المنال في يد على فأصماه ولما يكد ، لأن حرص ابن عبد الدار على بقية انفاس الحياة التي كانت تتردد فيه ، جعله يفر بجرحه المميت من وجه مصميه ، متخذا من عورته درعا يكف عليا عنه ويقف به دون الاجهاز عليه ..



واقبلت نسوة قريش وراء الجيش ، يضربن الدفوف وقد قادتھن هند رافعة الصوت بالصياح عساها تثير الحمية في صدور الرجال بما تضيفه عليهم في غنائها من مديح وآيات فخار :

ويها بنى عبد الدار !
ويها .. حماة الأدبار !
ضربا بكل بتار ... !

ولكن الرجال ادبروا وأدبرت معهم النساء !.. وكادت الدائرة ان تدور عليهم اجمعين فتنتهى المعركة بالنصر المبين للمسلمين لولا ان رماة هؤلاء زابلوا اماكنهم التي ارصدهم فيها رسول الله ، وخالفوا امره واندفعوا وراء رجال قريش المدحورين ليصيبوا من الغنم . فانتهر عدوهم منهم هذه الثلثة ، وكرت خيله من الخلف على جيش المسلمين تضربهم وتشيع المقتلة فيهم .

وانتكس الامر على رجال النبي واختلطوا بمناجزهم اشد اختلاط واكرهه حتى ما يدرى الرجل منهم اكان يقتل اخاه اذ يرمى ام يصيب من عدوه نحره . وتفشت في الرجال روح الهزيمة فغلبتهم رهبة الموقف ، وحاولوا ان يقوا انفسهم مصارعها فنكسوا ، وارتدوا قليلا قليلا - امام ضغط قريش - على أعقابهم مولين ، هم الذين لم يعرفوا ، قبل يومهم هذا - كيف يكون النكوص ويكون الفرار .. وحادوا

عن مواقفهم واحدا اثر واحد . وتكشفوا عن نبيهم وهم لا يشعرون وتركوه هدفا لنبال الكفار .. ثم أخذتهم رجفة الرعب فأحالتهم أحجارا لا تعي حين سرى الى صفوفهم من بين حشود مناوئهم لفظ يفشو كأنه النار ان محمدا قتل ! .. قتل محمد ؟ .. ما لهم بعد هذا موقف ولا ثبات . وليولين من لم يكن بعد قد ولى ، وليضعن سلاحه من كان قائما حتى اللحظة يضرب به الى يمين وشمال ، فان رسول الله عنوان الاسلام ، العلم الذى وقفوا من أجله يبذلون ارواحهم رخيصة قد خر صريعا - هنا أو هناك - في الميدان ..



ما كان أشد فرحة ابنة عتبة وزهوها ذلك النهار ! أخذت تقطع ساحة المعركة في مجيء وذهاب لتمتع ناظرها ، كاللبؤة الضارية ، برؤية الأشلاء والدماء . انها قد شفت قلبها المصدوع وبصرها المقروح وأسبلت مصارع أولئك الواثرين الراقدين في جوار أحد على نفسها راحة ما بعدها راحة .. كلهم الآن فداء أبيها وأخيها وابنها ، وغيرهم من آل الذين جندلوا على ثرى بدر ، ثم لكم أضفى على قلبها سعادة لم تستشعر قبل يومها هذا مثلها ذلك اليقين الوطيد بأن أصل بلائها قد زال عن هذا الوجود بزوال محمد وذهابه عن دنياها الى غيابة الموت ..

ولكن عينيها وقعتا في جانب الميدان على منظر أرسل في قلبها ثانية نار الحقد التى كادت تخبو . تفور وتمور .. ها هنا عصابة من رجال قومها الأمجاد يكافحون رجلا فردا كأنه الليث بين الخراف ! .. فارعا ، مهيبا في لحظات كربيته كما علمته دائما مهيبا ابان لحظات تفوقه وعزته ، لا تكاد العين ان ترى ذؤابة سيفه وهو يسرع في كفه الى الرقاب كالبرق . ولا يكاد ان يخطئه البصر او يأخذه بغيره وهو الصارم الغضبة قد اجتمعت عروقه في جبهته كالكرة ورمت عيناه بنظراتهما كلسانى نار . وهو البازر بين الآلاف من الرجال يحسن سمته وأناقته ثوبه وان أصابت منه وعشاء الحرب .. وهو المعلم دائما

بريشات النعام في صدره أو على قلنسوته حتى ليعرف من لم يره انه حمزة بن عبد المطلب لأنه لا بد قد سمع ذات يوم عنه ..

ها هنا رجل حى من بيت محمد !.. رجل دونه بقية الرجال وكافة الأبطال ودون حقد هند عليه أحقاد مثيلاتها من النساء على غيره من أصحاب الرسول وصفوة ناصريه . فلتكفين اذن ناسها بأس سيفه : ولتروين غليلها من دمه كما روى ثرى بدر بدماء والدها عتبة . ولتقتصن فيه لأخيها الوليد وابنها حنظلة اللذين قتلها ابن أبى طالب . ولئن ذهب على - في حساباتها - كما ذهبت كثرة المسلمين الى التراب فقمين بعمه أن يؤدى عنه التمن لثكلها المرير وفجيعتها التى لم تنطو على مثلها القلوب والصدور ..

وارسلت بصرها عجلى ، على ما حولها وبالود لو استطاعت أن تنسب نحوه كالأفعى فتتشب فيه الناب . وهمت أن يدفعها الحقد فيلفيها عليه ثم تترك لأضغانها بعد هذا أن تنال منه حسبما يلهمها الموقف : ولم تكن تحمل في صدرها قلب انثى آدمية بل قلبا أقل ضراوة منه قلوب الوحوش الكواسر ، فانطلقت تعدو صوب العصابة التى التفت بحمزة وتساقط حوله أفرادها كالذباب . ولكنها ما لبثت أن توقفت اذ شلتها هيبة الرجل . وأدارت أمرها في رأسها مترددة . محاولة أن توازن بين احتمالات الموقف وبين خاطر سطع في ذهنها حين وقعت عيناها على وجه أسود علا جسد مارد !..

وفركت المرأة كفيها فرحا . انها نائلة ثارها بلا ريب ثم عائدة الى دارها مثلجة الصدر . هذا وحشى العبد يلوح عن كشب وهى تعلم انه مأجور لقتل محمد أو لقتل على أو لقتل حمزة . فما استطاع وصولا الى اولهم ودونه الصفوف تلوها الصفوف من أصحاب مجاهدين مفتدين يدفعون عنه . وما استطاع الى الثانى وصولا ويقظته الفذة لا تترك لوحشى أو لسواه مجالا يصيبه فيه من بعيد أو من قريب . ولكن الأول مضى ونفضت منه الحياة كفيها .. ومضى الثانى في اثره ، ان لم يكن قد سبقه الى الموت اذ كان دائما الفادى له المكافح عنه لا تصل الى محمد ذؤابة سيف الا أن اخترقت - في الطريق اليه - قلب على .. ثم بقى الثالث .. بقى حمزة حتى الآن أمامها يجول ويصول يقدر الرجال ويمزق الأوصال .. وان هنذا

لترى الآن بعينها لم وقف الأسود المأجور في مكانه لا يريم . ملكت قلبه رهبة الرجل حتى تركته قطعة صماء من الأرض التي وقف عليها وهو يشهد بعينه كيف تكون مقاتل الرجال على يد هذا البطل الذي سن له وحشى حربته ، وسممها ثم وقف بعيدا كأنه نسي فيم جاء .

واسرعت اليه المرأة تجذبه من ثوبه وتصيح فيه :

« وبها ابا دسمة ! » .

فانتفض العبد كأنما ردت اليه الحياة . وتطلع نحوها ببصره الحديد . صامتا ، مغفور الفاه وعادت تانية تهتف به وتسبحه :
« انك تقذف برمحك قذف الحبشة ولا تخطيء .. ارم فذاك امي ! » .

فاعتدل في وقفته ، وحانت له فرصة انكشف فيها أعداء حمزة عنه فهز الرمح ، وصوب ثم القى ..

واعقبت الرمية الصائبة صيحة الشماعة انطلقت من شفتى هند . ووقفت عن كذب ترقب كيف تبدو علائم الموت على الوجه الوسيم الاصبح . وكيف تعاني العيان سكرات النزاع ! وكيف تنزف الحياة في قطرات دماء راح يلفظها الجرح . وبوجهها في كل هذه اللحظات صفحة كريمة تداولتها الوان الحقد والضغينة والبغضاء ..

واسندار حمزة ينظر من اين اتته الطعنة الفادرة وفي ملامحه تنطق آلامه بألف لسان . وتحامل على قدميه يكرهما على السير صوب قاتله بعد ان تبينه : وارتعدت أوصال العبد فزلزلت فرائصه وهو يراه يهم بقطع الطريق اليه ولم يستطع فرارا بن عبت برغمه في مكانه كان قد بنيت قدماء في الأرض . ولكن حمزة لم يسر الا خطوات - عرف بها قلب وحشى كيف يكون سلطان الرعب - ثم سقط البطل العظيم مجنولا على الثرى ..

هنا اسفرت هند عن قلب الوحش الذي ضمته اضلاع المرأة فأت بها لم يحدثنا التاريخ مطلقا بمثله قساوة اشباعا لنهم الاحقاد .. استلست سكينها وتقدمت الى الجسد الطريح تمثل به اشنع تمثيل فصلمت اذنيه . وجدعت انفه ، وغورت عينيه . ثم تركت النصل يعبث كما شاء له جنون الغل في قسومات الوجه حفرا وتخديدا وقطعا ، وهي لا تستطيع ان تكف يدها ما لم تحس بقلبها الصليب قد تقع

صداه .. وهل كان لجلمود صخر ان يعرف رياء ؟ ان الوحش الرابض في داخلها لم يزل منهوياً ، ليس تشبعه الرؤية وحدها ولا ترويه .. فلتبقرن اذن بطن عدوها الراقد امامها في سلام ، ولتكشفن فيها عن بضعة تنهشها بأنياب أحدا . أنواع الحيوان وأضراره نزعاً ، ولتاخذن الكبد التي ما زالت فيها بقية من دفء الحياة فتلوكها في فمها وتقضم منها ما وسعها ان استطاعت أو ان أساغت .. ثم تلفظها حائقة لأنها مريرة المذاق . وتمضى - بفعلتها هذه - على مدى الأيام مثلاً فذا لشر ما سكن قلوب الناس من أحقاد وأضغان ، مثل لا يعدله شر في الدنيا ولا في بقية الأكوان !..



مثل لا يعدله شر الا ما انطوى عليه قلب زوجها .. الرجل الذي سوده قومه . وما حسبتهم كانوا مسوديه الا بفضل او مسكة من فضل بعد حسبه العريض الذي ذهب به في اصول العرب الى ابعد المذاهب ، ولكن أبا سفيان كان رجلاً قمىء الجسم قمىء الوجدان ! اعماه حقه عن الفضل ، وعن العقل ، وعن حق القرى التي ربطته بحمزة حتى غلف الحقد قلبه بغشاوة سميكة خرجت به عن نطاق قلوب الانسان تماماً كما حدث لهند . بل لعل لزوجه بعض العذر لو انا قابلنا بينه وبينها فى كفتى ميزان ؛ كانت انثى وللانات لدى نورة النزعات اندفاع يحيد بهن عن الجادة وان لم تصل بغيرها الحيدة الى مثل هذه المغالاة . وكانت موتورة في أبيها ، وفي أخيها ، وفي ولدها تم بعدهم وقبلهم في الكثيرين من عشيرتها وادنى الاقربين اليها من الأهل والأحباب . أما هو فلم يكن كذاك . ولئن فقد في بدر ولده حنظلة فان حمزة لم يكن قاتله . ومع ذلك فقد مال مع ضغنه القديم ، الذى ورثه عن آبائه ، على بنى هاشم ومن انحدر منهم ، يستوى امامه محمد وحمزة وعلى ومن عساه سينشأ لهم من أبناء لو امتد به عمره وامهله الزمان لسقاهاهم ايضاً من سموم كراهيته ما يستطيع . وهكذا لم يملك أبو سفيان نفسه ، ولم يمسك بزمام بغضائه حين مر بشرى أحد فوقع بصره على حمزة بن عبد المطلب لقي ، مشوها ، مبقور البطن عمل في ملامحه وفي أحشائه النصل والناث .. بل استبدت به أحقاده أيما استبداد وملاّت بسمة كريهة وجهه الدميم ، وهزت الفرحة جسمه القمىء الضئيل وهو يسرع الى حمزة الصريع يهتف به بصوت تفيض الشماتة في نبراته :

« يا أبا عمارة ... دار الدهر ، وحال الأمر ، واشتفت منكم
نفسى ! » ثم لا يخجل أن يتناول بالقصاص ميتا لا يستطيع عن نفسه
دفعاً ، فيهرز رمحه في يده هنيهة مدلاً مستعزاً ، ويتقدم فيضرب بها
في شدة الجثة وهو يردد كمن أصابه مس جنون :
« ذق عقق ! ... ذق عقق ... »

وكانما الله شاء أن يخزيه في موقفه ذاك ، وإن يكبته فيطلع عليه
في تلك اللحظة أحد أحلافه من رجال مكة ... ويقلب الرجل بصره في
سيد قریش غير مصدق أن يبدر منه ما يأتيه ، ويكاد أن يذهله المنظر
أول الأمر حتى إذا استوثق مد كفه الى منكب أبى سفيان يهرزها
ويقول في صوت هامس مبجوح :

« سيد قریش يصنع بآبن عمه ما أرى - لحماً ! » .
« الحليس ! » .

ويكاد أن يسقط من يده رمحه وقد علم أن قد اطلع على خزيه
سيد الأحابيش . ولكنه سرعان ما يلجأ الى الاعتذار فى موقف ليس
يجديه فيه تكفير ولا تعذير ...

يقول متخابثاً ، متوسلاً لصاحبه :
« اكتمها عني ، فقد كانت زلة » .

ولكنها زلة كانت أخرى به ؟ .. ليست بكبيرة منه . أكثر منها
غير غريب عليه ، ولا على آله أتياه في هذا الباب ، وإنما القليل منهم
هو موضع العجب ومثار الاستغراب .

وكانما ورث الأحفاد ، مع الأحقاد ، صناعة الأجداد .. لأننا
لا نلبث أن نرى بعد هذا الموقف بنصف قرن أو أكثر من الزمان . الحفيد
« يزيد » يستعيط عن رمح جده بقضيب يضرب به في شدة الحسين
الديبح ويتلهى بنثر ثنياه ، كأنما المثلة كانت لأسرته صناعة ، وكانما
فيها الامعان كان لهم ملهارة أى ملهارة ! ... أما الحليس فأنى أرى ظهوره
قد كفانا الصورة الكريهة التى كاد أن يرسمها لنا أبو سفيان فى تلك
اللحظة من يوم أحد لو خلى بينه وبين التصوير ... ولعل شيخ بنى
أمية لو ترك وحيداً وشأنه إذ ذاك ، لكان انحنى على الأرض فنفض
التراب عن الكبد الملقاة ثم رمى بها في فمه لأنياه عساه يسبغ منها
بعض ما لفظت زوجه ! ...

٩

أشرف أبو سفيان بن حرب من ربوة على ميدان المعركة في انحائه
شراذم متفرقة من المسلمين مسها الضر وعملت فيها الهزيمة ، وراح
بأعلى صوته يهتف :

« يا أصحاب محمد !.. يا أصحاب محمد !.. أفبكم محمد ؟ »
فلم يجبه على سؤاله مجيب ، كان هول الموقف لم يذهب بتبصرهم
في عقبى الأمور فراوا الخير في التزام الصمت .

وفرح الرجل ما شاء له أن يفرح . ومدت له هذه الفرصة في
بساط الشماتة وشفاء غله اذ حسب أن عدوه ليس بينه رجل تطاوعه
نفسه المكلومة على تحريك لسانه بالرد على مصير محمد ، ومصير خير
صحابه الذين ظل شيخ بنى أمية يرفع عقيرته بالسؤال عنهم واحدا
بعد واحد . ولم يبق شك عنده في أنه قد انتصر وانتصرت معه قريش ،
وأن عجلة الفلك دارت على مثال دورة عجلة المعركة في احد ، وأن
أولئك الذين قد اجلب لهم من مكة بخيله ورجله راحوا لقي على الثرى
ها هنا أو هناك .

وضم على جسده القمىء طرقي ثوبه . وأحس كأن قد استطل
فرعه الى الشمس لأنه ملك النصر وملك الثار ... ثم دعا داعيه في
رجاله ان يتهياؤا للرحيل ...

ولكنه قد جرى شوطا بعيدا غاية البعد وراء خياله لأن محمدا
لم يقتل ولم يتخل ربه عنه بل أبقى عليه من أجل الدعوة ، وادخره
للقابل من الايام حتى ينشر الدين ويقضى على اعدائه المشركين . ولئن
دارت اليوم على جيشه الدائرة فانما هي الحنة يبتلى بها الله صبر
عباده ثم يردهم بعدها قلوبا تقوى على الاحتمال وتثبت لزعازع
الأهوال .



أجل لم يممت محمد . ولم ينل منه اعداؤه الا اقل القليل وهم
الذين لاحقوه بالأسياف والرماح والنبال كأنما كانوا لا يحاربون غيره .

ولكن رماحهم وسيوفهم وكل ما حملوا به عليه من سلاح تكسر على
صخور الدفاع التي أحاطه بها بعض صحبه . وكانت هذه الصخور
رعوسا وقلوبا وأجساما وقفت دونه تذود عنه . ولعل سجلات البطولة
مد خلق الله دنيانا حتى اليوم لم تضم صورا أبدع من تلك التي
رسمها بدمائهم أبطال أحد . ولعل محمدا لم يعيش في محنة كانت
انكى من تلك الفترات الأخيرة من المعركة وأشد عليه . . قارب الموت
كما لم يقاربه من قبل ، وسار تحت ظله وقعد ، ورأى الهول كيف
يكون له على الناس سلطان غالب يفتنهم عن الجهاد ، وشهد الاضطراب
والرعب يجرفان صفوف أصحابه كأنهما سيل حتى انفرجوا عنه .
وأولئك الذين لم يشنهم عنه خوف عدوهم واتقاء بطشه تناهم عنه
دفعه وضغطه . . حتى دمر غاب عن عينيه وهو الجليد ذو البأس
الشديد . . وحتى أبو بكر أيضا وكان دواما 'قرب اليه من أردان
نوبه . . .

ولكن حفنة من الرجال ظلت حوله لم تبرح عنه ولم تمل كأنها
شدت اليه أو كانت منه بضعة . وهؤلاء هم الذين لم يلههم الهول ولم
يشنهم الدفع والجذب عما نذروا أرواحهم له . فلقد بايعوه على الموت
من قبل كما بايعه الآخرون ولكنهم كانوا أمالك لنفوسهم في ساعة كان
خطبها يذهل الناس عن نفوسهم . كان ذو المعصم وكانوا هم السوار
فأحاطوا به من أمام ووراء ويمين ويسار . . . في جانب وقف ابن
أبى طالب لا يستطيع أن يلهم سيفه السكون لو أنه أراد . . . ينتفل
به بين الرقاب والقلوب ويروى نصله بالدم ان كان يرتوى حديد . .
وفي جانب كان سعد بن أبى وقاص يذب بنو سه الذين حاولوا اختراق
النطاق الى رسول الله ويرميهم بنباله حتى نفدت . وكان من خانه
من أولئك المدافعين سلاحه التمس الحديد والحجارة وكل ما يقع بين
يديه ليدفع بعيدا ذئاب قريش . ولقد استطاع واحد من هذه
الذئاب أن يلقي حجرا أصاب وجه النبى ، ولكن البقية فرت ، ولم
تستطع الثبات لما شاهدته من عزم ومن قوة مراس ، وقنعت بأن تلقى
نبالها من بعيد . وراح مؤلفو السوار يدافعون عن رسولهم ما وسعهم
ويحولون بين السهام وبين وقوعها فيه . . وان منهم لواحدا رأى الامان
في أن يتبرس بجسده محمد فاتحنى عليه كأنه درع وراح يتلقى رميات
الاعداء . . الا فطوبى لآبى دجانة الدرع الادمية لرسول الله ! . طوبى

له ونعمى ! وطوبى لجسده الذى لم تترك نصال قريش منه موصعا
لم ترشق فيه نبلا ! ...

واستطاع رسول الله . بعد جهد أن ينجو مما كان فيه فسارع
ومعه على وقلة من صحبه الثابتين . يصعد في احد . وكان الكثيرون
ممن فرفهم عنه الصراع قد علموا أنه حى فأقبلوا فرحين يلحقون به
وقد ردهم نبأ بقاءه حيا الى الحياة ! ... وكذلك أصبح عن نبل عدوه
بمنجاة حين اعتلى الجبل . ثم انعكست الآية فأصبح العدو أهدافا
لنبال المسلمين التى أخذت تنصب عليه من علو فتفرقه بددا . . . وكان
النبأ أيضا قد سرى الى اسماع أبى سفيان فأذهب عنه ما كان من
فرحته وأعاد سيرته الأولى حبيس ضعفته . ولكنه لم يستطع أن يعيد
الحمية نانية الى صفوف رجاله فيؤلبهم من جديد بعد أن برد حماسهم
بنبا المقتل المكذوب فأنز الاكتفاء من النصر بما أصاب ، ورأى الصواب
في أن بغنم السلام بالاياب !

وأشرف الشيخ المونور من ربوة أمام الجبل ، يصيح مستعزا بالثار
الذى أنيح له ، وبالنصر المزعوم وهو يهلل لصنمه العبود :

« يوم بيوم بدر . . . اعل هبل ! . . اعل هبل ! »

فجاءته من ناحية محمد تهليلة الایمان ، أعلى جرسا واصفى صوتا ،
تشقى العنان :

« الله أعلى وأجل - لا سواه ! . . الله أعلى وأجل ! »

واخذ ميدان المعركة يخلو رويدا رويدا الا من الجثث والأشلاء
التي تنانرت في جنباته ، وأكثرها من الشهداء المسلمين ، وكانت نسوة
المدينة ما زلن دائبات على ما خلفن من أجله بيوتهن : يملن على الجرحى
بالعناية وعلى المنكوبين بالعطف ، وقد سبقتهن فاطمة الزهراء الى هذا
الواجب فدارت مسعفة حانية او مضمدة آسية ، وهى لا تكاد أن
تثبت بها مواقع الأقدام لفرط نشاطها آونة ولشدة ضعفها وما أصابها
من الوهن والكلال آونات ، ولكنها ظلت - مع هذا - تعمل ولا يقعداها
جهدا لحظة واحدة عن موالاة بذل العون واسباغ الرعاية .
وغابت قريش عن الاعين . وانطوى في البيداء المترامية آخر رجل

من رجالها مخلقا حلبة الصراع . لقد انتهى الأمر على خير ما طاف
بأحلامها وأثارت من وأثرها . فلتعد أذن بزهرها نازكة صريعى تقمتها
على الثرى صامتين .

أما محمد فلم يبرح . لم يكن قد استوثق لنفسه وناسه من رحيل
قريش اذ كان الحرى بها - وهى بعد موفورة في الرجال والسلاح - أن
ترتد مباغطة فتستأصل من نجا من جيش المسلمين ، بهذا قضت
قواعد الحرب في كل عصر وجيل وقضت حكمة القادة الذين يحسنون
القيادة ، وبهذا جرى خاطر محمد ومسه منه الخوف على أتباعه
الناجين ، فدعا اليه على بن أبى طالب وأمره أن يذهب عينا وراء أولئك
المرتحلين ليعرف ان كانوا قد اسروا في نفوسهم مكيدة البسوها
بمظهر الرحيل .

قال له :

« اخرج في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون ويريدون . فان كانوا
قد جنبوا الخيل وامتطوا الابل فانهم يريدون مكة . وان ركبوا الخيل
وساقوا الابل فانهم يريدون المدينة ... »

وخرج على صدوعا بالأمر ومسارعة الى ركوب خطر بالغ عساه
ان يكف أصحابه كيد قريش . واقبلت بقية الجيش تصلح من شأنها
وتعيد التنظيم والاعداد ليكونوا لعودة عدوهم على أهبة . ومضى
الوقت على الناس بطيئا وثيدا يملؤه القلق الذى يبعثه الانتظار حتى
واوا ابن أبى طالب يبدو لأعينهم فوق حد الأفق .

وتقدم هو بعد قليل الى رسول الله يقول :

« يا رسول الله ، قد جنبوا الخيل . »

فتنادى المسلمون بالارتحال .

وفي طريق العودة مضى الناس يلتمسون قتلاهم ، ليس يحزنهم
فقدتهم من فقدوا قدر حزنهم على ذلك النصر الذى كان في أيديهم
ثم فقدوا . ومضى النبى معهم يبحث عن غاب من صحبه ، فاذا به
قد وقع بصره على حمزة عمه : على أسد الله الصريع الطريح كما تركته
أسنان هند ابنة عتبة ورمح زوجها الموتور الحقود . فأية غضبة

عصفت بجوانح رسول الله اذ ذاك ؟... واى الآلام ابلغ من الم حز في قلبه هذا المشهد المروع ؟. لا أدل على هذا من الكلمات التى افترت عنها شفتاه وهو يقول : « لن أصاب بمثلك ابدا » ... ولا أصدق في التعبير عن سخطه من قوله : « ما وقفت موقفا قط أغيظ لى من هذا ! » لأن الله المرير يقصر عنه كل تعبير .

ألا قد تأثرت قريش حقا ، وثأر شيخها أبو سفيان بن حرب وشفى غليل حقه الذى نما في قلبه مع الأيام خلال أجيال وأجيال ، فانه الدوحة الباسقة التى غرس نواتها ذات يوم عبد شمس ، وتعهدا أمية ، ورواها حرب فى قلوب الأعقاب فأتمرت دائما الكره لآل هاشم في الجاهلية وبعد الاسلام .

وأبى رسول الله على المسلمين ان يعودوا بقتلاهم الى المدينة بل أمرهم ان يدفنوهم حيثما وقعوا صرعى . وراح هو يجهز حمزة بنفسه حتى اذا فرغ وقف عند رأسه بقول قبل ان يدلى به فى قبره :

« لولا ان تحزن صفية ، ويكون سنة من بعدى لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير ... ولئن أظهرنى الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلا منهم !... »
وقال الناس من حوله :

« بل مثله يا رسول الله لا يمثلها احد من العرب قط » .
ولكن الله رباً بنبيه عن الضغينة والانتقام فأوحى اليه ما يتفق وطبيعته السمحاء :

« وان عاقبتكم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ، ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر ، وما صبرك الا بالله ... »

واقبلت صفية وقد نما الى سمعها ما أصاب أخاها ، فأبت رحمة رسول الله وبره بها الا أن يأمر ابنها الزبير :

« القها فأرجعها لا ترى ما بأخيها ... »

فأسرع الولد اليها بأخذ عليها الطريق :

« يا أمه ، ان رسول الله يأمرك أن ترجعى » .

فرفعت اليه بصرا غاض دمه وبان في نظراته العزم ، وقالت

تسأل :

« ولم ؟ ... »

« ان أخاك » .

فضربت له أروع الأمثال في الصبر والاحتمال وهي تجيبه :
« قد بلغنى أن قد مثل بأخى ، وذلك في الله ، فما أرضانا بما
كان ... لأحتسبن ولأصبرن ... »
ومضت الى جنة حمزة وهي تسمع رسول الله يأمر ابنها قائلاً :
« خل سبيلها ... »

١٠

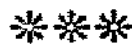
لم تكن أحد آخر المعارك التي كشفت عن حقد بنى أمية وان
اخفى هذا الحقد بعدها زماناً تحت رماد الظروف التي جردتهم وقتاً
من سلاح الانتقام . ولكن الجمرة - مع ذلك - ظلت متقدة وان كان
اتقادها أخذ يبدو في آونات على منحى لا يجعلها ذاكية الضرام طائرة
الشرر واللهيب الى من حولها من آل محمد ، بل كانت تحت رمادها
تثر وتستعر مدخرة أوارها الى يوم مرتقب ليس على أصحابها ببعيد ،
لأن النصر ، الذي أخذت ترقى في سلمه الدعوة الإسلامية ورجفت منه
قلوب الأعداء أجمعين ، ومن بينها قلب أبى سفيان وآل بيته الشائنين ،
خلفهم مسلوبى القدرة على كفاح الإسلام على النمط الذي يرجون ،
عاحزين عن النيل من محمد وذويه كمشيئة الأحقاد والأضغان .

ولم تكن أحد كذلك آخر المعارك التي برزت فيها بطولة على وبذله
وتضحيته - لا ولا أولها . ولكنها كانت القارعة التي امتحنت فيها
قلوب أبطال مغاوير . ثم علا بمحنتها قلب هذا الشاب على جلد قلوب
كافة من كانت جرت بذكرهم أحاديث الناس في أنحاء الجزيرة العربية
حتى طوقتها من الأطراف والحدود . فما من أزمة وقعت فيها الدعوة
الإسلامية أو تعرض لها رجالها المخلصون الا كان على مفرجها أو صاحب
الشان الأول بين العاملين على كشف غمتها عن النفوس والقلوب . .
وما من موقف تطلب في أيام الصراع بطولة الأبطال الا قاد ابن أبى طالب
فيه الصفوف وجمعت عزيمته الماضية شعث عزائم الرجال . بل كان
هو أحياناً المتقدم حيث تملأ الخشية والرغبة النفوس فيفئ بهذا
التقدم الطمأنينة عليها ، ويعيد اليها ما كاد أن يطير عنها من روع . .

وليس نبأ حصار المدينة بالصحيفة المطوية من صحائف الشرف في الدعوة الإسلامية يوم أن اجتمعت قريش وأحايشها وأحلافها من يهود يثرب يطوقون بلدة الرسول وفي عزمهم أن يضربوا الضربة التي لا يكون بعدها للإسلام قيام .

اجتمعت الأحزاب جميعها على محمد ، واتحدت كلمتها وقوى من عزائمها أن انضمت إليها قبائل اليهود الضاربة على حدود المدينة وكانت من قبل في حلف محمد حتى رأت اجتماع الكثرة عليه فآثرت أن تمائلها ، وأصاب المسلمين من هذا الاجتماع الساحق خوف أيما خوف حتى جرى في الخواطر أن يتآلفوا بعض الكفار بشيء يدفعه اليهم النبي لينفضوا من الحصار ثم تغلب أخيرا الاعتداد بعزم النفوس وبالنصر المرموق الذي لا بد أن يوليه الله حزبه المختار فأقبل المسلمون جميعا وفيهم نبهم يعملون كرجل واحد بمشورة الفارسي سلمان ويحفرون حول البلدة خندقا يحميها من جيوش الأعداء .

واقبلت قريش في جمعها اللجب يملأها الفرور وينفج منها الكبر الأوداج والنحور . وتهيات للهجمة التي توقع الذعر والاضطراب في صفوف هذه الفئة القليلة التي وقفت لها بالمرصاد . ما اعتاد جيشا وما أصخبه رعدا وأوفره عددا ! للمسلمين بلقائه أو بالشبات له طاقة ؟ . لولا أن عصم الله عيونهم أن تزيغ وقلوبهم أن يربن عليها الجزع لقد كادوا أن يرتدوا أمامه مدحورين .



وكان الخندق أسلوبا فارسيا في الدفاع ليس للعرب به قبل يومهم هذا عهد فوقفت قريش أمامه مذهولة ثم مسلووبة الحيلة ، لا تستطيع أن تتجنازه إلى الدين عسكروا خلفه أن لم يستحل عليها اجتيازها ، ولا تستطيع سيوفها أن تنال من رقابهم كما حسبت حين أقبلت بجموعها تروم القتال . ولم تملك هذه الحشود المجيشة بازائه إلا أن تقدم رماتها يستهدفون المسلمين الرابضين خلفهم فيجيبهم هؤلاء من ورائه نبلا بنبل . وطال هذا التراسق بين الفريقين لا ترجح به لأيهما كفة . ودب في نفوس قريش الملل من فتور الصراع ، وضاق

أمرها عليها . وخشى ذوو الحكمة أن يبرد حماس مقاتلتها فذهبوا يتذرعون إلى إخراج المسلمين من مكانهم بكل وسيلة حتى أعيتهم الحيل ولم يجدوا مناصا من اصطناع الجراة عساهم يعملون أسلحتهم فيهم على النحو الذي يريدون .

وكذلك تقدمت من بينهم عصابة ، هي أشدهم وأجلدهم على الصراع والصيال فامتطت الخيل ، وسارعت تضرب أجنابها إلى ناحية من الخندق سهلة الاجتياز محاولة أن تفتحها كي تكون مجاز بقية جيشها إلى المدينة .

ولكن عليا كان كدأبه اليقظ الذي لا تفوته من عدوه حركة أو لفتة . في سرعة الصوت قفز بجواده على أولئك المجترئين لم يشبه عنهم أنهم جماعة وهو فرد . ولم تذهله المفاجأة التي اندفعوا بها يقتحمون الخندق على المسلمين قبل أن ينتبه لفعلتهم كثيرون غيره . وكالبرق طاح بينهم سيفه اللماح حتى راعهم منه ما حسبوا من قبل أنهم مروعود بمثله . وكأنما أعادت حملته الصادقة إلى نفوس أصحابه الوعي الذي عاب عنهم هنيهة فسارعوا إليه يسرون في أعقابهم ويدفعون حتى فرت خيل المشركين ولوت أعنتها لتعبر الخندق إلى صفوفها مرتدة .

لا بد أن يكون هذا قد أصاب من اعتداد قريش ومن صلفها ومن كبريائها ولا بد أنها استشعرت فيه طعم مهانة لم تذق لها في يومها طعاما . وكان أكثرها شعورا بمرارة هذه الفاتحة الخاسرة فارسها المجلى وبطل ميادينها عمرو بن عبد ود ، الذي قاد عصابة خيلها فاقتحم الخندق عزيزا ثم انشنى فاجتازها مدحورا ذليلا . لم تعد القضية الآن في حساباته قضية قريش بل أصبحت قضيته هو . . . قضية الذكر الداهب في أنباء البطولة إلى السماء ، والصيت الذي تحدث به العرب في الجزيرة ورواه رواة في كل الأنحاء . . قضية السيف الحاصد البتار كأنه شعلة نار . والرجل الذي لا يقومه قومه بين الرجال إلا بألف من الأبطال . . . قضية الكبرياء المهيضة الجناح كأنما قد طمعت في قلبها بأسمى سلاح !

لم تثبت عمرو قوائم فرسه حتى عاد بها إلى جانب الخندق كأنه القلعة فوق صهوتها ، دارعا مقنعا بالزرد والحديد تهتز الأرض تحت ثبته وذهوه ، وتنتهبه العيون من كلا الفريقين بنظرات فيها رهبة وفيها

اعجاب ، ثم لا تكاد أن تستقر عليه طويلا بل تفضي لفرط ما ملا
الاسماع من صيته المرهوب وما جرى من انبائه في النفوس والقلوب .
واشرف الفارس من مكانه على المسلمين يدور فيهم بعينه ،
ويقتحمهم ببصره ثم يهتف بهم في صوت داو مروع كالزئير :

« يا رجال محمد ، هل من مبارز ؟ » .

لكأن كلماته هذه كانت نداء الموت !... ما من رجل سمعها الا
رجف لها بدنه وان كان بين عسكر مناصريه . او كابها قد أغلقت دونها
الاذان فلم يجر لها جواب على لسان .

وأرسل عمرو فرسه تميم وتختال امام الصفوف ، ورسول
الله واقف يدعو ربه الا يتقدم أحد من رجاله لتلبية النداء .
والمسلمون مشفقون صامتون وفارس قریش لا ينى يتفرس في
وجوههم بنظرات الزراية والمكاء .

وعاد الرجل ثانية يهتف :

« الا رجل يبارز ؟ » .

فتقدم على هذا النداء على بن ابي طالب . لئن دفعه رسول الله
ورده في الاولى فما هو براده الآن وقد تخلف عن قبول التحدى غيره
من الفرسان .

قال متوسلا لرسول الله :

« انا له يا نبي الله »

ولكن النبي كان ضنينا به على سيف ابن عبد ود فدفعه ثانية وقال :

« انه عمرو . اجلس ! »

فجلس مطيعا وبوده لو استطاع سبيلا الى العصيان .

وعاد عمرو يصيح ، وقد بدا له أن يمعن في التهمك كما يشاء :

« يا اصحاب محمد !... أين جنتكم التي زعمتم انكم داخلوها

اذا قتلتم ؟ ... افلا يريدونها رجل منكم ؟ اما منكم من يقدم ؟ »

فعاود على توسله النبي وقلبه يأكله التلهف على مقابلة هذا

الخصم المرهوب :

« انا له يا رسول الله ... ائذن لي »

« انه عمرو . اجلس ! »

على هذا النحو من النداء والاستجابة جرى الامر مرارا . ومحمد

يأبى عليه حبه عليا أن يخلى بينه وبين صناديد العرب ، والمسلمون

جميعا لا يكاد أن يرتفع من بين ابطالهم المشاهير صوت يلبي دعوة ابن عبد ود الى الاحتكام للسيف ، لفرط ما قر في الأذهان من اجادته فتون الطعن . ولكن عليا وحده . . . الشاب الذي لما يكتمل شبابه وخلع بالأمس فحسب عذار غلومته له تسكته الرهبة ، ولم يقف به الخوف لأن له قلبا لا يعرف الرهبة والخوف ، وله اعتداد بقدرته فوق كل اعتداد ، وله بصيرة مرهفة كحد السنان علمته أن هذا التلكؤ عن البروز لعمره فيه الشر غاية الشر لأنه سيدع النفوس فريسة خوف اخف من أثره وقع الموت - اذا شاع أفقد الرجال حب القتال ، وأورثهم التشبث بالحياة ولم يقم عمد الاسلام حتى اليوم إلا حرص رجاله على الموت !

لذلك ما أعاد ابن عبد ود دعوته حتى هب ابن أبى طالب يعيد التوسل الى نبيه :

« ايذن لى يا رسول الله »

« انه عمرو ! »

« وان كان ! »

ويخلى النبی أخيرا بينه وبين غرضه ، فكانما أصاب الشاب بهذا الاذن خير دنياه ! ويقف الرجل المدل بماضيه ، التياه على العالمين بصحائف بطولته ، المعتر بجبروته وصولته أمام هذا الحدث فيستهيئ به ويستصغر شأنه ويقتحمه بعين ساخرة ثم لا يرفع سيفه أنفة وكبرا ، ويقف على رابط الجأش ثابت الجنان كأن ما يبدو من صلف عمرو ليس يعنيه ، وبحسبه أن يتربث بهذا الفرس الشاکی الفارق فى زرده وحديده ، ويصبر حتى يكون منه بدء القتال لأنه هو لا يحب لنفسه أن يكون البادىء سل حسام .

ويعجب عمرو لهذه الجرأة التى دفعت اليه هذا الغلام فيقبل عليه يسأله : « من انت ؟ » .

فيرميه بالجواب فى اقتضاب :

« على » .

« من عبد مناف ؟ »

« ابن أبى طالب » .

فتعطف الفارس عليه الشفقة ، ويقول :

« ابن أخى ! .. قد كان أبوك لى صديقا » :

ولكن ساعة الضراب تنسى الأنساب ! .. لا يدع على لعواطفه سبيلا على نفسه ، بل يقول جادا فى حزم :

« يا عمرو ! » .

« أى ابن أخى ! » .

« انك كنت تعاهد فومك الا يدعوك رجل من قريش الى خلال ثلاث الا أجبنه الى واحدة ... » .

« نعم هذا عهدى ... » .

« فانى أدعوك الى الاسلام » .

فضحك الرجل :

« وأترك دين آبائى ؟ .. دع هذا عنك » .

« أو أكف يدى عنك فلا أفتلك ، وترجع ! » .

فملك الرجل غضبه قدر وسعه . يالجرأة هذا الغلام اذ يخوفه نفسه ! وقال دهتما وهو يظهر الأناة :

« تكف عنى وأرجع ؟ .. اذن تتحدث العرب بقرارى » .

« فانى أدعوك الى النزال ... » .

وكانت بالفارس بقية من صبر وبقية من شفقة ، فقال ملاطفا ، وهو يؤمن بالفارق بينه وبين قرنه ، ولا يرى شرفا فى قتاله :

« ولم يا بن أخى ؟ .. غيرك من أعمامك من هو أسن منك ، وانى أكره أن أهريق دمك » .

« ولكنى والله لا أكره أن أهريق دمك ! » .

هنا غلت مراحل الفضب فى صدر عمرو على هذا السليط الساخر ، واستل سيفه المشهور ، ثم أقبل ينزل به كالصاعقة على رأس على فما أسرع ما استقبل الشاب الضربة العاتية بدرقته حتى قادت ، ونفذ منه الحد الى رأسه فشجه . ولكنه مع ذلك استطاع ان يحتفظ بثباته . وأن يحيد عن ضربات فارس العرب مرات ثم يكر عليه بحسامه فيصيب حبل عاتقه .

كانت قريش جميعها واثقة من المصير المحتوم الذى ينتظر الشاب ، عالمة به قبل وقوعه . وكان المسلمون مثلها منذ بدأ الصراع وان استبدلوا بفرحتها بهذا المصير اللوعة على المنازل الصغير ... أجل فلم يكن بين كلا الفريقين الا من هو مؤمن أشد الأيمان بإضافة عمرو ضحية جديدة فى عداد ضحاياه . ولكن الله بدل حدسهم جميعا ، لأن العيون

وقعت بعد قليل على ما لم يدر مطلقا فى الاخلاص والظنون ... سقط عمرو وقد هدته الضربة ، وثار لسقطته الغبار الى جوار اقدام على كما يشور لحركات ثور ذبيح ! ... ومن بين الفبرة التى ارتفعت علا صوت ابن أبى طالب بالتهليل والتكبير يتلوه هتاف الآلاف من عسكر المسلمين .

١١

اقدام حيث لا معدى لغيره عن التزام الاحكام .
هذه ناحية من خلق على ، واضحة الملامح جليلة ، رفعته فى مجالى الشجاعة على الناس ، ان أدلى بالرأى أو هز السيف .
ومع ذلك فلم تكن فى الشاب دفعة ، ولا تهور أو طيش . ولكنه كان يصدر فيما يأتیه دائما عن حكمة خفيت عن نفوس الناس ، وشعور كأنه الهام يوفى به على احكام التقدير عند اقتحام المعامع أو معالجة الأمور . كانت له نظرة ثاقبة نفاذة فيما يعرض له ، ولكنها كانت أيضا لمحة تسبق ما يستخلصه سواه بعد اعمال فكر أو موالاة تدبر ، وتصل به سريعا - وغيره لم يزل بعد فى بدء التفكير - الى النتائج العvisية على العقول حتى ليحسبه الناس يجنح الى اعتساف الحلول . وكانت تقوده دائما بديهة صافية ، ويسدد خطاه قلب ملأته الثقة بقدرة صاحبه وان كانت هذه صفة تعدل الغرور فى نظر مغلولى الصدور ! .
اجل رفعته صفته تلك وعلت به على اقدار الناس ، وكان لها صدئ فى نفوسهم يتفق وامبال هذه النفوس ... بعضها استجاب له معجبا مواليا ، وبعضها اضله الحسد فقلبه عائبا زاريا ، والناس دائما أمام البطولة اثنان : مكبر حامد وزار حاسد ، وان كانوا الى الثانية ، غالبا أميل .

لذلك لم يكن عجبا أن تنطوى أكثر الجوانح على الحسد لهذا الشاب الذى عز على القوم أن يلتمسوا فى أبطالهم له الضرب دون الاضراب . حتى بين صحابة الرسول لم نعد أن نجد له حاسدين لا يستطيعون الاخفاء وان حرصوا جهدهم على هذا الاخفاء . وكان النبى يلمس فيهم

الكثير من أمثال هذا الجنوح فلا يفتأ اليوم بعد اليوم يتحدث لهم بفضل على ويقص عليهم من قربه الى قلبه ما عساهم به يرعوون عنه . ولكنهم كانوا عبيد طبائعهم ، ينقمون على الشاب الفضل الذي خلت منه نفوسهم او لم يستطع فضلهم أن يسير واياه في ميدان . ولئن رأينا العجب في أن يعمل بعض صحابة الرسول هكذا مع الهوى ، فأعجب منه أن نرى في آل بيت الرسول من يجري جريهم وينزع مثل منازعهم . وهكذا الزبير بن العوام - وأمه صفية عمة على - يكاد يتصيد الهنات ليلصقها بابن خاله كأنها أسوأ الصفات . خرج ذات يوم ورسول الله يسيران فاذا بهما يلقيان عليا ببعض الطريق ، ويضحك محمد لابن عمه محيا فيجيبه هذا ببسمة ثم يمضي لشأنه . فكأنها كانت وزرا هذه البسمة . يأبى الزبير الا أن يتلقفه ليغضيه من شأن قربه المحسود ! . . . يقول لرسول الله بكلام ناعم ليس يخفى معناه :

« يا رسول الله ، لا يدع ابن أبى طالب زهوء »

فلا يستطيع محمد أن يسيغ منه القول على ظاهره ولا باطنه وهو الذي لا تخفى عليه مكان القلب ولا مجهول الغيب ، بل يرد عليه :

« انه ليس بزهو . ولتقاتلنه وأنت له ظالم »

وما كان على المزهو ولا بالمستعلى كبرا على الناس ، ولكنه الاعتداد بالنفس والثقة تختلف مقاييسها في أعين الناس بين حامد وحاسد . ركب نفسه ، طوال عمره ، بالرياضة والنسك حتى أسلمت له الزمام ذلولا يعصياها ولا تعصيه وان أرادها على اجتياز المهالك وأوعر المسالك ، وهذه منقبة فيه كان حريا أن تلف حوله القلوب وتعطفها عليه . ولكنها كانت في أنظار الكثيرين منقصة ، ألا أولئك الذين تجردوا عن الهوى . وكانت له هو سر فوزه دائما على محبيه ومغضيه على السواء ، وظهوره حيثما خبا لهم نجم وطاش سهم .

كذلك رأيناه في بدر يستبق المسلمين الى رءوس كبار المشركين ، وفي أحد يثبت كالجبل الراسخ امام السيل الذي كشف عن محمد أجلة صحبه وأبطالهم ، وفي الخندق يكون وحده البادرة التي آذنت بهزيمة قريش وكسرت قلوبهم اذ أصمى بسيفه صناديد الجزيرة العربية عمرو بن عبد ود ثم نراه - بعد هذا - هكذا دائما ، لا يسبقه الى فضله سابق ولا يلحق بفباره لاحق . بترددون ولا يحجم ، وينكصون ويتقدم . يسير النصر امامه ويسدد التوفيق اقدامه .

بعث الرسول الكريم أبا بكر الصديق الى خيبر ليفتح منها حصن ناعم ، ففضى الرجز وجنده يومهم يناوشون اليهود لا يستطيع أن يثلم فى أسوارهم نلمة أو يتحين منهم غرة فعاد بكتيبته غير موفق . فلما كان اليوم الثانى أمر الرسول على الكتيبة عمر بن الخطاب وعقد له اواء الحرب ثم أرسله . ولكن بانى الصالحين لم يصب خيرا مما أصاب زميله ، بل عاد هو الآخر كهودة أبى بكر ، وخلف الحصن مفلق الرتاج . ثابت البنيان وطيد الأركان .

وجاء اليوم الثالث فاذا النبى يدعوا اليه عليا ويقول له : « خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك ... »

فتقدم فى التورجالة ، ومضى يعدو الى الحصن العصى . لم يلق ملائمة من ايهود أو تريثا حتى يروده يهجم ، بل وجدهم يبادرونه بالقتال . خرجت فرقة منهم فسدت على المسلمين مسالكهم الى الحصن وذهبت نساولهم ولا هم لها الا هذا البارز أمام الصفوف يتقدمهم غير هياب ، ولا تكاد اعين ان تلمح منه حملات اسيف أو حركات الدرع بين طعن ودفع وقد جاءت لحظة على هؤلاء اليهود ظنوا ان قد ظفروا بماربهم وأوشك النصر ان يلوذ بهم حين تكاثروا على الشاب واستطاعوا ان يسقطوا من يده ترسه وسارعوا نحوه ، وهو مكشوف الصدر أمام نصالهم . محاولين ان يتخذوا من جسمه أهدافا . ولكنه كن أسرع فدما ، وانقضى عينا . استطاع فى لمحة بصر أن يميل عن طعنات مناوئيه ، ثم يلوذ بجانب من الحصن غير بعد وفى لمحة أخرى وسعه أن يخلع بابا من جدار . وفى لمحة ثالثة شاهده اليهود قد كر عليهم قبل ان تتبين حركة من حركاته أو تنتبه لخطوه : سيفه فى يد ، وفى الأخرى الباب الثقيل يترس به عن نفسه بدل الدرع المفقودة ، ينشر بينهم الموت وهو لا يكل ولا يصيبه الجهد حتى انطرحوا صرعى تحت قدميه ، واتخذ من الترس العجيبة — بعد هذا — قنطرة الى داخل الحصن تبعه عليها أصحابه ، ثم تم الفتح .



على هذا المنوال كانت حياة على مثالا فذا من البطولة منذ اشرق فجر حياته على دنيا التاريخ . وكانت سيطرته على نفسه هى رائده الأوحد الى هذه البطولة ، لا يعنيه الا ان يفعل ما دام يؤمن بمقدرته

على أن يفعل ، وكان دائما يؤمن بهذه القدرة التي جربها فلم تخنه مطلقا في مرة . وما أحسبه كان مستطيعا غير هذا وهو الذي شب في اكناف رجل وقف بمفرده امام عالمه بغير سلاح الا ايمانه .

انما نحله محمد بعض النقة التي سلحه بها الله واضفى عليه من سوابغها آيات . ولئن كان على قد برز على انداده في هذه البطولة المادية فلقد توفرت له منها - فوق التوجيه النفسى - طوابعها الجسدية التي كانت تنسئ دائما بما فيه . كان الفتى في الاقران شديد البنيان، موفور القوة الى مدى لا يصل اليه قرين ولا اقران . وبحسبك ان تسمع حديث التاريخ يلقي على مسمعك فى قصة حصن نامم أن بضعة عشر رجلا من اصحابه حاولوا ان يحملوا الباب الذي كان ترسه فناءوا به ! .. وكان ضخمة عضلة الساق ، أميل الى القصر فهو بصفتيه هاتين اثبت فى موطىء قدميه واشد رسوخا ، ملء عضلات الاعضاد مكتلها حتى يستطيع ان يخطف بذراع واحدة فارسا عن فرسه . وان كان دارعا فى الحديد . فيجلد به الأرض كما تضربها بسوط ، ثم يقذف به كالكرة الى اينما شاء ! .. وكان آدم شديد الأدمة وان كان الى جانب هذا حسن القسمات كثير البسمات ، على محياه مهابة ، كبير العينين ، لنظراتهما الساطعة فى قلوب مشاهديه نفاذ .

وكان هذا الاعتداد بالنفس الذى ميزه فى بطولته المادية صاحب الاثر الاكبر فى تشكيل بطولته المعنوية . كان يرى الناس من خلال صفاته هو . ويزن اعمالهم على النمط الذى بود منهم ان يزنوا اعماله على منواله . ميزانه دائما الحق الاسمى لانه رجل وهب حياته للذود عن هذا الحق وحاسب دواما نفسه والزمها سبيله .

لهذا لم يعرف مطلقا كيف يهادن او يداور ، بل كان يلقي بالراى صريحا ، واضحا ، قاطعا كالسيف ولا يابى اباء باباء ام حاز الاعجاب . وانما كان يلقي به ارضاء لضميره المرهف واعلاء لكلمة المثل الأعلى الذى اعتنقه ولقد جعله حبه الصواب الامثل مثالا لا يبارى فى شفافية النفس حتى لا تخفى عن عواطفه خافية لان ملامحه ذاتها كانت تنطق بالراى قبل تكونه على شفتيه كلمات ... كان قلبه على لسانه . ولعل اشد ما امتحنت به صراحته وكان له ابعد الاثر مستقبلا فى حياته ، هو رايه فى حديث الافك غب رجوع المسلمين من بنى المصطلق .. جرت حينذاك السنة السوء فى عائشة ، وتقول عنها

الناس عن صفوان السلمي لأنها تخلفت في الطريق لبعض حاجتها ولم ينتبه لتخلفها أحد ففاتها القافلة حتى قبض لها صفوان مارا فخلى لها عن بعيره وحملها الى المدينة .

لم تكن القصة لتذيع ، وما كان بها ما يخشى ذبوعه ، لولا فئة المنافقين التي أخذتها وسيلة لا يذاء محمد في سمعة زوجه وكانت عائشة صغيرة السن ، مليحة ، أثيرة على النبي حتى كنت محور غيرة أزواجه الأخريات ، والفيرة دائما سمعة . وليس أجرى على لسان النساء وأحب الى قلوبهن من الخوض في أحاديث النساء !

أما النبي فقد أخذ نفسه بالصبر في البدء عسى أن يصمت الهمس . ومضى يصطنع الحلم والأناة ، ويصطنع الهدوء ، ويكظم في ذات نفسه ما يعانى . ولكن الهمس لم يصمت بل استشرى كالنار وذاع . وامتلات بحديث الأفك محافل المسلمين بعد محافل المنافقين . وتأذى محمد وتألم ، وتأذى له خلصاؤه . وكان على من عرف للنبي إيثارا وحبا فبلغ ألمه من أجله غاية مداه . لم يستطع أن يرى محمدا هكذا مضغة في أفواه القوم بسبب فرد مهما كان في العالمين ، ان كانت عائشة أم المؤمنين . ولم يكن يلقي عليها شكا ولا يتهمها بسوء وإن تطايرت حولها القالة . ولكنه كان يعلم ان المرأة سيرة ، وأن الظن شية ، وعسير أن تنفى الخدس والظنون من أفهام الناس .

لذلك ما كاد النبي يستشير في الأمر حتى قال بلا موارد :
« يا رسول الله ، ان النساء لكثير . وانك لقادر على أن تستخلف .
وسل جاريتهما فاتها ستصدقك » .

ولقد نزل في عائشة بعد هذا قرآن ينقى صفحتها ويبرىء ساحتها فأقبل المتقولون على أنفسهم يتلاومون ، تائبين نادمين ، وراح حديث الأفك دبر الأذان . ولكن عائشة بدت كأن لم تنس لابن أبي طالب ما كان من مشورته كأنها كانت تود أن يقطع ببراءتها رغم أن زوجها رسول الله لم يعجل بهذا حتى اتاه برهان الله ! . . . وانا لنراها لهذا تكرهه طوال عمره ، وتنقم عليه حتى آخر نسمات حياته ، وتحملها نقيمتها هذه على فض القلوب عنه وجمع السيوف عليه . وما نحسب كل هذا كان وليد رايه عن قصة الأفك فحسب لانه لم يقل الا ما كان جديرا به أن يقوله ، ولم يخالف - اذ قال - ما بدا اذ ذاك من توجس الرسول . ولكن عائشة كانت ، قبل كل شيء ، امرأة لها طبيعة

النساء . تغار كمثل غيرتهن . فاذا عرفناها تعلم قرب على من قلب زوجها قربا لم يبلغه منه أدنى الناس حتى كانت تسأل :
« أى الناس أحب الى رسول الله ؟ »

فتجيب :

« فاطمة »

« ... من الرجال ؟ »

« زوجها ... »

إذا علمناها كانت تعرف هذا القرب بين قلبى زوجها والشاب ، ثم علمناها غريرة صغيرة حين أعرس النبى بها ، لها جموح مثيلاتها من غريرات صغيرات لم تر عجبا فى ان تغار على زوجها من على وقد طالما رآته يحبسه عنها أكثر الوقت ثم لا تراهما الا فى رفقة ... فاذا مر الوقت زادت الألفة بين الرجلين وكان قمينا بها ان تبلى جدتها . وكانت هى تمنى النفس بأن تملك وحدها وقت محمد خلال الفراغ ، فاذا بها ليست تملك الا بمقدار الثلث لأن لعلى وفاطمة فيه نصيبين ! حتى اذا دار الزمان وولى عهد الرسول لا نلبث ان نرى عائشة أميل الى النعمة على ابن أبى طالب منها فيما مضى ، اذ وجدت فيه - فوق ما أثارها عليه من قديم - ذلك المنافس العنيد الذى قام ينازع أباهما صولجانه ولا يقر سلطانه ...

١٢

استطاع الاسلام بعد الخندق ان يقف على قدميه : ان يثبت ، ثم يسير الى الامام .

فلقد اوقعت الغزوة هيبتة فى قلوب اعدائه لانهم جربوا حماته ، وعرفوا مدى العزم فيهم قبل ان يرسل الله على قريش واتباعها جنود الريح تقلب قدورهم . وتطفئ نارهم ، وتقتلع مضاربهم من ارضها اقتلاعا ..

واوقعت الغزوة ايضا الحذر فى نفوس المسلمين فباتوا لا يأمنون على انفسهم احلافهم القدامى : قبائل اليهود الضاربة على تخوم المدينة ، الذين جعلوا البلدة تحت رحمتهم ، ان شاءوا منعوها أو شاءوا اسلموها .

ولم يكن محمد بالذى يحب الاعتداء أو يسيغه فحرص جهده - منذ البدء - على أن يكون وأصحاب الكتاب هؤلاء على أطيب الصلات ، علما منه بأنهم أصحاب دين الهى قلوبهم أميل الى الانتصار للاسلام منها لنصرة عبدة الأصنام . ولكنهم كانوا قوما حاسدين باغين ... أعماهم تعصبهم عن المحجة فقاموا ينتهزون كل غرة للايقاع بمحمد والاتفاق مع أعدائه المشركين على كفاحه .

لذلك لم تكد جموع قريش ترتحل عن الخندق وقد نبا بها المقام ، حتى نادى منادى رسول الله فى الناس :

« من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر الا فى بنى قريظة . . »
وقدم النبى عليا اليها برايته والمسلمون يترسمون خطاه فى افواج ، وأولاهم الله نصره العزيز . وأباحهم من بنى قريظة أعناق رجالها يضربونها ورقاب نسائها ... ثم أولاهم نصره العزيز ثانية . وما زال يوليهم اياه كلما ساروا ، يوما بعد يوم . الى فئة من هؤلاء اليهود حتى لم يعد ذكر لقريظة ، أو المصطلق ، أو النضير أو أى من المسميات التى عرفوا بها ، وطهرت منهم الأرض .

وهكذا أمن الاسلام شر عدوه الذى طالما استتر تحت ثوب صديق . ثم أمن شر قريش ، ذلك العدو انسافر المبين ، الى حين ... فلقد كانت قريش أعيانها القتال وامسحها النضال ، فلما جاءت السنة السادسة من مكث محمد بالمدينة وراته بنفلة فى رجال كثر فيشرف بهم على مكة أو يكاد وهو فى طريقه بهم الى حج البيت ، خشيت أن هو دخل عليها بلدتها ولم تمنعه تقولت عنها العرب ، وأن وقفت دونه تسد عليه الطريق وتحول بينه وبين ما يريد رفع السيف الى رقابها . . وكلا الأمرين عليها شديد ! ...

وفكر سادتها وأعملوا الفكر . ما كانوا بمستطيعى قتاله ، عامهم هذا ، وهم منهوكون القوى قد اكلت الحرب منهم مأكلا ، وما كانت كبرياؤهم لتلين أمام تقدمه بهذا الجحفل المنشود وتخلي بينه وبين البلدة بدخلها عليهم بدون قتال ... أن الجزيرة لن تصدق أن محمدا دخل مكة عن رضا من قريش بل سيذهبن فى الافاق انها طاطات رعوسها راضخة لأنها تخشاه .

استطاعوا أخيرا أن يصلوا الى الراى الذى يحفظ عليهم كلثا دمائهم وكبرياتهم ، فقرعهم على مهادة محمد على أن يرجع عنهم

عامه ثم له عود في الموسم القادم ان شاء . ولم يكن محمد بالذى يخيب رجاء أو يرد حجة . فاستقبل رسولهم وراح ينصت اليه ويحسن الانصات ، وراح سهيل بن عمرو يناشده حق الدار ، وحق العشرة ، وحق قومه الذين خشوا أن يقتحم عليهم بلدتهم عنوة فلا ترتفع لهم مكانة بعدها في نظر الناس . وتحدث الرجل طويلا ، ووسع حلم النبي كل حديثه وكل مطبئه . وتم الاتفاق بينهما الا يعدو منهما فريق على فريق ، وأن يضعوا الحرب الى أجل معقود ، وأن يرجع رسول الله بالمسلمين الى المدينة هذا العام ثم لهم عود الى زيارة البيت بعد عام ...

ودعا رسول الله عليا ليكتب لهما العهد .

قال له ممليا :

« اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ... »

فقطعته جهالة الجاهلية على لسان سهيل :

« بل ، باسمك اللهم »

قال محمد موافقا :

« باسمك اللهم ... » ثم مضى يملأ : « .. هذا ما صالح عليه

محمد رسول الله ، سهيل ... » ولكن رجل قريش عاد يقطع عليه الاملاء .

« امسك ! ... فلو شهدت أنك رسول الله لم اقاتلك ... بل

اسمك واسم ابيك »

فقال رسول الله لعلي يأمره :

« هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله .. »

وكذلك أصبح عهد الحديبية موثقا ، وأمن الاسلام عدوه المبين

الى حين ، فاستطاع محمد أن يفرع لتنظيم دولته واعداد العدة

لمستقبلها ، كما استطاع من اراد من القبائل أن يحالف المسلمين أو

يحالف المشركين فلا يصيبه من الفريق الآخر عدوان ولا يجرى عليه

اكراه .

ولكن قريشا لم تكن لتستطيع أن تنزع عنها ما ركب في طبائعها من حب العدوان ، فلم تلبث حين سرت إليها الأنباء بأن المسلمين في مؤتة سقط الكثيرون منهم صرعى على أيدي الروم ، أن ظنت الاسلام قد أصبح مهيب الجناح سهل المنال ، غير منيع ولا مرهوب ، لا يقوى رجاله أن يدفعوا عن أحلافهم ومن في عقدهم من الناس ما داموا قد عجزوا عن الدفع عن أنفسهم .

كانت بنو بكر في عقد قريش ، وكانت خزاعة في عقد الرسول فعدت أولاهما على الثانية فأصابتهما منها بئس قديم . وكان شبان قريش قد علموا انباء مؤتة فحفزهم ما ظنوه هزيمة المسلمين على أن يقتصوا منهم في أشخاص أحلافهم الخزاعيين وفي حساباتهم أن محمدا ليس بقادر على رد العدان . ولكنهم لم يصيبوا الظن وان أصابوا العدو ... بل كانوا في بغيهم مسرفين إذ تبعوا من خزاعة رجلا تحصنوا بالحرم فأعملوا فيهم الاسياف ، لا يمنعهم عن الايذاء قدسية البيت ولا حرمة المكان .

وأسرع عمرو بن سالم الى رسول الله بمسجد المدينة ، وأسرع بعده بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة يقصون على محمد نبأ من قتلت قريش الباغية وأحلافها منهم ، ويستنصرونه على أن يقيم الحد على من نقض العهد .

هي الحرب اذن تأخذ من قريش مأخذها نصرة لأولئك المظلومين ، واثارا لكرامة المسلمين ... كذلك توقع الناس ، وقرأوا في الفضبة التي شاعت آثارها في محيا الرسول وهو ينصت الى شكايه المظلومين . ورفع رسول الله بصره الى رجال خزاعة وقال :

« لا نصرت ان لم أنصركم مما أنصر منه نفسى ! ... »

وراحت توا فرحة النصر الرخيص الذي استشعرته قريش من وراء العدوان ، حين فتحت عينيها على ليل حالكة باتت فيه على قلق لا تعرف مداه كلما أجالت في أذهانها الخطة الفامضة التي لابد أن يتخذها حيالها محمد . ان حماس شبابها لن يثبت للمسلمين في ميدان . وان محمدا ، الذي لم يعهدوه نواما على الضيم وهو منفرد وحده أمام جموع المناوئين ، لن يغضى لهم ايوم عن الاساءة وقد أصبح القوى العزيز السابغ السلطان .

ثم عجمت أعوادها وتخيرت من بينها السهم الذي ظنته يصيب .

كان لابد لها من مخلص من هذا الحرج الذى وقعت فيه ومنجى من العاقبة التى جرها عليها طيش الشباب فيها وغفلة الشيب . وليس بعاصمها من غضب محمد سوى اريب ماهر وداهية مداور ، يستطيع أن يصل بحديثه الى قلب محمد الرقيق الكريم قبل أن يصل الى أسماعها .

وهكذا اختارت قريش شيخها أبا سفيان بن حرب . ففى الرجل دهاء ، وفيه مداورة ورياء ، ثم هو قبل هذا وفوق هذا له بمحمد أواصر قريى تصل الى الأجداد ، وتقرباطها النسب مذ تزوجت ابنته أم حبيبة برسول الله ... ولعن ما يشكل على السياسة حله يكون هينا ميسورا عند انعطاف القلوب بين القريب والقريب .

ولقد وفقت حقا قريش ، باختيار أبى سفيان رسولا عنها الى محمد ، الى اختيار السهم الذى لم يصب وان كانت ظنته يصيب ! . ولكنها على أى حال لم نجد بينها من كان أولى من الرجل بأداء هذه الرسالة والسعى الى رسول الله يترضاه . وكان اختياره فى ذاته توفيقا وان لم يوفق مختارها فى مسعاه ؟ ... وكأنى بمحمد ، ذلك اليوم ، قد تكشف عن بصره الأسجاف التى نغشى ابصار الناس ونجعل نظراتهم لا تنطلق الا بمقدار ... كأنى به - من بعيد - قد اطلع على قريش ، وعلى قلوبها ، وعلى ما طاف بأذهانها من افكار وما أجمعت عليه من اختيار ، حين التفت وهو بمسجد المدينة الى صحبه يقول :

« كُنتُمْ بِأَبَى سَفِيَانٍ قَدْ جَاءَكُمْ ، لِيَشُدَّ الْعَقْدَ ، وَيَزِيدَ فِي الْمَدَةِ . »

١٣

قال أبو سفيان وهو يجلس ، بمسجد المدينة ، امام رسول الله :
« يا محمد . انى كنت غائبا فى صلح الحديبية ، فاشدد العهد ، وزدنا فى المدّة » كأنه لم يعرف بنكث قومه ! ...
وقال محمد يجيبه فى هدوء :
« ولذلك قدمت يا أبا سفيان ؟ »
« نعم » ...

« فهل كان فيكم حدث ؟ » .

فلم ير الرجل بدا من الكذب فقال :

« معاذ البيت ! فنحن على موثقنا وصلحنا يوم الحديبية ، لا تغير

فيه ولا نبذل » :

هنا طاشت حيلة ابن حرب ، وعرف أن أسلوبه في الكذب

المداورة مغلوب أمام اليسر والبساطة في هذا الأسلوب !.. ان

كانت قریش لم تنكث فالعهد قائم لا تبديل ولا تغيير ، وان كانت

نكثت فعلى نفسها الجزاء الذى يفرضه النص المكتوب ثم لا تغير بعد

هذا ولا تبديل ! ..

وقام الرجل عن مجلس محمد بعد قليل ، مدحورا لأنه لم يستطع

أن يلتمس الوسيلة الى اقرار ما جاء في شأنه بعد أن يئس من الفوز

بسمع محمد فضلا عن الفوز بقلبه . وخرج يسير ، ويعتصر ذهنه

ويكده عساه أن يطلع عليه برأى رجيع . ولكنه وجد نفسه من ذهنه

المكدود فى بيداء لا يستطيع أن يقع فيها على الثمرة المشتهاة ...

احس مقدار عصيان عقله له وخذلانه اياه واستشعر فى قرارته

ضغطا لم يقف له من قبل على نواة فتأثت نفسه الى من يشد أزره

ويظاهره ولم يكن يأمل أن يجد بين أسوار المدينة من يقف الى جانبه

أمام محمد ويؤيد القول الذى اختلقه منذ لحظات ، وانما ود لو استطاع

أن يرتد ثانية الى المسجد لينكر فى جلاء الحقيقة التى من أجلها

جاء ، والرسالة التى سعى سعيه وهو يرجو لها الأداء . ولكنه آثر

أن يترث ، وأن يحاول الولوج الى قلب محمد من خلال زوجه - أم حبيبة

ابنته - التى ما حسبها تحب أن يرده محمد على اعقابيه الى قومه

بمكة ، يسبقه الهوان ويمشى فى ركابه الخذلان ...

دخل عليها دارها ، واهنا منهوكا بعد رحلة منهكة . ومشى شارد

البال فى الغرفة بهم أن يجلس ليريح قدميه ثم يدلى اليها بما يشاء .

فما أسرع أن رآها تثب فتسبقه الى الفراش فتطويه دونه ، وادهشته

هذه البادرة منها وحيرته ، فرفع الى وجهها بصرا وان عليه التساؤل ،

وقال :

« عجباً من العجب !.. أرغبت بهذا الفراش عنى أم رغبت بى

هذه ؟ » ..

« به عنك ! » .

فصاح كاللسوع :

« ويحك ! ما تقولين ؟ » .

فلم يمنعها غضبه من مجابته بالجواب :

« انه لفراش رسول الله وأنت امرؤ مشرك نجس ، فلم احب ان تجلس عليه .. »

فمصمص بشفتيه وقد أعياه ان يرى الصواب فيما تقول ، وقال مغالبا غضبه وهو يهز رأسه هزة أسف :

« يا بنية .. والذي يحلف به أبو سفيان لقد أصابك بعدى شر »
قالت ولم يذهب عنها هدوءها :

« بل هدانى الله الى الاسلام ... »

ولعلها أحسنت به الظن اذ ذاك . أو لعلها عطفتها اليه بنوتها وخشيت عليه سوء المصير ان ظل سادرا فى غيبه لا يتبين مواقع الرشاد ، فراحت تستحثة وتفريه :

« أى أبت ! ... كيف يخفى عنك فضل الاسلام ، وأنت سيد قریش وكبيرها ... وتبعد حجرا لا يسمع ولا يبصر ؟ »
فصاح بها محنقا وهو يغادر مكانه :

« وهذا منك أيضا ؟ ... يا عجبا ! ... اترك ما كان يعبد آباءى واتبع دين محمد ؟ »
« يا عجبا الا تتبعه ! »

تخلى الشيخ عن كبريائه وعاد الى محمد .

ولكنه هذه المرة نان أبعد عن هدفه منه فى الاولى ، اذ طوى عنه محمد كشحا وأعرض لا يسمع منه ولا يقول له .

ثم تخلى عن كبريائه أمام أبى بكر ، ثم أمام عمر بن الخطاب ، يرجو واحدهما بعد الثانى أن يشفع له لدى رسول الله ، فما قبل الأول ، ولا اكتفى الثانى بالرفض دون جفوة الجواب كالمألوف من لسان ابن الخطاب !

ولم ير بدا بعد هذا من الالتجاء الى وائره البغيض ، قاتل حنظلة ابنه ، وثلة أصهاره من بنى عبد الدار ... التجأ وفى نفسه غضاظة

ايما غضاضة اله ، على بن ابي طالب والمضطر يركب الصعاب في
سبيل الاراب ! ...

دخل عليه داره ، وعنده فاطمة : والحسن طفل يدب بين يديها ،
فما استوى به مجلسه حتى قال متوسلا :
« يا على ، انك امس القوم بى رحما ، وقد جئت فى حاجة فلا
ارجعن خائبا ... »

« فقل يا ابا حنظلة »

« اشفع لى الى محمد »

« ويحك ! ... »

فاربذ وجه الرجل وغاض لونه ، ثم همس :
« الا تفعل ؟ »

قال على بالمعهد من صراحته :

« لقد عزم رسول الله على امر ما نستطيع أن نكلمه فيه ... »
وساد الصمت . وتلفت أبو سفيان حوله محيرا لا يدري ان كان
اولى به أن يقوم ويدع الامر الذى جاء فيه . ومضت عليه فترة من
الوقت لا ينسى ، يتقاسم قلبه الفشل والرجاء . وكان على لا يعرف
كيف يخفى اله الحرج الشيخ ولا يستطيع أن يوليه يدا .. وكانت
فاطمة ترقب ما يبدو على وجه زوجها من رقة ومن اشفاق وان
حرصت على أن تكون بمنأى عما كانا فيه حتى راحت تداعب طفلها
الصغير .

وابتسم شيخ أمية بعد قليل فقد راود ذهنه خاطر جديد .
ان هذا الحفيد الصغير له عند جده شأن بالغ ومكان مرموق . وان له
عند امه حظوة كما لغيره عند غيرها من الأمهات ، وله فى قلبها ،
وفى خاطرها ، وفى خيالها رفعة ترجو ان يصل الى شأوها مع
الايام . فاذا استطاع رسول قريش ان يشير فيها عواطف الفخر
بالغلام فقد وقع اذن على الوسيلة التى يصل بها الى مأربه الذى
يرجوه ...

وكذلك التفت الى الزهراء ، يحدثها وعينه على الغلام :
« يا بنت محمد . هل لك أن تجعلى بنيك هذا سيد العرب الى

آخر الدهر ؟ »

فرفعت بصرها اليه متسائلة :

«وكيف يا أبا سفيان ؟»

« مريه فيجير بين الناس ... »

فقلت بغير اكتراث :

« ما بلغ بنى هذا أن يجير بين الناس »

فراح يحفزها بنبرات ملؤها التوسل :

« يا بنت محمد .. انها دماء قریش يحقنها عليها ان أجار فمريه .

فتذكرها له العرب الى آخر - »

قالت تقاطعه وفي صوتها حزم :

« لا يجير أحد على رسول الله ! »

وسدت بهذا عليه السبيل الى قلب محمد من خلال آل محمد .

ولم يجد هو معدى بعد أن نفدت حيله أن يلتفت ثانية الى على ويقول :

« يا أبا الحسن .. انى أرى الامور قد اشدت على ،

فانصحنى ... »

أجابه :

« والله ما أعلم لك شيئاً يغنى عنك شيئاً ... »

« فهل أرجع ؟ »

« انك سيد بنى كنانة ، فان شئت فقم فأجر بين الناس ، ثم

الحق بأرضك »

« أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئاً ؟ . »

« لا والله ما أظنه ، ولكنى لا أجد لك غيره . »

وقام الرجل يائسا . على أى حال لقد وجد عليا أرحب صاحب

محمد صدرا ، وأصدقهم ، وأحذب عليه من سواه والين قولا ..

ومضى الى المسجد يجير فما التفت اليه انسان . ثم خرج عائدا الى

مكة فى حلقة من هذا الفشل مثل طعم الصاب .

١٤

خاب ما توقعت قريش ، وما أملت أن يتم لها على يد شيخها
أبي سفيان . وأصبحت الكلمة الدائرة على الألسن « الحرب » ..
أما شبابها فقد كان غرورهم ما زال يملأ منهم الصدور وهم يعتقدون
أن محمدا ليس يملك - بعد مؤتة - قوة تدفعه إلى ركوب الصحراء
لاقتحام مكة . وأما أسيافها فقد ركبهم الهم من سوء المغبة التي
أخذت تلوح أمام بصائرهم . فلم تغفل عيونهم خشية أن يتحين
المسلمون منهم غرة . ولم يكن محمد قد جاهر أصحابه بأنه يقصد
التوجه في قتال إلى البلدة الحرام وإن كان قد أمرهم باتخاذ الأبهة
والاستعداد ، فظلت قريش لهذا لا تعرف كيف تقف وبقيت نهبا
للقلق والتوجس . تبعث العيون تلو العيون إلى أقصى ما تستطيع
عساها تأتينا بالأنباء . وكان أبو سفيان دائما أحرص قومه على
تعرف ما يأتي من صوب محمد وعلى تنسم الريح والاستطلاع .
وجاءت أخيرا اللحظة الحاسمة في تاريخ هذا الشيخ الضال !..
كان قد خرج من البلدة ليلا كدابه يستروح الأنبياء حتى أشرف على
« مر الظهران » فإذا نيران في الصحراء على مدى البصر موقدة تكاد
أن تختفى أمامها أسجاف الظلام . وإذا خيام مضروبة والوبة منصوبة
وجف لمراها قلب الرجل وأصابه انقباض .
واقبل على صاحب معه يستنبئه ما عسى أن يكون وراء هذا
الزحام فقال له رجما بالغيب :
« أراها خزاعة تأهبت تأهبا وجاءت ثثار . »
فهز الشيخ رأسه غير موافق ، وقال :
« خزاعة ! ... أذل وأقل »
أجل ، فانها جموع ما رأت مثلها عيناه . واخذ الخوف على
قومه فأسرع بهم أن يرتد إليهم ليبصروهم بالأمر . ولكنه ما كاد أن
يخطو حتى سمع من ورائه هاتفا يقول :
« يا أبا حنظلة ؟ »
فاستدار ينظر ؟ ثم هتف :

« أبو الفضل »

قال له العباس وقد أقبل عليه ، وهو يشير الى ناحية الضوء :
« أرايت يا أبا سفيان ؟ هذا رسول الله فى الناس ... »
فصاح مبغوتا :

« محمد ! »

« هو والله ، واصباح قريش والله ! »
فهمس بصوت مبجوح :

« نعم ، واصباح قريش ! »

ثم أردف متلهفا ، يسأل :

« وما الحيلة يا أبا الفضل ؟ »

قال العباس :

« والله لئن ظفر بك رسول الله ليضربن عنقك ، فقد تلف العقد .
فاركب معى فى عجز هذه البغلة حتى أمضى بك اليه . فأستأمنه
لك ، وتستأمنه على قومك ... »

تردد الرجل هنيهة ، لا يدرى ايمضى لما اشار به عم النبی
أم يعود قافلا الى مكة .. ووقف يوازن بين كلا انوجهتين ليقرر الى
ايهما يولى وجهه . ايهما اجدى عليه هى ايهما يتخذ بلا ريب .
لأنه تاجر يزن الأمور بميزان الخسارة والرجحان ، وهذه دعوة للحياة
جاءته على لسان العباس . دعوة لحياته هو ، ثم حياة أهله ، ثم حياة
قومه التى أصبحت جميعها فى كف محمد ، لا عاصم لها منه ان دخل
عليهم مكة عنوة وصاروا له صيده المستباح ..

ولم يلبث أن عزم أمره وسار مع العباس بعد ان تبين له رجحان
صفقته ان سار ! ...

ودخلا المعسكر يردفه أبو الفضل ورائه على بغلة الرسول فيوسع
لها الحراس ويفسحون الطريق كأنها كانت جواز المرور ! . ولم يتبينه
فى بادئ الأمر أحد حتى أوشكا على بلوغ الغاية . فاذا رجل يقظ
العين يعرف هذا الرديف المنكمش تحت ردائه فيصيح صيحة الظفر :
« أبو سفيان عدو الله ! ... »

واقبل اليهما يعدو . وارتجف جلد شيخ بنى أمية ، وهبط قلبه
وقد رأى ابن الخطاب يعاود الصباح :

« الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ، ولا عهد ! »

وراح العباس يهيب به :

« مهلا يا عمر »

ولكنه عدا يستبق امامهما السبيل الى رسول الله .

وتتم ابو سفيان من بين أسنانه ، جزعا وموجدة :

« تعس ابن الخطاب ؟ ... انه لأعدى القوم »

وكان هذا حقا لأن عمر لم يدخر وسعا لدى رسول الله في اثارته

على الرجل ، وحشه على الفراغ منه بجز رقبته .

قال يستحث النبي :

« يا رسول الله هذا ابو سفيان أمكن الله منه . فدعني أضرب

عنقه »

وهتف العباس :

« يا رسول الله انى قد أجرته »

فلم ينثن عمر عن دعواه ، بل اخذ يكررها ويعيد التكرار كلما

راى العباس يحاول أن يترضى للرجل عند رسول الله . وكادت أن

تنشب المشادة بين الرجلين الظهير والمهاجم ، بل لقد بلغ الغضب

بالعباس أن صاح وقد نفذ صبره . واحنقه من عمر هذا الالحاح :

« بعض الذى تقول يا بن الخطاب ! ... انك لتعلمن انه من

عبد مناف ولو كان من بنى عدى لما قلت ما تقول ! »

وقال عمر :

« انك لتعلمن يا ابا الفضل لو كان هو الخطاب لأقولن ما أقول »

لقد كان العباس امرءا من هاشم فيه السماحة الهاشمية .

عطفته الرحم حتى نسي ما كان من ضغن أبى سفيان ، ونسى أخاه

الشهيد حمزة والمثلة به ، ولما ينصرم الكثير من الزمن على يوم مصرعه

وما لقيه من هذا الشيخ الحاقد وزوجه الكاسرة ! ... ولكنه سخاء

فى العطف ايما سخاء ، وصفاء فى القلب ليس مثله صفاء .

ورأى محمد أن يفض الخلاف بين صاحبيه فأرجأ النظر فى امر

عدوه الى الصباح .

وعندما اقتيد الرجل ثانية الى موقف المحاكمة والاثهام . كان

الغضب قد انفتأ عن الرسول وعاوده حلمه المعهود ، واتسع قلبه

الكبير للرحمة اكثر من اتساعه للقصاص ، فقال :

« ويحك يا أبا سفيان ! ... ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ »

قال الشيخ الداهية مداورا :

« بأبي أنت وأمي . . . ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! . . والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنه شيئا . . فعاد رسول الله يقول :

« ويحك يا أبا سفيان ! ... ألم يأن لك أن تعلم أنني رسول الله ؟ »
فتردد برهة ثم لم يستطع - رغم التزامه جانب الحذر - إلا أن يفضح ما يملأ قلبه من تشكك فأجاب :

« بأبي أنت وأمي ! . اما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئا . . . »

فأسرع إليه العباس ، يلکزه ويهتف به ، ليرده الى سبيل الصواب في الجواب :

« ويحك يا رجل ! ... اسلم واشهد قبل أن تضرب عنقك »
فهل ترى حبيبت هذه الكلمات إليه الاسلام ؟ ... لقد اسلم ، وشهد - وبعض الشر أهون من بعض ! - ليحتفظ برأسه على منكبيه ! .

الا من ذا ينبئنا عما قراه العباس في وجه شيخ بنى أمية اذ ذاك ؟ ..

واى خلجات النفس انطبعت على المحيا الدميم ؟ ... ذلة الهزيمة وما توجبه من آثار الغيظ الكظيم والسخط المكتوم كان أدنى الى طبع الشيخ في ذلك الموقف . فان الانسان - على اى حال - لا يستطيع أن يتقبل بقبول حسن ما ياتيه على سنان سيف وان كان نعمة الايمان ذاتها . ولقد كان العباس فيما بدا ، رجلا بعيد مرمى النظرات في أفوار الطبائع البشرية فضلا عن علمه بطبائع بنى أمية حين قال لابن أخيه :

« يا رسول الله ... ان أبا سفيان رجل يحب هذا الفخر ، فاجعل له شيئا »

كأنما أراد أن يرضخ للرجل رضيخة تفيء عليه الرضا عن هذا التغير .

ولقى طلب العباس موافقة رسول الله ، فابتسم وقال :

« نعم . من دخل دار ابي سفيان فهو آمن ، ومن اغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » .
 وريح الشيخ ما أراد وفوق ما أراد - ربح راسه ، وريح فخرا ما لغيره مثله من قبل ولا من بعد : وريح لقومه حياتهم ما خلوا بين محمد وبين مكة يدخلها ولا يقاقلونه . . ثم فوق هذا وذاك ربح الاسلام وان كانت العقائد اعصى تبينا على الفاحصين لانها من القلوب فى احراز . على ان الرجل ، مع هذا ، سار فى التاريخ مسلما منذ اللحظة التى قهره فيها محمد على الاسلام ، ثم الأيام من بعد هى الكفيلة وحدها بطوايا النفوس ، ان شاءت اخفتها او شاءت كشفتها ! .

١٥

فى طريق العودة ، وقف شيخ قريش الى جوار العباس بن عبدالمطلب عند خطم الجبل بمضييق الوادى ، يشهد كتائب الرسول تمر على الويتها تباعا الى غايتها .

وبهرت الرجل الكثرة فى هذه الحشود والقت فى روعه المصير الموعود . ما لقومه بكل هؤلاء طاقة ، وما للعرب بعدهم معدى عن الدخول فى دين هذا الرجل الذى خرج بليل ، منذ اعوام من داره مستخفيا عن الاعين .

فلقد علت اليوم كلمته ، وسطع نجمه وتآلفت حوله قلوب الرجال قبل تآلف السيوف والنصال .

والتفت ابو سفيان الى جاره وقال :

« يا ابا الفضل . لقد أصبح ملك ابن اخيك الغداة عظيما ! » .

فأى ايمان هذا الذى كان يقيس جهاد الدعوة الاسلامية بمقاييس

الكفاح من اجل السلطان ؟

وأسرع العباس يرده عن ظنه ويردعه :

« يا ابا سفيان انها النبوة » .

فهز راسه هزة الموافقة والتسليم وهو يقول :

« فنعم اذن . . » .

ثم انطلق الى بلدة البيت يسبق الجيش . وكان الناس بمكة قد ضاقوا ذرعا بالانتظار وذهبت به ظنونهم كل مذهب ، فلما راوه اقبلوا عليه يستبقون ويسألون .. الا فليثوبوا الى الطمانينة ما دام قد وسعه ان يحقن عليهم دماءهم ويحفظها ان تسيل على الرمال ما خلوا بين محمد وبين البلدة ..

وتصايح عليه الشباب :

« بل نذوده عنا ما ملكنا السيوف ! » .

وزارت هند زوجها :

« قبحت من طليعة قوم ! » .

وكثر حوله الضجيج فقام فى الناس يناشدهم التزام التعقل وسلامة التفكير :

« يا معشر قريش .. مهلا . هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به .. » .

ولكن الطيش اعمى بصيرتهم وسد منهم منافذ الاذان . وهذه امراته تقود امامه حركة التمرد عليه وعصيان نصحه ، وتنطلق تؤلب القوم عليه بدافع موجدتها على محمد ، ثم لا يرضيها الا ان تهجمه فتمسك بشاربه تجذبه وهى تصيح :

« ايها الناس ! .. دونكم الحميت الدسم الاحمى فاقتلوه ! .. » .

فيلتف الجمع به وقد ثارت ثائرتهم على هذا الشيخ الذى ارسلوه هينا على جيوش الاعداء فجاءهم يفت فى اعضادهم ويدعوهم الى الرضوخ لهؤلاء الاعداء .

وجاهد حتى خلص من حلقهم المضروبة حوله ، ورفع صوته بالنداء عسى ان يسمعوا له وينتصخوا :

« ويلكم ! .. » .

فقاطعت امراته .

« ويلك خست ! » .

فلم يلتفت اليها ، بل استأنف ما يريد ان يلقيه من حديث :

« لا تفرتكم هذه من انفسكم .. الا وانى نذير » .

فهتف به واحد منهم :

« فأشر بما ترى .. » .

« من دخل دار أبى سفيان فهو آمن .. » .

فيضحكوا منه :

« وما تغنى عنا دارك ؟ » .

« هذا عهد محمد .. ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل

المسجد فهو آمن » .

ثم مضى عنهم .

ولعل أول من أفاد من عهد محمد هذا ، كان يزيد بن أبي سفيان .
دفعت الفتى جهالة الشباب ، كما دفعت غيره من شباب قریش ، الى
رفع السلاح فى وجوه المسلمين حين دخلوا مكة فما لبث أن هزم كفيه
وولى مدبرا ، فلما وقع أسيرا فى يد خالد بن الوليد أو كاد ، سارع
ابوه اليه فخلصه وادخله داره ليكون بئامن .

واتم الله نصره على نبيه . وأباح له مكة جميعا ورقاب أهلها .
وكان محمد - كدابه أبدا - الكريم السمع فلم يحرمهم عفوه ومنحهم
الحياة ، وفك رقابهم وكلهم أسراه سانة أن جاءوه منكسى الرؤوس
من خزى الخذلان فقال :

« اذهبوا ، فأنتم الطلقاء ... »

ولم يضمن عليهم بعد هذا بغاية ما يستطيع فراح يشتري منهم
عقائدهم الخاطئة بالهبات وبالأعطيات ، ويسبغ عليهم كرمه وآلاءه
لا يضمن على طامع فى عرض من عروض الدنيا ، كما لم يضمن من قبل
على شيخهم أبى سفيان بما تألف به قلبه من فخر ، وكما لم يضمن
عليه من بعد بالابل وانشاء غب الفتح ، يهبه اياها ويهب ولديه معاوية
ويزيد ومن سار سيرتهم من رجال قریش ، عسى أن يخضع النشب
من نفوسهم ما لم يخضع سلطان الايمان ...

ومع ذلك فان الايام وحدها هى الكفيلة بطوايا النفوس ، ان
شاءت أخفتها ، او شاءت كشفتها . لم يقم محمد الا قليلا بمكة ثم
!راد الله لبعض هذه النفوس ان تظهر ما تضر . فهذه هوازن جزعت
حين اتتها انباء انتصار المسلمين فأخذت تلف حولها القبائل وتضمها
لتناجز رسول الله . كان أخشى ما تخشاه ، ان هى استنامت للنصر
الذى اصابه الرسول لا تقوم لها من بعد قائمة . وهى ان ظلت فى
الماضى بمنجى عن الصراع الناشب بين حماة الاسلام وحماة الأصنام
فلقد كان هذا لظنها ان محمدا لن يظهر على قریش ، أما وقد راتها

تخضع له اليوم وبدأت تلتف به ، فقد رأت بقاءها مرهونا بقتاله لتعيش آمنة السرب .

وتجهزت هوازن وأعدت عدة القتال . وعلم محمد فسار إليها قبل أن تسير إليه ، وخرج بآلافه العشرة من المهاجرين والأنصار الذين فتح الله بهم عليه مكة ، وخرج معه من قريش القان ياعوه على الاسلام منذ أيام وان كان فيهم كثيرون دفعهم الى هذا الخروج حبهم الانتصار للقريب من الغريب ، وفيهم كثيرون دفعتهم الرغبة في الظهور امام محمد القوى المرهوب بأنهم له ناصرون ، وفيهم من علموا كيف أفاء الاسلام على رجاله المفانم والأسلاب فصبوا الى أن يصيبوا منوا ما يستطيعون ... ثم لعلهم اجمعين - في معرض الايمان كمسلمين صادقين - لم تخل قلوبهم من دخل ولم يبرحها بعد الزيف . وانحدر رسول الله بهم في عماية الصبح ، في واد من اودية تهامة أجوف ، يريد أن يصيب من عدوه غرة قبل أن يأخذ حذره ، فما راع المسلمين الا احناء الوادي تمتلىء عليهم خيلا ورجلا ، وقد شدت هوازن واحلاوها على صفوفهم شدة رجل واحد من كل جانب ، تمنع فيهم الطعن وتشيع المقتلة حتى انشمر الناس ذعرا وتفرقوا عن نبيهم لا يلوون ، وان ثبت هو في مكانه لا يريم وراح يدعوه بصوته القوى الجهير :

« أين أيها الناس ؟ ... هلموا الى ! ... انا رسول الله .. » ولكن نداءه تبدد في انحاء الوادي ولم تلقفه الا آذان ذويه وغيرهم ممن عصم الله ، وكان على في مقدمة الثابتين . ووقف العباس ، والتف أبو بكر وعمر وبعض الصحابة برسول الله يناضلون ما وسعهم النضال ... والأحوال دائما محك ايمان الرجال .

أما أبو سفيان فلم يفارقه طبعه ، بل بدا أشد لصوقا به في هذه الأزمة فانتحى ناحية عن الصراع ... لمثل هذا الموقف لم يأت الشيخ ، ولغير البذل من أجل محمد العدو القديم قد جاء ! وانما قاد خطمه الى المكان ظنه يسر المغنم في ركاب هذا الواتر المحسود الذي أوسع له « الحظ » في « ملكه » وأورثه من الدنيا ما شاء . أما وقد لاح له الآن أن الدائرة توشك أن تدور على الرجل الذي تابعه من قليل وعنقه تحت حد السيف ، فقد آن اذن لقلب شيخ بنى امية أن يظهر ما كان يضمّر ! ...

شد على كنانته بيده وفيها أزالام لم يهجرها بعد دخوله في الاسلام ، ولعبت على شفثيه بسمة منكرة تجار بالشماتة وهو يقول لبعض من انتحوا ناحية من اقرانه المكيين :

« والذي يحلف به أبو سفيان لا تنتهي هزيمتهم دون البحر ! ... »

وضحك جبلة بن الجنيذ مسرورا بنبوءة ابن حرب وقال :

« بلى قد بطل سحر محمد اليوم ! ... »

ولئن كان أبو سفيان لم يفرغ بعد كل ما في جعبته من حقد مكنون ، وكان جبلة لم ينس مكانه من جاهليته الجهلاء فان الله شاء أن يكشف عارهما على يدى رجل مثلهما من قريش لم يكن قد تابع محمدا كابن حرب على الاسلام ، لم يمنعه شركه من الغضب لمحمد في محنته وساعة كربه .. كان هذا الرجل صفوان بن أمية الذي لم يكذب سمع قول جبلة حتى صاح به مفضبا :

« اسكت ، فض الله فاك ! »

ثم التفت الى الشيخ الحقود ساخرا وقال :

« ويحك يا ابا حنظلة ! ... لأن يربنى والله رجل من قريش لأحب الى من أن يربنى رجل من هوازن ! »



وهكذا كبا الحقد بأبى سفيان هذه المرة لأن شماتته سبقت الاحداث قبل الأوان ، فلم يتخل الله عن المسلمين في حنين ، ولم تطل بهم الهزيمة أو تنتهى عند البحر ، ولم يغير من مصير المعركة أن وقفت كثرة قريش منها موقف المشاهد أو المتربص الحاسد ، بل اتم الله النصر الذي وعد نبيه ، وايده بجنود لم يرها الناس كانت له الظهير ، وكان بها الظاهر العزيز .

ونشر الاسلام بعد هذا لواءه في بلاد العرب كافة . ودخل الناس أفواجا في دين الله حتى أصبح الشرك سبة ، وغدا المشركون قلة . ولم تهل السنة التاسعة من الهجرة حتى كان جهاد الرسول بالسيف في الجزيرة قد قارب الغاية وأوفى على النماية ، ثم لم تكذب شرف على نهايتها حتى قضى الله على الشرك بالتشريع فانزل آياته

الكريمة تنقض كل عهد كان للكفر الا عهدا موقوتا فانه يبقى الى اجله ولا يتعداه .

وبهذا التشريع ارسل النبي عليا الى مكة ليؤدي عنه ويقرأ محكم التنزيل على الناس . وكان الوقت موسم حج ، وكان ابو بكر اذ ذاك اميرا على الحج من قبل رسول الله فرأى بعض الصحابة ان يبعث اليه فيؤدي الرسالة عنه ، ولكن محمدا ابي الا ان « يؤدي عنه رجل من اهله »

ولحق على بابي بكر ، والناس بمنى يقومون بمناسكهم ، فتنحى له الامير وقام هو بينهم مقام محمد يرسم ناحية سياسية جديدة في تاريخ الدولة ، ويرفع صوته بتشريع الله :

« براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين ... »

حتى اذا اتم نداء ما انزل الله ، التفت الى الملا يقول :

« ايها الناس ... انه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو الى مدته » .

وانتهى بهذا البيان ما كان لاهل الشرك ممن لجأ في عهد قطعها لهم رسول الله على نفسه . وظل مستمسكا بها لا يحيد طوال اعوام . وخبا نجم الكفر او كاد ان يصيبه الافول ، الا في طرف ناء من اطراف الجزيرة حيث قامت فتنة باليمن حيث ابي الناس ان ينزلوا على حكم الله ويرفضوا الاسلام . فكانهم بهذا ارادوا لابن ابي طالب ان يبدى للتاريخ صفحة من البطولة الجديدة . ومن سواه ، جيش وحده كما قال رسول الله ، أولى ان يسير الى اولئك الاقوام ليخضعهم ويضع انوفهم في الرغام ؟

ذهب اليهم ، في جمع من الرجال لا يزيد على ثلثمائة يسير بهم الى دولة لم تكن مرة واحدة للحجاز وخضع لحكمها الحجاز مرات ، وعاود هناك سيرته ، معتدا ، معتزا ، واثقا بنفسه وبنصر الله ، لا ترهبه الكثرة التي طالعت من عدوه ، ولا الهجمة العنيفة التي فاجأوا بها جيشه الصغير . وثبت لهم كما لم يتح لغيره احسان الثبات . وكر فأوقفهم ، ثم كر فشتهم ، ولم ينجم من الهزيمة

والخسران ان أعادوا تنظيم صفوفهم وزودوها بقوى جديدة من رجال
وعتاد لأنه ما زال بهم ينقلهم من رعب الى رعب حتى أنثروا السلامة
بالتسليم .

وكانت هذه الواقعة ختام الغزوات بالجزيرة ، وكان وفد اليمن
آخر الوفود التي اقبلت من الأنحاء على رسول الله تلقى اليه بالزماء ،
وتبأيعه على الاسلام ، وفرغ على مما بعث اليه فتد رحاله الى مكة
ليلقى رسول الله قد اعتمر وتأهب لحجة الوداع .

البداية

« الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْثَرُ دَرَجَةً عِنْدَ
اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » .

١

مدينة الرسول زال عنها كابوس التوجس الذى الم بها ثلاثة أيام سيطر فيها على حواسها فأكربها ، وأصبحت صباحها هذا مطمئنة قد عاودها رضاء البال ، باسمه ، فياضة البشر بعد هم ... وهؤلاء ناسها قد استطاعوا أخيرا أن تنفرج منهم القلوب وتتحلل من أصابع اليأس التى كانت تقبضها وتعتصرها عصرا . وانثلجت صدورهم فهدات الخواطر وبسمت الشفاء والنواظر ، ثم راحوا يستقبلون حياتهم كما عهدوها ، ربانة جميلة ، يرف عليها صفاء محمد وتشيرها اشراقة محياه . غاب عنهم الآن ما ساورهم من قلق عليه وجزع قتال . وانطوت المحنة التى جثمت اشباحها كالجبال على قلوبهم خلال أويقات المرض الذى نزل بمحمد فحجبه عنهم . أما اليوم فقد تبدلت الحال وزالت شدتها ، ولن يلبث الرسول الا قليلا ثم يعود فيهم ، كما كان ، حادبا عطوفا يوليهم من رقيق حنانه ، وعذب بيانه ، وخالص ايمانه وقدايس عافيته وعادته الصحة ... وانهم ليوثقون ان دعواتهم التى انطلقت بها القلوب قبل الالسن ، قد وجدت عند ربهم سميعا . ما كان الله ليرزاهم فى نبيه ويدعهم بعده حيارى وما كان ليفيب عنهم وجهه ، ولكنها تجربة مرة اجتازوها ليختبر الله قلوب قوم مؤمنين .

على ان واحدا منهم ، قبل يومهم هذا ، لم يكن يستطيع ان يلمح قبسا من الأمل فى احناء ما احاط به من قنوط . فالالم ينزل بمحمد ، ويبرح به ويشته عليه حتى يحتجب مكدودا اعياء الوجع ونالت منه برحاؤه . ثم الحوادث من قبل قد تكلمت بأفصح لسان فأبانت عن المستقبل اشام بيان ... ان حجة الوداع كانت اول النذر بالمصير المخوف واثارت فى نفوس المسلمين كوامن التوجس . سمعوه جميعا اذ ذاك يقول :

« انى لا ادرى لعلى لا القاكم بعد عامى هذا ، بهذا الموقف

ابدا ... »

فما عساه عنى بهذا الكلام ؟ وماذا اصابهم وهو يجاوز شفتيه

فتقبله الأسداع ان لم تكن أصابتهم رجفة هزت كيانهم وأشاعت
فى قلوبهم شائعات الجزع ؟ ...

ثم جاءهم التنزيل بما لم يدع لهم معدى عن لازم التأويل . الم
يقول الله سبحانه فى ختام آياته :

« اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ... »
فاذا اكتمل الدين الذى به أرسله الله فلاى الغايات بعد تمتد
بالرسول الحياة ؟ ...

ثم توالى النذر من بعد تلوح بالمصير المحتوم ، ولم يكن آخرها
ان تلا محمد القرآن مرتين على جبريل هذا العام وكان يتلوه مرة
وأحدة فيما سبق من الأعوام ... توالى النذر وما فيها الا صور
فصح عن القضاء الداهم والرزء القاصم حتى غدت بها النفوس على
حوافى اليأس .

ولكن هذا كله وغيره ، ما لبث القوم ان انسوه لان المسارعة الى
نسيان المكاره أولى بطبيعة الانسان ... هذه اقباس من الامل
أخذت تبدو فى آفاق القنوط فتبدد ظلامه وتطوى اعلامه . ان محمدا
برىء او هو الى البرء يسير . بهذا انبأ البشر ، وبه جرت الظنون
فى الأفهام كمجرى ثابت اليقين . وكفاهم لينسوا قلقهم ان طلع
عليهم ، وهم خلف أبى بكر فى صلاة الصبح ، معتمدا على على بن
أبى طالب . بل لقد كاد ان يفتنهم ظهور محياه عن الصلاة ... وأقبل
فصلى بينهم ، فلما انتهى وعاد الى داره كان قد خلف فى كل قلب
رجاء النجاة . وانقضى الوقت بعد هذا على خير ما يكون الامل .
ويأتيهم من لدن نبهم ، بعد قليل ، من يأمرهم عنه بانفاذ بعث الشاب
أسامة بن زيد بجيشه الى الشام فتكاد تنطق ظواهر الحال بصديق
الآمال ، الم يكن هذا الجيش يضم أبا بكر الصديق ، ويضم عمر
ابن الخطاب ، ويضم غيرهما من صحابة الرسول صفوة الرجال ؟ .
وهل يدور بين الاخلاذ والاذهان ان يبعد النبى عن المدينة كل هؤلاء
لو كان يعلم ان سيقع الخطب ويزوا المؤمنون فيه ؟ ... ثم من عسى
أن يكون للناس مقياس الطمأنينة على نبهم ان لم يكن أبو بكر وقد
شاهدوه قد امتلا طمأنينة حتى غادر المدينة الى السنج لقضاء يومه
بين اهله وذويه ؟ ... ومن غير ابن أبى طالب أعلم بالحال وقد لازم
الرسول طوال المرض وكابد ما كان يلقاه ؟ ... من غيره وقد راوه

تطلق محياه اذ خرج من بيت عائشة والشمس جانحة الى الضحاء
ذلك الصباح ، حتى توسموا خيرا فأقبلوا عليه يسألون :
« يا أبا الحسن ، كيف خلفت رسول الله ؟ »
فأجابهم بكلمات ، حلوة الجرس صافية النبرات :
« أصبح بحمد الله بارئاً ... »



ومع ما افاءت البشرى على نفوس الناس من طمانينة وبذرت
فيها الرجاء والآمال ، فلقد كانت هناك بين موجة التفاؤل التي سرت
بين القوم قلوب لم يبرحها الهم . مرهفة الشعور تكاد أن تلمس
المصير المرهوب ونزلة القضاء ... فلم تنفرج فاطمة ، ولم يذهب
عنها الروع وان رأت أنها مفاى يخرج ذلك الصباح ويصلى بين
صحبه المتلهفين على لقائه المشوقين الى سماع صوته الذي حرموه
ثلاثة أيام . ان الزهراء لم تخنها الذاكرة ولم تخدعها ظواهر الحال
وهي العالة بخباياها الواقفة على بواطنها وليس ذلك اليوم عليها
ببعيد وقد ترك في نفسها طابعه ... وليست حليفة الأحزان
بالسبابة الى نسيان الأحزان وان بدت لها اليوم بشائر الرجاء .
وكم من لحظة راودت فيها قلبها على التفرج فبى القلب الرقيق
الحساس الا العودة بها الى تلك الجلسة الهادئة بجوار أبيها في دار
عائشة وهو يعد في مكتمل عاقبته . ولم تكن اذ ذاك توجس شراً ،
بل كانت تحسب الأيام تجري وئيدة بالسعود . ومع هذا فقد مال
عليها رسول الله يسر في أذنها حديثاً لم تملك عند سماعه الا أن
تدمع عيناها وتبكي . واشفق عليها أبوها فمال ثانية يلقي في
سمعها كلاماً افترت له شفتاها عن بسمات فياضة البشر والرضا ،
وعجبت عائشة اذ رأت ذلك ، فأقبلت عليها تسألها عما أسره لها
رسول الله ، وتقول :

« ما رايت كالיום فرحاً اقرب من حزن ! ... »

فلا تشفى فاطمة إما غليل السؤال ، بل تجيب :

« ما كنت لأفشي على رسول الله سره ! »

فاذا تصرمت بعد هذا الأيام سبق الظن بفاطمة ظواهر الحال ،

وتجسم حدسها يقينا ظاهره ما اسره لها رسون الله . وحضرتها الآن وهى الى جواره ، وقد عاد لتوه من صلاته الاخيرة خايب اللون معصوب الرأس ، تلك الكلمات التى ابت ان تلقى بها الى عائشة حين احفقتها السؤال .

« ان جبريل كان يعارضنى بالقرآن فى كل سنة مرة ، وانه عارضنى هذا العام مرتين ، وما اراه الا قد حضر اجلى ... »
وغام بصرها بفيض الدمع كأول مرة فنأت به عن ايها حتى لا يشهد عليها لما يؤذيه ثم استرجعت بقية سره حتى لقد حسبته يعيد عليها القول :

« ... انك اول اهل بيتى لحوقا بى ، ونعم السلف انا لك ...
الا ترضين ان تكونى سيدة نساء هذه الامة ؟ ... »

فتعاودها ثانية بسماتها الذاهبات تدفع عنها اسأها . لانها لن تلبث الا قليلا ثم تلحق بأبيها رسول الله ، وليس عليها بعد هذا خوف من الألم لطول الفراق ...

ولئن كانت فاطمة قد تفردت بمعرفة السر حتى باتت اثناء المرض تكاد أن تلمح اشباح المصير المخوف ، فان عليا كان من الالى توجسوا من مرض النبى وسكن قلوبهم الاشفاق من قرب وقوع الرزء الداهم . ان زوجه - بطبيعة الحال - لم تفش اليه ما كان من حديث الرسول ولكنه كان حقيقا بأن يلمح فى وجهها ما يخشاه . ثم هو يعلم ما علمه غيره من القوم من البيئات التى كانت ترجح كفة التشاؤم ، كحجة الوداع ، ومعارضة جبريل مرتين بالقرآن ، ومصارحة التنزيل بختام الرسالة التى بعث الله بها نبيه لهداية الناس . علم هذا كله وجاءته بعده بينة لا تقبل الريب ولا تحتمل التأويل . ففى ساعة من ساعات المرض تسبق الرحيل عن الأرض بقليل . دعاه اليه رسول الله وفى عينيه ما كانتا تشعان من نظرات اعزاز واكبار لهذا الربيب الحبيب ، حتى اذا استوى بالشباب المجلس خلع الرسول خاتمه وحمل سيفه فقدمها هبة منه لابن أبى طالب . وارتجف كيان على اذ ذاك ، وسارع بشيخ بوجهه عن رسول الله حتى لا يرى فى مآقيه لمعات الدموع - وكان أبو بكر معها ففعل مثل فعله وغض من طرفه . ولم يبق شك لدى الرجلين فى ان رسول الله - اذ علم مصيره كما ألهمه الله - قد

آثر بخير ما يملك فى دنياه صفيه المحبوب لأن العمر لم تبق فيه بقية لحمل الاختام أو لامتشاق الحسام ...

ولقد كانت اللحظة التى طالع فيها على الناس بكلماته المطمئنة هى نفس اللحظة التى لم يمس فيها قلب العباس بن عبد المطلب أثر واحد من آثار الاطمئنان ، الشيخ المجرب لم يذهب ما راح من سنى حياته عبثا ، ولم تفقد بصيرته ما كان لها من نفاذ . لذلك أقبل على ابن أخيه ينتحى به من القوم ناحية ويقول :

« يا على . احلف بالله لقد عرفت الموت فى وجه رسول الله كما كنت أعرفه فى وجوه بنى عبد المطلب . فانطلق بنا الى رسول الله .. فان كان هذا الأمر نينا عرفناه ، وان كان فى غيرنا أمرناه فأوصى بنا الناس » .

ولكنه طلب كان قمينا بأن يلقى من على الرد والاباء قبل أن يلقى السمع والاصغاء . أفيقر له الناس بوصية رسول الله لو أنه أوصى بأن يكون فيه الأمر ؟ .. هذه خاطرة طافت بذهنه اذ ذاك وفيه من وقائع الحال الجواب الحاضر على السؤال . فمن قليل ، ورسول الله يغالب وعكة شديدة قال لمن حضره من الصحاب :

« ايتونى بدواة وصحيفة ، اكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده .. » فكيف استقبل الحاضرون من بينهم هذا الكلام :

قال عمر :

« ان رسول الله قد غلبه الوجع ! »

وقال سواه :

« بل قربوا يكتب رسول الله ... »

ثم اختلف الباكون فى الأمر بين موافقة واباء ، لأن الذى كان حريا بأن يقر فى الأذهان أن وصية الموعوك أولى أن تكون فريسة الشكوك .

وهكذا لم يكن لعلى بد من أن يجيب عمه :

« والله لا أفعل ، فوالله لو منعناه لا يؤتينا أحد بعده ... »

وكان بهذا الجواب موفيا على الصواب وكان العجيب لو أنه حدث النبى اذ ذاك فى أن يوصى له أو به ، لأنه بهذا الحديث سيكون النذير لرسول الله بغائلة الموت - وحاشاه ! .. والأعجب ان يخالف طبيعته فى البر بمحمد الجدير منه باستقصاء الترفق به فى لحظاته

الباقية اشد استقصاء ! .. فى لحظاته الباقية لأن الضحاء لم يكد
يشتد من ذلك اليوم الذى فرح فيه الناس ببرء نبيهم حتى عدت
العادية التى دهمت الأنام واطاشت الأحلام . قضى الأمر فى محمد ،
وسمت روحه الى جنة المأوى .. والى سدرة المنتهى .. والى الرفيق
الأعلى . وبقي الناس حيال النبا مهدودى الكيان من جزع يعقل
اللسان فلا ينطق ، وفجيعة تأبى على الجنان ان يصدق . كلهم امام
الخطب ذاهب اللب مسلوب القلب ، اذهله النعى عن نفسه وخلفه
من شدة ولهه فى غمرات .

يا لمدينة الرسول ، وآل الرسول ، وصحب الرسول ! .. يا لهم
من يوم خالد فى دنيا الأحزان ، ليس كمثله فى الليالى الخالكات
ليل ! .. يا لهم منه . قاتما أسحم . اذا جرى به نحصه وان سطعت
شمسه .. موصول به الكرب كأن لم يكن قبله كرب تصيب القلوب !
افذهب محمد عن دنياه وغرب عن نور محياه ؟ او لم يعد الآن موته
فكرة دسها على النفوس شدة حرصها عليه ؟ .. ما لهدى القلوب
فيها صدوع ، وهذى العيون فيها دموع ، وهذى الدور من الحزن
تمور وتمور ؟ .. لقد مضى الرسول حقا . مضى فعز الصبر فيه على
ذى جلد صابر ، وشق الاحتمال عنى عزائم الرجال . مضى .. فهلا
انطلقت اذن الألسن نادية ، والأعين باكية ، والحناجر صائحة ناعية ،
ما دامت شقت امامها الأجواء صيحة الزهراء - الى السماء :
« ابتاه ابتاه ! .. يا ابتاه ، اجاب ربا دعاه ! .. يا ابتاه ، جنة
الفردوس مأواه ! .. يا ابتاه ، الى جبريل نعاه ! .. يا ابتاه ، من ربه
ما ادناه ! .. يا ابتاه .. »

٢٠

يوم خالد فى دنيا الأحزان ...
لمثله لم يهيا قلب لأنه فى الرزء فريد ، ولم يشد عزم لأنه يوهى
بكل صليب جليل . رزء نزل ففدح ، وعزم حمل فرزح .
ولغير هذه الغاية التى أوفت عليها المقادير الآن كانت تستيق
حوالك الأحلام وتجرى فى الخواطر والأوهام . ولكنه حلم صدق
فصعق ، وخطب دهم فحطم .
ان الحزن ليفعل فى القلب كمثل النار ، ان سرى أكل وان لبث
قتل . وان العين لفى يد الدمع لفى ، ان شاء فاض فأغرق ، أو شاء
غاض فأحرق . وان الحديث لفى الأفواه عيا أفصح عن الجزع من
كل بيان ، وعلى الشفاه نطقا لن توصف الفجيعة كمثله بلسان .
يوم خالد فى دنيا الأحزان اذ مضى رسول الله . وما بعد رسول
الله للناس أسوة أو عزاء ، وما للحزن على فقدته مدى ولا انتهاء .



كذلك كانت المدينة . ثم كانت اطرافها . . ثم كانت الجيرة من
بادية وبلدان كلما سرى النبأ الفاجع فى انة باك أو همسات محزون .
وكذلك اجتمع الناس حيارى ، بدفعهم اشفاقهم على قلوبهم
آونة الى تكذيب الخبر ، ثم ترسلهم الصيحات التى تجاوبت بها دار
الرسول الى واد من الألم ، سحق ما له من قرار .
ولقد تجمعوا فى المسجد وخارجه حشودا بين واجم وصائح ،
ومشدوه ونائح . وهذا عمر بن الخطاب بينهم أذهله المصاب حتى
خرج من وقاره الى طور من الثورة عجيب . وانه ليهز فى يده سيفه ،
وتندفع الكلمات من شفتيه تلتهب بشركن الوعيد وقد أقبل على الناس
فى غصبة الإعصار ، يقول .
« ان رجالا من المنافقين يزعمون ان رسول الله قد مات . وانه
والله ما مات ولكنه ذهب الى ربه كما ذهب موسى بن عمران . . والله
ليرجعن رسول الله فيقطعن أبدى رجال وأرجلهم زعموا انه مات ! »

ولكن محمداً قد مات وان كره عمر ، وان كره قبله وبعده كافة المسلمين بالآلاف وبالملايين ، ذاق الكأس التي لا معدى عنها ، وخلف متبواه في الأرض الى متبوا في خير دار بخير جوار . وهذا جثمانه الطاهر رحلت منه الروح ، والتف به ذروه لا يذهلهم الهول عن جهازه ، ولا يقعد بهم عن تهيئته لغايته من دنياه ونصيبه المحدود من ترب الأرض - هو الذي ضاقت بعزم صاحبه رفعة الأرض وآفاق السماء .

ها هنا الحدث ، مسجى على الفراش . وها هنا على . والعباس والفضل وقثم ابنه . وها هنا الزبير بن العوام وصاحبه طلحة بن عبيد الله قد انضم اليهم جميعاً اسامة بن زيد مخلفاً جيشه بالجرف اذ سمع نبأ وفاة الرسول . وان الموقف لفياض بالحزن الذي يفعم القلوب بالآلام ويحيط بالدهول الأفهام . . . ولكن شيخ بنى عبد المطلب رجل فيه تبصر وله حنكة ، بعيد مرمى النظرات في أغوار المجهول فلم تفش قسوة الموقف عينيه ، ولم تشل خاطره ، ولم تغيب عن بصيرته ما هو مقبل عليه او وشيك على الاقبال . فقد علمته الأحداث انه يحسن قراءتها ، وانه صادق الحدس بالعقبى . ولقد كان حقاً صادق الحدس ، ساعة الضحى من هذا النهار ، حين تنبأ بوفاة الرسول وأراد حمل ابن ابي طالب على السير اليه بكلماته ليوصى بهما او يوصى لهما . وهو الآن شديد الاحساس بأن امراً ما لن يلبث أن يتكشف الزمن عنه ، فان شاء انتهر واسرع ، وان شاء تريت فضيع ! . .

وكذلك بسط الرجل - وهو الى جوار حدث الرسول - كفه الى على ، على ملاً ممن حضر وقال :

« يا بن اخى ، امدد يدك أبايك ، فيقول الناس : عم رسول الله

بايع ابن عم رسول الله ، فلا يختلف عليك اثنان . . »

فأجابه على ولم يرفع بصره عن الجثمان الكريم :

« لنا برسول الله يا عم شغل »

فصمت العباس .

ودخل بعد هذا أبو بكر وقد عاد من السنج مهدود الكيان من الحزن . لم يلق الرجل الى أحد بالا ، وانما اتجه الى صاحبه الكريم المسجى فكشف عن وجهه الفطاء ، وبكى كما شاء له اساء أن يبكى ، وهو يناجيه بنبرات سالت لما :

« بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! .. طبت حيا وطبت ميتا . اما الموتة التي كتب الله عليك فقد ذقتها يا رسول الله ، ثم لن تصيبك بعدها موتة ابدا .. بأبي أنت وأمي يا رسول الله ! .. »
وانفلت الرجل عائدا في سكون كما جاء . ولحق بالقوم قد تراحموا حول الدار ، حائرين بين نبا المصاب ووعيد ابن الخطاب . فلما رأى الامر ، انطلق فوقف بين الناس ، وهو يصيح به :
مه يا بن الخطاب .

فجفت على شفتيه الكلمات ، وحملق في وجوم شديد الى الصديق وهو يخاطب القوم ويقول :

« ايها الناس ... من كان منكم يعبد محمدا فان محمدا قد مات .. ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت .. وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل ، افان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم ... »
فما تركت كلماته فبهم عينا لم يفض بها دمع ، ولا قلبا الا اصابه صدع ، بعد أن تبين - من لم يكن قد ايقن - ان رسول الله لم يمض كما مضى موسى بن عمران وله عود اليهم قريب .. بل ذهب الى غير مآب ، ولن يكون بينه وبينهم لقاء الا في ساحة الله ، وبعد زوال الارض وانفطار السماء ...



... وراح على يعمل فيما هو بسبيله من جهاز الرسول ، والعباس لا يجد الوسيلة التي يتوسل بها الى موافقته على قبول البيعة حتى لا يخرج تراث محمد من بين ذويه . ولقد كان العباس محقا فيما ذهب اليه ظنه ، لان الناس - وقد تبينوا الحقيقة - اخذوا يتحدثون فيما عسى سيصير اليه الامر والى من بعد نبهم سيؤول . ولم يكونوا اذ ذاك على اختلاف او كانت مسالك الراى قد تشعبت بهم فنونا ، بل كان الجانب الاكبر منهم في صفوف بنى هاشم لفرط ما قر في الأذهان من أن هذا تراثهم الموروث الذي لا ينازعهم فيه من العرب منازع . وبهذا جرت الاخبار فيهم قبله وانطلقت به السن المتحدثين ، وما اظن عمار بن ياسر ولا سلمان ، ولا المقداد ، ولا أبا ذر الغفاري واشباههم ، من الصق الناس بالنبي الكريم ، وابعدهم نفوسا عن الانحياز الى الاهواء والافراض كانوا يميلون الى غير بيت

الرسول وعن حصر سلطانه فيهم ، وما كانوا - وهم الفئة التي لم يعقل السنتها عن الحق عقال - ليظلوا عما يدور بأخلاقهم صامتين ... بل انى لاحسبهم ما فتنوا يتحدثون بما ايقنوا انه الصواب وانه جماع الخير لامة الاسلام . وان رجلا كأبى ذر ، ورجالا كصاحبه هؤلاء لخير رجال حرية كلماتهم المنوّهة عن الهوى ان تنفذ الى قلوب العامة من الناس فى وقت لم تكن فى القلوب قد لائتها الاغراض . ولقد اجتمعت طوائف من المسلمين فرقا تتشاور . فاجتمع عمر بمسجد المدينة بشاور ابا عبيدة بن الجراح . واجتمع سعد ابن عباد بسقيفة بنى ساعدة يشاور الأوس والخزرج . واجتمعت هنا أو هناك زمر تتحدث وهى لا تقطع برأى ، ثم ظل آل محمد ، ومعهم الصديق ، مشغولين بالجثمان وان بقى العباس من دونهم مشغولا بما ملأ خاطره وشاع فى باله من أمر الشاب الذى يجدر أن يرث سلطان الرسول ولا يحرك كفا لالتماس هذا السلطان ...

وطرق عليهم الباب فاذا رجل يدعو ابا بكر :

« ان ابن الخطاب ، يا ابا بكر بدعوك .. »

فيجيبه الشيخ بهدوء :

« انى مشتغل .. »

ثم يعود هو وصاحبه الآخرون الملتفون بالجثمان الى ما كانوا فيه . ولكن الباب يطرقه ثانية الطارق نفسه ، يكرر دعوته السابقة ويقول :

« يا ابا بكر .. ان ابن الخطاب - »

فيقطع الصديق حديث الداعى ، ويصيح به :

« افى هذه الساعة ؟ .. ويح ابن الخطاب ؟ .. انى مشتغل

بجهاز الرسول . »

« انه قد حدث أمر لابد لك من حضوره ، وقد جئتك ابلى .. »

فلا يجد حينئذ مناصا من الخروج .

ويبدأ القلق يلعب بقواد العباس فلم يبق بعد تريث ولا امهال .

ان كل لحظة تمر تغير من سير الأحداث .. ويهم ان يتقدم الى ابن اخيه فاذا الظروف تمده من لدنها بعون على التقدم اليه بما تقدم به من قبل .. تمده بأبى سفيان بن حرب قد اقبل بعد ان نما اليه الخبر عن وفاة الرسول ، ويبدو شيخ بنى أمية محزوننا وحق له ،

فمحمد منه خير آله وان قضى بينهما من الخلاف ما كان . وابوسفیان بعد هذا وجل له دراية ، فجاء وفى يقينه مثلما انطوى عليه يقين الآخرين من سواد الانصار والمهاجرين . هو يعلم انهم كانوا فى قراراتهم مؤمنين بأن تراث النبى لن يترك داره ولن يخرج عن احب ذويه واقربهم اليه . علم هذا وعلموه حق اليقين . واولئك الذين لم يكونوا على ثقة منه كانوا يؤمنون بأن آل محمد اولى بترائه ... حتى الذين انحازوا الى سقيفة بنى ساعدة لم يكن اجتماعهم فى البدء لانتزاع السلطان وانما للتحوط لانفسهم ولكانتهم ممن سوف يتولى هذا السلطان ..

وكذلك دخل ابو سفيان دار الرسول ليقر بالامر لن حسب الناس اجمعين سوف يقرون له به ، وهو فى هذا لم تغب عنه روح الناجر الذى يزن الزيادة والنقصان ، ولم تخل نفسه من حرص على حق لبنى عبد مناف أسرته خشية أن يلقفه دونهم غريب ... ولئن بدا الشيخ ، فى هذه الآونة ، اصفى نفسا لآل محمد مما كنا عهدناه . فلأنه يعلم عن يقين انهم اليه أدنى وعليه - من غيرهم - أجدى ... ثم لأنه يعلم أن الأمر اشبه بسباق هو المتخلف فيه - على أى الحالات - وغيره السابق المجلى ولو كان هذا « الفير » هو اضعف المسلمين حسبا بين صحابة رسول الله ! ..

وتقدم الرجل ، بجوار العباس ، الى على يدعوه :

« يا ابا الحسن ... هذا محمد قد ضى الى ربه ، وهذا ترائه لم

يخرج عنكم ، فابسط يدك ابايعك فانك لها اهل .. »
فيجيبه على فى طمأنينة ووثوق :

« يا ابا حنظلة . هذا امر ليس يخشى عليه .. »

ويسمع العباس جواب ابن اخيه فلا يرضيه . ان الأمور دائما رهينة بالاوقات وليس يملك المرء الا لحظة هى حاضرة ان تلبث بها لم تلبث ، وتفلتت عجلي الى ماض قد لا يستطيع اخذه ، وحرى بالرشيد ان يملك زمنه ...

يقول له العباس ، وهو يشير الى شيخ بنى امية :

« يا ابن اخى .. هذا شيخ قریش قد اقبل فامدد يدك ابايعك

ويبايعك معى . فانا ان بايعناك لم يختلف عليك احد من بنى

عبد مناف . واذا بايعك عبد مناف لم يختلف عليك قرشى . واذا بايعتك قرشى لم يختلف عليك بعدها أحد فى العرب . »

فينريث على برهة يفكر ، هذا حقا منطق الرجل النهاز الذى تعنيه الغاية ولا تعنيه الوسيلة ، وكان هو غير ذاك . انه ليعلم انه للبيعة اهل ولكنه يرى لزاما عليه ان يتخير الوسيلة الصالحة الى هدفه . وقد عرف للبيعة حقا يجب توفره لتكون بيعة صحيحة ترضيه وتوافق ما جبلت عليه طبيعته المثالية . . كان معنيا دائما بالتماس الكمال واحتذائه فلا يميل الى الحلول التى يملها الارتجال او الدفعة او تحين الفرصة . وانه لعلى ثقة من نفسه ومن قدره ، تقدم له ابو سفيان او لم يتقدم . ولكنه كان حريا ان يعرف ان الامام جدير به الا يملك سلطان الناس بغير مشورة منهم وبعبدا عن اعينهم ، بل الا الى به والاين على صحة بيعته ان يكون هذا على رءوس الأشهاد حتى لا يفصل بين احد وبين الاعتراض لو شاء الاعتراض . . ولم يكن العباس هو كل الناس ، ولم يكن شيخ قرشى كذلك - بل هما رجلان مفردان وان علت اقدارهما بين القوم ولذلك نراه يفضى عن كف ابى سفيان المبسوطة اليه ويغضى عن كف عمه ، ويهز رأسه لهما وهو يقول بالمأثور من صراحته وشدة التزامه نهجه الأمثل :

« لا والله يا عم ! . . فانى أحب ان اصحر بها ، واكره ان اباع من وراء رتاج ! . . »

وخرج ابو سفيان لا يعقب ، فقد رأى العزم وسمعه فى كلتا الكلمات والنظرات . وبقي العباس صامتا لا ينبس كما بقى الال والصحب الحاضرون . اما على فقد عاد الى ما كان فيه من جهاز الرسول فاحتمل الحدث الطاهر ثم اقبل عليه يفسله . وكان اسامة ابن زيد ، وشقران مولى رسول الله يصبان الماء وقد اسنده هو الى صدره يدلكه من فوق القميص فلا يكشف عنه ولا تفضى اليه يداه . ولقد استطاع على ان يفرض على نفسه - ثابتا - هذا الواجب المؤلم الذى يهد الكيان ويمزق نياط القلب . . وبحسبه ان كان يهيه اذ ذاك حبيبه المختار لرحلة فراق ما بعده فى هذه الدنيا تلاق . استطاع هذا وان ابت عينيه ان ترقأ وابى ان يخفت وجيب قلبه وهو لا يننى بردد من بين الدمع بنبرات تاكل محزون :

« بأبى أنت وأمى لقد انقطع بمونك ما لم ينقطع بموت
غيرك من النبوة والأنبياء وأخبار السماء . لولا أنك أمرت بالصبر
ونهيته عن الجزع لأنفدنا عليك ماء الشئون . ولكن الداء مماتلا ،
والكمد محالفا - وقلا لك !.. ولكنه ما لا يملك رده ولا يستطيع
دفعه ، بأبى أنت وأمى !.. اذكرنا عند ربك ، واجعلنا من بالك .. »

٣

طرق باب حجرة الرسول نالته فى ذلك النهار .. ولكنها كانت ،
هذه المرة ، طرقات عنيفة تلاحقت فى سرعة ، فيها لهفة وفيها قلق ،
وكان الطارق هذه الدفعة ، رجلا آخر غير ذاك .

وقام الى الباب من فتحه فاذا البراء بن عازب يصرق داخلا
كأسهم ، لا يحيى ولا يسلم ، مبهورة أنفاسه ، عليه وعناء المسير ،
فى وجهه وجمة الذى يخفى بدأت نفسه أمرا يعرف كيف يؤذى
اسماع القوم لو ألقاه ونى كيانه اضطراب ، وفى عينيه نظرات
الغضب الثائر وان اختفت تحت حكمة التريث المحاذر .

وانبرى اليه العباس ، متلهفا بهتف به :

« البراء !.. فيم أنت ؟ »

فألقاها كلمات موجزة ، مربرة النبرات :

« فى أمر ، يا بنى هاشم ، فاتكم شهوده وفاتكم به الأمر !.. »

وجلس يستروح .

وجم الحاضرون . وملك الصمت منهم الأفواه . وراحت نظراتهم
تنتقل ، حيرى على وجوههم ، وكلهم رجل شارف به شعوره الشر
المجهول .

وكان العباس أملكهم لنفسه ، فلم يلبث حتى انتبه يستنبيه

البراء جلية خبره :

« فقل ، ولا تخف »

- فبسط الرجل كفيه يائسا ، وأجاب :

« قعدتم فملكتم ، وغلبكم ابن أبى قحافة عليها . »

« ويحك ! »

« وبايعته الأنصار فى بنى ساعدة .. »

« والمهاجرون ؟ »

« أما هؤلاء فلا . وإنما هم فى المسجد الآن ... ولكنى شهدته بعد السقيفة بعينى ، الى يمينه عمر ، والى يساره ابن الجراح ، لا يمر بهم أحد ولا يمرون بأحد الا قدموا يده - شاء أو أبى - فمسحوها على يد أبى بكر .. »

وتوقف الرجل عن الحديث وقد بدأت البغطة تظهر فى عينيه والقلق بشيع فى وجوه الحضور .. ان هممة خافتة سرت فى الأجواء خارج الدار ثم أخذت تعلو ، ثم أخذت تقترب اذ تعلو حتى تبينوها ألقاظا وكلمات . وما لبث المكان الا قليلا حتى ارتج عليهم بأصوات التهليل والتكبير تسرى من مسجد الرسول . هتافا لخليفة الرسول ، فى لحظة كان جثمان الرسول مسجى فيها على فراشه لم يطوه بعد اللحد .

وصاح العباس اذ ذاك فى بنيه . وفى ابن أخيه ، وفى من حضره من آل هاشم وقد فاض بكلماته النضب والهبها الهابا :
(تربت أيديكم ! .. اما انى أمرتكم فعصيتمونى .. تربت أيديكم آخر الدهر ! .. »

ذاك لم يجر مطلقا لبنى هاشم فى بال ، ولا لغير بنى هاشم من المهاجرين ، ولا لغيرهم أيضا من الأنصار ، وان تمت البيعة لأبى بكر أولا على يد الأنصار .

ولكن الحوادث جرت سراعا تسبق سرعتها جريان الخواطر فى الأذهان ، حتى أبو بكر نفسه لم يطف بذهنه - الى قليل - انه سيكون خليفة الرسول ، لا ولا عمر ، ولا ابن الجراح وهما اللذان ساعداه وانتزعا له البيعة انتزاعا . وإنما كان الأمر فى البدء لا يجاوز اجتماع الأنصار بالسقيفة يتشاورون فى مكانتهم بعد وفاة الرسول ، وفى مكانة بلدتهم ... ويحدثون يا ترى سيخرج سلطان الاسلام من المدينة دار هجرة النبى الى مكة ببلدته وبلدة ذويه من قريش الذين سيؤول من بعده الأمر اليهم .. ويتساءلون هل عسى المهاجرون سيؤولونهم الخير الذى أوصى به رسول الله . انهم ليذكرون كيف اختصهم محمد ، وكيف شاد بذكرهم ، وكيف قال عنهم انهم بيعته

وانهم لجأه ، وانه السالك دائما شعب الأنصار وان سلك الناس اجمعين شعبا سواه ... فماذا تصير اليه حالهم لو اتاهم بعده من يخرج بسلطانه عن ديارهم فلا يشيرون ولا يشاورون ؟ .
قال منهم قائل :

« منا امير ومن قريش امير .. » .

وسأل منهم سائل :

« فان ابوا عليكم ؟ » .

فخرج الحديث بهذا عن نطاقه المضروب ، وتفرق شجوننا .
عز على الكثيرين منهم الا تكافأ نصرتهم النبي لدى المهاجرين ،
بتأمر واحد من رجالهم الى جوار امير من هؤلاء ، وان يبدوا في عيون
قريش اهون امرا مما يعرفون من شأن انفسهم هم الذين اقاموا
بأسيا فهم دعائم الاسلام وبأموالهم اود رجاله الاولين . ولم يكن
المهاجرون قد ابوا بعد عليهم شيئا ولم يحضر حديثهم ذاك منهم واحد ،
ولكن الأذهان استقبلت الحوادث بالظن والترجيح ثم سارت في سبيل
الظنون تبنى على اساس الخيال .

وانقلب الحديث بعد هذا الى موازنة بين فضل وفضل ، وبين قوة
وقوة . لئن تجشم المهاجرون الصعاب وخرجوا من ديارهم في سبيل
دعوة الاسلام ، فلقد وجدوا في المدينة رجالا زادوا عنهم بغى القريب
والغريب ، وشرعوا الأسنة في سبيل الدين حتى نشر لواءه على الجزيرة
من طرفيها . ثم فيم قريش اليوم من ساطان الاسلام وقد كانت - الى
قريب - اعدى اعداء الاسلام ؟ .. لقد ضربوا عليه بالسيف حتى دانوا
اخيرا والقوا الزمام في يد النبي وأيدى ناسريه . فاذا رأوا اليوم لهم
من ورائه مغنما في سلطان ، اقبلوا يستلبونه ثمرة ناضجة من يدى
سقاته بدمائهم وغارميته ؟ !

هذا والله لن يكون !

وكذلك جلس سعد بن عباد ، شيخ الخزرج ، في سقيفة بني
ساعدة يدعو الأنصار ان يملكوا بينهم امرهم ويوحدوا كلمتهم فلا يخرج
الامر من أيديهم ، ولا يذهب دونهم بالفضل من تخلف عنهم في الفضل .
ولم يكن استلاب حق المهاجرين الاولين يدور للأنصار في بال ، ولكن
شيخهم علم ان أولئك المهاجرة قلة في الناس وقلة في قريش الى
جوار كثرة الأنصار السابقين جميعهم الى الاسلام . وكان الرجل

ضويا مريضا ، يسرى صوته كالهمس فوقف الى جواره يبلغ عنه ، رجل طوال ، مديد القامة ، اصلع ما لى وجهه طاقة شعر ، هو ابنه قيس .

ولقد كادت الانصار تستجيب للدعوة ، وهمت ان تباع لشيخ الخزرج وهو من علمت سابقته فى الدين . وفضله . وكرمه الذى استطار صيته بين الناس وغمر به المهاجرين قبل الانصار . وانهم ليذكرون له فى هذا كلمة عرف بها وأثرت عنه يوم ان عاد قيس ابنه من سفر صاحبه فيه أبو بكر وعمر بن الخطاب . . كان قيس خلال الرحلة جوادا مسماحا ، ينفق على صاحبيه ويغمر ، ثم لا ينسى ينفق ويغمر حتى دفع جوده أبا بكر الى ان يقول :

« بعض مال ابيك يا قيس !.. امسك يدك . . » .

فلما علم شيخ الخزرج ذلك وقد آبوا من سفرهم ، قال لأبى بكر :
« أفأردت ان تبخل ابنى؟.. انا يا أبا بكر قوم لا نستطيع البخل!.. »

أجل همت الانصار ان تباع للشيخ الكريم لولا ان رجالا من الحاضرين لم ينسوا حق آل الرسول وذويه من قريش ، ورجالا آخرين عادت أحقاد الجاهلية الأولى فى صدورهم المفلولة ، ورجالا سوى أولئك وهؤلاء استبد بهم حسدهم للشيخ وتحننوا به الفرص لى يخذلوه .

انفلت من بين القوم من يمم شطر دار الرسول فوقع على عمر بن الخطاب بالمسجد يتحدث الى أبى عبيدة بن الجراح ، فأفضى اليه بما يدور فى السقيفة .

وهب عمر من مكانه مبغوتا يزأر . وبانت الغضبة فى وجهه اذ كانت الانصار تذهب دون قريش بالسلطان على العرب . وتلفت حوله برهة حائرا ، ثم ما لبث أن مد الى رفيقه كفه وقال :
« أبسط كفك يا أبا عبيدة ابايعك ، فانت امين هذه الأمة على لسان رسول الله » .

فلم يبسطها الرجل . بل نظر اليه عاتبا واجاب :
« ما رايت لك فهة قبلها منذ أسلمت يا بن الخطاب !.. اتبايعنى وفيكم الصديق ثانى اثنين اذ هتما فى الفار » .

وهكذا تبدل الموقف . وأسرع رسول من لدن عمر الى دار النبي يدعو أبا بكر حتى يلحق بصاحبيه ثم يروا رأيهم فى أمر الأنصار .

منذ تلك اللحظة قر فى ذهن عمر أن أبا بكر هو أولى الناس بخلافة الرسول . وليس فى هذا ما يؤخذ على ابن الخطاب أو يطعن فى قدرة الخليفة الأول وجدارته لتولى شئون الناس ، ولكن الواضح الجلى أن رأى عمر جاء عفو وقته ولم يأت من تدبر وتفكير .

اجل كان عفو وقته . ولو كان طاف بذهنه يوما من قبل لما مد الى أبى عبيدة كفه ، ولما تمهل بالزمن حتى يسمع نبأ السقيفة ، بل لكان سارع - مذ علم بوفاة رسول الله - الى أبى بكر يبايعه وقد كانت أمامه من الوقت فسحة لهذا وقسحات :

انما الذى يؤخذ على الرجل ، حقا ، أنه دنا أبا بكر من دار الرسول ولم يدع معه واحدا من آل الرسول ، فانفرد وحده بالحكم على صحة الراى الذى أشار به زميله ، ووضع أبا بكر فى كفة الترجيح دون مشورة رجل واحد غير أبى عبيدة بن الجراح كانه وكل بقلوب المسلمين يكشفها وبالسنتهم يجرى عليها الكلام ، رغم تخلفه عن كثيرين منهم وسبقهم عليه فى الاسلام ، ورغم ما كانت تدعو اليه الحال من ضرورة مشورة واحد - فى القليل - من آل محمد الأذنين ..

ولكن عمر - فيما يبدو قبل كما ألهم المرقف قلبه . واختار الصاحب الذى اختاره صاحبه اذ لم تكن لديه مهلة للتفكير فى سواء أو فى التحوط لتوفير الصحة لهذا الاختيار . ولعله نسي عليا اذ ذاك كما نسي أبا بكر فى البدء ... ولعله ذكره ثم أراد أن ينسأه زنه حاول فى لمحة خاطفة أن يفاضل بين كهل وشاب فلم ير وجهها الى التفضيل ، لانا نعرف الغلام ، ونحن رجال ثم تسير بنا وبه الأعوام فيظل فى أعيننا نفس ذلك الغلام ! ...

٤

ما عسى كانت تصير اليه الحال لو ان ابا عبيدة اخذ الكف التى بسطها عمر وقبل البيعة لنفسه ؟.. وما عسى كان ابن الخطاب يقول للناس اذا وقف بعد هذا بينهم يقدم لهم ابن الجراح كخليفة رسول الله على المسلمين ؟. افكانت تقدمته هذه لا تعدو تلك التى قدم بها ابا بكر فكان يقول : « ايها الناس ، ان الله قد جمع امركم على خيركم ... » ام كان سيتنبه اذ ذاك الى الخطأ الذى اوقعته فيه دفعته وجعلته يختار فلا يصيب التوفيق فى الاختيار ؟

لقد كانت فى الرجل حقا دفعه . لا وراء عرفت فيه ابان كلا اسلامه وشركه : وكانت منه بعض خلقه كعنفه المأثور ... استبدت به جاهليته ذات ليلة قبل تفتح قلبه للدين ، فاقسم ليمتين الى محمد فيقتله ويكفى قريشا امره . واذا به يتوشح سيفه ويسمى الى الدار التى يجتمع فيها النبى بصحبه الاولين . وكان فى حسيان الرجل ان يضرب عليهم الباب ثم يقتحم المكان حتى يفضى بدؤابة حسامه الى قلب الرسول .. فآين. الخطل فى التدبير ان لم يكن مجسما فيما كاد ان يرتكبه ابن الخطاب ؟.. وكيف نسي ان دون وصول سيفه المسلول الى قلب عدوه اذ ذاك قلوبا تتلقى عن نبيها الطعنات وتنعم اذ ترى دماؤها فى هذه السبيل من جراحها تسيل ؟.. وهلا علم ، وان غرته العزة بالاثم وهونت لديه الجرم ، ان شجاعة البطش فيه لا تقوم امام شجاعة الايمان فى رفاق محمد وناصره ؟. لئن غاب هذا كله عن وعيه فى ذلك الحين ، فقد كاد ان توقعه دفعته فى عرين يحميه خير قرين ، هو اسد الله واسد رسوله : حمزة بن عبد المطلب ! وما احسب عمر لو اقتحم الدار الا كان ملاقيا فى الليث من يرد عليه الطعنة بذات سيفه قبل ان يفضى بها الى الرسول ان لم تنسه هبة حمزة كيف برفع الحسام !.. وبحسك ان تعرف ان ابن الخطاب تبدلت به سربرته فى الطريق فيم تلك الدار لاعتناق الاسلام لا لضرب الهام ، حتى اذا ضرب الباب ورجفت

لمظهره قلوب بعض المجتمعين ، صاح حمزة بتوسل الى رسول الله :
« ائذن له يا رسول الله ... فان كان جاء يريد خيرا بذلناه له ،
وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه ! ... »

تلك كانت دفعة من عمر عرفت فيه كبعض خلقه ، راضها الاسلام
الى حد كبير ، وقل من عزمها ولكنه لم يأت عليها ، بل كانت تبدو
احيانا للعيان فيجعلها الناس كغلظة او كخشونة في الطباع ... حتى
في حضرة الرسول كانت تملكه ولا يستطيع ان يتحرر منها الا اذا
رده عنها راد . وكذلك كان يوم الحديبية شأنه حين لم يستطع أن
يتقبل بالرضا شروط الصلح التي أملى اكثرها سهيل بن عمرو ووافق
عليها رسول الله . فلقد هاج اذ ذاك ، وانفلت من يده زمام أمره ،
حتى انبرى غاضبا الى نبيه يقول :

« أو لست بالمسلمين ؟ .. أو لست برسول الله ؟ .. أو لست
كنت تحدثنا انا - » .

وظل على هذه الوتيرة الخشنة من جفاء الحديث حتى صاح
ابو بكر :

« الزم حدك يا عمر ! ... فاني اشهد أنه لرسول الله ... »

وليس من ريب في ان دافعه في كلا الحادتين كان الغيرة على
دينه وان اختلف بين الزمنين هذا الدين ، ولكنها مع ذلك كانت
دفعات تتركه يتحدث فلا يترث . ويدبر ولا يتدبر ، شأنه فيها
كشأنه حين علم ان محمدا قد مات فقام يتوعد بسيفه من قال ان
محمدا قد مات .. ولو كان تفكر قليلا لما عجب لوفاة الرسول ،
ولما ثار ، ولأنبأته به من القرآن آيات وآيات .. وكشأنه حين علم
ان البيعة توشك ان تتم في سقيفة بني ساعدة لواحد من الانصار
دون رجل من قريش ، فاندفع يتلفت حوله ، حتى اذا وقعت عينه
على اول قرشي - وان كان اي قرشي كما لاح ! - بسط كفه وهم أن
يباع ! .. واحسب لو القت المصادفة - تلك اللحظة - في سبيله
بابن أبي طالب لما قبض عنه يده ، ولاقبل عليه بدلى بالبيعة في
غير وني ولا امهال ! ..

غير أن المصادفة لعبت دورها فأجرت اسم ابي بكر على لسان

ابن الجراح ... أو لعله التدبر ... أو لعله صدق الشعور بمكانة ابن أبي قحافة في نفس أبي عبيدة وقد رآه يقوم خلال مرض رسول الله بامامة المسلمين في الصلاة . وسواء اكانت تلك ام هذه ام ذلك من خواطر وافكار هي التي دفعت ابن الجراح فقال فولته . فان عمر لم يتحر مشورة رجل واحد من المسلمين قبل ان يبعث رسوله الى دار النبي يدعو صاحبه اليه . . لم يتحر مشورة مسلم واحد في ترشيح الرجل الذي ستصير اليه قيادة دولة . ولم يتحر تمحيص الراي الذي لقنه ابن الجراح اياه عن حربه اولى قريش بخلافة رسول الله ، بل اندفع يعتنقه كملفيه ... وما اظن عمر قد اقتنع بجدارة ابي بكر بالمركز المنتظر اذ كان رفيق النبي في الغار . واحق بالتقديم واولى بالاختيار فتى خلف رسول الله على فراش احاطت به السيوف والرماح - الراقد فيه ادنى الى القبر من مدلج في الصحراء ، وانأى عنه التماس النجاة والفرار الى الحياة ! . وما اظنه قدمه اذ عرّفه يؤم المسلمين في الصلاة بضع مرات ، والامامة في ذاتها تصلح بالسن ، وتصلح بالعلم ، وتصلح بالسبق الى الاسلام ثم بغيرها من ميزات ، لم يتخلف على عن واحدة منها الا الاولى وليس في تخلفه هذا ما يعاب به ولا في تقدم غيره ما يثاب عليه ! . ولكنني احسب عمر - فوق هذا - قد نسي في آونة الاضطراب الذي انتابه ، موقفا شهدته منذ قليل وكان حريا معه ان يميل بعلى الى جانب التفضيل . فلقد عرف كيف اجتنب رسول الله ابن عمه وقدمه على غيره من كبار المسلمين : انصارهم والمهاجرين يوم ارسله الى مكة ليكون لسانه الناطق بمحكم التنزيل في موسم حج كان ابو بكر اميره ، وذلك ليقرا براءة ولينقض ما سلف من عهود كانت تربط بين الدولة الاسلامية الناشئة وبين جيرانها المشركين . لقد عرف عمر هذا كما عرفه سواء ، وعلم اباء النبي ان يؤدي عنه ابو بكر ما اختار عليا لادائه عنه ، وكان قمينا بعد هذا بكل متدبر ان يعلم علم اليقين ان مهمة على لم تكن دينية بقدر ما كانت سياسية ، كانما الرسول قد اختار ابن ابي طالب للقيام بما هو بعيد الأثر في كيان دولة الاسلام .

ولكن التاريخ جرى - رغم هذا - فى سبيله المرسوم أخطأ عمر
أو أصاب التوفيق !... وخرج أبو بكر مهرولاً من دار الرسول يتجه
الى المسجد وهو لا يعلم قيم دعوة ابن الخطاب . ولحق بصاحبيه هناك
فحدثاه بما كان من أمر الأنصار فى السقيفة . ولست أظن الشيخ علم -
قبل أن يبرحوا ثلاثتهم المكان - أن صاحبيه أرادا تنصيبه خليفة على
المسلمين . ولا أظنهما أيضاً حدثاه بما ينم عما اعتزمناه ، وإنما سار
معهما بحث الخطأ الى بنى ساعدة وفى باله أن يسعى جهده للاحتفاظ
بسلطان محمد لقومه قبل أن يلقفه منهم الأنصار ...

أجل فلم يكن الرجل يطمع مطلقاً فى سلطان . ولم يك يجنح قبل
يومه الى حكم الناس ، بل قد كان من الألى بنفرون من التأمير ولا يجرى
امتلاك أمور الأقوام له فى خاطر . وإن ماضيه لعلى هذا لشاهد ،
فقد مر به - ذات يوم على عهد الرسول - أعرابى عرف له صلته
الوثقى بنبى الله فجاءه يستفىء منه بحكمة لعله نهلهما من تبع محمد ...
قال له .

« يا أبا بكر ... أوصنى » .

فأجابته ، كأنما قد أعد له من زمان طويل جواب السؤال :

« أوصيك الا تتأمر على اثنين »

فكانت وصاة نضحت عن طبع جبلت عليه نفسه وإن أراد له

التاريخ الا يأخذ بها نفسه حين تداركت أمامه الأحداث !...

ولقيهم - وهم موشكون على بلوغ السقيفة - عويم بن ساعدة
ومعن بن عدى : أنصاريان خرجا على اجماع أصحابهما ذلك النهار ..
فاستبقا نحوهم يسألان :

« أين تريدون ؟ »

قال أبو عبيدة :

« الى اخواننا هؤلاء ننظر ما هم فيه » .

فنصحهم عويم :

« لا عليكم الا تقربوهم » .

فصاح عمر بمالوف حدثه :

« والله لتأتينهم ! »

فأجاب عويم :

« أما ان شئت فدونك .. ولكنى يا معشر المهاجرين قمت فيهم أقدم على صاحبكم هذا اذ قدمه رسول الله للصلاة فعابوني وأخرجونى . »

ولا شك ان تقديم أبى بكر كان رايًا سرى بين بعض الناس .

وقال له عمر بلهجة المتربص بمجرى الأمور :

« سننظر وينظرون ... »

« بل اقضوا أمركم بينكم يا معشر المهاجرين »

ولكنه أبى ، ومضى يتبعه صاحبه وطريدا الانصار . حتى اذا أشرفوا على المكان وسرى اليهم جرس الحديث من بعيد . سال عمر أحد الرجلين :

« فأين صاحب القوم ؟ »

« على فراشه يهمس وابنه يذيع .. »

« ويحه !... لا يملك الناس مريض ! »

٥

استطاع أبو بكر بمعهود حكمته ان ينفذ الى اجتماع الانصار ، وان ينفذ الى قلوبهم ، وأن يأخذ ما بأيديهم منهم طواعية او بمظاهرة ظروف الحال .. كان رجلا له فى الناس هبة وفى النفوس محبة . بانته البفتة على الوجوه حين بدأ يتبعه صاحبه ، ومشى الوجوم فى المكان . لأمر ما عاد عويم بن ساعدة ومعن بن عدى فى ركاب الشيخ وهما الخارجان منذ قليل على الاجتماع ، ولكن اللسان لم تكدر تصوغ حروف اللفاظ حتى بادروهم أبو بكر بالكلام ، لا عليه ان يترث حتى يستجمعوا شتات الأذهان ولا عليه ان ينصت لقولوا فانما قد جاء هاهنا ليكونوا هم له منصتين ...

وكان حكيما غاية الحكمة فلم يدع للفرصة أن تسدد خطاه وان سدد هو هذه الخطا لتصل به الى فرصة وفرصات . وحزم الأمر

على أن يكون بيده تدبير الأمر . ولو استطاع لكان أبعد ابن الخطاب عن الحضور الى هذا المكان حتى يأمن دفعاته التي قد تودى واحدة منها بكل تدبير ... ولكنه عرف كيف يملك هذا الزمام حيث يحسن جذبه ثم يرخيه لصاحبه بعدها اذ يشاء .

لذلك ما كاد يدلف الى السقيفة حتى مال على رفيقه بهمس :

« رويدا يا عمر حتى أتكلم ، ثم انطلق بعدها بما أحببت » .

فأمسك وقد هم أن يثور بالناس . ووقف أبو بكر يتخير من كلماته مفتاحا الى القلوب . وكان الحديث عن رسول الله هو ذلك المفتاح ، فأنشئ عليه وحمده كأحسن ما يستطيع أن يلهج بالحمد لسان وتستطيب الشئ آذان . ثم انشئ يتكلم عن المهاجرين الأولين والعصبة السابقين . قال :

« أيها الناس . لقد خص الله المهاجرين الأولين من قوم رسول الله بتصديقه ، والإيمان به ، والصبر معه على شدة أذى قومهم وتكذيبهم ، وكل الناس لهم مخالف وعليهم زار . ولكنهم لم يستوحشوا لقله . وكانوا أول من عبد الله في الأرض ، وآمن بالرسول . هم أولياؤه وعشيرته ، وهم أحق الناس بالأمر بعده ... »

ولم يفصح الرجل عن أي الناس بين أولئك المهاجرة أولى بتراث النبي لأنه كان قد جاء لاقرار مبدأ لا لتنصيب شخص معلوم . ولقد أفضى بما راود خاطره عن صاحب الحق في هذا التراث . ولئن كان أبو بكر لم يذكره باسمه وسماته فقد عينه بتحديد صفاته فأبرزه امام الملا أمرا من المهاجرين الأولين ، سبق الى الدين ، وكان للرسول ولما من عشيرته وقف الى جواره لا يثنيه أذى ولا يستوحش لضعف ولا قلة . بل راح يعبد الله قبل أن يعرف هذه العبادة في الأرض سواء ... رسمه أبو بكر هكذا وان جاء الرسم منظرا عاما ظهر فيه غيره ، ولكنه كان على أي حال رسما لا يعوز العين الفاحصة أن تتبين تجمع ألوانه في ناحية واحدة من نواحيه ! ...

على أن أولئك الذين لم يتبينوا الوضوح في كلام أبي بكر من الانصار أو تبينوه ثم بدوا كأن لم يتبينوه لأن نفوسهم أبت عليهم -

وهم الأعزون - أن يكونوا لغيرهم تبعاً .. أولئك لم يلبثوا حتى نطق ناطقهم فقال :

« إنما نحن أنصار الله وكتيبة الاسلام ، وأنتم يا معشر المهاجرين - »

فسارع أبو بكر يقاطعه بلين الحديث :

« أنتم من لا ينكر فضلهم في الدين ، ولا سابقتهم في الاسلام . رضيكم الله أنصاراً لدينه ، ورسوله . وجعل اليكم هجرته . وفيكم جلة أزواجه وأصحابه . فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم . لا تفتاتون بمشورة ولا نقضي دونكم الأمور . »

وهكذا عرف الرجل أن يداوى الداء الذي خشيت الأنصار أن يصيبها بعد رسول الله ، فقد أقر لهم بحقهم في المشورة وأقرار ما يرونه من شئون الدولة جديراً بالأقرار . ولكن هذا لم يسكت لسان متحدثهم الذي بادر يعترض :

« بل انكم رهط منا ! . وقد دفت دافة من قومكم وإذا هم يريدون أن يختزلونا من أصلنا ويفصبونا الأمر . »

فعلا الهمس إذ ذاك بين الحضور ، وتجاوب المكان بهمة الاستحسان ، صدق هكذا قائلهم وأجاد لأن حديثه كان لما في نفوسهم صدى ... وإنما هؤلاء المهاجرين رهط قليلون جاءوهم من قبل مستضعفين ثم استعزوا بهم بين أظهرهم فلا تكون لهم قدم على أصحاب الفضل ، ولا يسبقن الأنصار إليها . وإن في أذى كل رجل من السقيفة إذ ذاك لصوتا داوياً مثل قرع الطبول ، يردد ما كان يهمس لهم به سعد بن هبادة ويذيعه ابنه قيس منذ قليل إذ كان يقول :

« أن محمداً لبث بضع عشرة سنة في قومه يكذبونه إلا رجلاً قليلاً . وما كانوا يقدرُونَ على أن يمنعوا رسول الله ولا أن يعزوا دينه ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيماً عنهم ... »

أجل هكذا كانوا ... وهكذا كان بينهم النبي حتى أراد الله أن يرتفع لواء الدين فساق إلى محمد الأنصار مؤمنين ومائعين وناصرين . ولعل سعداً لم يتجاوز الحقيقة حين قال في معرض إثارة الحمية في نفوس قومه والتدليل على فضلهم المشهود :

« يا معشر الأنصار . لما أراد لكم ربكم الفضيلة ساق اليكم الكرامة وخصكم بالنعمة فزادكم الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه ،

والاعزاز له ولدينه . والجهاد لأعدائه ... يا معشر الأنصار قد كنتم
أشد الناس على عدوه منكم ، وأثقلهم على عدوه من غيركم حتى
استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرها ، وأعطى البعيد المقادة صاغرا ،
وأتخن الله لرسوله بكم فى الأرض ودانت بأسيا فكم له العرب ...
يا معشر الأنصار - فستبدوا بهذا الأمر دون الناس فانه لكم دون
الناس ! »

... ترددت هذه الكلمات ومثيلاتها مما نطق به ابن عبادة ، فى
أذهان الناس وأبو بكر قائم فيهم ، يكاد أن يفرق صوته فيما يملأ المكان
من أصوات ، ولكنه رجل جاء ينصر مبدا ويدعو اليه ولا يقف به عن
أدائه مقاطعة ولا اعتراض . فاذا كان الأنصار قد عرفوا لقضيتهم
هذه حقا فقد عرف قضيتهم أيضا حقا أثبت أمام حجة الخصيم
والفرير .. قال مرفوع الصوت مهيب السمى فى رنة فيها لين
وفيها جرس رصين :

« ايها الناس !... ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ،
ولكننا - نحن المهاجرين - أول الناس اسلاما ، وأكرمهم احسابا ،
وأوسطهم دارا ، وأحسنهم وجوها ، وأكثرهم ولادة فى العرب :
وأمرهم رحما برسول الله ... ولن تعرف العرب هذا الأمر الا لهذا
الحى من قريش ! »

حجة تجبه الأنصار فلا تدانيها حجة لهم . الفاظ فى مجال
المفاضلة والفخار ليست تطاولها الفاظ . ولكنها على محك البحث
والتحصيل لا تستقيم لكافة المهاجرين !.. لا ولا للقلة منهم !.. لا بل
عساها - ان نشرتها لهم كالثوب - لا تزال تبدو فضفاضة مهدلة
الذيول والأكمام عليهم أجمعين ثم لا تنسجم بعد الا على فرد فيهم
لأنها اقتطعت على قدر صفاته وميزاته !.. انا لنؤمن حقا ان قريشا
بين قبائل العرب كانت الأعلى . وأن ذلك الحى حقا كان أعلى قريش .
ولكننا نؤمن أيضا ان آل هاشم كانوا فى حيهم هذا وفى العرب كافة
الأوسط دارا ، والأذكى نارا ، والأعز جارا ، وبحسبهم انه كان منهم
رسول الله . ثم دع السامع والمتحدث كليهما يتخيران من بين هؤلاء
رجلا - سوى على بن أبى طالب - كان أول الناس اسلاما ، وأدناهم
قربا من الرسول ، وجمع الظلال والأضواء التى أضفاها أبو بكر على
صورة من يرى له حق ولاية الناس .. دع السامع والمتحدث كليهما

يتخيران رجلا له كل هذه الصفات لو استطاعا الى الاختيار السبيل!..
على اننا لا نستطيع ان نجزم ان كان أبو بكر قد زوى هذا الكلام
وفى نيته ان يروج به لعل ويدعو اليه ، ولكننا نجزم ان الشيخ -
على اى حال - لم يعن به اذ ذاك نفسه ، لانه رسم ميزات اجتماع له
منها الجبل ولم يجتمع الكل ، ولانه كن قبيل هذا المقام لا تجرى له
ولاية القوم فى بال ولم يسع سعيه الا ليقيمها فى الحى الذى آمن
انه اجدر بها من كافة احياء المسلمين .

ومع ذلك فلم يستطع منه بعض الانصار ما قلل لانه أجمل المقال
ولم يحدد هدفه تمام التحديد . وعساه لو كان القى على اسماعهم
اسم ذلك الشاب الذى خلفه قائما على جثمان نبيه وابن عمه يتعمده
بالاعداد والتجهيز لكان للانصار شأن غير شأنهم هذا ، ولكانوا القوا
له كلا السمع والمقادة لا يعترضون ولا يحاجون . ولكن أبا بكر انتهج
ذلك اليوم النهج الذى يستقيم وطبعه اللين الرقيق ، وآثر ان يكسب
الأرض تحت قدميه شبرا شبرا ولا يقطع الشوط كله بقفزة .

كذلك فعل أبو بكر ليخضد شجرة الانصار شوكة فشوكة . فبدأ
يحد من غلوائهم يذكر الرسول ، ثم يلين الحديث ، ثم بالثناء على
ما تولوا به الاسلام من فضل ، وكلما استراحت لحديثه الأذان انتقل
وثبدا الى الناحية التى تقربه من الهدف المرموق . ولكنه ما كاد يبلغ
مبلغه من الكلام واثره فى كثير من النفوس والأحلام حتى انقلت اليه
الحباب بن المنذر ، وقد خشى مغبة هذه الرقة على قضية الانصار ...
قام الرجل يصيح فى قومه محذرا :

« يا معشر الانصار!.. املكوا عليكم امركم . ان الناس فى
فيئكم ، ولن يجترىء مجترىء على خلافكم ، ولن يصدروا الا عن
رايكم ... »

وانقلبت بهذا قضية الانصار قضية وطنية تسيرها العصبية!..
وبدا الامر كانه صيال المدينة ومكة كل منهما تبغى ان تفوز دون اختها
بالسلطان!...

واثارت كلمات الحباب الحماس فى الناس فاقبلوا عليه بافئدتهم
بصيغون .

وعاود الرجل دعوته بقول :

« يا معشر الانصار!.. اتم اهل العز والثروة ، واولو المنعة

والعدة ، وذوو البأس والشدة . وانما ينظر الناس الى ما تصنعون
... فلا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم وينتقض أمركم . «

فتهاثفوا من كل جانب :

« وفقت فى الراى »

واتم ، وهو يشير لى الثلاثة المهاجرين :

« فاما وقد أبى هؤلاء الا ما سمعتم . فمنا أمير ومنهم أمير .. »
وكانت هذه زلة اللسان التى قوضت أركان البنيان !..

٦

امتقع سعد بن عبادة وغاض لونه اذ سمع كلمة الحباب ، وهمس
لنفسه ، محنقا ، وهو يصرف بأسنانه :
« ويحه !.. هذا أول الوهن ! »

لم يكن لسان ابن المنذر أول ناطق هكذا بقسمة السلطان بين
قريش وبين الأنصار ، بل سبقه الى التحدث به سواد حين بدأ أصحاب
السقيفة يتشاورون قبل مجيء أبى بكر وصاحبيه . ولكن النطق به
الآن أقر المهاجرين بالحق فى تولى تراث الرسول بعد أن أوشك
ابن عبادة أن يخرجهم من الأمر صفر الأيدى .

مع ذلك فان عمر لم ير فى هذا الحديث نصرا للقضية التى جاء
يدود عنها وان كانت كلمات الحباب - فى الواقع - هى نصف النصر .
فسريعا عاود ابن الخطاب عنفه ، وضاق بطول التزامه الصمت ، فما
وسعه الا أن يصيح :

« هيهات هيهات !.. لا يجتمع اثنان فى قرن . »

وأصر الحباب :

« بل يجتمعان ! » .

« لا والله !.. ولن ترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم .
ولكنها لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم ، وولى أمورهم
منهم . ولنا بذلك على من أبى الحجة الظاهرة ، والسلطان المبين .. »

فقام أحد الأنصار يهتف بقومه :

« يا معشر الأنصار ! املكوا على أيديكم ، ولا تسمعوا مقال هذا ، وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر » .

هنا ملكت الحدة لسان عمر فانبرى يقول :

« منذنا ينازعنا سلطان محمد وأمارته - نحن أوليائه وعشيرته -

الا مدل بباطل ، أو متجائف لانم ، أو متورط في هلكة ! » .

قال الحباب ، وقد سمع هذا التعريض . يخاطب أهل المدينة :

« أما وقد أبوا عليكم ما سألتموه ، فأجلوهم عن هذه البلاد ، وتولوا

عليهم هذه الأمور ، فأنتم والله أحق بهذا الأمر منهم ، لأنهم بأسيا فكم

دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين .. » .

وازدحاه ما كان هو فيه من منعة بقومه وداره وبلده بعد أن أثاره

منف ابن الخطاب ، فانتضى سيفه يلوح به في وجه عمر ويصيح :

« أنا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب ! .. أما والله - أن شئتم -

لنعيدنها جذمة ! .. » .

عصف الغضب بجوانح عمر لهذا الوعيد حتى تلهبت عيناه فمرق

كالسهم إلى الرجل يزأر :

« اذن يقتلك الله ! » .

« بل اياك يقتل ! » .

وأوشك أن يقع ما خشيته أبو بكر بادىء الأمر من ابن الخطاب .

بل لقد لاحت فعلا بعض نذر الشرك إذ ضرب عمر يد الحباب فاسقط

منها السيف ، ثم أشرعه بهم أن يردى به سعد بن عبادة الذي رأى فيه

خالق الفتنة ومثير نوازيها . وما أحسب آفة كانت تصيب الإسلام بمثل

ما أوشكت أن تصيبه هذه الدفعة العمرية الفوارة لو لم يتدارك الله

الأمر فيلهم ابن الجراح أن يحول بين صاحبه وبين ما أراد . كان

أبو عبيدة قد قضى الوقت جميعه يشهد ويسمع ولا ينطق بكلام .

أما وقد كاد أن يفلت من بين أصابع صاحبيه الزمام فقد سارع إلى

جذوة النار يخمدنها قبل أن تغدو مشبوبة الأوار .

هتف بأهل السقيفة بصوت هادىء رزين ، فى نبراته توسل ورجاء :

« يا معشر الأنصار ! . كنتم أول من نصر وآزر ، فلا تكونوا أول من

بدل وغير .. »

فكانما قد لمس بكلماته هذه صمام الهدوء والسكون فى القلوب ..

انصت له الناس ، ثم تهامسوا ، ثم لم يلبثوا حتى هدات فيهم ثورات النفوس . وبدأ المكان ساكنا كأن لم يكن فيه شجار أو جرى في نواحيه حديث . وما برح القوم الا قليلا حتى تبينوا حقيقة الأمور . . . تبين رجال انهم أوشكوا أن يفصبوا حق رجال آخرين . وتبين رجال أن في صدورهم غرسا جاهليا كادت أن تذويه تعاليم الاسلام عاد اليوم يدعوهم الى ربه من جديد . وتبين رجال أن رفعة واحد من الآل تثير الحسد في نفوسهم وان كانوا له بمض الآل . . وفي مثل ملح البصر عملت هذه العوامل كلها متفرقة ومجتمعة ، وكان مجتنى الثمرة من ورائها غير الأنصار ! . . .

وكان اول تلك العوامل حسد الآل للمبرز من الآل . فقد قام بشير بن سعد في القوم يخطبهم ويقول :

« ألا أن محمدا - أيها الناس - من قريش . وأن قومه أحق به وأولى . وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم في هذا الأمر أبدا . . »
ولئن كان الدافع الذى أجرى لسانه بهذا الكلام قد خفى على بعض الناس فإن الحباب أبى عليه أن يظل خافيا أبدا ، بل سارع فكشف عنه الغطاء . . صاح به ظاهر الغضب تقطر من أفاظه مرارة اشمئزاز :
« ما احوجك الى ما صنعت يا بشير ؟ . . انفست الامارة على ابن عمك سعد بن عبادة ؟ ! » .

فلم يسمع هذا الحاسد الشائىء الا أن يجيب :

« لا والله . . ولكنى كرهت أن أنازع قوما حقا جعله الله فيهم . . »



وكان ثانى العوامل احقاد الجاهلية ثارت كثورتها قبل الاسلام وقبضت من بعض النفوس على الزمام . . قام سيد الأوس أسيد بن حضير ، وقد حضره سى هذا المقام ما سلف بين قومه وقبيلة بنى الخزرج رجال ابن عبادة فى الجاهلية من خلافات وثارات . قام يشير فى الأوس عصبية اطفأت فورتها سماحة الاسلام ويوقظ ما نام من سبخيمة الصدور بأن راح يهمس لبنى قبيلته :

« يا بنى الأوس ، لأن وليتموها سعدا عليكم مرة فوالله لا زالت للخزرج بذلك عليكم الفضيلة ، ولا جعلوا لكم نصيبا أبدا .. »

واستقر بهذين العاملين السلطان لقريش . لا لأن الانتصار قدمت على نفسها قريشا ، ولكن لأنها استجبت أن تحارب رجلها الكريم وتسلبه ما كاد أن يتم له من سلطان !. وانتهر أبو بكر الفطن فرصة هذا الانقسام الذى دب فى صفوف هؤلاء المنافسين فأخذ عمر بيد ، وأبا عبيدة بالأخرى ونادى فى الناس :

« أبها الناس .. هذا عمر ، وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا »

ولكن ابن الخطاب لم يكن قد نسى بعد أى ثلاثتهم أولى بالبيعة دون صاحبيه وما زالت كلمات أبى عبيدة بن الجراح ترن فى أذنيه . فأسرع يقول :

« بل أبسط يدك يا أبا بكر ... »

وعقب أبو عبيدة بعده :

« انك لأفضل المهاجرين ، وثانى اثنين اذ هما فى الغار ، وخليفة

رسول الله على الصلاة ... »

فبسط الشيخ لكليهما كفه يبايعانه . وأسرع عند هذا بشير بن سعد يفعل فعلهما فينحاز وراءه بعض الخزرج ... ويرى هذا أسيد ابن حضير فيدعو قومه علانية بعد ما كان من همسه وأسراره :

« يا بنى الأوس !.. قوموا فبايعوا أبا بكر ... »

وسارت هكذا البيعة للرجل الذى لم تجر خلافة المسلمين له فى بال ولم يك يطمع مطلقا فى سلطان ، ولعل وصاته لذلك الأعرابي راودت فى هذه الآونة خاطره فعرف كيف يروج المرء للمبدأ حيناً ثم لا يلبث حتى يكون من ناقضيه أول ناقضيه !.. ثم عرف أن حاجته التى ألزم بها منذ قليل هؤلاء الانتصار لم تعد حجة يلتزمها هو نفسه . ما دامت قد شئت له أن يحيد عن هذا الالتزام ظروف الحال ، والفرص التى اتاحها له حسد الآل لآل ، وما عاد الى الحياة من أحقاد الرجال !..

٧

ثبت الأمر لأبي بكر ، يوم السقيفة ، بانحياز أسيد وبشير ومن تبعهما الى رجل بنى نيم . وازدحم الناس من هذين الحين حوله يتسابقون الى بيعته حتى نسوا الشيخ الذى أوشكوا أن يلقوا اليه بالزمام من قليل .. نسوا كريم المدينة سيد الخرج سعدا الذى أقعده وجعه ثم كادت أن تطأه منهم الأقدام وهم يتدافعون نحو السيد الجديد !.. ما أسرع تنكر الانسان للمروءة أمم خيال السلطان !.. ان الناس لم يعد يشغلهم من دنياهم هذه اللحظة الا أن يمسحوا بأكفهم على كف أبي بكر . أما ذلك الذى كانت كلماته تلهب عواطفهم وتثير فيهم الحماس ، وكانت دعوته تملك اهتمامهم وتسنفق منهم الحواس ، وكانوا يتلقفون همسه كمثل تلقفهم خطرات الأنسام فقد هان لديهم الآن شأنه ، وبدا حاضرا كغائب حتى كادوا يقتلونه وهم لا يشهدونه !.. وارتفع من أحد الذين التفوا بشيخ الخرج المريض صوت محذر يصيح :

« يا قوم !.. اتقوا سعدا لا تطأوه ! »

فما أتمها حتى رنت - كرجع الصدى - كلمات جافيات غضاب :
« اقتلوه ، قتله الله !.. »

وكانت هذه دفعة أخرى من ابن الخطاب . انه حتى فى هذه الاوثة التى يدعو ضيقها على الشيخ الى رحمته والترفق به ، لم ينس عمر عنقه ، ولم يتدبر موقفه ، ولم يجعل بخاطره قبل تفوهه بهذا الكلام ما عسى أن يصيبه وصاحبيه ثم بصيب الاسلام لو عدا على ابن عبادة رجل فقتله نلبية لهذه الدعوة الغاضبة . وما أحسب حتى أولئك الذين خذلوا سعدا من الخرج حين تنازع السلطان سوف يبيعون دمه واحدا من الناس ايا كان . ولكن عمر تحدث وما تريت ، وقرر وما تفكر فى عقبى قراره ، فاذا أبو بكر يسارع فيكبج جماحه ، ويرده الى ما هو أدنى الى الصواب ان لم يكن عين الصواب .

قال له ناصحا وزاجرا فى آن :

« مهلا يا عمر ... مهلا فالرفق ها هنا ابلغ »

أجل فالرفق واصطناع الأناة أولى فى مقام يعج بالمخالفين والأخصام ، وكانت الأناة أداة أبى بكر منذ البدء ، داور به الانصار ما استطاع حتى اكملت له الظروف فوزه . وكان العنف أداة عمر لأنه ادنى الى طبعه وابلغ - فى ظنه - أثرا فى مثل هذا المقام . ولقد أصاب أبو بكر فى تلك الآونة لأن كثيرين من الأوس التى اجمعت الكلمة على البيعة له ، لم يبايعوه لفضل وان كان صاحب فضل ، ولكن لأنه كان رجلا من غير الخزرج الغريمة القديمة !.. ولأن كثيرين من الخزرج بايعوا متابعة منهم لسيدهم بشر . . . ثم لأن الأكثرين بعد هذا منها - وكانوا فى كف سعد - فعدوا عن البيعة ولم يثوروا بها لأنهم قد أذهلهم موقف قومهم من حاسدين وموتورين بعد الذى كانوا كلهم عليه من اجماع .



أصاب أبو بكر فى اصطناع الأناة ، وفى النصح لعمر بأن ينهج نهجه لأن العنف كان فمينا ان يعود بنفوس الانصار الى تدبر الأمر من جديد . واخطأ عمر لأن رؤية الدماء كانت كفيلة بأن تثير حرارة الدماء ، ولو أن دعوته الى قتل ابن عبادة لقيت سامعا مطيعا ، لما عجبنا أن رأينا الأمر ينتقض على أبى بكر قبل أن يبرح السقيفة ذلك النهار ، ولرايناها يخلفها كما دخلها ، رجلا من قريش بغير بيعة ولا سلطان . ولكن عمر ، وان يكن بدعوته تلك قد اخطأ ، فانه أصاب من حيث أخطأ . . أصاب لأنه رأى فى حياة ابن عبادة عودة للفتنة وعودة الى الانقسام بين المسلمين : انصار ومهاجرين ، لو شاء شيخ الخزرج فى يوم أن يحاول ابتزاز الحكم . بل ان حياة ابن عبادة عودة للفتنة وعودة الى الانقسام بين المسلمين : انصار وهو آمن ، وثى هذا ما فيه من انتقاص هيبة الحاكم ، وكفيلة بأن ينقض البيعة من بايع لأنه شهد السلامة لمن خالف ولم يبايع !.. وكفيلة بأن تترك غيره من الانصار يحدث نفسه بذلك الحق الذى افلته أصابع قومه ثم يسمى فى اصابة ما فاتهم من نجاح ، وأخيرا هى كفيلة بأن تدع أيا من الناس ظن لنفسه الجدارة وفيها القدرة يحاول جهده التماس هذا النجاح .

أخطأ عمر : ثم أصاب من حيث أخطأ ، لأننا شهدنا مع الأيام ،
الظنون التي طافت بذهنه اذ ذاك نتحقق أو توشك ان تتحقق ...
شهدنا سعد بن عبادۃ يقبض يده عن البيعة لأبى بكر ثم لا يزال
يقبضها بعد البيعة الثانية ومعه كثيرون من قومه ذاهروه على هذا
الامتناع - لا يرجعه عن عزمه هذا اغراء أو دعوة الى التزام كلمة
الجماعة ، بل لعل الدعوة أثارَت في نفسه قوة العزم والاصرار .
جاءه من لدن الخليفة رسول يقول :

« أقبل فبايع ... »

فبصيح مفضبا :

« أما والله حتى أرميكم بما فى كنانتى من نبل . وأخضب سنان
رمحى !.. »

فيجيبه الرسول محذرا :

« اتق الله يا سعد ، ولا نشق عصا الجماعة . لقد بايع الناس
وبايع قومك .. »

فلا تلين للرجل امام هذا قناة ، بل يقول :

« انى ضاربكم بسيفى ما ملكته يدى !.. مقابلكم بولدى ، واهل
بيتى ، ومن أطاعنى من قومى !.. »

ويعلم عمر بهذا فيخشى المغبة ، ويكاد أن يسبق الى خاطره منه
أمثال وأمثال ما ظلت هكذا هيبة صاحب السلطان ورهبته لا تملكان
القلوب ... واذا به يهتف بأبى بكر ناصحا :

« يا خليفة رسول الله .. لا تدع الرجل جتى يبايع .. »

ولكن بشير بن سعد ينصح بغير هذا :

« بل دعه يا خليفة رسول الله . انه قد لج وأبى . وليس بمبايعكم
حتى يقتل . وليس بمقتول حتى يقتل ولده ، ثم اهل بيته ، ثم طائفة
من عشيرته ، فاتركوه ... »

ومع ذلك فقد بقى رأى عمر حيث كان . وبقى الخطر - فى
يقينه - ماثلا فى شخص ابن عبادۃ لا يبرح وشيخ الخزرج قائم فى
الحياة ... ولقد جاءت لحظة على هذا الشيخ جعلته يشد رحاله
ويخرج من بلده مهاجرا الى الشام ثم لا ندرى اكانت هجرته من
خشية بطش أم نبا به المقام بين ظهرائى قومه الذين حسدوه ومالوا

عليه الغريب ، ولكن الذى ندرىه أن الأخبار جرت بعد قليل تروى قصة انتفاء الخطر الجائم فى شخصه بعد أن لقي الرجل مصرعه وهو غريب الدار ... وأقاصيص الغيلة على السنة العرب جديرة دائما بالسماع لفرط ما كان الرواة يصفون عليها من سمات وتزويق وان كانت غير جديرة دائما بالتصديق ! ولكن الذى نما الى الاسماع حينذاك أن هاتفا فى ظلام الليل باحدى نواحي الشام ما برح ليلة بعد ليلة يصيح :

قتلنا سيد الخزرج سعد بن عبادة
رميناه بسهمين فلم نخط فؤاده !

وكان هذا الكلام - فيما روى الرواة - من شعر الجن التى قتلت سعدا ... فلما أصبح الناس لم يجدوا الرجل فى داره ثلاثة أيام ، فالتمسوه حيثما شاءوا فلم يعثروا عليه . ولم يبق الا أن يطلبوه فى مكان الهاتف فاذا بهم يجدونه فى بئر ، مطعوناً ، قد اخضر لونه من العفن .

وقال بعض الحمقى :

« هذا فعله الجن ! »

وقال بعض الذين يعرفون ، أو ظن انهم يعرفون :

« قتله خالد بن الوليد وصاحب له ، طعناه بعد أن كمنأ له ليلاً ،

والقياه فى البئر ... »

قيل :

« وما لهتاف الجن الذى سمعناه ؟ »

قالوا :

« بل هو هتاف صاحب خالد ، هتف به ليقول الحمقى مثل ماكانوا

يقولون !... »

ثم قال آخر :

« انما قتله خالد بن الوليد بأمر أبى بكر ... »

ولكننا لا نستطيع أن نقحم الخليفة الأول فى هذا العدوان لأن خلقه سياج حائل ، ولا نستطيع أن نبرىء ساحة خالد لأن خلقه أولى به ما كان !. وليس القائد الهمام بالنقى الصفحة كل النقاء من العدوان !... ثم لا عليه أن فعل لحفظ جماعة المسلمين أن تتفرق بين

خليفة وداعية بارض الشام عساه قد خرج اليها وفي قصده ان يفوز فيها بما فاتته الفوز به في المدينة !... ثم خالد بعد هذا وذاك قريب في حساب الأنساب وليس بغريب عن ابن الخطاب ... فاذا شرع احدهما في التنفيذ ولم يصب هدفه ، فقد راب الناس ان ثانيهما اصاب !...



مال النهار ، وتفرق بياضه بددا في اطراف الأفق ، ثم أخذت غوادي الليل تنتقص منه كما شئت ، ويفير سواده حتى غشاه ، وامتلات رقعة السماء بالظلال الدكناء .

وراحت حركة البلدة مع النهار وانطوى هتاف الناس للحاكم الجديد والحديث عنه بانطواء العشاء ، وبدا الظلام منشورا في الجو كانتشار الرمال على الأديم المترامي ، لا تحده عين ، ولون الدجى الذي غلف الكون واحتواء يملأ الأبصار حتى لا ترى سواه .

وكان البراء بن عازب قد غادر دار الرسول مخلفا فيها عليا وآله الى جوار الجثمان الطاهر ، لا يشغلهم ما شغل غيرهم من أمر السلطان ، بل قروا فيها ، حليفهم أساهم . وخرج هو فطاف هنية بالمدينة ، مثقل القلب من هميه : خطب محمد ، وخذلان صاحب محمد آل محمد ... ولم يقر للرجل قرار بل أمعن - على غير هدى - في التطواف . وبذل من جهده في السير ما عسى ينسيه عناؤه ما كانت تلقى نفسه من عناء . ولكن لوعته صاحبتة ، ولاحقته خواطره القائمة قتامة الليل وملأت عليه آفاق روحه فتلمس معدى عنها رحبة المسجد لعله يفىء الى بعض هدوئه في ساحة الله . ويمم ركنا يستريح فيه آونة ويمسح بالصلاة على قواده الجريح . ثم يستقر ويسكن لحظات . ولكن بصره كان لا يلبث ان يدور في المكان ، ويستوعب نواحيه ثم لا يلبث حتى تثبت عيناه على ناحية دانية طالما تثبت قبل هذه الليلة عليها العيون ... وانه ليخال ان محمدا الآن جائم في المحراب وان خلا منذ اليوم منه المحراب !... وينقبض بهذا صدره ، ويرعش جفنه ، ثم تبتل

منه الاهداب . وانه لينأى بناظريه آنا ، فاذا السمع يحمل اليه ما أبعد عنه عينيه - او هو الخيال - حتى ليسرى اليه الترتيل واضحا فى هداة السكون . ينطلق ذلك الصوت الرقيق الحلو النبرات بهمهمة خافتة يتردد جرسها حوالى البراء ، جائيا من ناحية المحراب فى هدوء حبيب ، وفى خفوت رتيب يمتلىء به السمع ولا يشبع ، اما القلب فيقنت ويخشع ، واما النفس فتعنو وتخضع ، واما العينان فلا تزالان تتلفتان ثم يرتد البصر ، لأن المسجد كله من محيا محمد خلاء ، وكان محياه قل الليلة للبصر ضياء وجلاء .

ولم يعد للرجل محيص عن الرحيل ، ودمعه سباق لا يرقا ولا يغيض ، وقلبه قد اكتسى أسى فوق أسى . فغادر المسجد . وعادوا ثانية رحلة الطواف على غير هدى ، لا يحاول أن يتبين معالم الطريق . ولا أين يسير . بل كان بحسبه أن ينطلق والليل ، حيثما يحدهه الظلام أو تحمله الأقدام . ليس يعنيه أن كان قد خلف وراءه العمران وراح فى جوف طريق موحش غير مطروق ، ولا أن يضرب قدما أو ينكص ، ولا أن بوغل حتى يفضى الى البید ، لأنه كان لغير غاية يسير ؛ وان كانت غايته هى الطواف والمسير .

ومع ذلك فقد كان كمن سددت لغاية خطاه ، اذ انبعث من ذهوله واعيا يدرك ، سامعا ينصت ، وان حال الظلام دون تبينه مصادر الكلام .

اتته الأصوات مخافتة ، هامسة بالمناجاة ، كأنها تطن بحديثها على الشفاه ولا تدعه الا بحساب . وهم البراء أن يرتد فيعود ولا يوالى السير خشية أن يكشف سرا او يكون عبثا على أصحاب الحديث . وأطلق بصره فى المكان برهة فعرف أى شوط طويل سار حين تبين أنه بفضاء بنى بياضة ، وليس مثله بالناحية التى يتلمسها من يريد الحديث الا من رغب عن فضول العيون واستراق الأذان .

هم أن يرتد ... لولا أن سرت اليه بعض الفاظ مختلفة من المناجاة عرف فيها بعض الأصوات كان قد وشت بأصحابها له ... ولكنه ما كان ليعزم على المكوث ، رغم هذا ، لو لم يسر الى سمعه صوت يدعو بهمسة المحاذر :

« ابن عازب والله !.. هلم ! »

فأجاب ..

« المقداد ؟ » .

« نعم ... واقبل » :

فسمى حتى حق بالثلة المجتمعة ها هنا نحت الليل . من اول نظرة عرف الرجل فيم كان هذا الاجتماع ، لأن كل واحد من هؤلاء الصحاب كان اجلى عنوان يفصح عما فى باطن الكتاب !! .

كانوا جماعة من صحب الرسول . خيرة صحبه ، واقربهم الى نفسه ، واحبهم الى قلبه الكبير ممن اوذوا في سبيل الاسلام ، وفاضت بهم كأس الابداء فلم يفتنوا عن دينهم ، بل اعتصموا بالصبر غاية اعتصام . كانوا اشرق المسلمين اذ ذاك قلوبا وأرواحا وأولهم سابقة لدين الله ، وأدناهم من ربهم مقاما . كان بعضهم من أصحاب الصفة بمسجد الرسول - أولئك الدارين بالعرض والفرض ، المقيمين للحق على الحق ، التائبين عن الذنب ولا ذنب ، الذين رضوا من الدنيا بما دون الكفاف وبالخبز الجاف اذلالا للنفس وقهرا للبدن ورياضة للروح . وكان بعضهم من الأنصار ، ساروا كسيرتهم عزوفا وزهادة ، وفنيت قلوبهم في ذات الله ، وفى حب رسول الله .

وتطلع البراء حواليه برهة الى هذه الأجسام الناحلة من نسك ، والوجوه التى كانت تضىء من ايمان ، فما وسعه الا ان ينثليج لمراهم صدره ، ويفرح قلبه لو عرفت القلوب - بعد الرسول - الأفراح . ولكنه على أى حال ، استشعر الفرحة تسرى فى فؤاده وتهز اعصابه اذ كان يعلم سلفا ما فى باطن الكتاب ما دام هؤلاء هم الحروف التى تألف منها العنوان !.

كانوا حقا اجلى عنوان يفصح عن مادة الكتاب !! . كانوا أمة الايمان بين كافة المسلمين من انصار ومن مهاجرين . لم يحضر منهم واحد بيعة السقيفة فى بنى ساعدة ، لو حضروها لما القوا قيادهم لشيخ بنى تيم . ولم يمسحوا بأكفهم على يده حين اتى المسجد بعد أن بايعه سواد الانصار ، بل تخلقوا هم - كما تخلف كثيرون من المهاجرين

الأولين - لأنهم كانوا يعلمون تمام العلم أى الناس أولى منه بأن تمسح
أكفهم على يده ، يلقوا زمامهم له طائعين .

وعاد البراء يجيل فيهم بصره فأحس الرضا إذ عرف أن القضية
التي آمن هو بعدالتها أشد الإيمان ، قد جاء هاهنا لنصرها خير الناس .
 واجتمعوا ، تحت الليل ، فى هذا الفضاء يدبرون لها ويتشاورون
بعيدا عن فضول العيون والأسماع . . اجتمع لها خير الناس من صحابة
رسول الله الأذنين ، أولئك الذين ما كان يجمعهم هدف لولا أن يشعروا
له بعدالة ترفعه فى عيونهم الى مرتبة التقديس . والذين صحبوا
الحق منذ علموه ، لم يملوا عنه أمام سطوة ولا قسوة ولا تعذيب ولا
أيذاء . وبحسبهم أن كان فيهم رجل غفار أبو ذر . الذى صلى لله قبل
دعوة رسول الله ، ثم سعى الى محمد يبتغى الاسلام ولم يكن محمد قد
جهر بعد بالدعوة الى الاسلام . . سعى اليه لأن قلبه الناصع كان
مهيا للهدى . وأقبل فأسلم ، ثم انطلق ومن ورائه كلمات الرسول :

« يا أبا ذر ، اكتم هذا الأمر وارجع الى بلدك ، فاذا بلغك ظهورنا
فأقبل . . »

ولكنه - رغم هذا - رأى الا يصدع بالأمر لأن فى الصدوع معنى
خشية أذى قريش وما يستطيعون أن يركبوه به من قسوة وبطش . . .
فسارع يجيب رسول الله .

« والذى بعثك بالحق ، لأصرخن بها بين أظهرهم ! . . »

وصرخ بها فأوذى ! . . ثم لم يمنعه الأيذاء من معاودة الجهر
والصراخ ثم معاودة الجهر والصراخ لأنه رجل يعرف للحق قوة
لا ترجحها قوى العدوان مجتمعة ومضعة آلاف الأضعاف . . . وكان
شعوره دائما وما أوصاه به ذات يوم رسول الله :

« لا تخش فى الله تعالى لومة لائم »

وبحسبهم أن كان فيهم أيضا عمار . . ابن سمية التى استشهدت
فى سبيل الاستمسك بالاسلام وهو واقف يشهد ولا يستطيع دفع
الأذى عنها ، ولا عن أبيه ، ولا عن نفسه وقد أحاط به بنو مخزوم
الطفاة يلبسونه محمى الحديد ، ويتولونه بما وسعهم من أيذاء وهو
صابر أمام سوط العذاب ، وفى أذنيه يتردد نصيح رسول الله :

« صبرا ابا اليقظان » .

... وبحسبهم ان كان فيهم الفارسي سلمان .. ذلك الشريف الذي خلف قصره وهجر بلده يريد ان يلتمس الحق ويظفر به اينما يكون . وارتحل يجوب الآفاق تاركا وراءه اصبهان بعد ان خلع فيها رداء المجوسية . ويمم ارض الشام يطوف بها ويبحث عن الهدى بين نواحيها . واعتنق المسيحية . وراح يعاود التنقل والترحال بين البلدان يستوعب المعرفة من افواه اساقفة ذلك الدين . وكلما تعلم ما لدى واحد منهم تركه الى آخر حتى انتهى به المطاف الى عمورية حيث حدثه اسقفها ان الحق المنشود انما ينطق به لسان رجل يظهر في ارض العرب لا يزال يدعو الى الهدى قومه حتى يخرجوه ظلما فيهجروهم الى ارض بين حرتين بينهما نخل .

ويدفع الحق سلمان الى ان يغد السير الى منبع الهداية المنشودة . ويلقى في الطريق ما يلقي من عناء فيفقد ماله ، ويفقد حريته ، اذ يسترقه اقوام يبيعونه بيع العبيد ، ولكنه لا يابه لهذا الأسار الجسمي ما دامت الحرية الروحية لن تلبث ان تطلع شمسها عليه . ولا يخيب الله رجاء عبده المؤمن ، الساعي جهده الى ابتغاء رضاه ، بل يهيء له آخر الامر لقاء محمد رسول الله .

ويقول سلمان وقد استوثق من شأن العربي الكريم :

« يا رسول الله .. اني رجل فارسي ، خرجت من بلادى فلما حدثا ابغى دين الحق . ولكن يشغلني عنك الرق .. »
فيتفكر هنيهة ثم يقول له :

« كاتب يا سلمان »

« نعم اكتب صاحبي اليهودي على نخل احييه له ، اذ لا مال عندي »

فيوافق رسول الله ويقول لصاحبه الآخرين :

« اعينوا اخاكم »

ويستجيب المسلمون لدعوة رسول الله فيعاونون سلمان بالعمل معه في النخل كي يشتري نفسه من سيده . ولا يحجم رسول الله عن العون بل يساهم فيه بنصيب - هو اوفى نصيب لان الله يهب البركة كل ما يعبد رسوله يدا اليه . يقول لسلمان :

« اذهب يا سلمان فققر لها ، فاذا فرغت فأتني اكن انا اضعها
بيدي » .

بحسب العصابة المجتمعة هذه الليلة بفضاء بنى بياضة ان يكون
فيهم هؤلاء الذين وهبوا دائما جهودهم للحق ، وبذلوا ما استطاعوا في
سبيل اعزازه ليعرف البراء عدل القضية التي ود بقلبه أن ينصرها .
فاذا اجتمع اليه هؤلاء ، واجتمع اليهم المقداد بن عمرو ، وحذيفة
ابن اليمان ، وعبادة بن الصامت ، وابو الهيثم بن التيهان وغيرهم من
خيرة صحب رسول الله الذين تخلفوا عن بيعة أبي بكر اقتناعا منهم
بأن في الناس سواه أولى منه بالبيعة ومن كل الناس ، اذا اجتمع
كل هؤلاء ، وأجمعوا الكلمة ، فلقد آن ان يعود الحق أخيرا الى
ذويه ...

٩

التأم الجمع في فضاء بنى بياضة تحت الليل ، أقبل اصحابه
على الأمر يحصونه ليروا له أنسب الحلول .
قال عمار بن ياسر :
« ما لتيمة وهذا الأمر ؟ .. انه قد كان لرسول الله ، وهو من
بعده في خير الناس بعد رسول الله .. اما لقد ظلمت الأنصار ! »
فأجابه البراء :
« يا ابا اليقظان .. انما انتزعه الرجل بحق فريش وعاونه
صاحبه » .

« ما لبيعة لم يشهدا المهاجرون الأولون صحة ! »
وقال حذيفة بن اليمان يدلي بالنبا الذي ينير امامهم الطريق :
« وان الانصار لتريد ان تنقض ما كان منها ! »
« افتعلم حقا ! »

« والله ما كذبت وما كذبت ، ثم والله ليكونن ما أخبرتكم به .. »
فقال المقداد بن عمرو :

« فهذا والله خير ، وليردن الحق الى صاحبه من بعد » .
وتسائل سلمان :

« فان أبى الرجل ؟ »
فأجابه أبو ذر :

« فدعوه !.. انه ليس ولا صاحبه الا ثلاثة من المهاجرين . أما
حجته فهي عليه .. »

ثم التفت الى البراء يوجه له الحديث :
« أو لست سمعته يا بن عازب يقول فى السقيفة ما تقول ؟ .. »
« نعم »

« فلفيره والله — بحجته — الامر دونه !.. والله لا يرانى أبدا
أبايع ابن أبى قحافة وفى الناس ابن أبى طالب !.. »
قال عمار :

« وما رأى ؟ »

فرد المقداد :

« رأى ان نعيد الامر شورى بين المهاجرين »
« أصبت »

« وهذه الأنصار تهم ان تنقض امر السقيفة ... »
فشنى حذيفة بن اليمان :

« نعم . وهلموا الى أبى بن كعب فقد علم كما علمت »

وانطلقوا من مكنهم ذاك وقد انتهى رأيهم الى اعادة الامر شورى
بين المهاجرين ينظرون فيه ، ما دامت بيعة السقيفة قد تمت بغير
علمهم هم الأولى بأن يكونوا أصحاب الراى الأول فى اختيار خليفة
الرسول ، وما دام الانتصار قد انجلت عنهم الآن غاشية المفاجأة وعرفوا
انهم لم يكونوا محقين حين سلموا الامر لآبى بكر ، حتى راحوا
يتهامسون بأنه جدير بهم أن يستردوا بيعتهم .

انطلق الصحاب المجتمعون الى دار أبى بن كعب يضربون عليه
بابه ، فجاءهم صوته يقول :

« من ذاك ؟ »

« المفداد وقوم .. يا أبى ، افتح بابك فان الأمر اعظم من ان
يجرى من وراء حجاب »
فأجاب :

« لقد عرفت ما جئتم له .. »

ثم أتم حين بدا لهم ، قال :

« كأنى بكم قد أردتم النظر فى هذا العقد ! »

أجل كان هذا هو الذى أرادوه ، والذى سعوا اليه ، والذى
أجمعوا أمرهم عليه ، ثم كادت أن تعينهم على اتمامه الأحداث لولا
ما سبقت به الأقدار من سطور التاريخ ...

ولعله يحسن بالمرء فى هذا المقام أن يتساءل ان رجال من شيعة
شيخ بنى تيم قد نافقوا وبدوا امام هذه العصابة كالناصرين ثم مشوا
من بعد بأخبارها اليه ... ولعله قد شاع فى الناس اعتزام الانصار
نقض ما سلف من بيعتها للشيخ فأخذ حذره وأعد للأمر عدته قبل
أن يفجأه وقوعه ... اهل هذا أو ذاك هو ما قدر له الحدوث وان كان
الذى لا يرتاب فيه انسان ان أبا بكر كان حريا بأن يكون بارعا ، كما
عهدنا فى بنى ساعدة ، ولا يدع عمله رهينا بما تجيء به الاخبار
أو ينتظر ثم يرى كيف تلهمه العمل ظروف الحال ، واحسبه بات ليلته
تلك وفى همه ألا يصبح الصباح حتى يكون هو صاحب الرمية الثانية
كما سدد اولى رمياته الصائبة فى نهار الأمس !

هكذا كان الرجل ، وهكذا طلعت علينا صورته من خلال تسيج
التاريخ فلم يكن عجبا ، اذن ، أن يسارع ، وضياء الشمس ينتشر فى
الآفاق ، الى مسجد المدينة ومعه صاحبا . ونادى فى الناس مناديه
فاجتمعوا له ... وبقيت عصابة الليل تلك فى غفلة عن هذا التدبير
الذى لم يطف بخواطيرهم بل سبق كل ما احكموا من تدبير ..!

ووقف عمر بن الخطاب بين الناس يتحدث انهم :

« ... انى قد قلت لكم بالأمس مقالة ، ما كانت مما وجدتها فى

كتاب الله . ولا كانت عهدا عهدا الى رسول الله . ولكنى قد كنت

أرى ان رسول الله سيدبر أمرنا ، ويبقى ليكون آخرنا . »

وأجمل بهذه الكلمات اعتذاره عما بدر من دفعته حين تهدد بسيفه

من قال ان محمدا قد مات ، ثم مضى قدما الى الغاية التى من أجلها

كان جمع الناس ، فقال :

« أيها الناس : ان الله قد جمع امركم على خيركم : صاحب رسول الله ، ثانی اثنين اذ هما فی الفار . فقوموا فبايعوا ... »

فماذا عسى كان عمر مستطيعا قوله فى مثل هذا المقام لو كان أبو عبيدة قد قبل البيعة منه حين مد اليه كفه وهو يريد أن يفسد ما كان من اجتماع كلمة أصحاب السقيفة على صاحبهم ؟ .. أفكان ينطق لهم بنفس هذا الكلام أم كان يزوى مقالا غيره للمقام ؟ ان الذى لا يثبت الريب أمامه مطلقا هو ان صاحبه الذى وقع عليه الاختيار لم يستطع أن يزعم لنفسه ما اضى عليه ابن الخطاب .. بل رقى المنبر فى هدوء وقال :

« أما بعد أيها الناس ... فانى قد وليت عليكم ولست بخيركم »

فان يكن حقا ما قال أبو بكر فهو اعتراف بالفضل لغيره ممن هو له اهل ! . وكفى ابن الخطاب أن اختار أولا فردة من كان محور هذا الاختيار اذ رآه لم يحسن حين اختار .. وأن قدم فى الثانية وقال فردة من قيل فيه المقال ! ...



على أن البيعة ، مع هذا ، تمت على الوجه الذى اراده الثلاثة الرفاق ، وبذيع اليوم لأبى بكر من لم يكن بايع من عامة الناس . وراح الذين لم يبايعوا أهون شأننا مما كانوا عليه بالأمس وأقل رجاء فى التفاف القوم حول الدعوة التى دبروا لها كل تدبير ، والذين كانوا قد آلوا على تقض البيعة آثروا البقاء فى جانب الرجحان لأن النقض بعد هذا كفيل بأن يصيبه الوار والخسران ! ..

وهكذا اجتمعت كلمة أكثر الانصار ثم من بعدهم أكثر المهاجرين علم اختيار أبى بكر وبقي ولى الرسول : حيثما كان الى جوار الجثمان الطاهر ، تمر به الأحداث ولا يرى أن يتابعها لان رسول الله أحق باهتمامه من كل سلطان . وتفرق الناس بعد البيعة الثانية مجمعين على رجل وكانوا قبل السقيفة - وهم متفرقون - قد اوشكوا أن يجمعوا على سواه .. تفرقوا وان ساروا زمرا تؤلف الشكل على الشكل : فيهم من رضى فراح يهتف ويهلل معبرا عن رضاه . وفيهم

من خالف فراح يهمس ويدلل على اصابة رايه ودعواه . وفيهم اناس بين هؤلاء وهؤلاء ... تابعوا الكثرة لانهم لا تدلهم على الحق فراسة ولا استقرار بقاء ما تدلهم وجهة الجمهور . فانطلقوا هكذا مع الكثرة ، وفي حساباتهم مقياس الصواب وفصل الخطاب ...

اما الذين قد غابوا عن البيعتين ، فان آراءهم تفرقت بين هؤلاء الطوائف الثلاث كلما اشرقوا على الحشود التي اخذت تغادر المسجد ويسبقها الهمس والهتاف ، تأسر بعضهم حجة من هنا وتأسر البعض حجة من هناك ، ويقبلون متسائلين ثم يرتدون مؤيدين او معارضين ، ولكل منهم سند من فضل الرجل او فضل ذاك المنافس الغائب عن العين المائل في الخاطر ... وما اظنك ، لو كنت هناك ذلك اليوم ، الا انحزت الى هذا الفريق او ذاك . ولكنك كنت على اى حال قمينا بأن نسمع نوعا آخر من الآراء ، فريدا فذا لو استطعت ان تقفوا اثر هذا الشيخ الكبير ... انك لتراه سائرا هونا على الأرض ، رافع الرأس رغم وقر الأعوام ، محدد البصر الى ما امامه وان نصب من عينيه المعين وغاب لمع النور ، قد اصاب مسمعه لفظ الجمهور فسار على هدى الأصوات . وان الناس ليلمحونه من بعيد مقبلا فتخطف في غيوتهم نظرات اكبار ... وانهم لينفرجون له اذ يقبل حتى تضمه الجموع .. فاذا أنصت له كما أنصتوا سمعته يقول :

« فيم يا قوم هذا الضجيج ؟ »

فيجيبه بعض الناس :

« قد ولى ابنك الخلافة »

ويروح الشيخ عند هذا يهز رأسه وهو يتلو في هدوء بعض آي

القرآن :

« قل اللهم مالك الملك ، تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن

تشاء .. »

ويعاود الالتفات ، بوجهه ، الى محدثه يسأله ثانية :

« فلم ولوه ؟ »

« لسنه » ...

« فانا أسن منه ! »

ويمضي باسمه من بين الناس وهو يمسح بكفه على لحيته

البضاء ...

١٠

لو أنصف الناس حق الانصاف لأرجأوا البيعة حتى يتم لهم
مؤازاة جثمان الرسول . كان هذا أدنى الى التزامهم جانب التدبر
واحسان التفكير قبل الافدام على الاختيار . فلقد كان حريا ، حين
طارت نفوسهم هلعاً اذ سمعوا بوفاة محمد ، ألا يملكوا ضبط الميزان . .
والنفوس دائماً - عند ما ندهم النزالات - لا تستطيع أن تلتزم الجادة ،
بل تنحرف الى يمين أو الى يسار .

كان الأدنى الى الصواب ، أن لم يكن هو الصواب ، أن يترى
القوم من المهاجرين والأنصار لا يتنازعون سلطان محمد بينهم ومحمد
ما زال مسجى على فراشه لم يغيبه عن عيونهم مشواذ . . . فاذا تعجل
الأنصار أمر البيعة ، وراحوا يهتبلون من هلع النفوس على نبينا
فرصة للفوز بالسلطان ، فلقد وجب على أهل الحكمة من المهاجرين أن
يردوهم عن هذه العجلة التي لم تكن تدعو اليها دواعى الحال . . . أن
الاسلام كان حقاً موشكاً أن يجتاز محنة نصيبة أوقعته فيها قبائل
المرتدين ، وأنصار الكذبة من المتنبئين وجموع الخالعين فرض الزكاة .
ولكن هذا كله لم يقع فى لحظات ، ولا دفعة واحدة ، بل كان كقطع
السحاب المتناثرة فى نواحي السماء ، تدفعها الريح من هنا ، وتسيرها
من هناك حتى تجتمع فوق مكان ثم تبادره بالوابل الهطال . . . ولقد
أخذت نطف الأحداث التي تألفت منها المحنة التي واجهها أبو بكر
تجتمع الى بعضها فى أيام وفى أيام ، فلم يتناولها الرجل غب بيعته
الأولى ، ولا غب بيعته الثانية بالعلاج لأنها لم تكن - بادئ الأمر -
جديرة منه بأدنى التفات . بل بقى مكفوف اليد عنها ، ولو علم لها
فى البدء خطرها الذى صار لها فيما بعد لادخر لها جيش أسامة
ابن زيد ولم يسيره الى الشام .

كان أولى أذن بالأنصار أن يترشوا يوماً وبعض اليوم حتى يوارى
جثمان الرسول ، ويستريح فى مشواه . ولكنهم تعجلوا ، وكان
المهاجرون - فيما يبدو - أميل الى القصد فى العجلة ، لولا أن نما

الى سمع عمر من انباء السقيفة ما دفعه وصاحبيه الى بنى ساعدة ،
يبادرون العجلة بمثلها ولا يأخذونها بالتريث والارجاء . . . ولو استطاع
فريقا الاسلام أن يصطنعوا الأناة لسار الأمر فى أفوم سبيل ، لأنه
كان سيلقى نفوسا ذهب عنها الروح ، وقلوبا نقضت الهول ، تقبل
على تمحيص الآراء وعجم عود الأشخاص ، ثم تختار فلا يفوتها احسان
الاختيار .

ولكنه كان قدرا مقدورا ليس يبدله حدس ولا افتراض ، واختير
الرجل الذى لم تسبق اليه مشيئة الناس بقدر ما كان اختياره غرس
الصدفة التى حركت باسمه لسان ابن الجراح شئ مسمع من ابن
الخطاب ، وبقدر ما ساهم فى هذا الاختيار اختلاف حزبي الأنصار ،
وبقدر ما هيا الرزء الداهم نفوس القوم للرضا والاقرار ! .

وكذلك سكن الناس ، ولم يثر منهم ثائر ، ولم يجهر بالخلاف
من لم تلق بيعة أبى بكر فى نفسه موضع قبول ، بل استوى فى البدء
الراضى والمخالف والتزموا الهدوء لأن الأحزان لم تتح لهم فرصة
للتفكير فى غير مشار الأحزان - أو تركت ثم أبى عليهم الثورة انشغالهم
بأمر الرسول . حتى العباس نفسه ، وهو من رأينا مدى حرصه على
إبقاء سلطان ابن أخيه فى ذويه ، قر لا يطلع على الناس مناديا بنصرة
أو محرضا على خلاف .

ولكن المشاعر المكبونة تحت غطاء الأحزان لن تلبث ان تنطلق من
عقالها بعد دفن محمد ، ويثوب الناس الى الماضى يتناولونه بالتحليل
كما تملئ ميولهم أو تملئ عليهم مقاييس الأوضاع والأشخاص . ثم
تجمعوا فرقا فرقا ، وأخذوا - كما وسعهم - يتحدثون بأرائهم ،
خفية آونة وعلائية آونات ، لأن سلطان الخليفة لم يكن قد آن أن
يثبت فى قرارة النفوس كل الثبات . . .

وكان آل الرسول اثناء البيعة الثانية فى داره كما كانوا حين بيعة
السقيفة . لا يأبهون أن مال عنهم القوم خاذلين أو مالوا نحوهم
ناصرين ، جمعهم جثمانه الكريم وشغلهم عن دنيا الناس بما فيها من
غرض ومن سعى الى السطوة والجاه وامتلاك سيف السلطان . وليس
من شك فى أن رجالا منهم عز على نفوسهم أن تسير الأمور بغير

مشورة منهم وعلى غير ما يشتهون . ولكنهم - رغم هذا - لم يملكوا الافصاح عما جاشت به صدورهم على ملا من الناس ، لأن صاحب الامر وقودتهم فى الميدان لو أرادوا تأليب الجماهير التزم جانب السكون فى وقت كان يراه حقيقا منه بالهدوء والسكون .

ولكن ابا بكر لم يعرف القرار والسكون !.. كان صاحب سلطان طرى العود هش البنيان فكان لزاما عليه ان يصطنع له دعائم توطد اركانه . ولم يكن الشيخ قد نسى نبأ فضاء بنى بيضة وما جرى فيه من اجتماع خيرة المهاجرين على تقض بيعته لولا مبادرته بالبيعة الثانية الى افساد ما سبقوا اليه من تدبير . ولم يكن قد نسى أن عليا والعباس ومن لاذ بهما من آل محمد وصحبه الاقربين قد غابوا عن المسجد هذا الصباح حتى جرت اللسن تغض من شأن بيعة المسجد اذ لم تقرها هذه الصفوة المختارة من رجال الاسلام . وكان الشيخ يعلم أنه لا يأمن - أن دعاهم الى البيعة له - أن يعصوه امام الناس . وكان يعلم انهم حريون بهذا العصيان وان رأوا اعناقهم تحت ذوائب السيوف . ثم كان يعلم ، افوق هذا وذاك ، أن رايهم جميعا رهين برأى ابن أبى طالب ان شاء عصى وعصوا أو شاء رضى ورضوا وما لرضائه فى هذا المقام سبيل !..

وقلب الرجل الأمر على وجوهه مرات ومرات . انه اذن قمين الا يقر لحكمه قرار لو بقيت هذه الحال ، قمين أن يجتمع هذا الحزب المناوىء ، بعد اليوم ، بألف فضاء وفضاء ... قمين أن تخرج من يده كرها كما دخلتها كرها بيعة الانصار !..

وجمع اليه صاحبيه يشاورهما ويتحدثون ...
قال له عمر :

« يا خليفة رسول الله ألزمهم طاعتك . »

« فان أبوا ؟ »

« فقد شقوا عصا المسلمين فاركبهم بالجزاء . »

وقال أبو عبيدة اللين المداور :

« بل ابعث الى المغيرة فاته صاحب رأى ... »

وجاء المغيرة بن شعبة بالرأى الذى كان منذ القدم وسيلة الحاكمين الى قهر المحكومين ... تفكر الرجل هنيهة ثم قال :

« ما أرى الا تمزيق جماعة هذه الناس . »

« وكيف ؟ » .

« امض الى العباس فألق اليه انك جاعل الامرة نصيبا له ولولده » .

« قد قلت ! »

« ثم لا يضريك بعدها من على شيء أبدا . »

وعلى هذا الرأي مضى أبو بكر يتبعه عمر الى عم رسول الله .
وبدا الخليفة الحديث فقال :

« يا أبا الفضل . . ان الناس اختاروني عليهم واليا ، وما أنفك يبلغني عن طاعن يقول بخلاف قول عامة المسلمين ، يتخذكم لجا . فاما دخلتم فيما دخل فيه الناس . أو صرفتموهم عما مالوا اليه . »

فقال شيخ بنى هاشم الداهية الأريب يرد على كلام الخليفة :
« يا أبا بكر . . . انك طلبت ثم اخذت . فان كنت برسول الله طلبت فحقنا اخذت ! . . . وان كنت بالمؤمنين فنحن منهم ! . . . وان كان هذا الأمر يجب لك بالمؤمنين فما وجب اذ كنا كارهين ! . . . وما أبعد قولك ان الناس طعنوا عليك من قولك انهم مالوا اليك ! . . . »
فتدخل عمر في الحديث يحتد كالمعهود منه :

« انا لم نأتكم لحاجة اليكم ، ولكن كرهنا أن يكون الطعن فيما اجتمع عليه المسلمون منكم فيتفاقم الخطب بكم وبهم . فانظروا لأنفسكم وعامتهم . »

وخشى أبو بكر أن يغضب هذا الكلام العباس من حيث اراد ان يترضاه ، فأسرح يقول :

« يا أبا الفضل . . . انك سيد هذا البيت . وقد جئناك ونحن نريد أن نجعل لك في أمرنا نصيبا ولمن بعدك من عقبك اذ كنت عم رسول الله - »

ولكن العباس لم يدعه يتم ، بل انبرى في التو يخاطبه ، ويرد عرضه :

« أفما تريد أن تعطيناه حقتك ، أم حق المؤمنين ، أم حقنا ؟ .
يا أبا بكر ان يكن حقتك فأمسكه عليك . . . وان يكن حق المؤمنين فليس لك أن تحكم فيه . . . وان يكن حقنا لم نرض ببعضه دون بعض ! . . .
ولكني أراكم خرجتم بسلطان محمد عن أهله ! »

« قد كان رسول الله منا ومنكم يا أبا الفضل »

فابتسم العباس ، واجاب وهو يهز كتفه بلا اكتراث :
« انى ما قلت الذى قلت اروم به صرفك عما دخلت فيه .. لا
والله ، ولكن للحجة نصيبها من البيان !... يا ابا بكر ، ان يك
رسول الله منا ومنكم فان رسول الله من شجرة ، نحن اغصانها ،
وانتم جيرانها ! »

١١

اتم على جهاز الرسول بعد ان اتم غسله . ووضع الجثمان الطاهر
على فراشه ، على شفة القبر فى الحجرة النبوية . ثم بدأ هو بالصلاة
وخلفه الرجال من آله ، حتى اذا فرغوا ادخل النساء .
وخلى بعد هذا بين الحجرة وبين جموع المسلمين ، يدخلونها ارسالا
ليتزودوا من محمد بنظرة الوداع الأخير ، وليسكبوا ما شأوا من
دموعهم حشرات على الرجل الذى اضاء للناس جوانب الحياة كما لم
تضيء نجوم ولا شمس ، وغرس النور فى هذه القلوب والارواح ثم
تركه من بعده للأيام ذخرا يفيضون منه على بقية الأنام .

ودخل ابو بكر ، خافض الرأس مضطرب الخطو من اساه ، يترقرق
الدمع بعينيه ثم ينطلق لا يفيض . واقترب من الجسد الطاهر الكريم
فحياه وكان صوته - من بين غمرات الحزن - لا يكاد ان يبين ، ويكاد
حلقه ان يشرق بالبكاء فلا يؤدى الكلمات . ولكنه اصطنع ، كما وسعه ،
الاصطبار ، وتذرع بالجلد والاحتمال ، ثم راح يتكلم بصوته الخفيض
الرقيق :

« السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته ... »

فردد بعده المسلمون ، وما فتئوا يرددون :

« السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته »

« اللهم انا نشهد ان قد بلغ ما أنزل عليه ، ونصح لأمته ... »

« اللهم انا نشهد . »

« وجاهد فى سبيل الله حتى أعز الله دينه ... »

« اللهم انا نشهد . »

« وتمت كلماته فأمن به وحده لا شريك له ... »

« اللهم انا نشهد . »

« فاجعلنا يا الهنا ممن اتبع القول الذى انزل معه ... »

« آمين »

« واجمع بيننا وبينه حتى يعرفنا فانه كان بالمؤمنين رءوفا

رحيما .. »

« آمين ! ... »

« لا نبتغى بالايمان بدلا ... »

« لا نبتغى بالايمان بدلا ... »

« ولا نشترى به ثمنا ابدا ... يا رب العالمين . »

وانقضى النهار - بعد هذا - وبعض المساء ، يودع الرجال والنساء

والأطفال نبيهم الكريم .. كلما خلت الدار من فوج منهم جاءها

فوج ، حديثهم سلام ، وتحيتهم صلاة وقيام .



ولعل أقسى محنة اجتازتها نفس بشرية كانت تلك التى المت بعلى

اذ وقف ، جوف ذلك الليل ، على حافة قبر الرسول بعد ان وسد

الجثمان الكريم مرقده وخرج من القبر ليهيلوا التراب ... هذه لحظة

لا تحسب بمقياس الزمان ، استحالته فيها الوحدة الزمنية الى طاقة

شعورية من اللوعة الطاغية والحسرة العاتية ، كان القلب ساعته

الدقاقة ، وكانت خفقاته دقاتها وثوانها التى تلكأت فى المسير

وسارت ، فى حساب الشعور ، الأجيال والدهور ! ... وقف على -

وما نستطيع أن نقول انه كان سوى عين دامية تدمع استجابة لاحساس

نفس ولهى وقلب تصدع - ثابت البصر على هذه الرقعة الصغيرة من

الأرض التى أصبحت لمحمد وطاء وغطاء ... قد برح به الشجن

لغياب هذا الشاوى البعيد القريب ، وبرح به ما يعرف من عسر اللقاء

غيب فراق لم يسبقه فراق ، وبين يلقي منه مثل ما تلقى الأم تشهد

على حجرها مصرع وليد وحيد ، أنجبته بعد طول تلهف ثم نكلته بعد

حلول عقم ! ..

وقف على الى جوار القبر ، شاخص العين ، لا يطرف له هذب ،

ولا يهدأ له قلب ولا يثوب لب ، كالرائى وليس براء .. حتى تعود به الى انتباه اصوات المساحى تنطلق فى جوف الليل وهى تهيل التراب على المثوى ، كأنها تعلن عن دفن محمد ، وتخبر الناس أن شخصه الحبيب أصبح الآن من كيان الماضى ، عصيا على العيون والأذان ، حيا فى الخواطر والأذهان .. طواه القبر وان نشره الذكر ، ومضى جسما ليعيش اسما مع الأحقاب ، مسطورا على كل قلب .

هنا ثابت الى على نفسه هنية . تم اكب على القبر بوجهه يرويه بماء عينيه . وازدخرت فى صدره لواعج حزنه وثكله ، فود لو استطاع أن يتنفس عنها بلسان لم يخنه قبل لحظته هذه فى مقام . ولكن بيانه المستفيض نبا عنه فيضه ، ولم يخلف سوى كلمات قصار ندت عن شفتيه كمثل تردد أنفاس الذى يعانى الاحتضار :

« ان الصبر لجميل ، الا عنك يا رسول الله . وان الجزع لقبيح ، الا عليك . وان المصاب بك لجليل . وانه قبلك وبعدك للجلل .. »

ثم قوم عوده وسار متمهلا من وقر الهم ، يتبعه آله .

الا من ذا يعلم كيف مرت عليه البيلة ؟ .. وكيف اختلى فيها يفكره ؟ وكيف أصاب منها وأصاب منه ! . لو كان قد تمكن أن ينفرد بنفسه لهان وقعها نوعا . ولكنه لحق بداره ليلقى هناك فاطمة الحزينة قد استعادت ما كان ولى من أحزانها القديمة ... على أمها ، وعلى عمها ، وعلى أخواتها وأخوتها الذين عانت من أجل فقدانهم ضعف ما كان حريا بغيرها أن يعانى . هذه الرقيقة البنيان الرقيقة القلب كانت تحزن دائما للمصاب حزينين ، مرة لقلبها الجريح وثانية لقلب أبيها اذ يصيبه كلم الحزن . وانها الآن لتحضرها صور شتى من أساها الماضى ، فلا تعرف أبها تزيد حزنا ام اللوعة على هذا الأب الحدوب الرحيم لم تترك بقلبها فراغا لغير الأسى عليه ؟ .. الى كم يا ترى يحتمل الجلد وتتسع رقعة الصبر ، ولغير هذا الرزء النازل كان الجلد وكان الصبر ؟ .. أفى العين من الدمع بقية ، وفى القلب ناحية لم يخضبها سلاح الهموم ؟ .. هى جائمة من الحجرة بركن أدنى الى قبر أبيها وان حال بينها وبينه جدار . ولكنها كانت أدنى الى هيئة جثمان

صامت منها بمن تسير فيه الحياة .. أوهى قوة واوهم بناء ، ساكنة من ذهول ، قد لون الشحوب وجهها وكساه .

تلك فاطمة كما لم يرها على مطلقا من قبل . كان يعلم انها ترق أمام الحادثات كأنها تسيل . ولكنها الآن قد ذهبت بددا ، غادرها العزم وغادرتها القدرة على اصطناع الاحتمال ، حتى ليعلم أن جزعه على النسي بداية وجزعها في ميقاس الاحزان هو الغاية التي لا تبلغ شأوها غاية ..



تم رآها أخيرا تتحرك في مكانها متمهلة من جهد ، تهم أن تنهض فتنوء ، ثم تنوء كلما همت مرة ومرات . وتستطيع أن تقف فيسرع إليها . ويتبعها صامتا إذ تسير ، وهو يأبى - ترفقا بها - أن يردها أو يعكر الصمت الذي التزمته وفرضه على كيائها هول ما تحسه . وانها لتمشى الى الباب فتنفذ منه ، فيعلم فيم خروجها هذه الساعة .. لم يعد لها بالبقاء بعيدا عن مثنوى أبيها طاقة ، وقد فرقت بينها وبين هذا الحبيب الراحل فترة من الزمان جاوزت - في حساباتها - آمادا . وخرج على خلفها الى القبر ، فاذا النهار قد انتشر ، والشمس يملأ ضوءها الفضاء ..

وأقبلت هي على المثنوى الطاهر تطوف به حيرى كأنها تلتمس في جوانبه المنفذ الى محمد . وراحت أنفاسها تتردد كالهمس ، وقلبها يخفق في صدرها كمثلي طائر حبيس . أما عيناها فقد صنعت لهما من الدموع أهدابا .

واكبت بوجهها على القبر تمسح خديها على تربه ، وقبضت بكفيها على حفتين من ثراه الرطيب فرفعتهما الى شفتيها وعينيها تقبل وتبلل . ولم يستطع راء شهدها في تلك الآونة أن يظل يشهد ، بل مال عنها ببصره رفقا بنفسه أن تذهب أسي ، وبقلبه أن يقضى حرة ، ولكن الأصوات علت بالبكاء ، وملأت الزفرات المكان حتى اختلطت بهمساتها الخافتات التي راحت بها ترثي أباه . وبلغ الموقف الحد الذي يعز فيه الصبر وينوء به الجلد ، فتقدم زوجها نحوها ، مترفقا

بها ما استطاع ، حتى ألقت اله القياد ، واهنة لا تكاد تقوى على المسير من اعياء .

وتلفتت ناحية القبر تشخص برهة قبل أن تغادر المكان . فما أسرع أن تبينت من قريب رجلا يهم أن يسعى الى المتوى الطاهر ، ناكس الرأس خافض النظرات . ولكنها عرفت فيه ذاك الذى وسد رسول الله مقره الأخير ، فوقفت برهة تتلث به ، حتى اذا صار منها على مبعدة خطوات قليلات . هتفت به فى صوت راعش النبرات :

« أنس بن مالك ! »

فأسرع الرجل اليها ، مضطرب الخطو ، غامت على عينيه دموعه ، وهمس يجيب :

« لبيك يا بنت رسول الله ! »

فما زادت على أن تمالت له وهى تغادر المكان :

« كيف امكنك يا أنس قلبك أن تسلم للأرض جثة رسول الله ؟ . »

وخلفت الحجرة غارقة فى الشئون والمدامع . .

١٢

آثر أبو بكر هذه المرة أن يقتحم على الأسد عرينه ! .

لم يكد يطلع النهار حتى كان الشيخ قد أجال فى ذهنه احتمالات الأمر . ان العباس ، بلا ريب ، لن يخفى عن ابن أخيه من مساومة الأمس شيئا . وتحقيق بعلى بعد هذا أن يفضب لحقه ، ويفضب أكثر من هذا لاهمالهم المسير اليه ، ثم لعله بعدها يرتب قواه ويقدم على المناجزة والكفاح .

وكانت المدينة اذ ذاك قد بدأت نشوب الى نفسها ، وبدأ ينجاب عن الناس فيها ذهول الحزن فيقدرون ويصيبون بعد أن كانوا فى غمرة الأسى لا يقدرون ، وان قدروا أن يميلوا الى الاستسلام والاقرار ، وكان لفظ اللسن حريا بأن يصل الى اسماع على ، وأسف الناس على ضياع حق الرسول يسرى حديثا هامسا فى المحافل . وليس عجيبا من بعد

أن يقدم من لم يقر بالبيعة على الدعوة الآخرين الى نقضها ، والعمل على تنفيذ ما تم فى قضاء بنى بياضة من اتفاق ..

ولم يكن على من جانبه يعير الأمر التفاتا لأن حكم الناس كان ابغض الأمور الى قلبه الا أن يؤدى فيه حق الله . وكانت الخلافة فى ذاتها وسيلة يتوسل بها لغاية يرتجئها . وقد آمن دائما أنها حقه ، وأنه الأولى بها فى الناس . ولكنه آمن كذلك أنها لا تكون الا عن مشيئة الناس ، فاذا هم خرجوا بالحق الى غير أهله فهذا خطأ منهم عليهم وزره ، حسابهم عنه عند الله .

لذلك نراه يرقب الأحداث من كثب ولا يدلى فيها بدلو ، بل يدع القوم الى عقولهم وضمائرهم غير محاول أن يردهم عن بغيهم عليه أو يدعوهم الى الانتصار له . وليست هذه حال طالب السلطان ، الساعى اليه ، بل هى أخرى بالزاهد فيه النائى عنه .

ولكن أبا بكر أتى عليه يوم وفاة النبى وهو من الناس كأحدهم ، لا يساوى فيهم الا مقدار ما يستوعب قلبه من الايمان .. ثم مر عليه اليوم فاذا هو منهم الحاكم صاحب الأمر والسلطان . قلب بصره فعرف موطنه قدميه فكان أولى به أن يحرص على الأرض من تحته أن تنهار !



ما كان أبو بكر حقا بالذى استهواه حب التملك أو التآمر على الناس . ولكن الأيام نصبتة فى مقام فكان لزاما عليه أن يرعى حق هذا المقام . ولقد دفعته لهذا الحرص وحدة الأمة أن تتشقق ويذهب بريحتها تناحر الأحزاب ، وقوة الدين الناشئة أن يميل الناس عن الجهاد فى سبيله الى الجهاد فى سبيل الأشخاص . وكان الرجل عالما تمام العلم أنه قد بلغ بالبيعة الحد الذى يحسن بعده الاقدام وتسوء عقبى التردد والنكوص ، وهو حقا ليس بخير الناس - كما قال بلسانه ليكون منهم الأمير السود . ولكنه كان أدنى الى اصابة جانب الخير فى الحكم لو أنهم عملوا على المنهج الذى ارتسمه لنفسه حين خطبهم بالأمس فقال :

« أما بعد ، أيها الناس ، اتى قد وليت عليكم ولست بخيركم ،

فان أحسنت فأعينونى ، وان أسأت فقومونى ... »

ولكنه اليوم لا يستطيع أن يرسم الخطا التى عاهد الله أن يسير
وفق نهجها الواضح العلوم . وهو أن يستطيع هذا بحال حتى يحرس
على الأرض تحت قدميه أن تنهار ! ..
وهكذا نراه يعاود ما كان أخفق فيه بالأمس عساه يقىء برضاء
على ومن بعده آل محمد وصحبه المخلصين ، ثم من بعدهم حشود
مخالفه من المسلمين ..

ذهب فدخل عليه داره وقد حف به صاحباه عمر وابن الجراح :
وتوسل ما وسعه باللين ورقة الحديث . ولكن عليا ظل الثابت على
حقه ، المستمسك به ، لا يسلم وإن كان لم يتذرع بالعنف أو تأليب
الناس للفوز بهذا الحق المسلوب .

وقال أبو بكر محاولا أن يصل الى اقناع غريمه باثارة الخوف
فى قلبه على وحدة الاسلام :
« ابن عم رسول الله ، وختنه على ابنته ، يريد أن يشق عصا
المسلمين ؟ »

فأسرع العباس يقول ، وكان حاضرا :
« ما أحد أولى بمقام رسول الله منه ! »
وقال على ، رابط الجأش ثابت الجنان :
« أنا أحق بهذا الأمر منكم ، فلا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لى .. »
« فهل كانت بيعتى عن غير رضا من الناس ؟ »
« ولكنكم زعمتم للأنصار أنكم أولى بها منهم ، إذ كان محمد منكم ،
فاعطوكم المقادة . ولست احتج عليكم الا بمثل ما سلف لكم من الحجة
على الأنصار . »
قال عمر :

« قد كان رسول الله منا ومنكم »
فالتفت على نحوه ، غاضبا . يقول :
« نحن أولى برسول الله حيا وميتا ! .. يا عمر ، انا آله ، موضع
سره ، ولجأ أمره . وعيبة علمه ، وموئل حكمه ... لا يقاس بال
محمد من هذه الأمة أحد ، ولا يسوى بهم من جرت نعمتهم عليه
أبدا ! .. »

هنا عاود ابن الخطاب عنفه ، فاندفع يقول :
« أنك أذن لست متروكا حتى تبائع »

فصاح به على :

« افتلزمنى البيعة يا بن الخطاب ! »

وقال أبو بكر بهدوئه المعروف :

« يا أبا الحسن ، ان الناس قد اختارونى عليهم . وانى احب لك

ان تدخل فيما دخل فيه الناس ... »

وعقب عمر :

« يا خليفة رسول الله ، لقد لزمته طاعتك اذ بايعك الناس ... »

فثار ثائر على ، وهتف به يزار ، وفى صوته رنة سخرية وتهكم :

« يا عمر ! .. احلب حلبا لك شطره ، وشد نه اليوم يردده عليك

غدا ! ... »

ثم التفت الى أبى بكر يقول :

« اما والله لقد تقمصتها وانك لتعلم ان محلى منها محل القطب

من الرحى ، ينحدر عنى السيل ولا يرقى الى الطير ! ... »

وهم عمر ان يتكلم فأسرع أبو بكر يحول دون ذلك خشية ان يصل

الأمر الى ما لا تحمد عقباه . قال له :

« على رسلك يا عمر ! »

ثم أقبل يتلطف بعلى ويقول ، وهو يسير الى الباب :

« لا عليك يا أبا الحسن . فان لم تبائع فلا اكرهك . »

وخرج يتبعه صاحبه . ونقى أبو عبيدة لا يبرح عساه ان يبلغ

من على بلين كلامه ما لم يبلغه رفيقاه .

أجل فقد راح ابن الجراح يحاول ان يفوز للخليفة بالبيعة من آل

الرسول ، فيتحدث اليهم عن عروة الاسلام ، وعن وحدته ، وعن الرجل

الذى شاءه الناس لهم واليا كيف اجتمعت له صفات تؤهله لما هو

فيه من مقام . وكان على جالساً ينصت وحوله اهله ، لا يتعجل لحظة

الجواب على هذا الداعية الذى كانت له اليد الطولى في تنصيب

أبى بكر قبل ان تخطر الخلافة فى بال أبى بكر ! ...

قال أبو عبيدة اخبراً بلفظ ناعم بحسب ان يستطيع به تأليف

على :

« يا ابن عم ... انك حديث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك

ليس لك مثل تجربتهم بالأمور ... »

فرد على وهو يبدى له الهدوء وقلة الاكتراث :

« اما السن فما ازمع لى بها على الرجل قدم ! »
« فهلا يا ابن عم بايعت ؟ ... انى ارى ابا بكر أقوى على الامر

منك »

فما اسرع ان القى على اليه جواب السؤال فى سؤال :
« افأنتم خير أم رسول الله خير ؟ »

« بل رسول الله »

« لقد كان رسول الله بعث أسامة بن يزيد على جيش فيه مشيخة
قومك هؤلاء ، لم يطعن فيه انه صبي ! »

فلم يحر أبو عبيدة خطابا . ان شأن أسامة ليس بخاف عليه
اذ امره رسول الله على جيش الشام ، وأسلمه بيده الراية . وكان
من بين جنوده أبو بكر وعمر وغيرهما من صحب محمد الأقربين اليه
اعلاهم سنا ، فساء قوما منهم ان يتقدمهم فى القيادة غلام لما يبلغ
عامه العشرين . ومشوا يجعلون من حدائته تقيصة يطعنون بها فى
امرته ، حتى خرج اليهم الرسول قبيل موته يهتف بهم مغضبا ويقول :
« أيها الناس . انفذوا جيش أسامة . ان تطعنوا فى امارته فقد
كنتم تطعنون فى أبيه من قبله ... وايم الله انه لمن أحب الناس الى
بعده »

كان أبو عبيدة يعلم هذا . ويعلم ان حديث الرسول قد حد من
ثورة الناس . ثم هو يعلم الآن انهم قد عادوا بعد وفاة محمد الى ماكانوا
عليه لا يريدون الاقرار للفلام بالامرة عليهم ، ويودون لو انه استبدل
بأمير شيخ ... لقد أخذ هذا العصيان يملك ناحية من فكر أبى بكر
بعد ان آل اليه أمر الناس ومشى اليه الكثيرون بطلبون خلع الأمير
الصغير . ولكن الذى يعلمه أبو عبيدة تمام العلم هو ان خليفة الرسول
لم يقبل مطلقا أن يغير ما اقره الرسول ، لأن السن ليست مقياس
القدرة على الاضطلاع بالأمور ...

كان أبو عبيدة يعلم هذا فعلم كيف عاداه التوفيق اذ حاول ، أمام
على ، ان يجعل للحدائثة وتقدم العمر شأنا فى الخسران أو ترجيح
الميزان ... ولكن لسانه كان قد كبا ولا يستطيع بعد هذا أن يملك
ما ند عنه . فما له الآن - وقد جاء داعية - لا يحاول منحى آخر من
الحديث لا يتكلف فيه سوق الحجة حتى يأمن أن ترتد الحجة عليه ! ...

قال أخيراً ، وهو يضيف على حديثه رقة ، وبميل به الى التلطف والمداجاة :

« أنى ، يا بن عم ، انما عنيت أنك حديث السن . انك ان تعش ويطل بك بقاء فأنت لهذا الأمر خليك ، وبه حقيق ، فى فضلك ، ودينك ، وعلمك وفهمك .. ونسيك .. وصهرك »

ولكن هذا الكلام اللين الرقيق أثار من نفس على ما لم يثرها من قبل ، فصاح به :

« الله الله يا معسر المهاجرين ! .. تخرجون سلطان محمد فى العرب من داره أبى دوركم وتدفعون أهله عن مقامه فى الناس ؟ ... اما والله لنحن - أهل البيت - أحق منكم بالأمر ، ما دام فىنا القارىء لكتاب الله ، الفقيه فى دين الله ، العالم بسنن رسول الله ، المضطلع بأمر الرعية ، الدافع عنهم الأمور السيئة ، القاسم بينهم بالسوية ... »
وتريث هنيهة ثم عاد يقول بلهجة المطمئن الواصل :

« وانه والله لفينا يا أبابعبدة !. انه لقينا ، فلا تتبعوا الهوى فتضلوا عن سبيل الله ، وتزدادوا من الحق بعدا ... »
وقطع بهذا الجواب على الرجل كل خطاب !

١٣

كان أدنى الى اتساق الأمر لأبى بكر الا يشئ الى العباس . وكان أدنى الى هذا الاتساق من بعد الا يطلب طاعة على بلسانه هو فضلا عن جفوة الخطاب على لسان ابن الخطاب .
ولكن الرجل شاور وعمل بالمشورة ، فدلّت العاقبة على خطأ المشير وخطأ المستشار !.

كان على عازفا عن السلطان ما لم يات به حتى الباب ... وكان العباس أسفا على ذهاب السلطان ، ولكنه لم يملك طلبه لأن الأولى به فى الناس اعتزل الناس وقد ساءه أنهم عدلوا عنه ولم يقدموه .
اما وقد مشى الخليفة ، كمشورة المغيرة ، الى العباس يترضاه فقد مشى الى من لا تعدله الكثرة من الساسة الدهاة ، ولا تنفع فى

سلبه حق ذويه مداراة ولا مداجاة . وبحسبنا ان سمعناه يوجز فيفهم ، ثم لا يثبت أمام حججه القاطعة دليل ولا برهان .

فاذا نحن ضمنا الحجة في كلامه الى الحجة بنى كلام ابن أخيه ، فقد وضع كيف خسر أبو بكر حيث ظن النجاح ، لأنه دخل دار العباس ودار على وفي يقينه ان يعود منهما بالرضا والوفاق ، فما تركهما الا بعد أن أثار في النفوس مكامن الخلاف والشقاق .

فالعباس الذي كان مستمسكا بالصمت على كره ، اقتداء منه بعلي ، ساءه ان يكون ابن أخيه هدفا للدس والوقيعة يمشى بهما خصومه بينه وبين عمه وذويه . . . وعلى الصابر على الحيف ، المنطوى على نفسه ، الساكن الى ركن داره ، ملأه بالأسى والغضب أن يرى سالبه حقه لا يقرون حتى يركبوه بالعنت والاعتساف ، وقد كان لهم في سكونه وكفه عنهم مندوحة عما نوسلوا به من قطعه آونة بالعنف . وكان هو قبل هذا لا يبتغي عن الصمت سبيلا ، ولا يروم - بعد بيعة أبي بكر - ان يتوسل الى استرداد حقه المفصوب بالقوة ، او بعنف الأسلوب . ولم يكن هذا لينا منه مال الى الضعف أو رفقا جنح الى التخاذل ، ولكنه كان منطق الرجل الذي يرى الأمور من خلال الواقع الملموس ، ولا يراها بعيني حالم نزع الى الخيال .

جاءه أبو سفيان بن حرب ، ثانية . بعد مجيئه يوم وفاة الرسول يعاود ما كان منه قبل ، ويعرض أن يبايعه بالخلافة . ولكن عليا يأبى ، ولا يقبل ، بل يقول :

« يا أبا حنظلة . . انك تريد أمرا لسنا من أصحابه » .

وهو يعنى بهذا ما سوف تقود اليه خلافة رجلين فى آن من ثورة تتهدد كيان الاسلام .

ويهتف أبو سفيان ، مقاطعا محرضا :

« مهلا يا أبا الحسن ! . . فأنت والله - » .

ولكنه لا يدعه وما يقول ، ويرده ردا حتى يذهب الشيخ شاكيا الى العباس . ويظن أبو سفيان أن تراث الرسول ، بعد رفض علي ، قد صار لشيخ بنى هاشم ، أو هو أولى بأن يصير اليه فيمد نحوه كفه ويقول :

« فامدد يدك يا أبا الفضل أبايعك فلا يختلف عليك القوم » .

« تبايعنى ؟ » .

« نعم ، وانتك والله لها لاهل ، واحق بميراث ابن اخيك » .
فلا يخفى العباس بسمة تنطق بمرارة قلبه ، ويجيب :
« يا ابا سفيان ؛ ايدفعها على ويطلبها العباس !.. »

ويجتمع الناس مرة الى هذا ومرة الى ذاك من قطبي آل هاشم ،
يحرصونهما على استرداد هذا الحق المسلوب فلا يجدون لذيهما سمعا .
وتمتلئ المدينة بالحديث ، وما من رجل فيها غير زار عليهما ان تركا
تراث النبي يخرج من بيته الى غير اهله ممن لم يبلغ شأوهما نسيا
او علو منزل ، ولكن عليا كان لا يابه لهذا لانه كان يعلم ان هذا النسب
الحري برفعه على رقاب الناس هو الذي اتخذه قريش ذريعة الى
خذلانه . لقد كرهت من بنى هاشم أحقابا أن استطالوا عليها ، فقامت
تنافسهم حتى ردها عنهم القصور . ثم كرهت فيهم أن تكون بينهم
— من دونها — نبوة ، فحصدت صاحب الدعوة السماوية وقد أحققها
عليه أن جاءها بما لا تستطيع أن تباريه في ميدانه لو أرادت المباراة ..
وهذه كلمات الحكم بن هشام — أبي جهل — ما زالت تفصح عما ملأ
قلوب قريش من حقد لآل علي ولآل الرسول ، وانها لكلمات تتخذ شعارا
للحسد عند أكثر الحساد حقدا !..

قال الرجل اذ سمع أن محمدا قام يدعو قومه لدين جديد :
« واللات هذا لن يكون !.. تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ،
أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا .. حتى اذا تحاذينا
على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء !..
فمئى ندرك مثل هذه ؟.. واللات لا تؤمن به أبدا ولا نصدقها !.. » .
كان على يعلم هذا من قريش ، ويعلم أن علو آل عليها هو سبب
خذلانها اياه كما سعت من قبل الى خذلان محمد لولا أن قهرها على
الالتفاف حوله . أما وقد أصبحت اليوم تستطيع أن تنصر وتستطيع
أن تخلد ، فقد سارعت تمد أكفها الى شيخ بنى تيم مؤيدة وتلوى
رقابها عن الأولى منه بيسط الأكف واجتماع الآراء .

كرهت قريش اذن أن يذهب بشرف السلطان عليها رجل من الالى
باءوا في العصور بمر حقدها عليهم . وأبت أن تجمع لدار هاشم شرفين :

شرف النبوة وشرف الخلافة . ولو كانت استطاعت أن تخلع عن رقابها هذا الشرف الأول لما توانت كما سارعت إلى التاني تنفضه عنها . . بل هي حقا حاولت أن تتحرر منه .

وكانها كانت تتلبث بالزمن الذي قهرها على أن تدين للإسلام كرها حتى جاءها النبأ بوفاء رسول الإسلام . . وما كان أعجب هذه النفوس التي بدت من قبل كأن قد ملأها الايمان ثم تكشف اليوم عن أضغان هتكت ستر هذا الايمان ! لقد قامت تهم أن تخذل محمدا في مماته بعد اذ أعياها أن تخذله إبان حياته . ونهضت تجيش شراذمها بمكة . داعية لخلع رداء الإسلام . وانتشرت الفتنة هناك . وقويت شوكتها حتى خشيها عتاب بن أسيد ، عامل رسول الله على البلدة الحرام ففر منها يتلمس النجاة . ولكن الله أبى إلا أن يعز دينه ويعلى كلمته على القوم الضالين فضربهم ثانية على الإسلام كما ضربهم في حياة محمد ، عليه . فاذا سهيل بن عمرو - رجلهم يوم الحديبية - يقف بينهم ، بعد فرار عتاب ، محذرا متوعدا يقول :

« يا أهل مكة ! . . كنتم آخر من أسلم في الناس فلا تكونوا أول من ارتد من الناس . يا أهل مكة . . والله ليتن الله عليكم هذا الأمر كما قال رسول الله . ومن رانا ضربنا عنقه ! . . »
فخشيت الرقاب ، وعاود العقول الصواب ! .

عرف على هذا كله في قريش ، ونظره رأى الواقع لا بعين الخيال فآثر أن ينطوى على نفسه ويقر في داره ، لا يدعو إلى خلاف ولا تأييد . ولئن كنا شهدنا قوما من أصحابه يجتمعون فيدبرون ليستعيدوا حقه من يدي من ابتزوه ، فلقد ساقهم إلى هذا صدق ولأثم لايمانهم بمقامه في الناس بعد مقام الرسول . ولقد سمع على ، وهو قائم على جهاز محمد ، بما تم من بيعة أبي بكر في السقيفة فلم يترك ما هو فيه ، ولا أسرع يؤلب الانصار أو يعتب عليهم . . ثم جاءت أنباء البيعة الثانية ثاني صباح فوقف منها موقفه الأول ، يكتب في نفسه مرارة ما لقي من خذلان الناس ولا يرى إلا أن يعزل الناس .

ولكن أبا بكر - فيما يبدو - خشي منه هذا السكون والاعتزال ، فقام يسعى سعيه الى العباس عساه ان يقطع بين العم وبين ابن اخيه .
ثم قام من بعدها بتوسل بليته مرة ، وبعنف ابن الخطاب ثانية ، وبرقة
أبي عبيدة أخرى لينتزع الرضا من على عن بيعة يرى هذا فيها عدوانا
على حقه أى عدوان ، فهل من رأى رجلا ينظر بعينه الى حقه يضع
فيقر لسانه هذا التضييع ؟ كان لسان على دائما ترجمان قلبه ،
يجرى أحاسيسه مجرى الكلام فلبس بعجيب الا يخرج عن عهده في
هذا المقام . وما أحسب نفسا بشرية لها قيمتها ، ولها قدرها على
صاحبها ، تقبل - اذ تغضى عن الضيم - ان يردف منافسوها الضيم
بالضيم ولا تنهض الى استنكاره ، ثم الى دفعه ، ثم الى استعداد من
تستطيع على موقعه ما وسعها دفع العادين واستعداد المناصرين ..
وكذلك غضب على لحقه الهضم ، وقد أغضبه التواء الأسلوب
الذى تذرعه به خصومه للنيل منه - وكفى بالوقية التى مشوا بها
بينه وبين العباس أسلوبا ملتويا وسلاحا غادرا لم تدع الى سلم اياه
دواعى الحال . وكذلك خرج عما كان قد التزم نفسه من سكون وعزلة
يلتمس النصرة فى قوم غير قريش الشائنة له الحاقدة عليه فيم ناحية
الأنصار . وراح مع الليل يدور بهم والى جواره زوج ابنته ان تدعه
بستقبل الأمر وحده اذ كان أمرها مرتين .. ان الزهراء لا تبرح دارها
ولا تغادر مجثمها ذاك بجوار رسول الله لغير هدف يطفو بنفسها الولهى
فوق لجة الأحزان وكان تراث أبيها ذلك الهدف ثم من بعده حق
على فيه .

لعبت فاطمة دورها وهى شديدة الايمان بأنه لازم عليها ان تفعل ،
وان تدعو ، وان تكافح غير وانية . ووقفت الى جوار زوجها المظلوم
تنضح عنه باللسان وليس لها سدة سواه .. فكانها بفعلها قد ارتدت
« خديجة أخرى » ، لا يقعدا خذلان القوم زوجها عن الكفاح ، بل
راحت ترسم نفسها بلون الماضى لتبدو صورة بارزة الظلال والأضواء ،
واضحة الملم ، نابضة بالحياة ، عاشت فيها الأم فى الفتاة .

ولكن الذين بايعوا أباهما على الموت وناصروه لم يستطيعوا لها
نصرا . صحا فيهم خلق العربى واستمسكه بكلمته وشدة وفاته
بعهده .. ولم يخفوا عنها هذا ، بل كانوا يقولون ، خافى الردوس
كاسفين :

« يا بنت رسول الله .. قد مضت بيعتنا للرجل »

وتجيبهم هي مستنكرة :

« افتدعون تراث رسول الله يخرج من داره الى غير داره ؟ »

فلا يجدون لهذا الاستنكار ردا سوى الأسف على ما سلف منهم ،

والاعتذار عنه :

« يا بنت رسول الله .. لو أن زوجك سبق إلينا قبل أبى بكر

لما عدلنا به .. »

فيقول على :

« أفكنت أدع رسول الله فى بيته لم أدفنه ، ثم اخرج انازع الناس

سلطانه ؟ .. »

ولكنها حجة لا تغنى فى حساب السياسة النهازة العادية وان اغنت

فى حساب الاخلاق القويمة الصافية .. وان فاطمة لتعبر عن هذا

فى أوجز بيان فتجيب القوم وهى تنهض عنهم ، نافضة يدها من

تأييدهم المأمول .

« ما صنع والله أبو الحسن الا ما كان ينبغى له .. وقد صنعوا

ما الله حسيبهم عليه ! »

١٤

انف على بعد هذا أن يعاود الكلام فى شأن البيعة التى سبقه إليها

شيخ بنى تيم أو يختلف فى أمرها الى الناس . وانطوى ثانية على

نفسه فى داره ، رفيقه فيها كتاب الله يعمل ما وسعه فى جمع شتاته

ان يغيب عنه . وقد وجد فى القرآن خير مسلاة له عما هو فيه ،

فأقبل عليه بكل ذهنه يجمعه ويضم آياته الكريمة واحدها الى الأخرى .

ولكن بيته لم يزل الكعبة التى يؤمها الذين آثروا الانحياز اليه

وأبوا ان تميل قلوبهم عنه الى أبى بكر ، فلم يخل يوما من الزبير أو أبى ذر

أو المقداد ومن تابعهم من صحابهم على الراى ، يجتمعون ثم ينفضون

فلا يدفعه اجتماعهم الى الامام خطوة ولا يرده انفضاضهم خطوة ، بل

ظل مقيما على ما اخذ به نفسه من اعتزال الناس واعتزال الامر كله

بعد ما أصبح لأبى بكر وبعد ما شاهد من حيرة النفوس بين حقه وبين ما سلف منها الى غريمه من الادلاء بالسلطان . ولقد كانت الانبياء تاتيه ترى من الخارج عما اخذ يفور يصدور الأنصار من الندم لانهم لم ينصروه فكان لا يحرك لها ساكنا ولا يلقي اليها بالا ، ولا يعنى بأن يتقصاها أو يعمل على اذكاء الندم لينقلب فتنة 'و ينقلب بورة يفيد من ورائها ما فاتته . ولقد مشى اليه أناس يحاولون حمله على المطالبة بحقه المسلوب ويعرضون أن يؤازروه فى الدعوة اليه أو فى نصره فما كانوا يصيبون منه نلبية النداء وأن اصابوا حسن الاصفاء .. قدم خالد بن سعيد ، أمير رسول الله على اليمن ، الى المدينة فلقى عثمان ابن عفان ، وراح يعيره أن قعد وآله على الهضم ، . ثم انفلت عنه بعد قليل فدخل دار على وهو فيها جالس بين ذويه ، وراح يوجه اليهم جميعا الخطاب وان عنى بحدثه هذا الساكن المظلوم :

« يا بنى عبد مناف !.. طبتم نفسا عن أمركم يليه غيركم ؟ »
فما فعلت كلمته المثيرة فى نفس الشاب فعلها المنشود ، بل جاءه الرد من لدنه فى هدوء :

« يا خالد .. هذا أمرنا أبت قريش أن تؤتيناها »
« يا ويح قريش !.. وهل فى الناس أحد أولى بمقام محمد منك ؟ »
لا أحد والله !.. ولكنه الحسد والغل والضغن القديم !.. ولئن أبت قريش هذا على خير رجالها اليوم ، فلقد أبت مثله من قبل على سيد البشر وخير الناس أجمعين . ولكنها كانت موكولة برى الأحقاد والغليل من ذلك الغريم المظلوم ، الذى وترها آله من قديم بنباهة الذكر ورفعة المقام ، وترها هو فى الاسلام بحد الحسام !.. وما اصدق قولا فى هذا المعنى من الفضل ابن العباس ، حين طلع على القوم ذات يوم يقول على الملاء منهم ، مترجما بحروف بيانه عما خامر نياتهم واختلط منهم بدماء القلوب :

« يا معشر قريش .. يا بنى تيم !.. انما أخذتم الخلافة بالنبوة ونحن أهلها دوتكم : ولو طلبنا هذا الأمر الذى نحن أهله لكانت كراهية الناس لنا أعظم من كراهيتهم لغيرنا ، حسدا منهم لنا وحقدا علينا !.. »

تلك كانت مشاعر قریش قبل على وقبل آله فی ذلك الحین ، فلم يروا فی خذلانه أو فی قعودهم عن نصرته ، وهم يستطيعون النصرة ، الا أمرا وافق منهم هوى النفوس مع ما كانوا يعلمون من حقه ، وانه أولى بأن يتقدم على كل ولى وكل أمير ، ولكنهم حقدوا وغالوا ، وحسدوا فاغتالوا .

وامام هذه المشاعر المعادية كان الأنصار فی عسكر آخر .. اقبلوا على بعضهم وقد راحت غمرة الحزن على وفاة الرسول ثم راحت من بعدها غمرة النخوة التى تركتهم يستمسكون بما سلف من كلمتهم ببیعة أبى بكر - اقبلوا يتلاومون ، ولا يلقى الرجل منهم أخاه الا معابا ففیم كان اذن عدوانهم على صاحبهم سعد بن عبادة يوم السقيفة يسلبونه السلطان الذى كادت أن تتقبض أصابعه ءايه ؟ - فیم كان وقد نقلوا به الامرة من قريب الى غريب ؟ .. وفیم كان وقد أخرجوا به الحق من أهله ووضعوه فی غیر أهله ؟ . وفیم كان وقد أضاعوا الولاية من قرشى هو أولى الناس بتراث محمد ثم هو اذنى الناس فرابة من الأنصار ، اذ كان حفيد عبد المطلب صهر بنى النجار ! ..

ندم الأنصار اذن على ما سلف منهم حتى سال الاسف بنفوسهم كل مسيل . وأخذ الندم يتجمع فی القلوب حتى امتلأت به ففاض يتلمس متنفسا له على الألسنة ومن بین الشفاه . وكانت قریش صاحبة الأحقاد فوقفت لعواطف القوم بالمرصاد ، لاتنى تحصي عليهم الحروف قبل الالفاظ ، وتعهده خروج عن طاعة السلطان أن يتحدث الناس پسجایا سواء . وبدا الحديث مديحا بقابله مديح وثناء امام ثناء . ثم سار جدلا حال الى ملاحاة حتى ترددت كلمات السيف والقتال والقتل بین فريق الحاسدين البغاة . وكانت الأنباء لا تفتأ تأتى عليا بما يدور بین الحزبين فيزيد انطواء على نفسه . وكان الأنصار يودون لو انه طلع عليهم فأصابوا بظهوره بينهم قوة تؤلب حوله الرجال وتدفع بقضيته الى الامام . ولكنه ظل ، كما اعتزم ، مؤثرا أن يبقى بعيدا عن المعترك خشيية أن يفتتن به الناس وما يجيء فی أعقاب هذا الافتتان من انقسام الأمة فی تلك الفترة الحاسمة من تاريخ الاسلام . ولم يغير من مسلكه أن جاءت جموعهم اليه ذات يوم تحيط بداره ، وتهتف باسمه داعية اليه ، منادية اياه أن يبرز لها تبایعه وتعيد له ما ضاع من حقه المسلوب .

فى هذه الآونة كنت الثمرة ناضجة أيما نضوج ، دانية القطاف لمن أراد ، حتى حسب الأكثرون أن امر أبى بكر لن يلبث أن يولى مع النهار ، وتهاى الناس لما أو شك أن يصير . وامتلات قلوب آمالا وقلوب أحقادا وموجدة حسبما كان كل فريق يميل . ومن عجب أن تكون قریش هى اکثر النافخين فى نار هذه الفتنة لأنها - وقد نصبت نفسها قوامة على السنة الأنصار - أثارت فى نفوسهم طبيعة العناد والاصرار ...

واستبق أبو سفيان الى دار على وهو يحسب أن قد جاءت اخيرا اللحظة التى ارتجاها وأوشك أن يتحقق حلمه فى أن يفوز احد آله الأقربين بالسلطان . وراح يكرر العرض الذى القاه امام ابن أبى طالب مرتين من قبل ، ويعاود التحريض ...

قال شيخ بنى أمية وقد فرغ من الثناء وبقي عليه أن يفضى بما جاء فيه :

« اما والله لئن شئت لأملأنها على أبى فضيل خيلا ورجلا ، ولأسدننها عليه من أقطارها !... »

فابتسم له على وقال :

« يا ابا سفيان ... هذا ماء آجن ، ولقمة يفص بها أكلها . »

« ماء آجن !!. أتراث ابن عمك يا ابا الحسن تدعه نهبا ؟ »

« مجتنى الثمرة لغير وقت ايناعها كالزراع بغير أرضه . »

فراح الشيخ يوالى التحريض :

« يا عجبا ! . رضيتم يا بنى عبد مناف ان يغلبكم عليها اذل

بيت فى قریش ؟ »

قال على بهدوء ما بنفسه :

« ما رضيت ، بل صبرت وفى العين قذى ، وفى الخلق شجا .. »

« اذن يتحدث الناس .. »

وفهم الشاب مارمى اليه شيخ بنى أمية من وراء كلماته هذه ،

فتلهب وجهه غضبا وقال :

« ويح الناس !... ان اقل يقولوا حرص على الملك ، وان اسكت

يقولوا جزع من الموت ؟ ... اما والله لابن أبى طالب آتس بالموت من

الطفل بشدى أمه ! »

وصمت برهة حتى هدأت سورة غضبه ، ثم عاد يتم بصوت هادئ ، فى نبراته حزم وتوكيد :
« يا أبا حنظلة . انى سدت دونها ثوبا ، وطويت عنها كشحا ،
ورأيت ان الصبر على هذا احجى . . »

١٥

ما اشد ما نال عليا من عسف قريش !. انها لترى فيه « هاشما » وترى « عبد المطلب » وترى « محمدا » قبل ان يقهرها على اعتناق دين الله ، فتضم الى حسدها لابن ابي طالب حسدها لأولئك الأعلام أجمعين . حسدته علما مرفوعا على هام الناس ، اذا ذكر العلم ، وذكر الفضل ، وذكرت شجاعة القلب واللسان ، فأرادت له غير ما هيأته له مواهبه الفذة ونسبه العلى وشرفه العريض . وقامت تناوئه محاربة فيه البيت الهاشمى الكريم ، وتحشد حول منافسه صفوفا حتى تم له الانتصار وباء بصفقة المغبون من كان أولى الناس بهذا الانتصار . ثم حسدته مخذولا بعد اعتزاله الأمر ، لانها أبت عليه أن تزار العاصفة فيتجنبها لتمر بسلام وهى لا ترضى له بالسلام وانها لتألف الآن وتصطف جموعا محاولة ان تثير عليه النفوس حتى يظل ما عاش بعيدا عن عطف الناس .

وقف سهيل بن عمرو عقب مجيئه الى المدينة بعد فتنة مكة ، وقد هاله ما بدا من حب الانتصار وندمهم على خروج تراث النبى من كف ابن عمه الى سواه . وقف يحف به أعيان قريش يخطب القوم ويقول :

« يا معشر قريش . . . ان هؤلاء الناس قد دعوا الى انفسهم والى على بن ابي طالب ، وعلى فى بيته لو شاء لردهم ، الا فادعوهم الى صاحبكم والى تجديد بيعته ، فان أجابوكم ، والا فاقتلوهم !. . . فوالله انى لأرجو الله ان ينصركم عليهم كما نصرتم بهم »

افراى هذا الشائء القرشى خير ام كان الذى التزمه على هو الخير ؟.

ما احسب سهيلا كان جادا او موفيا على الصواب وهو يعلم
أن ظهور على امام الناس كان كفيلا بأن ينير فيهم من الحماس لقضيته
ما لا تحمد معه مغبة انتقاضهم وثورتهم على الخليفة ، مهما جاهد
ابن ابي طالب فى تسكينهم وجاهد معه لهذا الغرض آلاف سواه ...
ولكنها كانت « حكمة » قرشية قمينة بأن تغيب عن خاطر على وان
سارعت الى خاطر سهيل وغيره من طغمة الحاسدين البغاة !..

ثم تلاه من بعد الحرث بن هشام ، احد بنى مخزوم آل ابي جهل
يقول :

« ايها الناس ... ان يكن الانصار قد تبواوا الدار والايمان
من قبل ، ونقلوا رسول الله الى دورهم من دورنا فأووا ونصروا ،
فانهم قد لهجوا بأمر - ان نبتوا عليه فانهم قد خرجوا مما وسموا
به . وليس بيننا وبينهم معاتبة الا السيف !... »

وقال عكرمة بن ابي جهل :

« لولا قول رسول الله ، الأئمة من قریش ، ما انكرنا امرة
الانصار ... اعذروا القوم فان ابوا فاقتلوهم ! »

فهلا ذكر عكرمة أنه قد فات اوان الحديث فى امرة الانصار ،
وانهم ما دعوا من بعد الا الى امرة قرشى هو من قریش امامها وامام
بغية المسلمين ؟.. ولكن ابن ابي جهل - فيما يبدو - اراد ان يقابل
« حكمة » سهيل « بشجاعة » لسان لا يستطيع ان يلهج باسم
ابن ابي طالب فى محال حساب او عتاب !... .

اولئك كانوا دعاة التخذيل عن على ، والمناوأة عليه ، وهم من
عرف الناس لهم دائما السبق الى حرب الحق وعداء محمد ، ومن
عرف لآبائهم قبلهم امتلاء قلوبهم على بيت هاشم بالحقد والبغضاء .
ولقد غضبت الانصار وحميت نفوسهم حتى قام فيهم ثابت بن قيس
يهدىء من سورتهم ويقول :

« يا معشر الانصار . انما كان يكبر عليكم هذا القول لو قاله

اهل الدين من قریش ... »

وكفى بها كلمة ألغ اثرا وأصدق قولا من ألف بيان وبيان !...

ولكن الحسد ، وان كان بلا نهاية ، فان طاقة الحلم تنفذ عند غاية ... امعنت قريش نى فيها ما شاءت ، وركبت الأنصار بالعنت وسلطنة اللسان ما وسعها أن تفعل ، ثم ظلت دائبة على هذه السياسة حتى لم يعد فى طوق رجال المدينة أن يملكوا السنتهم منها . وانقلب الناس بهذه المعركة الكلامية الى عسكرين متناجزين ، كلاهما يدعو لرجله ويخذل عن الآخر ما استطاع التخاذيل .

وكانت الاخبار لا تزال ترد بنماء شوكة المنبئين ، والتفاف أجلاف الأعراب حواليتهم هنا وهناك ، فى اطراف الجزيرة ، ثم لايزال يزيد هذا الالتفاف حتى يتسع نطاق الرقاع التى تمسك بزمامها جحافل المرتدين . أما عاصمة الاسلام فقد غدت عورة مكشوفة لأعدائها هؤلاء ، ولسواهم من جموع مانعى الزكاة لو شاءوا لاقتحموها وبى عزلاء خاوية الوفاض من الرجال والسلاح بعد أن خرج أسامة بجند المسلمين قاصدا الى الشام .

فى هذه الفترة العصبية كانت وحدة الأمة الاسلامية هى غابة كل مسلم سليم البصيرة يحسن النظر فى عواقب الأمور . كانت حلم أبى بكر الذى لا يفتأ يراوده فى اليقظة وفى المنام ، ثم لا يبرح لحظة واحدة ذهنه المشغول بالتبعات الجسام ... وكانت رجاء عمر الذى أقامت منه الظروف مشيرا للخليفة ووزير صدق يحمل عن كاهله من العبء ما استطاع ... وكانت الأمنية التى لا يبخل على فى سبيل تحقيقها بكل ثمن من أمانيه أو ترائيه أو نظائرها بذله من قبل من أجل الاسلام .

كانت الوحدة اذن شاغل عمر بن الخطاب فيما صدر عنه من سلوك ، عنف سلوكه أو وافق ما ترضاه النفوس من رقة ولين . وقد نظر الى الأحداث السياسية التى تلاحقت فى هذا الوقت العصب من هذه الزاوية ونسى أمام شاغله بقية الاعتبارات . وكان الرجل محققا فى نظريته حتى الغاية ، مخلصا لهدفه تمام الاخلاص .

وكانت نظرة على - هو الآخر - الى الأمور لا تخالف نظرة ابن الخطاب ولا تتجه الى مرمى سوى مرماه ، فلم يتوان المرة بعد المرة عن إباء أخذ البيعة لنفسه من الناس اذ علم أنها حرية بأن تشق صفوف المسلمين وتتركهم حزينين بتلاحيان ويختصمان فيخرجون

جميعا عن الاعتصام لرفع شأن الاسلام ، الى الخلاف والكفاح من أجل هذا أو ذاك .

ولكن أول الرجلين رأى وغضب فحاد به غضبه العنيف عن التزام الطريق المثلى للوصول الى ما اراده من صواب . وغضب الثانى فكبح جماح نفسه ، وطوى حقه الشخصى وهدفه السياسى من أجل الهدف الأعلى وهو اقرار الخير العام .

رأى عمر - فى البدء - كيف ظهر الخلاف بين المسلمين أول ظهوره فى سقيفة بنى ساعدة بحى الأنصار والقوم هناك يدعون الى ابن عبادة دون صحب الرسول ... ثم يدعون - وقد أبى هو عليهم مطلبهم وأبى صاحباه - بأمر منهم وأمر من المهاجرين : فلما شاعت الظروف أن يختلف الأنصار فيما بينهم ، وتم لأبى بكر الأمر بهذا الخلاف ، لم ترايل عمر الخشية على وحدة الاسلام ، فكان أن قام بهم بقتل الرجل الذى أجمع عليه من قليل رأى الأنصار ، لأنه رأى فى حياته عودة للفتنة وعودة بعدها الى الانقسام .

ثم رأى من بعده ، أن أولئك الذين ناصروا سعدا ، ثم عادوا فخذلوه ، قاموا ثانية الى رجل خذلوه يحاولون أن ينصروه ... واجتمعت جموعهم - آونة فى الخفاء وأخرى على ملأ - يدعون الى ابن أبى طالب لأنهم رأوه أولى الناس بأن يلى أمور الناس ، ثم تألبوا حول داره يهتفون باسمه ويدعون أنه يخرج اليهم ليردوا عليه ترائه المسلوب ... فاذا بالمسلمين أمام هذا الحدث مخالف أو نصير . واذا بالمدينة حزبان ، واذا بالوحدة المرجوة شقان أو شكا على انفصال ، ثم لا يعرف غير الله ما سوف تؤول اليه بعد هذه الحال .. فهلا كان على - كابن عبادة - حريا فى نظر ابن الخطاب بالقتل حتى لا تكون فتنة ولا يكون انقسام ؟.

كان هذا أولى بعنف عمر الى جانب غيرته على وحدة الاسلام . وبه تحدث الناس ولهجت اللسان كاشفة عن خلجات خواطر جرت فيها الظنون مجرى اليقين ، فما كان لرجل أن يجزم أو يعلم سريرة ابن الخطاب ، ولكنهم جميعا ساروا وراء الخيال ، ولهم سند مما عرف عن الرجل دائما من عنف ومن دفعات . ولعل فيهم من سبق بذهنه الحوادث على متن الاستقراء قرأى بعين الخيال ، قبل رأى العيون ، ثبات على أمام وعيد عمر لو تقدم هذا منه يطلب رضاه

واقرارہ لابی بکر بحقہ فی الخلافة ، ولعلہ تمادی قليلا فی تصور نتائج هذا الموقف وتخیل عقباه فعاد بنتیجة لازمة لا معدی عنها ، هی خروج عمر عن الجادة ، وأخذہ هذا « المخالف » العنید بالعنف والشدة !.

وكذلك سبقت الشائعات خطوات ابن الخطاب ذلك النهار ، وهو یسير فی جمع من صحبه ومعاونیه الى دار فاطمة ، وفي باله أن یحمل ابن عم رسول الله - أن طوعا وان کرها - على اقرار ما أباه حتی الآن . وتحدث أناس بأن السیف سیکون وحده متن الطاعة !.. وتحدث آخرون بأن السیف سوف یلقى السیف !.. ثم تحدث غیر هؤلاء* وهؤلاء بأن « النار » هی الوسيلة المثلی الى حفظ الوحدة والی « الرضا » والاقرار !.. وهل على السنة الناس عقاب یمنعها أن تروی قصة حطب أمر به ابن الخطاب فأحاط بدار فاطمة ، وفيها على وصحبہ ، لیکون عدة الاقناع أو عدة الإيقاع ؟..

على ان هذه الأحادیث جمیعها ومعها الخطط المدبرة أو المرتجلة كانت کمثل الزبد ، أسرع الى ذهاب ومعها دفعة ابن الخطاب !.. أقبل الرجل ، محنقا مندلع الثورة ، على دار على وقد ظاهره معاونوه ومن جاء بهم فاقترحوها أو أوشکوا على اقتحام . فاذا وجه کوجه رسول الله یبدو بالباب - حائلا من حزن ، على قسماته خطوط آلام وفي عینیه لمعات دمع ، وفوق جبینہ عیسة غضب فائر وحقق ثائر ...

وتوقف عمر من خشية وراحت دفعته شعاعا . وتوقف خلفه - أمام الباب - صحبه الذین جاء بهم ، أذ رأوا حیالهم صورة الرسول تطالعهم من خلال وجه حبیبته الزهراء . وغضوا الأبصار ، من خزی أو من استحياء : ثم ولت عنهم عزمات القلوب وهم یشهدون فاطمة تتحرك كالخیال ، وثیدا وثیدا ، بخطرات المحزونة الشکلی ، فتقترب من ناحية قبر أبيها .. وشخصت منهم الانتظار وأرهفت الأسماع إليها ، وهی ترفع صوتها الرقیق الحزین النبرات تهتف بمحمد الثلوی بقربها تنادیه باکیة مریر البكاء :

« یا أبت رسول الله .. یا أبت رسول الله !.. »

فکأنما زلزلت الأرض تحت هذا الجمع الباغی ، من رهبة النداء .

وراحت الزهراء ، وهى تستقبل المئوى الطاهر ، تستنجد بهذا
الفائب الحاضر :

« يا أبت رسول الله .. ماذا لقينا بعدك من اين الخطاب ، وابن
ابى قحافة !؟ » .

فما تركت كلماتها الا قلوبا صدعها الحزن ، وعيوننا جرت دمعاً ،
ورجالا ودوا لو استطاعوا أن يشقوا مواطىء أقدامهم ، ليذهبوا فى
طوايا الترى مغيبين .

١٦

بكى أبو بكر حين أتته قصة شكوى الزهراء . وبكى عمر وقت
الحادث ثم عاد ثانية الى البكاء وهو يرى ما كان . وكانت فى الرجل رقة
خافية وراء غلظته البادية . فثاب الى الدمع عساه يفىء على نفسه
بعض الراحة بعد اذ صعدت الشكوى منه الى اسماع الرسول .

واقبل على صاحبه يتوسل ويقول :

« يا خليفة رسول الله .. انطلق بنا الى حبيبة رسول الله نرضاه ،
فانا قد اغضبناها .. »

فأجابه أبو بكر لتوه :

« انى منطلق .. »

لقد لقيت هذه الدعوة مكانها من قلب الخليفة اذ كان يحن الى لقاء
فاطمة ، والى رؤيتها ، والى رضاء هذه السيدة التى لم يحب
رسول الله مثلها انسانا ولم يحبه مثلها انسان . وهو الى هذه الرغبة
التى ما فتئت تراوده على هذا اللقاء كان يدفعه - غير استرضائها
عما سلف من صاحبه - أمله فى أن يمحو ما لعله علق بنفسها يوم
أبى عليها أن يكون لها نصيب فى أرض فدى ، التى مات عنها الرسول ،
وكان يدفعه أيضا حبه أن يلقي عليها ، بعد هذه القطيعة - التى فرضتها
ظروف الحال - ولم تفرضها موجدة أو ضغن قديم .

أجل ، قد كان أبو بكر حنانا الى لقاء الرجل الذى خالفه فى الراى
ونازعه مقاليد السلطان ، وان لم يتوسل مطلقا فى نزاعه بغربة أو وقية

أو سقطت لسان ، بل ظل أبدا عفا لا يلج في الخصومة ، نبيل لا يتذرع بكيد ، صافي القلب يتحرج أن تند منه الكلمة نابية تخدش شعور خصمه . بل عسى أن يكون على هو الأول والآخر بين الناس الذي أبى على انصاره أن يتحدثوا عن غريمهم بما يسىء إليه ويجرح كرامته ويحط من قدره ، حتى لقد أنكر على ابنه - قبل كل الناس - أن يجبه أيا بكر على الملاء بكلمة حق أفلتتها شفتاه ، ثم لم يكفه أن يبدى الاستنكار بل قفاه بالاعتذار - لم يقعه عنه أن الحسن كان إذ ذاك صبيا لا يجيد الخصام وإن أجاد الكلام !.

حدث هذا ذات يوم قريب ، وقد قف أبو بكر على منبر المسجد يخطب الناس ، فبينما الجميع قد القوا إليه الأسماع ، وسكنت حركة المكان حتى ليسمع فيه تردد الأنفاس ، إذا صوت رفيع حاد يأتي من طرف المسجد صائحا بالخطيب :

« انزل .. انزل عن منبر أبى !.. »

فوقفت الكلمات بحلق أبى بكر ، وبهت الناس ، وتطلعت أبصارهم إلى ناحية الصوت مشدوهين .

ولكن أبا بكر لم يلبث حتى استرد خاطره ، وسكن جأشه ، ولعبت بسمة هادئة على شفتيه وهو يلتفت إلى هذا الصائح الصغير : الحسن سبط الرسول ، ويقول له فى حنو ورفق :

« ابن بنت رسول الله ؟ . صدقت والله . وانه لمنبر أبيك لا منبر أبى »
ووصل الخبر إلى على فأسف وأنكره على ابنه أشد الانكار ، ثم لم يهدأ باله وتطب نفسه حتى بعث رسولا من لدنه إلى أبى بكر يقول :

« اغفر ما كان من الغلام ، فانه حدث .. ولم تأمره »

فكان جواب الخليفة :

« انى أعلم ، وما اتهمت أبا الحسن »

كان أبو بكر حنانا إلى لقاء على ، وإلى لقاء فاطمة حينه إلى رضائها ، فما أبدى عمر له رغبته حتى صادفت لدبه القبول .

وانطلقا . واستأذنا على فاطمة فأبت ، ثم استأذنا فأبت . فما كان أعجب من سيرهما إلى على فى الاستئذان لهما عليها الا رضاه أن

يمنحهما من لدنه الاذن ، فيدخل بهما ويقبل على زوجه يرجوها ان تحدثهما كأنه كان وليا لهما ولم يكن الخصم الغريم .

ودخلا . وقرأها السلام فلم تجب . وتقدما فقعدا أمامها فولت وجهها عنهما الى الحائط . وراحا يلحقان في الرجاء ان تسمع لهما أو يظلا لا يبرحان ما أبت عليهما الانصات أو الاذن بالكلام . وقال لهما أبو بكر ، أخيراً ، وقد اذنت له :

« يا حبيبة رسول الله .. والله ان قرابة رسول الله أحب الى من قرابتي ، وانك لأحب الى من عائشة ابنتي ، ولوددت يوم مات أبوك اني مت ولا أبقي بعده .. أفتراني أعرفك وأعرف فضاك وشرفك وأمنعك حقلك وميراثك من رسول الله ؟. الا اني سمعت رسول الله يقول :

« لا نورث ما تركناه فهو صدقة » .

ما أحسب ان ميراث فذك كان كفيلاً بأن يشير الى هذا الحد غضبها على أبي بكر ، بل هي أولى أن تعلم هذا الحديث عن أبيها . وأولى أن تنهج نهجه وقد عاشت معه مطبوعة بطباعه ، ناسجة على منواله في العزوف عن عرض الدنيا ونشب الحياة . ولكنها كانت سارت الى الخليفة في أمر فذك لأن رسول الله - كما أعلمتها أم سلمة - قد أوصى لها بهذه الأرض نحلة . فلما رأت أبا بكر لا يعلم بهذه الوصية ، ثم يابى أن يترك لها فذك وان شهدت أم سلمة ، ما دامت الشهادة في الاسلام لا تصح الا اذا أداها رجلان أو رجل وامرأتان .. لما رآته يابى عليها هذا الميراث ، ويبدو كالمتشكك في شهادة سيدة قمين بابي بكر ان يسمو بها عن التشكك ، نفضت فاطمة يدها من الأمر ولم تراجع الخليفة فيه . ولئن ظنها هو واجدة عليه من أجل هذا المرض الضئيل ، فقد جاء ردها عليه لا يشير الى الميراث من قريب ولا من بعيد ، لأن حب المال - كما أحسب - لم يكن أدنى الى طبعها ، والى خلقها ، سيما وهي تعلم عن أبيها انها لن تمكث في هذه الحياة الدنيا بعده الا اقل القليل . قالت تخاطبه وهي تشرك عمر في الخطاب :

« أرايتكما ان حدثتكما حديثنا عن رسول الله ، تعرفانه وتعملان به؟ »

أجابها وصاحبه :

« نعم .. »

« نشدتكما الله .. ألم تسمعا رسول الله يقول : رضا فاطمة من

رضاي ، وسخط فاطمة من سخطي ، فمن أحب فاطمة ابنتي فقد أحبني ، ومن أَرْضَى فاطمة فقد أَرْضَانِي ، ومن أسخط فاطمة فقد أسخطني ؟ »

« قد سمعناه من رسول الله » .

فرفعت وجهها وكفيها الى السماء ، وراحت تقول في حرارة :

« فاني أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتماني وما أرضيتماني ..

ولئن لقيت رسول الله لأشكوكما اليه ! .. »

فما كان أشدها كلمات أخف من وقعها ضربات السيف ! .. مادت الأرض تحتها ، ودارت كالرحى حتى سارا من هول ما لقيتا يترنحان . وغادرا الدار وقد خبا أملهما في رضا زهراء الرسول ، وعلمتا مدى الغضب الذي أثاراه عليهما في قلبها ومدى السخط الذي باءا به .. أما عمر فقد عاوده ثانية ندمه على ما فرط منه في حقها فثاب الى الدمع يلوذ به عساه أن يلهمه الراحة .. وأما أبو بكر فقد أحس كأنما الدنيا ضاقت عليه حتى لا يرى له فيها مقاما ، وكره ، بعد ذلك الموقف ، أن يصيب من الحياة أو تصيب منه . وبحسبه أن يستطيع الانطواء على نفسه في دأره يعالج همه بعد اذ أبت عليه فاطمة رضائها الذي كان نفحة عاطرة من رضا محمد رسول الله . ولكن أمانة الحكم في عنقه ، ولن يخلص بنفسه الى ما يريده من عزلة حتى يسلم الناس أمانتهم ويرد عليهم بيعتهم التي أدلوا بها اليه .. كان هذا أمله ، فأسرع الى الناس مهموما يطلب اليهم أن يقيلوه ويرجوهم أشد رجاء .

غير أن الأحداث عادت ثانية تلعب دورها كما لعبته من قبل .. أن جيوش مانع الزكاة قد أصبحت اليوم على قيد البصر تحاصر المدينة ، وتتربص بها ، وعاصمة الاسلام قد غدت عورة مكشوفة أمام الأعداء ليس بحميها منهم عتاد ولا رجال الا القليل الذي ليس فيه غناء في ذلك الوقت الذي كانت فيه جنود المسلمين بامرة أسامة بما زالت غائبة على حدود الشام .

وتدبر المسلمون الأمر ، وتفكروا فيما يطلبه منهم الخليفة في هذه اللحظة العصيبة فما رأوا أمامهم من الوقت فسحة تتسع لاقالة تتبعها

بيعة مع ما يتصل بهذه وتلك من خلاف قد تسوء معه العقبي ويتحين فيه العدو سانشته التي تلبث ينتظرها منذ حين ..

لذلك أبى المسلمون ، أو أبى اكابر من بايعوه ، ان يجيبوا الخليفة الى ما يطلب ، وأبوا ان يقللوه ، وزاد المسلمون فى هذه الآونة الحرجة حول أبى بكر التفافا رغبة منهم فى حفظ كيان الاسلام ، ولقد كان على أسرع الناس الى نصره الرجل فى هذه المحنة ، لأنه رأى فى الانتظار له ابقاء على دين الله وابقاء على الأمة المحمدية الناشئة التي كانت قد بدأت أولى خطواتها الى المجد . وتقدم عاريا من الخصومة ، خاليا من الخلاف يعرض على الشيخ نفسه وسيفه يستعملهما فى كشف الغمة الوشبكة الوقوع كيف يشاء .

تلك شيمة ليس يتصف بها اكثر من الرجال ، ولكنها شيمة نفس نقية من الشوائب وقلب ناصع ، شيمة مثلى لرجل أمثل ، اذ كان ابن أبى طالب خلال فترات حياته جميعا معنيا دائما بالتماس الكمال ، واخذ نفسه باحتدائه ، وان قام بناء هذا الكمال على انقراض غاياته الشخصية وأهدافه السياسية . ولئن خالف من قبل ابا بكر ، وقام ينازعه السلطان فلغير صولة الحكم كان الخلاف ، ولكن لأنه كان مؤمنا أشد الايمان انه أقوى من خصمه هذا ومن غيره من الناس على اعزاز شأن الاسلام .

١٧

« يا ابن العاص ، انك لسان قريش ورجلها فى الجاهلية وفى الاسلام .. »

« فما تريدون ؟ »

« ارايت الى الانصار كيف تفضلوا علينا ؟ »

« قد فعلوا . »

« فقم اليهم فلا تدعهم وما قالوا .. »

كان عجبا ان يدور مثل هذا الحديث بين بعض قريش بعد سكون الفتنة ونوم نوازي الشر .. ولكن دعاة قريش كانوا اناسا فيهم عصبية،

وفيهم حمية الجاهلية ، وليس يرضيهم أن يفاخرهم غيرهم ولو بالحق !.

ولذلك انطلق عمرو الى مسجد المدينة يتناول بلسانه ما كان من الأنصار إذ أرادوا أن ينصروا عليا بعد خذلان ، فيفيض في تقديمهم ويمعن .

قال وهو قائم يخطب الناس :

« والله لقد دفع الله عنا من الأنصار عظيمة ولما دفع عنهم أعظم .. كادوا أن يحلوا جبل الاسلام كما قاتلوا عليه ، ويخرجوا منه كما ادخلوا فيه » ..

ثم لا يلبث أن يتطرق به الحديث الى ما كان منهم يوم السقيفة ، وان عفى الزمن على آثار ما كان !.. ولكنه الحديث الذي يستطيع من خلاله أن يضع فخر الأنصار ويرفع هام قومه مفاخرا ما استطاع .. « لئن كانوا سمعوا قول رسول الله : « الأئمة من قریش » ثم ادعوها فقد هلكوا وأهلكوا . وان كانوا لم يسمعوا فما هم كالمهاجرين ، ولا سعد كأبي بكر ، ولا المدينة كمكة ... »

ويزدهيه الفخر ، بعد هذا ، فرفع الصوت معتزا ويقول :
« الا أنهم قاتلونا أمس فغلبونا على البدء ولو قاتلناهم اليوم لغلبناهم على العاقبة !.. »

فماذا كان يريد الا أن يستعلى بحديثه هذا على الناس ؟ وماذا وراء هذا الاستعلاء - بعد أن سكن ثائر الأنصار - الا إثارة حفيظة القوم وبعث الفتنة من مرقدتها في وقت أولى بالجميع فيه أن يفلقوا الأفواه ويصطفوا على وفاق ؟ ..

ولكن عمرو بن العاص قبل كل اعتبار من قریش التي غلبها !الأنصار - في البدء كما قال - وقهروها على اعتناق دين الله . ولعل الرجل ، إذ قال ما قال ، قد عني أن يقتصر لقومه كيفما كانت ذريعتيه الى القصاص ؟ ومع ذلك فان لسانه لاقى في هذا الميدان لسانا أقول ، كما لاقى ذهنه ذهنا أنقى وأشد بديهة . فلم تكد كلماته تشيع بين الناس حتى انفرجت صفوفهم عن رجل قصير أحمر ، لا يكاد أن يملأ العين منظره ، وان لم يغب خطره عن الرائيين .. انفرجت الصفوف عن شاعر الأنصار النعمان بن العجلان يتقدم الى « لسان » قریش في هدوء ويقول :

« يا بن العاص .. دع العاقبة ودع البدء ، فما كان الله ليخرجكم من الاسلام بمن أدخلكم فيه !.. »

وكان الفضل بن العباس قد أم بالمكان وسمع ، فسارع مغضبا يقول لعمره :

« يا عمرو !.. انه ليس لنا ان نكتم ما سمعنا منك ، وليس لنا أن نجيبك وأبو الحسن شاهد بالمدينة الا أن يأمرنا .. »

وذهب بالخبر الى ابن عمه عساة أن يحسم ما كان من نزاع بعد أن كادت النفوس أن تسكن عن النزاع .. أما ابن العاص فقد خشي اللقاء فأسرع يختفي من بين الناس . وأما على فما القى اليه نبأ ما كان حتى غضب وقال :

« ويح ابن العاص !.. آذى الله وآذى رسوله .. »

ثم انطلق من توه الى المسجد فدعا اليه الناس حتى اجتمعوا ، وقام فيهم يقول :

« يا معشر قريش . ان حب الأنصار ايمان ، وبغضهم نفاق . ان حب الأنصار ايمان ، وبغضهم نفاق .. ان حب الأنصار ايمان ، وبغضهم نفاق ! ولقد قضا ما عليهم وبقي ما عليكم » .

وأصغى اليه القوم . وهو يهيب بهم ويسترسل :

« يا معشر قريش .. ان الله رغب لنبيكم عن مكة فنقله الى المدينة . وكره له قريشا فنقله الى الأنصار .. يا معشر قريش ، انا قدمنا على الأنصار دارهم فقاسمونا الأموال ، وكفونا العمل ، حاربنا الناس بهم ، وانتصرنا ببذل غنيهم وإيثار فقيرهم .. يا معشر قريش . اذكروا أن الله تعالى أنزل آية من القرآن جمع فيها للأنصار خمس نعم اذ قال : « والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون » . وتريت قليلا يجول ببصره في الناس عساة أن يقع على من كاد أن يعيد الفتنة ثانية الى الحياة ، ثم راح يقول :

« ألا أيها الناس أن عمرو بن العاص قام مقاما آذى فيه الميت والحي ، ساء به الوائر وسر الموثور ، فاستحق من الحاضر الجواب ، ومن الغائب المقت ، فمن أحب الله ورسوله أحب الأنصار .. وليكفف عنا ابن العاص نفسه .. »

فكان لهذا الخطاب من بعد ابلغ الأثر فى قلوب الجميع ، اذ ارضى
الانصار وأفاء على ارواحهم السكينة وحفز قريشا على تجنب اغصاب
أبى الحسن ، فمشت الى عمرو بن العاص تقول :
« أما وقد غضب على فحسبك واكفف ! »

وكانت هذه خاتمة النزاع بين فريقى الاسلام ونهاية التراشق
بالألفاظ الذى كاد يؤدى الى تحكيم الحسام . وفرغ المسلمون الى
تسطير مجد الدولة الناشئة فى سجل التاريخ . وراحوا يبدؤون بخضد
شجرة المرتدين ويقصفونها شوكة بعد شوكة ، وبقي على - بعد ان
ذاد عن المدينة جموع مانعى الزكاة هو ومن عينهم ابو بكر لهذا الأمر -
منطويا على نفسه ، لأن الخليفة ضن به على الحروب كما ضن به قبله
رسول الله ، فعاد يشغل نفسه بجمع القرآن .

وكأنما ابت الأيام أن تسالم الرجل الذى طالت أساءتها اليه
أو تهادنه . فما لبث فى عزلته تلك الا قليلا حتى فدحته باعته مصاب
بعد رزئه فى الرسول . وانه لتحضره اليوم ، وهو قائم على فراش زوجه
التي برحت بها آلام المرض ، ما كن من نبوءة محمد لها فلا يملك الا ان
يتملكه الأسى ويشب الحزن بقلبه اذ يرى الفجيعة المخوقة باتت على
مبعدة ساعات . لقد حان أخيرا موعد اللقاء بين الأب الحبيب وزهرائه
فى دار سوى الدار وهذه فاطمة ، وهى لا تقوى على قلب جنيها
من وهن وأعياء ، تجاهد حتى تستطيع أن ترسم بسمة خافتة اللون
على شفتيها الذابلتين . فاذا سارع اليها زوجها ، مدت كفها الناحلة
فلمست بها منكبه . وهمست له :

« صدق رسول الله ! »

فلا ينطق ، لانه لا يأمن أن تند من فمه أنة حزن مع الكلام .
ولكنه يفهم ما تعنى . وتحضره الصورة القديمة - كما ذكرتها هى
له - يوم عادت رسول الله فى بيت عائشة ذات يوم فحدثها بما
ابكاها ثم حدثها بما أضحكها فكان هذا كان بالأمس لا من شهور .
ويطلق على بصرا غائما الى الفراش . ثم الى جانبه حيث وقف
الحسن ووقف الحسين ، صامتين أمام رهبة ما يريان ، قد جمدت

فى ماقيهما الأدمع رفقا بأمهما أن يؤذيها البكاء . وتنتقل النظرة الى زينب الصغيرة .. الطفلة التى لم تنهل تماما من حنان الأم ، لأن الأيام لم توسع لها ولم تترفق بحدائثها . وان قلبها الصغير ليشعر بفداحة المصير فتجثو على الفراش الى جوار فاطمة تتأملها برهة فيعييها أن تحتفظ بالسكون ، ونطلق عبراتها فترتمى كعادتها على صدر والدتها كما تفعل كلما حزبها امر من امور عالمها المحدود ، وتدفن وجهها فى الصدر الحنون ثم تذهب فى نسيج مكتوم .. وتلوح على وجه فاطمة سحابة رقيقة من الرثاء للطفلة وللغلامين ولكنها تحاول أن تبدو متجلدة ، وان رات الحسين يسعى الى جانبها ويسعى اخوه الى الآخر يتناولان كفيها بالتقبيل واللثم فى خشوع ... فاذا استطاعت بعد هذا أن تثوب الى نفسها وقد ترفق الاب بالأطفال حتى خلفوا المكان ، عاودت تتم حديثها فى خفوت :

« هل صنعت ما أردت ؟ »

فيجاهد وسعه لجيب :

« نعم »

« فهل أنت صانع ما آمرك به ؟ »

« نعم »

« فانى انشدك الله الا يصليا على جنازتى ... ولا يقوما على

قبرى .. »

فيميل بوجهه عنها ناحية حتى لا ترى فى عينيه الدمع .. انه ليبكى الآن أسى كما يبكى رحمة . وان أساه لعلى هذه الزوج التى كان يتنسم من اردائها طيب رسول الله وكانت عزاء له بعده ... وانه لعلى شبابها الغض الالهاف الذى عاش فى الدنيا كعمر الزهور .. وانه لعلى حديها عليه وحرصها على حقه حرصا ناق حرصه هو على هذا الحق مرات ومرات ، حتى لقد ظلت ابدا غاضبة لا يفتح قلبها عن الرضا على من سلبوه اياه . وكانت الرحمة التى شاركت الأسى فى دمع عينيه من أجل ذينك الرجلين اللذين أغلقت قلبها دونهما مع ما بدلاه من استرضائها ما وسعهما البذل ..

أجل ، بكى على رحمة من أجل أبى بكر ومن أجل عمر لفرط ما بكى الشيخان تأثرا وندما .. ولقد شيعهما من قليل الى الباب وهو لا يدري كيف يسوق اليهما كلمة ترفيه . جاءا يعودان فاطمة

فأبت عليهما والحا ، فكان ردها دائما هو الإباء ؛ وتقدم زوجها اليها بالرجاء تلو الرجاء ان تكف عن إباطها ، حتى اذا رضخت كان اذنها باللقاء أمعن فى قلبيهما وخزا من الرد والإباء .. دخلا فأعرضت وسلمتا فأشاحت بوجهها عنهما ناحية وبعثتاها فلم تعن بالجواب كأن غيرها المعنى بالخطاب !.. ثم ها هي الآن ، وقد خرجا تأخذ على زوجها الميثاق ان يرضن عليهما بالصلاة عليها رهي جثمان فارقتة الحياة !.

ولكن هذه الضاوية التى أشفت على نهاية ، أتت عليها لحظة بدت فيها كأن قد فارقتها الأوصاب وتشبثت بها الحياة وان كانت هي - بقلبها - تغالب تشبث الحياة ... وكان على قد امن من القدر فجاءته ذلك اليوم الموسم بنزول الخطب ، ففادر الدار وفى نفسه بعض الطمأنينة ، ووكل شأن فاطمة الى سلمى زوج أبى رافع مولى رسول الله ، تقوم عليه ...

وكانت المرأة جالسة فى هدوء وقد سربلتها الفرحة ان وجدت بنت رسول الله على خير ما ترجو لها اذ ذاك من حال حين اتاها صوت فاطمة هادئا يقول :

« يا أمه ... »

« لبيك يا حبيبة رسول الله » .

« اسكبي لى غسلا يا أمه » .

فقامت فأنت لها بما طلبته من ماء ، حتى اذا اغتسلت كما كانت تفعل ابان العافية ، هتفت ثانية :

« ايتينى بشيأى الجدد » .

ففعلت سلمى .

وعادت فاطمة مرة اخرى تقول :

« اجعلى فراشى وسط البيت »

فكأنما قدت سكين من قلب المرأة شطرا ... نهضت المرأة عجلى اليها تحوطها بذراعيها وتذرف عندها الدمع .

« بأى أنت وأمى يا حبيبة رسول الله ؟ .. »

فابتسمت فاطمة ، ولم تزد على ان تعيد فى هدوء حديثها المغرى بكل نقيض للهدوء والابتسام :

« اجعلى فراشى وسط البيت »

فأذعنت سلمى ودماء قلبها تنزف من عينيها . وقامت فاطمة الى الفراش فاضطجعت عليه . واستقبلت القبلة ، ثم التفتت الى المرأة تقول :

« يا امه ... انى مقبوضة الساعة ، وقد اغتسلت ، فلا يكشفن أحد لى كتفا ... »

أما سلمى فلم تدر كيف مضى بها الوقت الا ان كانت عينا ممدودة ويذا مقبوضة ، كلاهما لا تستطيع دفعا ، لا اولاهما تدفع البكاء ، ولا أخراهما تدفع أنكى الأرزاء ... وقضت فاطمة فكانت يومها ذاك بآخر ضجعة على آخر فراش لها فى الدنيا التى دفعتها الى ظهرها زهرة ، ثم أخذتها زهرة ما زالت على ما كان لها من النظرة وحسن الرواء .

هكذا فارقت حبيبة رسول الله هذه الأرض لتلحق بأبيها الكريم فى السماء ... وخرجت من الدنيا آخر عهدا بها مع الليل ، يشيعها الى مثواها الأخير حفنة من الرجال ، ومضت الى ربها ، بقلبها الممرور ، فانقطع بيمضيتها آخر من كان على قيد الحياة من نسل رسول الله .

وعلى القير الكريم تحت النجوم ، بناحية من البقيع ، وقف زوجها الشاكل المحزون يناجى رسول الله وهو يرنو الى زهرائه الطاهر البتول ، ويصوغ من الحشرات كلمات :

« السلام عليك يا رسول الله ، عنى وعن ابنتك النازلة فى جوارك والسريعة للحاق بك ... قل يا رسول الله عن مصيبتك صبرى ، ورق عنها تجلدى ... الا ان لى فى التأسى بعظيم فرقتك وفادح مصيبتك موضع تعز ، واقد وسدتك فى ملحودة قبرك ، وفاضت بين نحري وصدرك نفسك ... انا لله وانا اليه راجعون ، لقد استرجعت

الوديعة وأخذت الرهينة . أما حزني فسرمد ، وأما ليلي فمسهد ،
إلى أن يختار الله لي دارك التي أنت بها مقيم ، وستنبئك ابنتك بتضافر
أمتك على هضمها ، فأحفظها السؤال واستخبرها الحال - هذا ولم
يطل بك العهد ولم يخل منك الذكر . والسلام عليكما سلام مودع
لا قال ولا سئم ، فان انصرف فلا عن ملالة ، وان اقم فلا عن سوء
ظن بما وعد الله الصائرين ... »

أَشْوَاقٌ

« مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ ، تَزِدْ لَهُ
فِي حَرْثِهِ ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا
نُؤِثِرْ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ »

١

آده الصمت والوحشة وبعد الرفيق . لم يعد عمره الآن يقاس
بمألوف ما اعتاده الناس من سنين وأعوام ، لا ولا بشهور عام تتعاقب
فى زرقائه الأهله . . انما خواطره مقاييس جريان الفلك واختلاف
علائم الزمان ، وانه ليشعر ان قد طفر الى الكهولة من شبابه الريان
فى دفعة . وان اكادسا من الأجيال حطت على كاهليه . وأن الصورة
البادية للعيون من جسمه وملامح محياه لم تعد تعكس بأمانة
ما يملأ قلبه .

ولكنه بقى فى محنته القوى الصابر . لا يسلم قياده لحزنه . .
ولا يدع اليأس يوصد دونه باب الحياة . . كان علم بالدنيا من راغب
فيها ، أبصر بخباياها من راغب عنها ، فلم يغره منها المظهر ، ولم
يغب عنه الجوهر ، وبقيت له مكشوفة بناحيتهما ، وبقى لها كما
كان ابدا ، سيدها المسك بزمامها ، يرخيه بحساب ويجذبه بحساب .
قد يتمهل بها آونة ، او ينحرف اخرى الى شمال او يميل ثالثة الى
يمين ، ولكنه كان حريصا على أن يسدد على الدوام خطاها الى
هدف واحد لم يبرح مطلقا مرمى بصره .

وحتى فى هذه الأيام التى طالعت فيها الآلام ، وقفزت به
خواطره الدكن بعيدا عن نطاق عمره ، لم ينس أن له فى دنياه رسالة ،
وأن حياته فى الأرض مركب الأداء ، وأن الحزن الفياض لا يفرق
عزما ، وأن أهواء النفوس الحرة ومطامح القلوب الكبيرة أخرى بها
أن تكون وسيلة وأجمل الا تكون غابة . وذوو المثل فى الدنيا شعل
تضىء للناس ، ولا يضرها أن تبنى ما دامت قد أفاءت على الجموع
الضياء .



مضت به الأيام وثيدة حتى تكاملت فى حساب الزمان الوافى
شهورا ، وفى حساب الفكر العانى قرونا ودهورا ، وهو فى غرفته
من الناس كمن فى حصن غلقت أبوابه ، يرى من الكوى ولا يشارك .

وكان هذا على نفسه الوثابة عبثا ، ولكنه كان أيضا الضريبة الفادحة التي اقتضاها الحزن . ومن لاتی فی دهره كمثل همه لا یلام جرحه تجلد وصبر ، ولا يجد نجاء من أساه بغير قبر . اما هو فقد قدم فی باله الألم والصراع قبل أن يقدم الراحة والمتاع ، فلم تأت له دنياه بجديد ممرور لا يستطيع ذوقه ، بل جاءت بما كان منها اشكل بطبيعتها ، وادعى ان يعلم به قبل أن يجرع صايه ..

كل أولئك الذين عرفوه جحدوه ، وكل أولئك الذين سبقهم حسدوه فلم يغير هذا شيئا من بياض قلبه . ولكن غاية الألم ذاقها من تحالف الناس والزمان .. لكأنما البوا دهرهم حربا عليه ، او لكأنما صفهم زمنهم عليه جندا ... وكأى من حال لبسوها جميعا ، فلم يعرف قلبه طعم الحقد . تحلب حقا مر الهزيمة وشرق به حلقه . ولكنها هزيمة أصابت العرض ، ووقفت أمام الجواهر مكتوفة الأيدي . وهل عسى يضره أن تعدوه الخلافة الى سواه من أصحاب الرسول بقدر ما يضره هؤلاء الصحاب ان تعدوه ؟ .. وماذا كان مأربه من وراء حكم الناس الا أن يحملهم على الخير او يحمل اليهم الخير ؟ .. وياترى لم تعد له من الأيام بقية يدخرها الأجل لتحقيق الأمل ؟ .. الا فليكن عند قول أبى عبيدة بن الجراح ، وليطوين فى نفسه الطموح حتى يشب او يشيب لأنه بعد صغير والأمر له ان طال به بقاء ! .. وانفرجت ثنياه فتبسم عن كره ، ذلك الصباح الندى الوضاء .. ان رسوله قطع الطريق الى المسجد وهم ان يحيى الشيخ . وانه ليكاد يراه الآن من وراء المسافات يسر الى أبى بكر ما ارسله فيه ، ثم يقرأ على صفحة الوجه المشرق الجليل سطور دهشة مازجها رضاء ، ثم يتوسم فيمن حضر نظرات تشوق وفضول أو خشية واشفاق . ولقد يفضى الشيخ لمن حوله بفحوى الحديث . ولقد يثنيه عن استجابة الدعوة قليلون او يحفزه على تلبيتها كثيرون . ولقد يهم وزيره ان يسير فى أعقابه اكبارا لشأنه أو تخونا عليه . ولكن الشيخ كان قميئا بأن يلبى ، وبأن يلتزم فى التلبية نص الدعوة حرفا بحرف . وبأن يقطع الدروب وحده الى دار على يهرول مشوقا ليلقى ، بعد قطيعة شهور ، ذلك الشاب الفريد فى الرجال .

الصراع الذى فات بين خصمه وبينه لم يغير مطلقا من بياض قلبه ، وانما ثمالة الألم ذاقها من نحالف الناس والزمان : ولقد كان قويا على ذنب الناس فعفا ووسعهم غفرانه . ولكن كلم الزمان فى قلبه كان غائرا يدمى . وبحسبه بعد وفاة رسول الله أن ينكب بوفاة فاطمة فتغيب عن حياته أسطح السُُموس ، وأن تنضم غرفته على وجوه ، لا يفتأ كلما وقع عليها بصره ، أن يرى فيها اطيافا من الراحلين الكريمين . وأن يذكر - اذ يرى - هول النكبة التى أصابته بهذا الرحيل . وأن يرود خاطره بعد لحظات نهاره وتوانى ليله ، حذب الأم الذى فقده الصغار ، وعطف الجد الرفيق البار . فبأى من تلك العواطف الغائبة السخية يستطيع قلبه الآن أن يجود ؟.. وهل تثبت عينه فلا تسخو وهى لا تنى تقرا على قسّمات الأطفال أساهم نديا ؟.. وكيف يقصر وجهه على اصطناع السكون امامهم وكان دائما لقلبه مرآة ؟..

أن تلك الشهور قادرة وحدها على التحدث لو نحلت اللسان وأوتيت البيان . وقوى على ذهنه أن يغلب ذكراها ، عصى على قلبه أن ينساها ، فكلما نطقت زينب وخطرت أم كلثوم ، سمع فاطمة ورآها ، وكلما مشى الحسين وبدا الحسن تبين فى مشية أولهما خطوات رسول الله ، وفى ملامح الثانى قسّمات محياه . ومن وراء هذا كله صور تتداعى امام عينيه متواترة تختلف فى تتابع لكلا حبيبه ... اما هو فقد كمن فى جوفه قلبان ، ينزع به قلب أن يغمض بصره ويسد أذنيه حتى لا يقع على مثار حزنه ، ثم يهتف به قلب أن يرهف أداتى الرؤية والاصفاء فلا يغيب عنه صوت الحبيبة او صورة الحبيب .

وكذلك عاش على مع قلبه فى صراع . لا شىء يلهيه عما هو فيه الا أن يصطنع شاغلا عن عواطفه فى أوقات . وفى عالمه الذى يحده من كل جانب جدار - فى تلك الغرفة التى انطوت على اطفاله وعليه ، لم يكن شاغله سوى أمر أولئك . خلال مسافات من سنّى عمره بدا هذا الأرملة الصغير فى عيون مريديه كمن قد صيغ من روح ، وفى عيون شائثيه كأنه فولاذ !. ولكنه حقا جمع الرايين فكان الرخاء والمضاء . ولكليهما سار فى الحياة وأفاء على اطفاله ما أفاء ، فاذا الصغار تتشكل نفوسهم ، مع الزمن ، بشاكلة كلما نهلوا من دينه

وعلمه أو قبسوا من شجاعته وعزمه . وقد يسر لهم أن يجيدوا عن أبيهم الأخذ بكل ما ورثوا عن أسلافهم وجرى في عروقهم من كريم الخلال .

وكانت هذه ناحية من رسالة على في هذا الوجود ، بل قد كانت منها - اذ ذاك - أبرز النواحي . فلقد ظل دائما معنيا بالتماس الكمال في المعرفة حتى بدا فيها الرجل الزاهد العزوف عن الطعام والمال ، منهوما غاية النهم لا يتسبع من حكمة وعلم ، لا يننى بجيع بطنه ويشبع ذهنه ، وكان بثروته هذه كالكريم المضياف يمد أطايب موائده أمام قاصديه ليصيبوا من ذخرفانه كما يشاءون . ولقد بلغ من هذا الأمر المدى الذي لم يبلغه سواه حتى أصبح المرجع في مستعصيات المسائل ، وتسئم مقعد المعلم الأول في ذلك الحين مع ما كان من حدانة سنه ، يأخذ عنه الملتفون به من صحب الرسول ، ويستهدون بأرائه يذيعونها في المجالس لنفع الناس ، وحرى بمن نهل الحكمة من نبع النبوة أن يكون كما كان .

ولكن الزمن أبى أن يدع له طويلا هذه المتعة الروحية ينعم بها في إبان محنة حزنه ، فلقد أخذت حلقات الصحاب تضر وتقل جموعهم عنده وتتفرق شراذمهم الملتفة به كلما دعاهم داعى الجهاد بمكان . ولم يلبثوا ، بعد أن استعرت الفتنة في جانب من الجزيرة ، أن يتركه الواحد بعد الآخر حتى أمسى وليس له من تلاميذه الا بعض أهله وأولئك الأربعة الصغار .

والى جانب هذه المتعة الروحية التى انتقصتها الحرب ، ظلت الناحية الأخرى من نشاط على معطلة مذ اعتزل الناس . ولكنها - مع ذلك - بقيت كالسيف المجلو بتارا قاطعا وان احتواه قراب . ولطالما رمى بناظريه خارج داره فرأى جموعا تذهب وجموعا تجيء دارعة تدج في السلاح ، فكان يطوى قلبه على هم جديد فوق ما طوى من هموم ، ثم يرد طرفه اليه في حسرة . كان مشوقا الى ما هم فيه ، حنانا الى عالمهم الصخاب بصليل السيوف ، وقعقة الرماح وأزير القسى عند انطلاق النبال . فلمثل هذه الحياة الحافلة بالدماء عاش . ولمثل يومهم هذا هياه طبعه . وللغاية التى من أجلها يخوضون اليوم غمار القتال كان يرتو ببصره وهو بعد طفل صغير يقف الى جوار ابن عمه العظيم ويقول غير آبه بمن حضره من كبار أهله في ذلك الحين :

« لا يحزنك والله اعانت القوم فعليهم ضلالتهم ، واني
انا يا رسول الله عونك ! انا حرب على من حاربت !.. »

اجل قد كان هذا شعاره في الحياة وكان هدفه الذي لم تمل عنه
عيناه . نصره محمد كانت هدفه ، فمن ورائها انتصار دين الله . وعند
ما طوى اللحد ذلك الاتى الى العالمين بالنور ، قام على من بعده يتهيأ
لقيادة الناس على النهج الواضح المرسوم . وكان قد وجد في قلبه
القدرة على الاضطلاع بالأمر ومجادلة الاحداث - التي اخذت تجتمع
في الافاق محاولة ان تحجب هذا النور - فنذر نفسه شابا ، كما
نذرهما من قبل صبيا ، ووهبها لغايتها المثلى .. فأما وقد افلت من بين
يديه حكم الناس ، فان اداته لنصرة دين الله واعلاء شأنه ما زالت بعد
تحت يده : مجلوة بتارة وان احتواها قراب !..

والقى ببصره الى جانب من الغرفة فعلق فيه بسيفه الذي اهداه
محمد اياه . وامتلأ قلبه زهوا وهو يرمقه اذ كان كبضعة منه . واكتسى
وجهه بلون من الرضا المشوب بالعزم ، وهمت يده ان تمتد فتسله
وتداعب نصله لولا ان نما الى سمعه صوت قال :

« ابو بكر !.. »

فتلفت ناحية الباب ليرى الشيخ الجليل مقبلا عليه ، في ناظره
ابتسام ، وعلى محياه هدوء وسلام ، وقد سار نحوه مشوقا يهتف به
في صوت رقيق النبرات :

« السلام عليك يا ابا الحسن .. »

ولكن عواطف القلوب كانت ابلغ من كل تحية وكلام . فما ان تقايل
الحظان حتى اعتنق الصاحبان القديمان ، وراحت قطرات من الدمع
تترقرق في ماقي الشيخ ثم تنثال في رفق بين شعيرات لحيته البيض .
وبدا الصمت لهما هنيهة خيرا من الف حديث .. وتقبل على بالرضا
وراحة الفؤاد هذا البياض الذي تكشف عنه قلب ابي بكر في دقائق
اللقاء ، فقد ظل كعهده نقاوة وصفاء ولم تغيره قطيعة ولا خلاف .
لكان قلبيهما كانا شطرى قلب .. أما الشيخ فلعل الاريحية التي بدت
له في هذه اللحظة من صاحبه والتسامح الذي بلغ الى حد تكران
الذات ، كان بعض ما حرك قلبه وأرسل الدمع صيبا من عينيه ..

وأما الشاب فلغير مثل هذه العوامل الشخصية وجه دعوته يستقدم خليفة الاسلام ، وان كان قد اتخذ التسامح والارحية مطايا لبلوغ ما اراد . . وما كان له من مأرب الا ان يرأب صدعا . او يهيء رشدا ، او يهز سيفا في سبيل مجد الاسلام .

٢

حتى في هذا الموقف الذي تهيم فيه المجاملة ، ولا تدع سبيلا لسواها من خلجات الشعور الى النفس الانسانية ، لم ينس على صراحته ، ولم تخنه شجاعة الراى الطليق الحر . . كان مخلصا غاية الاخلاص أمينا غاية الأمانة لنفسه ولصاحبه على السواء ، فلم يغمط الأولى حقا آمن انه لها ، ولم يخف عن الثانى لهذه الخاطرة التى لو شاء لتركها من قلبه فى قرار سحيق . ولكنه أبى ان يدع بهذا القلب جانبا غير مكشوف لعين الشيخ ، او ان يظهر له الناحية الملساء ويطوى الأخرى عنه ، بل آثر ان يبدو امامه بناحيته كليهما بلا مواربة ولا اخفاء . .

قال وقد انتهى حديث العاطفة بينهما على خير انتهاء :

« يا أبا بكر . . انه لم يمنعنا من أن نباعك انكار لفضيلتك ، ولا نفاسة عليك لخير ساقه الله اليك ، ولكننا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقا فاستبددتم به علينا به . . »

وبهذه الكلمات القصار لخص الشاب قضيته التى أبت لها الأيام الا الخسران . ونفض يده من خلاف لم يكن هو أول مشيريه وان كان أول مناجزيه .

وكأنما مى كلامه وترا فى القلب الكبير الرفيق ، فانبرى أبو بكر يجيب :

« والذى نفسى بيده يا أبا الحسن . . لقراءة رسول الله احب الى ان اصل من قرأبتى ، وأما الذى شجر بينكم فى هذه الاموال فانى لم آل فيها عن الخير ، ولم أترك أمرا صنعه رسول الله الا صنعته . . »
وصدق الرجل فيما أجاب وان لم يتناول كل اطراف القضية بهذا

الجواب !. ولكنه أعاد فقط ما كان من أمر فذك الى الأذهان وشأنها كله لا يكاد أن يخسر أو يزيد في الميزان ، غير أن عليا لم يكن اليوم في مجال حساب فاكتفى بالعتاب ، واسدل بالصمت على الماضي سترًا ثم سارت به أريحته الى المسجد ليعلن في الملاء الحاشد بكلمات جليلة رسمت حقه ورسمت فضيل منافسه ، أنه أصبح على رأى الناس فلا قطيعة ولا خلاف . حتى اذا انتهى غادر المنبر يشق الجموع الى حيث افضى الى أبى بكر فبايعه ويدعو على الأثر آله ومن تخلف من انصاره عن البيعة أن يتابعوه .

ودخل بهذا في الحياة العامة . واخذت المدينة تشهده ثانياً انين يلازمان خليفة المسلمين . ولكنه مع ذلك لم يحظ بأمنيته في الجهاد ، بل بقى جليس المسجد بعد أن كان حبيس الدار تطوف به الأحداث حديثاً .

على أنه استطاع أن يجد متنفساً لطاقته العلمية في مجتمع اقل ما يقال عن أفرادهم أنهم كانوا من العلم أمم طراز جديد . وعن له أن يدلى بآرائه الصائبة كلما اشكل أمر من الأمور على اصحاب الراى البرزين .. وفى تلك الأيام الأولى من صدر الاسلام والدين جديد على قلوب معتنقيه ، ومشكلات نواميسه وأحكامه عصية على أذهان القوم بعد وفاة المذهب الأول للكون . في تلك الأيام التى غاب عن آفاقها حامل شعلة الهدى ، وجد الناس لدى سليل هاشم الصغير اقباساً من النور تضىء لهم أحناء حياتهم الروحية والمدنية كلما تشعبت الآراء أو اصابها حسر . ولم يكن على يفتى فيما يعرض له من المسائل والقضايا الا عن رأى صائب مسنده القرآن أو سنة رسول الله أو ما جرى من العرف المأثور . وله بعد هذا الاجتهاد بالقياس أو الترجيح أن أعوزه الوقوع على النص الصريح .

فى هذه الآونة وما بعدها من عهود خلفاء محمد كان على ميزان القضاء والافتاء ، ذخيرته حكمة قبسها من نبع النبوة واتساع أفق وعلم فياض ، لا يباريه فى ميدانه صاحب ولا رفيق حتى أصبح فى المستعصيات ذا الراى الحاسم الأخير . وكتب بأحكامه الفذة اصول التشريع الاسلامى فى كل نواحيه . وألقى اضواء لامعة من ذخيرة معرفته على مشكلات الحياة ومسائل القضاء حتى كان اس الخطاب - وهو صاحب القضاء على عهد أبى بكر - يقول فيه :

« لا بقيت معضلة ليس لها أبو الحسن !.. »

وقنع على من دنياه بنصيبه هذ من تفقيه الناس . وترك سيفه مغمدا الى حين ، لأن خليفة الرسول التزم ما كان قد التزمه رسول الله في أخريات أيامه من الضن بابن أبي طالب على الحروب . ولكنه كان دائما لأبي بكر الناصح الأمين كلما حزب الأمر ودعا ان يتقدم بمشورة . واتصلت بين الرجلين ألفة غذاها ما كان يملأ قلبه من الوفاء دائما لصحبه وان سبقوا اليه بحيف أو بعدوان . وان الذي يساير الأحداث هونا ، ليرى هذا الوفاء لامع الصفحة حين يلمح هذا الشاب متقدما على استحياء الى أسماء بنت عميس يطلبها لنفسه زوجا ، بعد ان مات عنها أبو بكر ، ويضم محمدا اينها الى داره كأحد بنيه . ثم يرى هذا الوفاء باديا على خير وجوهه ، اذ يلمحه منطلقا ، واله النفس ، مصدوع القلب ، الى دار الخليفة ، يبكى ويقول :

« رحمك الله يا أبا بكر !.. كنت والله أول القوم اسلاما ، واخلصهم ايمانا ، وأشداهم يقينا . صدقت رسول الله حين كذبه الناس ، وواسيته حين بخل الناس ، وقمت معه حين قعد الناس . كنت والله للاسلام حصنا وللكاافرين ناكبا . لم تغفل حجتك ، ولم تضعف بصيرتك ، ولم تجبن نفسك ، كالجبل لا تحركه العواصف . كنت والله كما قال الرسول فيك : ضعيفا في بدنك ، قويا في دينك ، متواضعا في نفسك ، فلا حرمننا الله أجرك ، ولا اضلنا بعدك » .

وكفى بهذا الشاب نقاوة قلب وصفاء نفس ، ان ينسى في هذه الملة ما سلف من الشيخ اليه ، وان ينبذ وراء ظهره ما كان من خلاف بينهما وحيف عليه ، كفيل بأن يوغر صدر سواه ، فلا يذكر لهذا الراقد الا فضله وحسنه . وان يسمو على انسانيته سموا يتزع به عن بني البشر فلا ينطق الا بلسان البررة الأطهار من سكان السماء ، في آونة اضاف قبيلها أبو بكر حيفا جديدا الى حيفه القديم على حق هذا الغريم المظلوم . ان طاقة النفس البشرية لا تتسع في عصر من العصور ، كما اتسعت نفس على ، لمثل هذا التسامح وهذه الأريحية وهذا السخاء في انكار الذات ، وذكر اجمل النعوت والصفات لواتر لا يعز على خصمه ان يذكر له الاخطاء والهنات . فلقد نسى على الماضي ورماه دبر ظهره ، ثم نسى الحاضر وهو ما زال يسير على مثل شوك القتاد أو قطع الحجر من هذا الحاضر . وليس أمسه عليه بعيد ، لا ولا يومه الذي لم تكد

تغرب شمسه الا منذ قليل ، وكلاهما شهد لأبى بكر موففا كان كفيلا بأن ينطق عليا بغير منطقته هذا لو أنه سائر ما جبلت عليه نفس الانسان ولكنه سما على انسانيته بنحو فريد . وشهد وأغمض عينيه عما شهد ، وسمع ثم سد أذنيه دون ما سمع . . شهد هذا اليوم أبا بكر موعوكا الح عليه داؤه واشتد به برحاؤه ، نكاد امراته اسماء ان تحميه لفرط وهنه وهو يشرف على الناس من داره ليقول :

« ايها الناس . . انرضون بمن استخلف عليكم ؟ انى والله ما الموت من جهد فى الراى . ولا وليت ذا قرابة ، وانى قد استخلفت عمر ابن الخطاب فاسمعوا له واطيعوا . . . »

وكان هذا حريا بأن يفعم بالغضب قلب على لأنه اصرار على الحيف بعد الحيف . ولكنه كظم وصبر ، ولم يضره ان يأخذ مقعده فى ذيل الناس ما دام صاحب رسول الله قد بيتوا الأمر على نزع سلطان محمد من آله والخروج به ثانية من عقر بيته . ولم يكن هذا بمستغرب من قريش ، ولكنه كان عجيبا غاية العجب من الشيخ الجليل بعد ان استوت بينه وبين على الأمور ، فلم تعد خافية على أبى بكر مكانة الشاب وأثره فى حياة الجماعة الاسلامية من تضحيات وبذل عند ولادة الدين ، ومن حكمة وفضل ودولة الاسلام تشق طريقها الى الاكتمال . . وكان عجيبا غاية العجب منه ، وهو الملتزم دائما السير على منهاج الرسول ، ان يخرج على هذا المنهاج فيوصى لصاحبه بعده وكان أولى به لو ترك للناس أمرهم سورى - كما فعل محمد - يختارون الذى يشاءون . ولئن بدا أبو بكر يوم السقيفة مدفوعا تسوقه الأحداث امامها ولا تدع له الا أحد سبيلين : هما الخلافة لنفسه ولقريش فى شخصه ، او فوز الأنصار بها دون المهاجرين ، فانه اليوم لم تدفعه الأحداث ولم يبدر من المسلمين تنافس او خلاف يسوقانه مكرها الى الاستخلاف .

. . وبلا معارضة او ابقاء ، قابل على الحيف الجديد على حقه يصدر رجب ، وارتضى ان يرتد ثانية عن الصدارة الى ذيل الناس . ولكن صمت لسانه لم يعف جنانه من ان يلوك خاطرا مر بباله ، فذكر بلسان الحال ما نطقه بعد أعوام بلسان المقال :

« أرى ترأى نهبا ، فياعجبا ! . . بينا هو يستقبلها فى حياته اذ هقدتها لآخر بعد وفاته . . لشد ما تشظرا ضرعها ! . . »

٣

لا ريب ان ابا بكر رأى لعمر عليه حقا حين استخلفه ، كما رأى للمؤمنين صلاح حالهم بهذا الاستخلاف . ولكن الأسلوب الذى انتهجه عند الاختيار كان أسلوبا يستطاع وسمه بالهفات والأخطاء . فان الشيخ لم يتناول الأمر بالصراحة الواجبة ، بل بدا كأنه اضمر التبييت وشاء تدبيره على غير علم من آل بيت الرسول . ووقع بهذا فى الخطأ الذى وقع فيه عمر من قبل عند وفاة النبى اذ خرج بصاحبه الى سقيفة بنى ساعدة ولم يدع واحدا من آل هاشم الى الخروج .

وكذلك أسقط أبو بكر من حسابه عليا الذى كان أولى بالرعاية وبالحساب من سواه . وشاور غيره من صحبه قبل ان يقدم على اختيار من يخلفه وان لم تكن المشورة - فيما يبدو - بقادرة على أن تجعله يحجم عن هذا الاختيار ، ولكن الذى كان أحرى بإخلاقه الكريم لم يفعله ، كأنه خشى - لو أدخل عليا فى الراى - أن يلويه عنه او يخالفه . ومع ذلك فماذا كان على بمستطيعه بالمعارضة وقد عزم الشيخ أمره وانتهى الى قراره قبل أن يشاور ويستطلع الآراء ؟ . . . وای الناس فى العرب كان يفضل ابن عم رسول الله أو يقوم مقامه حتى يفضى أبو بكر عن دعوته ليشاورة فى الأمر ؟ . . . وكم من رأى لصحب محمد يعلو رأى هذا الشاب فى شأن من الشئون ؟ . . . ان العجب كل العجب أن يلتمس الخليفة الصواب عند على كلما اختلفت الآراء فى مصير فرد واحد من رعاياه ثم لا يشاورة اذا أراد البت فى مصير دولة جمعت رعاياه ! . .

كان هذا عجبا حقا من رجل خلف دنياه وهو على غير يقين اكان هو صاحب الامر من بعد رسول الله ام كان الاولى به سواه حتى لقد قال قبيل وفاته وعنده ابن عوف :

« لوددت انى كنت سألت رسول الله عن هذا الامر فلا ينازعه احد » ولكنه ، مع ذلك ، شاور صحبه قبل ان يدلى بهذا الامر لعمر ولم يشاور اولاهم بالمشورة وبسط الراى . ودعا اليه عبد الرحمن ابن عوف يسأله :

« أخبرني عن عمر .. »

قال عبد الرحمن :

« يا خليفة رسول الله . هو والله افضل من رايك فيه من رجل

ولكن فيه غلظة .. »

« ذلك لانه يراني رفيقا ، ولو افضى الامر اليه لترك كثيرا مما هو

عليه . يا ابا محمد ، اني قد رمقته فرايتني اذا غضبت على الرجل في

شيء اراني الرضا عنه ، واذا كنت له اراني الشدة عليه .. »

وهم ان يقوم ابن عوف فقال له الخليفة محذرا :

« يا ابا محمد .. لا تذكر مما قلت لك شيء .. »

ثم دعا اليه عثمان بن عفان يسأله :

« يا ابا عبد الله . أخبرني عن عمر .. »

« انت اخبر به يا خليفة رسول الله . »

« فأخبرني .. »

فقال عثمان :

« اللهم علمي به أن سريره خير من علانيته ، وان ليس فينا مثله »

فتفرجت أسارير الشيخ وهو يقول :

« رحمك الله يا ابا عبد الله ! .. ولو تركت عمر لما عدوتك »

ثم أوصاه أن يكتم ما دار بينهما من الحديث .

واشتد فيما بعد بالشيخ وصبه . وخشى ان يموت قبل ان يوصي

ويسجل وصاته هذه في كتاب ، فبعث الى عثمان يستكتبه العهد ،

فلما جاء راح يملئ عليه :

« اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .. »

وأخذ صاحبه يكتب .

« ... هذا ما عهد عبد الله بن عثمان الى المسنمين ، آخر عهده

بالدنيا ، وأول عهده بالآخرة ، في الساعة التي يبر فيها الفاجر ويسلم

فيها الكافر . »

ثم وهن منه الصوت قبل ان يتم املاءه ، واضمى عليه :

ودفع ابن عفان عن الصحيفة عينا يتطلع بها قلقا نحو صاحبه ،

فاذا الرجفة تأخذه اذ يراه مهبطا . وكأنما خشى ان يكون الخليفة

قد فارقت الحياة قبل ان يتم عهده ، وخاف من الناس ان يختلفوا على

الأمير بعده ، فسارع يكتب متمما الوصية :

« .. اما بعد ، فانى قد استخلفت عليكم ابن الخطاب .. »
وافاق الشيخ بعد قليل من غشيته فاطمان عثمان ، وقرا عليه
ما كتب قال له ابو بكر :
« انى لك هذا ! .. »
« ما كنت لتعدوه .. »
« اراك خفت ان يختلف الناس ان افلتت نفسى فى غشيتى »
« نعم يا خليفة رسول الله »
« الله اكبر !. اصببت ، فجزاك الله خيرا عن الاسلام . اتمم
كتابك »

وعاود الاملاء .

وابرم بعد قليل العهد الذى اراده ابو بكر فتم لعمر الامر .
ودخل طلحة بن عبيد الله على الخليفة وهو بين بعض صحبه
حين نما اليه خبر الوصية .. وقال معارضا :
« ما انت قائل لربك غدا وقد وليت علينا فظا غليظا تفرق منه
النفوس وتنفض عنه القلوب ؟ .. »
فبدا الغضب فى عينى الشيخ ، وصاح بابن عمه :
« ابالله تخوفنى يا طلحة ؟. اذا قال لى غدا ذلك قلت له : وليت
عليهم خير اهلك »

« اعر خير الناس يا خليفة رسول الله ؟ »

فاشتدت ثورة حنقه واجاب :

« اى والله !. هو خيرهم وانت شرهم !.. اما والله لو وليتك
لجعلت انفك فى قفاك ، ولرفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله
هو الذى يضعها ، قم عني !.. »

والتفت الى ابن عوف يقول له ، ولما يزايله غضبه :

« استخلفت عليكم خيركم فى نفسى ، فكلكم ورم لذلك انفه
يريد ان يكون الامر له دونه لما رايتم الدنيا قد جاءت !.. اما والله
لتتخذن ستور الحرير ونضائد الديباج ، ولتألمن الاضطجاع على
الصوف الاذرى كما يألم احدكم ان ينام على حسك .. ووالله لان
يقدم احدكم فتضرب عنقه فى غير حد خير له من ان يخوض فى
غمرة الدنيا .. »

فكأنما جلت سكرات الموت للشيخ بصيرته فنفذت الى المستقبل حتى لاح امامه مبسوطا وتكشف عن صحبه الباقيين قد اكتنفهم الترف ومالوا الى رفاهة العيش بعدما كان من نزوعهم عن الدنيا ونأى عن اوطارها وعن مآرب الحياة .. ولعل هذه النبوءة قد طافت من قبل بخيال ابى بكر ، وملأت قلبه بالخوف من المستقبل الذى رسمته ، لانا نجده ، حين احس دنو أجله ، يسارع الى رجل عرفت فيه الزهادة فيختاره اميرا للناس حتى يجنبهم المصير الذى يخشاه ... ولقد اصاب باختياره -د التوفيق فاستطاع ان يمد فى أجل الخلافة الروحية بضعة أعوام ، ولكننا نراه ، حتى فى هذا الصواب قد افتات ثانية حق على الموسوم بالتقشف والزهد سمة قد تسبق به عمر بن الخطاب لو سار كلاهما فى هذا الطريق . وإفتات ثالثة حق على بمنطق اللسان حين سمعناه من قليل يقدم عليه ابن عفان اذ يقول :

« لو تركت عمر لما عدوتك يا أبا عبد الله »

فمن فى الزاهدين كان عثمان ؟ .. واية ميزة تفرد بها دون ابن ابى طالب واستحق معها التقديم ؟ .. وبأى لسان نطق ابو بكر هذا البيان ؟ .. اكان حديثه يا ترى بلسان المجامل الرفيق ، أم بلسان محقق التزم فى حكمه قواعد الحساب الدقيق ؟ .. هذه خواطر لعلها لم تغب عن ذهن الشيخ اذ ذاك وان جاء جوابها من لدنه على غير ما كان يجدر أن يجيء عليه الجواب .. وللأحداث من بعد الحكم وفصل الخطاب ؟ ...

٤

المبدأ الذى التزمته قريش فى اختيار خلفاء رسول الله كان خروجها دائما على أهل رسول الله ، ونزعها عنهم من أيديهم ... هذه حقيقة أيديها دائما وقائع الحال ، كانت فى البدء يحجبها - حديثا - فى حلق أصحابها ستار وان بدت فى الأفعال ، ثم أخذت على الأيام تخرج من نطاق الاسرار الى المجاهرة والكلام ... ذلك بدا جليا غاية الجلاء ، ولو لم تتخرج قريش عند وفاة محمد واتساق الأمر بعده لأبى بكر ، لوسعها أن نقول لبنى هاشم فى أصرح بيان وبأعلى صوت :

« كرهنا أن تجتمع النبوة والخلافة لهذا البيت ... »

ولقد أمرت عليها - انفاذا لمبدئها المرسوم - شيخا من تيم لا ريب كان له مثل رأيها ذاك ولكنه كان فطنا ، فيه كياسة وحذق فلم يجار بالذى كانوا يسرون ، وجرى أحيانا بينهم مجرى الهمس بعد جربانه كالعقيدة فى الأخلاق والظنون . وبقي طاويا فى نفسه شعور قومه تجاه آل الرسول وان لفطت اللسان رويدا رويدا بأنهم أصابوا الجادة حين اختاروا خليفتهم من غير بيت النبى ، رغبة فى البعد بخلاف الاسلام عن التشيع للعصية التى نهى عنها الاسلام . الا أنه منطق يعوزه السداد وان بدا كالسداد ، فما كانت العصية جرما الا أن تمنع صاحب حق حقا يستقيم له غيرها ، أما الاعتذار بها فهو الجرم كله ان منع حقا يستقيم لصاحبه بها كما يستقيم له بدونها على سواء .

ولكنه الاعتذار الوحيد الذى انتحلته قريش لتدرا الشبهات عن حيفها وركوبها آل محمد بالعدوان . وما كان لها أن تلجأ الى سواء وهو ذريعتها لتبدى - فى صورة غير واضحة الظلال والالوان - ما طوت عليه جوانحها للبيت الهاشمى من حسد مكتوم وحقد مكظوم .

وبالبحث وراء هذه الأحقاد يستطيع أن يردّها الى أصولها القديمة فى أحداث التاريخ ، كما يستطيع أن يحس عواطفها المنبعثة

عنها في قلوب القوم كلما آنت لحظة يقفون بها في موقف الحكم امام هذا البيت الكريم ، ثم لا يستعصى عليه بعد هذا ان يعلل احكامهم التعليل الصحيح . كذلك تألبت قريش على محمد وهي على ضلالتها ، وهو يحمل اليها ناموس الهدى والنور . وكذلك فعلت من بعده حين تجيشت بقضها على ابن عمه ولم تنصفه وجاء النصف من جانب قوم من غير قبيله هم الأنصار . وكذلك مدت في طغيانها عليه يوم الاستخلاف ، وان صدر عن شيخ بنى تيم لأنه لم يكن سوى المعبر عما يحس به قومه ويبتغونه كثرة أو يبتغونه وهم على اجماع .. وفيما اتى بعد هذا من فرص النصف ظلت كدأبها من على في المعسكر المنحرف عنه التحيف عليه ، وليس من سبب واحد اقصاه عن مقعد الحكم الذى هو به جدير سوى هذه العاطفة ، وان لاح تعدد الذرائع والأسباب . ومن احس الريب وخالجت الشكوك في أثر هذا المانع الوحيد الاصيل ، فبحسبه ان يسمعه عن لسان ابن الخطاب .. فلقد وسعه ان يعتذر مرة عن حيف قريش بسبب مطروق سلف اليه قبله رأى ابى عبيدة ابن الجراح .. وثانية بسبب واه كان ظنا خالصا لم يؤيده فيما بعد منطق الأحداث ... لكنه في الثالثة تكلم بوحى قلبه فأجاد التأويل واصاب التعليل ..

... اما الاولى فكان يحادث فيها ابن العباس فقال فيما قال :
« ما ارى ، يا بن عباس ، صاحبك الا مظلوما .. »

« فأردد اليه ظلامته يا أمير المؤمنين »

فوقف الشيخ هنيهة بهمهم كأنما يحدث نفسه ، ثم عاد يقول :
« ما اظن القوم منعهم منه الا أن استصغروه ... »

... وأما الثانية فمر فيها بعلى ، وهو بفناء داره ومعه ابن عمه ، ذات ليلة فالتقى عليهما السلام ، ولما هم أن يسير الخليفة لشانه هتف به ابن ابى طالب :

« أين تريد ؟ »

« البقيع »

« أفلا نصل جناحك ونقوم معك ؟ »

فوافق ، وأشار على لابن عمه أن يصحب عنه أمير المؤمنين . ومضى الرجلان في جوف الليل ، الأمير صامت كأنما قد شغله التفكير ، ورفيقه لا يحب ان يقطع عليه فكره بالحديث . حتى اذا

جاوزا البقيع بقليل التفت عمر الى صاحبه وقال :
 « يا بن عباس ... اما والله ان صاحبك لاولى الناس بالامر بعد
 رسول الله ، الا اننا خفناه على اثنين ... »
 « فما هما يا امير المؤمنين ؟ »
 قال عمر :

« خفناه على حذائفة سبه ، وحبه بنى عبد المطلب »
 ... واما الثالثة ففي بعض مجالس امير المؤمنين وقد جلس
 اليه نفر يتذكرون الشعر والشعراء . ومربهم اذ ذاك عبد الله
 ابن عباس ، فقال عمر للذين حوله وهو يدعوه :
 « قد جاءكم الخير ... »
 ثم التفت اليه يسأله :
 « من اشعر الناس يا عبد الله ؟ »
 « زهير بن ابي سلمى يا امير المؤمنين »
 « فانشدني بعض ما تستجيده له ... »
 قال ابن عباس :
 « مدح قوما من عطفان يقال لهم بنو سنان فقال :

لو كان فوق الشمس من كرم	قوم بأولهم او مجدهم قعدوا
قوم سنان ابوهم حين تنسبهم	طابوا وطاب من الاولاد ما ولدوا
انس اذا امنوا ، جن اذا فرعوا	مرزعون بهاليل اذا جهدوا
محسدون على ما كان من نعم	لا ينزع الله منهم ماله حسدوا »

فقال عمر :
 « والله لقد احسن . وما ارى هذا المدح يصلح الا لهذا البيت من
 هاشم لقرابتهم من رسول الله ... »
 « وفقك الله يا امير المؤمنين فلم تزل موقفا »
 وكان عمر اراد ان يوائم بين رايه هذا وبين ما سلف من قريش
 في حق هذا البيت الكريم فراح يقول :
 « اتدري يا بن عباس ما منع الناس منكم ؟ »
 « لا ... يا امير المؤمنين »
 « لكنني ادري »
 « فما هو ؟ »

« كرهت قريش أن تجتمع لكم النبوة والخلافة فتجحفوا الناس جحفاً ، فنظرت لأنفسها فاخترت ، ووفقت فأصابني »
ويبدو أن ابن عباس لم يكن متهيئاً هذه الآونة للسكوت فبادر إلى الجراب الذي ظل أعواماً يكتبه في ذات نفسه ولا يفصح عنه ..
قال لابن الخطاب :

« أيما أمير المؤمنين عنى غضبه ؟ »

فأمنه عمر قائلاً :

« قل ما تشاء »

« أما قولك أن قريشاً كرهت ، فإن الله تعالى قال لقوم : « ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم ... » وأما قولك أنا كنا نجحف ، فلو جحفنا بالخلافة جحفاً بالقرابة ، ولكننا قوم أخلاقنا من خلق رسول الله الذي قال ربه فيه : « واثقك لعل خلق عظيم ... » وقال له : واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين ... وأما قولك أن قريشاً اختارت ، فإن الله تعالى يقول : وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ... وقد علمت يا أمير المؤمنين أن الله اختار من خلقه من اختار ، فلو نظرت قريش حيث نظر الله لوفقت وأصابني ! ... »

فتفكر عمر هنيهة ، ثم قال وقد آذاه بن ابن عباس هذا الحديث الصريح :

« على رسلك يا ابن عباس ! ابت قلوبكم يا بني هاشم إلا غشا في أمر قريش لا يزول ، وحقداً عليها لا يحول »

« مهلاً يا أمير المؤمنين ! ... لا تنسب قلوب بني هاشم إلى الغش فهي من قلب رسول الله الذي طهره وزكاه . وإنهم لأهل البيت الذي قال لهم الله (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً) ... وأما الحق فكيف لا يحقد من غضب شيئاً ويراه في يد غيره ؟ .. »

فغضب عمر ، وصاح وقد حضره في هذه الآونة أمر كان يكتبه :
« ما أنت يا ابن عباس ؟ ... اني قد بلغني عنك كلام أكره أن أخبرك به فتزول منزلتك عندي ... »

« وما هو يا أمير المؤمنين ؟ ... أخبرني به ، فإن بك باطلاً فمثلي

اماط الباطل عن نفسه ، وان يك حقا فان منزلتي عندك لا تزول به ... »

« بلغني أنك لا تزال تقول : أخذ هذا الأمر منا حسدا وظلما »

فلم ينكص ابن عباس . ولم يتزحزح عن مواطيء قدميه ، بل قال :

« نعم حسدا ! وفد حسد ابليس آدم فأخرجه من الجنة . ونعم ظلما !... وانك لتعلم يا أمير المؤمنين صاحب الحق من هو ... يا أمير المؤمنين ، ألم تحتج العرب على العجم بحق رسول الله ، واحتجت قريش على سائر العرب بحق رسول الله ؟ فنحن احق برسول الله من سائر قريش »

وبدرت اذ ذاك من الشيخ بإدرة ليس فيها معنى الرضا عن سلوك هذا الفتى الذى لا يعييه ان يمتلك نواصي الحديث بالحجة وقوة الجدل ، فلم ير عبد الله بدا من ترك المجلس . فلما رآه عمر قائما يريد ان يبرح ، خشى ان يكون قد اساء اليه فأسرع يقول متلطفا به :

« أيها المنصرف ! ابنى - على ماكان منك - نراع حقك »

فالتفت الفتى اليه يقول ولم يزايله جده :

« ان لى عليك يا أمير المؤمنين وعلى كل المسلمين حقا برسول الله . فمن حفظه فحق نفسه حفظ ، ومن أضاعه فحق نفسه أضاع !... »

ومضى عنه وفي اعقابه كلمات تقدير وانصاف قالها الأمير للجالسين :

« واها لابن عباس !.. واها له .. فما رآته لاحى احدا قط

الا خصمه » .

جرت السياسة العمرية على ان يظل صحاب رسول الله الاقربين حبيسي جدران الحجاز .. لم يبن الخليفة الثاني سورا ، ولم يفلق عليهم الابواب ولكن شكيمة كانت اقوى من الف سور وباب ، فوقف الصحابة حيث اراد لهم ، لا يبرحون الا باذن ولاجل موقوف ، ولا يتفرقون فيما فتح الله به على الامة الاسلامية من بلدان كلها خصوبة وخير - الذاهب اليها متعلق بها حتما ، مربوط بما تغله من ثروة ، تنادي كل ذي مطمع ان يتزود من دنياه بأوفى نصيب .. وأولئك الذين بعث بهم عمر في الافاق لم تغمض مطلقا عنهم عينه ، ولم ينأوا عن ياعه ، بل كانوا قيد بصره اليقظ النفاذ ، وكفه القوية الباطشة . وهم بعد هذا احد رجلين : زاهد في المتاع ، له من نفسه وازع يعصمه من الزلل ، لانه لا يستطيب الدنيا فلا يستطيب الاشتها . وطامح يتدفع بالحذر ولا يخطو الا بحساب لانه لا يأمن العقاب وعنف الجزاء . وكانت هذه السياسة خطة أبي بكر أيضا ، ووصاته لخليفته من بعده ترسمها وهي في ذاتها حكمة أيدتها الاحداث التي اصابته بناء الدولة الفتية في عهد لاحق بصدوع نشأت عن التهاون في الأخذ بها حيناً ، ثم باهمالها جملة ، وهي في نفس عمر لاقت صدى من شعوره الصادق وبصيرته التي طالما نفذت الى بعيد ، ولاقت هوى كذلك لانها اتفقت والمعروف عنه من الشدة وكبح الجماح فيه وفي الآخرين . وقد ظل طوال عهده تتردد في أذنيه كلمات سلفه :

« احذر هؤلاء النفر من اصحاب رسول الله ، الذين انتفخت اوداجهم وطمحت ابصارهم » .

وهو في تأثره خطي صاحبه كان يخشى ، ان تفرقت رعوس قريش في الأمصار ، ان تشتد سواعدهم ثم تسول لهم النفوس ان يستقلوا بدويلات تنتقض على أمها الحجاز . أو يركنوا الى ثرف ينسيهم خشونة الصحراء ، تنبرى به الأجساد وتهن العزائم . ولقد طالما اخذ عمر الواحد منهم بالشبهة فخلعه من ولاية كان ولاه اياه ، أو اخذه بالهنة فحرم عليه ما يملك من مال ومتاع وردده الى بيت المال ، فاما الذين

لم يستعملهم على البلاد فأولئك الذين كانوا أدنى من الآخرين الى رسول الله وارسخهم مكانة وطيب سمعة في قلوب الناس . ذلك لانهم كانوا اقرب الى السلطان لو ارادوه ونامت عنهم عين عمر .. ولكنه كان دائم اليقظة موصون الحذر حتى ليأتيه الرجل منهم يستأذنه في الخروج للجهاد فيمنعه ويقول :

« اقمداً ! .. قد كان لك في غزوك مع رسول الله ما يبلغك . وخير لك من الغزو اليوم ألا ترى الدنيا ولا تراك ! .. »

تم اشتد عمر غاية الشدة في تطبيق هذا المبدأ ، فراحت حلقة الحصار يوماً بعد يوم تضيق على هذه الفئة حتى حبسهم في نطاق مدينة الرسول .. قد كان حقاً علم بنفوسهم وأبصر بما تنطوى عليه .. لو امتد به الأجل لتكشفوا لعينيه على الشاكلة التي بدوا بها في عهد عتمان ، ولو اطاعهم لقربوا عهد الفتن والخلاف . ولكنه عصاهم غاية العصيان ، واطاع فيهم حق الدولة في النماء على حسابهم وعلى انقراض اهوائهم ، فباء منهم بالثورة التي تكتمها خشيتهم منه ، وبالسخط عليه يضمرونه وان اظهروا الرضاء عنه ، ولعله علم منهم هذا ، ولمحه فيما بدت به سحنهم أمامه فقام فيهم مرة وقال :

« ان قريشاً يريدون ان يتخذوا مال الله معونات دون عبادة . الا فاما وابن الخطاب حي فلا ! .. »

وقطع عليهم بهذه الصراحة الحاسمة كل سبيل . ثم النفث الى الوجوه المشرببة والعيون الشاخصة ، يبصر أصحابها بحكمة رايه ، ومدى ما فيه من الخير المؤجل لهم في حياتهم الآجلة ، دون ما تهوى انفسهم من الكسب المعجل في هذه الآجلة . كم بدا الرجل مارداً جباراً في تلك اللحظة ! .. شامخاً كالجبل الاشم يخز السحب ويصد الريح ، اذ يقول :

« انى قائم دون شرب الحرة ، آخذ بحلاقيم قريش وحجزها ان يتهافتوا في النار ! .. »



وكذلك - في هذه الحقبة من الزمان - عاش على المشرع الحكيم العالم دون بقية نواحيه ومزاياه . لم يتح للشباب ان يفيض على امة الاسلام بكل ما عنده ، فأطلق من لدنه هذه الطاقة التي لا يحدها قيد

من السياسة التي التزمها الخليفة الثاني . . اما على الحاكم وعلى الجندى ، فقد ظلا كالنصل لا يسئل عن قرأب . ولم يكن قيامه بالتشريع عن تكليف ، ولكنه تقدم به طواعية لا يمنعه عن الادلاء برأيه أن فاز عمر دونه بالخلافة ، ولا يوغر صدره أنه يرى حقه مسلوبا منه مباحا لغيره . فقد تعلم أن يسائر لاحداث بسجية المسالم الذي ينأى عن الفتنة ، الصاير ما كان الحيف مصيبا من ذات نفسه هو دون اصابة المجموع ، لأن خير الأمة وحده كان ديدنه وان جاء على يد سواه . .

ساهم على اذن فى الحياة العامة ، كما وسعه ، وكما لم تشل من طاقته حدود ولا قيود . وأفاء عدله وعلمه وحكمته ، كدوره فى عهد أبى بكر وعلى مدى أوسع . بل كان نصيبه من المساهمة إبان حكم عمر تنمة لما كان منه فى العهد السابق . . ثم هو ، قبل هذا ، نصيب تطلبت منه الظروف نفسها ومقتضيات الأحوال . والمتغفل فى ادراك الخليفتين الأولين وفى دنيا علمهما ، يعلم أن ابن الخطاب كان أفقر من سلفه الى علم أين أبى طالب وأشد حاجة . .

أن العدل العمرى موسوم بأنه قمة العدل ، وأن الشدة العمرية كانت دائما ضمان اقامته بين الناس . ولكن الذى لا يرقى اليه الخلاف ، هو أن الفقه العمرى - بمحصول عمر وحده - لم يكن قاعدة مكيئة غاية المكانة تقوى على احتمال هذا العدل الأمثل . وليس يطعن على المرء بأنه لم تكتمل له كل نواحيه . وليس يضير عمر فى شيء أن يكون به ضعف هنا أو ضعف هناك ، أما القوة كل القوة أن يعرف الرجل نفسه - وقد عرفها ابن الخطاب حقا - ثم يكمل نقصها بما أتبعه للآخرين . .

ولعل آفة عمر كانت دفعته ، تلك التي أوقفته دائما مواقف أنكرها من نفسه كلما فانت آونتها ، واتسع امامه مجال التفكير . . ومن كان على شاكلته تلك ، جدير به أن يلتمس له من أصحابه ومعاصريه العون الذى يحول بينه وبين عثار الاندفاع . وكان الرجل يعرف هذا الضعف فى نفسه . وقد طالما أنتى بالحكم ثم عاد فنقضه اذ يتروى ، وقد طالما دفعته الرغبة فى الاصلاح الى سن الشرعة التي يظنها كفيفة بما يريد ، فاذا بها لا تلبث أن تنقض امام شرعة اعلى جرت على لسان غيره . . أراد أن يقف بمهور النساء عند حد معلوم لا تتعداه فقال :

« لا يبلغنى ان امرأة تجاوز صداقها صداق نساء النبى الا ارتجعت ذلك منها .. »

فاذا امرأة تنبرى له تقاطعه :

« ما جعل الله ذلك يا عمر ! .. انه تعالى قال : وان آتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا ، تأخذونه بهتاناً واثماً مبيناً ؟ .. »
فعجب لنفسه كيف غابت عنه هذه الآية الكريمة كما غابت من قبلها اخت لها يوم وفاة رسول الله . ولم يستطع بعد هذا الا ان يسحب شرعته ، ويجيب صاحبة الحجة بما هو ابلغ من الاعتذار :

« كل الناس أفقه من عمر حتى ربات الحجال ! .. الا تعجبون من امام اخطأ وامراه أصابت . فاضلت امامكم ففضلته ؟ .. »

ولكننا ، مع هذا ، لا يجدر بنا ان نعجب ، لأن الخطأ والصواب متلازمان فى اعمال الانسان . ولسنا أيضا نعيبه عليه ، لأن طاقته الشخصية الآدمية اضيق من أن تتسع للكمال . ولو انه أقر ان يستبد برأيه لكان هذا منه جديرا بكل مذمة وعيب ، وان اتى رايه بالمعجز الذى لا يفد اليه ريب . ولكنه كان رجلا حرا لا يأبى الحرية لغيره ، هضم عقله الشورى - ذلك المبدأ الاسلامى أس الحكم ، وافر بحكمته وفضله . وانطلق يتزود منه ويسد به نقصه ليكون حاكما أمثل . وعجم الأعواد جميعا فنخير من بين صحب رسول الله أصلها ليتوكأ عليه ، اذ يسير طوال اعوام خلافته ..

اجل ، لم يكن له معدى عن ابن أبى طالب فى هذه الناحية وهو من عرفه علما وفقها ، وحصافة رأى . فلم ينس له ان قال رسول الله ذات يوم فيه :

« اقضاكم على » .

ولم ينس له ان محمدا بعثه على قضاء اليمن فى اواخر أيامه ، وانطلق لسانه المبارك بالدعوة المباركة له :

« اللهم اهد قلبه وثبت لسانه » .

لقد كانت هذه الدعوة خير ضامن اعلى يعدل قضائه وما يند عن شفتيه من آراء واحكام - والا فأي الدعوات اولى بأن يستجيب لها الله من دعوات نبى الله ؟ .. وحتى على نفسه زودته هذه الكلمات الطاهرة بثقة فى الوقوع على الصواب حتى لطالما كان يقول فى معرض الحديث عنها :

« ما شككت بعدها فى قضاء بين اثنين .. »

وكذلك شاء الله لهذا الشاب أن يسد نقصا فى ناحية من خصمه السياسى الثانى لم يكن يستطيع أن يسده سواه .. ولندع لابن الخطاب بيان خطر المهمة التى اضطلع بها عنه خصمه بأن نسمعه يقول كلماته البعيدة المعنى القليلة الالفاظ :

« لولا على لهلك عمر » ..

٦

« لولا على لهلك عمر » ..

هذا جماع رأى رجل يدين بمستقبله الروحى كله لآخر ، أو هكذا نطقت الفاظه . وهو مع هذا بين الرجال ذو رأى ليس بنقصه النضج ، يلم أحيانا بأطراف الالهام .

لم يكن عمر بالذى يلقى القول لأنه يجامل ، ولو جامل لأبعد عن نطاق لين الفاظه مثل ابن أبى طالب ، فان كلا خلق الخليفة وماضيه بهذا ينطقان .

ولكنه فى خلال زمان قصير من صدر خلافته علم من على ما لم يكن قد علمه أو أقر له به بعد كتمان ، فعرف له بعد تجربة أى نوع قد فى الرجال كان .. واتسع مكان الصدارة من مجلسه لذلك الذى كاد فى ذات يوم أن يشعل عليه داره ويجعله وآله للحطب طعاما ! ..

أجل قد كان يعنى القول ويعلمه حق علمه ، فقد أجنبه هذا الشاب الذى افتات مع قريش على حقه ، كثيرا من مواطن الزلل فى أمور دينه فضلا عن تسديده خطأه فى كثير من أمور دنياء .. واستطاع على فى فترة قصيرة أن يكون الرائد الأول لابن الخطاب الى الحق الأبلج كلما اشتبهت عليه الأمور وتعددت مسالك الآراء . وجلس منه بحكمته المستقاة من نبي الله فى صدارة المشيرين عليه .. بل هو قد غلب عليهم أجمعين ، وسلبهم الألسن اذا نطق وان لم يسلبهم السمع وحسن الاصغاء وأصبحوا أمامه طلاب العلم الراغبين فى التزود من نبعه ، لا ينطقون لانهم ينقصهم ان يوفوا مثله على الاحسان ، أو لانهم

يحرصون أمامه على التزام الصمت والانصات ، اذ هما طريق الصواب
كما تبينوا من قول ابن الخطاب :

« لا يفتين أحد في المسجد وعلى حاضر » .

ذلك ان الخليفة كان يتحرز لدينه ويتوقى أشد التوقى أن تأتيه
الفتيا من عويلم ، ثم لا تلبث ان تجره بخطمه الى مورد هلكة ، أو تنزل
به دفعته كما فعلت به من قبل فلا يستطيع أن يتجنب المهوى . انه
لم ينس بعد كم كان قاب قوسين من التردى في خطئ لم يكن يأمن معه
ان يسخط الله حتى اذا اوشك ان تنزلق به القدم بادر على فتلقاه .
كان ذلك ذات يوم جلس فيه عمر الى الناس بمجلس القضاء .
وتقدمت له امرأة ابى القوم الا ان يلحقوا بها الخزى .. سألهم
فأجابوه :

« يا أمير المؤمنين .. انها ولدت لستة اشهر » .

فأحرقها بنظرته الغضبي ، وارتفع بصره الملهب منها الى الوليد
الموسوم بميسم السفاح ، وارتعدت الأرض تحت قدمي الأم المتهمة
حتى ودت لو انشقت عنها ، ثم اطبقت شقيها فاستراحت من عناء
ما تلقى من هيبة الرجل ، وفي موقف كهذا اصاب امرأة حاملا من
خوف عمر ماجعلها تلقى ما في بطنها وتجهض جنينا ميتا ..
واغضى الخليفة عابسا برهة ينكت فيها الأرض بدرته ، فلما رفع
ثانية راسه ، كانت الكلمة الرهيبة التي ندت عن شفثيه :

« أرجموها ! .. »

على انه لم يكذ يلفظ آخر حروف هذا القصاص الرهيب حتى
أحس يدا على منكبيه تمسك به ، فتلفت صوب صاحبها يهمس :

« ما وراءك يا أبا الحسن ؟ »

قال له على في صوت ثبت وصين :

« يا أمير المؤمنين ، لا تفعل ! .. فلو خاصمتك المرأة يكتبك الله

لخصمتك .. »

فارتاع ، وارتد وجهه حالكا .

وراح على يتم حديثه :

« ان الله تعالى يقول : وحمله وفصاله ثلاثون شهرا . ويقول

جل قائلا : والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم
الرضاعة .. فاذا تمت المرأة الرضاعة ، وكان حمله وفصاله ثلاثين

شهرا ، كان الحمل ستة أشهر يا أمير المؤمنين » .

فخلع الخليفة سبيل المرأة في التو ، وصار هذا الحكم تشريعا باقيا على الزمان . وبمثل هذه البديهة اللماعة والذهن اليقظ كان على يهب عونه لعمر ويبصره في اكثر الاحايين بمواطن خطئه ، لا يقصر الارشاد على النواحي الفقهية التي لم يستوعبها مثله أحد من صحب رسول الله في اعلام الاسلام ، بل جرى شوطه في كل الميادين ، وادلى بآراء عقلت العقول عنها لولاه .

بعث عبد الله بن عبد الله بن غسان الى المدينة وعوس النصارى من عرب اهل الجزيرة وقد اظهره الله عليهم وارنضوا الصلح ، فلما وقفوا بين يدي عمر قال لهم :

« أدوا الجزية وانطلقوا » .

فأبوها ترفعا أن يضاموا وهم عرب مثله ، وقالوا :

« بل ابلغنا مأمننا ، فوالله لئن وضعت علينا الجزية لتدخلن ارض الروم . اتقضنا من بين العرب ؟ .. »

فأحنقه عليهم هذا الترفع بلا مزية ، وهذا التهديد بالفرار الى عدو يلتمسون عنده الملاذ ، فصاح بهم مغضبا :

« والله لتؤدن الجزية وانتم صغرة قمئة ! .. ولئن هربتم الى الروم لاكتبن فيكم ثم لأسبينكم » .

فاذا ابن ابي طالب تسارع بديهته بما يضع حدا للجدل والنقاش . . قال وهو يوجه الخطاب للخليفة :

« يا أمير المؤمنين ألم يضعف سعد بن مالك عليهم الصدقة ؟ .. »

« بلى ، قد فعل » .

واعجبته هذه اللفتة وحسن الراى فرضى بما لا كان من هؤلاء الاعراب .

ولئن ألم علم على بكل نواحي التفكير ، وفاض بآرائه السديدة في كثير من الأمور فان أبقى تلك الآراء على الدهور كان رأيه حين دعت الحاجة الى وضع التاريخ .

جاء رجل الى عمر يخاصم آخر بدين له عليه وكان معه صك مكتوب يحل به الأداء في شعبان ، فلمالقى الخليفة بصره عليه ، بادر يسأل الدائن :

« أى شعبان ؟ . امن هذه السنة ، ام التي قبلها ، ام التي بعدها ؟ .. »

فأجابه صاحب الصك ، ولكنه كان ينقصه البرهان ، فمن ذا يدري مدى الصدق فى قوله ما دامت الكتابة لم تنص صراحة على حقيقة تاريخ الأداء ..

وفى الحق لم يكن اهمال النص عن العام الذى يحدد الشهر يمكن القاء تبعته على صاحب الدين وحده ، لايه كان خطأ شائعا بين الناس اجمعين ما داموا لم يستنبطوا الوسيلة لتحديد الأعوام على وجه ثابت معلوم ، ولعل عمر وضع لعينيه اذ ذاك هذا النقص فالتفت الى صاحبه يقول :

« ضعوا للناس شيئا يعرفون فيه حلول دينهم » .
قال احدهم :

« نفعل كما تفعل الفرس : فانهم يؤرخون بملوكهم ، كلما هلك ملك
ارخوا بولاية من هو بعده » .
وقال آخر :

« تؤرخ بتاريخ الروم من زمان اسكندر » .
وقال ثالث :

« ارخوا من مولد رسول الله » .
« بل من مبعثه » .

وتضاربت هكذا الآراء ، ولم يستقر نقاشهم عند حد لولا أن جاء على بن أبى طالب من لدنه بالمعهد من الراى السديد ..
قال :

« يا امير اؤمنين .. تؤرخ من يوم هاجر رسول الله الى المدينة
من ارض الشرك ، فانه اظهر من المولد والمبعث » .
فهتف عمر مصوبا معجبا :
« لا زلت موقفا يا ابا الحسن » .

وبدأت الأعوام من تلك اللحظة بأبرز أحداث هذه الدنيا وأبلغها
اترا فى حياة البشر ، بهجرة محمد بن عبد الله سيد البشر ..



بدا الميل الى صحبة على بينا تتضح سماته كلما توالى على عمر الأيام . واخذت الجفوة فى خلق ابن الخطاب تتقلص رويدا لتحل مكانها الرقة له والاقبال عليه ، وكان الزمن قد علم الرجل خطأ ما كان من سوء ظنه بابن عم الرسول . وكلما مر الوقت تكشف له ناحية جديدة من خلق الشاب تهيب صاحبها لخير منزلة عنده ، ولأعلى مكانة بين صحبه اذا رأى الخليفة ان يتلقاهم جميعا بالمفاضلة ، ويعجم اعداؤهم عودا هودا . ولم يكن فضل على خفيا من قبل على كثيرين ، ولكن الحالة النفسية التى اعتورت عمر بعد البيعة لأبى بكر كانت حرة بأن تتركه نادر الرضا على أى منافس غريم ..!

على ان يد الزمان الآسية إبراته من الماضى !.. كذلك تغيرت نفسه ، وطاب قلبا لبنى هاشم ، وان طالعه من قومه الحقد عليهم . فلم تكن عينه لتخفى عليها خافية النفس التى تمت اليها نفسه ، وكانت كاحداها ، تشعر بشعورها ، وتنطوى مثلها على ما انطوت فى الغابر عليه ، ولكنه نفض عنه ماضيه ، ولم يعد يبصره الى الوراء بعد ان تفتحت امامه آفاق وآفاق من نفس فتى بنى هاشم السيد المحسود ! ... وظهر منه الوثوق فى على والركون اليه يتبعه الاقبال على اهل بيته حتى لم ير فى جمع الا صدره ابن أبى طالب ، ولا فى خلوة الا كان ثابته فيها ابن عباس . ولعله لقي عند هذا الفتى الصغير صفاء لم يشبه ما سبق هو اليه من حيف على حق ابن عمه ولم يؤثر الرير فيه فاتخذه نجيا ، والقى دائما اليه بما يخفى صدره ، وكان ينأى به عن أسمع غيره ... حتى ملابسات هذا الحدث التاريخى الذى أوقع بين الخليفة الثانى وبين الأسرة الهاشمية حاجزا من النفور لم تعد سرا يكتمه عمر عن عبد الله ...

فى خلوة جمعت الأمير والنجى اقبل عمر على صاحبه الصغير يقول :

« يا عبد الله ... ما تقول فى منع قومكم منكم ؟ ... »

قال ابن عباس ، وان علم خلاصة الاسباب قبل ان يسمع الجواب :

« لا اعلم يا امير المؤمنين » .

فاطرق عمر هنيهة يفكر ثم قال :

« اللهم اغفر ! .. ان قومكم كرهوا ان تجتمع لكم النبوة والخلافة

فتذهبون فى السماء بذخا وشمخا ... »

وتريث عن الكلام . ولم يكن هذا على اذن عبد الله بجديد ، ولكن

الجديد حقا ، والسر الذى لم يكشف عمر عنه الغطاء قبل يومه ، هو

ما ذكره وهو يتم الحديث ويقول :

« لعلكم تقولون ان ابا بكر اراد الامرة عليكم وهضمكم - كلا ، ..

ولكنه حضره امر لم يكن عنده احزم له مما فعل ، ولولا رأى ابي بكر

فى عند موته لاعاد امركم اليكم . ولو فعل ما هناك مع قومكم .. »

ثم هز الرجل راسه كالأسف واردف :

« انهم لينظرون اليكم نظر الثور الى جازره يا عبد الله ! .. »

وقد أصاب التشبيه حق اصابة واصاب به حقيقة القوم ! اما الذى

جرى على لسانه معا هم ان يفعله الشيخ سالفه ، فانه ذهب مع قلب

ابى بكر سرا طواه لحده .. ولكن البين مما طالعنا به صحائف الحقبة

التي تلت وفاة رسول الله هو ان خليفته استقال الناس بيعتهم وكاد

ان يخلعها عن عنقه . ولو انه فعل اذ ذاك لارتد الى صاحبه الحق ،

ولجرت الخلافة مجراها الطبيعى فى دوحة الرسول . ولكن الاحداث

المتلاحقة وفتنة المرتدين ومانعى الزكاة وقفت حائلا دون رغبته ، فلما

ان حجاب هذه القمة التي امتحنت الاسلام فى مستهل حياته بافسى

محنة ، ولم يعد الشيخ - على الأرجح - قادرا على ان يحمل قريشا

الشائنة على النزول عن رايه الحبيس فى نفسه .. او هو خشى

- كالمفهوم من كلمات عمر - ان هو طالعها بهذا الرأى ان تجار بالخلاف

له تتبعه الفتنة والثورة عليه ما دامت تراه بهم ان يسلم اعناقها الى

سكين الجازر ! ..

هذه ناحية ظلت خافية فى نفس عمر ، لم يكشف عنها الا حين

تبين له الخافى من قلب على ، فاذا غضبه القديم يتوارى ، واذا شدته

تنقشع ، واذا تأويله الخاطيء للأسباب التي دعت ابن ابي طالب الى

السعى لمنافسة ابي بكر تبدو على حقيقتها النقبة فيعلم منها عمر

كم اخطأ من قبل فى حق الشاب .. وأصبح كلما انطوت من الزمن

ايام يجد نفسه مندفعاً الى هذا المشر الامين مقبلا عليه وعلى اهله

المظلومين واياه ، حتى لقد صار لهم العطوف الودود وصاروا له خير
اعوان . وفى كلا تقاوة قلب على ورجاحة عقله ، وجد ثانى الخلفاء
فيثا يظلل حبه له ، ويستمد منه بعض ما نقصه من نواحي القوة فى
العلم والتشريع . وربطت بين الرجلين رابطة وثيقة العرى اساسها
التقدير ، ودافعها اخلاص كليهما للواجب الموكل اليه ، وشدة حرصه
على الخير العام . ولكن عمر ظل ابدا يطوى فى قلبه املا عز على ماضيه
ان يهبه التوفيق فى اجتناء ثمرته . . انه حقا بلغ فى قومه الذروة
سلطانا وسطوة ، وخلف عليهم فى مكان تبواه منهم - الى قليل -
رسول الله وخير خلقه ، وبلغت هيئته من نفوس الناس ان خفض
اكابرهم الصوت فى مجالسه ، هو ابن الخطاب الذى قل
عمر بن العاص ذات يوم فيه :

« لعن الله زمانا صرت فيه عاملا لعمر ! . . والله لقد رايت وابه ،
على كل واحد منهما عباءة قطوانية ! تجاوز ما بضع ركبته ، وعلى عنقه
حزمة حطب ! . . ورايت العاص بن وائل فى مزررات الديباج . . »
بلغ السلطان والسطوة والهيبة ودانت له رقاع ممدودة من الأمصار
لا يبعد اقصاها عن طرف درته لو انه شاء ! . . ولكنه ، مع ذلك كان
مجدا دون المجد المأمول . فهو ان زهدت نفسه فى الكثير والقليل من
نشب الحياة لم يكن بمستطيع ان يقهرها على الزهادة فى مجد جدير
بان يجهد فى نواله وان يركب اليه الف سبيل وسبيل ! . .

فى حياته كلها لم يخفق قلبه كخفقه لمحمد . لو استطاع ان يموت
دونه لما احجم ، بل لعل اقصى ما مر به من لحظات الحياة تلك
التي تبين فيها ان محمدا فارقه الى جوار ربه ، فعر لقاءه الا فى غير
هذه الدار . . وفى حياته كلها لم ينعم بأمل احلى من ان يرتبط الى
محمد بأقوى رباط . وقد اسعده ان يزف حفصة اليه ، ولكن سعادته
كانت اخرى بان تكون اضعافا لو وفقه الله فجعل له عقبا من احدى
بنات رسول الله . . اما وقد حال بينه وبين فاطمة ان ادخرها محمد
لصفية وابن عمه : على ، فان الامل العذب بقى مع الزمن فى قلبه
لا يبلى . .

ولعله اليوم رأى ان اجتناء الثمرة جد قريب وهو يسير الى على ،
فلم يعد يفصل بينهما خلاف ، ولم تبق لمة وسيلة يقترب بها منه
ويتحجب اليه الا عالجها ، ثم هو قد رأى فى الشاب خير خدين

وخير ناصح أمين ، فاذا استطاع ان يصاهره ، فقد قضى على البقية
الباقية من غضب آل هاشم بسبب موقفه القديم منهم ، وأصاب المجد
الذى تهفو اليه مطامح النفوس ، وتهفو زهادتها على سواء ..

وكذلك اقبل على صاحبه يقول :

« ذكرت اليك أم كلثوم يا أبا الحسن » .

فتلفت على نحوه برهة ولم يجبه لتوه . قد كان فى خاطر الأب
امر جعله لا يبادره بالجواب .

ولكن عمر لم يقعه الصمت عن طلب الرضا عما جاء فيه . فأعاد
عليه الحديث ، فقال له على فى تردد وحياء :

« يا أمير المؤمنين .. انها صبية » .

فلم يقنعه هذا بل سارع يقول :

« انك والله ما بك ذلك .. ولكن قد علمنا ما بك » .

فابتسم على ولم ير بدا من مجاهرته بما كان يخفيه :

« انما حبست بناتى على بنى جعفر .. » .

ذلك انه كان يحب بنى أخيه حبه ولده ، ويؤثرهم بكل خير فلما
راى عمر ما كاد ان يعزم على عليه امره ، خشى أن يفوته اليوم ما فاته
يوم تقدم لرسول الله فراح يتألفه ويحاول أن يفوز برضاه .

قال وهو يصور له حاجته اليها وقد جرى العرف قبل هذه
الخطبة ان يصور الرجل حاجة المرأة اليه :

« أتكنيها يا على ، فوالله ما على ظهر الأرض رجل يرصد من

حسن صحابتها ما أرصد ؟ » .

فأطرق على وغلب فى هذه الآونة عليه طبعه الحى وسجيته
المجبولة على الا ترد حاجة أو طلبا .. وبانت فى عينيه الموافقة التى
جهد لها عمر ، فامتلا بالفرحة قلبه . وانطلق سن لدنه الى مجلس
ضحبه بالمسجد يسبقه بشره ثم لا يكاد أن يستقر به المقام بينهم حتى
يهتف :

« رفثونى .. رفثونى ! .. »

قالوا له يسألون :

« بمن يا أمير المؤمنين ؟ .. »

« بابنة على بن أبى طالب » .

فأقبلوا عليه جميعا يهنئونه وراح هو فى غمرة فرحه بتحقيق مبتغاه يقول :

« ان النبى قال : كل نسب وسبب منقطع يوم القيامة الا نسبى وسببى .. وكنت قد صحبته فاحببت ان يكون لى هذا ايضا » .
وكان له ما اراد من اللحاق بنسب رسول الله . فلم يكد يعود الى منزله حتى كان على قد امر ببرد فطواه وقال للصبية :

« انطلقى بهذا الى أمير المؤمنين فقولى : ارسلنى ابى يقرئك السلام ويقول ان رضيت البرد فأمسكه ، وان سخطته برده .. »
وسارت ام كلثوم كما امرها ابوها وهى لا تدرى المعنى الخفى فى رسالته .

واستأذنت فاذن لها ، فادخلت الى الخليفة والقت امامه بالكلمات التى لقنتها :

وقال لها عمر :

« بارك الله فيك وفى أبيك .. قد رصينا » .

فعادت من حيث أتت حتى اذا سألها ابوها سارعت تجيبه وقد غلبتها الدهشة :

« ما نشر البرد يا أبت ، ولا نظر الا الى ! .. »

فتبسم لها ضاحكا ، وراح يعد لها ما يهيئها لحياتها الجديدة .

٨

حق لقريش بهذا الزواج ان تتهيب موقفها .. فى خواطرها تجسم خطر بنى هاشم ثانية وفى أخلادها جرت ظنونها بعودة ما حسبته غاب عن حياتها فى قرار سحيق . وقد كان أولى بالاتساق مع تفكيرها ان ترى ان نجم على أخذ فى الاستعلاء بأفق السياسة من جديد ، وأن السحائب التى ظللته طوال الأعوام السالفة ليس تبديدها بعضى على اصابع ام كلثوم . ولئن برز ابوها فى الجامع بعلمه ، وسبق اكابر رجالها بأشواط ، فحوى بالنسب الجديد ان يوطد قدمه ، ويدفع بغيره من الطامعين فى الخلافة بعد عمر الى ما وراء الصفوف .

ولكنها فى الحق ظنون استحدثها الوهم ، وخواطر اوحى بها غاية
الغايات التى استهدفتها القوم . . . وقديما قر فى نفوس قريش على
بنى هاشم شىء ما زالت تجرص جاهدة على ان يثبت فى اخلادها
ثبوت الاطواد ، وان تظاهر غايتها منه بكل سلاح وان كان سلاح
الخيالات والظنون .

هذه مخاوف لا يحسن امرؤ ان قد برئت منها نفوس الاكثرين
من اولئك الرهط فى ذلك الحين ، وهم عند الاعذار ليسوا على اى حال
بمعلومات . فكلهم رجل اعماه الحقد حتى ليتسمع دبيب النملة فى
الغاب الملىء بالمجيج والزئير ، او يتصيد الحبة ثم يبرزها قبة ليشبع
رغبته من التحوط والاحتراز . . . او رجل آخر غرير ليس بالنافذ
العين فى اغوار الناس قد استغلقت عليه نفس بنت ابنى طالب ونفس
زوجها ابن الخطاب . . . وكلا هذين الصنفين من الرجال سيطر على
اذهانهم نبأ قديم سرى بعيد وفاة رسول الله على الألسن ليسوا اليوم
يخشونه لذاته ، فقد جاءت وقائعه لهم بالخير ، وانما يخشون ان يعود
آخر مثله الى الظهور بعد حين ، مؤذنا بزوال غايتهم المرتجاة . .
فنتائج الاحداث تعرف بقياسها على السوابق من الاشياء .

قد كانت قريش جد آمنة على غايتها التى ٧ تعود دون الابتعاد
بسلطانها عن اليد الهاشمية لولا ان بدا ذلك النبأ القديم يحلق ثانية
فوق الرؤوس ، ويمد خطمه من الماضى صارخا بما تستطيع امرأة ان
تفعله فى تشكيل مصير امة وفى اقرار أداة حاكمة عليها دون أداة .
ولم يكن خافيا اذ ذاك مدى سلطان عائشة فى بيت محمد ولا قربها
من قلبه حتى ليزعم البعض - او يحمدون لها - انها فى فترة مرضه
الاخيرة بذلت وسعها ليمرض فى بيتها دون بيت ابنته ، ثم بذلت
وسعها لتسير الاحداث من بعد على النسق المأمول . فلقد كاد ان يغيب
عن المدينة ابو بكر فى طريقه مع جيش اسامة الى الشام لولا ان لحقهم
رسول بالجرف يحمل نبأ اشتداد وطأة المرض على محمد ، ولم تكن
عائشة وحدها صاحبة الامر بانفاذ ذلك الرسول ليستعيد شيخ بنى
تيم وصاحبه عمر ، وانما جرى الخبر بأن الرجل كان رسولا من لدن
نساء النبى بغير تحديد ، وهن على اى الحالات صورة مكررة للمرأة ! .
وبلغت الوعكة برسول الله بعد هذا غايتها ، فتلقت فيمن حضره

وقال :

« ابعثوا الى على فادعوه .. »

قالت عائشة :

« يا رسول الله ، لو بعثت الى ابي بكر .. »

وسمعت حفصة فسارعت هي الأخرى تقول :

« .. لو بعثت الى عمر .. »

ووقف الرجال الثلاثة بين يديه بعد قليل فأجال فيهم بصره ، ولم يلق اليهم بما عساه كان يريد الادلاء به الى واحد منهم دون صاحبيه وانما اشار لهم وقال :

« انصرفوا .. فان تك لي حاجة ابعث اليكم » .

وانتهى الأجل ..

ذاك كان النبأ الذى حلق فوق رءوس قريش بعد أن بنى عمر ابن الخطاب بأم كلثوم ، وانه لنبا يحمل فى طياته ما تستوعبه عين عابرة وان انطوى على كثير من الخطر لدى الذين يشاءون التأويل . فلقد حالت كلمة امرأة دون غاية لعلها اوشكت ان تكون وانجبت غاية كانت بعيدة حتى ذلك اليوم عن الأخلاق والظنون . ولمن ابنى أن يقر هذا المنحى من التفكير ان يرسم فى خياله صفحات التاريخ على نسقها المنتظر لولا رسول نساء النبى ثم لولا الحيلولة فى اللحظات الأخيرة بين محمد وبين على .

جرى هذا فى خاطر قريش حين دخلت ام كلثوم بيت عمر ، وتهيبوا أن تقع مثله عند ما يازف الوقت ، ويدعو داعى الموت امير المؤمنين للاستخلاف . ولئن لم تستطع عائشة من قبل أن تعمل بطريقة فعالة على أن يخلف زوجها أبوها ، ووقف بها دورها عند حد معلوم ، ففتاة بنى هاشم اذن طريقها معبد الى الهدف الذى ظنوها ترجوه ، ليس يحده حد ما دمننا نعلم البون الشاسع بين شخصيتى الزوجين كليهما أمام امراته ، ونعلم لأولهما طبيعة بشرى يحوطها عن النزوات سياج من عند الله ، والثانى نفسا تميل مع الهوى ما وقعت فى يد امرأة تحكم التدبير وتجيد التأثير .

ومع ذلك فان أولئك الذين تهيبوا الموقف كانوا حقا يسرون فى ركاب الخيال . فلم تكن ام كلثوم سوى طفلة غير ذات دهاء ولم يكن عمر سوى امرئ خشن لا تغلبه مراوغات النساء ، وفى حياته كلها كان أقرب الى البغيض اليهن منه الى العنيف المرهوب ، حتى

ليعد عليه انه فارق من تزوج بهن فى الجاهلية وطلق الكثيرات بعد الاسلام .. وكانت النسوة المسلمات - على الاطلاق - ان لم يكرهنه - يرهبنه ، والاثر بهذا بين ؛ حين دخل ذات يوم على رسول الله وعنده نسوة يلغظن بالحديث ، ففررن لدى دخوله وتركن له المكان .. وساءه منهن هذا الفرار فصاح :

« يا عدوات أنفسهن .. اتبهننى ولا تهبن رسول الله ؟ »
فلم يفت النسوة ان يتارن منه فجاءه على السننهن الطويلة
الجواب خشنا بلا مواربة ولا اخفاء :

« نعم .. انت اغلظ وافظ ! .. »
واللائى عرفنه من النساء وطمع هو فى ان يسكن اليهن بالزواج ،
ابين عليه لم يشفع له لديهن سلطانه ولا ائتمار ائتى الرجال واقواهم
جاها وسطوة بأمره . وحسبك ان تطوف بمجلس عمر لتعرف كيف
كانت هيبة الرجل حتى فى قلوب من كانوا من قبل يبزونه نفوذا ،
وما زالوا يعلنونه بالحسب العريض .. ولعلك ملاق هناك أبا سفيان
ابن حرب كبير قريش جالسا خافض الراس لا ينبس وابنه اللصيق
به زياد قد تحدث وهو بعد غلام ، فأحسن الكلام ، حتى أبدى على
اعجابه فقال :

« لله هذا الغلام ! .. لو كان قرشيا لساق العرب بعصاه .
ويتلفت أبو سفيان بحذر ، حتى اذا أمن عين عمر قال هامسا :
« أما والله يا أبا الحسن لو عرفت أباه لعرفت أنه من خير أهلك »
وكان نسب زياد مجهولا فى ذلك الحين فقال على :

« ومن أبوه ؟ »

« أنا .. وضعته والله فى رحم أمه ! »

« فما يملكك من استلحاقه ؟ »

فنظر الشيخ صوب عمر ، وقال بصوت لا تكاد تلتقطه اذن جاره :
« اخاف هذا العير الجالس ان يخرق على اهأبى ! .. »

.. فاعجب اذن لهذا السلطان المستطيل كيف لا يستهوى المرأة ..

وكيف - وقد حاد عن هواها أو حادت بهواها عنه - تعصيه
ولا تخشاه ، لأن لها على نفسها السلطان الذى لا يصل اليه سلطانه ،

ولاتها وزنته - بطبيعة المسلمة - حاكما فأكبرته ، فلما وزنته - بطبيعة المرأة - زوجها ، أبته وانكرته ..

ارسل ذات يوم من لدنه رسولا الى ام ابان بنت عتبة بن ربيعة يخطبها له ، فكرهت لنفسها المقام عنده زوجة وردت رسوله وهى تقول :

« كلا ! انه ليخلق بابيه ، ويمنع خيره ، ويدخل عابسا ويخرج

عابسا .. »

وكذلك فعلت ام كلثوم بنت أبى بكر حين خطبها وقالت :

« لا حاجة لى فيه .. »

قالت لها عائشة وهى تعجب :

« ترغبين عن امير المؤمنين ؟ »

« نعم . انه خشن العيش ، شديد على النساء » .

وان رجلا هذا نحوه لعصى على امرأة ان تقوده او تسدد خطوه الى هدف شاءته ، لان طبعه كفيل بأن يضع كثيرا من الحوائل بينه كرجل وبين امراته كزوجة .. ناهيك عن عراقيل السياسة ذات الدروب الملتوية التى تضل فيها النسوة الدهاة فضلا عن الفتاة .. ثم دعنا نسال - وان بلغ رضاء عمر على بنى هاشم وملاينته لهم الشاو والذروة خلال عهده - ان كان قد استطاع ان يخلع عنه قرشيته فلا يكون على سجية قريش ، ولنا بعد هذا ان نقرأ الجواب فى وصية ابن الخطاب .



عندما اقبل كعب الاحبار بلقى الى عمر بمكنون علمه ، لم يبد على اليهودى القديم الا كمسحة القموض على اسارير منبىء بالغيب ولم يبد على امير المؤمنين الا الريب ..

قال له كعب الاحبار :

« يا امير المؤمنين اعهد .. »

فبانت البقعة فى عيني عمر وبان الاتكار وهو يهتف بالرجل :

« اعهد .. »

« نعم فانك ميت بعد ثلاث » .

« وما يدريك ؟ »

« أجده في كتاب الله : التوراة » .

فضحك عمر ضحكة كشفت عن بهخره وريبه في نبوءة صاحبه
وفى علمه وقال بلا اكتراث :

« انك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ! »

« اللهم لا . ولكنى أجد صفتك وجليتك » .

ولم يلق الأمير بعد هذا بالا الى الحديث . ولم يعن في الحين بأن
يتثبت من صدق هذا اليهودي القديم ، وتأوله على السفر القديم
أو زعمه النطق بما جاء فيه . ومضى لثأته من الفراغ لشئون الدولة
وشئون المسلمين ، قويا موفور الصحة كعهده ، لا يكاد ان يتوقع له
احد قرب حينه .

ومع ذلك فقد كانت في الأفق سحابة لم تخف عن عين عمر ، وكان
جديرا به غب هذا الحديث ان يخشاها . . ولكنه كان رجلا قويم
الايمان ، شديد الوثوق في الله ، راسخ اليقين في ان المجهول الذي
سوف يصيبه لا بد سيصيبه ، فاذا بدا له من وراء هذه السحابة
الدكناء التي تظل رأسه وجه ابى لؤلؤة فيروز ، فقد أمن اذن الشر ،
ما دام عدله المشهور وسع كل الناس وأرضاهم وان اسخط بالأمس
- في لحظة غضب وتذمر - هذا الغلام المجوسى المتبرم بما وضع عليه
من خراج .

على ان هناك امرا كان اولى بالتطير وخوف انصير الفاجع لو انه
سمع بنبوءة كعب الاحبار . ذلك كان عبد الرحمن بن أبى بكر وقد مر
ليلة اليوم الذى طعن فيه عمر بالهرمزان وفيروز وجفينة غلام سعد
ابن أبى وقاص حتى اذا قاربهم ، رأى خنجرا له رأسان نصابه في
وسطه ، يسقط منهم . ولم يكن الامر اذ ذاك مما يثير ظنة الا ان كان
في اجتماع ثلاثة نفر من الأعجام بمنحى ما يبعث الشكوك . ولكن
الليلة لم يطلع لها صباح حتى كان أمير المؤمنين موسدا بفراشه ،
بعد ان أصابته جراح قاتلة من خنجر نصابه في وسطه وله رأسان . .
لم يكن عبد الرحمن قد سمع بنبوءة كعب الاحبار حتى يتحوط
للحدث قبل وقوعه ، فلما دهم الرزء سار يشكه الى عبيد الله بن عمر ،
وقد كان حريا بعبيد الله أن بغضب لأبيه ، وأن يبلغ الشك عنده

يقينا ، وان ينقلب موجدة على أولئك النفر الذين حومت حولهم الشبهة . وزاد من لصوقها بهم - فى وهمه - انهم أمير فارسى سابق اعتنق الاسلام ورأسه تحت حد السيف ، ومملوك مجوسى نقم من عمر ابقاء خراجة باهظا ولم يرفعه ، وغلام آخر اجنبى يدين بالمسيحية جىء به أسيرا من الحيرة ، وكل الثلاثة لعل قلوبهم لم تخل من حقد على الرجل الذى داست جيوشه بلادهم واوطأتها العبودية .

ثم هلا كان أولى بأن يكون الأمر كله اقرب الى المكيدة المدبرة لو نظرنا بعين التشكك - كما نظر عمر - الى حديث كعب الاحبار المزعوم عن ورود نبا المصرع الوشيك فى التوراة ؟ . هذه ريب تمينة ان تلصق بالرجال الاربعة جميعا ثم قد تدع رابعهم عارفا بالحادث قبل وقوعه ، فمحاولا ان يلبس به ثوب العليم بالغيب النافذ البصيرة الى اطواء المجهول ، عسى ان يستطيع نفوذا الى بعض النفوذ ، ويكون له من ورائه عليها سلطان ! .

ولقد غالب عبيد الله بن عمر ما فى نفسه اياما ، فلما قضى ابوه ، مضى مشهور السيف يجذ الرقاب . . قتل ابنة فيروز بعد ان سبقه غيره الى صرع القاتل ، وقتل جفنة والهرمزان فكان هكذا موتورا ركب غاية الشطط فى الاخذ بشأه . لأن الظنة وحدها تدرا الحد ولا تدعو اليه ، ولأن البيئات على جرم أولئك النفر كانت معدومة .

اما كعب الاحبار فقد بقى معافي لم يمسه شر ، بل لقد بلغ مكان الصدارة فى مجلس الخليفة التالى او كاد ، لا ينساه فى مشورة . . واما ابن عمر فقد أمسك ليرى فيه أمير المؤمنين الجديد أمره ، ثم لم يعد قضاؤه فيه ان أطلقه ولم يأخذه بدم احد ضحاياه تلوما من قتله ظلما بعد مصرع أبيه مظلوما . . والذين يلتمسون المعاذير لصاحب هذا الحكم ، قد يأتون منها بالاحاد او بالعشرات ثم يعوزهم بعد هذا أن يروه قضى بسرعة الانصاف !

وهكذا بدا عثمان بن عفان عهده بالتحيز لان طيبة قلبه غلبت على الاعتصام بالعدل المفروض في الامام . . هذه الطيبة التى كانت دائما آفته وما زالت تستشرى كلما تقدمت به السن فتميل به رويدا عن جادة الحق حتى أوردته حتفه .

وحمل ابن الخطاب وهو ينزف من المسجد ولما يبدأ صلاته بالناس .
وكان واهن القوة لكثرة ما سال من جراحه الستة من دماء . ووسدوه
فرشه وهو ينوء وقد تجمعوا لديه ذاهلين . أما هو فقد استطاع ان
يجيل بصره فيهم آونة حتى يقع على خير بنيه فيقول له :

« يا عبد الله بن عمر .. اخرج فانظر من قتلنى » .

وكان الناس فى المسجد قد اسروا القاتل بعد أن اصاب منهم
قتلى واثخن الجراح ، وحملتهم ثورة غضبهم لخليفتهم وحرمة بيت الله
أن يقضوا سراحا على العبد الزنيم .
وعاد عبد الله يقول لأبيه :

« يا أمير المؤمنين .. قتلك أبو ثلوة غلام المغيرة بن شعبة » .
فرفع ابن الخطاب عينيه الى السماء وقال وقد لاحت على وجهه
علائم الرضا والاطمئنان :

« الحمد لله الذى لم يجعل منيتى بيد رجل سجد لله سجدة
واحدة » .

ذلك أنه كان يخشى أن يوسم باتيان ما قد يقتله به مسلم هداة
الاسلام فعرف حده وعرف حقه وحق ربه على أميره ، أما وقد علم
أن المصرع جاءه على يد أبى كافر فهنا الرضا عن نفسه ، والتسليم
بعده للموت قرير العين مرتاح الضمير ..

ولم يبق له غيب هذا الا أن يخنار الجوار الذى لا بد لائده به بعد
قليل ، وأن يطمئن على مثوى جسده بعد أن طابت نفسه بمصير
روحه الموكول برحمة الله : وكما كانت غايته إبان الحياة أن يلوذ بنسب
من الرسول الكريم يشرف قدره ، فكذلك كانت غايته وهو بهم أن
يستدير الدنيا ويستقبل نصيبه من التراب ، فليس أشهى اليه فى
كليهما ، ولا أحب الى قلبه من جوار رسول الله بالصهر وفى القبر ..
ونادى عمر ابنه ثانية :

« يا عبد الله .. »

« لبيك ! »

« اذهب الى عائشة فسلها أن تدفن مع رسول الله .. »

١٠

« لولا رأى أبى بكر فى عند مونه لاعاد امركم اليكم .. »
يا ترى قد ذكرها عمر اليوم وهو يحس الموت يزحف اليه من
خلال جراحه ؟ ..

ما كان حريا بالرجل ان ينساها لحظة واحدة ، وخاصة وقد وقف
الآن الموقف الذى يجب عليه فيه الاستخلاف . وما كان له ان ينساها
وقد سمعه من صاحبه قبله ، ثم اسمعها في ذات يوم ابن عباس .
وما كان له فوق هذا وذاك ان يغيب عن ذهنه قدر على وصفته ،
وقد بدا له - من بين صحبه المتجمعين حول فراش موته - وجهه
وسمته .. ذاك ان لم يجد فى قرابة ابن عم رسول الله موجبا للتقديم
بغير ما يوجب التقديم .

ولكنه سمع واسمع ، ثم رأى مع هذا ان يأتى بخلاف ما اقر به
من قبل ، وان يدع الظلم - الذى وسم به قريشا اذ نحت ابن أبى طالب
عن خلافة رسول الله - فى مكانه حيث كان ، لم يمحه ، ولم يبدل منه
لانه ظل حتى الموت قرشيا من غلاة القرشيين بعير كثير تبديل . ولم
اعتذر للرجل بأنه خشى - ان هو أوصى بعلى - ان تنتقض قريش
وتأباه ، فعنده اذن الجواب بأنها قبلت كارهة من أبى بكر ان يوصى
لعمر ، ولم تنقلب عليه ولها العذر الحاضر للانقلاب مرشدة ابن الخطاب ،
ومن بيته بين ييوتها اذا هى وزنته بميزان الاحساب ! ..
قيل له وهو مهيض :

« يا أمير المؤمنين .. لو استخلفت » .

فتفكر مليا فى الامر ثم اجاب كأنما يشاور نفسه :

« ان استخلف فقد استخلف من هو خير منى ، وان اترك فقد

ترك من هو خير منه .. »

ثم التفت الى محدثه ، ولمن حضره من الصحاب . وقال بنبرة
الأسف :

« لو كان أبو عبدة حيا لاستخلفته ، وقلت لربى لو سألنى :

سمعت نبيك يقول انه أمين هذه الامة .. ولو كان سالم مولى

ابى حذيفة حيا استخلفته وقلت لربى لو سألنى : سمعت نبيك يقول
ان سالما شديد الحب لله . . »

فهلا ذكر اذن - فى هذا المقام - قليلا من الكثير الذى قيل فى
ابن ابى طالب على لسان رسول الله ؟

انه بلا ريب ذكره وذكر معه كل ما حدث به من قبل ابن عباس ،
ثم ذكر الى هذا وذاك قدر على - لا كما جرت به سيرته على شفاه
محبيه ، بل كما علمه هو وخبره وقدره القدر الذى يعطو به على الآخرين
ولكنه ايضا ذكر السياسة العليا التى استنتها لنفسها قريش ، وكان
اما مترسما لها برغبته اذ يراها الصواب ، واما دفع مستكرها الى
ترسمها فعدها - فى كلا الحالين - التوفيق ، ولم يلتزم النهج الاقوم .

وتقدم المغيرة بن شعبه اليه يهمس :

« اشير يا امير المؤمنين ؟ » .

« أسرع » .

« ول عبد الله بن عمر » .

فرمى اليه مسرعا بنظرة كالشهاب وصاح فيه :

« قاتلك الله ! والله ما الله اردت بهذا الامر . اتشير على برجل عجز

عن طلاق امرأته ؟ . . »

وتلفت الى الحضور يستاتف خطابه :

« لا ارب لعمر فى خلافتكم . ما حمدتها فارغب فيها لاحد من اهل

بيتى ، ان تك خيرا فقد اصبنا منه ، وان تك شرا يصرف عنا ، وحسب

آل عمر ان يحاسب منهم واحد ، لا ها الله ! . . »

وكان الجهد قد اصاب منه فوهن واغمض عينيه ، ولم ير الناس

بدا من التفرق عنه لساعة صحو - فتركوه .

الا منذ ايدرى كيف مرت بعد هذا به اللحظات ؟ ، لا ريب لم تطرف
عين خياله لحظة واحدة عن التجول خلال أمتة ، وعن استكناه شأنها ،
وعن تصور الأحداث كلها التى مرت به حتى الخنجر . . وهو قد كان
جديرا بأن يستشعر الرضا عن أعماله وجهوده لرفع هامة الاسلام .

ولكنه الى ذلك كان جديرا بأن يرهب المستقبل على أمة محمد من بعده
فانى لغيره أن يسوس الدولة الناشئة ويرعاها ، كأنما يمسك الناس
فيها بزمام ؟...

طبيعى أن يمر كل هذا وكثير غيره بخاطر عمر ، وأن يراوده أبان
الساعات القلائل التى فصلت بينه وبين حفرة . وأن يعاوده أمره
مرات فى يقظته هما وفى غيبته حلما .. والمسؤول بنىء لا تنام
عنه عينه ولا واعيته ، ويظل دواما عالقا به حتى يقضى . وكانت الفيرة
العمرية على شأن أمة الاسلام أرهف الحواس عند ابن الخطاب ،
وكانت هى رائده فيما صدر عنه من أعمال حتى تلك التى لم يجنبه
شططا ، وأنتك لتستطيع دائما أن تجد عذره حاضرا أمامك لو أحصيت
عليه أخطاءه القليلة ، لأنك أن رددتها الى أصولها يدت لك غيرته على
مستقبل بلده من وراء كل أصل . ولبس موقفه من بنى هاشم حين
تأمر أبى بكر ببعيد عن الأذهان .

ولقد ظلت هذه الفيرة - المحموده اذ تظاهر هدفا عاما - تنمو
فى نفسه مع الأيام وتزيد شدة ، لا يهدىء من تأجج نارها تقدم
سنه ، يل يرفع لهبا ويسمره قوة شعوره بواجبه ، وأنه كان مع
نفسه عسير الحساب . وما من رجل يمكن أن يقال فيه قد فتر
حماسه لتسويد أمته وهو القائل ، كما قال ابن الخطاب :
« والذى بعث محمدا بالحق . لو أن جملا هلك ضياعا بشط الفرات
خشيت أن أسأل عنه » .

رجل هذا منطقته : وهذه غيرته على الأنعام ليس بعجيب منه
أن يقول فى شأن الدولة أنتى أظلمها حكمه :

« لئن عشت لأسيرن فى الرعية حولا ، فانى اعلم أن للناس حوائج
تقطع دونى . أما عمالهم فلا يرفعونها الى ، وأما هم فلا يصلون الى .. »
ولكنه لم يعش ليفعل ما أراد ويقسم العام سواسية بين أقطار
الدولة ليرى شئونها بنفسه ، وحيل بمنيته دون أمنيته . وأنه
اليوم وهو طعين مهيض تنزف الحياة من ثقب جراحه مع دمه المسفوك
لأشد غيرة على الرعية من قبل لأنه أشد شعورا بمسئوليته أمام الله ،
والقبر موشك أن يفغر فاه . وأحسبه أبدى وأعاد ثم أبدى وأعاد
فى خاطره اسم الامام المرجو من بعده . وفى حياته كانت له عين
فاحصة وبصيرة نفاذة علم بهما أى الأعواد أقوى وأشد صلابة من بين

اولئك الذين تركوه منذ قليل . ولكن نفسه فيما يبدو ، كانت نهبا ،
تتنازعها عواطف وعوامل شتى تعيى بها نفس سليم صحيح . تأرجحت
به الى يمين تارة ، ثم الى اليسار اخرى ، ثم تكرر الجذب مرارا بين
هذا وذاك ، وهو بينها كالقارب يتداوله اصطفاق الموج .
ودخل عليه الناس وقد عاوده الصحو .
وقيل له :

((لو عهدت يا امر المؤمنين ...))

فحضره ما كان بينه وبين نفسه فى وحدته ، وترى برهة ، ثم
رفع عينه الى القوم واصبعا الى على وقال :
« قد كنت اجمعت بعد مقالتي أن اولى امركم رجلا احراكم ان
يحملكم على الحق .. »

ولم يلبث أصبعه المشير الى على ان سقط ساكنا الى جواره ،
وصمت ، وأغض بصره . ولكنه ترك ابصار الناس تتحدث فى صمت ،
والسنتهم تتحرك بلا صوت ، وقد اتجهت نظراتهم الى فتى بنى هاشم
الذى لم يخلج محياه .

وعاد عمر يتم حديثه وفي نبرانه وهن وتخاذل :
« ... ثم رهفتنى غشية ، فرايت رجلا دخل جنة فجعل يقطف
كل غضة ويأمنه فيضمها اليه ويصيرها تحته .. فخفت ان اتحملها
حيا وميتا ... »
واسلم نفسه ثانية للصمت .

فما أسعدها غشية رهقت عمر بعد اجماعه اثرأى على تولية ابن
أبى طالب ، وما أسعده حلما تثلج به صدور قريش ! ... ان الرجل
أول رؤياه - ان لم تقل على قدر عاطفته فعلى قدر معرفته . ولكنها
المعرفة بالتأويل دون البرهان والدليل . فليكن ابن أبى طالب كيفما
كان . وليبعد عن تولي مقاليد السلطان . وليأت من كرهوه بالأسباب
والمعاذير لا قصائمه عما أهله له خصائمه ، ثم لسوف يعجزهم أن
يجعلوا الاثرة التى الصقها به حلم ابن الخطاب أحد هذه الأسباب ! ..
ومع ذلك فمتى كانت الاحلام - وان أنبأت بالأحداث - تحدد
تاريخ وقوع هذه الاحداث ؟ وكيف غلب على ظن عمر أن رجل جنته
تلك هو على وليس آخر سواه ؟ .. ثم أين بعد هذا حلمه عنه من
علمه به ؟

ولكنها رؤيا اولها ابن الخطاب على قدر معرفته بالتأويل ، وحبس بها الحق عن صاحبه المجلى بين الناس ، والمؤيد بألف دليل . ولقد يستطيع من شاء أن يغفر لعمر تأويله فلا سلطان له على حلم سرى اليه ابان غشية ، ولكنه لن يستطيع ان ينفى عنه انه قرشى كأولئك القرشيين ، استبدت به عاطفته كمثلمهم ولو عن غير وعى . لاننا نعرف ان الرؤى والاحلام ليست سوى وسيلة للتنفيس عن المشاعر المختزنة في النفوس ! ..

١١

ضاع العلم في طوايا الحلم ! .. ففد أوصى عمر حسبما شاءت رؤيا وشاءت حافظته وان لم تشأ معرفته وتجربته . وذهب كل ما خبره في ابن ابي طالب بددا ..

ولم يكن الرجل - وان أوصى - قد اختار ولكنه رسم حدود هذا الاختيار وحصر الأمر في ستة نفر من أصحابه لن تعدو الخلافة أحدهم بحال ، ثم ترك لهم وحدهم ان ينتخبوا امير الاسلام .

ومع ذلك فمتدا يستطيع ان يقول انه لم يحدد موقفه اذ ذاك من على غاية التحديد ؟ ولم يقطع - بالتلميح دون التصريح - عليه الطرق الى ولاية الناس ؟ ولم يدل بدلوه مع الدلاء التي أخذت من حق هذا الهاشمي المحسود ؟ ان الرجل لم يناد صراحة باقصاء على عن الامارة . ولكن وضعه اياه مع أولئك الآخرين على سواء كان يصرخ بأنه ليس يبزهم ولا يعلو عليهم مرتبة في الشأن الذي اختيروا له . وما أحسبه الا واضحا ما سوف تخسره قضية على بهذه المساواة ! ..

ثم دعنا نستعرض أسماء أولئك الأنداد ونعرف أين مكانهم من صفوف ذوى الأحقاد ... ما من ريب في أن ظللا من الحسد قد لغتهم أو أسرهم أو قروعا منها . وليكن خيرهم لعلى - وقد أدخلنا الانساب في الحساب - ابن عمته الزبير ، ولكننا رغم هذا لا نستطيع أن نذكر خيره له الا مشوبا بالغيرة منه . وموقفه في الماضي من على مذكور معروف . وموقفه منه من بعد دونه منايا وحتوف ! ..

لقد الب عمر - عامدا او بغير تدبير - على سليل هاشم احقاد قريش . وكتب له - اذ اودع السورى اولئك الخمسة - مصيرا مآله الفشل* . ومن لعل برضا بنى تيم بعد أن نافس شيخها ابا بكر وغالبه غب وفاة الرسول على ولاية الأمر ، وهذا طلحة التيمى له رأى الآن فى الانتخاب قد يستغله فى الشار ؟ .. ومن له بمحو الأحقاد الأموية على بنى هاشم من قلوب اصحابها بعد أن ظلوا أجيالا يربون هذه الأحقاد فى قلوب الأبناء والأحفاد عسى أن يثار ذات يوم سليل لامية من سليل غريمتهم الهاشمية ؟ ... قد كان يكفى أن تجمع شورى عمر بين على وبين التيمى طلحة والأموى عثمان ليبوء أول نلائتهم بالهزيمة والخسران ! ...

ولكننا نرى عهد الخليفة الطعين باديا فى صورة من الامعان فى تأليب قوى العصبية كلها ضد ابن ابي طالب . فلقد ضمت الشورى ايضا سعد ابن ابي وقاص وعبد الرحمن بن عوف ، وكلا الرجلين من زهرة ، ولكليهما نسب موصول ببنى امية اتى الأول من ناحية أمه . حمنة بنت ابي سفيان ، وأتى الثانى من ناحية زوجه أم كلثوم بنت عقبة أخت عثمان . فاذا علمنا هذا ، فماذا بقى بعده يدع لعل فرصة واحدة للفوز ؟ ... واى بطن من قريش ينصف قضيته وقريش كلها خصومه وقضاته فى آن ؟ ...

وكذلك كانت وصية عمر بالشورى تومىء الى الرجل المغلوب كما يومىء عهد مكتوب ! ...

وخرج اصحاب الشورى من لدن الشيخ الجريح بوجوه غير التى دخلوا بها عليه ، فى قلوبهم ألوان تباينت من المشاعر ، وفى نفوسهم أهواء شتى تصطبخب وتتلاطم وكل له هم سوى هم أخيه .

وكان الناس عند الباب فى جموع تنتظم الكبير والصغير ، قد تدافعوا ينظرون الرجل الذى ظنوا أن انعقد له اللواء . ولكن الأمر يدا كان لم ينضج ، وتعلقت آلاف العيون المتطلعة الى ذلك الربة الضخم وهو يسير اليهم كما ينحدر السيل . وبدا لهم وجهه الأسمر النبيل ، وقد انحسر ما كان من شعر يتوجه فى الماضى عن جهة يتحدث فى سعتها الدكاء . ونطقت عيناه ببسمة حنان تغشاها أسى وشاه الاستحياء . وهفت القلوب اليه ، ولكن هيئته أوحى لهم باصطناع السكون وكبت ما يضمرونه من حب مكنون . ولكنهم انطلقوا

نحوه مكشوفى العواطف تحت نقاب النظرات الرقيق ، فأولئك العامة كانت نفوسهم أصفى من أن تعرف المראה وأنقى من صفحة مرآة .. لم تفسدها الأغراض ولم تشبها ، بل كانت ان كرهت* فله ، وان أحبت فله ..

تكاثت عليه الجموع وكلها مستضعف وزاهد وفقير .. ولئن تباينوا بين عبد وحر الا أنهم فى الحرمان كانوا سواء : هذا لا يملك ما يملأ معدته ، وذلك لا يملك ان يفك رقبتة ، وانما الفت بين قلوبهم عاطفة الاكبار والاخلاص لابن عم الرجل الذى جعلهم ناموسه فى صف واحد مع أعلى الناس .

ولم تكن العاطفة وحدها هى انتى الفت بين قلوب الشعب على هذا الرجل الضخم الأصلع القصير ... لقد أحبوه حقاً بحبهم رسول الله ، وقربوه الى نفوسهم لقربه منه . ولكن سجايا له ظهرت هذه العاطفة فى قلوبهم ومكنت لها ، وخصالا رفعت فى أعينهم كما رفعت ابن عمه الكريم ولما يهبط عليه وحى من السماء . وان الكثيرين منهم ليدكرون عليا من مهده فلا يستطيعون الا اكباره فى كل مراحل حياته ، ويحصون المحامد فى الناس مجتمعين ، ولا يسعهم الا جمعها له منفردا ، ثم تبقى له بعد هذا صفة واحدة جديرة بأن توليه عطفهم الخالص ، هى أنه مظلوم بأنداده ، محروم من ترائه الذى كان له اهلا منذ أكثر من عشرة اعوام ، وكفى بهذا الحرمان صفة تؤلف حوله قلوب أولئك الذين ذاقوا فى حياتهم مر الحرمان .

ومضى على صامتا فى زحمة الناس وهم يتهيبونه فيه غضبة ليث مشى على عرينه غريب . وكان ألمه باديا نى عينيه ، وغضبه قد نم عنه هذا العرق الضخم الذى نفر فى جبهته يكاد أن ينبجس منه الدم . ثم لم يلبث الزحام أن تفرجت صفوفه ، وانشر عن شيخ اشيب مهيب يشق طريقه بين الناس ويوسعون له نهيبا لقدره ... حتى اذا أصبح من ابن أخيه قيد خطوة استطاع ان يسمعه يهمس :

« يا لله وللشورى !... »

فتوجس العباس . وهتف به يسأله :

« فما العهد يا أبا الحسن ؟ »

« جعلها فى جماعة زعم انى أحدهم ... »

وبان الألم فى عينيه .. ولم يفه العباس بحرف كائما قد بغته

ما سمع . ومضى الى جوار ابن اخيه يسمع منه نبا الشورى ولا يملك ان يميظ الدهشة عن نفسه . . قد كان هذا اليوم اولى الايام بعودة الحق الى صاحبه بعد ان عرف الاسلام طريقه الى النفوس ، واستقر فى القلوب اعواما كفيلة بأن تنسى الناس عصبية الجاهلية ، وتميت الاحقاد القديمة التى نوارثوها . ولكنه الآن علم انه احسن الظن بطبيعة البشر . . وتكررت للمرة الثالثة امام عينيه نفس الصورة التى بدت له عند وفاة الرسول . وظهرت قريش تماما كعهدها الاول ، حاقدة ناقمة على بنى بيته وبيت آبائه ، متربصة لهم تتحين السانحات . . . وليس اختيار دينكم الرجلين تباعا بعد موت محمد سوى مظهر لاستمساك القوم بشريعة الاحقاد . .

وزفر على تبرما وهو يذكر ما فات ، ثم قال باستنكار :
« متى اعترض الرب فى مع الاول منهم حتى صرت اقرن الى هذه النظائر ! . . . »

اجل متى اعترض الرب فيه مع اول الخليفين ! . . الا قد كان جليا غاية الجلاء لكل مبصر ان ابن ابي طالب وشيخ بنى تيم لم يكونا على سواء ، وان الهاشمى الصغير كان اذ ذاك اولى بالامر من ابي بكر ، لولا تدافع الاحداث مرة ، والاستجابة لهذه السخائم القديمة مرات ! . . ولقد مرت بأول الرجلين فترة اراد فيها ان يستقيل الناس بيعتهم . ثم فترة اراد فيها ان يرد الامر مختارا الى ذويه ، ولكنه فى اللحظة الاخيرة رأى رايًا فى رجل هو بدوره فى اللحظة الاخيرة رأى رؤيا . . فكان الذى كان ! . .

وهز العباس راسه هنيهة يتفكر ، ثم قال وفى صوته نبرة عزم :
« يا بن اخى . . لا تدخل معهم ، وارفع نفسك عنهم »

وصمت . وتفرس على فيه يرقبه ثم اطلق لذهنه العنان يعمل مسرعا على استيعاب فكرة شيخ بنى عبد المطلب الرشيد . . قد كان رايًا كفيلا حقا بأن يضعه موضعه الحق على راس اهل الشورى الذين يعلمونهم هو ولا يعلمونه ، ولن يكون متجنيا على الواقع لو جاهر بأنه يأبى أن يكون واياهم على سواء ، وأنه يتوقف عن الاشتراك فى الشورى ، لانها مظهر وضع من قدره اذ سوى بينه وبين غيره . . ولكن ماذا عساه سيفيد من وراء هذا التوقف ! . . وهل ان رفعه درجة فى عيون مريديه لن يثير عليه حفيظة نفوس اناس سيرون فى

توقفه تعاليا وصلفا ؟.. ومنذا يملك من كل هذا الشعب ان ينصره ويؤمره بعد وصية ابن الخطاب وتحديده من لهم حق الانتخاب ؟.. ثم هلا كان توقفه ادعى الى اسنجلاب نقمة اهل الشورى عليه - وهم الذين يملكون وحدهم ان يبرموا الامر دونه ويثأروا منه بتأمرهم واحدا من بينهم سواء ؟..

لذلك حزم على أمره ، وقال برد فكرة العباس ، ويتوسل فى ابائها بأرفق جواب :

« انى يا عم اكره الخلاف .. »

فتلفت الشيخ نحوه مهموما ، وقال بحرارة :

« اذن ترى ما تكره !. »

ثم مضى عنه بهمه وألمه .

١٢

لم يغب مغزى كلمات العباس عن ذهن على ، بل ان هذه النبوءة جرت فى خاطره قبل ان تجرى كلاما على لسان الشيخ ، وعلم مآل حقه من الضياع منذ اللحظة التى كان الجريح يذكر فيها أسماء الذين حصر فيهم الامر ...

كان هذا واضحا غاية الوضوح بلا حاجة الى اعتساف دليل او سماع قول صريح يدلى به الخليفة الطمين . ولئن كان عمر قد ذكر ابن ابي طالب بين أصحاب شورا فانه فعلا قد أقصاه ، وبحسب المرء ان يتبين الأنساب ليعرف حقيقة الجواب !..

ولكن عليا أثر ان يتناول الامر بالرفق والتريث ، ولم يشأ أن تتولاه بالعنف الذى اراده عمه مخافة ان يرميه خصومه بحب الخلاف والصلف والاستعلاء ، او ان يتهموه - على احسن الفروض - بالعجلة والقفز الى الخواتيم قبل ان يثين وقتها المفروض ... هذا لو كانت فى نفوسهم حياله بقية لاحسان الظنون .

قر اذن فى فهمه ما سوف يكون وبان لبصيرته ما يرجون .. لا خطرة من نفوسهم تغيب عنه ، ولا ظن يميل به عن الواقع الوشيك

الحدوث الى الوهم الذى يستحدثه الخيال . ولكنه الاستقراء الصحيح
وافراى الرجيج يسيران جنبا الى جنب مع المنتظر من اربعة من
المختارين - على التحقيق - كما تسير الأرقام فى العملية الحسابية
فتنم بلا كبير عناء عن الجواب المرقوب .

قد كان احدهم حقا غائبا عن المدينة لم يعد بعد . ولكن اجماع
الثلاثة الآخرين لا يعوزه تأييد من هذا الصاحب البعيد ، ولن ينقض
طلحة أمرا يبرمه هؤلاء ، ولن يكون من رأيهم الا كما يشاءون . بل لقد
بدا من علمهم بموقفه - وان غاب - ما كان من حديث سعد مع
ابن الخطاب .. قال عمر وهو يوصى الخمسة مجتمعين :

« .. وطلحة بن عبيد الله شريككم فى الأمر ، فان قدم الى ثلاثة
ايام فأحضروه امركم ، والا فأرضوه .. ومن لى برضى طلحة ! » .
فأسرع سعد اليه بالجواب :

« انا لك به يا أمير المؤمنين ، ولن يخالف .. »

ومع ذلك فدع هذا الغائب وطف بأولئك انباقيين ، وليحضرك
فى هذا الطوف ولاء الأعراب لنواميس الجاهلية وان ضمهم الاسلام ..
تلك النواميس التى تقس عصبة الأسرة وتقدمها ، وتعيش فى
حاضرها بهم الانتصار الموروث من عاداتها ومن ثاراتها .
لقى على بعض بنى هاشم فحدثوه عن وصية عمر ، فقال لهم ،
وقد حضرته مواقف قریش من آله منذ أجيال ، وتواترت أمام بصيرته
سلاسل أحقادها ومواجدها :

« ان اطيع فيكم قومكم ، لم تؤمروا أبدا ! »

فلم يعد حقيقة الحال فى الماضى والاستقبال ، وقد كانت الطاعة
لقريش والاستجابة لسياستها العليا هى المظنون وقوعه من نهر
الشورى الذين يمثلون قريشا أصدق تمثيل .



... ثم طف بأولئك الباقيين فانظرهم - خلف الدين - عربا
وقرشيين .

وسر قدما بعد هذا الى الجواب المرقوب من العملية الحسابية
بلا كبير عناء ! ولتجدن الزبير نفسه ، ظهير على ، لن يصدر فى تأييده

اياه الا عن استجابة لقرايته وعصبيته ، ثم لترين الثلاثة الآخرين صفحا واحدا امام سليل الهاشميين .

لا ريب كانت هذه اللحظة فرصة فريش المواتية أعادها القدر نائية في يدها - بعد تأمير أبي بكر - لتعاود فوزها المرجو على بيت هاشم . . . وكان للقوم شغف بمجالدة البيت المحسود منذ أوقعت الأيام - من قديم - بينهم وبينه النزاع على النفوذ والجاه . . . وكانت أمية دائما اعتى القوم وأشدهم عليه موجدة ، وهى الآن ، برجلها عثمان - وشيكة أن تقتص لنفسها فتنتصر وتحقق مالم يسعها قبل اليوم تحقيقه من حلم الأجيال .

ولسنا نستطيع أن نرمى ابن عفان بالنهم - إذ ذاك - الى السلطان ، ولكننا لا نستطيع أيضا أن نطن له الزهد فيه . . . وإذا كانت طيبة قلبه وحياءه وعلو سنه كفيفة كلها بأن ترده عن طلب السطوة على الدولة ، فإن حق أسرته عليه ونداء الماضى ، وعوامل الوراثة التى جرت فى عروقه مع الدم كانت تحفزه جميعا على أن يطمح حيث لا حرج عليه من الطموح ، وعلى أن يتقدم ليفوز وقد هيا له قدره اسباب الفوز ووسائل الانتصار .

هيا له قدره هذه الوسائل والاسباب أم ترى هياتها له وصية ابن الخطاب ؟ لن يغبر من الأمر أن نتلمس المعاذير ، ونترفق فى التقدير ، فنحسب أن الخليفة أوصى وهو لا يميل الى ترجيح واحد من الستة على من عداه . . . ذلك لأن الحساب لا يجب البيان ، والظن وان نفته كياسة العقل فقد اثبتته الفعل . . . وما كان لامرئ من الناس الا أن يعلم مقدما بفوز عثمان بن عفان قبل فوزه وقبل أن يقر أصحاب الشورى على قرار وهو لا ريب عالم به مستيقنه من خلال أسماء الرجال الموكول اليهم الاختيار . . . وكفى بعثمان أن يكون له ظهيران فيهما عبد الرحمن ، ومكان عبد الرحمن من الشورى ليس يعلوه مكان . كذلك نرى عبد الله بن عباس ، لا يكاد أن يسمع بما كان من وصية عمر حتى يسرع دهشا ، جلل القلق والحيرة وجهه وخاطره ، فيقابل ابن عمه يستخبره الأمر :

« أقال لكم أمير المؤمنين : ان رضى ثلاثة منكم رجلا منهم ، ورضى ثلاثة رجلا منهم ، فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ؟ . »
« نعم . . »

فيهتف الفتى مستنكرا في ضيق :

« قد ذهب الأمر منا ! » .

ولم يكن هذا بالجديد على علم على لأنه استيقنه من البدء وقال فيه لعمه العباس :

« .. سعد لا يخالف ابن عمه عبد الرحمن ، وعبد الرحمن صهر لعثمان لا يختلفون ، فيوليها عبد الرحمن عثمان أو يوليها عثمان عبد الرحمن .. »

ولكنه مع علمه هذا آثر الصبر لأنه كان يرمى الى امر .. وقال هادئا يشرح الأمر لفتاه :

« انى اعلى يا عبد الله .. ولكنى ادخل فى الشورى معهم لأن عمر قد اهلنى الآن للخلافة وكان من قبل يقول ان النبوة والخلافة فى بيت واحد لا تجتمعان .. »

« جل فقد كان هذا رأى عمر ، او هكذا كان يقول فى الماضى ملتصبا بالحجة فيه لقريش على ما سبق من عدوانها على حق على ، وحرمانه ولاية الامر بعد رسول الله .

وراح ابن أبى طالب يدلى برأيه لابن عباس :

« أردت أن أظهر أن روايته تناقض فعله .. »

وحقا نقض الفعل الرواية وان جاءا كلاهما بنفس الغابة ! ..

ومع ذلك فلم يرفع على نفسه عن الشورى ، ولم يمتنع عن مجلس الستة بل آثر أن يسير معهم فى الطريق المرسوم وهو يعلم الى أين سيفضى .. لا يخالجه الشك لحظة واحدة في أنه لا بد مقطوع ما بينه وبين حقه ، مبتز ترائه ، مقضى عليه بالهزيمة فى ميدان جردوه فيه من كل سلاح ..

١٣

غلب على عمر اجله ، ومضى الرجل عن فراشه بداره الى مثواه بجوار رسول الله ، محمولا على اعناق بضعة نفر من صحبه ، ولو ترجعت مشاعر النفوس الى فعال حملته رقاب من وسعتهم الدولة الاسلامية من نساء ورجال .. ولكنه ذهب عن الدنيا عازفا عنها ، مرجوا منها ، وقطع الموت ما بينه وبين دنياه من اقبالها ومن قلاه ..

وانكفا الناس عن القبر ياوصاب وآراب ، تجاوزت فى القلوب كسير الامل فى اعقاب المحنة . والحياة دائما تورث الفواجع ثم تورث على اثرها المنى السراطع .. انكفأوا عن طريق الثرى بالبرحاء وبالرجاء . فلما غابت عن عيونهم الحفرة التى طوت العلم ، استدبروا الهم الواصب فى اليوم الذاهب ، وتهيأوا ، مفتحي القلوب لاستقبال الغد المرقوب .. وما سنة البشر فى عيشها على هذه الأرض سوى ان تطرح همها لأمسها وتصل رجاءها بغدها .

وكذلك انطلق الناس من لدن القبر ، وكلهم قد علق بالغد القريب فكره ، يود لو استطاعت بصيرته نفوذا الى الغيب فرأى كيف تسير الأمور بعد العاهل الصريع .. وكيف توطيء الاحداث لخلفه ؟ . ومنذا فى النفر الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض سوف يكون أميرا على المؤمنين ؟

كانت الجموع كلها تأمل ، وتسير فى قلوبها - مع الامل - خشية المستقبل لا فرق فى هذا بين فريقى الاسلام اذ ذاك : قريش لها من فوزها بالامر دفعتين بعد وفاة محمد ، أمل عريض فى أن تفوز ثالثة ، وان بدت الحال الآن على غير ما كانت من قبل بعد تفتح الأذهان لما سبق من سطوها على السلطان وابتزاز الحق من ذويه ، ولكنها ما زالت تأمل فى الفوز على صاحب الحق كان تكرر انتصارها جعلها تشعر أنها جديرة بالنصر ، وان لم تكن صاحبة الامر ! .. واهل المدينة من الانتصار ومن نف لفهم من المهاجرين المنصفين لهم أمل معقود على وهوى ان يعود له ما سلبه اياه قومه طغيانا ومرجدة ، ولكن الامل المعقود

واللهوى المنشود القى عليهما شورى عمر ظللا قد لا تستطيع معها العقول ان تنفذ الى مصيرها المجهول ، أو تستطيع ، ثم لا تعود من نفوذها الا بغير المأمول !.

على ان الذى لا يحتمل الشك هو ان الكثرة الغالبة من الناس - وفيهم قريش - لم يكن يسعها الا الاقرار لاي ابي طالب بما يميزه ويرفعه درجات على بقية المختارين . وكان هذا واضحا لكل ذى نظرة عابرة بلا حاجة الى تكلف المقارنة أو محاولة التدليل . وما من احد من الناس الا لعله ألم بطرف من رأى عمر في نفر الستة ، ثم ما من احد الا قد اخذنه الحيرة من مسلكه ازاء على حين جمعه الى خمسة رأى هو انهم لا يشبتون امامه عند الموازنة والتفضيل !.

قال عمر لصحبه وقد اجتمعوا لديه وهو طعين :

« .. ما اظن الا ان يلى أحد هذين الرجلين : على أو عثمان ، فان ولى عثمان فرجل فيه لين ، وان ولى على ففيه دعابة ، واحر به ان يحملهم على طريق الحق .. »

مع ذلك فلم يوص للرجل الحرى بحملهم على الحق الواضح والمحجة البيضاء ، بل آثر ان يدعه وشأنه للنفر الآخرين يستخلص منهم حقه لو استطاع !.. وانى لهذا الهاشمى ان يستطيع وقد مثلت قريش كلها في انداده أو فى متاويله !.

ولكن هوى شعب المدينة كان مع على ، وما زالت قلوب افراده مقيمة على ودها القديم له ، وان احدى عشرة سنة ليست بالستار الكثيف الذى يحجب عن ابصارهم منظر فاطمة الزهراء ، اذ خرجت تطوف بمجالس الانصار تدعوهم ان يظاهروها لتسترد لزوجها تراث ايها . تلك ليلة جديرة بان تبقى على الزمن فى الاذهان ، وان يشر ذكراها قوية ، لها كلسع الجمر فى قلوبهم ، ما كان من قعودهم عن نصرتها وهم يرون تراث نبيهم نهبا آل الى غير اهله . كم بدا طيف الزهراء فى هذه اللحظة كالشهاب الثاقب يشق ظلمة الأعوام !. انهم لبكادون يرونها الآن رأى العين ، تسير مرفوعة الرأس ، على جبينها يتألق شعاع ، قد نم محياها عن ملامح محمد أو كاد . ثم هذا الهواء المنشور حولهم يتحدث اليوم عنها ، وينطق بلسانها ، وقد مضت عليها فى قبرها أعوام حال فيها الموت بينها وبين الكلام . كأن الماضى انعكس ثانية على مرآة العيون والاسماع ، وكان الزمن آت بعد ذهاب ! وكان

ما ضمته النفوس من ذكرى مطوية قد نشر أحداثا حية تسير فيها فاطمة بين اهل المدينة وهى تدعوهم وتقول :

« افتدعون تراث رسول الله يخرج من داره الى غير داره .. ؟ »
تلك دعوة صحت اليوم من سبات ، ومشت فى قلوب الشعب كخفقها تشعر بالحياة .. وما كان الناس حين ترددوا عن الانتصار لآية رسول الله من خليفته الاول الا كالنائم على الشوك لا يلبث ان يحس وخزه ، وهم اليوم قد تفتحت عيونهم بعد طول رقاد ، وراوا الحق القديم حيث كان ، والعدوان عليه لا يغيره تغير الاشخاص ، ولا اختلاف الزمان ..

ولكنهم بهتوا وهم ينظرون ، وقصرت ايديهم عن ان تنال من قلعة عمر !.. ان الرجل ليبذو وقد بنى سياجا من الفولاذ حول « ولاية الامر » لا تستطيع مشيئتهم اجتيازه ، ولئن كان الاصل فى الشورى ان يكون للشعب حق اختيار واليه ، فعاذا ترك لهم عمر من حق الاختيار ؟.. واين شوره الشكليه من الشورى الصريحة الاسلامية ؟ وكيف جرى بخاطره ان راي رجال - قد لا يعدون الثلاثة - يعادل آراء كل افراد هذا الشعب او ينطق بالسنتهم اجمعين ؟

وفي الحق لقد كانت الشورى العمريه ضربا جديدا من العهود ، لا الى الشورى ولا الى الوصية ، ولم يكن لها مثيل قبلها فى الاسلام . وهى بنحوها هذا نوع من « الاختيار قبل الانتخاب » لولا انه سلب الشعب حق الانتخاب ونحله نفرا ستة ، مهما علت اقدارهم فليسوا يملكون الا ستة آراء !.. ولقد كانت لعمر - بلا ريب - مندوحة فى الشورى المثلى التى ينم عنها روح الدين وتدعو اليها شريعته التى سوت بين الناس . واذا كانت الأحداث لم تتح من قبل للمسلمين ان يأخذوا بأمثل نحو من انواع انتخاب الأمير ، فقد عالجوا غيب وفاة الرسول نحوا قريبا منه ، بأن اشترك فى اختيار أبى بكر كثير منهم ، لعلهم يمثلون بقية ذوى الآراء أو أغلبهم على أقل تقدير ، وهم اليوم ، بعد انتشار الاسلام وركوز تعاليمه فى النفوس كان أولى بهم ان يلتزموا الشورى الحقة التى دعت اليها هذه التعاليم .

ولكن اين الخطاب راي رايأ وأبرمه ، وانتهج بهذا نهج صاحبه أبى بكر ، فكلما الرجلين قد أثر أن يحول بين شعبه وبين مزاولته حق انتخاب واليه ، أبى إلا أن يفرض - منفردا - على الناس رأيه . ولئن

كانت هناك أسباب دعت الأول الى املاء مشيئته : او معاذير اضطر
الثاني حيالها الى الجنوح للاملاء ، فانها جميعا لن تحجب عن الالذهان
البون الساسع بين نظرة الخليفتين ونصرة غريمهما المغبون الى حقوق
الشعوب في اختيار الولاية . وبحسبك ان تعود قليلا الى الوراء لتسمع
كلمات على في هذا الشأن ، حين اراد العباس وابو سفيان ان يبايعاه
يوم وفاة رسول الله . . . لقد ابى عليهما ما اراداه لانه يعلم ان راي
الشعب لا يغنى منه راي رجلين او بضعة رجال . ورفض الاكف التي
احبت ان تقدم اليه السلطان ! وقال :

« لا والله !.. فاني احب ان اصحر بها .. »

ركانت كلماته هذه مركبه الى خسران قضيته في تلك الآونة من
الزمان ، ولكنها مركبه ايضا الى العظمة التي تتسبب القمة ، لانها - وان
جارت على حقه في الولاية - فقد اقامت الدعامة الثابتة لحق الشعوب
في تنصيب الولاية .

١٤

قصة الشورى جدرة بأن يتلأأ عندها برهة ذهن المتدبر لان فيها
- برسمها المعروف - شيات : فيها خروج على مبدأ الشورى الذي
املاه على النفس البشرية حب الحرية قبل ان يمليه دين او تسنه
قوانين . . . وفيها تحكم الفرد في الجماعة اذ يلزمها ان تترسم رايا رآه
في نفر اختارهم وفق تقديره ان لم يكن وفق هواه . . . وفيها تعسف
التسوية بين ستة تجاهر المزايا والفوارق بأنهم ليسوا على درجة
واحدة في شرعة المساواة . . . وفيها تكتيل للقوى العصبية وللأحقاد
القبلية وتجييشها صفا يرجح ميزانها ويمد لها في حبل الطغيان . . ثم
فيها قبل هذا وذاك تكوص عن الراى الصائب الذي كانت تفرضه منذ
البدء مصلحة الشعب ، راي متعثر لم يكن قرين الصواب . . .

ما كان عمر بالرجل الذي يعمل عفوا دون أن يهدف الى غاية من
وراء عمله ، او بالفرير الذي يكل الأمور الى تصرّف القادير . ولكنه
كان موفور الحنكة ، بصيرا بمواقع خطاه . ولو انه حين اختار أولئك

السته كان طعينا يعانى من جراحه آلاما قد تحد من قدرته على احسان التفكير ، الا انه كان جلدا قويا على دائه الى حد لم يدع آلامه تعيب عقله .. وثمن عهدناه من قبل تغلب عليه الدفعة حتى لتركبه شططا ، فان اختياره اهل الشورى لم يكن عن دفعة بل جاء عن تريث وروية ، ليس ادل عليهما من انه كاد فى بادىء الامر ان يوصى لعلى ثم عاد فنحاه عن فكره ونفض منه يده ..

ومع ذلك فما من حكمة يستطيع من يعمن التدبر ان يراها ماثلة وراء هذه بالشورى وحصره الخلافة فى ستة يختارون من بينهم اميرا .. وان عمر الذى تعودنا ان نرى له العذر ظاهرا فيما صدر عنه من أمور تحسب عليه لا نستطيع ها هنا ان نلتمس له عذرا . فاذا قيل انه توسم فى النفر المختارين خلاصة المسلمين ، وانهم الافراد الذين تلتقى عندهم مشيئة شعبه ، وان اختيارهم واحدا منهم يكون اقرارا من الباقيين على كفايته ، وان هذا المختار سيكون له من الاقرار سند يلف حوله الناس ويجمع كلمتهم عليه فلا يشجر بينهم خلاف .. ان قيل هذا كله على انه الحكمة الماثلة وراء قصة الشورى ، والهدف الذى رمى اليه عمر اذ ذاك ، فان قائله اذن قد فاتهم الصواب فى التعليل ولم يحسنوا التأويل ! . وبصحبك ان تعلم ان عمر نفسه كان لا يرى هذا الراى حين انتهى به الامر الى أن عهد هذه ، بل قال لاصحاب الشورى وقد دعاهم اليه غداة الاعتداء عليه :

« انى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ، ولا يكون هذا الامر الا فيكم ؛ وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض .. انى لا أخاف الناس عليكم ان استقمتم ولكنى أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس » .

هكذا كان الرجل يخشى ان يختلفوا عند جلوسهم لانتخاب احدهم وكان محقا فى خشيته ، له من ماضيهم ومنازعهم وتقاليدهم الموروثة نبراس يضيء امامه المستقبل القريب في اهم قد اجتمعوا لاتفاق وانفضوا على شقاق ! ..

اجل كان هذا ماثلا امام عينيه كانه صور مرسومة ، واضحة المعالم ، تفصح ولا تخفى وكان فى استطاعته ان يستعرضها جميعا فتبدو امامه كالمرآيا ينعكس على صقالها الخلاف الوشيك الوقوع . كان جديرا بأن يرى فى اولها طلحة متمردا على الخمسة الباقيين،

لا يقر لأحدهم بالسبق عليه لأنه عاش قبل اليوم عشر سنوات يحلم
بتسليم الحكم وهو بعيد عنه ، فأحرى به أن ينتصر لنفسه وهو قريب
منه !.. ولئن غاب طلحة عن المدينة أبان أيام الشورى فلقد كان المظنون
فى البدء أن يحضر قبل الفراغ من الاستخلاف . فإى المواقف كان
لأمله واقفه لو استطاع الحضور ؟ ومن من بين 'الرهط الذين رضى
عنهم رسول الله كان سيخناز ؟. ان الصورة التى لا بد قد استعرضها
عمر كانت تبين الرجل فى أجلى بيان ، وتبديه طامعا فى الخلافة من
عهد ابن عمه أبى بكر ، متوقعا من يوم الى يوم أن يحين أجل الشيخ ،
وأن تقترب منه منيته قريبا لا يرى معه بدا من أن يرعى حق القربة
فيوصى لطلحة من بعده .. فأما وقد خالف أبو بكر ما كان مرجوا منه .
وأدلى بسلطانه الى عمر ، فقد غضب الحالم الطامع وثار باين عمه .
« ما أنت قائل لربك غدا وقد وليت علينا فظا غليظا تفرق منه
النفوس وتنفض عنه القلوب ؟.. »

ثم لم تغب عنه أمنيته لحظة ، وظل التفكير فى الهدف المرموق ديدنه
حتى استطاع أن يتألف بعض الناس ويتخذهم حزبا يحلمون له !..
وكان لاجتماعه بهم سمات قد يظن معها التآمر والتدبير فى الخفاء
اذ حرصوا جميعا على التلاقى سرا والتحدث سرا ، ثم لا يتون كلما
شاهدوه أن يقولوا له :

« .. لو مات عمر لبايعناك » .

وفى الحق لا يسع المنصف أن يجزم بأن طلحة كان ميالا الى ابتزاز
سلطان عمر عنوة ، ولكن الجموع السياسية لا يمسكها دائما العقل ،
وهى أحيانا لا تعدم أن يكون فيها من لا يقر التريث وامهال الأيام حتى
تجئ له بهدفه ، بل يرى عليه حقا أن يتعجل ساعة تحقيق مآربه ..
واذا كانت هيبة الخليفة اذ ذاك قد جعلت هذا الحزب يقرن البيعة
لزعيمه بشرط وفاة عمر ، فانه شرط كفيلة به الأيام اذا فرغ العمر ؛
أو شرط كفيلة به دفعة شاب قد ينوء بالتريث !.. والأحزاب السياسية
عادة تتوسل بكافة الوسائل لنيل أغراضها ولن يعي فردا منها أن
أبطا بغريمه الموت أن يصطنع له نوعا منه !.

على أن عين عمر الساهرة النفاذة استطاعت أن تهتك ستر السر
وتكشف عما يدور فى الخفاء . فارتقى المنبر وراح يحذر الناس .
« .. قوما يقولون أن بيعة أبى بكر كانت فلتة . وانه لو مات

عمر لفعلنا وفعلنا .. الا قاي امرىء بايع امرا عن غير مشورة من المسلمين فانهما بغرة ان يقتلا !»

ومع ذلك فان عينه تلك شاعت ان تغلق اجفانها دون هذه الصورة ودون اخريات فيها سليل بيت النبوة ، وفيها حفيد امية وآخرون كانوا نتاج الاحقاد القرشية .. لكأن الرجل آثر ان يفضى عن هذا كله وتركه لأفراد شوراه يتمتعون فيه - اما وقد أوصى كما شاء فبغير اتفاق هذا الجميع على أصلحهم للأمر جاءت وصيته ان لم نقل سبقت نيته .. ولغير الصالح العام كان عهده المهود لأنه كان يعرف منذ البدء أى الستة كان أولى بأن يوكل اليه امر شعبه .. وعلى غير العدل المشهور عن عمر : الموسوم به طبعه قام اس الاستخلاف ، وما على المتدبر ، وقد أعياه أن يرى خلف الشورى حكمة تتفق والمظنون بصفاء ذهن الرجل ورجاحة عقله الا أن يطرح جانب قصة الشورى . وذهن الخيفة وعقله ، وآيات عدله الماثور عنه ، تم يبحث في طوايا النفس البشرية عن الحكمة الخفية : أجل فما عمر الا بشر له هواه ، وقد أرضاه فأرضى قريشا كلها من ورائه لأنه وطد سلطانها بشوراه !. هذه حقيقة ناصعة ليس للريب اليها سبيل ، ولقد كان عمر فيها رجلا من قبيله وقومه ، له مشاعرهم وان جنحت الى حيف ، وكانت وصيته وسيلة لتنفيذ السياسة التقليدية التى استنتها لنفسها قريش منذ وفاة الرسول ، ثم هى متممة للسياسة التى جرى عليها سلفه ، والتى جرى من قبلهما عليها قوسهما حيال بنى هاشم بضعة اجيال .. ولا ادل على انها كانت طابعا وسموا به ونهجا التزموه ، من قول على عنهم :

« انى لأعلم ما فى انفسهم .. ان الناس ينظرون الى قريش ، وقريش تنظر فى صلاح شأنها فتقول : ان ولى الامر بنو هاشم لم يخرج منهم ابدا ، وما كان فى غيرهم فهو متداول فى بطون قريش » .

١٥

كان طبيعيا أن تفشل الشورى من أول اجتماع ، وأن يحدث الجدل بين أصحابها مسعرا حسبما أوحى طبع كل منهم ، أو طمعه ، أو شعوره بحقه أن يطلب الأمر لنفسه . وما كان لخمسة اختلفت منازع أهوائهم أن يلتقوا عند رأى .

وكان أبى طلحة الأنصارى ، تنفيذا لمشيئة عمر ، واقفا قرب الدار يرقبهم وقد صف جندا على رأسه المقداد يمنع عنهم الناس . وكان الشعب ينتظر فى لهفة ما سوف يسفر عنه الاجتماع ، والفضول يأكل قلبه حتى ليوشك أن يقتحم البيت لولا هذا الحرس الشاكى السلاح . ولم تكن هناك بادرة تنبئ عن قرب الاتفاق ، بل كلما مر الوقت اتسعت رقعة الجدل وعاد أصحاب الشورى القهقرى الى حيثما بداوا الحديث والحوار ، ومرارا تكأكأ افراد من العامة على المكان عسى أن تلتقط آذانهم كلمة أو كلمات . . ومرة ازدلف عمرو بن العاص فجلس بالباب ثم تلاه المفيرة بن شعبة : ذاك الداهيتان أرادا أن يرفعا من منزلتهما فى عيون الشعب بهذا القرب بعد أن عداهما اختيار ابن الخطاب ! . . على أنهما مع هذا لم ينعما بالمكانة الموهومة طويلا لأن ابن أبى وقاص قام اليهما يقول بفضلة وهو يردهما عن الباب :

« تريدان أن تقولاً حضرننا وكنا فى أهل الشورى ! . . »

ولكن الفضول الذى حملهما ، وحمل الكثيرين من الأفراد ، على المكث قرب الدار ، لم يكن مرده الشوق وحده لمعرفة الخليفة الجديد ، بل كان هناك ما هو أولى باجتناب اهتمام الجماهير وقد قل فيهم من لم يعلم نبأ الأمر الذى القى به الخليفة الراحل الى المقداد وأبى طلحة حين قال :

« . . اذا وضعتونى فى حفرتى ، فاجمع هؤلاء الرهط فى بيت حتى يختاروا رجلا منهم . وقم على رؤوسهم ، فان اجتمع خمسـة ورضوا رجلا وأبى واحد فاضرب رأسه بالسيف . وان اتفق أربعة فـرضوا رجلا منهم وأبى اثنان فاضرب رأسيهما . فان رضى ثلاثة رجلا

منهم وثلاثة رجلا منهم فحكموا عبد الله بن عمر .. فان لم يرضوا ،
فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، واقتلوا الباقين
ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس » .

ما من احد من الذين تكأثروا حول الدار الا مرت بذهنه صورة
راس او رءوس توشك ان تطيح على حد سيف فجلس يترقب حلول
ساعة الجلاد !.. اجل ، فلهذا تربص ابو طلحة ، وتبصا المقداد وصف
جنده وبه رسم عمر الناحية التي تتم بعنفه في الموت ما كان من
عنفه المشهور في الحياة !..

ومع ذلك فالارهاب سلاح وقى ضعيف لا يلبث ان ينثلم حده ،
وهو ليس دائما سبيل الرضوخ والتسليم . بل لعله اولى به ان يزيد
من شكاسة النفوس حينما تلوح لها الفرصة لانه يجعلها تشعر حياله
يهوان تأباه . وقد أعبى القوة أن تملك حرا وان اصابت منه اذ هي
ضرب من اللغات غير مفهوم عند الأباة .. وانما منطق الاحرار الحق .

وكما بقى الجمهور خارج الدار نهبا بين القلق والفضول ، فقد بقى
الخمسة المجتمعون نهبا لأرائهم المتباينة لا يقررون على قرار . وطال
الحديث بينهم فيما لا طائل تحته ، كلما جاء احدهم برأى سمع تقيضه
من لسان غيره . ولو أنهم جنحوا جميعا الى الهدى ، وتخلوا عن
اغراضهم لحظة ، لتبينوا أيهم اجدرهم بامرة الناس ، ولأثروا صلاح
الامة على صلاح الأشخاص ، ولوسعهم بلا كبير عناء ان يصلوا الى الغاية
المرجوة برد الحق الى صاحبه الذي حرمه مرتين .. ولكنهم كانوا
بشرا قبل كل شيء ، يعيش فيهم حب الذات وتميل بهم الأهواء .
واذا كان الماضي قد ألفت آثاره - التي علقت بقلوبهم - بين عثمان
وسعد وعبد الرحمن ، فان عمر بن الخطاب اذ قرنهم في الشورى
بعلی ، قد ولد في نفوسهم نوعا من الشعور جعلها به ترتفع في أعينهم
الى ما فوق القدر الذي عرفوه لها من قبل ، وما كانوا اليوم بعد
شعورهم هذا ليقرأوا لابن أبي طالب بالتقدم والفضل !..

ان ها هنا - بلا ريب - اناسا غلبتهم على الحق الأهواء ، ومن القدم
كان الهوى آفة الحكم ، ولولا ما يعتور نظرة الانسان الى نفسه من تحيز
لبانت لهم أسباب تدعوهم الى التأخر عن صاحبهم وترك السبيل له ..
وليكن سعد محاربا فذا وجنديا أمثل اتسعت رقعة الدولة الى المدى
الذي وصله حد سيفه ، ولكنه ليس الرجل الذي يستطيع ان يسوس

أمة بعد أن عجز من قبل ومن بعد عن حكم جزء واحد من هذه الأمة ، حتى عزله مرة عمر ، وعزله ثانية خلفه .. وليكن طلحة كبيرا في قومه مسموع الكلمة ، قد حلفت به اطماعه الى السماك ، ولكن مطامع المرء لا تنبىء عن قدره ورفعته بل قد تنبىء عن ضعفه وآفته . وقدما قال فيه ابن عمه أبو بكر :

« .. أما والله لو وليتك لجعلت أنفك في قفاك ، ولرفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذى يضعها !.. »

... ولتكن سابقة الزبير في الاسلام ، وصلته برسول الله اذ هو ابن عمته صفة بعض ميزته ، ولكنه في هذا المقام كان جديرا به ألا ينسى ما ينأى به عن حكم الناس وقد أجمله له عمر حين قال :

« .. أما أنت يا زبير فوعق تعس .. مؤمن الرضا كافر الفضب . ولعلها لو انضت اليك ظللت يومك تلاطم بالبطحاء على مد من شعير !. »

.. وليكن لابن عفان من كرمه ، وحلمه ، ووصله رحمه ما قد يؤهله لأن يسود أسرته ، ولكنها صفات تجنح به دائما عن حد الاعتدال الى التطرف والمغالاة حتى تنقلب غلطات ، وبها تعثر بعد أن انتهى الأمر اليه ، وعلى بعضها لقي مصرعه . واللين أحيانا سجاجة ولكنه فيه كان ضعفا معلوما غير خاف على أكثر صحبه ، وفيهم ابن الخطاب حتى خشي مغبته عليه فقال له :

« كأنى بك قد قلدتك قریش هذا الأمر لحبها اياك ، فحملت بنى أمية وبنى أبى معيط على رقاب الناس ، وآثرتهم بالفقر ، فسارت اليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحك على فراشك ذبحا !.. »

.. وليكن ابن عوف صورة صادقة من كلمات عمر عنه :

« .. ولو وزن نصف ايمان المسلمين بإيمانك لرجح إيمانك به .. »

ولكن الايمان وحده لا يقدمه ما دام قد جمع اليه الضعف الذى يرتد به الى نهاية صفوف المستخلفين .. وهذا وصف ابن الخطاب قد جاء فيه بفصل الخطاب :

« ليس يصلح هذا الأمر لمن فيه ضعف كضعفك » .

لم يكن هذا كله خافيا على الرهط المجتمعين وقد جلسوا للحوار والنقاش ، وظلوا يبدئون ويعيدون ثم لا يصل بهم حديثهم الى الحل المنشود المرضى عنه اذا قيس بمقياس الحق . وما دامت النفوس منطوية على هوى فقد تجنبت الجادة وخرجت عن الهدف المحمود .

أما على فقد استوعب كل كوامن قلوب زملائه ، وعرف ما تضم
بلا حاجة الى كلمات تنمقها افواههم ويدعون بها للاتفاق . وما كان
بالذى يغره منطق اللسان وقد علم مشاعر الوجدان .. انهم الآن
يضعون أقدارهم فى الأخرى ، بل يزنونهم بعواطفهم ؛ وللعواطف فى
نهاية الأمر الرجحان !

ولكنه مع ذلك لم يشأ أن يسير وإياهم فى طريق الألفاظ ،
بل تركهم قبله يتحدثون مداورين ، يحومون حول القضية التى
اجتمعوا لها ولا يبدى احدهم حجة ترفع شأنه وتثب به الى مقعد
الأمانة .. انتهى حديثهم الى نهاية هى البداية ، ووقف هو يتحدث
بصراحته فى لب الموضوع .

قال لهم :

« الحمد لله الذى بعث محمد منا نبيا ، وبعثه الينا رسولا .. فنحن
بيت النبوة ، ومعدن الحكمة ، وأمان أهل الأرض ، ونجاة لمن طلب ..
لنا حق - ان نعطه - نأخذه ، وان نمنعه نركب أعجاز الابل ولو طال
السرى .. لو عهد الينا رسول الله عهدا لأنفذنا عهده ، ولو قال لنا قولا
لجادلنا عليه حتى نموت ، ولن يسرع احد قبلى الى دعوة حق وصلة
رحم » .

وكذلك بهذه الكلمات القصار رسم مزاياه ، ورسم خطة العمل
التي آلى أن ينتهج دربها ان منعه او اختاروه ، وقطع قبل هذا وذاك
الألسن اللاغطة التي قد تدعى على رسول الله وصية لابن عمه ، فكان
بهذا الجسم - الذى لا يدع مجالا لتأول ولا ادعاء - رجلا يؤثر الصدق
ولو جاء اليه الصمت - ولا نقول الكذب - بملك الأرض .. أما وقد
جاء منطقهم صورة صادقة لقدره ، ولأمانته المثلى عند رسم التاريخ ،
ولحرصه على وحدة أمة وان نزعوا حقه ، فقد بقى عليه اذن ان
يبصرهم بسوء مغبة ما يعلم انهم مقدمون عليه عسى يستطيع ان
يجنبهم التردى فى حماة ستدفعهم اليها الأهواء .. ما كان أنفذ
بصيرته وأصدق نظرته !. لكانما كان فى تلك اللحظة يتلو من كتاب
مفتوح سطور الفتن والمنازعات التي غرسوا بذرتها فى أبادم الشورى ،
لتجنى الأمة - بعد بضعة أعوام - ثمرتها المرة ..

قال لهم محذرا وقد رنت عيناه الى بعيد :

« اسمعوا كلامى .. وعوا منطقتى .. عسى ان تروا ١١٥ الأمر

من بعد هذا المجمع تنتضى فيه السيوف ، وتخان فيه العهود ، حتى تكونوا جماعة ويكون بعضكم أئمة لاهل الضلالة وشيعة لاهل الجهالة .. »

ولو أنهم آمنوا اذ ذاك بقوله ووعوه لكان خيرا لهم وللأمة جمعاء وللإسلام ولكنهم أبوا أن ينصتوا لمنطقه حتى صدمهم الزمن بحقائقه وراوا أنفسهم أئمة أشيع جردوا الأسياف وظاهروا الخلاف !..

١٦

أشرف أبو طلحة الأنصارى على الجمع المتفرق الآراء ، وقال لهم وقد هاله ما ظلوا عليه من خلاف :

« قد كنت لأن تدفعوها اخوف منى لأن تنافسوها !.. »

وهز الرجل رأسه هزة الأسف وخيبة الرجاء .. ولكنه لم يدعهم حتى أوضح لهم عزمه على أن يلعب دوره لحرفه :

« ... لا والذي ذهب بنفس عمر !.. لا أزيدكم على الايام الثلاثة

التي أمرتم ... »

وأخذت فترة الزمن تضيق حلقتها ، والساعات تفر سريعا من أيديهم ونقاشهم عن الأمير المرجو حيث كان ، لا يتقدم خطوة . وراح الأجل الذى ضربه عمر للاختيار يتقلص عنهم .. وحبل الخلاف دائما طويل ممدود .

ثم جاء عبد الرحمن من لدنه بالحل الذى ظنه سيصل به وبأصحابه الى الغاية ويحسم النزاع .. قال لهم وقد أعياهم جميعا منطق الجدل .

« أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها ، على أن يوليها خيركم ؟ » .

فتطلعوا نحوه مبغوتين ، وعقدت الدهشة السنتهم آونة فلم يبادروه بجواب على سؤاله الغريب .. أفكان هذا حلا موقفا حق التوفيق ؟..

ما من رجل يعلو قدر نفسه على أقدار منافسيه يستطيع أن يأخذ نفسه بالموافقة على الراى المعروض : ذلك انه بخروجه من

الأمر - سيهدد أولا حقه ثم يدعه مباحا لآخر ادنى مكانة راقل قدرة منه على الولاية . فاذا كان أمينا لواجبه ، ولحق أمته عليه ، فانه اذن قد نكل عن الواجب وخان الأمانة . وليس لعلى الى احدى النقيصتين سبيل ! ..

وكانما رأى صاحب الاقتراح فى صمتهم ما يكاد أن يهدد اقتراحه بالخذلان ، لأن موافقة احدهم عليه لن تكون الا على حساب كبريائه ان لم تكن على حساب حقه . وما كان بالخافى على عبد الرحمن ان يعلم ان اجدر اصحابه بالأمر لن يخرج نفسه منه فيضيع طواعية حقه المعلوم وان الباقيين لابد استدعواهم عوامل نفسية واخرى زمنية الى التشبث بحق موهوم .

رأى هذا عبد الرحمن وابقنه وهو يعيد سؤاله ولا يسمع الرد عليه . وخشى ان يفشل حله الذى اوحى به ضيق الزمن ، فلم يجد بدا - لينقذ وينفذ اقتراحه - من أن يمشى على كبريائه هو عساه يستطيع ان يحملهم على القبول .

قال بعد قليل :

« انا انخلع منها . »

فما نطقها حتى هتف به عثمان :

« انا اول من رضى »

وتتابع بعده رضاء الباقيين .

ولكن عليا وحده ظل صامتا لا يكشف عن قبول . وكيف ياترى يسعه وهو الخاسر بهذا الحل الجديد على التاكيد ؟ .. ان عثمان : الخصم الذى يؤبه له بين الجمع قد توطد الآن موطىء قدميه لأن مصيره - قبل الاقتراح - كان موكولا الى خمسة قد يختلف بعضهم عليه ، فاذا به الآن موكولا لفرد واحد معلوم ميله اليه . . .

ومع ذلك فدأب ابن ابى طالب الا يتنكر لمبادئه وان رأى استمساكه بها يجر عليه الوبال . . . وما دامت هناك كثرة اخذت باقتراح عبد الرحمن فقد وجب ان يرضخ لمشيئتها ويأخذ به ، ثم له - بعد هذا - أن يتحرز للعدالة المفروضة فى الرجل الذى قبلوا ان يكون حكما يقضى بينهم بما براه .

قال حينئذ يستوثق من صاحب القول الفصل :

« اعطنى موثقا لتؤثرن الحق ، ولا تتبع الهوى ، ولا تخص ذا رحم ،

ولا تالوا الامة . . . »

فأجابه عبد الرحمن :
« على ميثاق الله »

ومضى عنهم يستشير الرؤوس والأشراف فى أمر رجلين اثنين
من أهل السورى ، قر فى باله انهما المتنافسان : هما على بن أبى طالب
وعثمان بن عفان .

أفكان هذا ميزانا عدلا ؟ .. وأين رأى جمهور الشعب والعامّة ،
وهم الكثرة الغالبة فى الأمة ؟ .. ومن يا ترى من رؤوس تميم كان
سيرضى بعلى منافس شيخ تيم ؟ .. ومن من أشياخ أمية كان سيقبل
سيادة غريمتهم الهاشمية ؟ ومن عسى من زهرة كان قمينا بأن ينكل
عن عثمان صهر رجلهم عبد الرحمن ؟ .. ثم من لعلى برضا يبنى عدى ؟
.. من له وقد رأت شيخها عمر قد هم أن يوليه ثم عاد فنكص ،
كأنما ذكر - فى اللحظة الأخيرة - منقصة فيه توجب العدول عنه ؟ ..

... وطلعت الليلة التى تكمل بها المهلة ، وتأرجحت دقائقها
ثقيلة على النفوس المنتظرة فان هو الا صباح ... وكان ابن عوف
قد ارق واقض مضجعه الفكر فانطلق فى دروب المدينة الهاجمة
يسير ، حتى اذا بدا له فى نهاية المطاف باب ، ذهب يطرقة على
ساكنيه ...

واستجاب له بعد قليل ابن اخته المسور قد هب على الطرقات
من مرقده وما زالت جفونه يشقلها النوم .

« ... أراك نائما ولم اذق هذه الليلة كثير غمض ؟ »

« ائنى قائم معك ائنى شئت يا خال » .

« فانطلق فادع الزبير وسعدا ... »

وانفرد هو فى مؤخرة المسجد بصاحبيه - وقد لبيا دعوته -
يحدث واحدهما بعد الآخر ... قد رأى انه أجدى على غايته أن
يستطلع رأى كل منهما وحده ، فلما عرف ما اراد ، قال للاول :

« خل ابنى عبد مناف وهذا الامر »

ذلك انه ايقن أن القوم لا يعدلون بعلى أو بعثمان ، فلم يعد هناك
مجال لمنافسة يعقبا خلافا ينشب بين الباقيين . وكان هذا رأى

عمر قبله ، صرح به ولم يكتمه عن اصحاب الشورى ، ولكننا لا ندري
اكان عبد الرحمن قد آخر الاخذ به حتى يستوثق ، أم يا ترى لانه
ظن - فى البدء - نفسه حقيقا بالخلافة ثم عاد فخذله الظن الآن . . .

وقال له الزبير وقد حميت فى عروقه دماء القربى :

« نصيبى لعلى . . . »

فمضى الى سعد يشرح له غرضه فى اللقاء ، ويحضه ان يدع
التنافس مقصورا على ابنى عبد مناف . ثم قال له وهو يحاول ان
يختم الحديث :

« . . . انا وانت كلالة ، فاجعل نصيبك لى فأختار »

وكذلك وضح ان مقياس هذا الاختيار الخطير لم يكن قدرة
الشخص الجدير بأن يقع عليه الاختيار . . ولم تكن آراء ناخبيه فيه
توجهها مكانته او يوحىها فضله بقدر ما كانت قرابتهم منه او صلات
أرحام بعضهم ببعض قادرة على التوجيه . وبحسبك ان رايت الزبير
يمالىء عليا للقربى ، وعبد الرحمن يأخذ من سعد نصيبه فى الانتخابات
لانهما كلالة وإنا عم . . بحسبك هذا لتعرف ان الشورى لم تكن
ميزانا وزن فيه التفضيل والتقديم بالقسطاس المستقيم ! . .

وقال سعد يجيب ابن عمه :

« . . ان اخترت نفسك فنعم ، وان اخترت عثمان فعلى أحب

الى . . »

ولكنه على أى حال تفضيل لا يرجح كفة المقضى عليه بالخسران
ما دام يبقى بعده الراى الذى يخسرها ، وهو راى عبد الرحمن ! . .
ثم هو أيضا تفضيل موقوت بأجل لانه كان رهينا بعاطفة عابرة متوهجة
كلمعة البرق ثم خبت فى لحظات . ذلك أن سعدا ذكر فى مقامه هذا
أن عليا - وقد خشى منه الميل الى عثمان - جاءه من قليل وقال :

« . . اتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم

رقيبا . . أسألك برحم ابنى هذا من رسول الله ، وبرحم عمى حمزة
منك الا تكون مع عبد الرحمن لعثمان ظهيرا على ، فانى أدلى بما لا يدلى
به عثمان » .

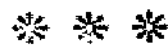
أجل كان سعد - فيما بدا - ما زال واقعا تحت التأثير العابر
الذى ولده فى نفسه هذا الحديث . ولكن الاثر لم يلبث حتى : ابله ولما

يزايل هو موقفه أمام عبد الرحمن ! .. وعاد قلبه ثانية سيرنه الاولى ،
لانه ما نطق بكلماته لابن عمه حتى سارع يردفها بهذا الاستدراك :

« .. ايها الرجل ، بايع لنفسك ، وارحنا ، وارفع رءوسنا ! »
فما اعجبه اذن من كلام يؤيد به عليا ثم يعدل عنه في آن ! ..
واجابه عبد الرحمن ولم يعد يوسعه أن يستجيب لتحريضه :
« انى قد خلعت نفسى منها على أن اختار ، ولو لم افعل وجعل
الخيار الى لم اردھا . »

وبهذه الكلمات كشف الرجل عن خبيء نفسه ، ودل على ضعف
ثقته ضعفا لا يستطيع معه تحمل تبعة حكم الناس .
وعاد بعد قليل يستأنف الحديث :

« .. يا ابا اسحق . انى رايت كروضة خضراء كثيرة العشب ،
فدخل فحل لم أر قط اكرم منه ، فمر كأنه سهم لا يلتفت الى شيء
مما في الروضة . ودخل بعير يتلوه فاتبع اثره حتى خرج من الروضة ..
ثم دخل فحل عبقرى يجر خطامه ، يلتفت يمينا وسمالا ويمضى قصد
الاولين حتى خرج .. ثم دخل بعير رابع فرتع فى الروضة - ولا والله
لا اكون الرابع ، ولا يقوم مقام أبى بكر وعمر احد .. »
فرمقه سعد بنظرة محذرة ، وقال له :
« انى اخاف أن يكون الضعف قد ادركك . »



وهكذا - مرة أخرى - تحدد الرؤى - والأحلام اتجاه الأشخاص
ومع ذلك فمنذا لا يقول انها ليست وحيا يوحى بقدر ما هي خلجات
المشاعر التى تملكهم ؟ .. انها بلا ريب الصدى لما في النفوس والصورة
المنعكسة البادية من خباياها ، وليس لها - ها هنا - تاويل ظاهر
اقرب الى الصواب سوى أن عبد الرحمن بن عوف ، بعد اعمال فكر ،
تبين بوضوح صدق رأى عمر فيه فعلم الآن عن يقين انه حقا أضعف
من أن يسوس دولة ، ولم تعد له فى نفسه ثقة باقية تحمله على
الطموح الى خلافة سلفيه .. وكعذر عن تجنبه تحمل تبعة الامرة التى
آمن بأنها عبء يعييه ، اسعفته واعيته برؤياه ليراها تعين ايضا
كل امير سواه ! ..

١٧

مال عمرو بن العاص على أذن على ، وهمس له :
« يا أبا الحسن .. ان عبد الرحمن رجل مجتهد ، ومتى أعطيته
المزيمة كان أزهد له فيك ، ولكن الجهد والطاقة فانه أرغب له فيك .. »
وتفكر على مليا ثم ابتسم لنفسه فلم يأت الرجل بجديد .. على
نحو ما ، هذا رأى يتفق وميله لأن المبدأ الذى يستلزمه كان حرية
العقل وطلاقة التفكير . وعلى قدر جهد رأى من حكيم بصير يأتى
الخير ، وليس على قدر اسلاس القياد جزافا لرأى الغير ..

ثم مضى ابن العاص الى عثمان بن عفان يناجيه :
« يا أبا عبد الله .. ان عبد الرحمن رجل مجتهد ، وليس والله
بمبايعك الا بالمزيمة ، فاقبل منه » .

كذلك راح الداهية بوجه وجاء بوجه . ونصح لثانى الرجلين أن
يستمسك بما نصح أولهما أن يقلع عنه ! ..

افكان عمرو ذكيا الى الحد الذى يستطيع معه أن يقرأ ما فى قلوب
الرجال الثلاثة . . .

كان قمينا ، بحق ، أن يعلم سلفا رأى عبد الرحمن في تروده
وضعفه وقلة ثقته بنفسه .. وأن يعرف أن الضعيف دائما هيب ،
لا يسلك السبيل الا اذا أمه سواه . واذا وثق بهذا فقد آمن أن
ابن عوف سيتخذ من يد غيره تكأة يستند اليها ليأمن العثار ، ويشق
بعونها سبيله .. وهذه اليد أسعفت بها رؤياه ..

نعم أسعفه حلمه وزوده بما لا يعجز بعده عن الاضطلاع بالمهمة التى
وكل أمرها اليه . وما عليه الا أن يغمض عينيه آونة يستعيد فيها
الرؤيا الى ذهنه ، ويلمح الروضة الخضراء ، ويلقى ببصره الى الفحل
الكريم حتى يقطعها ، ثم يستقبل من بعده البعير الاول ، فالثانى على
أثره يمشى قصد سابقيه .. حتى اذا اكتملت لديه الصورة بذلك
الذى رتع فى الروضة فأساء حيث أحسن الآخرا . سارع ففتح
عينيه ليبعد منهما ظله .. وما دام هذان قد نهجا نهجا مباركا فليكونا

اذن مثلاً أعلى لما يمكن أن تقاس به كرام الأباغر !.. وليحفظ دائماً صورتها في مخيلته ، وليتوخ أن يكون على غرارهما ذاك التالى المرجو ويلزم نفسه بانتخابه خلفاً لهما يتأثر خط سيرهما خطوة خطوة !.. كان قمينا بعمر و ان يقرأ هذا فيما جبلت عليه طبيعة ابن عوف من تردد وضعف . وكان من الذكاء بحيث يجعل من هذه النفس ، التى تنقصها الثقة ، منظارا يرى من خلاله ما سوف يكون من تصريف ذينك الرجلين المتنافسين : على وعثمان ، حسبما يوحى لهما خلقهما ويدعوهما استعدادهما النفسى الى تناول الحياة .. اما عثمان وأمره ميسور لأنه لا يكاد ان يكون نسخة ثانية من ذلك الحكم الضعيف فأحرى به أن يتأثر خطاه .. وأما على فان اعتداده بنفسه ، وفكره الطليق ، وتكوينه الخلقى الذى صاغ شخصيته على أساس من القوة مبن - كلها نمت مقدما على أنه لن يلعب أمام سواه دور الظل !..

ولكن هذا ليس وحده دليل الذكاء فى ابن العاص ، ولن يكون عمرو ابناً لأمه لو خطفت أمام عينيه فرصة تبرق ولم ير على التماعها مصلحة يلتقطها ! وفى العام الماضى استطاع هذا الجزار القديم أن يحول أنفه دائماً ليستقبل مهب الريح ، ويتنسم ما فيها . وكان دائماً ككلب الصيد يشم الفريسة ثم يتحرك بعد هذا الى حيثما تسير .. وهو اليوم لم يعد طبعه ، ولم نتخل عنه سليقته ولا داب التاجر الذى يزن الأمور بميزان الذهب قبل أى ميزان .

أجل سائر عمرو طبعه . وألقى بنصحه للجهة التى أرشدته اليها الريح ! - القاه الى الرجلين ، المتنافسين اللذين ان يكون غير أحدهما بعد قليل خليفة المسلمين ويكون ابن العاص فى نظره المشير الأمين ! وهو بهذا قد ضمن المثوبة ممن يملكها ، وليس بفيده حنق المنقلب بالخسار ..

وكذلك راهن ابن النابغة على الجوادين فى آن ..



واوشكت الليلة الباقية من مهلة عمر على زوال . وامت لحظة الفصل أو هى تطرق الباب ، فانطلق عبد الرحمن الى ابن اخته ..
قال له :

« يا مسور .. اذهب فادع لى عليا وعثمان » .

« بأيهما أبدا يا خال ؟ » .

« بأيهما شئت » .

ولم يقب الرسول سوى قليل ، ثم عاد بالرجلين الى المسجد ، وكان عبد الرحمن قائما فى القبلة فترثوا به حتى أتم ، فلما لمحهم سارع منطلقا الى ناحية ابن أبى طالب لا يريم .

كاد لهذه اللفتة ان يفيض امل عثمان ! . ولكنه لا يملك ان يحتج او يشور ولا يملك ان يدعوه ليبدأ به ، فليدع اذن ما بدأ من ميل عبد الرحمن - او ما ظنه هو ميلا - الى منافسه .. ليدع الرجلين يتساران .. وليمل هو الى آخر المسجد يقبع فيه مستحييا ، محاولا ان يخفى قدر وسعه ذلك اللون الباهت الذى رسمه على محياه شعوره بقرب الاخفاق .

وقال عبد الرحمن لعلى وهما بمنحى :

« .. انى قد سألت عنكما وعن غيركما ، فلم أجد الناس يعدلون

بكما » .

ثم تمهل برهة عاد بعدها يستأنف الحديث :

« يا أبا الحسن .. هل أنت مبايعى على كتاب الله ، وسنة رسوله ،

وفعل أبى بكر وعمر ؟ » .

فرمقه على بنظرة نفاذة ، وقال ولم يتردد :

« بل على كتاب الله وسنة رسوله ، واجتهاد رأى » .

كان هذا هو الجواب الحاسم ، الجدير بأن يلفظ به من له قوة خلق على واعتداده بنفسه ، ولن يضره ان يفقد صولة او ملكا بقدر ما كان يضره لو آثر ان يصل الى السلطان عن غير طريق حرية رايه وجهره بما يعلم انه حق ابلج لا تعتريه شبهة ، وما كان لامرئ ان ينكر على أبى الحسن علمه وحكمته ، ونضج آرائه وغيرها من سجاياء المثلى التى تؤلف من بينها اقوى دعامة يمكن ان يستند اليها حكم فاضل قويم ، ما كان لاحد ان ينكر عليه هذا او ينصه وان كان أبى بكر ، او كان ابن الخطاب بعد ان خبرا فيه تواحيه واستعانانا دائما برأيه الصائب اثناء اقتصادهما اريكة الحكم ..

ومع ذلك فان عبد الرحمن شاء ان يبدو كمن ينكر عليه ما اقر به صاحبه وآثر ان يسبق الاختيار باختيار التزم فيه نهجا لم يرسمه له

عمر قبل موته ، ولم يدع الى الاخذ به منطق مقبول ، جاء من لدنه بشرط للبيعة كان اولى به أن يعفى عليها منه ، وان وجب ان يلزم به كافة الناس سواه ، ولكن هكذا شاء الحكم العدل لأنه جاء وفي خاطره بغير ان يحاول ان يجد على نحوهما ذاك الذى يجمل به ان يتأثرهما كما لم يرسم - وان اوحى - الحلم !.. شاء هذا عبد الرحمن ، ف ضرب به مثلاً عجباً لأصل يتبع فرعه ، وحسناء وخيالها ، هو يبررها نابضة بالحياة وليست هى التى تعكسه صورة صامتة على صقال مرآة !..



ماذا عسى كان ابن عوف يريد به بشرطه ؟. ليحذر السياسة العليا للدولة ؟ - ذاك مرده بلا جدال الى صاحب الأمر ، له طريقته وله خطة العمل التى براها كفيلة بأن تسير آلة الحكم بانتظام الى الامام ، وهو رهين ايها بالظروف والاوقات ، لكل زمن نهج تعالج به مشكلاته ، قد لا يستقيم به علاج مثيلاتها فى زمان سواه .. ولئن بدا لعبد الرحمن أن يثبت من الأسس التى يزعم على أن يقيم عليها حكمه افلم يكفه أن يكون ذلك الأساس كتاب الله وسنة الرسول ؟.. وأى دستور وضعى يستطيع ان يسمع ، من النظم التى تضىء العدل وتضىء القوة ، ما وسعه دستور السماء ؟.. وفيه اذن ولم الشرط بتأثر خطى ابي بكر وعمر ما دام المشروط عليه قد أقر على نفسه بالتزام اوضح نهج واقوم تشريع ؟..

ولكن ابن عوف - فيما يبدو - لم يرضه هذا الاقرار بالتزام الأصول بقدر ما كان يرضيه ان يجمع اليه التزام التفاصيل ... وعجب أن تكون هكذا نظرتة ويكون شرطه ، هو العالم بأن الدستور الالهى فيه غناء عن فعل ذينك الشيخين ايما غناء ؛ وأتتهما آدميان ، بلا قداسة ولا تنزيه ، قمينان بالاصابة وبالوقوع في الاخطاء . ولو أن الرجل تفكر قليلا لعلم استحالة قبول على شرطه .. وكان حرياً به حقاً أن يتفكر لو أنه قدر سياسة حكم الدولة حسبما اشارت عليه رؤياه . أغمض عينيه عن الواقع الملموس وعاش في اغفاء حلمه ! ونسى في هذه الآونة .. التى نصبه القدر فيها صانعاً للحكام - أن

بعيريه الأمثلين لم يتأثر ثانيهما خطوات سابقة تمام التأثير ، بل خالف نهجه ، وخالف أيضا نهج رسول الله فى كثير من الأمور .. ولو كان عبد الرحمن قد محص رؤياه حق التمحيص لعلم أنها غررت به ولم نشر عليه بصواب .. على أى حال ، لا بد أن يكون قد عرف أن رجلا جاء ذات يوم الى عمر بن الخطاب يقول :

« يا امير المؤمنين .. عذبت امتك منك اربعا . ذكروا أنك حرمت العمرة فى اشهر الحج ، ولم يفعل ذلك رسول الله ولا أبو بكر ، وهى حلال .. وذكروا أنك حرمت متعة النساء وكانت رخصة من الله ، نستمتع بقبضة ونفارق عن ثلاث .. وذكروا أنك اعتقت الأمة - ان وضعت ذا بطنها - بغير عتاقة سيدها .. وشكوا منك نهر الرعية وعنف السياق » .

هذه أمور - على هوانها - تومىء الى ناحية من عمر اغفلتها رؤيا عبد الرحمن !.. ولكننا هنا لا نناقش الخطأ والصواب فيما رآه ابن الخطاب . بل نلمس الدليل الحاسم على انه رأى حقا لعقله عليه فتركه يعمل ويأتى بالنظرة المخالفة نظرة سلفه الى الأمور ما دعا الى هذا تغير الظروف واختلاف الأحوال . وحتى تلك النواحي التى لها خطرهما من السياسية العامة للدولة قد امتدت يده اليها بالتبديل والتعديل ، وتناول منها النظام المالى المعروف فهدمه وأقام آخر مغايرا على انقاضه ، لم يمنعه عن ذلك علمه برأى رسول الله وعمله ، أو عمل خلفه أبى بكر بذلك المبدأ القديم .

كان عمر فى هذا حاكما له سياسته التى آمن بصلاحياتها ، فلم يقف أمام سلفيه مكتوف اليدين أو معقود اللسان ، ولم يدع الماضى يحول بينه وبين غرضه . بل سار قدما الى شوطه ولما ينصرم من الوقت الا قليل على وفاة أول خلفاء رسول الله . وجاءت السنة الخامسة عشرة من الهجرة بنحو جديد لتقسيم الاعطاء على الناس ، لم ينحه محمد أو أبو بكر بعده ، فألقى عمر المساواة - أساس التقسيم - وفرض الاعطيات بدرجات .

فأى السياسات اذن أراد عبد الرحمن ان يلزم بها عليا قبل أن يدلى اليه بالبيعة ؟ وعلى أى الدساتير المستقاة من فعل الخليفين السابقين كان عليه أن يسير ؟ وبأى الشيخين كان يقتدى والأمر

لديهما تختلف منازلها هكذا وفق ما يوحى اليهما من اختلاف
النظرات والآراء ؟ ..

أما انها اذن لرؤيا حجبته كثيرا من الحقائق عن ذهن ابن عوف
حين اراد ان يلزم عليها شرطه ! .. ام هو يا ترى قد آمن بأنه لن يقبل
شرطه ، فشرطه ! .. ؟

١٨

الافق البعيد كاد ان يبدو صافى الزرقة من وراء ستار رقيق شابه
سواد ، والانجم غاب عنها بريقها ، كهيون وسنى ، والسكون تحت
السماض اضجره النوم ...

وكانت رمال المدينة صديا ، يفيض فيها - كقطرات مياه -
ديبب الأقدام القليلات التى مشت على الدروب .. وبين آونات
كانت ترن فى الصمت من هنا ومن هناك جلاجل قافلة تمر بالبطاح ،
أو ترنيمة حاد يحث ابله ، أو رغاء وثغاء .. ولكن اللحظات أخذت
تترى ، وكاد الرمل ان يبلغ ربه حتى لم تعد له طاقة على ابتلاع
خطرات الأرجل ، قد سارت الآن فى ركاب الزمن علائم الحياة ..

ومن الظلمة الممدودة اخذت تلمح اطياف ضوء واهن وتنشق بها
اسجاف الليل . اذا رنت نحوها العين رأتها محيا رائقا خلف نقاب من
دقائق السحاب ، تكاد غرته أن تسفز وتهب الدنيا بشير النور . وفي
السماض كان اللألاء هو الدعوة الصامتة الى البشر لاستقبال الفجر ،
وعلى الأرض تردد النداء جليلا رافعا ، باسم الله ، للصلاة ..

ولكنه ليس فجرا كسواه يبدأ يوما كبقية الايام ، وليس نداء
ككل نداء . انه مستهل المجهول المأمول ، وبداية المرقوب المرهوب ..
كل أولئك الذين لبوا الدعوة جاشت بخواطهم الرهبة مع الرجاء ،
ومشت الأرجل تحتهم مضطربة كأنما تحاذر - جهدها - أن تنهال
تحتها الرمال ، وتسارعت دقات قلوبهم دراكا كأنما تطاردها خشية
واشفاق أو تحثها منى وآمال ..

« الصلاة جامعة ! »

حتى هذه الأحرف اعتورتها هزة !.. أمن خوف المستقبل رجفت شفتاه أم من شوق لعهد قابل تمناه - ذلك الداعى في أعقاب السحر ؟ . انه هو أيضا من قومه ، صورة لكل مجيب لدعوته ، قد عاشت فيه ذات العواطف التى ملأت جوانح من قدموا على ندائه ، فملأوا رحبات مسجد الرسول وفاضت بهم ، فى القضاء حوله . جموعا تزخر .. ولم تطل بهم الصلاة وان بدت بلا نهاية فى حساب الأفكار ، وكانت الأعين موكولة بالمنبر ترسل نظراتها اليه وتتعلق بكل من يخطر نحوه . ومضت اللحظات دانية فى تمهل ، والقوم سكون ينظرون حتى بدا عبد الرحمن بن عوف الى جوار قبلة الأنظار ..

آن اذن وقت الفصل ، وجاء اوان اللحظة الحاسمة فى تاريخ هذه الفترة من الزمان .. واتسعت الأعين واشرابت الأعناق الى الرجل الذى بهم ان يرسم مصير امته بكلمات . كان يكاد ان يغمض عينيه ، ساهما لا تتعلق نظراته بشيء ، صامتا كصمت المكان . ولكن سمات القلق التى سرت فى أعضاء الجمهور لم تسر اليه ، وهممة الهمس التى تنقلت من افواه لأذان لم تصب بعدوى النطق شفتيه . ظل ساكنا فى موقفه هنيهة ، لا ينبس بكلام . وطال على النفوس المتلهفة اطرافه ، وطالت به حيرة الناس ، وظللت جبينه سحابة . وانعقد الوجوم على راسه حيناً . ثرثرت فيه السن كل من عداه .. اما هو فبقى ، فى حساباتهم ، كمن أصابه حصر - هو داعيهم لالقاء اذان وسماع بيان !..

ثم استطاع بعد جهد ان يرفع راسه ، ويمد البصر الى الجمع الحاشد فى جنبات المسجد وحوله .. ووسعه أخيرا أن يقول بصوت خافت لم تتمكن أن تتلقفه كل الأسماع وان تمكنت لجج الهمسات ان تطويه :

« .. ان الناس قد أحبوا ان يلحق أهل الأمصار بأمصارهم وقد

عرفوا من أميرهم .. »

« انا نراك لها اهلا . »

هذه نبرات صوت جاءه من أسفل المنبر يقطع عليه الحديث . وبحركة هدب مالت بها نظرات عينيه . استطاع عبد الرحمن أن يلمع رجله - تصيره المهيب به ان يتقلد سيف السلطان !.. كان هذا نسيب بنى الخطاب : سعيد بن زيد ختن عمر على أخته فاطمة .

ولكن ابن عوف لم يعد فى مقدوره الآن ان يسجيب لاغراء الدعوة ،
بل تأبى وقال :

« بل أشيروا على بغير هذا .. »

ثم التفت ثانية يخاطب القوم :

« انى قد سألتكم ، سرا وجهرا ، فلم أجدكم تعدلون بأحد هذين

الرجلين : اما على واما عثمان .. »

وكرة اخرى قطع عليه الخطاب ، ولكنه الآن بجرس داو رج

المسجد :

« ان أردت الا يختلف الناس فبايع عليا .. »

فاستدارت الوجوه الى حيث انطلق الصوت ، وانتهبت عيونهم

ذاك الآدم الأشهل . جاء حقا بدعوة حق ! .. وكالنار اذا علقت بهشيم

جاف ، سارت دعوته سراعا الى الشفاه والخلوق تتردد عنها حرفا

حرفا .. لكأنما كلمات عمار بن ياسر كانت المفتاح الذى فض اقفال

الافواه ! . من كل ناحية أتت الصيحات داعية الى الأخذ برأيه ،

وتجاوبت فى أرجاء المسجد كأنها صدى ما نطق به عمار .. ومن بين

هذا الهتاف جاء صوت المقداد :

« صدق عمار .. وان بايعت عليا سمعنا واطعنا » .

وكاد ان ينتقض الصفاء على ابن عوف ، ويضطرب الأمر . وهمت

ان تخرج من يده سلطة اختيار الخليفة الجديد بأن تسلبه اياها

ارادة الجمهور . ولعله فى هذه اللحظة قد اشتبه عليه البرأى فلم يدر

لاى الرجلين يجدر به ان يلقي الأمانة التى لديه ، على اى الحالات

قد حلت به فترة - وهو قائم على منبر النبى - لم يكن هو فيها

سيد الموقف .

يا ترى هل كتبت على أمية ان تنخلل ثانية امام هاشم ؟ . كان

حريرا أن تجرى الرياح بغير ما تشهى - فى قبره - ذاك القمىء

الدميم ، وبغير ما يشتهى الحاضرون من بنيه .. وكادت أن تبغتهم

قلوب الشعب التى اختلط بدمائها حب الهاشميين حين : بأبيهم

الذاهب صيته ومجده الى السماء رفعة ، وبابنهم رسول الله النبى

الكريم . فأى الخواطر جالت بأذهان سلالة عبد شمس وأميه اذ ذاك ؟ .

وكيف استقبلوا ثورة العاصفة النفسية العاتية التى فاضت بها نفوس

الشعب . فكادت ان تطفىء نارهم ، وتكفىء قدورهم كما فعلت

بهم - وبقریش المتألبة معهم على محمد فى يوم الخندق - تلك العاصفة الجوية التى أرسلتها عليهم السماء ؟ .. أحسبهم أصابهم العى الى حين ، وتلفتوا ينظرون بعين المبهوت حتى حمل لواء الدماغ عنهم دعى لصاحبهم ، ربطه واياه ثدى امرأة ، فقام يصيح :

« يا عبد الرحمن ! .. ان اردت الا تخالف قریش فبايع عثمان » .

فكأنما وضعت هذه الصيحة شقا من الناس على اهبة الكفاح ! ..

اكبروا بادىء الامر جراحة ابن أبى سرح أخى عثمان فى الرضاع وتقبلوا منه دفاعه حامدين .. ثم لم تلبث ان حميت فيهم دماء العصبية لكبير بينهم الذى وضعتة الاقدار ، ورجل بنى هاشم فى كفتى ميزان .

ولكن ابن ياسر لم يدع الصائح بلا جواب ، بل انبرى له يسأله فى تهكم مرير :

« ابن أبى سرح ! .. ومتى كنت تنصح الاسلام وأهله !؟ »

وانه لاستنكار جدير بأن يزوم الشفاه ويكلم الاقواء .

اجل صمت داعية أمية وعقد الخزى لسانه ، فما زال كما كان فى نظر الناس ، قد تجمل عليه كل ثياب الا ثوب الناصح الأمين للاسلام . وان رجلا على شاكلته خان ثقة رسول الله فيه ، وعبث بالوحى الذى وكلت اليه كتابته لأولى به أن يبتعد عن الحياة العامة عسى الأيام ان تسدل على خيائنه ستر النسيان . ولكنه من ناحية أخرى أراد ان يجزى احسانا باحسان ، ويرد ثليد التى دفعت عن عنقه سيف الجلاد كفاء بعض فضلها عليه ، وما دام عثمان قد استأمن له محمدا عند فتح مكة وترضاه حتى قبل أن يبقى عليه ، فان اقل القليل منه اليوم أن يقف داعية ينتصر لعثمان ..

الجمه الخزى فاطاش جوابه وعوابه وقبع يجتر حنقه ، ولكنه كان قد استطاع بكلماته القصار ان يعيد الى اصحابه الحياة .. لم تعد القضية الآن بين على وعثمان ، ولا بين هاشم وأميه وحده ، تشكلت بشكل جديد . انها كيان قریش كلها قبل كيان الافراد والأشخاص ، قریش التى كانت سياستها العليا دائما حسد بنى هاشم واقصاءهم قدر الطاقة عن مقعد الحكم ..

وقام منها رجل حفزه غضبه ينتصر لابن أبى سرح ويصيح بعمار :

« عدوت طورك يا بن سمية ! .. وما أنت وتأمير قریش لانفسها ! »

وكاد بعد هذا أن يفلت الزمام تماما من ابن عوف . علا الصخب
فى كل مكان ، وارتفع الجدل بين الفريقين ، وأوشك أن يقع بين
الناس ما تخشى عقابه ..

واهاب سعد بن أبى وقاص بصاحبه يحته !

« يا عبد الرحمن .. افرغ قبل أن يفتن الناس » .

كانت السرعة حقا جذيرة بأن تحسم النزاع وتقف به عند حد
مأمون . ولكن الحكم العدل لم يغب تردده عنه وبقي كدأبه .. فى
حديثه منذ قليل مع على وعثمان حزم امره على أيهما يختار ، ودعا
لاجتماع الناس اليه لسمعهم قراره ، فلما جاءت لحظة الفصل التى
اعد لها عدته وشى به طبعه الضعيف وغلبه التردد .. وللمرة الثانية
دعا اليه عليا ودعا عثمان لسمع منهما الجواب المألوف على شرطه
المعروف ..

قال له أول الرجلين بثبات :

« بل على كتاب الله ، وسنة رسوله ، واجتهاد رأيى » .

وقال الثانى وهو مسلسل القياد :

« نعم » ..

فصفق يكفه على يده وقال أ

« اللهم انى قد جعلت ما فى رقبتي من ذاك فى رقبة عثمان ! »

وكذلك - بين الصخب والضجيج واضطراب الآراء - فاز سليل

أمية بالمجد الذى حلم به أجداده طويلا ، وتمت له امرة الناس

- لا بالناس - انما بمشيئة رجل فرد من قرش كان هو الآخر

يترجم فعله عن عاطفة قبيله . تلك لحظة من الدهر بدت فيها الأناية

العصبية كما لم تبد بمثل وضوحها فى غيرها من لحظات الاسلام

السوالف ، ولسوف تكون عنوانا على عهد تقدم فيه الشخصيات على

الجماعيات . ولئن لم يكن عثمان متهما اذ ذاك بحبه ذاته فلقد كانت

من ورائه اسرة تدفعه أمامها كما يدفع الريشة نوء ، وانى لها أن

تصمد له !..

اهذه حقيقة ماثلة ..

اولئك الذين فجأتهم كف عبد الرحمن اذاروا اعينهم فيما امامهم
كانما استيقظوا لتوهم من كابوس ! قد كان الرجل اسرع الى قطع
الامر وهم يقطعون الوقت بينهم وبين غرمائهم فى جدال ، وسبقت
كفه الى يد عثمان تشد عليها قبل ان يسبقوا بحجتهم حجة الحزب
الآخر ، فلما استطاعوا ان يعودوا الى الوعى وتبينوا الموقف راوا عثمان
قد اقتعد من منبر رسول الله الدرجة التى وقفت عليها قدما
عبد الرحمن واقبل الناس عليه يبايعون ..

اهو التسليم يا ترى ام هى الثورة ؟ .. قد كان فى مقدور الفئة
المغلوبة ان ترفع علم العصيان بل كان أولى بحالتها النفسية اد ذاك
ان تعلن التمرد ، وكان رجالها - لو فعلوا - من جند الحق . كلهم
ذو قدم فى الاسلام وذو يد عملت جاهدة لرفع صرح الدولة ، وما فيهم
- هم الذين حملوا ارواحهم على الاكف ابان اضطراع الشرك والايمان -
الا المشوق الى الموت فى سبيل مبدا ، الزاهد فى الحياة مع الطغيان .
وانهم لكتائب الله الاولى التى آذرت نبيه ، واندفعت معه من شعاب
مكة - افرادا - بقوة اليقين حتى غطت اقطار الارض ، لم تنحلها
النصر عدة السلاح بقدر ما قطفته يانعا من اشواك انكار الذات ،
ولو انهم اعوزتهم الاسنة لحاربوا العالم اجمع - فى سبيل قضيتهم -
وغلبوه بالظفر وبالناب .. ولكنهم اليوم ليسوا عزلا تماما .. وان
فى ايديهم لعدة تترجم عن ايمانهم باللغة التى يفهمها الغرماء ، وفى
عدادهم المقداد راس الجند الموكل اليهم حفظ النظام ..

ولكنهم جهدوا ، وجاهدوا انفسهم حتى ألزموا التريث .
وتعلقت ابصارهم برجلهم المحبوب المفلوب .. فى هذه الآونة لمحوا
عبد الرحمن يشير اليه بعين ويدعوه . فيم الدعوة هذه ؟ - من البين
لكى يبايع . وتلبثوا ينتظرون ، وحبسوا الانفاس وأرهقوا الاذان .
فى صوت خافت كانما يحدث نفسه ، قال عبد الرحمن :

« ومن نكث فانما ينكث على نفسه .. »

ادعوة هذه يا ترى ام وعيد ؟

وجاءه الجواب من ابن أبى طالب صريحا واضحا كسجيته :

« حبوته حبو دهر ! »

والتفت صوب قریش الملتئمة الجمع حوله ، المتألبية الاحقاد عليه ، وقال بنبرة الممرور :

« .. ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون . »

ما كان له فى مثل هذا المقام الا ان يحكم الله فانه غالب على امره ، ان شاء عفا او شاء عاقب ، ولكن لا يستطيع مطلقا ان ينصب من نفسه خصما وحكما لعبد الرحمن في آن ، ولا يقره على ههنا طبعه .. وحتى ان احس الغضبة فى قلبه تشور لحق سلبوه اياه ، فان منطق العقل عنده كان يسبق دائما منطق عاطفته . ولو انه اراد لاشار فتبعه جموع وجموع ، ولكن الاسلام كان اكرم عليه من ان يثير الفرقة بين اهله من اجل حقه المغضوب . وقديما وقف هذا الموقف الضنك فآثر ان يبوء بالخسران وامته موحدة عزيزة الجانب .. ولم يملك عبد الرحمن امام هذا الاتهام الصريح الا ان يبرر تصرفه فيقول :

« ... انى قد نظرت ، وشاورت الناس فاذا هم لا يعدلون بعثمان . »

فقيم اذن كان عرضه الامر على ابن ابي طالب لو صح ما قال ؟ .. وقيم المساومة على امر نبين له وظهرت خواتيمه ؟ وهب عليا قبل منه شرطه افكان اذن جديرا بان يقلده الامر على غير رضا من الناس ؟ وجاءه الجواب قاطعا كالسيف :

« والله ما وليت عثمان الا ليرد الامر اليك .. »

نسرت المهمة فى انحاء المسجد . اما على فقد عاد ثانية يواجه الخصوم بشجاعة قلبه ، ويخاطبهم بمنطقه السليم عن المبدأ القويم الذى ألزم به نفسه ، قائلا :

« لقد علمتم انى احق الناس بها من غيرى .. والله لاسلمن ما سلمت أمور المسلمين ، ولم يكن فيها جور الا على خاصة ، التماسا لاجر ذلك وفضله ، وزهدا فيما تنافستموه من زخرفه .. »

وشق طريقه فشد على يد عثمان ، ثم غادر المسجد وعلى شفثيه هذه الكلمات :

« سيبلغ الكتاب أجله ! »

اجل كل بدء الى نهاية ، وكل مستهل الى غاية ، ولن تكون العواقب
الا كما تنبىء البدايات ..

استقل الرجل هذه بخلاف وانهاه بخلاف . ومضت ايامه فى
التاريخ مثلا للفرقة التى مشت ديداها فافسدت جماعة كانت مثلا
للألفة ، وقضت على كيان صلد متين ... حقا لم تتمزق الدولة ابان
حكمه ، ولم يصبها الوهن ، ولكنها أضحت دولة كالأخر لا تمسك
اجزاءها الا القوة ، وكانت من قبل تشدها الى بعضها البعض الأخلاق
... والخلق دعامة ركينة تهب القوة ولا تحطمها قوى السلاح فى
ميدان صراع وكفاح ...

هذه خواطر جرت بأذهان بعض الحشد القائم فى المسجد يتأهب
لبیعة عثمان ، وكادت تتجسم امام ابصارهم وهم يرونها بعين البصرة
... اولئك أصحاب العقائد والمبادئ والمثل العليا . الذين وهبوا
حياتهم للحق وعاشوا به ، لا يخشون بطش السيف ولا حدة السلاح .
قام بينهم عمار بن ياسر ، وقد غلبت غضبته على أدمة وجهه
حتى كاد أن يتلون بحمرة الدم ، وصاح ينذر تلك القبيلة التى عدت
على حق صاحبه وسلبته اياه بالعصية لا بالجدارة :

« يا معشر قريش ! اما اذا صرفتم هذا الأمر عن اهل بيت نبيكم ،
ها هنا مرة ، وها هنا مرة ، فما أنا بأمن أن ينزعه الله فيضعه فى
غيركم ، كما نزعتموه من اهلك ووضعتوه فى غير اهلك . »
وهتف من بعده المقداد :

« ما رأيت مثل ما أودى به اهل هذا البيت بعد نبيهم ... »
وكأنما خشى ابن عوف مغية هذه الثورة النفسية التى ما زالت
نارها تضطرم بين الجوانح فسارع يحول بينه وبين الاستمرار فى
حديثه ... حتى بكلماته تلك كشف « صانع الحكام » من غيرته على
المجد الذى طوق به جيد قبيلته ، ورفع القطاء عن عصبيته ... قال
بلهجة السادة المترفعين عن طبقات الناس :

« وما أنت وذاك يا مقداد »

فايتسم له « ابن الشعب » بسمة كالعبسة . وصاح به :
« انى والله لاحبهم بحب رسول الله ، وان الحق معهم وفيهم .
يا عبد الرحمن ... أعجب من قريش وانت تطولهم على الناس ! »

اهل هذا البيت قد اجتمعوا على نزع سلطان رسول الله بعده من ايديهم ... »

وعلا جرس صوته ، ورن داويا كالزئير وهو ينم كلامه :

« اما وايم الله ، يا عبد الرحمن ، لو اجد على قریش انصارا لقاتلتهم كقاتلى اياهم مع رسول الله يوم بدر ! »

فأى استقبال حافل هذا الذى قابل به خير صحابة رسول الله عهد عثمان ؟ وبأى الاحاسيس ملأت احاديثهم المرة قلبه ؟ .. بدت وشاعره على وجهه سمات معلومة تقرأها الاعين المتطلعة ، حين وقف بعد قليل على المنبر ويقول اولى خطبه لشعبه ... كان حسن الصورة مليح الحيا رغم تقدم عمره ، ولكن لونه غلب عليه شحوب عابر أحاله باهتا كالفضة ، وحتى هذه النكتات التى خلفها الجدرى على خديه ، وكانت قمينة ان تظهر سمراء ، كادت تخفى عن عين الرائي . وكان وجهه مرآة الحزن ، طافت الكتابة بقسماته لكأنما استطلعت نفسه ضمير الغيب !.

وحتى كلماته ايضا ! ... لقد كانت تقطر بما يحسه ويعتمل بقلبه من هم واصب جره عليه شعوره الحزين ، وما كان لامرئ أن يصف بغير كآبة النفس من يقول مثل ما قال :

« ... انكم فى دار قلعة ، وفى بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه ، فلقد أتيتم صبحتم أو مسيتم ... »

ولكن هذا الشيخ المهموم ، المنقبض الصدر فى ساعة ظفره ، الذى زوده بالحزن شعور غامض ، اجتمع له سوء الطالع الى جوار همه ، وأبى النحس الذى حاله من بعد طوال عهده الا أن يسير فى ركابه مذ اللحظة التى دفع قدمه الى المنبر ليخطب الناس ... لم يكن هو ملقيا باله الى خطواته بل تقدم بلا وعى يعلو درجات المنبر حتى وقف على نفس الدرجة التى كانت تطوؤها اقدام الرسول . كان هذا جديرا بأن يثير عليه الاستنكار وغضب الناس وقد علموا أى مكان كان يقفه أبو بكر ويقفه عمر من درجات هذا المنبر . ما جال يوما بذهن السلفين أن يضعا أقدامهما وقدمى رسول الله على سواء كما يفعل هذا الخليفة الجديد . اهو الكبير والصلف والاستعلاء ... ؟

بل هو نحس نجمه وسوء طالعہ . ابيا عليه ٧١ أن يستفتح عهده
بالخلاف وهمس الاستهجان والانكار بدل الترحيب والتهاف ساعة
الانتصار ...

٢٠

الكتابة التي احس بها عثمان لم يكن لها صدى الا في قلبه . كان
خافض الرأس مهموما اذ يسير الى داره قبيل غروب يوم نصره .
لم يحس فرحا او راحة لاختياره سيدا للناس . ولكن الفرحة التي
لم يستشعرها فاضت بقلوب ذويه ... حفوا به من كل ناحية ولفوا
حوله كالسوار ، وانطلقوا معه ، خفافا يكادون أن يسيروا على الهواء .
هذا يوم خالد على الزمان ! ...

اجل انه هو اليوم الذي اطلع - في خواطرهم - امية من قبره ،
ونشره حيا في شوكة مجده : ذهب عنه خزي النفي الى الشام
وما ذاق من مرارة الهزيمة التي جرعه كأسها عمه هاشم ، واستطال
شرفا - هذا اليوم - على غالبه القديم ... اما ذلك الماضي وما كان له
من ذكرياته فقد غاب وتوارى وجهه ، وبقيت منه هنات توافه لا
تعلق بالنفس الا لتحفزها على التشبث بالغد المرقوب - ذلك الغد
الذي استخفت اشراقته بنى امية حتى انطلقوا حول عثمان خفافا
كانما يسرون على الهواء ! ...

وضمنتهم معه الدار . كل من فيها طافت به نشوة الظفر الا ذاك
الذي لبس تاجه ... ومن ناحية أقبل رجل مشتعل الرأس بالشيب
شوه الجدرى وجهه فزاد من قبحه ، وتغورت احدى عينيه فيدت
كالفجوة . وكان بدينا بادی القصر ، يتلمس طريقه في ظلام بصره -
ذاك أبو سفيان بن حرب قد شاخ وفقد ضياء ناظره ...

أقبل على بنى بيته ، منفرج القم عن بسمه سبقت فيها الشماتة
فرحته ... وقال يسأل :

« افیکم أحد من غیرکم ؟ »

« كلا »

فنصب قامته ، ورفع من احناء رأسه التى خفضها العمر .
لعل أحلام شبابه كلها حضرته فى هذه الآونة وهو يهيب بالحاضرين :
« يا بنى أمية ... تلقفوها تلقف الكرة ، فوالذى يحلف به
أبو سفيان ما زلت أرجوها لكم . ولتصيرن الى صبيانكم وراثه !.. »
وانها لدعوة !.. وانها حلم نفذ من الأجيال المتعاقبة خلال عبد
شمس وأميه وحرب ثم استقر الآن حقيقة ماثلة أمام أذهان أحفاده
الحالمين به !.. فما أسعدها اليوم حقيقة ! وما أجلها غاية اتى بها
الزمان !..

كادت الحناجر ان ندوى بالهتاف للشيخ ثناء عليه ، وتنطلق
داعية كما انطلقت نفوسهم - فى فراراتها - مؤيدة مليبة ... فهذا
المجد الجديد الذى اشتاقوه من قديم جدير بأن تهفو قلوبهم اليه ،
ونعش انيابهم عليه !

ولكن عثمان لم يكن صافى المزاج فى اثناء الدعوة فلم يتلقها
بقبول ، انه لم يسغ نلامرة طعما شهيا حتى يلح بها على ذوقه !..
ولم يكن فى الحق بالرجل الذى يملك حب الحكم عليه نفسه - لا عن
زهادة فى المنصب ، بل بعدا عما يعيبه الاضطلاع به . ولكن كان
طالعه قد نصبه على رأس امته ، فما أحسبه أحب ان تنزلق الامرة
من بعده الى أسرته .

على ان رغبته وحدها ليست بالثقل الذى يرجح الميزان . او
العامل الفعال ذى التأثير الأخير فى سير الأمور . فما من امرئ
يستطيع ان يعثر على اثر واضح للرجل فى شأن اتاه ابان حكمه
الا ولمح اصابع آخر . او آخرين من آله ، قد دفعته اليه . . لم يكن
عثمان صاحب مشيئته او سيد عزمه ، بل كان رخوا دائما فى اكف
أسرته . . او كان الثوب الذى استطاع ان يلبسه بنو أمية قبل ان
يحين لهم لبس أمثاله من ثياب ! ولا أحسبه منافيا لحقيقة الحال ان
يؤرخ لهذا الرجل كأول عاهل فى دولة الامويين ! ...

نهر عثمان أبا سفيان ، ولكن البذرة التى وضعها أمية جاء اوانها
لتثمر ، وبدأت مع الزمن تنبت من ارض الحقد . وكانت كلمات الشيخ
هى العهد الذى جدد به - أمام بنى بيته - طموح اسلافه . ولم يكن هناك

هاشم يفض من حولهم الناس بكرمه . ولم يعد هناك محمد أيضا ،
الذى قهرتهم شريعته ، وأيدته في كفاحه باطلهم يد الله ... ولكن الباقي
في المعسكر المناوئ لهم كان شابا أوفى على رجولته بحساب العمر
ونضج واكتمل نماؤه بمقياس الفكر ، ليس بدى جاه يجذب اليه من
استهواهم الجاه ، ولا بدى مال ، يشتري النفوس ويملكها سلعة ...
وانما كان صاحب حق في آونة كاد طابعها ان يكون استباحة الحقوق ...
ومع ذلك فقد انطوى على نفسه كما فعل من قبل وآثر ان يفض
البصر عن ترائه المسلوب ، وان يصبر ، ويركب اعجاز الابل وان طال
السرى وامتدت الشقة واجهدته المشقة .

هكذا كان الرجل الذى أقصاه عبد الرحمن وكانت سماحة طبعه :
لم يلتمس حقه مطلقا عن طريق عنف أو ثورة وكان بمقدوره ان يسترد
لو أراد . ولكنه كان من طينة أخرى غير التى جبل منها خصومه ،
لا ينقض وعده وان ضاع حقه بالوفاء . وكان ممدود النظر الى أبعد
الآفاق .. وبينما كان هو يتوخى دائما صلاح أمته على حساب نفسه
كانوا هم يحرصون على صلاح أنفسهم بدافع من العصبية وحب الأهل
أو حب الذات ... وكانوا دائما امامه يحملون لواء العداء تماما كما
ارتسمت لهم سنة الأسلاف لانهم كانوا يناجزون فيه هاشما قبل أى
إنسان .

هذه حقيقة وعنها نفوسهم وانطوت عليها وان حاولت جهدها ان
تنكرها الألسن ، لا فرق فيهم بين رفيع أو وضيع المقدار ، لانها كانت
جرثومة الحقد ، التى سرت في دماثلهم موروثه عن الأجيال المتعاقبة
من الآل ...



وهل كان التاريخ الا صورة مكررة ؟

ذات يوم مضى ، شفى أبو سفيان من جسد غله .. وكان الجسد
على الأرض لقى شائها ، مست فيه سكين امراته التى فاقت ضراوتها
وحشية لباة الغاب ، وعبثت أصابعها بأحشائه بعد ان بقرت بطنه ،
ولأك فمها هنيهة كبده المرير ثم لفظته ، ومضت عنه .. وأقبل من
بعدها زوجها يشفى .. أهذه صورة أخرى من هاشم على ثرى
أحد ؟ ..

ثم راحت السنون ، واستبدل الرجل بشره الاسلام . فالى اى مدى يا ترى خفف الدين الجديد من غلوائه والان قلبه ؟ .. انه ليسعى الآن امام العين كمثّل سعيه الاول ، على ذات الارض ، بسفح احد .. ولكنه اليوم قد وهن قوى ، ودب بخطو مضطرب ، يكاد به ان يتعثر فيما يصادف قدميه لولا غلام الى جانبه يقوده . كان عائدا لتوه من دار عتمان ، فى قلبه قد اصطخب الفرح ونشوة النصر ، يتمايل عن تيه وخيلاء . وكانت المدينة قاعدة امير المؤمنين الجديد وراء ظهره ، ومكة بلدة البيت قبلة خطوه .. فلم تكن به حاجة الى التزام هذه الناحية من الطريق ، ولكن هاتفا بقلبه دعاه ان يفعل فراح يسير بين القبور ..

اهى روح عزيز لديه دعتة ان يمر بمشواه ؟ . بدا هذا ، فقد مال على اذن الغلام وهمس له ، وتقدم يحث خطاه . امشوق ؟ اهاجت بقلبه ذكريات ايام حلوة قضاه فى شبابه وصاحب المقبرة ؟ مشوق حقا لانه يكاد ان يشب وثوبا رغم عماه .

وتوقف بعد قليل .. ها هنا حمزة الشهيد - عم رسول الله ، مسجى تحت الحصى والرمال . وقف امامه ابو سفيان يتطلع ببصره الجاف .. عسى الرجل اراد ان يكفر عما فات من قسوته ، وتمثيله بعد امراته - ايام كفره - بهذا الجسد الطاهر ، اشنع تمثيل ! .. لعل اسلامه قد الان قلبه ! .. لعل نازعته صلات القربى فجاء يترحم على هذا الثاوى فى طوايا التراب ! ..

وتقدم ثانية خطوة او اخرى ، والقى ببصره المتغور على القبر ، ثم حرك شفّتيه بالكلام .. فآى كلام ؟ انفرج فمه الادرد القبيح عن اقصى بسمة تستطيع ان تصوغها شفاه لتعبر بها عن الحقد والشماتة ، ثم خرج من جوفه حديث كأنه فحيح أفعى ، وقال :

« يا ابا عمارة ! .. ان الامر الذى اجتلدنا عليه بالسيف امسى فى يد غلماننا يتلعّبون به ! »
وركل برجله القبر ، ثم مضى مثلوج الصدر اذ اصاب ثاره ! ..

الامام
عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ

الجزء الثاني

تأليف
عبد الفتاح عبد المقصود

منشورات مكتبة العرفان
بيروت

صيحة رافعة . . . تسمع الصم ولا تستطيع دفنها أذن نائم . لها في
السمع دوى مجلجل ، وفي القلوب أصداء ، وعلى الشفاه همسات تلتئم حديثاً
بيناً يطير في الآفاق .

هي في أصلها شعور قلب : رقيق كالنسمة السابحة مع الفجر ، صاف
كالنبع المتفجر من صخر . . . استوعب مشاعر فقراء قومه وما زخرت به
قلوبهم من عذاب الحرمان ، ووعى في ذهنه خواطرهم التي كتموها حيناً ثم
راح يثنها بلسانه في كل مكان .

وكانت رهيبة كصوت القدر ، قاطعة كالسيف لأنها حق ، رنانة الجرس
كقصف الرعود أو صليل السلاح . . . ما سمعها أحد ينكرها إلا تلفت
حواليه من خشية . ثم انطلق يفر من جزع وقد اضطرب فؤاده كالجنحاح
بين جنبيه ، وود لو ردها عنه أن يضع أصابعه في أذنيه .

وكانت أيضاً شجية كأغاريد ، رقيقة حانية ، قد تسكر السامع وتحرك
الدامع . . . إذا ردها الليل هفت إليها قلوب من ولعوا بها قبل الآذان ،
وإن حملها الصبح تلمسوا مصدرها ، مشوقين خفافاً ، كما يلبي العابد
نداء الأذان .

جاءت كنسمة الصبا من الشمال ، طيبة ريانة . . . ثم انطلقت سباقة إلى
الوادي الأجرد ، تقطع الصحراء — بغير وني — من الشام إلى قلب الجزيرة
حتى حاضرة الإسلام . . . لم تقف بها في مسراها أودية وشماط ، ولم يخفت
من حدة صوتها حجاب أو باب . . . بل مشت في أعقاب صاحبها
— الهاتف بها من قلبه — كما يتبعه ظله .

حتى المدينة أيضاً سار فيها ظله . . . فحين دلف بهيكلكه الضامر ، وخطت
قدماء الناحلتان على دروسها ، وتطلع بصره النفاذ إلى مسالمها ، وهفت وجهه

المعروق غبرة حزن . . . أهذه حقاً مدينة رسول الله ؟ . . الأرض الطيبة
الحيا والممات ؟ . . البلدة التي خلفها منذ أعوام عالماً وحدها من الإيمان ؟ . .
لكم لب بها الزمن إذن وأحال معدنها الحر إلى مظاهر وقشور ، ومشت عليه
شراة النفوس حتى صدى وغاب لمعانه ! .

أضحت بلدة غير البلدة ، كأنها استماتت ثوب أختها في الشمال . . .
كذلك بدت في عينيه لأول وهلة حتى حسب أنه في دمشق لم يرحبها ولم
يخرجه منها عاهلها العاتى . . . ولكن ذهنه تاب إليه في لحظات وقد وخرته
آلام نخذه . ألا عفر الله لمعاوية وأوسع له في عفوه بقدر ما أساء إليه . . .
وعفا أيضاً عن صقالبته الخمسة : أولئك الذين وكاهم بهذا الشيخ الداوى
التحليل يطرون به الطريق كلها من اشام ، خلال سمير الصحراء ، على بعير
عار ولا يترشون به مرة واحدة ليستريح . . . ومع ذلك فقد حاول أبو ذر
طوال الرحلة الشاقة أن ينسى آلامه ، وأن يهين نفسه لمقام — خير من مقامه
ذاك على حدود الروم — تطيب نفسه فيه . . فاذا لقي بعد أن انتهى به المسير ؟ .
كاد الشيخ أن يطالع صورة ثانية من حاضرة الشام في حاضرة الإسلام . .
أما البلدة الفاضلة — مدينة محمد القديمة — فقد كادت أن تختفي خلف
البذخ الصارخ . أين ما هي فيه اليوم من رفاهة ولين مظهر مما نشأها
عليه الإسلام من خشونة وصلابة عود . . . وكيف غلبت عليها سريعا هذه
الميوعة المنتقلة إليها كالوباء من أرض الروم خلال بلاد ابن أبي سفيان ؟ . .
با ترى هل آثرت أن تستبدل بمسوح الزهد والوقار غلائل الترف والاستهتار
لتعرض نفسها سلعة في سوق الدنيا ؟ .

واعترضت يد الأسى قلبه الكبير وعصفت به . ما كان أحب هذه
الأرض إليه وما أشد ما أصابها عليه . . . إن تربها الذي طهرته أقدام
المهادى ، وبللته دماء الشهداء ، وذكت فيه دوحة دين الفطرة بهم اليوم
أن يطلع نباتاً خبيثاً . فأينما ولى الشيخ بصره في نواحي البلدة رأى رفاهة

ورقاً وجدة حتى لأوشك أن يحسب نفسه الشيء الفقير القديم الوحيد في المدينة! حتى مسجد الرسول زالت عنه بساطته السالفة وحشدت على حيطانه النقوش والزخارف فبدأ اليوم على غير ما كان . وهذه الدور ، التي كان عهدده بها مساكن صغيرة لا تكاد أن تمنع عن أربابها لفح الهجير وقر الزمهرير ، ما لها ذهبت الآن قصوراً شاحخة تطاول السماء؟ ... أرقّت الأجسام فوهنت القلوب التي قومتها قوة الإسلام ؟ .. إنه ليقرب كفيه أسفاً وبصره بتنقل حائراً بين هذه المظاهر التي لا ريب تنبئ عن خور وجنوح إلى الرخاوة والضعف . وما كان له إلا أن يأسف وهذا أمير المؤمنين نفسه — الرجل الذي صاحب نبيه الزاهد العزوف ، قد أقام له قصرآ كالعروس المجلوة بين هذه القصور ، له شرفات وأبراج على عمد من مرمر شفاف كالعاج .

هذه المعالم الفاخرة لم تكن في ذاتها ما ملأ قلبه أسى وحسرة ، بل دلالتها ... إنها العنوان البغيض لسفر الأخلاق الذي سطرته حديثاً سهوات الأنفس الزائغة عن بساطة الدين إلى زخرف الحياة ! ... إنها الرده ثانية إلى متع جوفاء كادت دعوة محمد أن تغيبها في قبر الغابر . وكان أبو ذر دواماً يؤمن بالجواهر ويكفر بالمظهر : يعلم أن قوة الرء في قلبه لافي ثوبه ، وحدة الحسام بحده لا بغمده .

كذلك بدت المدينة — غب نفيه إليها — في ثوب دمشق - متبرجة كالصنم في يوم عيده ... لم يكد يحس فيها براحة النفس التي أعانها ، بل سريماً عاوده شعور الاستنكار وهو يجوس دروبها تماماً كما كانت حاله من قبل وهو يذرع طرقات حضرة الشام ويجأر فيها بصيحاته . ما ترك الجنوب إذن للشمال منقصة لم يبارده فيها ، لا ولا مذمة ! .. وهؤلاء الرجال الذين طالما شد آباؤهم على بطونهم حجارة — تأسيماً برسول الله — لقهر الجوع ، قد أصبحوا يخطرون الآن في مصيبتات الديباج ، مصمرين الحدود شاحخين بالأنف ، ولا يأبه أحدهم أن يظأ في خيلاته أخاً له في الدين ألقاه الطوى على الثرى وآذاه الجوع ... يا رحمة الله ! هذه أمة ، بفضل إيمانها المبني

فلى نكران الذات ، دان لها العالم المترف ورجالها فى أسمال ، فالحا اليوم تدين
بشرية المال وتمنو لسلطان المال ؟ .

وبمثل دوى الرعود القاصفة ، وصليل السيوف ساعة الجلال ، عادت كرة
أخرى إلى الظهور دعوة هذا الشيخ الذى نذر حياته لإنصاف الفقراء من
ذوى اليسار :

« . . . وبشر الذين يكتزون الذهب والنمضة ولا ينفقونها فى سبيل الله
بمكاو من نار » .

٢

. أهى زلة عصية على الفئران أن يملك عثمان المال ويبنى فيملى فى البناء ؟ . .
من عجيب أن النفوس التى ثارت عليه ، وصلت إلى حد كانت لا تستطيع معه
أن تغفر ، لأنها رآته — وقد جعلت الخلافة الأمر له — كمن أراد أن تكون
الدنيا أيضاً له وما أحسبه إلا قد زودها من مقومات الثورة وأسبابها
بأدم زاد .

هذه هى نقطة التحول فى حياة الخليفة المنكود . أو — على التحقيق —
فى الأثر النفسى الذى انضمت عليه جوائح شعبه حيماله . . . أما الواقع
فلا ينكر على الرجل أنه كان مترقياً طول عمره من قبل الإسلام . وكان
غنياً مسباحاً ، سخي الكف والقلب ، له فوق هذا من السجايا الخلقية
ما يجذب إليه الناس ويؤلفهم حوله . ولكن الشعوب دائماً تحصى حركات
قادتها ، وتمنى يتصيد هنات حاضرم بغير اعتبار لما أولوها فى غواير أيامهم
من أفضال . وقد نظرت الأمة الإسلامية إلى عثمان من خلال نفس المنظار
الذى كانت ترقب به سلفيه ، فهاها أن تجده من طراز آخر : معنياً بمظاهر
دنيا لم يقبل مطلقاً عليها وزهد فيها قبلهما رسول الله . . . وكذلك كانت
الحال حين تفتحت الميون على الترف السابق الذى خاضت فيه الدولة الناشئة

وخاض فيه الخاصة . واستطاع كل غائب مغرق في الاهتمام ، أو غائب مستلهم بساطة الإسلام أن يرى الرجل بالتشبث بالجانب الباطل من الحياة : هذه الرفاهة وهذا الولع بكنز المال ... فما كان - في رأيهم - إلا مثلاً لسواء من عماله وذوى قرباه والكثرة الغالبة من صحابة رسول الله ؛ ساروا جميعاً على شاكلة ونهجوا نهجه . أو كان - بأعدل الآراء - الحاكم الذى له القدرة على الحد من غلواء أولئك الترفين ولكنه أغضى عن هذه النسلواء . على أن النصف يمكنه أن يبعد عنه اللوم قليلاً . فلم يكن هو الذى أغرى الناس بالترف وحب الثراء ، بل هى طبيعتهم البشرية التى حضتهم على التملك ، وظروف الدولة الفتية التى اتسحت رقعتها فى أعوام معدودة فضمت تحت جناحها نصف العالم الحبيب . وما أحسب بدوياً نبت خلال جدوبة الصحراء ، وعانى مرارة الحرمان فى رمالها المستعرة ، إلا يعمل قدر وسعه - وقد تفتحت أمامه الأبواب - على جمع المال الذى يجلبه الفاقة والشظف وسوء الحال .

بهذا قضى منطق الحوادث قضاءً لامعدي عنه ، فاستجابات له طبيعة الإنسان ، وله اتسع فهم عثمان ، كما اتسعت موارد دولته الآخذة فى التمام ، فزاد عطاء الناس مائة درهم منذ اليوم الذى امتلك فيه مقاليد الحكم . وهكذا أبدى الرغبة الصادقة فى أن تعمل الدولة جاهدة لمصلحة الفرد . وخط عنواناً أميناً لسياسة حسنة - لو أنه احتذاها طوال أيام عهده - لكان تغير تاريخه المعروف .

وفى الحق لسنا نملك إلا أن نحكم له بحسن نواياه حيال الشعب كلما تقبمنا عن كسب الخطوط التى رسمها لعماله فى البلاد وأصرهم فيها بتقديم خير رعاياه على كل ما عداه ... كان أول كتاب بعث إليهم به .

« ... إن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا

جباة .. »

وأوضح النهج الذى يسير عليه عمال الخراج بقوله :

« . . . إن الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق . خذوا الحق ، وأعطوا الحق به . . . والأمانة الأمانة ! . . . قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم . . . والوفاء الوفاء ! . . . لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم . . . »
ولكن هذه السياسة لم تكن كفيلة وحدها باقتلاع البذرة التي أثمرت على الأيام دوحة السخط في نفوس الناس . ولم يكن عثمان غارس هذه البذرة بل كان — لسوء طالع — ذلك الذي انقرض بالحصاد . . . أما البادر فكان مهر . وضعا نواة صغيرة في مبدأ عهده ، ثم تركها تنمو ليجنى منها خلفه ثمرتها المرة .

هذه حقيقة واقعة ليس إلى نكرانها سبيل . ولعل عمر لو امتد به أجله كل هذه الأعوام التي حكم فيها عثمان بلاد الإسلام ، للقي مصرعه بغير خنجر ذلك المجوسى الحاقد . ولن حسب أن هيبة ابن الخطاب كانت قينة بأن تحميه من ثورة النفوس فإنه إذن أخطأ جانب الصواب . ذلك أن التذمر نار آكلة ، لا تفتأ تدب في الخفاء ، تحت الرماد ، حتى يتاح لها ما يكشف عنها الفطاء فتنبعث سميراً ذاكي الضرام . ولقد أشعل عمر الجذوة حقاً ثم لم يحمله العمر ليصلي حريقها المشبوب .

أشعل مهر الجذوة وتركها تتقد وتأكل كل النفوس . . . وتلفت الناس بعد مضيه عن الدنيا بأعوام ليروا عالماً غير ذاك الذي ابتناه لهم الإسلام . فلقد أوشكت المساواة بين الأفراد أن تكون معدومة ، بل إنها احت أصلاً مادام قد قرئ أذهان الجمهور أنه لا مساواة إلا بتكافؤ الفرص أمام الجميع للرزق اليسور .

ولكن هذه الفرص كانت انطوت مع الماضي . وانقضى أجلها باقضاء أجل ابن الخطاب . فهذا الرجل الذي كان مثالا تحتذيه العدالة القضائية لم يكن كذلك في نظر العدالة الاجتماعية — أم خانه التوفيق حينما أمر بتنفيذ طريقته في تقسيم العطاء بين الناس ؟ إنه لا بد قد حضرته إذ ذاك

عوامل وجعت لديه رأيه . ولكن مما لا ريب فيه أن عوامل أخرى أقوى من السالفة قد غابت عنه وكان أخرى به — لو استشفها من وراء حجب المغد القريب — أن يعدل عما حزم عليه أمره واستقر في بآله . ولكن رأيه رأيا فالتزمه . لم يجد به عنه علمه أن سلفه قبله لم يقبله ، وأن رسول الله ، صاحب خير الآراء . كان يسير على نقيضه .

وكذلك نحا عمر نحوه الخاص فلم يجعل الناس سواسية عند التقسيم ، فبينما نسمع الصديق يأبى أن يفضل أهل السابقة إلى الإسلام على غيرهم ويقول : « . . . إنما أسلموا لله وعلية أجرهم ، يوفيههم ذلك يوم القيامة . . . » إذا بابن الخطاب من بعده يخالفه ، ويجعل سياسته الجديدة في كلمات :

« . . . إنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله . فالرجل وبلاؤه في الإسلام ، والرجل وقدمه في الإسلام ، والرجل وغناؤه في الإسلام . والرجل وحاجته . . . » .

وبهذا الأساس الذي وضعه عمر للتقسيم لم يجعل المسلمين كلهم على سواء بل رتبهم درجات ومنازل لكل درجة حظ من العطاء معلوم . . . ولعلنا نستطيع أن نفهم كيف رأى أن يخالف شرعة صاحبيه التي التزم المساواة ، وكيف أثر عليها هذه التفرقة في القسم حين نسمعه يقول : — « . . . لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه . . . »

وإنها حقاً مفكرة جميلة ، ولكنها أيضاً غير سديدة . . . وهي هكذا تكشف عن عمر رجلاً تسرع به دائماً عاطفته . غير أننا نبخسه حقاً إن تركناه قائماً بصحة رأيه حتى ساعة حينه . . . ذلك أنه في آخر عهده ود لو ثاب ثانياً إلى نظام التسوية ، بل قد أعد العدة للمود إليه ، ورسم الخطة المثلى التي هدته إليها التجربة وتداول الأحداث . وقال في آخر طام من أعوام حكمه :

« . . . والله لئن بقيت إلى هذا العام المقبل لألحقن آخر الناس بأولهم ، ولأجعلهم رجلاً واحداً . . . »

ولكنها رغبة أبت أن تحققها له الأيام . ومضى الرجل من الدنيا إلى
مثواه وقد خاف أمته طبقات ، تختلف — على مر الزمن — بين ذروة
الغنى والثراء وحضيض الحرمان والفاقة . فلما انعدمت بين أفرادها المساواة ،
واتسعت هوة الفوارق الاجتماعية ، كانت ثمرة السخط قد نضجت وحن
قطافها بيد خلفه المنكود .

٣

كانت صيحة أبى ذر صدى النتائج اللازمة التي تولدت من اختلاف
التقسيم . وكانت النتائج هذه الفوارق التي نمت مع الزمن حتى لم تعد تستطيع
هضمها نفوس الفقراء . . . بل تبدلت حسداً ، وسرت إنكاراً ، وانقلبت
حقداً على أولئك الأشراف ، الذين نبئت طبقتهم من بين أوائل المسلمين ،
وبدأوا حياتهم — أيام رسول الله — مثالا يحتذى في البذل والإيثار
ونكران الذات ، ثم ختموها — أو كادوا — بالترف المفرق والغنى والدأب
على جمع المال . . . أى المحرومين إذن كان يرى كيف اجتمع لزيد بن ثابت
من الذهب والفضة ما كانت الفؤوس وحدها أداة تكسيه ثم لا يلتهب
الحسد في جوانب صدره؟ . . . وأين محتاج يستطيع أن يرد طرفه راضياً
بعد أن يشهد ماشية ابن عوف وما اقتناه من أباعر وأفراس عديدها
الآلاف؟ . . . وهل من معوز يسمع عن مئات العبيد والإماء عند طلحة ،
وعن قصور الزبير بمصر والبصرة والكوفة وسواها من البلدان ،
لا يفكر هذا أشد استنكار؟ . . . يا هجهاً من أولئك الذين آزرُوا نبيهم في
دعوتهم لدين المساواة تجمع بهم مطايا الثروة والترف والرفاهة بعيداً عن
المساواة! . . .

هكذا جرت خواطر الناس في أذهانهم وهم يرمقون السادة الجدد بعين
حاسدة ، وكان عهدهم أنه لا سيد ولا مسود في الإسلام . وبه اعتملت

هو اطفهم كالنار في قلوبهم ، تأكل وشائج الاخاء فيها وتميت الرحمة . ولم يكن أولئك الذين حف بهم الاستعمار هم وحدهم أصحاب الطايا الجامعة نحو نعيم الدنيا ، بل كانوا أمثلة معدودة للبقية الباقية من صحب محمد ، الذين أقبلوا على الحياة وقد استهوهم منها جانبها البراق بعد أن كانوا من قبل يميلون تعففاً عن مظاهر الحياة . . . ولكن الفراغ والمال آفتا النسك والزهادة ، وهذا عطياء عمر لا تكاد حاجاتهم أن تأكل منه ، والأعطية المتوالية في عهد خلفه تتكدس لديهم العام بعد العام كلما امتدت رقعة الدولة ووسعتها الفتوح بين قرنى الشمس ثم دع هناك بعد هذا ما أفاده عليهم الاتجار بمختلف الأمصار من خير سابغ وقد خلى عثمان بينهم وبين بلاد الدولة جميعها يذرعونها وفق هواهم وأباح لهم منها ما منعته سياسة ابن الخطاب .

ثمروا إذن فائض أموالهم حتى بلغت إلى ما يكل عنه الاحصاء . وانبسط أمامهم عيشهم ليناً وحياتهم ناعمة رخية غاية الرخاء إنهم في الواقع لم يبخسوا الناس حقاً ولا جاروا على فريضة الزكاة للفقير المحروم . ولكن الزكاة لم تكن وحدها مجزية تسد حاجة الطبقات الفقيرة في زمن بيعت فيه النخلة — وثمرها خبز العربى — بألف دينار . ولئن كان الدين قد ضربها على أصحاب المال ؛ فلائها وسيلة للتخفيف عن أثقلتهم أعباء الحياة وليس لأنها غاية الغايات في النظم السماوية التى جىء بها لوضع الفسافة عن كاهل البشرية وما من امرىء أشرب قلبه روح الاسلام إلا عرفه دين إخاء ، وما من إخاء بغير مساواة إن لم يكن بالتقديم والايتار وهل كان لغير طائل قول رسول الله حين قال :

« إخوانكم خولكم ، جعلهم الله قنية تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه ؛ وليلبسه من لباسه ؛ ولا يكلفه ما ينغلبه فإن كلفه ما ينغلبه فأيمنه . . . » .

هذه هي الناحية الانسانية في الدعوة الاسلامية ما أحسب إلا أخفتها عن عيون القوم أكداس النصارى الوهاج . ولو أن الناس عنوا بانهاجها حق

عناية لوسعهم أن يجتثوا شجرة البؤس من الأصول والجذور . ولكن
الانسان هو الانسان في كل عصوره ، منهموم أبداً ، لا يشبع من مال . اما
صاحب محمد فقد عسر عليهم بعده أن يظفروا إلى الدنيا بمثل نظرتة ، وأن
يعالجوا شهوة النفوس بالصبر والرياضة ، وأن يجملوا متع الحياة تحت مواطىء
الأقدام . . . كان عصياً بلا ريب على طبائعهم البشرية — أمام أغراء الذهب —
حتى أن يقولوا كما قال :

« ما يسرنى أن لى مثل أحد أتقعه فى سبيل الله أموت وأترك منه

قيراطين . . . »

فيل :

« أو قنطارين يا رسول الله ؟ »

« يل قيراطين ! »

* * *

هكذا كانت نفوس الخاصة والأشراف فى تلك الفترة من تاريخ
الاسلام . . . ولم تكن صيحة أبى ذر هى الصوت الأوحى الذى ارتفع
يحارب هذا النهم ويحاول أن يردهم عنه ، بل سمعت هاهنا وهناك همسات
تذكر الترف ، وأصوات تدعو جاهدة إلى السبيل الواضح السليم ، ليست
كلها على السنة ذوى الحاجات . وكان طبيعياً أن يتماثل فى عزلته معلم الناس
الأول ؛ وحكيمهم بعد رسول الله . وأن يتحرك قلقاً كما يفعل أسد
حبيس فقصة إذ يلح ما بهيج ثائرتة من خلال القضبان . . . كان دائماً
يشعر أن هذه المظاهر البراقة التى جنح إليها أصحاب محمد ، رجال كتائب
الايمان الأولى ، إن هى إلا جراح فى قلبه تدميه لأنها خدوش أحدثتها
شراهة النفوس فى كيان الدين . ولكنه لم يكن يملك غير لسانه يفيض
بجوامع كلمه — تماماً كالأسد إذ يلعق به دماء كلمه . كم من يوم مشى على
إلى أولئك المترفين من الصحاب ، تارة بالتصيح وتارة بالعتاب ! . . . وكم من
مرة واجه فيها عثمان برأيه فى سياسته المبنية على التهاون واللين إزاء تهالك

هؤلاء اسادة على زخرف الحياة دون بساطة الزهادة ! .. وكما عاد من حديث ملامة عجب لهذا المال كيف يستعبد الرجال ، ويشترى منهم قلوبهم رخيصة . . إنه هو واحد منهم ، نهل كمثلهم من نبع هاديه وبدأ وإياهم السير على سفنه . . فما لهم توقفوا من دونه عن إتمام الرحلة ؟ . . وإنه أيضاً واحد منهم ، له عطاء كمثل عطائهم أو يزيد قليلا ، فما له لو أراد شيعا لأعوزه أن يجد في بيته ما يملأ بطنه من دقيق الشمير ؟ .

ولكن أمن المستطاع حقاً أن تقرر به غيره ، هو الذي ولى الدنيا ظهره ، وزهدا مقبلة أو مدبرة ، وقرن فيها البذل وإتفاق المال بالايان فقال :
« لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده . »

٤

غلبت فتنة البذخ على نفوس السكرة من كبار رجال الإسلام ، واستهوهم الثراء وحب الاقتناء . . وكان عثمان كأحدهم ، لولا أنه يملك مفاتيح بيت المال فيستطيع متى شاء أن يهب يمين وشمال . . وكان سخياً حياً ، ما قصد إليه امرؤ إلا أطلن له كفه . . . غير أن الحياء والسخاء كأيهما كانا عون أهله عليه ، ووسيلتهم إلى قلبه الرقيق . . . وهل يسهه أن يرفض لهم حاجة وقد اتخذهم من دون المسلمين بطانة وأعوانا يسندون ملكه ؟ .

إنما وسعه أن يفتق عايهم من الأموال ما جادت به أريحته وتسأى إليه كرمه . . ولكنه في البذل لهم لم يكن مسوقاً بسعجته السخية بقدر ما دفعته ظروف الأحوال . . . كان يعلم حق العلم أي الرجال بين الناس كان ذووه ، وأي المنازل تزلوها في قلوب شعبه ؛ وبأي النظرات كانت تراهم عيون الأمة . . . ما من واحد منهم إلا نهامت به الألسن اللاغطة أو اقتحمته الأبصار واثارت به القلوب النقية الصافية والعقول الذاكرة الواعية . . . كانوا في الناس ذوى ماض مشوب السيرة

معتكر السريرة . وحتى الذين كانوا من بينهم أتقى ضعيفة ، لم تكن الأذهان قد نسيت أنهم أوغموا على اعتناق دين الله فدخلوه وأعناقهم تحت ظل السيف ، وأن قلوبهم لم يعمرها الإيمان أو يعلق بها إلا بعد أن تألفها رسول الله بالأعطية والهبات حتى لا يحملهم ضعف نياتهم على أن يماثلوا عليه الكفار . وكان محمد — العارف بطوايا الأنفس وأهوائها — يقول فيهم ، وفيمن كانوا على غير قرارهم ممن آمنوا ابتغاء مرضاة الله :

« إني لأعطي قوماً أتألف ظلمهم وجزعهم ، وأكل قوماً إلى ما جعل الله في قلوبهم من الخير والغنى . »

ولعلنا في هذا المقام يحضرنا كيف وجدت الأنصار أن رسول الله يعطي بعض قريش — وفيهم أبو سفيان بن حرب وابناه معاوية وبزید — ما غنمه في حنين ، فتقدم إلى أنصاره معانها يقول :

« أوجدتم بامعشر الأنصار في العلالة من الدنيا تألفت بها قوماً ليسلموا؟. »

هؤلاء المؤلفة قلوبهم كانوا خير بني بيت عثمان وكلهم تأخر عن الإسلام إلى أن وضحت في الأفق شمس نصره . وإن منهم من تخلف عنه — حتى بعد أن فتحت مكة أبوابها لمحمد بغير أهاة حرب — وقام تدفعه الجبهة وسوء تبصره بالأمر إلى إشهار سيفه في عصبة من موتوري الكفار . ذاك كان يزيد بن أبي سفيان : حسب أن قد آن له أن يمنع بلدته ، فما وقف حتى وقع في الأسار .

وكانت هناك أيضاً بقية منهم فيها عمه الحكم بن أبي العاص الذي خاض في رسول الله من فحش القول والإشارة بما لم يغفر له بعد إسلامه ونفى من أجله إلى الطائف لا يبرحها بأمر رسول الله . وظل بمنغاف بمهدا في عهد أبي بكر وإن شفع له لديه عثمان . فلما استخلف عمر ، ومشى إليه عثمان ثانية بالرجاء ، نهره وقال :

« يخرجك رسول الله وتأمرني أن أردّه ؟ ... إياك يا ابن تخفان أن

تعاودني فيه بعد اليوم ! . »

ولكنه ما كاد يمتلك مقاليد السلطان حتى أكرم طريد رسول الله ورده معززاً إلى المدينة ومنحه مائة ألف .

وكان فيهم ذلك الفتى ابن أبي سرح الذي أسلم — فيما يبدو — نكاية في الإسلام ، حتى إذا وكل إليه محمد كتابة يعض الوحي خان الأمانة وحول أن يبدل ويغير في التنزيل ، فأهدر الرسول دمه ، ثم عفا عنه عام الفتح واتسع له حلمه . وكان أيضاً فيهم الوليد بن عقبة الذي عاد إلى رسول الله — وقد كان بمشه إلى بني قريظة بعد إسلامهم — فزعم أنهم هموا أن يفتكوا به وغضب له المسلمون ، وكادوا أن يشعلوها حرباً من أجله لولا أن تداركتهم آية من عند الله قالت فيه :

« يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين » .

واقدرت فعلا كلمة الله عليه ، لأنها لا تلبث إلا قليلاً حتى تطالعنا من تاريخ هذا الفتى صفحة ملطخة ، هي الصورة الواضحة لنفسه التي كشف عنها القرآن الكريم قبل كثير من الأعوام .

* * *

هذه ألوان من أسرة عثمان انمكت عليها عواطف شعبه منذ اليوم الذي تملك فيه أمور الناس . . . وكان رجلاً يجتمع في قلبه إلى جوار طبيته حبة بيتته ومنه كل أولئك الذين أبت عليهم أقدارهم إلا أن يذهبوا في التاريخ مثلاً حبة لعداوة الإسلام قبل أن تقهر نفوسهم على الولاء له . ولم يكن هذا بالمجيب منهم وهم أمويون . ولكن العجيب أن ينشأ من بينهم عثمان السمع ذو النورين . . . فلما استطاع أن يوليهم منة لم يحجم أبداً ، وتقدم راضياً بمنحهم من خيره وفضله . وما أحسبه قد خالف طبيعته البشرية إذ فعل ، ولكنه استجاب لها . ولئن كان مثله ، تقدم به العمر ووهن قوى ، وأوشك أن ينوء بعظم الأمر الموكول إليه ، أن يؤلف حوله بطانة تشدد

عزمه وتحمل عنه بعض ويره . . . وأوفى الناس له بلا ريب هم أدنى الناس إليه . فلما علمهم موسومين بشبهات ماضيه ، رأى أن يعوضهم عن حسن السيرة بحسن المظهر لعله مستطيع بهذا أن يبهز النظرات الشرراء التي عيدها تقتحمهم من قبل . ولقد يكون المجد العارض مغنياً عن نقاوة السمعة بعض غناء ، والثروة السابغة مدعاة للتوقير والاحترام .

غير أنه نسي في هذا أن الشعب الحائق على تفضيل السابقين إلى الإسلام في العطاء لا يستطيع أن يغفر تفضيل من لهم تاريخ معلوم في عداء الإسلام وإن كانوا أهل بيت عثمان . . . ولكنه كان رجلاً كافئاً بذويه . لا يقدر — لفرط حبه إياهم — أن يتبين خطأ في منة يعدم بها ويرفع من مقامهم بين الناس . وكانت نفسه السخية تجبذ لديه الكرم حينما اختلف وضعه . ولو صله قرابته بر يقبله الله ! .

كذلك كانت نظراته كلما اغترف من المال فغمر به ذوى قرابه . وبهذا جرى في خاطره رأيه فافتنع به أشد اقتناع . وكان عسيراً عليه أن يقلع عنه وإن عاتبه فيه صحبه ولا موه عليه . . . مشى إليه ذات يوم على بن أبي طالب ومعه نفر علموا أنه وهب أحد ذويه مائة ألف قعائبوه فأجاب .

« إن له قرابة ورعاً » .

فأنكروا عليه حجته وسألوه :

« فما كان لأبي بكر وعمر قرابة وذوو رحم ؟ »

قال :

« إن أبا بكر وعمر كانا محتسبان في منع قرابتهما ، وأنا أحتسب في

إعطاء قرابتي » .

فقاموا عنه غاضبين وهم يقولون :

« فهديهما والله أحب إليفا من هديك ! » .

بدا عثمان كمن حرص على أن يعمل جاهداً لتزيد هوة الفوارق بين الطبقات اتساعاً في وقت دعت الحكمة فيه إلى محوها أو تضيقها في القليل . ولكنه كان يحمل في صدره قلباً لا تنعكس عليه مشاعر شعبه ، قد ملأه حب ذويه حتى لم تبق فيه سمة لغبر الكلف بهم ، والفناء من أجلهم وفيهم . وكانت له عين تقصر عن الرؤية إلا لمدى معلوم ، لأن آله وقفوا يحجبون عنها أشخاصهم وهياكلهم ما وراهم من أبعاد ومسافات . وكان عقله بعد هذا عقل شيخ . فقد مزية الصبر على معالجة ما يعرض له من أمور ، وكل فآثر أن يستعير منهم الرأي والفكرة .

وفي الحق لم يكن الرجل في ثأني شطرى عهده إلا ثوب عثمان وذهن مروان . . . أينما خطر أمام الناس رأوا الأمير الشيخ ، فإذا عمل بدت في العمل آثار المشبر الشاب . . . حتى الكلام لم تكن له سبيل إلى اختيار ألفاظه كأنما كان يلقنه قبل النهوض له . أو كأنه الستر الذي يتحدث من خلفه مروان . وإنه لمن الإجحاف بحق الخليفة الثالث أن يؤخذ بجريرة كل ما نسب إليه إلا إن تركت اليد الجانية وحوسب عنها القفاز .

كان مروان بن الحكم بن أبي العاص هو الحاكم الحقيقي للدولة ، والحاكم أيضاً لحاكم الدولة ! . . . وكان ابن عمه في يده ملاماة ، أضرت به طيبة قلبه وسلاسة قياده . ولكن الشيخوخة تقتل العزم ، وتطفى جذوة التوقد في العقل والحمية في القلب ، وعسير على من بلغ سن عثمان أن يظل معافى في كلا الذهن والبدن ، وأن يملك نفسه أن تلين لضغط من كان أشد مراساً منه . ولقد عرف مروان من قاب الشيخ طوية سليمة ، فلم يعجزه أن ينفذ منه كما ينفذ شيطان . . . ولعله ظل طوال النصف الأول من عهد عثمان يحيك خيط شباكه فبقي هكذا في الخفاء لا يسمع بسطوته الناس . ولكنه كان

متربصاً لوقته ، متحييناً للفرصة التي آمن أن لا بد سيثمرها دأبه . وما دام أمير المؤمنين كلفاً بأهل بيته ، قد أوسم في قلبه لهم ، وغمرت مكارمه البميد والقريب منهم ، فليكن إذن مروان من الأدنى أدناهم . وليتقدم إلى ابن عمه بما يقدمه على كل أولئك الرهط المتهاوتين على ابن الشيخ تهافت الفراش على الثور والنحل على الزهر . . . وهل هناك أجدى عليه من رواج يزيد بأمير المؤمنين توثق صلة وعلو منزلة ؟

ومن اليوم الذي زف فيه إلى أم أبان ابنة عثمان أخذ نجم ابن طريد الرسول يعمل في حكم الدولة . وراح الناس يتطلعون إليه تطلعهم إلى مالك أقدارها المتحكم في مصايرها . ولو كان كيساً لم يركب شططه ، لو سعه أن يصلح ما أفسد الزمن من سلطان صهره . ولكنه كان مفتوتاً بالصلف ، مستبد النزعة ، يثيره النقد حتى الحماقة ، ولا يدفعه إلى معالجة الخطأ بقدر ما يدفعه إلى الإصرار عليه . وهذه صفة كانت علماً على سياسته التي أغرى بها عثمان حتى أوردته حتفه .

وكأنما كان الرجلان كفتى ميزان ، رجحان الواحدة على حساب الأخرى . . . فكلما زادت شوكة المشير ، وهنت هيبة الأمير ، وأخذ ما بقي له من إجلال في نفوس شعبه يذهب بدءاً . . . ولو أن عثمان كان أنقذ بصيرة وأقوى على اكتناه نتائج الأمور لاستطاع منذ هذا الزواج أن يأخذ حذره ويتبين موقع قدميه . ولكنه كان ينظر بغير عينيه . وكان كلفاً بمروان مفتوتاً أشد افتتان ، لا يطيق أن يسمع فيه كلمة حق وإن جاءت على لسان من لا تعلق به شبهة . وكان قد منح زوج ابنته يوم عرسه مائتي ألف من بيت المال سوى ما كان قد أقطعه إياه من قطائع . فلما أصبح ، جاءه مع الصباح زيد بن أرقم خازنه ، حزينا يشرق بدمعه يرجوه أن يقيله .

استغرب عثمان غاية استغراب من البسكاء والرجاء وراح يحدس في ذهنه الدافع الذي حدا بعامله أن يترك عمله ، ويتوسل إلى الإقالة باعتصار عينيه .

فلما أعيا ذهنه أن يقع على سبب واضح مقبول ، واستوضح الرجل وعلم سره ، بلغ به العجب مداه .

وقال أخيراً محيراً ، بعد أن التى زيد إليه بما فى نفسه :

« أتبكي يا ابن أرقم أن وصلت رحى ؟ » .

فأجابه خازن بيت المال بلا موارية ولا إخفاء :

« لا يا أمير المؤمنين . . . ولكن أبكى لأنى أظنك أخذت هذا المال

عوضاً عما كنت أنفقته فى سبيل الله فى حياة رسول الله . . . والله لو أعطيت

مروان مائة درهم لكان كثيراً !

فأغضبته هذه البادرة أيما غضب وصاح محنقاً بالناصح الأمين :

« ألق المفاتيح يا ابن أرقم فإننا سنجد غيرك » ! .

على أن هذه الواقعة لم تكن إلا حلقة من حلقات سجناء عثمان ، وحرمة على أن يتخيم آله بأسباب الجاه . . . فحيثما جرت العين فى سطور تاريخه رأت إغراقاً فى البذل تكاد أن تحسبه من خيالات الأوهام . حتى فى بدء حكمه

— فى ذات اليوم الأول لخلافته ، مدح أبا سفيان شيخ بنى أمية مائتى ألف درهم . . . فقيم هذا الكرم المفرق العجيب ؟ . . . وهل كان أداؤه لسبب معلوم ؟ . . .

لعل الرجل كان يلبي نفسه المطبوعة على الأريحية ! . . . لعله — على حد قوله —

آتى المال ذوى قرابه زلفى إلى الله ! .. لعله كان يستجيب لهذا أولئك من

الدوافع الشخصية . ولكن المنافع من أجله ، المدافع عنه ، سيميه لا بد أن

يقع فى حياته على جواب واحد يشفع له ويقوم مقام أوهى الأعذار .

أما الناقد الفاضل فيسير عليه أن يثبت له . وأن يجهه بكل صنوف

الاستهام . ألم يكن هذا الإتفاق فى غير وجوه الإصلاح العامة إلا عبثاً كاملاً

بالأموال ؟ .. وهذه الآلاف البذولة — إن عرف جدواها على بنى أمية فما

جدواها على الأمة الإسلامية ؟ . . . وما للشعب ولأم أبان يتزوجها مروان —

ولعائشة أختها يتزوجها الحرث أخوه فوجزل الأمير للرجلين العطاء ويمهرها
 كأغلى ما تمهر النساء ؟ . قد كان عثمان غنياً حقاً يسهه أن يبذل المون لأهله ،
 ولكن أى ثروة هذه التى تحتل توزيع مائة ألف دينار على الحكم بن أبى
 العاص ورجال بيته ، ومائة ألف ثانية على بنى عثمان ، ومائة ألف ثالثة على بنى
 أمية وآل أبى سفيان .. ثم غير هذه المئات المؤلفة على البقية الباقية من أمرته
 الوفيرة الفروع والأفراد ؟ .

هذا الإغراق فى السخاء كان حرياً بأن يشكك فى الأمير شعبه الفقير ،
 ويضعه من العيون الفاحصة فى نطاق الشبهات ، فما كان للطبقات المترتبة
 لأخطائه أن تصدق أن نصف هذه المنع النبذولة — فى القليل — لم يكن من
 بيت المال ، وأن ثروته القديمة ، التى أبقى جانبها الأكبر فى الكفاح لنشر
 الاسلام ، تحتل أن تبقى فيها بقية تنى بكل هباته الجديدة .. ولعل أولئك
 المستريين فيه لم ينسوا أن عطاءه طوال حكم عمر ، وكان لا يزيد على خمسة
 آلاف درهم فى العام ، لا يمكن بحال أن يبلغ جزءاً واحداً من مائة جزء
 مما وسعه إنفاقه على ذويه .

ولكنها سياسة اختطها الرجل لنفسه والتمها أشد التزم . إذا وزنها
 الفاحص التريث أعوزه أن يتلمس لها المفاير وإن كان لا يعوزه أن يقدر
 دوافعها وتناجها فلا يخطئ فى التقدير .. ولما غابت عنه دعوة أبى سفيان
 لذويه — يوم استخلاف عثمان — أن يجعلوا الإمرة ملكاً تتوارثه الأسرة ،
 فليذكر إذن هذه الدعوة الآن .. وليعجب أكانت إيماء خفياً من شيخ
 بنى أمية رتب بواعمة الخليفة الثالث ، ثم طفا آونة فى صورة جود يرمى
 بكل جود ، وثانية فى مظهر جاء يعز على النظائر والأشبهاء ! .. ثم ليسأل من
 بعد هلا بنى المال منعة وقوة ، وهلا تنى القوة سلطاناً وسطوة ؟ .

إنه الأمس فقط .. الأمس القريب الذي لم يكذب ينطوي في ألفاف الماضي إلا من قليل وإن بقي ذكره حاضراً في أذهان الناس لا تغيب آثاره .. وإنها الدعوة أيضا .. الدعوة السافرة الجريئة التي حاولت كلمات الخليفة المستنكرة أن تلفها في غلالة تخفيها ، فجاءت الغلالة رقيقة رقة نفسه ، شفافاً أبدتها على هيئتها الأولى ، كما أرادها صاحبها الداعي بها : شيخ فريش .

أجل إنه الأمس المائل والدعوة السافرة . كلاهما له في نفوس الناس أثر عائق لم يعد الزمن إليه يداً لتمجوده بقدر ما كان يعيدها لنشئته أو تضييف إليه . فما من رجل في الأمة كان يرى الخليفة مرة إلا ذكر الواحد و ذكر الثانية .. الأمس يتجدد في كل نهار ، والدعوة يعلو صوتها كأنها تخرج لتوها من بين شفقي أبي سفيان كلما رأى الناس جديداً من فمال عثمان .

كان المصر كله يوماً واحداً ، هو اليوم الأول لخلافة الشيخ الأموي ، يتكرر مع الصباح ولا يتغير ، كالصور الشتى لأصل معلوم ، وكان موسوماً بسماط طبعها عليه الماضي قبل أن يطعمها الحاضر . ولو استعان المرء بخياله لهل حواسه على استخلاص صورة جامعة عنه ، لوسعه أن يراها في ذلك النظر المائل في الذهن وإن غاب عن العين ، بدار عثمان يوم استخلافه ، وقد اجتمعت شرذمة من أسرته يهيب بها شيخها وبالخليفة الجديد :

« يا بني أمية .. تلقفوها تلقف الكرة . فوالذي يحاف به أبو سفيان ،

ما زلت أرجوها لكم ، ولتصبرن إلى صبيانكم وراثته ! .. »

هذا المظهر القديم هو الصورة التي تحمل في معالمها كل دقائق العصر . بل هو — في الحق — الصورة المتكررة لكل أيامه حتى لكأن أبو سفيان كان يقف نفس موقفة هذا في كل صباح ليدعو بدعوته .. بهذا تمهت الوقائع من بعد كأنما لسان ابن حرب كان لها لسان حال . وبه تكلمت

الأحداث التي تلاحقت دراكا . فما مر يوم واحد من حكم السليل الأموي إلا وفي ثناياه دليل بالغ على التزامه النهج الذي رسمه سيد قومه . ولا جاءت لحظة إلا حملت منه الولاء لدعوة شيخه غاية الولاء .

ضريح بني أمية دعا ، وأمير بني أمية لبي .. ولا عبرة بمد هذا بما كان من استنكار الثأني باديء الأمر للدعوة .. وإنما العبرة بأنه احتذاها خطوة خطوة ! .

بدأ عثمان — أول أمره — كمن أنكر على أبي سفيان دعوته السافرة إلى احتلاب السلطان ، وإلى تبديله من خلافة شورية إلى ملك متواثف في بني أمية .. ثم فعل كمن غلبته تلك الدعوة على عزمه .. قد كان حقاً رجلاً رخواً لا يملك أن يسوس نفسه ، ولكن عوامل كثيرة أخرى تضافرت عليه فسلبته حتى القدرة على الاستمساك بإنكاره . وقهرته — حثفت أنفه بخير افتراض — على سلوك الطريق المؤدية إلى تحقيق مطامع الأمويين .. هذه الأسرة الحاملة بالمجد منذ عهد شمس ، الظامئة إلى السيادة في شخص أمية ، الساعية بسيف أبي سفيان وحقده لهدم كل سلطان يبرزها ولو كان سلطان الدين ، قد آن لها أخيراً أن تشبع مهمها من السطوة والسوطرة والنفاذ .

في كل فعاله كان عثمان يسير على غرار معلوم .. لكأنما كانت تدفمه دائماً تلك الكلمات القلائل التي نطق بها يوم الاستخلاف شيخ الأمويين .. أو لكأنما كان أبو سفيان على أذنه يوسوس له قبل كل عمل يأتیه .. أم هو ياترى نداء الماضي أيضاً كان ينفذ إليه من خلال الأجيال ؟ .. إن الوراثة أخيراً قد قهره سلطانها الغلاب ، وإن الدم الأموي قد اقتضاه ضريته الواجبة الأداء .

ولقد استجاب الرجل لنداء الماضي ، ولأن لسطوة الوراثة ، ودفع ضريبة الدم .. إنه أموي المولد أموي التكوين ، موصول قلبه بأهواء

أسلافه ... وإذا كانوا جروا من قبله أشواطاً في طريق السيادة ، ووقفوا طويلاً ينافسون المجلّين عليهم في الميدان ، وأمعنوا في منافستهم حتى ناجزوا في محمد نفسه — لطان السماء ... إن كانت قد ركبت بهم نفوسهم كل هذه المراكب ثم قهرهم زمانهم على النكوص والتخلف ، فإنهم إذن اليوم قد أوشكت شمسهم على البروغ . وأوشكت أحلامهم العريضة الموعودة أن نجد لها منفذاً إلى الحياة بعد أن أصبحت في يد أحدهم دولة عريضة تسكاد ألا تحدها حدود .

عثمان أمير المؤمنين قد استنب له أمره ، وانقاد له الناس ، وألقت إليه بطاعتها الأمصار . . . هذا الأموي أصبح الآن أمامه حقيقة ما كان أمية يرنو إلى بعضها بين الخيال . تجملت بين أصابعه خيوط يحرك بها دولا وشعوباً كيما يتساءل .. دانت له الرقاب ، وهنت الوجود ، وسالت تحت قدميه الأموال .. إنه ليس بالطامع الذي يستنده الشره ، ولا بالمفتون بالجاء ، ولا بالنهم إلى مرض الحياة . إنه كان تقي القلب ، صافي السريرة ، نفسه غير مشوبة بسواد الأحقاد . . إنه لم يكن مغرقاً في الأموية كبقية الأمويين ! .. ولكنه مع ذلك إنسان كغيره من الناس ، له طبيعة بشرية ، ودم حنان ، وعرق دساس .

هذه كانت وحدها أداة عثمان إلى تحقيق أهداف أسرته . هذه الحوافز النفسية كانت هي الأداة . . أما هو فلمعه أنكر دأماً بظاهر عقله — كما أنكر بلسانه — أن يقر لهم بحق واحد في بلوغ هذه الأهداف . ولكن العقل الطاهر في مثل هذه الحالات جدواه قليلة . . معدوم الحيلة . والكلمة النافذة في النهاية ليست لمنطق اللسان ، بل لتلك القوة الدافقة الدافمة . . لتقل الباطن والواعية التي ليس لصاحبها عليها سلطان .

الحوافز النفسية دفعت عثمان للسير على غرار معلوم . وتحت ضوءها الساطع يستطيع فهم كل أخطائه . . هو لم يعرف مطلقاً أنه أخطأ ، ولم يقر على نفسه

بوزد ارتكبه لعل آتاه . . ذلك لأنه كان يعمل دائماً بحسن نية . أو كان حقا لا يعمل بنية سيئة — على الإطلاق .

كذلك سار الرجل طريقه ، مقوداً بزمام نزعته قديمة كالغريزة ، انتقلت مع الأجيال الأموية المتعاقبة في عروقه وجرت دماً قانياً لا يفيض . وراح يأملاء هذه النعرة يسود أهلها ويرفهمهم عالياً فوق رقاب الناس ، ثم لا يعدم — لو وقف موقف لوم أو موقف حساب — أن يتلمس لنفسه المعادير فلا يعميه أن يقع عليها في حسن اضطلاع بالأمور فضلاً عن صفة الرحم وقرب الأنساب .

وكما سبق أبو سفيان بقية أهله إلى سخاء الخليفة ونزده حتى لازمته بأول هبة أخرجها يوم الاستخلاف ، كذلك كان هو أول من أفاد من أسباب النفوذ حين شاء عثمان أن يمكن لآله في السطوة بعد الثروة . . فلم يكذب بمضى عامان من حكمه حتى ارتفع نجم معاوية بن أبي سفيان في الأفق ولمع . . وغدا ، بعد عامل لعمر على دمشق والأردن ، أميراً للخليفة الشيخ عليهما ومحض وقنشرين وفلسطين . واجتمع له بهذا حكم الشام كخطوة ثابتة إلى امتلاكها وامتلاك الدولة كلها بعد أعوام .

ثم سار الخليفة يذرع بواعيته البلاد فيقيم عليها هنا وهناك عمالاً من ذويه ، ويضم في أكتفهم صوابع السلطة . وأخذ أفراد الأسرة الكبيرة ينتشرون في الآفاق أمراء من لدنه على الرعية والجند ، يمسون بالزمام في البصرة والكوفة ومصر وغير هذه من بلدان . ولم يمض سوى قليل حتى قفز إلى أماكن الصدارة أمثال ابن عقبة وابن عامر وابن أبي سرح وسعيد ومروان ممن كانوا إلى عهد قريب بين صفوف الأحرار ومغموري الناس .

وكذلك مكن عثمان لأهله في الدولة ، ومكن بهذا الدعوة شيخه الضريع أن يتحقق . . وأصبحت البلاد في أكتفهم كذباية أوقعها سوء الطالع في نسج عنكبوت . . .

كيف مضى الزمن والرجل حبيس هكذا بين أسوار تفكيره الخاص ؟
 كيف ظلت غشاوة الأثرة على بصيرته لا تفجأ أبدا ؟ . . كيف عاش أيام
 حكمه كلها في عالم لا يكاد أن يسمع فيه سوى رغبات أقربائه ؟ .

ليس عجبا أن يبقى عثمان طوال عهده مفصولا بين شعبه لا بتبين
 شيئا من مشاعره نحوه ما دام أفراد أسرته كانوا الترجمان غير الأمين لتلك
 المشاعر . هذه الشرذمة لم تصدقه مطلقا القول ، ولم تنفرج شفاهها المتحدثة
 عن كلمة واحدة تنبه ذهنه ، ولم تشر أصابعها مرة إلى موطن الداء . . . كل
 ما أخذوا به تقوسهم كان إخفاء الحقيقة عنه ، وتغطيتها بستار كثيف من
 التمويه والزور . وكان الرجل ، وقد أولاهم ثقتهم ، يسمع بأذانهم ، وينظر
 فلا يرى بعينه ! .

وكانت صوالحهم هي وحدها أسمى الأهداف . وكانت غاياتهم ركوب
 هام الناس والنفوذ إلى المآرب من أي سبيل . . أما هو فكان ساذج القلب ،
 بريئا كالزهرة ، يعيش في نطاق مضروب حوله من الفحل ! . . وكان أيضا له
 سن شيخ وسريرة طفل . يلهيه الغضب ثم يرده الترضي إلى طبيعة اللين
 والاسترخاء . فإذا أوشكت تيارات العواصف الشعبية أن تهددهم في أغراضهم
 أحيوا فيه حدة الشيخ وغضبته الفوارة على كل قائم أمامهم بالمفاجزة والكفاح .
 وإذا هدأت العاصفة ومرت فوق رؤوسهم بسلام فالطفل الكامن في نفسه كفيل
 بأن يفي ما يطمعون فيه ما استطاعوا أن يمسخوا على شعره
 بكف الملاينة والاسترضاء .

هذه هي الخطة التي التزمها الأسرة ، والتزمها — أشد التزام — مروان
 ابن الحكم حيال عثمان . وبها استطاع ابن الطريد أن يملك وحده نواحي
 السياسة في الدولة ، وأن يتحلب حكمها ويفرض نفسه فرضا على فكر الحاكم .

لم يكن فحسب مشيراً للأمر ، ولا وزيراً ينصاع لإرادته ويعمل وفق أمراء ، ولا أداة يستعين بها عثمان على إنجاز ما يريد ، ولكمه كان أوائلك جميعاً في حساب المظاهر ، وكان أيضاً الأمير في حساب الواقع الصريح السافر ! .

وكان أمراً لم يعوزه الحبث إلى جوار الشره وبعد الأهواء ، يحرك بأصابه الخيط في الناحية التي تملأها عليه شهوته ، ويعمل دائماً وهو محجوب عن الناس بهيكل الخليفة الشمخ فيبدو العمل ويبدو عثمان في آن . مثله بلاريب كتلك الهوام تخفى النور وتذب في الظلام . الحماة كان ميدانه ، ولدى سلاحه ، والتمويه مركبه إلى هواه . أفلا يشى كل هذا بحسن طبيعه ؟ .

بلى قد وثى وانحسر الستر ! ولكن استهض خبثه وراح يجيس كل ما استبطن من خبيء نفسه ليستعين به على المحنة . . . في بادىء الأمر قبل أن يدلهم الخطب كانت الكلمة الواحدة يوسوس بها للخليفة كفيلة بما يريد . ولم يكن التذمر إذ ذاك يبدو تهام من الناس ببعض أخطاء عثمان ، أو تناولهم — في كثير من الحرص والتحرز — فماله النايبة ببعض الاستنكار . . . ولو أن مروان كان حقاً وزير صدق لوسمه أن يتدارك الفتنة ، وأن يكشف مخلصاً عن مكنها ثم يشير على ولى نعمته بالعلاج الحاسم . ولمسكنه كان أمراً جبان الطبع ، لا يستطيع أن يواجه الحقائق فاستعان دائماً على الأزمات بأسلحة الظلام .

سل الدس والخداع والوقية ، ومشى بين الخليفة وبين شمه ، يرسم الحوادث وفق هواه ثم يشير كافة العوامل النفسية التي تضطرم بها دماء الرجل . استغل في عثمان بره بأهله فصور له كل ناقد في صورة ناقم عليه هذا البر ، حاسد أهله ما أصابوا من خير . واستغل فيه ضيق الخلق الذى يلزم الشيخوخة فأوغر صدره على كل من مشى إليه جو الإصلاح أو يطلب الإنصاف . واستغل فيه تشبث الشيخ المهيض بما فى يده من سلطان — وطبائع الشيوخ أدنى إلى طبائع الأطفال — فلون له من عارضه من الناس بلون الساخط الملول ، يتمهل

نهايته أن تحين وحكمه أن يزول . حتى طيبة نفس عثمان وحلمه استغلبهما هذا الباغى وجعلهما في عين الشيخ ذريعة الناس إلى الاستهانة به والجرأة عليه .

كذلك لم يبق في الأمة رجل مشى إلى الخليفة بكلمة نقد إلا ألبسها مروان ثوب باطل . ولا دعوة تحدث بها الشفاء إلا حاول خنقها قبل أن تضيع . وكان يستلهم دائماً نفسه فيسمفه خبثها بالذرائع والأسباب ، ويغده جبنه بألف وسيلة للمناهضة والكفاح ولم يكن في هذا بحامي الخليفة ولا بالذائد عنه بقدر ما كان ذائداً عن جاهه هو وعن سخطه . قد علم في فرارته فيم كان تدمير الشعب وإلى أين تؤدي به استجابة رغباته وأساس الاستنكار دائماً كان الترف الذي غرق فيه أهل بيت عثمان ومن لف لفهم ، وما جره الترف على بقية الأمة من الفاقة والحرمان .

حارب مروان النقد ليدافع بهذه الحرب عن نفسه ، وحاول خنق حرية الرأي لأن حياته الناعمة وحياة آله لا تكون إلا في ظلام الاستبداد . ولو استطاع لقطع السنة الناس ليأمن سماع ما فاضت نفوسهم به من الشكوى المرة . غير أنه بقليل جهد أمكنه أن يجعل الأمير مؤمناً أشد الإيمان بأساليبه يقره على انتهاجها بغير توان . . هو حقاً لم يبد للعيان في صورة المناجز . ولكنه اتخذ من عثمان ستاراً توارى خلفه . وما أحسب خطأ واحداً من أخطاء الشيخ إلا وفيه آثار واضحة من أصابع ابن الطريد .

وهكذا مضت الأيام والخليفة الشيخ غافل ، لا يستطيع أن يعد بعصره لأكثر من نطاق داره ، ولأن يرهف أذنه للصيحات التي جاءت تترى من هنا ومن هناك . فإذا رأى لمحدث آله أصدق عنده من رؤية عينه ، وإن سمع فتفسيرهم لما صك سمعه هو إذن محور السماع . . . خشي معاوية أن تقسد عليه دعوة أبي ذر شعبه وتبتزه ما هو فيه من رفاهة واستبداد بأموال الناس يحنجها أو يصرفها كما يشاء فكتب إلى الخليفة يقول :

« إن أبا ذر أعضل بي . . . وقد اجتمعت إليه الجوع ولا آمن أن يفسد

عليك . فإن كان لك في القوم حاجة فاحمله إليك .

فكانه لم يخش من الداعية الزاهد إلا أن يفسد الأمر على عثمان . وكان خوفه هو منه على نفسه لم يطف له ببال .

ومع ذلك فإلى أين أدى به هذا الصوت الداوى الذي ملأ كل الأسماع؟ .. وكيف تنق الدعوة التي جاءت من الشام عبر الصحراء؟ .. ولأى مدى استوعبها قلبه وتفكر في قيمتها ذهنه هو العالم بأن صاحبها ما كان لينطق عن هوى أو ليدعو بها لغير وجه الحق الواضح المبين؟ .. عجب أن ينسى عثمان كل هذا ويذكر فحسب — كما ألهمه معاوية — أن أبا ذر أراد أن يفسد عليه الناس ! .

ولكنه كان قد أولى آله ثقته . يسمع بأذاتهم . وينظر فلا يرى بعينه .. ولو مشى إليه بالشكوى آلاف الناس لأصم عن شكواهم سمعه ولتناولهم بأغلق العقاب كما يشير عليه ذووه .. لا يشفع للشاكي عنده شفيع من حقيقة ماثلة في شكواه ، ولا من إخلاص وأمانة تم عنهما كل مراحل ماضيه . وبهذه الروح التي جانب الإنصاف وواجب الحاكم حيال رعيته ، تناول عثمان كل ما عرض له من نقد أو دعوة إلى إصلاح .

وكذلك راح يناجز المصلحين والدعاة ويقمعهم بسلاح أظلم الطغاة ، لا يدع وسيلة من وسائل النكال إلا ركبهم بها عسى أن يقهرهم بالظلم على الإقرار بالظلم ... حتى ذلك الصحابي الجليل لم يسلم من يده . لكننا نسي له عثمان ماضيه وصحبته وعزوفه عن الحياة .. بلى قد نسي — فيما يبدو — لأنه أراد أن يذكر فحسب أن أبا ذر — ولماوية في هذا القول الفصل — جأر بدعوته ليفسد عليه الناس .. ألا فإين الصواب إذن إن لم يكن في دعوة هذا الشيخ ، وحضه الموسر على أن يرحم الفقير ولا يكتنز مالا يسمعه أن ينفقه من أجل أخ له، وفي سبيل الله ، ومهلا بهدى القرآن .

ومع ذلك فلن يمي طاغية أن يقمع داعية ... ولن يعجز صاحب طول وسلطان أن يقهر من يريد على ما يريد ... وإن السلاح في يديه حاضر ،

وإن البطش لكثير الألوان والأساليب . وبحسب هذا الهزيل أبي ذر أن تبعد داره ويشق مراره ويواري وجهه عن الخليفة بأرض فلاة . . . بحسبه أن ينفي إلى الربذة فلا يلقاه الناس عساه أن يموت فيها وتسكن عن ذكره أسنة الناس !

٨

فما حدثتنا به الآثار ، أوصى عمر الخليفة من بعده بالمهاجرين الأولين خيراً ، يعرف لهم سابقهم . وبالأنصار خيراً يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئتهم . وبأهل الأمصار خيراً فإنهم رداء العدو وحياة النى .

وأوصاه بمقراء الأمة يأخذ من حواشي أموال الأغنياء فبرده عليهم . وبالمعدل في الرعية لا يؤثر غنيهم على فقيرهم . وبالشدة في أمر الله وحدوده ومعاصيه على القريب إليه من الناس والبعيد عنه .

ثم أوصاه بجماعة المسلمين أن يحل الكبير ، ويرحم الصغير ، ويوقر العالم . وأن لا يضربهم فيذلوا ، ولا يستأثر عليهم بالنى فيفضيهم ، ولا يحرمهم عطايهم عند محلها فيفقرهم ، ولا يجعل المال دولة بين الأغنياء منهم .

ولقد كانت حياة عمر في ذاتها سفراً كاملاً لهذه الوصايا لمن أراد أن يستعين بالأمثال النابضة بالحياة ، ولـكنا لا نستطيع — كلما امتد الزمن — أن نرى في خليفته رجلاً يحسن قراءة الوصايا المكنونة فضلاً عن التزامه النهج الذى دعت إليه ، لأن عهد عثمان كاه لا يكاد يقبئنا عن هذا بقليل ولا كثير !

خلف الرجل فنأى بجانبه عن المهاجرين والأنصار . وانحاز تحت ضغط عوامل خاصة إلى فئة من أهله مكانهم في الذيول والأعقاب إذا ذكرت منازل ذوى الفضل من المسلمين السابقين إلى الإسلام . وترك صوالج السلطة بأيدي شرذمة مفتونة من غلبة بيته ينقدون بها إلى استعباد أهل الأمصار . وأوسع

للا ثرياء في رحابه يستظلون بآلالته ويصرفون من نعمائه ، والفقير المحروم مقطوع
 بينه وبين ماله في تراث الفنى من حق معلوم . وأرهف الشدة فكانت سلاحاً
 ذا حدين : واحد قاطع قمع به شكوى المظلوم ، وآخر مثلوم داعب به بغى الظالم ،
 ولا مقياس له عند الحساب غير شريعة الأنساب . . . ثم بدا في نهاية الأمر
 كمن آلى على نفسه أن يقرأ وصية عمر فيأتى من بعد بكل تقيض لها ، فأثر
 الاضطهاد والفساد عند محاسبته ناقديه : يستذلهم وينهيمهم ويضربهم ويقطع
 عنهم موارد عيشهم من النىء والمطاء كلما جاؤه بنقد أو أرادوه على التزام إصلاح .
 كذلك فعل الرجل وكذلك رأيناه . . تحدث أبو ذر بما فاض بذهنه من
 آراء بادية الأمر في المدينة فنبذه إلى الشام . وارتفع صوته هناك لحق الفقراء
 في أموال الأغنياء فردده للمدينة شرردة . وأعضلت به الدعوة من بعد فنفاه
 بفلاة وفي ظنه أن النفى والتشريد هو السلاح القاطع لآلسنة المصلحين ودعوة الدعاة .
 وأنكرت فئة من خيرة صحب رسول الله عليه بعض أخطائه فناب عنها
 لدنه عمار بن ياسر يحضه على الإقلاع عما وقع فيه ، ويبصره بالخير في النزوع
 والرجوع فلم يليق منه سوى الغضب الذي غلب كل روية والعنف الذى بلغت
 حدته أقسى التشكيل والإيذاء .

وخالفه ابن مسعود في رأيه عن جمع القرآن فلم يماجله بالإقناع أو يصرفه
 بالمعروف والإحسان ، بل أمر به أن يؤدب لاجترائه فضربه بعض عبده
 وضربوا به الأرض إمعاناً منهم في الشدة عليه حتى كسروا أضلعه ، ثم لم تقر
 عين الخليفة حتى أتبع هذا التعذيب بقطع المطاء عنه .

وبمع ذلك فإن شبح مروان بدا جلياً في هذه الوقائع ومثيلاً لها من الأخطاء
 التى علقبت بذيل أمير المؤمنين . كان هو القائم على تنفيذ مشيئة الخليفة إذا
 أخذنا بظاهر الأمور ، ولكنه حقاً كان صاحب المشيئة الغلابة أو منفذ
 المشيئات على الصورة النائية التى رضى خيلاء . . اعترض سبيل

على بن أبي طالب وقد خرج في جماعة من مريديه يشيرون أبا ذر حين تركه المدينة في طريقه إلى منفاه ، وحاول عساكب في نفسه من طبائع الصلف والغرور أن يبدو في عين الجمع كأكبر مما يطيقه وسع ثوبه جلس مزهواً على راحلته ، وركض بها يسبقهم إلى الرجل الذي جاء والوداعه ويسد عليهم طريقهم إليه وتخبر من بينهم أرفعهم قدراً يوجه إليه الحديث بنبرات جعلتها الكبرياء كالإملاء .

قال :

« يا على . . . إن أمير المؤمنين قد أنهى الناس أنت يصحبوا أبا ذر في مسيره أو يشيعوه ، فإن كنت لم تدر بذلك فقد أعلمتك ! »

فلم يطق منه على هذا التمسيد الذي جمع إلى عنف التبليغ جفوة التمهيد ، وهادره بالسوط يضرب به وجه الراحلة التي سدت عليه الطريق ، وهتف يقول :

« تنح . . . نحاك الله إلى النار ! »

وتذاكر عمار بن ياسر وتقر من الصحابة ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله فأنهى بهم الرأي إلى كتاب رفعوه إليه فلما دخل به عليه عمار ، قال له الخليفة وهو لا يخفى الاستياء :

« أنت كتبت هذا ؟ »

« نعم » .

« ومن كان معك ؟ »

« تقر تفرقوا فرقا منك » .

« فمن هم ؟ »

« لا أخبرك بهم » .

« فلم اجترأت على من بينهم ؟ »

قال مروان وقد وجد الفرصة مواتية لإشباع ناحية في قلبه صديانة

للشر والإيذاء :

« يا أمير المؤمنين ... إن هذا العبد الأسود قد جراً عليك الناس ، وأنتك وإنك إن قتلته نكلت به من وراءه » .

فما أسرع أن أقره عثمان على رأيه العجيب البغيض . وتناول عصاه فضرب بها الشاكي . وأعانه على الضرب أهل بيته ومن حضر مجلسه من بني أمية حتى فتقوا بطن الرجل وألقوه على جانب الطريق — ذلك اليوم البارد المطير — وهو فاقد الرشد بين الموت والحياة . . . كذلك فعل عثمان بعمار الذي جاءه بالنصح في ثوب شكاة لأنه رأى في شكواه اجتراء من العبد على السيد يكشف نواحي الضعف فيه ، ولم ير جوانب الحق التي تنطوي عليه المظالم والشكايات في أغلب الأحيان .

في هذه الوقائع تبدوا لنا من عثمان ناحية أصيلة في طبعه هي القسوة البالغة التي دعت به إلى الإيمان في النكال : بالتشريد وفتق البطون وكسر الأضلاع وقطع الأرزاق ! .. ولم يكن العنف ديدنه من قبل . ولم تكن الشدة بعض ما جبل عليه . ولكنها كلها صفات مكتسبة وزلات أوقعت فيها مشورات شيطانه مروان — هذا المغرور الذي حفزه مركب النقص على الكيد لكل من هم خير منه وأعلى درجة عند الله وفي عيون الناس .

أما الخليفة فمن حقه على كل باقد أن ينتصف له ، وأن يرد سهولة انقياده لشرو مروان إلى الشيخوخة التي زودته بفتور الهمة وضعف العزم وخور النفس أمام سطوة مشيره الشاب . . . وما أحسبه إلا كان يندم غاية الندم غيب كل خطأ قسره مروان على اقترافه ، ويود بجدة أنفه أن يعرف السبيل إلى إصلاحه . ولعل موقفه — فيما بعد — من ابن مسعود يلقي ضوءاً على رغبته في التوبة والنزوع . .

. . . خف إلى الرجل يموده في مرضه ، وذابت نفسه عليه حسرات وهو يرى كيف الموت تكاد أن تلتقه ، فقال له يواسيه :
« يا أبا عبد الرحمن ... ما تشكي ؟ »

قال ابن مسعود هادئاً وعينه على السماء :

« ذنوبي » .

« فما تشتهي ؟ »

« رحمة ربي » .

« ألا أدعوك طبيباً ؟ »

فلاحت على وجهه بسمه ساخرة وأجاب :

« الطبيب أمرضني ! ... » .

فقص عثمان بريقه . وذكر في هذه الآونة التي تدنى غريمه من آخرته

كم كان متجنباً عاياه . متحاملاً غاية التحامل ، ظالماً له حين أتبع 'إيذاءه' إياه
بقطع نصيبه من المطاء إماماً في النكال ...

وراح من بعد يحاول أن يصلح خطأه ، فقال :

« أفلا أمر لك بمطائك ؟ »

فرماه ابن مسعود بنظرة ثابتة فيها ترفع وإباء وفيها استنكار وازدراء ، وقال :

« منعتني وأنا محتاج إليه وتمطنيه وأنا مستغن عنه ! » .

« يكون لولدك » .

« رزقهم على الله » .

فلما أعيا الخليفة أن يذكر له ما يرضيه نهض عنه وهو يرجو منه العفو

ويقول :

« فاستغفر لي يا أبا عبد الرحمن ... » .

ولكن المريض الموتور أباه أيضاً عليه ، وقال هوضاً عن المغفرة والرضا :

« أسأل الله أن يأخذ لي منك حق ! » .

ومع ذلك فقد حز موته في نفس عثمان . وآلمه أكثر الألم أن يشيموه

إلى قبره دون أن يؤذنوه بوفاته ليصلي عليه ... ومشى في هذا إلى عمار بن

ياسر يعنفه لأنه أخفى عنه نبأ الوفاة فقال له عمار :

« عهد إلى ألا أؤذنك » .

فبان في وجهه التأثر وغلبه الدمع ووقف هنيهة صامتاً بجوار القبر الذى خاف صاحبه الدنيا بقلب ملاً السخط جواربه على الخليفة حتى أبى له أن يقوم على جدته بالصلاة .

وتألاك أخيراً نفسه . فراح يترحم على الميت ، ويذكر مآثره بالحمد والثناء ، وقال للحضور :

« رفعتم والله أيديكم عن خير من بقى » .

قال الزبير ساخراً وقد وارى الخليفة عنهم وجهه وغادر المكان :

« لا ألفينك بعد الموت تندبني وفي حياتي ما زودتني زادى !... »

٩

لعل مدافعة على مروان يوم تشيع أبى در كانت اليد التى أسدت حجاباً كثيفاً بين ابن أبى طالب وبين نفس عثمان لعلها الواقعة التى وترت الأزمة لعلها القشة التى رزح تحتم البعير لما أضيفت إلى وسق ضخم كان — لولاها — لا ينوء به على أى حال قد بدأ بها العهد الذى انقضت فيه بقايا عرى الثقة التى كانت تربط من قبل وفيق النبوة بسليل السادة الأمويين .

وكان مروان هو الشخص الذى قطع الخيط الموصل بين الرجلين . وكانت وقيته هي السكين ذات النصل المرفف الجديد . فلم يكدر يعود إلى أميره حتى مال على أذنه . وكدأبه في أمثال هذه الحالات راح يحوى وينمق . ويعصب فيها من ترغ لسانه ما يرسم خصمه في صورة باغ ويصوره هو في هيئة شهيد . وكانت الوسوسة سلاحاً أعاره إياه الشيطان ، فاستطاع أن يثير به من نقمة الخليفة وسخطه ما رآه كفيلاً بأن يأخذ له من على كل ما أهداه الجبن عن أخذه منه ساعة الملاحاة .

وطارت في القوم غضبة عثمان التي أرشها مروان . وبلغهم السخط الذي فارت به نفسه على الغريم المرهوب وما عقد النية عليه من الثأر لصاحبه منه ، فاستقبلوا علياً يقولون :

« ... إن أمير المؤمنين عليك غضبان لتشيعك أبا ذر » .
 فبرز لهم رأسه وقد بان له هوان السبب ، وأجاب بلا مبالاة :
 « غضب الخيل على الجرم ! »

غير أن الغضب لم يكن — فيما يبدو — وليد الحرص وحده من عثمان على أوامره أن بطيعها الناس ، بل كان أيضاً نتيجة حرصه على هيبة مروان أن يهدرها على . فما جاءت العشي حتى استقدمه إليه يحاوره فيما كان منه :
 « ما حملك على ما صنعت بمروان . واجترأت على ، ورددت رسولي وأمرى ؟ »
 قال على يبين له :

« أما مروان فإنه استقبلني يردني فرددته عن ردي ، وأما أمرك فلم أرد »
 « أو لم يبلغك أنني قد نهيت الناس عن أبي ذر وعن تشيعه ؟ »
 فأجابه وهو لا يخفى عنه الاستنكار :

« أوكل ما أمرتاه به من شيء يرى طاعة الله والحق في خلافه اتبعها فيه أمرك ؟ ... بالله لا تفعل .. »

وكانما رأى عثمان أن الطاعة التي فرضها لنفسه على الناس لا تسكاد أن تثبت أمام حجة هذا المجادل القوي البرهان ، فسارع يسد الناحية الخطرة ويقول :
 « فأقد مروان » .

« وما أقيده ؟ »

« ضربت بين أذني راحلته ... »

فقاطعه وهو يعلم إلى أين يريد الخليفة أن يسير بالحديث :
 « أما راحلتي فهي تلك ، فإن أراد أن يضربها كما ضربت راحلته

فليفعل . وأما أنا فوالله لئن شتمني لأشتممك أنت مثلها بما لا أكذب فيه ،
ولا أقول إلا حقاً » .

وأوضح بهذه الصراحة موقفه أجلى وضوح . وتخبرها رداً حاسماً على
ما ساف به لسان عثمان حين تحدث للناس بأنه سيعطى مروان حقه من على
وينصره عليه . وما نحسب أمراً يظن الخليفة كال من السذاجة بحيث غنى
أن يكون القود ضربة سوط يسدها ابن عمه إلى بعير خصمه وينتهي بها
الجزاء المطلوب .

هنا غلبت على عثمان حدته وضيق صدره فصاح كاشفاً عن مراميه :

« ولم لا يشتمك إذ شتمته ؟ فر الله ما أت عندي بأفضل منه ! »

فتار به على :

« ألى تقول هذا القول ، وبمروان تعدلني ؟ ... فأن والله أفضل منك ،
وأبى أفضل من أبيك ، وأبى أفضل من أمك . وهذه نبلى قد ثلثها فهل
فأقبل بنبلك ! »

وكاد الأمر أن يصل لعقبى غير مأموقة لولا أن جرى الناس بينهما بالاصلاح .
ولكنه كان إصلاحاً ظاهراً الرضا والقبول وباطنه من جانب الخليفة التحفز
للاستجابة أو إساءة التأويل ... عذير عثمان في هذا ما يكون عادة بين الرجل
وبين خصم له عزيز الجانب معدوم العثرات قد أحاطت به هالة من إكبار
الناس ... وعذيره أيضاً الحلقة المتصلة من ماضيها يوم تأرجح السلطان
بينهما وهمت كفة الغريم أن ترجع لولا عوامل شتى من الأهواء واليول .
وللضعيف الثالب حذر دائم يحسه تجاه القوى المغلوب .

ثم شاء القدر أن يمد للخليفة في حبال التوجس . كان كمن وكل نفسه
بإحصاء خطوات على بل خطرات أنفاسه . فلم يفته أن يجد فيها دائماً محوراً
يدور حوله شكه . وكانت آفته ضيق أفته عن أن يتسم لفهم مشاعر الناس
حق الفهم . وعجزه عن ردها إلى أصولها المنبعثة عنها بمد أن أحالته شيخوخته
سطحياً يتبس الأمور بظواهرها دون النفوذ إلى ما عساها قد تنبى عنه .

أحصى إذن على منافسه القديم خطواته وخطراته . وحكم عليها كما استطاع ضيق خلقه وما أثارته حولها وسوسة مثيرة من شكوك وشبهات ؛ فلم يعدم أن يسيء الظن ويسيء التأويل . وكان يحنج دائماً إلى التفرد برأيه أو الرأي الذي إياه لقن . ويمتقد فيه الصواب بخير تمييز ، ويرى الخطأ في كل ما هداه . لذلك نجده في كل خلاف نجم بينه وبين على عن تباين في وجهتي النظر لا يرى إلا حرباً موجهة نحوه . وفي كل نقد دار حول ما كان يفعله آله يحسب مرماه هدم أولئك الآل وقص جناحيه هو بهذا الهدم . وعسير على رجل هذه طريقته في تناول النقد وتقبل الآراء أن يحسن الحكم على الأمور أو هل الرجال .

ولقد زوده العصر بصنوف شتى من مثيرات الشكوك والمخاوف لأنه كان مليئاً بالكثير الجرم من أخطاء آله وما ترتب عليها من استنكار لهجت به ألسنة الناس ومكان على منهم مكان الإمام . فلم تكن الشادة على تشييع أنى ذر ودفعه مروان آخر المشادات ولم تكن أولاهما أيضاً . بل سبقها وتبعتها أنواع تداولت حلقاتها حتى انقضى عهد الخليفة الشيخ على أسوأ انتهاء .

... قدم عليه من الكوفة وقد هم صورة لما انطوت عليه جوانح أهلها من السخط على واليهم : أخيه لأمه الوليد بن عقبة . ولم يكن مبعث نقمتهم اليوم ما أصابهم من سوء معاملة الواليد بقدر ما كان باعثه غضبهم في حق الله فلقد فسق الوالى ، وشرب الخمر بمجلس سمر بدار الإمارة . وخرج تتخبطه النشوة إلى المسجد فصلى الصبح بالناس أربع ركعات كاد أن يتمها بركعات ! . . .

هذا حدث خطر أنبأت عنه سيرة الأمير العربيذ منذ اليوم الأول الذى وطئت فيه قدماه أرض الكوفة . وأنبأت عنه قبها كلمات الله إذ نعته بالفسق في آية من آيات الكتاب الكريم منذ قديم . وإن له لدلالته الواضحة أيما وضوح على سوء اختيار عثمان ولاته بغير استكناه نفوسهم ،

وكان له في استكناه النفوس — لو شاء أن يفعل — ميزان سليم ،
ولكنه كان مفتوناً بأهله . معنياً برفعهم إلى النجوم وأن وجد في ماضيهم
ما كان يجب أن يمدل معه عن تفضيل شأنهم على كثيرين بل قلائين . وبحسبك
أن تعجب إذ ينسى لكل ذي فضل فضله في سبيل أن يرفع أهله ولعلك
من بعد مفرق في العجب إن علمت أن هذا « الوليد » جاء الكوفة بأمر
اعليمة ليأخذ إمرتها من يد رجل من خير الناس هو سعد بن أبي وقاص .
وليس للوليد عليه فضل معلوم إلا قرباه .

ما لامرئ يريد أن يجيش العاذير لعثمان في توليته أخاه يستطيع جاهداً
أن يقع له على حذر مقبول . حتى ولو تذرع عثمان إلى عزل سعد بما كان قد
وب بينه وبين ابن مسعود من خلاف ، فإن ذريته تلك إن أوجبت العزل
فليست توجب التعيين وإنه ليسور عليه إذ ذاك أن يجحد من المسلمين
مائة أو ألفاً يصلحون لإمرة الكوفة فلا يقع في ذيل أسماهم اسم ذلك الماخن
الخليع وإنها لحقيقة قرت في أذهان الناس أجمعين إذ ذاك حتى قالوا وقد
رأوا أميرهم الجديد :

« بشما استقبلنا به ابن عفان . . . أمن عدله أن ينزع عنا ابن أبي وقاص
المين اللين القريب ويبيث بدله أخاه الوليد الأحمق الماخن القاجر ! »
ولم يسمهم إلا أن يقولوا ، وهم يبررون هذا الاختيار أسوأ تبرير :
« أراد عثمان كرامة أخيه بهوان أمة محمد » .
ولئن كان تنصيب الوليد والياً قد أصاب من أهل الكوفة النعمة فإنه قد
أصاب أيضاً من نفس سعد غابة العجب والاستنكار .

قال يسأله إذ دخل عليه :

« يا أبا وهب أمير أم زائر ؟ »

فرد الوليد :

« بل أمير » .

فما أسرع أن عقب سعد بجواب عملاء الدهشة والاستغراب :

« ما أدري أحقت بمدك أم كيست بمدى » .

ولقد نهج الوليد بالكوفة منجى من الحياة الخاصة كله خلاعة . وف
 حوله فئة من المفتونين بالمجون . يقضون الليالي على أشهى ما تستطيع النفوس
 اللاهية . ولم يمن مطلقاً بأن يرعى حق المنصب وما يجدر من توفيره له من
 توفير . ولم يمن أيضاً بأن يرعى حق أخيه عليه . فكان للأمرء أضل مثال ،
 ولأسرته كلها أسوأ عنوان . وراح يجمع من ضروب اللهو والتسوية بدار
 الإمارة ما جر عليه السخط والإنكار . وهو أبداً سادر في غيه ، لا يكبح
 نفسه ، ولا يحاول أن يستر مساوئه عن العيون . وانطلق يعب من الخلاعة
 حتى جراً الناس على مجاسه فاستباحوه . دخل عايه ذات ليلة جندب بن عبدالله
 الأزدي فوجده قد أنس إلى ساحر اصطفاه ، يلعب بين يديه . ويفر الناس
 بمكره وخداعه ، فغضب جندب لهذا المجنون الرذول ، ومضى بسيفه أمام الوليد
 فأطار رأس الساحر وقال :

« إن كنت صادقاً فأحى نفسك » .

وكانت هذه الجرأة علامة الانذار للوليد لو شاء أن يفيد منها ، ولكنه
 لم يرعو عما كان فيه ، ولم يتناول الأمر كله إلا من ناحيته الظاهرة ، فحبس
 الأزدي لاجترائه حتى فرغاً بعد فكان عليه أشد المؤلّين والمناهضين حتى اقتلع
 من مقعد الإمارة ومضى على الزمن مثلاً ناطقاً لحق الحكام .

غير أن الذي يدمغه الله لايهديه الإنسان ، بل يظل موسوماً أبداً بفسقه
 لا يتحرر منه ؛ وتبقى السبة عالقة به ما بقى القرآن الأبدى الخالد البقاء . وكفى
 بالوليد عاراً أن وسمه الله في تنزيهه ، ثم وسمه من بعد شعر تندرت به المحافل
 وتناقله السمار ، ونظمه الخطيئة سيد الهجائين فجاء فيه بأقذع الهجاء .

قال عمر بيد الشعراء في عمر بيد الأمراء :

شهد الخطيئة يوم يلتق ربه أن الوليد أحق بالامذر
 نادى وقد تمت صلاتهم : «أأزيدكم؟» عملاوما يدرى
 ليزيدهم أخرى . . . ولوقبلوا منه لقادهم على عشر

فأبوا ، أباه وهب ، ولو فعلوا لقرنت بين الشفع والوتر
حبسوا عنانك في الصلاة ولو خلوا عنانك لم تزل تجرى

ومع ما كان قد سبق إلى علم عثمان من سيرة أخيه ، ومن حكم الله عليه
ومن خوض الناس فيه ، فإنه عزه على نفسه أن يسمع من أهل الكوفة كلمة
واحدة تؤنبه بخلاف رأيه الذي يأتي إلا أن يمتد له الصواب دون جميع الآراء .
وبلغ من تعصبه أن سبقت رحمته لأخيه وثقت به الغضبة على الرجلين اللذين
حملا إليه شكوى الشاكين .

قال لها — ولم تخف من كلماته رنة سخط مكتوم :

« وما يدريكما أنه شرب الخمر ؟ »

« هي الخمر التي كنا نشربها في الجاهلية » .

وكأنما رأيا الريب في عيني الخليفة فأتياه من لدهما بالبرهان المبين الذي
لا يقبل النقص : خاتم الوليد سلباه إياه وهو في صرعة الخمر غارق لا يفيق .
ولكنه الدليل الذي يفقد قيمته إذا نظر إليه بعين المستريب في كل ناقد ؛
المسيء تأويل المشاعر والشكايات . لأنها — في ظنه — لا تزيد من كيد أريد به
أو أريد ذوره . وما دامت الشكوى تمس أهله ، وتعلق أدرانها بأذيالهم فإنها
إذن حسد حاسد أو تبليت موتور .

وهم الخليفة من مكانه ؛ وتقدم إلى الشاهدين وعلى وجهه علامات نفور ،
ثم دفع في صدريهما محققاً وصاح :

« تنفحيا عني » .

وكذلك آثر الشيخ ألا يقصد مقصد الحكم المدل ، وأن يكون سياجا
لأخيه دون القصاص المفروض .

وعجب الناس لموقفه ؛ ولغطت الألسن حتى سمع بالأمر على فأقبل يعاتب

الخليفة ويستنهضه أن يؤول إلى الصواب .

قال له وهو يستنكر ما سمعه عنه :

« دفعت الشهود وأبطلت الحدود » .

فأغضى الرجل مهموماً محيراً ، ثم رفع بصره وهو يسأل في استحياء :
« فما ترى ؟ »

« أرى أن تبعث إلى صاحبك ، فإن أقاما الشهادة عليه في وجهه ولم يدل
بحجة أقمت عليه الحد »

فلم ير الخليفة بداً من الأخذ بهذا الرأي . واستحضر الوليد فلزمته شهادة
الشهود ، ولم يبق إلا أن يؤخذ منه حق الله .

في هذه الآونة غلبت هيبته الخليفة شجاعة الحضور فلم يتقدم واحد منهم إلى
السوط يجلد به السكير ويقيم عليه الحد . وغلبهم أيضاً حياؤهم أن يضربوا أمام
أمير المؤمنين أخاه المذنب ، وغلبهم ثلاثة مارأوا فيه الوليد من مذلة وهوان ...
حتى الحسين بن علي ، حين أمره أبوه أن يقيم على الرجل ما أوجب تلكاً وقال :
« يكفيه بعض ما ترى » .

ولكن ابن أبي طالب لم يكن بالذي يعرف الموادة في حق الله ، فأقبل
والسوط في يده على الجاني يهيم أن يحده . ورأى الوليد الجد في عين علي والتصميم
في محياه ، فسأه منه عزمه ومسارعته لما أحجم الآخرون عنه ، وركبت
نفسه ثورة عنيفة من السخط جعلته يسب جلاده ويروغ منه في أرجاء المكان ،
غير أن السقم لم يكن شفيماً له ولا حائلاً دون القصاص لأن ابن أبي طالب
مالبث أن تمكن منه ، وحاول جهده أن يتخلص من القبضة القوية فأعيته
المحاولة . وراح يناضل عن نفسه ما وسعه الفضال ويضرب بيديه ورجليه كما
يفعل طائر أطبقت عليه الشراك ... ولكن ما هي إلا جذبة حتى وقع طريحاً
على الأرض وعلاه بالسوط .

وأخذت الشفقة هتمان بأخيه ، وأحنقه هوانه وخزيه قبل أن يوجعه عناؤه
وألمه ، فقال بلهجة غضب كأنها عتاب :

« ليس لك أن تفعل به هذا » .

قال علي والسوط في يده يتحرك على جسد الجاني في صمود وهبوط :

« بلى ... وشر من هذا . إذا فسق ومنع حق الله أن يؤخذ منه » .

لولا ما انطوت عليه نفس عثمان من تحفز للغضب على منافسه القديم والنفور منه لأعيب المرء أن يقع في حياتهما على سبب واحد يوجب المخاصمة والنفور . ففي الواقع لم تكن مشيرات الخلاف بينهما سوى هذات يسع الحليم أن يفسح لها في صدره ، ويسع النصف أن يراها على هيئتها التي لا تنطوي إلا على الرعية في الإصلاح . ولكن عثمان لم يكن حليماً ، أو هو كانه في زمان مضى قبل استخلافه ثم انتهى أجله بوقعة الأمويين الذين أجادوا اللعب على أوتار شيخوخته الحادة المزاج . ولم يكن منصفاً أيضاً لأنه آثر أن يسيء الظن في كل ناقد لم تربطه به من قبل منافسة ، فوسعه أن يسيء الظن في على آلاف المرات . ولو استقصينا كل خلاف نشأ بين الرجلين لرأينا الخليفة متجنباً على خصمه في الاتهام ، جانحاً عن عقله إلى عاطفته ، ميالاً عن نهائه إلى هواه .

لم يكن على وحده ناقد عثمان ، ولا مخالفه في النظرة إلى الأمر الواحد ، ولا بالرأغب — منفرداً — في الميل به عن السياسة التي جرت عليه سخط الأمة . ولكننا — مع ذلك — نشهد الخليفة بقاءه بمحذر ويودعه بمحذر ، ثم لا نحسب إلا أنه اتخذ لنفسه شماراً ثم عن مدى الضيق الذي خالج نفسه حياله ووضع غاية الوضوح في كلماته القليلات :

« إنه يميني ، ويظهر من يميني » .

أجل هذا هو جماع الشعوب الذي كانت تنطوي عليه جوارح عثمان . وهو نتاج سوء ظنه الذي أفسد الملائق بينه وبين على في وقت كانت أحوج فيه إلى النقاوة والصفاء . ولئن كان أمير المؤمنين قال قولته تلك حين سمى إليه مروان بالوقعة يوم تسيير أبي ذر ، فإنها بقيت من بعد علماً على شعوره نحو على واسترايته فيه . ولكننا لا نجد علماً جاء الخليفة بغير ما يحجى به الناصح

الأمين ولا نقده إلا استهدافاً لصلاحه في حكم الناس . لم يجاوز نقده مطلقاً العيب فيه أو الطعن عليه كما جاوز كلام غيره عنه . وبحسبنا أن نراه أقصر عاباً فيه من الآخرين الذين كان عثمان يظن أنحيارهم له وعطفهم عليه . وليس أبلغ في هذا المقام من أن نورد هاهنا ما قاله فيه عبد الرحمن بن عوف وقد رأى منه ما أنكره وأنكره الناس .

قال نادما على ما ساف من إدلائه بالبيعة إلى عثمان :

« لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما وليت عثمان شمع نعلى » .

وقال ثانية وهو على فراش الموت وقد شهده بوطد سلطانه بتولية دويه :

« عاجلوه . . . عاجلوه قبل أن يتبادى في ملكه » .

ولكن عثمان — فيما يبدو — كان حقيقاً به أن ينفرد لمخالفه أجمعين ما لم يسمعه أن ينفرد بمضه لمناقسه القديم وإن كانت محاور الخلاف بينهما لا تعدو — من جانب على — التزويد بالنصيحة أو إزجاء النقد الزيه . فقيم كان شك هذا الشيخ إذن ، واسترايته ، وجريه وراء تقوره لأقصى الحدود ؟ .

لغير سبب معلوم سوى التوجس الذى يملأ قلب الغالب الضعيف من خصمه المرهوب. المغلوب ، ولغير ذريعة إلا ما جبلت عليه طبيعة إنسان يخشى على ما فاز به أن يسلبه إياه عزيز مكين . وإن الشك للسياج الوحيد الذى تتحصن خلفه نفوس الضعفاء من قوة الأقوياء .

بهذا ينهم سلوك عثمان ، وعلى ضوءه نرى على أية صورة من الصور كان يتقبل نصيح على أو نقده الذى كانت غايته خير الأمة وخير أميرها المستريب فى آن . كان يأتية بالرأى القويم فى الأمر من الأمور فيرفضه الخليفة ويأباه . وكان يبصره ثانية بالنهج الواضح السليم فلا يقره إلا ريثما يستطيع بعد قليل أن يتذرع بتوافه الذرائع التى تحله من هذا الإقرار . وهو فى الأولى قد حفره على الرفض إياؤه أن يعترف لغريمه بالتفوق ، وفى الثانية يلين هنيهة لضغط الظروف ثم لا يلبث أن تستبد به طبيعة الأهواء والعناد ، وكلا السلوكين فى نهاية الأمر بالتعيان .

وكانت له أيضاً حال وسط بين الحالين ، تلزمه الحجة ، ويقهره المنطق القوي السليم فيصبح نهياً مقسماً بين الرغبة في الاستمساك بمناد غايته خطل ، والنزول على رأى ليس له في ابتكاره قضل ، فلا يلبث أن يؤثر الأولى ليجنب نفسه الظهور أمام خصمه على هيئتها المملومة من الافتقار إلى استنباط الرأى الراشد الحكيم عاب الناس عليه إتمامه الصلاة بمعنى أثناء الموسم فجاءه بعدها على — فيمن جاءه من صاحب رسول الله — فقال :

« والله ما حدث أمر ، ولا قدم عهد ، ولقد عهدت نبيك يوصل ركعتين ، ثم أبا بكر ، ثم عمر وأنت صدراً من ولايتك ، فما أدرى ما يرجع إليه . »

فلم يحمله السؤال الذى جاءه في صورة استفسار على محاولة تبرير الخطأ إن لم يكن حافزاً له على الإقلاع عنه أو الوعد — على الأقل — بالعودة إلى الصواب ، بل رده محرّجا يرد بجواب هو لا جواب :

« رأى رأيتة ! . »

شخصيته جمت عجباً من النقائص التى طبعت سلوك صاحبها بألوان شتى تنافرت وتجاورت بغير اتساق . بدا فيها اللين الأصيل البالغ إلى الرخاوة متصلاً بالعنف المكتسب الجانح إلى القسوة . والحلم الذى منشؤه الطبع بالحدة التى اغرى بها التطبيع . والخضوع الذى يلزم النفس الضعيفة بالصلابة التى يولدها الاقتتان بالتزام قوة كانت من قبل عزيزة ممنوعة . وإنها جميعاً لصفات مجزئة بأغراضها لو أحسن وضمها فيما يصلح بها ، ولكنهما كفيلة أيضاً بأن تقصر دون الأهداف وتجر إلى العثرات إذا لم يستوح المرء — عند استمالتها — الكياسة والتبصر ودقة التقدير .

لقد كان عثمان — أمام مسائل عهده — طبيياً غير بارع . توافرت بلا ريب في جميعه الأدوية ولكن أشكل عليه التمييز بين الأدوية ، فوصف الدواء لغير دائه وعالج المريض بنسب دوائه وكان كلما أخطأ وتزايد حوله اللغط وكثر فيه العائب والناصح ، سارع إلى الإرهاب والقمع دون الانتصاح

وإلقاء السمع ، حتى أصبحت كل مسألة تدبها مشكلة ، وكل مشكلة تجر في أعقابها مشكلات أثارت عليه نقمة الغريب وسخط القريب .

أجل . . حتى بين أهله لم يدم أن يجد مناجزاً يؤلب الناس عليه ويدعوم إلى خلافه والاتفاض عنه . . ولكن مرد التأليب في هذه الحالة لم يكن غيرة محمد بن أبي حذيفة على مصير الأمة الإسلامية بقدر ما كانت الغضبة لمصلحته الشخصية . فهذا الفتى المفتون بالسلطان افتتان بقية أقارب عثمان ، آذاه أن يؤثر الخليفة عليه سواء من أهله فيهمهم الولايات والمناصب ترفع من شأنهم بين الناس ، وتحيلهم — من دونه — أمراء ذوي سطوة على العباد والبلاد . ولم يكن هو — في عين نفسه — أقصر باعاً منهم أو أقل كفاية وقدرة ، فامتلاً قلبه سرارة على الخليفة . . كان يلقى الرجل عائداً من غزو الروم فيتغاثب ويسأل .

« . : أمن الجهاد ؟ » .

« نعم » .

فيشير بإبهامه إلى ناحية الحجاز ويقول :

« أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقاً » .

« فأى جهاد ؟ » .

« عثمان ! » .

ثم لا يفي بيت سمومه في نفوس الناس واحداً بعد واحد حتى مضى ، وحققه رائده إلى مصر يلوذ بجماعات المخالفين ، ويضم صفوفهم ، ويرفع صوته بدعوتهم حتى أن له أوان الثأر من سيد بيته الذي منعه ما أباحه الفتية الآخرين .

هذه الصور المتواترة من المحاصمة والحلاف كانت جذيرة بأن تملأ نفس الخليفة الشيخ بالريبة في أغلب الناس إن لم يكن في كل الناس ، وأن تدفعه ضيق الصدر على كل ناقد أو حاقد ثم ترمى به إلى أحضان فئة قليلة من أهله وجد عندهم الرضا عن أعماله بغير نقد ولا مراجعة ، يعمنون له في إظهار الرضا

فيمعن هو في الميل إليهم والثقة بهم إلى غير حدود . كانوا يمسخون بأ كف المراءة على رأسه فيهدأ لهم كالطفل بين ذراعى أمه حتى ينام وينمض عينيه عما حوله من أحداث .

ولقد نام الرجل بعد أن فترت أجفانه ألفاظ التدليل والتمويه التي حرص مشيروه أن يسمعوها أياها . ومضت أمامه الحوادث ترى فأراها إلا بعيني غافل ، ولا تلقاها بجد أو احتفال . حتى إذا بلغ خطرهما حدا أعى فيه إخفاؤها أولئك الذين كان ديدنهم الإخفاء عنه ، أصبح شأنه كمن سار وهو قائم ثم استيقظ وقدمه في النار ! .

نعم فتح عينيه أخيرا ، وانتبه في آونة تساوت فيها اليقظة وإنماض الجفون . فإذا المسألة ليست نقد ناقد أراد أن يتصيد الهنات والأخطاء ، ولا حقد حاقد أعياه أن يستر غل قلبه ، ولا بشنآن موقور غلب على أمره في مهدان المنافسة فاستطاع من بعد أن يتأهب للثأر . . كلا ، بل أحى كل هذا في لحظة واحدة ، وتوارى في ارفة عين كأنما بقوة ساحرة ليبدو بدله النتائج الحقيقي لثورة النفوس على الشيخ الغافل . . الحصاد السام الذي وضعت بذرته عوامل شتى ، وأنبثته كل أرض وسعته الدولة المريضة التي قام عليها عثمان فأظلمها منه الحكم ولم ترعها الحكمة .

١١

لم يكن التذمر فردياً نشب بنفوس بضعة من الناس دون بقية الرعية ، ولا طائفيّاً نضج به قلوب طبقة دون غيرها من طبقات ، ولا قومياً ألم بأحد الأجناس الكثيرة التي انضمت عليها الدولة الإسلامية المترامية الأطراف . ولكنه كان جامعاً ، شمل الأمة أفراداً ، وعمها جماعات ، ولقى صدها لديها شعوباً عديدة النحل والألوان .

غير أن الذي لم يكن في الحسبان أن تكون قريش نفسها من بين أولئك

التدميرين . وأن تتقدم الصفوف أمامها مناهضة رجلها ، داعية عليه مخذلة عنه ، كأنما فاتها أنه أحدها يسى . إلى هيبتها ما يأخذ منه . ويصعقه بفشله مثالا ناطقاً على فشلها هي وعدم إحسانها القيام على أمر الناس .

قد كانت حقاً في الخليفة نواحي ضعف لا تدع لمنصف قادر على كبح لسانه الا يخوض فيه أو ينقد عمله . ولكن قريشاً في الأغلب لم تتوخى النقد الإصلاح لذاته ، بل اتخذته ذريعة إلى أغراضها أو التزمته ثأراً منها لهذه الأغراض التي فوّتها عليها عثمان . وكلما جرى ثراء وراء الأسباب التي أثمرت تقمّتها وسمه أن يرى خلف أكثرها أسباباً شخصية هي الطمع في المال أو الجاه أو النفوذ . وما من رجل في العالمين كان يستطيع أن يرضى نزوات كل هذه النفوس الظمأى إلى أنواع متباينة من عروض الحياة مادام قد سار سيرة عثمان ولم يلتزم شرعة المساواة عند معاملته الناس .

أجل كان تفريقه في المعاملة هو أس البلاء . وهب فأنقم عليه من لم يساوم بغيرهم من المحظوظين والمحسرين عليه . ونصبه الحكام والولاة فباء بفضب الأثيرين عنده بالمال ، لأن للحكم متعة تفوق متعة الغنى والثراء . ولو أنه جهل العدل أساساً للبذل ، والكفاية مؤهلاً للولاية لجنب نفسه سخط كل طامع في مال أو منصب . ولكنه وكل لهواه وحده توزيع الهبات والولايات ، والهوى دائماً خداع .

وكذلك وسع قريشاً أن تضج من شيخها — هي أسرته الكبرى — لأنه آلى بمعظم خيرها أسرته الصغرى آل أمية والحكم وأبي معيط . ولم يكن الشعب ، النافر حتى الآن بغير إظهار ، الطاوى في قلبه تدمره ، يهيمه أن ينصر أحد الفريقين على الثاني ، أو يفضب لمن آل منهما بالصفة الخاسرة . ولكنه كان متفتح النفس للتبرم فأمدته قريش بمادة جديدة للسخط على الخليفة الشيخ . واستطاعت — وهي في عين الناس السادة والقادة — أن ترسم للرأى العام طريق النفور الذي أدى إلى الثورة ، وأن تحمل علم العصيان فتسير خلفها العامة . ولم يبق من بعد أحد كان يتجرز من البوح بسخطه على عثمان إلا قد أكسبه

موقف قريش جرأة على الرجل ، فسارع بإظهار سخطه بعد أن رأى قادة الرأي فيه لا يصطنعون ستر نفورهم من صاحبهم ولا يحاولون تخفيف الملام عنه . بهذه النظرة حكم الرجل فاستطاع أن يرفع من شأن دولته على حساب أمته . عقد الألوية وسسير الجنود ووسع الحدود ، ولكنه لم يكن حريصاً على الارتفاع بشعبه إلى مستوى من الحياة الاجتماعية أجدى عليه من تلك الفتوح ، وغلب دائماً صالح الوحدة السياسية التي ضمت شعوبه على صالح هذه الشعوب نفسها ، وأولى بالحكومة الرشيدة أن تستهدف أولاً خير رعاياها .

لكن عثمان لم يكن يعتقد هذا المبدأ ، أو — على القابل — أجبرته ظروف الأحوال التي أحاطت به على ألا يسير عليه . أما هدفه الحقيقي فكان الاستزادة من رقايع الأرض التي يرفرف فوقها علم حكمه . وكانت معتته الأولى أن يلقى بالنظرة على شعوبه فيراها كلها أداة دائمة على العمل من أجل دولته . ولئن كانت هذه الأداة هي القوة التي تحقق له أغراضه السياسية إلا أنه لم يوفر لها ما يحفظها بحلوة موفورة النشاط ، مقبلة بكل نفسها على الواجب الذي وقفها عليه . . . لقي عمرو بن العاص بعيداً أن عزله عن ولاية مصر فتال له مزهواً معتزاً وهو يشير إلى أموال حجة بمتبها إليه عامله الجديد عبد الله بن أبي سرح : « إن تلك اللقاح درت بعدك » .

فما أسرع أن أناه الجواب الذي يزرى بزهوهِ واعتزازه . . . قال له عمرو في كلمات قليلات تدل أبلغ دلالة على سياسة الاستنزاف التي جرت عليها الحكومة في تلك الفترة من الزمن حيال الشعوب المحكومة :

« ولكن فصالحها هلكت يا أمير المؤمنين ! . . »

في الحق لسنا نتهم الرجل بالعمل على ابتزاز الولايات مواردّها ، ولكن عماله على تلك الولايات جعلوا هباً ذا بعض ديدنهم وبدأت الأمصار المختلفة — في أعينهم — كقطيع الأبقار يدر الحبر على قلب الدولة الحجاز . . . هم

في هذا أحد نوعين : وال استغفره حب الترف فحرص على استجلاب الأموال لنفسه ولمن خلفه بالعاصمة من مدبري الحكم ، وآخر قهرته الأحوال على استجلابها ليشبع نهم غول الحرب التي شنتها الدولة في كل اتجاه تنفيذاً لسياسة الفتوحات ولكنهم في الحالين أمعنوا في استنزاف الشعب ، وجاروا على حقوق الناس في النية فمنعوا عنهم أو أنقصوها لأنها لم تعد — في نظرة الولاة — حقاً واجب الأداء وقف معاوية بن أبي سفيان على منبر دمشق وقد علم أن الناس سري فيهم التذمر من حبس هذه الأموال . فقال :

« إنما المال مالنا ، والنيء فوئنا ، فمن شئنا أعطيناه ، ومن شئنا منعناه »

وقد كان من أثر هذا الإرهاق الاقتصادي الذي وقعت الشعوب تحت وطأته أن بدأت العيون تتفتح فيها على حقائق كانت قد غابت عنها إلى قليل . وكما وضع للناس التفاوت بينهم وبين آل الخليفة وقريش في استحقاقهم للمزايا من المهات والمناصب فقد بدا بينا تفاوت من نوع آخر بين الشعوب الدخيلة كلها وبين الشعب الأصيل الذي ضمها تحت رايته . ولم يكن التباين الاقتصادي هو الآفة التي أوشكت أن تنخر في عظام الدولة بل الشعور بالهوان هو الذي جرح نفوس أهل الأمصار وهم يرون العرب يعلونهم سيادة وثروة . . . فكل همال الخليفة على رقاع الدولة كانوا من أهله فقبيله . وكل علم بارز في شئون المال والتجارة كان يتصل بهذا القبيل بأكثر من سبب واحد إن لم يكن من رجاله الأعلى . وما كان لمصري أو كوفي أو بصرى أن يشق طريقه بين هذه الطبقة السائدة وقد حيل بينه وبين المزايا التي تؤهلها للاندماج فيها إلا إن كان لهم بطانة أو تابعا يسير في الركاب .

أى فارق إذن بين هذه الدولة الجديدة وبين الدول البائدة من الفرس والرومان ؟ . . . وأين دعوة المساواة التي نادى بها الإسلام واستجابت لها طواعية هذه الأجناس الشتي من شعوب الأرض ؟ . . . قد كانت المبادئ التي بثها النبي ووضعها أساساً لعالم جديد سعيده كفيلة بأن تؤلف من الشعوب المختلفة أمة

واحدة توثق بينها المحبة إذ تسودها المساواة . ولكن الطريق المستوية وجدت من ينحرف عنها ويستبدل بها أخرى ملتوية لا تقوده إلى العالم المأمول . . . وقد بدا الناس كأنهم الآمال التي بذر الدين في قلوبهم نواتها قد أوشكت أعوادها أن تميل وتتعصف . وراحت الثمرات المرجوة تتساقط فجأة تحت الأقدام قبل أن تينع . وكما ألقى امرؤ ببصره في الناحية التي أمل طويلاً أن تبرغ منها شمس المساواة لا يلبث حتى تطالع سحائب دكناء تلف الأفق كله وتحجب عنه الضوء . . . ولم يعد هناك إلا ظلام الماضي بما فيه من جهالة واستبداد يطارد هذه الشعوب التي لم تكد تتحرر من ربقة الدول البائدة حتى رأت نفسها تحبب في الطريق الجديد إلى مستقبل مجهول مغم . . .

هذه الشعوب التي خلفت وراءها الغابر مثلوجة الصدور أضحى اليوم تهيب موقفها وهي ترى غسدها في مرآة حاضرها المظلم . . . أهى ما زالت تعيش في الماضي ؟ . . . أكانت هذه الفترة من السنين القلائل السالفات التي أعقبت رسالة محمد حلياً هائلاً ما لبثوا أن ارتدوا منه إلى نقطة شقية ؟ . . . إن يومهم هذا موصول إذن بماضيهم الذي لفته استبداد فارس والروم . وحياتهم في ظل الدولة الفتية ليست إلا حلقة من حياتهم في ظل أختها الزاهيتين خلف ستار التاريخ . ولكن عيونهم التي أغمضها من قبل ظل الظلم ، وبصائرهم التي رانت عليها حلقة الاستعباد قد بدا لها في شريعة الإسلام قبس يوشك أن يضيء أمامها الحياة . وأخذ الشعور بحب الانطلاق والتحرر يراود النفوس الحبيسة . فلم يعد الناس من بعد يفرعهم سيف الإرهاب وقد علمتهم الدعوة المحمدية أن سلاح الظلم مفلول الحد وأن دولته دائماً إلى زوال .

أجل . ففي الكتاب الجديد جاءت شرعة تعلموا منها أن الناس جميعاً في هذه الدنيا سواء . وأن حق الحياة الحرة مكفول لكافة الأجناس . وأن أحداً لا يفضل آخر أمام الله إلا بتقواه وإن حلك لون الفاضل وأبيض لون المفضول .

فقد ذهب زمان العنصرية ، وبشر الدين الجديد بعالم تسوده العدالة .

ولكن الأمل الذى خالج القلوب الظمأى إلى هذه العدالة لم يلبث أن خبا ضوؤه . . . لم يتغير المبدأ السامى الذى قرره القرآن ، ولم يتبدل كتاب الله أو يصبه تحريف ، بل انحرفت وحدها نفوس القائلين على إنقاذ شريعة السماء ومالت إلى هواها القديم . وبدأت عوامل الوراثة والبيئة التى اختفت آونة قصيرة فى حياة محمد وحياة خلفه تعود ثانية إلى الظهور كهيئتها الأولى قبل الإسلام . عاودت العرب عزتهم بالجنس وتمصّبهم المقيت الذى نهى عنه الله . وارتد العربى ثانية إلى تقاليد جاهليته الرثة التى عصبت عينيه بمرآة عاكسة لا يرى فيها غير نفسه

طبيعى كان هذا الشعور أحرى به أن يلازم نفوس شعب فتى بهم أن يأخذ مكانه على هام بقية الشعوب ويحاول أن يفرض شخصيته على العالم . ولكن هذا الشعور القوى بالقومية بث فى نفوس البلاد التى دانت لطاعة الجزيرة قلقاً على كيانهما هي أن تطغى عليه شخصية السيد الجديد . . . وكدفاع عن نفسها لم تبدأ من التمصب هي الأخرى لقوميتها أمام العرب . ثم نما فيما بعد هذا الشعور فى كل منها حتى راحت تتنافس فيما بينها لإظهاره ، وتشهد الواحدة منها فى التمصب لجنسها أمام أخواتها الأخريات كما وقع بين أهل الشام وأهل الكوفة حين اجتمعا على حرب بعض النواحي الثائرة بفارس فأبى كل فريق منهما — اعتزازاً بجنسه — إلا أن تكون له الإمرة على زميله .

لم يكن هجلاً إذن أن تتولد الروح الوطنية فى الأمصار التى ضمتها الدولة الإسلامية الجديدة ، وأن تنمو مع الزمن نمواً يطرده وازدياد شعور العرب بمصيبتهم وحرصهم الماود على الاستمسك بها . وكلما جنح الشعب الحاكم إلى الاعتزاز بجنسيته مالت الشعوب المحكومة أيضاً مثل مثله . ووجدت من نفسها اندفاعاً إلى الخوف على جنسيتها أن تفنى فى شخصيته ، وإلى قوميتها تلتصق بها أمام ذلك التمصب ، وإلى وطنيتها الوليدة تغذيها يوماً بعد يوم لتكون لها هي

الأخرى كيان قائم تمتاز به . ووجد الناس ، بفارس ومصر والعراق وغيرها من أجزاء الدولة ، في تاريخ أفوامهم الأقدمين دواعي نخر تدعيم أقرب إلى النفور من السادة الجدد الذين قفزوا إلى أما كن الصدارة في العالم بغير ماض مجيد يهيئهم لهذه الصدارة . ولم تلبث أسباب المفاضلة أن برزت أمامهم واضحة فأسوا على مجدهم القديم الذي فقدوه وورثته دونهم هذه الحفنة القليلة من أبناء الصحراء .

هذا شعور مرده من جانب إلى تلك الغيرة النفسية التي تراود عادة نفس المفضل على فاضله المتفوق عليه . برز بروزاً واضحاً على عهد عثمان . واتخذ في البدأ مظهراً ساليا لا يباب ، هو رغبة هذه الشعوب في أن ينشر بينها وبين العرب ميزان العدل ويجمعهم معاً قانون التسوية في الحقوق والواجبات . ولكنه من بعد أصبح نقمة شديدة الخطر كأنها الشوكة المرفهة في جنب الدولة لا تنى تدميرها وتجرعائها من المآسى والويلات ما ظل ينخر في هيكلها على مدى الأحقاب المتعاقبة بعد ذلك التاريخ . . . وما كانت الحكومات التي قامت في حواضر البلاد المقهورة والدول المختلفة التي ركزت في الأمصار دون الحاضرة الإسلامية الأصلية إلا نوعاً من التعبير عن هذه النقمة . فاقد اندثرت بهارويد وأرويدا سلطنة قریش خاصة والعرب عامة . وانتقلت بها الرئاسة بمظهرها الديني والسياسي من يد المتبوع إلى أيدي أتباعه واحداً بعد الآخر . . . حتى معاوية الذي نصب من نفسه مدافعاً عن الخليفة وقومه لم يستطع أن يقيم ماسكه في أرض أولئك القوم واعتاض عن كاهيهما الشام وأهله بجارية منه لتيار القوميات . كذلك من قبله فعل على . وكذلك من بعده فعلت كل أسرة حرصت على الاستئثار بالسلطان على الدولة العريضة ، وكل حاكم أراد أن يدوم حكمه ، لأنهم عرفوا جميعاً مدى القوة التي أكتسبتها الوطنية هذه الشعوب التي كانت تابعة حتى حين . وعرفوا كيف يستغلون حماسها لأجناسها في إقامة حكومات في بلادها يشعر منها أهل تلك البلاد أنها تستند إلى أكرمهم وليس لها بدونهم حياة . وكل حركة أريد بها

أن تقوم دولة في الحجاز لم يكتب لها النجاح ، لأنها كانت على معنى ما
تحدياً لشعور تلك الشعوب .

١٢

أ كانت هذه القوميات وليدًا جديدًا لم ير النور إلا على عهد الخليفة
الثالث ؟ . . . أ كانت عواطف الشعوب المحكومة التي ازدخرت في قلوبها
بالنفور والسخط والنقمة على الأمة الحاكمة حدثًا لم يتخذ مظهر الحياة إلا في
زمان عثمان ؟ . . . بل هي ثمرة أنضجتها الأيام وكانت بذرتها مغروسة من قبل
في النفوس . فلم يكن الشعور بالذات جديدًا على أقاليم الدولة . ولم تكن
الغضبنة للجنس وللوطن المغلوب إحساسًا مفاجئًا راود أهل الأمصار ، وإنما
يستطاع رده إلى عهد غير وتولت أيامه ولا يكون ثمة خطأ في التقدير . . .
فما مقتل عمر إلا أولى المؤامرات السياسية التي شهدتها الحكم الإسلامي
وأريق فيها دم كريم حرام . وما خنجر أبي لؤلؤة سوى وسيلة للتنفيس
عن تلك الغمرة الوطنية التي جمحت عن حدها واستبدت بقلوب بضعة من
أولئك المغلوبين على أمرهم . تلفتوا فإذا بين عشية وضحاها بلادهم تدوسها
أقدام أبناء الجزيرة . وتسلبح حرمة كل عزيز على أصحابه من أراض وذكريات .
والثورات المشبوهة بيمض نواحي فارس أواخر عهد ابن الخطاب حديث مبين
يعلو به صوت هذه القوميات .

ولقد مضى عمر إلى ربه ضحية بريئة للوطنية الجامحة التي يعصب عينها
التمصب ويدفعها عمياء . وتخلت بمضيه القبضة القوية عن الزمام الذي كان
يمسك الدولة الكبيرة لتخلفها قبضة ضعيفة مسترخية ، هي أو من من أن
تقبض على ناصية الأمور التي أخذت خيوطها تتعقد وتنشأبك . وكان من
أثر السواسة التي استنساها عثمان في تنصيب ولادة غير ذوى حنكة ودراية على
تلك البلاد التي بدأت تنهياً للفتنة ما مكن للقوميات الناشئة في الظهور ثم

الطغيان . يحفزها من ناحية حبها أمها وحرصها على أن تستمتع بمحبتها الكامل في حياة كريئة حرة ، ولا تساق أمام العرب سوق الأنعام . ومن ناحية أخرى يدفعها إلى التحرر من استعلاء الأمة الحاكمة عليها خيبة أملها في العدالة المنشودة التي حلت أعواما أن تسود قاب الدولة وأطرافها على سواء . وخرج التذمر رويداً رويداً من دائرة الرغبة المكبوتة إلى حيز الدعوة الصريحة المناجزة بحمل الويتها أناس انتادت لهم البلاد المقهورة طواعية وقد استكبرت أن تدن للعرب الذين لا يبلغون مثل مجدها في صحائف التاريخ . ثم ما لبثت هذه الدعوات حتى تعبد طريقها فاستحالت من بعد إلى مناجزات عنيفة مسلحة أنحفت الدولة في كل ناحية بأفدح الجراح .

على أنه يجمل بنا ألا نحمل عثمان بمفرده مغبة السياسة الخاطئة التي جرى عليها تفصيص ولواء الأقاليم والأحصار . . . هو حقاً لم يتوخ في اختيارهم أن يجتمع لهم الحنكة وحسن الإدارة . ولكن سوء الاختيار لم يكن وحده الذي أثار في تلك الشعوب قوة « الشعور بالذات » . . . وإن أراد أن يبحث عن السبب الأصيل الذي نمت به القوميات فليبحث إذن وراء هذا الشعور . وليعلم أن غارسه في نفوس تلك الأقاليم كان عمر قبل أن يكون عثمان .

سياسة عمر في تفصيص الولاية — وفي عزلهم على سواء — كانت سبباً لا ينكر أثره في تكوين الشخصيات القومية . وفي نهوضها . وفي طغيانها على مرور الأيام . ولكنه في الواقع كان خطأ من جانب الخليفة الثاني أريد به الصواب . وانحرافاً بدا في حينه . كالإصلاح ولم يرد به غير الإصلاح . فلقد كان الرجل لفرط حساسيته ، وشدة شعوره بالمسئولية الملقاة على عاتقه كأمير للدولة المريضة ، يأخذ نفسه بالعمل على إرضاء الشعوب الإسلامية المختلفة غاية الإرضاء لا يكاد تأتبه الشكوى — مهما كان هوانها — يسوقها إليه بضعة نقر في حق عامله عليهم ، حتى يسارع إلى عزل العامل ، وتفصيص سواء . . . فلکم أخذ ولاته بالهينات وحاسبهم أعسر الحساب ليقضاء مرضاة ضميرهم ومرضاة فئات قليلة من رعاياه . ولكم تناولهم بجزاء أهونه الخلع

فأقالهم من مناصبهم وأقام عليها من لدنه من حسبهم أدنى إلى قلوب أصحاب الشكايات هذه السياسة التي اتبهجها عمر نتيجة لشدة شعوره بواجبه ومسئوليته تجاه أقاليم دولته ، ورغبة منه في الفوز برضاء شعوبه عنه ، وجرياً وراء توفير السند القانوني الذي يغيره لا تكون للحكم شرعيته الواجبة . . . هذه السياسة التي غايتها رضاء المحكوم عن حاكمه والتي تعتبر في نظرة القوانين والشرائع أمثل السياسات لم تكن في نظرة الواقع الملموس كذلك . بل انحرفت عن وجهتها التي رسمت لها وقادت إلى عقبي غير محمود ، لأنها أشعرت تلك الشعوب الحديثة العهد بالشعور بالذات أنها تملك أن تفسر ولايتها كما تشاء وأنها — نبعاً لهذا — لا تملك التغيير إلا لأنها أصبحت من القوة بحيث تستطيع الإملاء .

وهكذا أسىء تأويل البواعث الطيبة التي دعت عمر إلى الحرص على إنقاذ رغبات أهل الأمصار . فلما خلفه في مقعد الإمارة عثمان ، كان ضعفه مغرباً للشعوب بالمغالاة في الشعور بالذات ، وبالإمعان في الطغیان نتيجة لهذه المغالاة . . . وأوسع لها في ميدان التطرف في الإملاء وفرض رغباتها أن ولاية الخليفة الثالث كانوا — في الأغلب فضلاً عن نواحي النقص فيهم وعن سقطاتهم الشخصية — شباناً غير ذوي دراية لا تجربة لهم ولا يحسنون تدبير الحكم .

بهؤلاء الولاة واجه عثمان الفتن التي تجمعت في الشطر الثاني من عهده المنكوب وهم الذين وكل إليهم علاج الآفات التي راحت تنخر في عظام سلطانه . . . كانوا عينه وأذنه وكفه المدودة إلى الأقاليم ، فلم يستقبلوا الحوادث بأبصارهم إلا بمثل ما استقبلها به على البعد — بالنظرة الكلية والأذن الوقراء والكف الشلاء . . . لكأنما كانوا هم صدى له حتى قل أن أحسنوا له النصح أو مملوا له في مناطقهم ما كان يحمل بالحكام ذوي الفيرة أن يفعلوه . . . دخل سعيد بن العاص الكوفة ، وقد خلف الوليد بن عقبة

على إمرتها غيب قصة الحجر ، فأمر بمنبر المسجد أن يغسل عسى أن يتطهر من أدران سلفه . ثم اعتلاه فقال للناس :

«... والله لقد بعثت إليكم وإني لكاره . ولكنني لم أجد بداً إذ أمرت أن آتمر ... إلا أن الفتنة قد أطلعت خطمها وعينها ... والله لأضربن وجهها حتى أقصها أو تعينى . »

فعلى أية وجهة كان يريد حمل سامعيه ... على تصديق فعله أم تصديق قوله ؟ ... إنه مذ وضع الماء على درج المنبر قد أقر على سلفه بالخزى الذى استحق عليه العزل وأقر للناس — تبعاً لهذا — بأنهم أحسنوا إذ ثاروا عليه حتى خلعه . فما معنى أنه يرميهم فى حديثه بالشغب والتزام الفتنة إلا أن يكون قد رأى فى استنكارهم عمل سلفه نوعاً من الثورة يحاسبون عليه بالقمع أو بالتهديد .

ومع ذلك فإن الأثر السئ الذى تركته هذه الكلمات المضطربة فى تقوس سامعيه كان أولى به أن يزول لو نزع سميد عن السياسة التقليدية التى أثارت الشعوب التابعة على الشعب المتبوع . ولو أنه كان حاكماً فيه كياسة وحكمة لأشعر منذ اللحظة الأولى أهل البلاد أنه جاء يستوحى خيرهم ويعمل جاهداً له ولكنه كان هو الآخر صورة من العرب فى إجمالهم ومن قريش على التخصيص . يرى بمثل عينهم ويسير على نهجهم المعروف من التعصب للجنس فما كاد يستقر به المقام فى الكوفة حتى تقم على أهلها أن شعروا بكيانهم وحاولوا أن يعيشوا والأمة الحاكمة حياة كريمة تسودها المساواة . وأبت عليه نزعته إلا أن يرى الخطأ كل الخطأ فى نظرة الكوفيين إلى الأوضاع الاجتماعية القائمة إذ ذاك . وأن يفكر عليهم حقهم فى العدالة التى نشدوها وقاموا يسمعون إليها ، فكتب إلى الخليفة يقول :

« إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم . وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة . والغالب على تلك البلاد روادف ردف وأعراب لحقت حتى ما ينظر إلى ذى شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتها .

فأثبت بهذا أنه يرى وجوب التفرقة في المعاملة بين التابع والتبوع ، وهي نظرة عجيبة تضع الدخيل موضع الأصيل وصاحب البيت مكان النازح الغريب . وكان الرأي الذي أشير به على عثمان كمعالج للحالة التي رسمها سعيد هو في ظاهره وباطنه تأييداً للعصبية العربية وقمعاً للشعور القومي الذي أخذ يفور في قلوب أهل البلاد ذلك أن الكوفة — كسواها من أقاليم الدولة الإسلامية — لم تكن في نظر الخليفة وولاته كمكة أو المدينة أو أي من المدن التي ضمتها رقعة الحجاز . ولم يكن أهلها كالمرء ذوى الجنس النقي الممتاز ، وإنما هم روادف وأنباع ولتبقى إذن الحال كالحال بدون تبديل أو تغيير . ولتظل المسافات الاجتماعية قائمة على هيئتها بين السيد وبين المسود . ولتكن الفوارق العنصرية هي أساس السياسية العليا للدولة كما كانت وكما يجب أن تكون .

بهذا أشير على الخليفة وبه أمر سعيد . والتفت الناس بالكوفة فإذا التعصب العنصري الذي أنكروه قد أضحى اليوم على يد الحاكم الجديد أشد طغياناً وأعتى منه في أيام سلفه وإذا النظرة إليهم تحمل التحدى سافراً ولا تحتاج إلى اصطناع الدائرة لإخفاء الازدواء ومواراة الاستعلاء وإذا عاملهم لا يستطيع أن يقرهم على الرغبة في معاملتهم كشعبه الممتاز سواء بسواء ، بعد أن استقر الرأي في حاضرة الدولة على ألا يعاملهم فيما ليسوا به بأهل ، لأنه — على حد قول الخليفة وقول مشيريه — إذا نهض في الأمور من ليس لها بأهل لم يحتملها وأشاع فيها الفساد .

وكان لا بد وقد أعلنت الحرب هكذا على الشعور القومي بالكوفة أن يمكن لسعيد في سلطانه ويزود بالقوة التي تشد أزره ليستطيع تنفيذ هذه السياسة ولم تكن تلك القوة إلا أرجالا من قريش . هبطت كالجراد على البلدة . وهياً لها عثمان كل ما يكفل لها بالكوفة عيشاً رغداً ومنزلة كريمة لتكون بطانة للوالى مرهوبة يستخدمها في مرافق الإقليم كما يشاء ويستشيرها في تسير أموره التي

يضمن على أهل البلاد نفسها أن يكون لهم فيها يد عاملة أو رأى مسموع .

١٣

البصرة خامدة كالرمادة . . . تفضت يدها من الأشعري وقنعت بالفتى الجديد الذى ولاه عليها عثمان . إن أهلها قد أصابوا إذن وطرحهم . وانزاح عن صدورهم أبو موسى ، ذلك الشيخ الذى لم ينسوا له أنه أبى — حين أمره عمر عليهم أول مرة — إلا أن يدخل بلدتهم وفى ركابه نسعة وعشرون سيداً قرشياً لتستعين بهم حكومته دون أهل البلاد أنفسهم . ومضت بمضيه الأعوام الطويلة التى قضاه فى الإمرة مترسماً فيها خطوط السياسة العنصرية التى رسمتها المدينة لزملائه الآخرين فى بقية الأقاليم . قد كان حقاً رجلاً رضى الخلق فيه طيبة تميل نحوها النفوس ، ولكن هذا وحده وإن اجتمع له رضا حاضرة الدولة عنه ، لم يكن معفيه من تدمير أهل إقليمه الذين تفتحت أعينهم لحقهم فى الحياة السياسية التى حبسها على بنى جلدته . وكانت طبيئته التى ولدها فيه ورعه تحمل الناس على أن يظنوا فيه زهادة فى المظهر الذى يمكن أن يوفره له منصبه الضخم . غير أن هذا أيضاً ما لبث أن انفرج عن ثغرة استطاع السخط أن ينفذ منها . فقد راح الرجل على الأيام يتبدى فى ثوب لا يلائم النسك . واجتمعت له أموال من ماشية ومتاع أثمرت عليه رعاياه . . . هو فى الحق لم يبلغ من الترف مبلغ سواء من الولاة . ولكن النفس المتحفزة للانقلاب تتوسل دائماً بأوهى الأسباب . وإذا كان أهل البصرة لم ييلفوا بمدد حد القوة الذى يجاهرون معه بانتقاضهم على سياسة العنصرية التى جعلتهم فى بلادهم ذيلاً لقريش ، فلا أقل إذن من التماس سبب آخر يتخلصون به من الرجل الذى صيرهم ذيلاً . ولا بأس عليهم فى شرعة التوصل للأغايات بأى الوساطات أن يتحينوا الفرصة التى تنيلهم غرضهم المنشود .

وكذلك اعتسفوا السبب الذي يكسب تدميرهم لونه الحق يوم دعاهم أبو موسى للحرب الأكراد . فلقد قام في الناس يحضهم على الجهاد ويهيب بهم أن يسيروا إلى الميدان رجالاً حتى يكون لهم فضل الرحلة . لعله في هذا كان يريد أن يستغفرهم على دوابهم دون دواب الحكومة . لعله كان يعلم أن دواب الجيش من القلة بحيث لا تكفي للجل كل نافر إلى الحرب ولكنهم أمام دعوته كانوا قهراً سمع وأطاع فسار كأمر الأمير . وآخر حانقاً رأى أن يترث فتربص . فلما أن خرج أبو موسى من قصره . ووجدوه قد أخرج ثقله (متاعه) على أربعين بغلاً ، لاحت لهم الفرصة سانحة ليضربوا ضربتهم بعد أن أصبح في يدهم السبب الذي يستطيعون اعلسافه .

هو هكذا بدا لهم في صورة الداعي الذي لا يؤمن بالدعوة فلا يحمل من نفسه لغيره قدوة وبدأ أيضاً في صورة الترف الشديد الإسراف في التزام المظهر حتى ليحمل متاع حربه على أربعين راحلة وقديماً عليهم هم الشدة على عماله الترفين حتى كان يعزلهم أو يقاسمهم ما أصابوه من أموال ومتاع . وهم الآن إذن يصده رجل حق عليه العزل في الشرعة التي سنّها أمير المؤمنين الراحل . في عين الحق هذه حجة كانت لا تساوى أن تنال عند الخليفة أكثر من اختلاج جارحة . ولكن عثمان أوهن من أن يثبت أمام حجة مهما وهنت ما دامت البصرة تستطيع أن تحسن عرضها تحت عييه .

أرسلت إليه من قالوا له :

« . . . ما كل ما نعلم نحب أن نقوله فأبدلنا به » .

قال الخليفة اللين الذي ينفر طبعه من البحث والاستقصاء :

« فمن يحبون ؟ »

قال غيلان بن خرشة رأس الوفد :

« يا أمير المؤمنين . . . في كل أحد عوض من هذا العبد الذي أكل أرضنا وأحيا أمر الجاهلية فينا . فلا تنفك من أشعري كان معظم ملكه

على الأشعريين ويستصغر ملك البصرة . . . إذا أمرت علينا صغيراً كان فيه عوض منه . أو مهتداً كان فيه عوض منه . ومن بين ذلك من جميع الناس خبر منه . « فمن يا ترى ذلك المهتد الذي عناه غيلان ؟ . . إنا لنعلم من الكلمة أنها تعنى الولوع بتأحية من نواحي الفساد دون مبالاة ما يقال . ولعلها في حديث غيلان عنت الغرام بالشراب . فهل أراد رسول البصرة الحضيف الأريب أن يقترح على عثمان اسم أخيه الوليد ؟ إن غيلان إذن لدهاية . وسمه أن يلعب على الوتر الحساس في نفس الخليفة باستغلال كافه بأهله . وإن دهاءه لأداة فمالة عرف كيف يشق بها الطريق إلى هدف قومه . بعزل الوالي الذي أبغضوه ، وبالفوز بآخر يملكون زمامه في ان ، لأنهم يعلمون أن سقطته القديمة ستكون سلاحاً في أيديهم يسألونه على رقبتهم متى يشاءون . ومع ذلك فإن في حديث رئيس وفد البصرة الحكيم بقية تكشف عن شدة تحوطه وفرط حرصه على الفوز ببقيته إذا عرفنا أيضاً من ذلك الصغير الذي جمع الاقتراح بينه وبين المهتد السكير .

قال الرجل ثانية يفرى الخليفة :

« . . . حتى متى يأكل الشيخ الأشعري هذه البلاد ؟ . . يا معشر قريش . أما منكم صغير فتستشبهوه . . . أما منكم خسيس فترفعوه . . . أما منكم فقير فتجبروه ؟ »

فوضح بهذه الكلمات مرماه . وبأن من خلالها أنه يريد أميراً من فتيان قريش . وإذا ذكرت قريش أمام عثمان ففي أهله بقية تليق للسلطان . وكذلك ولي ابن خاله عهد الله بن عامر وهو إذ ذاك فتي في الخامسة والعشرين .

وتخلصت البصرة من أميرها الشيخ وفازت بصغير ، لعلها طمعت أن تجعله حداة سنه ألين في يدها فتستطيع أن تجعله كما تشاء . وبقيت فترة من الزمن خامدة كالرماد تنتظر أن تسعفها الأيام بالإصلاح المنشود على يد واليها

الجديد . . . لقد أثبت خلال الشطر الأول من حكمه أنه جندي مجيد .
ولكن الجندية ليست دائماً عنوان الحزم ، ولو أنه استطاع أن يخضع للدولة
بقية من فارس كانت لا تفي بتجر عليها المتاعب ، وتمكن بهذا أن يؤمن حدوده ،
إلا أن إقليمه في داخله كان بحاجة إلى أمن لم يوفره له . وامتدت يد عابثه إلى
الرماد تطلبه وتنش عن الجمر المتقد فيه . وإن هو إلا قليل زمن لم يكدر يستقر
فيه ابن عامر على أريكته حتى وضعت في أرضه بذور الثورة .

أجل . ففي هذه الناحية من الدولة الإسلامية ظهرت أقوى الحركات الهدامة
في تاريخ الإسلام . جاءت من الجنوب كالسموم . على يد أسود من إحدى
الدويلات التي أتقت حتى في أيام النبي أن تخضع لحكم البلاد المقدسة وحاولت
أن تخلع سيادتها لولا أن قهرها ابن أبي طالب على الطاعة . . . من اليمن
جاءت . وعلى لسان ابن السوداء عبد الله بن سبأ سالت كاسم . وانطلق بها
الرجل إلى الحجاز بهم أن يبشها ، لولا أن وجهه ذكاؤه إلى بلد أكثر تقبلاً
للدعوة من مهد الدولة ، وأبعد عن أيدي الخليفة وأعوانه بالمدينة أن تمتد إليه .
لقد كان ابن سبأ خبيراً بنفوس الناس ، عالماً بنواحي الضعف التي يستطيع أن
ينفذ منها إليهم ، ملماً بأحوال البلاد التي انتظمها الإسلام تمام الإلمام ، فعرف
أي تربة من بينها يمكن أن تنمو فيها بذوره .

من صنعاء حيث غرسته أمة اليهود السوداء خرج إلى الحجاز ، وفي المدينة
حاضرة الدولة الكبيرة — التي ينطوى قلبه لها على مثل ما يتلأ قلوب أهل ملته
من المقت والضعفينة — خلع ثياب دينه القديم وأظهر الدخول في الإسلام .
ولكن الدعوة التي جيش لها ذكاه لم تكن لتثمر ثمرتها المرجوة في الأرض
المقدسة . . . إنه لا يخشى أن تبط شربه يد الحكومة بقدر ما يخشى أن يخله
الرجل الوحيد الذي جعله علم دعوته . هو يقرأ جيداً نفوس الرجال ويرى
ضماؤهم مكشوفة أمام عينيهِ بنير نقاب . وهو يعلم جيداً أن دعوته فرية إن جازت

على بعض النفوس في الحجاز قلن تكون لها مطلقاً حياة لو أن ابن أبي طالب فتح شفتيه . وما كان له أن يأمن علياً على السكوت فضلاً عن موافقته ورضاه؛ لأن خلقه الكريم حرى بأن يثيره على الدعوة ويدفعه لحربها باللسان وبكل سلاح ، وإن كانت في ظاهرها قد جاءت لتضع في يديه السلطان .

ولكن البصرة بعيدة عن كف على وعن لسانه . بعيدة أيضاً عن بطش الدولة الذي فتك بدعوات الإصلاح وحارب الدعاة فليد خلها إذن ابن سبأ . ويرفع بها عقيرته كما يشاء . وليطمئن على بذرتة الخبيثة إذ يضعها في تربتها الكفيلة بإنبات دعوات التذمر والانتقاض ، فإن الأذهان هناك مهياة . وإن بالناس فيها — كما في بقية الأقاليم التابعة للدولة الإسلامية — لشغفا إلى اعتناق أية دعوة تصل بهم إلى الخلاص من رجال هذه الدولة التي لم تحسن سياستهم وعاملتهم بغير المساواة التي فرضها الإسلام بين الشعوب تابعة أو متبوعة ، وبين الأفراد سادة أو مسودين .

« إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد »

هذه كلمة السر التي جاز بها اليهودي الأسود تقوس الكثرة الغالبة من المسلمين وهم إذ ذاك قليلو إلام يمكنون آيات القرآن . ولقد اقتفاها آية تتفق في ظاهرها وتأويله ثم مضى بين الناس يعقب عليها ويقول :

« العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع . ويكذب بأن محمداً يرجع . »

فلما وضع له أن كثيراً من القوم تلقوا قوله بقبول حسن ، وأعجبهم أن يبشر بعودة نبينهم ثانية إلى الحياة الدنيا ، راح يلون دعوته الدينية بالأصباغ السياسية التي أيقن أنها كفيلة بأن تفعل فعلها ، وتديل وشيكا دولة الإسلام .

إنه خير بالفس الإنسانية شديد الشعور بالأحاسيس التي تناوبت قلوب أبناء زمانه ، على علم كامل بالمواطن التي احتضنتها شعوب الدولة في أركانها المختلفة . وهو بمد هذا رجل قد أتيح له ذكاء لماح وقدرة خارقة على التقدير بمد التقدير .

وفيا أحسب ، كان الخاطر الأول الذي راود ذهنه هو العبث بالعقيدة الإسلامية وبث اللغويين مبادئها الراسخة . وكان في هذا مدفوعاً بنفسه المرورة التي أكلها الحقد على الإسلام . وكان الخاطر الثاني ذيلاً للأول ؛ فقد أنبأ إدراكه أنه لا دين بلا دولة كما لم تكن دولة قبل الدين . فلما رسخ هذا في عقله راح يصوغ الماويل التي تهدم البنيان الأشم الذي قام على أنقاض بلاده وغيرها من البلاد الخاضعة للحكم الجديد .

أما وقد بذر بذرتة الأولى فتلقفت ثمارها أبدى سواد الناس من الجهال وقليل المعرفة بأمور عمتدتهم ، فقد حقله أن يمضي قدماً نحو هدفه ، وأن يسمى سميح ليقع على الأداة الكفيلة بإنجاز الهدم على الوجه المطلوب .

تنسم الجو . وامتد به أنفه يشم الريح . لو أنه بدا للناس في ثوب الهدام لا نكشف من أمره ما أراد ستره . ولو ضحت نواياه أمام العيون مهتوكة . ولكنه أحكم من أن يدع الشكوك تدنو منه ، وأحرص على حياة غرضه من حرصه على حياته . وما دام ذكاؤه يسعفه فلا عليه أن ارتدى ثوب الباني وخطر في الناس يحضهم على معونته ليقم الصرح المنشود على الأنقاض القديمة .

إنه عول إذن على أن يهدم . وعزم أمره على تقويض بنيان الدولة الإسلامية يدك الهيئة الحاكمة التي قامت على رأسها . ولكنه في هذا كان

مؤملاً أن يقنع الناس أنه سيقم لهم نظاماً خيراً من ذلك الذي أبغضوه .
ويستبدل بالرأى المكروه سواء أقرب إلى قلوبهم وأحرى أن يلتفتوا حوله
وينهضوا إلى نصرته دون تردد ولا فتور . إن الأيام التي فاتت على الإسلام منذ
ظهوره قد أبت في وقاضها أشخاصاً مازالت لهم قداسة في نفوس أكثر
الناس . تتطلع إليهم الأبصار خاشعة . وتهفو القلوب ولهي بحبهم إذ يبذلون
كالمثل التي تتجسم فيها روح الدين . كل منهم قائم وحده كالعلم بين العامة
بتاريخه وسابقته وشخصيته . . . فلينظر ذلك اليهودي الأسود من بين أولئك
يصح أن يكون علم الأعلام .

منذا ياترى كان المنار الأرفع ؟ . . أي الحفنة القليلة الباقية من صلب رسول
الله أولى بأن تلتف عليه العواطف الكثيرة المحبوك بالجسد المشوق ؟ من
الأثير عند الأرواح ، الجدير بالتسويد إذا استبدلت سيادة بسيادة ، والحقيق
بملء المكانة التي راحت الدعوة السبئية تجمد جهدها لإخلاصها من شاكلها
المملول ؟

هو إذن فرد واحد تكاد أن تنقص الرقاب الشريرة الطامعة دون بلوغ
شأوه . له بكل قلب حظوة . وفي كل عين تقدير . ولدى كل نفس ولاء ،
إن غشيته أحياناً أحداث السياسة فقد مكنت له ووثقته القدمة . . . هو ابن
الرسول . وابن عمه . وأخوه في الدنيا والدين . في الحاضرة وفي الآخرة . وخننه
على الزهراء . وأبو سلالته الطاهرة وعدته الخلفاء . . . هو علي بن أبي طالب .
ومن سواء كان ياترى المنار الذي ينشد السراة ضوءه ، والعلم الأرفع المولى بأن
تنضوى الجموع تحت ظله !

وكذلك راح ابن سبأ يحسب ويقدر . ثم راح يرتب وينظم . فلما
اطمأن إلى النتائج التي استخلصها أخذ ينتقل بخطوات وثيدة ثابتة من
دعوته الدينية إلى الدعوة السياسية الكفيلة بتقويض نظام الحكم الذي ملته
وعابته الجماهير . وتقدم صفوف أنصاره المقتونين بقصة الرجعة يسير بهم
وم كمصوني الأعين إلى عوالم من الآمال وسبعة الآفاق فتحتها أمامهم

ألفاظه المعسولة التي استغلت العواطف المنطوية عليها قلوبهم من أجيال .
وهو كلما نطق حرفاً أو صار شوطاً انصرفت الجموع خلفه تتدفق ، مستبشرة
راضية النفس إذ آنست قرب حلول يومها الموعود !

كان جماع المبدأ الذي أحكم لهم رسمه وتلوينه :

« . . . إنه كان ألف نبي ولكل نبي وصي . وكان علي وصي محمد ، ومحمد
خاتم الأنبياء ، وعلي خاتم الأوصياء . . . » فمن أظلم ممن لم يحجز وصية رسول الله
ووثب على وصي رسول الله ، وتناول أمر الأمة » .

وهذه كلمات لمست بإحدى ناحيتيها أو بالأخرى قلوب العامة ، فانتشرت
فيهم كما تنتشر النار في هشم جاف : ما من رجل سمعها إلا لقيت صدى في
نفسه ، من استهوتهم الرجعة تلقفوها جد مشوقين لأنها الفصل المتمم للقصة ،
ومن خشي على عقيدته الساذجة السليمة أن يصيبها رشاش من خيال العقيدة
السبائية الجديدة يفسدها ، استراح منها إلى الشق الذي تضمن الدعوة إلى تحقيق
هدفه وهدف إخوانه المتذمرين ببقية الأمصار . . . ومن بين أولئك وهؤلاء
أناس استطاعوا أن يرتدوا بأخيلتهم إلى الماضي ، وأن يركبوا جناح ذا كراتهم
إلى مشهد خالد عسير نسيانه على الذاكرات . وأن تقرب أبصارهم وآذانهم
خفافاً بين ألاف الأعوام تطويها وهي تسير فيها القهقري حتى تلم من كشب
على الزمان والمكان . . . ها هو الستر قد انحجب وتبدى الموقف سافراً أمام
الأعين المتطلعة ، ناطقاً بأحداثه ، يهمس للأذان التهيئة ثانية للسمع بعد أن أوفت
الرحلة الزمنية بكل مسترجع مستعيد على المشهد القديم الجديد . وها هو اليوم
الذاهب في الغابر يعود حياً كهيئته الأولى ، شديد الهجير تلفح شمس الوجوه
وترميه من لونها بمثل السنة الفار . . . وها هي الجموع العائدة من حجة الوداع
تحت خطاها على طريق المدينة يود آخرها أن يسبق أولها فراراً من وهج الحر .
ولكن نداء رافماً يجذبهم في أماكنهم ويدعوهم إلى الوقوف دون السير . وينطلق
القوم صوب الداعي ، وتلتف به آلافهم المؤلفة عند غدیر خم . ويلقون

السمع والبصر والفؤاد جميعاً إلى فيهم وقد وقف يستظل من الشمس المستعرة
بشوب علقوه على شجرة سمرة . . . ذلك يوم لم يفب عن الأذهان أثره
ولا خطره ، جذيرة صوره بالتدبر قبل التذكر ، وبالأدراك قبل التصور .

وعلى الملائح الحاشد ، وبين الجموع الزاخرة التي وقفت تنصت ، سرى صوت
رسول الله عالياً ، ثابت الفبرات يقول :

« . . . أيها الناس ، من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم ؟ »

فارتفعت من كل ناحية أصواتهم نجيب :

« الله ورسوله أعلم » .

قال :

« . . . إن الله مولاي ، وأنا مولى المؤمنين ، وأنا أولى بهم من أنفسهم » .

ثم أخذ بيد علي وهو إلى جانبه فرفمها حتى رؤى بياض آباطهما وعرقه
القوم أجمعون . وأردف يتمم الحديث :

« . . . فمن كنت مولاه فعلي مولاه . . . اللهم وال من والاه ، وعاد من

عاداه » .

كذلك استعاد الناس في أذهانهم هذه الصورة الباقية من صور الماضي

ووعتها خواطرهم إذ بشر فيهم ابن السوداء بتعاليمه الجديدة . وكان الرجل

ماهرآ في عرض فكرته وماهرا في الربط بينها وبين أثر مقدس لا يستطيع

امرؤ نسيانه أو نكرانه ، فآمن بالفكرة من آمن بالرجعه ومن أنكرها

على سواء . وراح الكثيرون يستنبطون من الحديث النبوى تلك الدلالة السهاسبة

التي أرادهم على استنباطها ابن السوداء .

ولكن إدراك الباحث جدير بأن يبرز إدراك الجماهير ويصل دونها إلى

قمة الحقيقة . . . ذلك أنها في الأغلب أسيرة العاطفة ، لا تصدر في حكمها

إلا عما تنضوى عليه رغبات الجوانح . ولا تعمل إلا بوحى النفس المنساقة

مع الهوى والميول . ولقد آنتست العامة إذ ذاك في دعوة اليهودى الصابى

الأداة التي بها ينهدم عهد عثمان وتنتهى المتاعب التي عانتها منه ورأت من

ورائها شمس الخلاص وشيكة البروغ فلم تكن باستقصاء ما هية الدعوة قدر
أندفاعها إلى تقبلها ، مفتوحة الأبدى ، مرهفة السمع ، راضية النفس إذ جاءتها
تهبها التحرر والانطلاق .

أما الباحث فله معها شأن سوى رضا الجماهير ، يميل به إلى نكران الدلالة
التي استخلصها العامة وينحرف به عن التصديق . لا ريب هذا حديث
لا يعتوره باطل ، ند عن شفتي رسول الله بإجماع الرواة ولكن المرمى
السياسي من ورائه توشك أن تخفيه ظلال كثيفة . وإذا كان ابن سبأ قد نصب
نفسه داعية إلى حق على وقام يؤيد قوله بإثارة النص النبوي في أذهان سامعيه ،
فإننا لا نحسبه كان أكثرغيرة على الحق من صاحب الحق عليه . ولا أسرع إلى
التماس الأسانيد المؤيدة لعل من على نفسه . ولا أعرف بالوصية السياسية في
قول رسول الله من الرجل للذي أوصى بها له ولنا في كلام ابن أبي طالب
بعد غدير خم ما ينبىء عن استعجازه هذا الداعية اليهودي لما لا يجوز . وعن
ركونه — في سبيل أغراضه — إلى تدليل هو عين التضليل ، وكفانا أن نسوق
الدليل من الحديث الذي دار — قبيل وفاة النبي — بين العباس وبين على .
قال له الشيخ إذ ذاك يستحبه :

« . . . انطلق بنا إلى رسول الله ، فإن كان هذا الأمر فينا عرفناه .
وإن كان في غيرنا أمرناه فأوصى بنا الناس . »

فجاءه الجواب :

« والله لا أفعل . . . فوالله لو منعناه لا يؤتينا أحد بعده »

فهل من رجل كان يعرف لنفسه حقاً ثابتاً في الخلافة بعد رسول الله
يستحقه بالتعيين وعلى سبيل الإلزام لكافة المسلمين ثم يقول كما قال ابن أبي
طالب ذلك الجواب الذي يحمل معنى احتمال استخلافه كما يحمل احتمال تركه
على السواء ؟ . . . كلا ! بل هرجواب حاسم يسد الطريق على القول ويخرس
لسان المتأول ولا يدع من بعد مجالاً لفرية أفك أو لتعصب نصير .

لسنا ننتقص بهذا من حق على في الولاية السياسية ، ولكننا نربأ أن نلتمس له أدلة معتسفة إن فضله بين صحاب رسول الله كان ثابتاً لا مرية فيه ، وإن علمه كان مأثوراً استقفاً به كل أولئك الأعلام ، فكان لأموال دينهم ودنياهم الظل الأورف . وإن حب رسول الله إياه رفعه على رؤوس كافة المسلمين وبوأه مكانة عزت على سواء بهذا وبغيره من مزاياه الخلقية ونواحي شخصيته الرحبية كان جديراً أن يصبح على رأس الدولة منذ اليوم الذي خلت فيه الدنيا من صورة ابن عمه الكريم . ولكننا — مع ذلك — نأبى أن نحمل النص النبوي أكثر من مبناه أو يكون ابن سبأ قد أدرك المعنى الخفي فيه وأغفله على — وحاشاه .

ثم انظر من بعد كيف كان موقفه من أصحاب الشورى ، وعلى أى الدلالات دل خطابه فيهم حين قال :

« . . . لو عهد إلينا رسول الله عهداً لأنفذنا هذه ، ولو قال لنا قولا لجادلنا عليه حتى نموت . »

فلم يعهد إذن رسول الله عهداً سياسياً ، وإنما عندها ولاية قد تعنى التعميم دون التخصيص . ووصية آل بها قومه إن أرادوا أن يتجهوا إلى الخير أينما كان . وهي بوضعها لا تلزم الناس بأمر بعينه ولا تحمل في طيتها معنى الإكراه ، بل هي إرشاد وتوجيه ولهم بعدها حرية الاختيار .

١٥

عبد الله بن عامر جعدى مجيد إلا أنه حاكم غير رشيد . . . لم يكن بعد قد تم نضجه . ولم تكسبه سنوات عمره القليلات الحنكة التي يجدر أن يتصف بها كل موكل بقيادة شعب من الشعوب . حين بدأ حياته العامة بالبصرة همت آمال أهلها أن تنمق عليه ، أو ليس نتاج اختصارهم وحده ؟ أو هو — على الأقل — الرجل الذي أوصوا باختياره إلى الخليفة من طرف واضح أو طرف خفي . . . أو لبست حداثة سنه قد أطمعتهم في أن يكون رخوا

القوام بين أصابعهم يصوغونه على الشاكلة التي يريدون ؟ . . . ولكن الآمال راحت تذوى مع الأيام ، لأن الفتى القرصى كان أيضاً قرشى النزعة كسلفه . ما كاد يستقر به مقعد الإمارة حتى ولى وجهه شطر قومه بتخير منهم ويحشد هم في مفاصل دويلته كأنه لم يكسب هبرة من مصير الأشعرى الشيخ .

على أن البصرة كانت خامدة كالرماد ، قد اختفى فيها الجمر تحت السطح البارد لعن الفتى أمن أن تمتد إليه يد القوم بما امتدت به إلى سابقه مادام ينهج في سياسة الولاية نهجاً سليماً لا مغمز فيه لأى حاقد . اعله استراح لصلته الوثقى بأمير المؤمنين وعدّها سياجاً يحول بينه وبين تدمير الجماهير . . . على أى حال قد كان صورة ناطقة لغيره من ولاية ذلك العصر الذين أثبت طبائعهم أن تتغلغل بهم في نفسية رعاياهم ، ففاتهم بهذا أن يكشفوا عن الداء الكامن ويبادروه بالعلاج . وكان إلى هذا مفلول العزم غير حازم . جرده طبعه من ملكة الحسم وقوة لبت في المشكلات التي نبتت تحت قدمية كالعواسج . . . ذلك أنه لم يكن يحسن إدراك الأمور أو يستطيع أن ينفذ سريعاً من خلال مقدماتها إلى النتائج التي لن تلبث حتى تترتب عليها . بل لقيها دائماً بلا مبالاة أو بعلاج كان في حقيقته كلا مبالاة . . .

بهذا تناول الدعوة السبائية ، فجلس في بادىء الأمر يرقبها بعين وستان . ومضى بها اليهودى الأسود تحت بصره وأذنه يثبها في أرجاء الولاية ويفرس بذرتها في القلوب والصدور . ولو قد أتيح لابن عامر من التبصر ما هو قمين بأن يتوفر في عامل على إقليم لكان وسعه أن يفهم الخطر قبل أن يكشف عن أخطابه ، ولقتل الفتنة في مهدها قبل أن تستفحل ويستعصى أمرها على كل من أراد أن يخضع شوكتها أو يجتثها من أصلها الحيث .

أجل كان بوسعه أن يقضى على تلك الدعوة الهدامة منذ اليوم الذي تبدت فيه للأذهان دعوة دينية خالصة لا تتصل بكيان الدولة من بعيد أو من قريب . وكان له — لو فعل — سند من الدين نفسه الذى لا يجوز الرجعة لأنه لم ينص عليها في دستور الساموى الذى وعته قلوب الكثيرين ، وفيهم بقية من صعب

رسول الله ، كان أخرى بهم أن يعلموا من صاحب الرسالة المقدسة إن كان
سيمود ثانية في هذه الدنيا إلى الحياة . . . ولكن الفتى الحاكم جلس يهوم
كالوسنان كأنما الأمر لا يعنيه ، أو كأنما أيقن أن دعوة ابن سبأ ضلال محض
إن تلبث حتى تضل طريقها إلى نفوس الناس . . .

وهكذا تنقلت البذرة الخبيثة في أطوارها المختلفة حتى نضجت ثمرتها ،
وراح صاحبها يسير بها في طريقه المرسوم وياف حوله الجموع التي لم تموزها
الرغبة في الثورة وإن أعوزها حسن الإدراك . فلما رأى سبيله ممهدا لا تقطعه
عليه قوة حازمة ، فرق أنصاراً له في الأمصار يبشرون بوعايمه ثم راح من بعد
يرسم لهم خطة العمل بعد الكلام . . .

قال لأولئك الأنصار :

« . . . إن عثمان قد أخذه بغير حق . . . »

فأمنت على قوله الجماهير التي طمعت في الخلاص من حكم عثمان ، ثم أرففت
لتعاليمه الآذان والأفهام . . .

ثم قال :

« ... هذا وصي رسول الله ، فانهضوا في الأمر فحركوه ، وابدأوا بالظمن
على أمرائكم . . . وأظهروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس » .
ومضى صحبه ياتعمرون بأمره في كل مكان ، وتقبلت العامة بالأقاليم الإسلامية
دعوته بخير قبول لأن نفوسهم المرورة من الحكم العثماني كانت تربة صالحة
لكل دعوة تحمل معنى الثورة ومعنى الانتفاض . ولم يكن يعنيه إذا ذاك أن
يجيئهم الخلاص على يد عبد زنديق بقدر ما كان يعنيه أن يجيئهم ذلك
الخلاص . . . بل عساهم نسوا الشطر الديني من السبابة أمام حماسهم للشطر
السياسي الذي مس من قلوبهم وتر السخط والنفور .

وانتبه أخيراً ابن عامر من غفلته كمن لدغته ناز . . . ولكن زمام الموقف
كان قد أفلت من يده ، فلم يكن بالهين الآن قمع الداعية الداهية . لأنه لو حاول
هذا لقاومته الجماهير ، ولو جال بخاطره أن يرد شكاساتها لأحياء الأمر ولسكان

متمجلاً للفتنة ، نائخاً في الرماد ، حتى يورثه سعيراً مشبوب الأوار .
 لكن خاطره أسعفه بالوسيلة التي اتسم بها العصر كله كأداة معروفة
 لكبح الدعوات وقع الدعاة . . . فليخرج الرجل إذن من البصرة وليرسله
 بعيداً عنها إلى إقليم سواها ليأمن خطره على أهل إقليمه ولیم هو بعد
 ذلك قرير العين مرتاح البال .

هذا والله أسلوب فذ في معالجة الأدواء ولكنه الأسلوب المعمول
 به طوال حكم عثمان كذلك فعلوا بأبي ذر حين أعضلت بهم دعوته .
 وكذلك يفعلون بابن سبأ وبمثله سيتناولون كل داعية قام ينادى بفكرة أو يحض
 الناس على اعتناق مبدأ أو تأييد ثورة .

أهو التفكك بين أقاليم الدولة بعضها وبعض ، حتى إن الإقليم منها كانت
 لا تمنيه السلامة العامة للدولة بقدر ما تمنيه سلامته الخاصة ؟ . . أم هو ياترى
 قلة شعور الحكم بواجبهم تجاه الأمة جمعاً وحسبانهم أن مسئوليتهم تنهى
 عند حدود ولاياتهم وحدها ؟ . . من عجب أن يتناول ولاية ذلك العصر كل
 دعوة خطيرة تدهم أقاليمهم بمثل هذا العلاج . وأعجب منه ان يقرهم عليه
 عثمان لكأنهم جميعاً كانوا ضالعين مع أولئك الدعاة فكذبوا لهم من نشر
 مبادئهم في كل مدينة لم تعرفها ولم تأخذ منها بنصيب قد كانوا كمن نصب
 نفسه لكفاح وباء فلم يحصره في أضيق نطاق بل خي بينه وبين كل الآفاق
 يستشرى فيها وينشر عدواه .

بمثل هذا السلاح حاربوا ابن سبأ ، ولو هلموا لأدركوا أنه ليس فحسب
 سلاحاً مفلولاً لا يصيب مقتلاً من فريسته بقدر ما هو سلاح مردود إلى نحور
 الضائقين به . وهو حينئذ قاطع شديد الصلابة عديد الذوايات .

وخرج الرجل من البصرة منفياً لكأنى به قد استغرقت وجهه كل
 بسملة لا تخفى سخره وفرحته حين تأهب لدخول الكوفة لكأنى به —
 في خاطره — قد راح يردد آيات الشكر لمناوييه الذين أخرجوه

ألم يعملوا من لدنهم على انتشار الوباء ؟ . . . ألم يتيحوا له رحلة هي أجدى على دعوته من قعوده بها حيث كان ؟ . . . ألم يهيئوا له أرضاً أخرى يفرس فيها مبدأه ويتعهد بيديه بذوره ليثمر ؟ . . . إن أنصاره بالأرض الجديدة لأحرى بهم أن يضاعفوا الجهود حين يرون بينهم قائدهم حتى يصيبوا المرجو من غايته وغايتهم . . . وأنه إذن لأدنى إلى انجاز ما يريد .

وكما أخرج من البصرة طرده الكوفة . طرده منها سعيد واليها المزموه يحنسه وقومه . إن هذه البلدة كانت أخصب من أختها ، تربتها أدنى إلى استنبات التمرد ، وأهلها أسرع إلى تقبل الدعوة الهدامة والسير بها نحو غاياتها المشوبة ، ولكن ابن سبأ رضى بنصيبه من سياسة التشريد ثانية ، ومضى بوفاضه المليء بالخباثت إلى الشام — الأرض التي احتواها معاوية في قبضته .

في ذلك العصر كانت لمدينة — حاضرة الدولة — تكاد أن تغض طرفها إكبارا لدمشق . وكان ساستها يوشكون أن يترسموا الأساليب التي ابتكرها واليها . . . قد كان حقاً رجلاً خبر زمانه فوسمه أن يخضع شعبه لسلطانه . ولكنه مع هذا لم يأت من لدنه بجديد ، بل عرف نوازع الشر في النفوس البشرية فاستعبد النفوس بنوع الشر الذي تستجيب له . وكان جاراً للروم على حدوده مازالت صروح ملكها قائمة . ونظامها الذي دان له العالم عصوراً طويلة ما فتى يستمد حياته من شرعة الدنيا ونفس الإنسان . فلم يكن الحكم بها للأخلاق . لا ولا لدواميس المثل السامية التي يجدر أن تستلهمها البشرية وتسير على ضوئها لتبلغ الخير والكمال ، ولم يكن أيضاً هناك دين مرفوع الصوت يكبح جماح الناس ، بل الطبائع البشرية هي الحاكم المسيطر ، والسلامة إذ ذاك لمن سار في غمارها كما يسير عود جاف في تيار ماء .

هذا درس في الحكم كتبه الروم ، ووعيه معاوية من جيرانه ، ووعيه معه شعب قريب عهد بقانون الأخلاق الذي أرشد إليه القرآن . هو . من قبل ومن بعده مظهر جذاب يستهوى الآدمي الذي لم يتحرر من قيود

آدميته أو قيود حيوانيته على أبسط تعبير . وهو جدير بأن ينساق إليه كل من يؤثر السلامة من أهون سبيل ، فما من شك أن طريق الأخلاق هو الطريق الوعر ، وقع الرغبات أشق على نفس المرء من إطلاقها بغير حدود ، أو بقيود هيئة لا تصد العاطفة ولا تحبسها في نطاق المثل العليا أو نواميس الدين . ولم يكن معاوية — في الواقع — حاكماً إنسانياً يتوخى غاية الإنسانية في أخص معانيها وأسمائها بقدر ما كان آدمياً تخضع سياسته لعواطف الآدميين . ولم يلتزم نهجه هذا عن معرفة بطبائع النفوس بقدر ما كان يستجيب فيه لوحى نفسه هو وميول طبيعته المجهول عليها ، فليست حنكته الإدارية مكتسبة كلها . بل هي ناحية من نواحي نفسه الطليقة المنساقة مع الدنيا كذلك العود الذي يجرفه التيار . ولقد آثر السلامة فحرص على أن يثا لها من أهون سبيل وأخضع سياسته كلها لنزعات النفوس حتى يأمن أن يستقيم له الأمر . وكانت الحدود التي رسمها الإسلام للأخلاق تنق لديه — بوصفه حاكماً إسلامياً — كل تبجيل وإكبار . ولكنها لم تلق منه المترسم لها ، السائر على نهجها في كل الأحيان . إنما كان الربح المرجو والغرض المنشود غيته المثلى ، وما كانت المعايير الخلقية لديه إلا نوعاً من المعايير يزن به الأمور إن أعوزه أن يجد لها كفاء فيما تعرفه طبيعته الآدمية من معايير .

هذا هو الرجل الذي كانت تتطلع إليه المدينة ، ويتطلع إليه ساستها كلها حزبه وأعيانهم أن يقفوا له في وفاضهم على دواء . لقد بهرهم جميعاً بنجاحه وأكبره في نظرهم أن ظلت ولايقه ساكنة لا تعتمل فيها فورات ولا ثورات . وكان هو هادئ الطبع لا يكاد أن تحركه الخواطر الجامحة التي انتشرت بغير الشام فضلاً عن أن تفرعه أو تثير قلقه . ذلك أنه كان يؤمن بالنفس فأمن بالمادة أشد إيمان . ووسع من وراء إيمانه هذا أن يوطد ملكه ويضمن سلامته ، لأن قيادة النفوس لا تتطلب الجهد اللازم لقيادة الأرواح ، وبحسبه أن يستعين بالرشوة وبالكذب وبالحداغ ليستعبد كل من تستجيب نفسه لأمثال هذه الشرور .

أرسلوا إذن إليه ابن سبأ ، وفي ظنهم أن الوسائل الأموية بالشام كفيلة بقمعه وتأديبه . ولكنهم نسوا أنهم وذلك الحاكم الأريب الرشيد أمام رجل يسيره مبدأ ولا يستعبد عرض . وأصحاب المبادئ دائماً هم أصحاب عزائم تعجز دون ثقيها أو ترويضها كافة العروض . ولقد عرف معاوية القلق إذ ذاك ، وثار في نفسه عوامل شتى من الخوف والإشفاق على ولايته أن يلفها الداعية في جرده . ثم زاد به قلقه حتى أوفى على حد الجزع حين بلغه أن ابن سبأ قد ألب عليه صحابياً جليلاً لا تملك الأسماع النافرة من صاحب قصة الرجمة إلا أن تميل له . وإذا كان هناك الحاكم قد اطمأن نوعاً إلى إدراك الناس وما يحتمل من انحرافهم عن تصديق اليهودي الأسود ، فإنه أيقن أنهم أمام دعوة أبي ذر ليسوا كذلك ، فلم يكن هناك من يرى راعي الفقراء بأدنى شبهة ، أو يستطيع أن يحول بين الطبقات المحرومة وبين تصديقه . وما دام معاوية اليوم في ميدان تصطرح فيه سلامته الشخصية كأمير وسلامة الدولة كلها كوحدة ، فإنه إذن لا يعوزه التفكير لاختيار الطريق الميسور . وأحسبه قد سارع فاختار لأن كفاح المبادئ قد يصل به إلى النجاح ، وقد يصل به إلى خسارة .

أجل شق عليه أن يجمع المبدأ الهدام وإن كانت سلامة الإسلام كله في قمه . وآثر أن تبقى له إمارته قائمة تدين له فجنح إلى الحل الذي مال إليه كل أمراء الدولة إذ ذاك لا فرق فيهم بين ضعيف وقدير . وكما فعل ابن عامر من قبله ، نرى أمير الشام قد سارع إلى نفس الأداة التي توسل بها أصحابه فأخرج ابن سبأ إلى ما وراء حدوده ليؤمن هو ملكه ، وليسطيع من بعد أن يعيش قرير العين مرتاح البال .

وكذلك انتهى المطاف بالسبائية فخط شيخهم رحاله بمصر ، وأخذت دعوته بها تنمو مع الزمن ، وتهيمن على النفوس المتمردة بكافة الأقاليم الإسلامية ، ثم تنتشر انتشاراً تاماً على يد الرسل والرسائل ، وتمتد سلطانها في البلاد كما تمتد أذرع الأخطبوط !

حصار من الأحداث والاضطرابات الفكرية ضرب نطاقه على الدولة الإسلامية ولها من أقطارها كأنها في ثوب ، تبدت منه حاضرة ملك عثمان كما يبدو من بين الموج الثائر وجه غريق. الرجل أمامها حائر. مضت الآن فترة الطمانينة المفتعلة التي بثها في نفسه مشيروه أعواماً ، وغلب على قلبه الطيب قلق أكال على مصير أمته . حتى في عقر داره لم يعد يامن أن تناوشه اضطرابات آخر . بل إنها ناوشته فعلاً . وراحت تحز جنبيه . فما كانت المدينة بالمكان الهادي ، وما أصبحت الإمارة بالمقعد المستقر الذي يرتاح إليه . . . حقاً إن الدعوة السبائية لم تجد لها مرتعاً في حاضرة الدولة ، ولكن أباذر كان قد حرك في نفوس الفقراء جرثومة الحسرة التي تورث الففور ، وأخذ العبيد والموالي بها تفور بخواطرهم انفعالات الغضب من أجل حقوق لهم مرجوة ولكنها ضائعة، وانبرت عيونهم وآذانهم تتربص بكل كبيرة وصغيرة يأتي بها الحكم عسى أن تجد فيها مادة للتذمر . والسادة أيضاً ملأتهم المرارة لأسبابهم الخاصة ، وأصحاب الدين العازفون عن عروض الدنيا وسمعهم أن يشعروا بالأسف على ما آلت إليه الأمور في هذا العهد . وأن يعزوا التدهور الخلق الذي غزا النفوس إذ ذاك إلى ضعف الخليفة ووهن قبضته . . . كان مما لا يعابون عليه أن تروح نفوسهم فريسة لهذا الإحساس لأنهم يؤمنون أن حالة الشعب ليست إلا مرآة تنعكس على صقالها قدرة الحاكم ، وقد عانى الشعب أنواعاً شتى من الآلام انبعثت عنها شكواؤه ، ولكن الذي أصبح جديراً بأن يثير قلق كل مسلم غيور على دينه أن يتبدل الناس إلى حضيض الأخلاق الذي كافح الدين طويلاً حتى انتشلهم منه . . . ألم يفشو القمار بين الشبان ؟ ألم يجهد المترفون ليتكروا صنوفاً من المراهقات استهوت النفوس الضعيفة ؟ ألم يتنافسوا في الرمي عن الجلاهاقات وفي طيران الحمام في مباريات كانت تقود إلى

رج وخسارة تأبأها روح الإسلام ؟ . . . هذه ألون من العبث كانت بلا شك للشام اليد الطولى فى بثها بأرض الجزيرة . فن بلاد الروم أقبلت ومثيلاتها تخرق التخوم والحدود ، ومن مستنفر معاوية انطلق خطرهما يغزو النفوس التى سرها أن تتحرر ثانية من عقال الأخلاق لتساير سجيئتها الآدمية النزاعة إلى الهوى ورى الغرائز . . . لم يكن كفاحها الضعف البشرى فى معتنقها كفاحاً مورياً بل كان هيناً أشدهوان . فقد انقضى عهد سيادة الروح إلا قليلاً وبدأ العصر الذى أصبح فيه المستمسك بدينه كمن تقبض كفه على جمر . وكان الجيل العف قد أخذ يودع الحياة ويغلى مكانه لجيل من نوع آخر ، بهرته الدنيا الخارجية ، واستهواه زخرفها البراق وفتنة المظهر التى قربت أن تسود كل شىء . . . وكان الشباب الموشكون أن يرثوا الدولة بعد بناتها الأول خليطاً من دماء شعوب وثنية أو أخرى لم يبق لها من دينها السماوى المنسوخ إلا بقايا نافهة لا تستطيع أن تمسك الحياة الروحية وتحفظها قائمة . وكانوا أيضاً ودائع فى أيدي أمهات من السرارى جىء بهن من البلاد المغلوبة ولحن على أسس من الحق قوية كتلك التى دعا إليها الإسلام ولا تنطوى جوارحهن على احترام حق له . . . وهل الشعب بعد هذا سوى الأمهات ؟ .

على أن عثمان — فى الحق — لم يفعل دينه ، ولم يدع هذه الشراذم المفتونة تعبت فيه كما تشاء حرة طليقة ، بل أدى رسالته لربه ، وراح يقمع العصاة جاهداً ليردهم للجمادة ، فما كان بالمتهم فى غيرته وحرصه على أصول الإسلام ، ولا بالذى بنام على أمثال هذه الفتنة وإن قام على فتنة السياسة ، ولقد لقي عنتاً فى كفاحه هذا لأنه كان يحارب نفوساً جرى فى دماها التهاون والاستهتار بكل تقليد نبيل ووضع قويم ثم من بعد بكل محرم مقدس . ولكنه لقي أيضاً عداوة له مدفونة فى قلوب هذه الفئة التى شن عليها غارته وحرمتها حقها المزعوم فى الحياة الملوثة التى ارتفعتها ، وأوشك أن

يصبح لها هي الأخرى موقف منه ، لا يبعدها عن صفوف خاذليه .
ولكن هذا الكفاح — على صدقه — لم يلق جزاءه ، ولم يتقبله الناس
القبول الحسن الجدير به ... وهل كان بمقدورهم أن يفعلوا ؟.. هل كان بوسعهم
أن يتلقوا جهاد الشيخ بالثناء وهذه شخصية إسلامية كبيرة ، لها في نفوسهم
منزلة لا يكاد أن يرتفع إلى شأوها سوى قليلين ، ما برحت ترميه بكل ما يثير
نفوسهم عليه ... إهم ليعلمون لها في الدين سابقة ، وفي حفظ تراث محمد
الروحي يد ومأثرة ، وفي بلوغها من العلم مدى يجعل رأيها في عثمان قوة الحكم
الدامغ غير المنقوض ... أولبت هي من أوصاهم رسول الله بأن يتمسوا بالديها
الهدى في شئون دينهم إن أرادوا الهداية ؟ .. ألم يقل لهم حديثه خذوها
نصف دينكم ؟ .. بلى . هي كل هذا وأكثر منه ... إنها زوج محمد ، الزوج
الأثيرة عنده من بين نساؤه ... إنها ابنة صاحبه الصديق التي تربت في أحضان
الدعوة ، وما كان لفلها أن تهتم بغير علم ، وما كان لها أن تقول في عثمان إلاحقاً
صافياً غير مشوب .

ها هي قد فأت بجانبها عن الشيخ نفوراً وموجدة ، وراح لسانها ينال منه ،
لم يعد الرجل في خاطرها الآن أميراً للمؤمنين ، ولم يعد الفيور على حرمة الدين ،
بل هو لم يعد مطلقاً ذات عثمان المبجل القديم ... في سخريتها مجال لنعته إذن
باللفظة التي تجنبها ذكر اسمه لأنها أصبحت تعاف أن تنطق به ... وفي علمها
المأثور عن زوجها الكريم ما يزدى بكفاية هذا الخليفة — هذا النمئل — إن أريد
أن يقاس مدى علمه بدينه الذي أوّمن عليه ... نعمثا ... نعم فما أشد انطباق
هذا الاسم الجديد عليه ! .. وما أقوى دلالة اليوم على صاحب الأمس الذي
لم يبق منه إلا مظهر خارجي تم عنه هذه اللحية الضخمة ذات الشعر
الملتف الكثيف !

فقد الرجل إذن — في نظر عائشة — خبره القديم وإن استبقى الهيئة
الظاهرة السطحية ، كمثل الأبرص لا يزينه حسن برده ... ومضت هي في
غضبها عليه تبث في النفوس دعوتها المناهضة . ولقد هداها فكرها إلى نوع من

التأليب أشد أثراً وأبلغ نفوذاً إلى النفوس والأذهان ، فسارعت إلى قيص
لرسول الله فنشرته بينتها كما مر به امرؤ قالت له .

« هذا قيص رسول الله لم يبيل وقد أبلى عثمان سنقه . ! »

فهل من سامع لهذا الكلام يستطيع من بعد أن يحسن الظن بكفاية الخليفة
في رعاية الدين وحفظ فروضه وسننه إن وجد إلى اليوم من كان يحسن الظن به
في رعاية شئون الناس وحسن قيامه بأمور دنياهم ؟ ...

ومع هذا فلم يقف نشاط عائشة في دعوتها للتخذيّل عن عثمان عند المدى
الذي ساقها إليه حرصها على كيان الدين ، بل احتضنت مع الزمن الدعوة
السياسية التي أخذت تعمل لهدم الرجل وهدم سلطانه . هي في هذا كانت
لا ريب مدفوعة بحرصها على أن عملاً مقعد الإمارة الإسلامية بمن تظنه جديراً
به ، وأشد غيرة على الواجب الديني والدنيوي من ذلك الأمير المغضوب عليه .
ولكنها في اندفاعها نسيت واجبها هي كأم للمؤمنين عليها أن تدعو إلى السبيل
الأقوم بين الحب والحكمة دون العداة والتفرقة بين أبنائها المسلمين . ونسيت
أيضاً مكانتها في الناس كزوج لرسول الله تتطلع إليها عيونهم في توفير لا يمكن
أن يتوفر لها إن آثرت السير في غمار الأحزاب . غير أن الشعور بالتفوق حفزها
إلى الاستزادة منه . وطاقة النشاط التي انبعثت عن شبابها ، وما كانت فيه
من فراغ لا يشغله ما يشغل المرأة عادة من ولد أو زوج ، قد اجتمعت كلها
عليها لتبدل بدلوها في الشئون العامة وقد حرّمها الزمن أن يكون لها شأن خاص
تقف حياتها عليه . . .

نقضت عائشة عنها خمول البيت ، ووحشة الوحدة ، ومضت لطبيعتها إلى
ميدان أولى به نشاطها وحيويتها عسى أن تكون لها يد في رسم مصير الشعب
الذي أحبته باللون الذي ترتضيه . ولقد دفعها الأحداث أمامها كما يدفع
السيل النحدر صخرة ، فلم تستطع التمهّل ولا التريث . ومضت في الغمار
حتى آخر الشوط ، ولكنها كانت تهدف بلا ريب إلى الخير لدينها ولأمتها
جسماً دلتها نظرتها إلى الأمور ، وإن أخضعت هذه النظرة لطبيعتها الأثوية .

فلم تغفر قط لعثمان أن تناول سنة زوجها بالتبديل والتغيير . وقامت لهذا تشبها عليه حربا شعواء لا ترضى من نتائجها بأقل من خفضه عن مقعد الحكم الذى خلف عليه رسول الله ، بل إنها سارت بحنقها إلى مداد حتى جاهرت بالرغبة فى أن ترفع بصرها فلا تراه فى هذه الحياة الدنيا ، ولو كان لها فى ذهابه عنها نصيب ... قالت تكشف عن حقدتها عليه وقد علمت أن وفود الثوار أقبلت فحصرته فى داره حتى لا يعلم إن بقى له أمل باهت فى الخلاص .

« ... والذى تقسى بيده ، لوددت أنه الآن فى غرارة من غرائرى مخيط عليه فألقيه فى البحر الأخضر ... »

ولكن طبيعتها الأنثوية التى جنحت بها هذا الجنوح الموجل فى الإسراف للاحتقاد على الرجل الذى وتر زوجها فى سنته ، كانت هى نفس الطبيعة التى أقمت من بمد قلبها بالرحمة له حين وجدت الناس قد تكالبوا عليه فقتلوه . لا عجب فى رحمتها تلك ولا فى الخطة المعادية التى اتخذتها حيال شرادم الثوار وإن كانت هى نفسها قد أمدت الثورة المنداعة بكثير من الوقود . بل العجب فى أن تظل فى مكانها حيث كانت فى صفوف المناجزين العتاة .. إن قلبها أكبر من أن ينقاد أبدا لغضبيتها الجامحة بغير عنان ، وإن نفسها الطاهرة لم تمن مطلقا ما كان لسانها ينطق به فى ساعات انسياقها للغضب الفوار ، وإن عاطفة الأنوثة الفياضة لأولى بها أن تهدو فى صورة الأمومة الحانية التى يتسع حنانها لكل إنسان ، وهى أم المؤمنين ، وعثمان أحد أولئك الأبناء الذين شملتهم أمومتها الجامعة . ثم هو أجدر بأن يتقطع له قلبها أسى لأنه من أولئك الأبناء الضعيف الواهن المهيض الجناح .. وهل هناك أولى برئاء الأم ودمعها من ولدها المصاب ؟ .. وهلا تمحو نكبتها فيه كل ما أحسته نحوه من شخصها القديم ؟ ..

أجل كان قلبها الكبير أجدر بأن يوسع للرحمة حتى تطرد الحقد من فواحيه ، ولقد فعلت عائشة كما تفعل فى موقفها كل أمينة على غواطف الأنوثة لم تجردها الأهواء من خصائص طبيعتها الرقيقة . ولم تكن فى هذا

تصطنع الحنان بل الحنان غمر فؤادها كالسيل . ولعل الندم هو الذى اقتحم على قلبها باب الرحمة المخزنة ولعل المحفة الواقعة هى التى تناولت بكفها القوية نفسها فجلتها وخلصتها من صدا الضغينة . . ولكنها فى كلا حقدتها ورحمتها لعثمان كانت لا تعمل إلا بوحى عواطف نبيلة ، من بينها الولاء لسيرة زوجها الحبيب الفقيد ، والحزن الفاجع لمصرع الخليفة الشهيد .

على هذا النحو يفهم ما كان من عائشة حق الفهم فلا يبدو فيه تناقض كثير . وبه استطاع أن يبعد عنها بعض اللوم فتجنب عسرة الحساب عند الزارين ، فأحق منها بالزراية من عمل عن غير عاطفة شريفة كريمة وإن سار وإياها فى طريقها يلتبس مثلها نفس الغايات . . أحق منها بهذه الزراية ابن النابتة عمرو بن العاص الرجل الذى كان فى ذلك الزمان هبدا للفوازع الشر التى ملأت نفسه . فلغير غرض نبيل ناجز عثمان وراح يؤلب عليه ، وغير عاطفة كريمة قام يناضل عن دمه أو يبدو كن يعمل جاهدا ليثأر له . بل انطلق فى البدء جامعا تستعبده المادة حتى أسرف فى تحريض الناس وبذر الحقد فى قلوبهم على الخليفة ، ثم ارتد فى النهاية - وقد أነع عمره الحبيث - تستعبده المادة أيضا ؛ ففضى يستنهض الدموع والبكاء ليثأر لضحيته كن دفعه الولاء والوفاء .

هذا رجل أخضع النبيل الإنسانى للغرض الشخصى حتى لم يعد هناك نبيل معلوم يجيش بصدوره ، ولم تعد بقلبه عاطفة كريمة ينبض بها عرق واحد فيه . . بل هو كافح لتدعيم النفعية لأنها أجدى عليه من قداسة الخلق الفاضل وصفاء النفس الشفافة . كان صورة أخرى لسيدته معاوية كأنهما أصل وخيال . لم يرع كلاهما إلا الغرض الذى يدر عليه الريح المنشود ، ولم يلتزما فى حياتهما العامة القاييس الخلقية الشريفة لأنهما علماها عند قياس المادة تبوء بخسران .

كذلك كان عمرو ، وهذه نفسه التى جبهت ضرورها فى البدء للأخذ من عثمان ثأرا للنفع الذى حرّمها الخليفة إياه . . وهل كان بوسع عبد الأهرام والثروات أن يفر لأمر المؤمنين أن قد سلبه مقعد إمارته بمصر

فمطله من مناط نحره ومصدر مجده وعزه .

قدم المدينة بعد عزله عن ولاية مصر ، ومضى يخوض في سيرة الخليفة ويطعن فيه ما شاء له حقه وشاء هواه . فدعاه عثمان إليه يؤنبه على ما كان منه ويعنف له في المقال . . قال له :

« يا ابن النابغة . ما أسرع ما قل جربان جبتك . . إنما عهدك بالعمل عاماً أول . . أتطمع على وتأتيني بوجه وتذهب عني بآخر ؟ »

فأجابه الرجل وقد أخزاه أن يقف عثمان على مرأته :
« إن كثيراً مما يقول الناس وينقلون إلى ولائهم باطل . فاتق الله في رعيتك يا أمير المؤمنين . »

قلم يكن لدهائته أثر في نفس الخليفة يححو الشعور بالغضب عليه . فقال له مقذعاً في الخطاب :

« والله لقد استعماتك على ظلمك وكثرة القالة فيك » .

« قد كنت عاملاً لابن الخطاب ففارقني وهو عني راض » .

« وأنا والله لو آخذتك بما آخذك به عمر لاستقمت . ولكني لنت عليك

فاجترأت على . . أما والله لأننا أعز منك نفراً في الجاهلية وقبل أن إلى هذا السلطان » .

« دع عنك هذا فالحمد لله الذي أكرمنا بمحمد وهدانا به . . قد رأيت

الماص بن وائل وروأيت أباك عفان ، فوالله للماص كان أشرف من أيك » .

ومع ما بلغ من تهافته آونة على الاعتذار . وإيمانه ثانية في الانتصار

لنفسه من اتهم التي كالمها له الخليفة ، فإن الرجل لم يرهو عن غيه ، بل اندفع

يحدوه حقه الذي أبي عليه أن يغفر لعثمان عزله من منصبه . وراح يملأ

النفوس بالتذمر ويبذر فيها — انتقاماً لنفسه — بذور السخط على

أمير المؤمنين . لم يسلم من به أحد كان بالمدينة حتى ابن أبي طالب أيضاً والزبير

وطليحة . . ثم أخذ ينطلق في موسم الحج فيختلط بالناس الآتين من كل

فج وقطر فيفت فيهم سمومه ، ويمترض مبيهم يفتهم بأخطاء عثمان . . .

ولعل خير صورة ترسم لنا جهوده المعادية ما قاله هو عن نفسه غيب مقتل عثمان :
 « .. إن كنت لأعرض عليه حتى إني لأعرض عليه الراعى فى غنمه
 برأس الجبل » .

بهذه النفسية عمل عمرو . وبها حارب الخليفة ، ثاراً لمنصب الإمارة
 بالفسطاط . ولهذا المنصب نفسه راح بعد المصرع يبدو أمام الناس داعية يريد
 أن يفتصف لعثمان .

ماذا بقى بعد هذا لا يؤجج النار حول عثمان .. ولأى دعامة من الدعائم
 استند منصبه ، أو ملكه ، أو الخلافة التى كانت فى البدء ذات أساس روحى
 يعنوله وجه الدنيا فأصبحت اليوم مظاهره دنيوية تخضع لكل نزوات الإنسان ..
 الأحداث تلاحقت واصطفت كما اجتمعت سحائب دكناء فى جوانب الأفق
 مفردة بما صفة .. والشعب فى أقطاره التى باعدت بينها المسافات ، قد ألف بين
 قلوبهم نفورهم من العهد الملول .. والقدر أيضاً مد أصابعه لينسج خيطه .
 يتهمياً الناس دائماً للثورة بضغط عوامل مادية شتى تدفعهم إلى تغيير ما هم فيه .
 ولكن قوة الأثر المعنوى الذى ترسبه فى نفوسهم هذه الامادات هو وحده الذى
 جعل من الثورة حقيقة واقعة تدمر ما أمامها ولا تأبه لما يعترض سبيلها من
 حواجز وسدود . وقد توفرت الدوافع النفسية المدمرة فى عهد عثمان . وبدأت
 جلجلة فى سخط الفقير المحروم . وفى غضبة المظلوم المهضوم . وفى مطامع أصحاب
 الأهواء الذين أذلهم عرض الحياة . ولكن القدر أبى إلا أن يشتد فى حبك
 خيوطه ليزيد الأنشودة متانة . وكانت المادة التى اتخذها قوام نسجه هى النفس .
 وكانت النفس طيبة يسير صوغها فى ذلك الزمان . لا تكاد أن تثبت أمام نزوة
 أو عاطفة .. لقد شاء القدر أن يبدأ عثمان حكمه بإثارة استنكار الناس حين
 خطا إلى المنبر فاقتعد نفس الدرجة التى كان يقعد بها رسول الله . هو بهذا لم
 يعن الاستملاء على سلفيه العظمين . ولا التطاول إلى مقام محمد الذى لا يبلغه
 أحد قبله أو بعده . إلا أنه كان عملاً لم يعلق به عواطف الجماهير .

بل أصابها بجرح أحفظها عليه لأنه مس — في نظرتها — معنى القداسة التي كانت تؤثر أن يظل مفرداً به شخص رسول الله . ولئن كانت الأحداث من بعد قد نواترت سراعاً حتى أوشكت يدها الآسية أن تخفى الجرح القديم وتلفه في رباط النسيان ، فإن القدر مد أصابعه ثانية ليكشف عنه ، وليعبث به وليرند به دامياً يخز النفوس ويعيدها للذكرى مرة .

وكان الرجل سيء الحظ — فيما يبدو — تألبت عليه القوى جميعاً وفيها المصادفات . . وكما عثر به نجمه ساحة استخلافه وفاده شؤم الطالع إلى تلك الدرجة من منبر الرسول . فكذلك شئت له تعاسته ذلك اليوم حين جلس ساهياً بجوار بئر أريس . ينبش التراب لغير غاية إلا العبث بلحظات فراغ . ولم يكن ملقياً بالا إلى شيء فقاب عنه أن يلتبه إلى خاتم الرسول ينزلق من أصابعه . فلما تاب ووسعه أن يتبين الأمر انقبض صدره وبدأ الجزع والأسى في عينيه . . ولكن جهده في البحث لم يرد إليه الأثر المفقود . وضاعت معه أيضاً جهود من أمرهم بنش التراب حول المكان وبالغوص في مياه أريس .

وتطير . والعرب كلها أمة تتطير وتكاد أن تستنبط الشؤم من كل مظهر ، والعامية منها أولى بأن تتحكم فيها القوة الغامضة التي تنشأ عن أمثال هذه المظاهر الصغيرة وتكون لها في نفوسهم قوة العقيدة . وقد ذهب الناس بهذا الحادث مع التشاؤم إلى غايته . وانقبضت صدورهم له . وصورت أوهامهم نتائجهم في صورة حملت إليهم الجزع والانزعاج . . على أي حال عادت ثانية إلى أذهانهم قصة المنبر وما استخلصوه منها من معاني العبث بالقداسة التي أضفتها شخصية الرسول على كل آثاره . ثم وسمعهم بعد هذا أن يسترجعوا صوراً شتى من الماضي . بارزة الجمال والدلالة . لها في نفوسهم آثار بعيدة الأصول . . . وأن تتجمع فيهما ذكريات حبيبة ذكروا بها محمداً وذكروا عهده ، والأيام السعيدة التي أهنأهم . والحوادث التي كان لها في بناء الدولة كيان . وفي كل صورة من هذه بدا لهم الخاتم قطعة منها رائمة . له قداسة ساحبه . وله السحر الذي التف به كالمهالة كلما ذيل به محمد

موثقاً من موثيقه أو كتاباً من الكتب التي كان لها يد ماهرة في رسم رفعة الإسلام . وبقيت له قداسته بعد محمد ببقاء الذكرى . وبقي له أيضاً سحره الذي أورث اليمن والبركة كل صحوفة طبعها بطابعه . وكل عهد مكتوب ختمه به الشيخان أبو بكر وعمر في عهديهما الرخين على الأمة .. أفان اليوم أن تختتم هذه الصفائف المجيدات .. . وهل انقضى زمن الخير .. وهل آذن ضياع الخاتم بحلول عصر ليس له من عصر النبي وصاحبيه نصيب ؟

كان حرياً بالنفوس أن تأسى عليه وتحزن لضياعه وأن تتهبب مما عسى أن تأتى به الأيام بعد ذهاب يمنه . وأن تشفق من المستقبل وتحشاء ثم ترتد بالحنق على الرجل الذي أفقدهم عبئه هذا التراث اليمون . وكان أولى بها أن توغل بمحنها إلى السخط البالغ . وبجزئها إلى الجزع المشفى على التطير . وقد يما غالى العرب في استنباط الشؤم من أوهن الظاهرات . وهم اليوم أقرب إلى طبعهم وأشد خضوعاً له وهم يستحضرون في خواطرهم صور عهدين فلا يسلم آخرها من سمات مادية منكرة مهدت لكرهم إياه وتطيرهم منه ..

ومن عجب أن يكون هذا الشعور الذي انقبضت به صدور القوم صادقا تمام الصدق . وأن يلبى عن الحقيقة الواقعة التي أسفرت فيما بعد عنها الأيام . فلقد وقع ضياع الخاتم في عام انقسم به عهد عثمان شطرين أحدهما صالح مرضى عنه ولّى مع ماسبقه من عهد رسول الله وعهدى خليفته وكلها كان على الأمة ذا جدوى معلومة . والثانى ثقيل مكروه استفتح زمان الخلافات وانطلقت من بعده الفتن تنوش القلوب والشعوب . وتصيب الإسلام من التاعب والويلات بما هاض جناحه . وانتهى بحكمه إلى الوهن الذي هو عليه الآن

أينع الفرس . وتدلت ثماره المرة فاضجة تنتظر القطاف . وكانت الكوفة أول الأقطار التي بادرت للاجتماع ..

كانت تلك ليلة مشهودة ، لها ما بعدها من ليال كثيرة الحادثات . امتدت فيها اليد القاطفة إلى الفرع الداني .. وكانت يدا متمرسه قوية لم ترهبها الأشواك . أقبلت فجردت الفصن وجنت الثمرة بلا تردد لأنها رأت لها في الجنى حقا .. إنها يد التحرر المقتحمة التي لا تلين للصعاب . يد القومية التي تدين بكرامة الحياة وإن كانت في ظل عذاب . يد البلدة التي أحست بذاتها وعلمها نضج شخصيتها كيف تأبى الخضوع للذل وإن عاشت في أكذافه على الذهب والحرير .

هبت الكوفة . ونقضت عنها سبائنها القديم . فقد نضج فيها الوعي القومي وتهيأت روح التحرر للانطلاق . وآن أخيراً لأهلها أن ينضبوا لكرامتهم أن يمشى عليها عزيز ، ولحقهم المعلوم أن تلقفه دونهم يد سائدة . لو أنهم ارتضوا لأنفسهم مكان الذبول لوسع الفتنة أن تطأطأ رأسها للتخاذل . ولكنهم كانوا قويت ذاتهم حتى رفعتهم عن مدارك الذلة ، وأصبح شعورهم بكيانهم مرهفاً كالسيف . ولم يعودوا بعد متاعاً في كف سيد . ولم يصبحوا عباد مال أو منصب أو جاه يمن بها عليهم أمير . ولم يكونوا صوراً متائلة من مواطنهم الدليل . ذلك الفتى المتخاذل عبد الرحمن بن خنيس .. كلا . بل هم اليوم رجال ذوو أئمة ، نمت فيهم هزة الوطنية حتى أحالتهم أقراناً لحاكمهم المقتون بجنسه ، المستعلى بقومه عليهم وعلى غيرهم من أقوام .

أجل . لم يخفضوا الرأس للهوان فتموت الفتنة لأنهم أبوا أن يدعوا للحظة الفاصلة تمر . ولم يتركوا الثمرة الناضجة تسقط دون أن يلقفوها .

بل بادروها بالقطف لا يأبهون لما حولها من أشواك . ومضوا لطيتهم بغير تردد في طريق الصمصام والدماء ، لأنه يصل إلى النصر . ولأن لهم في الدنيا رسالة لا ينجزونها إلا إذا ساروا فيه . ولأن عليهم لشعبهم حفا أن يناضلوا من أجله وفي سبيل حماة له كريمة وإن جدوا له بالحياة ..

وحانت أخيراً اللحظة المرجوة .. ساعة المد الذي طالما انتظروه الشراع .. الليلة المشهودة التي لن تلبث أن تبحر في أعقابها مثيلات حمة تموج بالحادثات .. كان إذ ذاك سعيد بن العاص في مجلس سمره بدار الإمارة يحيط به وجوه الناس . وقد بدا القصر والبسطة كلها كالسكة المشرفة على سهول العراق ، وأخذ الهواء الرطب يهب من ناحية النهر النساب غير بعيد وقد اكتنفته الخضرة من جانبيه حتى لا تخطئها عين . وكان جو الجلسة هادئاً . لا يكاد ينبىء عن الثورة القريبة تماماً كهدوء الليلة البادية في صفاء السماء . وكان الحديث يسير بالقوم ليناً إلى غير غاية وقد اجتمع فهم ذو الجاه وذو المنصب وذو الكلمة العاقدة إلى قلوب قومه . وامت أطراف الكلام بسيرة طلحة بن عبيد الله ، وبجوده ، وبالثراء البالغ الذي أصبح الرجل عليه ، فقال سعيد :

« إن من له مثل النشاطيج لتحقيق أن يكون جواداً .. والله لو أن لي مثله لأعاشكم الله عيشاً وغداً .. »

فأستهوت الأمنية نفس الفتى ابن خنيس فدأصبعا تشير إلى جانب الهرات حيث قامت ضياع كسرى . وقال يتعلق الأمير :

« لوددت أن هذا المطاط لك » .

فندت من بعض الجالوس هممة غضب واستنكار . وصاح أحدهم في الفتى الداهن :

« اسكت . فض الله فاك ! »

ولكنها كانت ضيعة لم تعجب الأمير . ولم تسمح على عصب الغرور فيه . فإذا به ينظر للقوم مستعلهاً ويقول بلا مبالاة :

« إنما هذا السواد بستان لقريش ! »

السواد ؟ .. العراق كله ؟ .. كأننا لم يكفه ما جاءت به أمنيته فتساء ولم يرض بالنصيب الذي أعماه .. هذه إذن بلاد قريش . أرضها ، ضيعتها التي تملكها وتلعب بها كما تشاء .. أما أولئك كلهم فمن حوتهم الضيعة من موال وأتباع .. عبيد يكدحون للسلادة ، وليس لهم في الحياة إلا حق المملوك عند ربه إن كان هناك حق لمملوك .. أما الشعب فألة والحاكم فآله .. أما الذين بدمائهم رووا الأرض وبأسيافهم شقوا باطن الدولة الفاسية الزاهية لتخلص لهم بلادهم حرة فهم اليوم عند الأمير القرشي المسلم كالحكم بالأمس عند فارس تحت نير الأكسرة عباد النار ..

ولكن الصبر قد انقطع حبله ، والصمت على الهوان ذهب زمانه ، والهمرة ناضجة والعصن دان يمد نفسه للقطاف ! ..

في هذا اللحظة تجمعت كل مرارة الماضي ، وعصفت بالنفوس الثورة المكتومة ، فانطلقت على لسان مالك الأشتر كأنها حمة بركان .
انتفض الرجل من مكانه بزأر بالأمير :

« أتزعم أن السواد الذي أفاء الله علينا بأسيافنا بستان لك ولقومك ؟ .. والله ما يزيد أوقافكم فيه نصيباً إلا أن يكون كأحدنا يا سعيد . »

وعبس سعيد . وبهت لهذه الغضبة المفاجئة التي لم يتهياً لها أو يعد عدته . وخذل لسانه الكلام . ولكن صاحب شرطته أسعفه خاطره بما زاد من إذكاء النار .. انبرى يظهر الولاء لسيدته ويدفع عنه فراح يرد على الأشتر ومن معه ويمنف لهم في المقال . حتى قال :

« أتردون على الأمير مقالته ؟ »

فأسرع أن وثبوا عليه محنقين يتناولونه بالضرب والسباب ، لا يرعون للمجلس حرمة ، ولا يحسبون حساباً إلا لرى حفيظتهم عليه وعلى أميره سواء بسواء ..

وانتهت الجلسة أسوأ انتهاء . وخرجوا من لدن سعيد وقد تركوا

فريستهم في غشية . وذهب الزهومي نفس الحاكم ليفسح مكاناً للجزم وخشية كل يوم لم تطلع شمس . هذه الجرأة تنبئ عن قوة مستترة وشدة خبيثة لعلها تدخر إلى ساعة مناهضة وجلاد . وهذه الفئة لا ريب لها ما وراءها . إنها تعني البدو الذين تكلم رجالهم أولئك برأيهم الآن . وتعني المقاتلة غير قريش من القبائل والأعراب . وتعني أيضاً عامة الناس في البلاد من أصحابها الذين أمضهم استعلاء الحكم . إنها الدعوة القديمة للمساواة .. الدعوة التي بدأت هادئة مسالمة في صورة إرشاد قد انطلقت اليوم صرخة مدوية لن تلبث حتى يستجيب لها كل مشوق إلى المساواة ..

وكذلك كانت : واندلعت ألسنتها في كل مكان . وأقبل الناس عليها وقد أعدتهم جرأتها فأصبحوا كدعاتها الأول جرأة وإقداماً دون خشية للأخطار . واختلط الأمر على الوالي . وحارت فيه تجربته الفجة فراح يستلهم العلاج من أمير المؤمنين ..

كتب له يقول :

« .. إن رهطاً من أهل الكوفة يؤلبون ، ويجمعون على عيبك وعيبي والظمن في ديفنا ، وقد خشيت إن ثبت أمرهم أن يكثرُوا .. »
فإذا كان جواب عثمان ؟ .. كأنني به قد بدت له إذ ذاك دمشق . وبدا في عينيه أميرها الأموي معاوية كالعلاق الذي تمنو له المشكلات ..
« سيرهم إلى معاوية » .

وكان هذا فصل الخطاب ، والدواء الذي حسبته الخليفة حاسماً للداء .. ولكنه في - الحق - ظلم ابن أبي سفيان ..

نعم ظلمه لأنه حمل من الأمر فوق ما يطيق . وهل كانت سياسة معاوية إلا التماس السلامة لنفسه من أي سبيل ؟

بلى .. فالرجل الداهية خذله دهاؤه . وقدم به الذكاء الذي زعمه له الآخرون . فلم يتلق الشكاة إلا باليد التي يتلقاها بها أي أمير آخر من أمراء عثمان . ولم يبد حياها الخندق الخارق الذي حسبوه له . وهل كان من الذكاء والخدق

والدهاء أن يعالج أولئك الثائرين على الكبر والترفع والاستعلاء بالكبر
وبالترفع والاستعلاء ؟

ذلك ما انكشف عنه وفاض معاوية وانحسرت جمعبته • ونحت عنه
سياقه التي كانت في نظرة ولادة ذلك العهد أرشد السياسات
قال لهم ذات يوم مباهياً بقومه :

« .. لقد بلغنى أنكم نقيم قريشاً • وإن قريشاً لو لم تكن عدتم أذلة
كما كنتم .. إن أعتكم لكم إلى اليوم جنة فلا تسدوا عن جنتكم • وإن أعتكم
اليوم يصيرون لكم على الجور ويحتملون منكم المؤونة .. فوالله لتنتهن
أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ثم لا يحمدكم على الصير .. » .
فلم يصبروا على زهوه وإن جاءهم في ثوب إرشاد • بل انبرى أحدهم
بجبهه :

« أما قريش فلم تكن أكثر العرب ولا أممها في الجاهلية .. وأما
الجنة التي ذكرت فإنها إذا اخترقت خاص إلينا » .

وبهذا رسموا له المبدأ الذي ناضلوا عليه وأوضحوه بأقصر بيان • إن القوة
الزهوة التي بواها القدر مكان الصدارة في الدولة قد نسيت رسالتها التي نصبها
الدين لبثها في الحياة .. نسيت دعوة المساواة التي أراد الإسلام أن تجمع بين
كل الشعوب والأفراد وتؤلف بينهم جميعاً أمة واحدة تسودها المحبة .. بل
إنها بكبرها ضنت على غيرها من الشعوب والقبائل أن تبلغ مثل شأوها •
ووقفت لهم حائلادون التحرر الذي نشدوه • والمساواة التي أباحم إيلاها الدين
الحق • أفكان عجباً إذن أن تتألب هذه القوى المهضومة على ذلك السياج
فتكسره حتى تنطلق منه إلى حياة النور والعدالة ؟

ولكن الرد الواضح الصريح أخرج الداهية عن طوقه • وزرع عنه الحلم
الذي وسم به ، ثم رده في نهاية المطاف مفتوناً أشد افتتان بجهسه • وبقوته
وبأهله الذين يرتفعون في نظراته فوق الهام •

قال لهم وهو محنق مغيظ :

« أخزى الله أقواما أعظموا أمركم .. إن الله بنى هذا الملك على قريش وجعل هذه الخلافة فيهم ولا يصلح ذلك إلا عليهم .. لقد كان يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم — وقد حاطهم في الجاهلية من الملوك الذين كانوا يدينونكم — أفلا يحوطهم وهم على دينه ؟ »
ثم التفت إلى محدثه يشور به ويكيل الباب والقدر لهم :

« يا صمصمة بن صوحان .. إن قريقتك شر قري عربية . أنتها نبثا وأعحقها واديا وأعرفها بالشر .. كتمت جيران الخط وفعلة فارس حتى أصابتكم دعوة النبي .. يا شر قومك .. أفبعد أن أبرزك الإسلام وخلطك بالناس وحملك على الأمم التي كانت عليك أقبلت تبغى دين الله عوجا .. لا يضع ذلك قريشا ولا يضرهم . ولن يعلمهم من تأدية ما عليهم . إن الشيطان عنكم غير غافل . قد عرفكم بالشر من بين أمتكم فأغرى بكم الناس .. وإنه لصارعكم . »
بمثل هذا وبغيره من ألوان الشتم والسباب تناول القوم . حتى إذا أفرغ ما في صدره من الغيظ وانفثا عنه غضبه أو كاد ، عادل ثانية يحاول إرشادهم على الطريقة التي يوشك ألا يعرف لها قريناً .. أجل فإنما بتعجسيم هيئته أمام عيونهم حسب أنهم يرهبونه ويخفون له جناح الطاعة والرضوخ .

عاود الكلام ثانية عن شأو قريش ومجدها ورفعتها . وراح يرسم بحديثه صوراً عنها تغرى الرؤوس من غيرها بالإذعان . فلما أن بلغ وطره من الإسهاب . انتهى إلى الناحية التي تشبع فيه حب المباهاة .
قال وهو يكسب كلماته ليلاً وطراوة :

« .. إني والله ما أمركم بهي . إلا قد بدأت فيه بنفسى وأهل بيتى وخاصتى . وقد عرفت قريش أن أبا سفيان كان أكرمها وابن أكرمها إلا ما جعل الله لنبيه . وإني لأظن أن أبا سفيان لو ولد الناس لم يلد إلا حازماً . »

فلم يطق صمصمة هذا البهتان . بل بادره يقطع عليه حديث الصلف
والمباهاة الذي اوشك أن يفرق فيه :

« كذبت . . »

فارتج الرجل لأن الكلمة أصابت خيلاءه بأرھف سوف ولكن صراحة
اللعنم وصرامته أثبت النكوص . .

« كذبت . . قد ولدهم من هو خير من أبي سهيان . من خلقه الله بيده
ونفخ فيه من روحه . وأمر الملائكة فسجدوا له . . فكان فيهم البر والقاجر
والأحق والكيس . . »

وخرج معاوية من لدنهم مدحوراً .

على أنه في الليلة التالية شحذ سلاحه الماضي الذي حسب أنه لا يخونه . .
ذلك السلاح الذي تركزت فيه سياسة الدهاء كلها التي ظنت له . . المادة
التي تثير الفرائز الدنيا في النفوس وتتملق عواطفها المنطلقة بغير عنان حاكم
من دين أو أخلاق . .

قال لهم وهو يلوح بالعروض والأمنيات :

« أيها القوم . . ردوا على خيراً أو اسكتوا . وتفكروا . . وانظروا
فيما ينفعكم . وينفع أهلכם . وينفع عشائركم . وينفع جماعة المسلمين فاطلبوه
تعيشوا ونعش بكم » .

هذا بلا ريب عرض سخى . حري بأن يعقل الأسنة وبكم الأفواء .
ولكن الداهية — فيما يبدو — قد غاب عنه إذ ذاك أن سلاحه أولى به أن
يصبح مقلولاً عند مناجزة ذوى المثل والمبادئ وأن النفوس ليست في ميدان
الأهواء سواء . .

لم يفت صمصمة أن يكشف عما انطوى عليه هذا الإغراء الذي يحاول معاوية
أن يشتري ضمائرهم ويستعبدهم به . فبادره بجواب فيه تقريب وتأييد وفيه تهكم
وسخرية :

« لست بأهل ذلك . . ولا كرامة لك أن تطاع في معصية الله . . »

وهل الرشوة التي أحب لو توصل بها لإخضاعهم وطاعتهم إلا معصية ؟
غير أن الحاكم الداهية بدا كن لم يفهم • وراح يتشم بهدوء ويقول :
— أو ليس ما ابتدأنكم به أن أمرتكم بتقوى الله وطاعته وطاعة نبيه •
وأن تعتصموا بحبله جميعاً ولا تفرقوا •

— بل أمرت بالفرقة وخلاف ما جاء به النبي •
وإنها حق للسياسة التي انتهجها هو وغيره من الولاة • • سياسة معاملة
الناس بغير مساواة وبغير العدالة التي جاء بها رسول الله • •
وأن له أن يداورهم ويصطنع لهم النزوع عما كان منه والاعتذار عما فرط
في حقهم فقال :

« فإني آمركم الآن إن كنتم فعلت فأتوب إلى الله • وأمركم بتقواه
وطاعته وطاعة نبيه • ولزوم الجماعة وكرهية الفرقة • وأن توقروا أنفسكم
وتدلوهم على كل حسن ما قدرتم • وتمظموهم في لين ولطف في شيء • إن
كان منهم » •

أما وقد طلب منهم العظة والنصيحة فليقلها له صمصة دون مواربة :
— فإننا نأمرك أن تعزل عمك • فإن في المسلمين من هو أحق به منك •
فكأنما انقضت عليه ساعة • • أهذا هو النصيح الذي يختصونه به • •
أهذه هي العظة التي يزجونها إليه لخير دينه وخير دنياه ؟ • •
قال له وهو يكتنم غيظه :

— فمن هو ؟

— من كان أبوه أحسن قوماً من أبيك • وهو بنفسه أحسن قوماً منك
في الإسلام •

كذلك حتى لا تكون الإمرة خاضعة للحدود التي رسمها لها عثمان من
القرى واتصال أنساب أمرائه به • •
وثار الأمير • • بدا الخطر الذي يهدد منصبه بعد أن تطرق الحديث بهم
إلى هذا الحد • ولم يعد في طوقه إلا أن يدل ثانية بمكانته وقدرته فقال :

— ... ليس في زمانى أحد أقوى على ما أنا فيه منى ... لعمري لو كانت الأمور تقضى على رأيكم ما استقامت لأهل الإسلام يوماً ولا ليلة ... ولكن الله يقضيها ويدبرها . وهو بالغ أمره . فعاودوا الخير وقولوا ...
— لست أهلاً لذلك .

— أما والله إن لله لسطوات ونقات . وإني لخائف عليكم أن تتابعوا في مطاوعة الشيطان حتى تحلكم دار الهوان من نعم الله في العاجل والخزى الدائم في الآجل .

وثار بهم ثورته فقاموا له . وأمسك بعضهم بلبعته وبعضهم برأسه . فصاح غاضباً :

— مه . هذه ليست بأرض الكوفة ... والله لو رأى أهل الشام ما صنعتم بى وأنا إمامهم ما ملكت أن أنهارم عنكم حتى يقتلوكم ...
وقام عنهم وهو لا يكاد أن يملك نفسه . ولم يأت الغد إلا وقد تبين له الأمر كله ... إن هذه الشرذمة لن يحملها منى على الطاعة إلا اعتزاله واعتزال بقية ولادة عثمان من أقاربه وبني بينه الذين فتنهم أنسابهم وجنسهم فمضوا يمشون على رؤوس الناس في البلاد ، ويحتجزون لأنفسهم الأموال والمناصب لأنهم يرونها لهم حقاً لا ينزعهم فيه غيرهم ولا يقوى عليه ...
أفينفسون عليه إمرة الشام — هو معاوية ابن أكرم قريش وابن أكرمها وأكرم الناس ... ابن أبي سفيان الذى لو أنجب لم ينبج سوى حازم حزم هذا الأمير الراشد الأريب ذى الدهاء ... ألا فليسلن دهاء وحزمه .
وليرينهم حسن السياسة كيف يكون ...

ولكنها اللعبة الوحيدة التى يجيدها . والدهاء الذى يستوى عنده كل أمير ضعيف وقدير ... والحل الذى يبعد عن إمارته الخطر ويضمن له السلامة ولو إلى حين ...

ومن ثم كتب إلى أمير المؤمنين :

« ... إنك بعثت إلى أقواماً يتكلمون بالسنة الشياطين .. وإنما يريدون

فرقة . ويقربون فتنة . قد أثقلهم الإسلام وأضجرهم . وتمكنت رقى الشيطان من قلوبهم . فقد أفسدوا كثيراً من الناس ممن كانوا بين ظهرائهم من أهل الكوفة . ولست آمن إن أقاموا وسط أهل الشام أن يفروهم بسحرم وفجورهم . فارددهم إلى مصرهم الذى نجم فيه نفاقهم ... والسلام .

١٨

أرعد عبد الرحمن بن عوف ... وفارت نفسه غضباً وهو يصيح بابن أخته : « يا مسور ... اذهب أنت فأطلقها . ثم ادعنى أنظر ... »

ففضى الرجل صدوعاً بأمر خاله . ومعه صاحب من بنى عبد يغوث إلى مرابض الإبل فأخرجها . لم يستأذنا أحداً : لا الخليفة . ولا مالكيها . ولا أصغر قائم على حراسة الدواب .

وأقبل عبد الرحمن من بمد . ولم تزل في جبينه غضبته . فنظر ملياً إلى الإبل . ثم أشار بها ففرقت بين العقراء .

وأتهم بهذا تحديه لعثمان . . . ذلك التحدى السافر لذلك الشيخ الذى كان هو صاحب اليد في استخلافه . . . ولم تكن هذه أول مرة أبدى فيها استنكار أعمال الخليفة . ولكنه الآن أبداه على ملأ من الناس حتى تحدثوا به . وأنكروا كمثل . . . ووسع كل منهم أن يلفظ باسم أمير المؤمنين الذى احتجز إبل الصدقة لبضعة من بنى الحكم أقربائه دون ذوى الحق فيها من المسلمين .

هذه صورة لما بلغ إليه هوان عثمان وهوان أوامره بين الناس . في أبدء كانت المهينة كالصفحة الهادئة . الماء منبسط عليها . ساكن لا يكاد يتكشف مما يستعمل في أغواره . ولكن الأزمات تلاحت من بعد في أطراف الدولة وراحت تفعل فعلها . آونة سراعاً . وآونة مستأنية في تريث واسترخاء
فإلى أي مدى تقبلتها حاضرة الإسلام ؟

ماذا فعلت المدينة . . ؟ وكيف كان موقفها من تلك الحوادث والأزمات
الفكرية والمادية التي راحت تمهد بالدولة ؟ صامته تنظر . متربصة ترقب حتى
تحين سائحة . . جائحة إلى هذه أو تلك من الطوائف التي أخذت أكفها
تتناول نظام الحكم بالخدش أو بالتمزيق .

بل سبق إليها التذمر ولما يمر قبلها ببلدة . وتناول فيها صاحب رسول الله
أنفسهم فقير قلوبهم على الخليفة الشيخ . وانطلقت ألسنتهم نخوض في سيرته
بما أطلق فيها السنة العامة . . أما عثمان فكان غير آبه . ولم ياق السمع لهذه
الأحاديث المخافتة التي راحت تفتقل بين الشفاء والآذان . ولا الاستجابة لتلك
النقدات العابرة التي كان يطالعه بها صحبه في صيغة النصيح بين حين وحين ،
ولكن الزمن الجارى لم يلبث أن خلع القفاز الأملس . . الصفحة الرائقة
أبدلتها التيارات الخفية هياجاً بهدوء . . النفوس الهواجم ارتدت يقطى . .
لم تبق الآن بقية لمخافة أو إسرار ، لأنه لم تبق فيها بقية لاصطبار .
غلب على الناس ضيقهم ففاض . آدهم الكتمان وأعياهم فأسفروا عن سخطهم
وأظهروه . حلت في نفوسهم الجرأة على الخليفة مكان خشيتهم منه . فما عادوا
يلقونه بمثل ما كان له عندهم من توقير . ونسوا التبجيل الذي هو أولى بتقديم
صمره فضلاً عن علو قدره . وفرغت نفوس الكثيرين من هيبته حتى لأصبح
الواحد منهم لا يكاد أن يرمى إليه إلا بال نظرة الزارية كلما ضمه وإياه طريق .
بل بلغ من هذا أنهم كانوا لا يزجون إليه التحية ولا يردونها إن بدأ بها
ثم يكون من يردّها عليه محور العتاب ولوم اللوام . .

قال جبلة بن صمرو وقد سمع بمضيقه يردون السلام على عثمان :

« أتردون على رجل فعل هكذا ؟ » .

ثم انقلت من المجلس وفي يده جامعة . فقطع على الخليفة طريقه وصاح به :

« والله لأطرحن هذه الجامعة في عنقك أو لتتركن بطانتك هذه » .

فأثر عثمان — وإن آلت له الجرأة — اصطناع الأناة . فقال :

« أى بطانة ؟ فوالله إنى لا أتحير الناس » .

« مروان تخيرته .. ومعاوية تخيرته .. وابن عاصم تخيرته .. وابن سعد تخيرته .. منهم من نزل القرآن بدمه وأباح رسول الله دمه .. »
 فنظر الشيخ إليه مبهوراً برهته ، ثم مضى عنه صامتاً لا يعقب . ولكن جبلة أرى إلا أن يعمن في زرايته ، فسالبت أن راح يلوح بقبضته في الهواء متورعداً وهصح :

« والله لأقتلنك يا نعثل ... ولأحملنك على قلوص جرباء ... ولأخرجنك إلى حرة النار ... »

ثم خرج السخط رويداً رويداً من أسوار المدينة ، واستطاع أن يجد له قدمين يحملانه إلى بقية الأمصار .. من حاضرة الدولة كتب أصحاب رسول الله إلى زملائهم المتفرقين في الآفاق بالشغور بغية الجهاد ، ينبشونهم بأحداث عثمان ، ويحضونهم على تبديل ما عمل ، وكان مدار استهجانهم ومعاتبتهم . ويهيبون بهم أن ينهروا إلى جهاده فما من جهاد أولى بالمسارعة إليه وتليينه من كفاح هذا القائم على أمر الدين بغير إحسان . وعلى أمر الدنيا بغير كياسة وتدبر ... قالوا لهم فيما قالوه :

« إنكم إنما فرحتم أن تجاهدوا في سبيل الله . تطلبون دين محمد . ألا فإن دين محمد قد أفسد من خلفكم وترك .. فاهلوا فأقبلوا فأقيموا .. » .

ووضح للناس في الآفاق أنهم وأهل المدينة في الهم سواء . وأن الآفة ليست من الولاة بل من صنائع أولئك الولاة . وأن أخطاء حكمه جميعاً يمكن ردها إليه ثم لا يكون ثمة تجن عليه ولا إفحام له في الأوزار بغير سند ملموس .

وأصبحت الحاضرة الإسلامية ذات يوم فإذا بها تموج بألوان من الزأين الزارين .. لعل الكثرة كانت من صاحب رسول الله الذين خلفوا بلادته من أعوام يصطلون نار الحروب رغبة في إعلاء دينه وكلمة ربه . ولكنهم اليوم عادوا وعاد في ركابهم بضمة من أهل الأمصار الذين ذاقوا من مرارة سياسة الخليفة في أقطارهم البعيدة . وكانوا جميعاً قد أقبلوا

استجابة لدعوة أهل المدينة . وأملأ في أن ينزع أمير المؤمنين — إن رفعوا إليه طلباتهم — عما هو فيه . وأن يبدل طرائق الحكم التي سار عليها وكان لها شأن في تدمير بلادهم منه وتدمير بقية الناس الذين أظلمهم علمه . وراحوا في دروب البلدة يتحدثون جماعات وينضم الكثير من أهلها إليهم . ويبحثون بينهم شكائهم حتى وسع من لم يسمع أن يعرف أن الشكوى عامة . وأن التدمير شامل بتنظيم كافة الأمصار .

من بين أولئك تخير نفر منهم رجلاً موسوماً بورعه وإن أودت به ذات يوم وشاية حتى نفى من بلدته البصرة إلى الشام .. دائماً الشام كانت المنفى ودار القمع التي تخيرها أولئك الحكام الطغاة . ولكن العنبري لم يكن مذنباً . ولا داعية إلى فتنة . ولا رأساً لجماعة ثائرة . بل هو ناسك عازف عن الدنيا . انطوى على نفسه في داره يعبد ربه ولا يلقى الأحداث السارية إلا بنظرة حكيم . غير أن سوء طالع له أن يدعه في مستقره . فإذا ابن عامر يمر يوماً في جماعة بجوار بيته فيذكرونه لديه . فينفلت منهم واحد مفسود — كان عثمان قد غضب عليه فأخرجه من المدينة — يقول للامير :

— ألا أسبغكم فأخبره ؟

ومضى فدخل على الرجل داره وهو جالس فيها قد استغرقتة القراءة في

مصحف بحجره .. فأهاب به :

— الأمير أراد أن يمر بك . فأحببت أن أخبرك .

فلم يرفع العنبري بصره عما هو فيه . ولم يقطع قراءته إكباراً لكلام الله أن يقطعه كلام إنسان عظم أو هان .. في ذلك الوقت كانت الشكوك لا تنى تراود نفس ابن عامر على بعض سكان البصرة . ويكاد الرجل أن يستريب في كل سكون — كما كان يستريب في كل حركة — خشية أن يكون له ماوراءه من تأليب على النظام . والخفية دائماً يصحبها الظن . وهذا العنبري يستخفي وينقبض عن الناس . وهو من عبد القيس وعهد الحاكم

بحركة ابن سبأ التي دبرت في الخفاء ونشأت في حي هذا الرجل ليس ببعيد .
غير أن ذلك الرسول المفسود آثر أن يضيف إلى شك الوالي موجدة توغر صدره على الزاهد النائي عن الجمهور . فسارع إليه يقول :

— جئتك من عند امرئ لا يرى لآل إبراهيم عليه فضلا .

فأسرع ابن عامر فاستأذن على الرجل وحدثه فيما بلغه عنه .. قال له :

— . . إن هذا يزعم أنك لا ترى لآل إبراهيم عليك فضلا .

فلم يجبه . بل صفح كتاب الله وقرأ أول ما وقع بصره عليه :

« . إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين . »

ومع ما بدا من استهجان الحاكم من براءة الرجل . وتركه إياه حراً يعبد ربه مستخفياً كما يريد . فإن ذلك المدنى الغضوب عليه أبى إلا أن ينهز الفرصة ليسترد رضا عثمان عنه . فسار إليه بوغر صدره على العنبري وعلاؤه بالشك والريبة . ولم يعدم أن يجد قفراً مثله مبطلين يؤيدون وشايته لدى أمير المؤمنين . وكذلك دفع إلى معاوية بالبريء المظلوم . ولكنه لم يكن مذنباً . ولا داعية إلى فتنة . ولا رأساً لجماعة نائرة ، فليس له من سبيل إلى خشية الطغاة ، ولعل معاوية نفسه قد علم براءته وأيقن بها حتى رق له قلبه وود لو أثناه بما يريد . كان يقول له :

« قل حاجتك » .

فكان العنبري يجيب ببسمة هادئة فيها إشراقة الإيمان :

« رد على من حر البصرة لعل الصوم أن يشق على شيئاً فأني أراه يخف على في بلادكم » .

هذا هو الرجل الذي تخيره بعض الزاهبين إلى المدينة ليكون لسانهم عند عثمان . بنطق بشكواهم . ويذكر حوائجهم . ويزجي للخليفة وسائل الإصلاح التي يرغبون .

وأدخل القصر . ومثل بين يدي عثمان . ثم راح يشرح رسالته

بالصراحة التي يوسم بها أمثاله من رجال الله :
 « .. يا أمير المؤمنين . إن ناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا في أعمالك
 فوجدوك قد ركبت أموراً عظيماً . فاتق الله عز وجل . وتب إليه .
 واتزع عنها » .

فما أسرع أن تلفت عثمان إلى من حوله . وقال ساخراً وهو يقطع على
 الرسول حديثه :
 — أنظر إلى هذا فإن الناس يزعمون أنه قارىء ثم هو يجهل فيكلمني في
 المحقرات .. فوالله ما يدري أين الله .
 قال المنبري بهدوء :

— أنا لا أدري أين الله ؟
 — نعم . والله ما تدري أين الله .
 — بلى والله . وإني لأدري أن الله بالمرصاد لك يا عثمان .
 وخرج الرجل مغضباً من لدنه ليترك للناس اختيار الوسيلة التي يرونها
 صالحة للبلاغ .

١٩

أما من وسيلة .. هذا شيخ عزم على أن يصم أذنيه دون صوت الناس :
 ولا يسمع النصح . ولا يسوغ النقد . ولا يستطيع مطلقاً أن يرى أعماله على
 محك الفحص والناقشة . كم من مرة كلف أصحابه . وكم شكوى سرت
 إليه من شعبه الذي ضاقت صدوره وهو صامت ساكن كأن لا شكوى
 ولا تذمر . أم هي الحيرة يا ترى أوقفته حيث هو حتى لا يعرف كيف يتناول
 الأمور بالعلاج المنشود ..

ولكن الزمن لم يقف له . ولم يترث به . وسبقه بأحداثه إلى الحدود
 التي دون بلوغه إياها انبهار أنفاسه . وقد تخلف الشيخ عن موكب الزمن .

وعاش يفكر جامد لا يستجيب للتطور الذى قطعت الأفكار الأخرى أشواطه .
فبقى بهذا وحيداً فى واد والناس كلهم فى واد ..

ومع ذلك فقد وجب على الشعب أن يفعل شيئاً إزاء هذا الجمود . وأن
يقسر الشيخ على سماع صوته . وأن يحمله كرها فى موكب . وما كانت المدينة
إذ ذاك إلا كلقافلة المقبلة على رحلة شاقة . بعيدة المسافات . دون هدفها
أشواط وأشواط . ولكن الدليل نائم لا تكاد أن توقظه جلبة التأهب ..
أفمتخلف الركب كاه يا ترى أم الخير أن يتخاف الدليل الوسنان ؟ ..
وكرة أخرى بعد الكرات السوائف آثر الناس أن يوقفوا الدليل . وأن
يهزوه فى مرلده ليفتح عينيه ويرى مدى ما أصبحوا عليه . وأن يسلموه الزمام
وهو منتبه غير غافل ليقودهم على الدرب المأمون ..

فمن الرجل الكفيل إذن بإيقاف الغافل .. إن العيون كلها تتطلع فى
مناح شتى ثم لا تلبث نظراتها أن تلتقى على فرد واحد فى الرجال . له جراءة
لا يفسدها اندفاع . ورزاة تنبعث عن الحكمة دون الجمود . وشجاعة قلب
تعرف العراحة ولا تعرف البذاءة والإفداع . وهو أيضاً مهيب كليث . إذا
خطر خشعت له الأبصار فلا تقتحمه . فياض البلاغة كغير شبيه . إذا تحدث
ملك القلوب قبل الأسماع . عادل كاليزان . صارم كالسيف ..

تطلعت النظرات إذن إلى كل ناحية فما وسمها إلا أن تلتقى كلها على
واحد ... على على وحده استقر رأى الناس أن يكون لسانهم إلى عثمان .
يحمل رسالتهم عنهم لتؤدى لدى الخليفة خير أداء . فلقد كان ابن أبى طالب
— فضلا عن علو منزلته بين أصحاب رسول الله . والتفاف قلوب العامة كلهم
حوله — هو الرجل الذى له قلب كقلوبهم يشعر بمثل ما يشعرون ويؤمن
كإيمانهم بحقهم فى الحياة الكريمة التى لا تطوؤها أقدام الحاكم طاغ أو وال
مزهو بجنسه أو بقرابه . ويألم إذ يرى حقوق الناس — وكانت حرما — قد
أصبحت كأنها اللقى المستباح ..

وهكذا أخرجته من بيته الجاهير . وسارت به حتى رحبة القصر . ولم

يكن ثمة من تكلم عن الخليفة بخير طوال الطريق . لا ولا في المدينة كلها إلا عائب عليه ضائق به . وكانت الألسنة تذكر له كل كبيرة وكل هنة . وتعدد من أخطائه ما لم يبق بعده بقية لم يشملها الإحصاء .. حتى أهلها أيضاً كانوا يحملون عليه . بل لعلمهم كانوا يسبقون غيرهم في استنكار أعماله وفي اللهفة لى توبته ورجوعه إلى الصواب . ولم يكن هناك إلا تغير منهم يؤيدونه عن رحمة لا عن عدل . عددهم لا يتجاوز أصابع الكف ..

وتم أخيراً بين الرجلين اللقاء الذى انمقد عليه الرجاء ..

وقال على وهو يحرص أن يكون فى حديثه لين الكلام :

« .. إن الناس ورأى . وقد استفسرونى بينك وبينهم . والله ما أدرى ما أقول لك .. ما أعرف شيئاً تجمله . ولا أدلك على أمر لا تعرفه . إنك لتعليم ما نعلم . ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه . ولا خلونا بشيء فنبلغك ، وقم رأيت ما رأينا . وسمعت كما سمعنا . وصحبت رسول الله كما صحبنا . وما ابن أبى قحافة بأولى بعمل الحق منك . ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك . وأنت أقرب إلى رسول الله وشيعة رحم منهما . وقد نلت من صهره ما لم ينالا .. »

ووسمه بعد هذا القول الناعم الرخى أن يزجى إليه النصيح . ويبين له هساء أن يعطى الناس الحق من نفسه . وينزع بها عما أنكروه . قال ينهم الحديث : « .. الله الله فى نفسك . فإنك والله ما تبصر من عمى ، ولا تعلم من جهل . وإن الطرق لواضحة . وإن أعلام الدين لقائمة . فاعلم أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هدى وهدى . فأقام سنة معسومة . وأمات بدعة مجهولة .. وإن السنن لنيرة لها أعلام ، وإن البدع لظاهرة لها أعلام . وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضل به . فأمات سنة مأخوذة . وأحيى بدعة متروكة . وإنى سمعت رسول الله يقول : يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر . فيلقى فى جهنم . فيدور فيها كما تدور الرحى . ثم يرتبط بها فى قعرها .. »

ثم راح يلقى اليه بالذير المستنيط من شعور شعوبه نحوه . وبالحدث الفاجع الذى توشك أن تسفر عنه الأحوال فى أنحاء الدولة إن لم تعالج الأمور بالحكمة . وهو فى هذا لا يتحدث عن الشر الذى سوف يحقق بعثان ، بل يراه قد انتشر من بعده فشمس كل قوى الإسلام القائمة وكل رعاياه . وهو أيضاً لم يتردد فى أن يصف له بصراحته الآفة التى توشك أن تسبب كل هذه النكبات عساه أن يبادرها بالدواء الناجع .. قال :

« . . . إني أنشدك الله أن لا تكون إمام هذه الأمة المقتول فإنه كان يقال : « يقتل فى هذه الأمة إمام يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة » . ويلبس أمورها عليها . ويث الفتن عليها . فلا يبصرون الحق من الباطل . يمجون فيها موجاً . ويمرجون فيها مرجاً . . . فلا تكونن لمروان سيقة يسوقك حيث شاء بعد جلال السن وتقضى العمر . »

مروان ! . إذن فهذه هى المسألة . . . أيما ولى الشيخ وجهه وأرهف أذنيه للهمسات جاءه هذا الاسم تلوكه الألسن . مامدى تضر الناس منه ؟ . . ما غايتهم من وراء لومهم فيه ؟ . . وأى العواطف انضمت عليها قلوبهم إن لم تكن عاطفة الحسد لمشيره الأمين ؟ . . أم هم ياترى يفرضون عليه أن يضع ثقته فيمن لا يدين بالولاء له . ؟

ثم تبقى من بعد النتيجة الكبرى التى تنبئ عنها هذه المقدمة الصغيرة . . تبقى قصة القرابة بفصولها الشتى قائمة أمام الخليفة . وعقل الناس إياه من أجلها . . فما مروان إلا رأس أولئك الأهل الذين قدمهم هثماني . وما سعى الناس لخامه إلا الخطوة الأولى نحو إقصاء بقية بنى الحكم وأمية ومن لاذ بهما من مناصب الدولة . وإلى أين يجر هذا الإقصاء إن لم يدع الخليفة الشيخ من بعد كالطائر القابع فى عشه بغير ريش .

أحسبه قد جالت بفكرة هذه الخواطر وهو يتحدث علماً فيقول :
« قد والله علمت ليقولن الذى قلت أما والله لو كنت مكانى ما عنقتك ولا اسلتك . ولاعبت عليك . . . أجئت مفكراً أن وصلت رحماً

وسددت خلة وآويت ضائعاً ووليت شبيهاً بمن كان عمر بولى ؟ » .
 وترث قليلاً وهو يستعيد إلى ذهنه الأمثلة التي تؤيد منطقته فلما وسعه
 أن يرتبها عاد يستأنف الحديث .

— .. أنشدك الله يا على . هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك ؟

— نعم .

— فتعلم أن عمر ولاء .

— نعم .

— فلم تلومنى أن وليت ابن عامر في رحمه وقرابته ؟

قال له على :

— سأخبرك .. إن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فإنما يطاء على صمائه

إن بلغه منه حرف جلبه ، ثم بلغ به أقصى الغاية ، وأنت لا تفعل . . .
 ضعفت ورفقت على أقربائك .

— هم أقرباؤك أيضاً .

— إن رحمهم منى لقريبة . ولكن الفضل في غيرهم .

— ولكن عمر ولى معاوية خلافته كلها . . . وقد وليته .

— فهل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه ؟

مر ثانية . . . عمر دائماً . . . واهال ابن الخطاب فقد أفسد الأمر

على من بعده . . . لكأنه في مرقعته ، يمينه الدرة قد وقف شامخاً كجبل

يجبس عن العيون من وراءه . أو هو منار في ظلمة كست الآفاق لا يستبين

أمرؤ طريقه فيها إلا إذا سار على هديه . . . هكذا كان وهكذا أصبح بعد أن

طوته الدنيا ولم تطوه الحياة . فما كان مثله بالذى يموت في الخواطر . بل يبقى

أبداً ماثلاً في الأذهان . حياً في فؤاد كل إنسان . هو اليوم النموذج الأمثل

للأمير الكامل . ما من عمل يكتب له الإتيان إلا إن رجح في ميزانه .

وما من حاكم يتوفر له رضا محكوميه إلا إن سار على سننه . فالناس جميعاً

وإن ضاقت بهم شدته في حياته فقد وسعتهم عدالته . وأصبحوا من بعده

يحنون حنين الصادى إلى عوفة عهده .
 خشوته قعتهم ولكنها جذبتهم . وجمعهم كلهم بين يديه . أما هذا . .
 أما خليفته الشيخ . . أما عثمان الطيب الخافض الجناح فلينه أطمع فيه شعوبه
 وأغراهم به . . ألا فن له اليوم بشدة ابن الخطاب ؟

نقض الرجل يديه من جدل على . ومن حججه وبراهينه . وكفى نفسه
 مؤونة الاقتناع والافتناع . وانطلق بمد مجلسه ذاك إلى المسجد بقلب سوى
 قلبه . وطبيعة سوى طبيعته . ولو وسع من وقفوا تلك اللحظة يرنون إلى
 جهامة وجهه وعبسة جبينه وهو واقف على المنبر لو وسع أولئك أن تلمح
 عيونهم تلك الصورة النفسية التي تقمصها عثمان فلربما أوشكوا أن يروه في
 مرقعة ، يمينه درة ، قد استعار لهم من الماضى سميت سلفه ، وهو
 يخاطبهم فيقول :

« ألا قد والله عبت على بما أقرتم لابن الخطاب بمثله ولكنه وطئكم
 برجله . وضربكم بيده . وقمعكم بلسانه . فدتم له على ما أحببتم أو كرهتم .
 ولنت لكم . وأوطأت لكم كنفى . وكففت يدي ولسانى عنكم فاجترأتم
 على . . . أما والله لأنا أعز نقرأ . وأقرب ناصراً . وأكثر عدداً . وأقن
 إن قلت هلم آتى إلى . . . ولقد أعددت لكم أفرانكم . وأفضلت عليكم
 فضولا . وكشرت لكم عن نأى . وأخرجتم منى خلقاً لم أكن أحسنه .
 ومنطقاً لم أنطق به . فكفوا عليكم ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم .
 فإني قد كففت عنكم من لو كان هو الذى يكلمكم لرضيت منى بدون منطق
 هذا . . . »

فن الرجل الذى عناه الخليفة وكفه عن الناس ولوح به تلميحاً أمامهم
 حتى يرهبهم ويلزمهم الطاعة له ؟ . وأيهم من بين ولاته أو أهله أو مناصريه ؟ .
 أم هو ياترى بهذا القول قد أراد نفسه فى سميتها الجديد الحشن ذى الشدة
 والبطش ؟ . .

ثم جاءهم من بعد بجماع سياسته كلها فى كلمات . . . ليس هو صاحب

الأمس الآن ؟ . . أليس الحاكم المطلق الذى له أن يعمل وفق مشيئته ويسوس الناس كاشتهائه ما داموا قد عقدوا له البيعة واختاروه خليفة عليهم ؟ ولأى من الأسباب إذن كان هذا الاختيار إن لم يكن لتفردده بينهم بالرأى الراجح والنظرة الصائبة والقدرة الفذة على اكتناء حقائق المشكلات ؟ . . هذه صورة صادقة لناحية الضعف فى نفس الرجل . وللعناد الذى أكسبه إياه هذا الضعف ليدوق قوة . وهو فى أطواره جميعاً كذلك . لا ينى يستمسك برأيه ويتعصب له لأنه يأتى أن يقر لأحد بالتفوق عليه .

وهكذا قال يتم لهم حديثه وهو يكاد أن يحمل كلماته من الاستنكار ما لم يخف على سامع :

« . . . أما والله ما قصرت فى بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلى ومن لم تكونوا تختلفون عليه . أفتفقدون من حقوقكم شيئاً . . . فالى إذن لا أفعل فى الفضل ما أريد . . . ولم كنت إماماً . ؟ . »

ولم يسمعهم أن يردوا عليه . بل كان ردهم قيناً بأن يصبح جدلاً لا خير فيه بعد أن بصروه بما عابوه عليه فجاء يحدّثهم وكأنهم لم يبصروه . . . بل انطلق بهم الزمن قبل أن يتبينوا آخر كلماته ففاجأهم بمروان إلى جواره بيده سيفه . قد التفت نحوهم يرميهم بلهب من بصره . ويتوعدهم فيقول :

« إن شئتم حكمنا والله بيننا وبينكم السيف . . . إنما نحن وأنتم كما قال الشاعر :

فرشنا لكم أعراضنا فنبت بكم مفارسكم تبشون فى دمن الثرى

ولكن عثمان ، الذى أحس أن قد بلغ فى هذه الآونة أوج البطش أبى أن يشرك أحداً فى هذا الثوب الجديد الذى لبسه — ولو كان مروان — حتى لا يبدو ثانية أمام شعبه ضعيفاً به حاجة إلى قوة يمدده بها سواء . لذلك صاح بصاحبه وهو ينهره :

« أسكت لا سكت . . . دعنى وأصحابى . ما منطقت فى هذا . . . ألم أقدم

إليك ألا تنطق ؟ . . »

تمت الغلبة لابن سها وحزبه في ذات اللحظة التي غادر فيها عثمان منبر المسجد بعد أن حلاه أن يبدو في ثوب الباطش المهيّب ذي القوة والحول . فقد كانت خطبته وقوداً جديداً ، خطباً جافاً زاد تسمر النار . لم يأت فيها بجديد يؤلف قومه ويردّهم عنه سوى هذا الوعيد الذي أثار النفوس وحفزها إلى الثورة عليه . ولم يحاول أن يحسم الأمر برأى يصد تيار النفور المتدفق ، ولا يوعد يزجيه فيطمئن معارضيه ، ولكنه شنّها حرباً سافرة على شعوبه في وقت لم يكن يملك فيه العدة ولا السلاح . . .

وترقبت الأمصار . وزلزلت حين جاءتها الأخبار ترى بموقف الشيخ . إن القبا أورثها قلقاً لا يعرف حداً ، والخطبة بكلماتها النطوية على العنف البالغ لم تدع لها فرجة لأمل . وكل حرف حين انتقاله من فم إلى سواه انضمت إليه حاشية من هنا وإضافة من هناك . فلما أن قطع الرواة المراحل بين المدينة وأقطار الدولة كانوا كأنما ينطلقون بفوهة بركان ! . . .

وكان السبائية متربطين بأوكارهم المنبثّة في كل مكان ، ينتظرون الفرصة السانحة ليضربوا ضربتهم . فما علموا الأنباء تلقفوها ، ووسعهم أن يتخذوها مطية لغايتهم وأن يقهروا الناس على الإصغاء لهم بعد أن تحققت نظرتهم في الشيخ ، وعلى السير خلفهم ، وعلى الناداة بمثل ما نادوا به من وجوب نفّض الأكف منه . . . أليسوا الآن بصدده أمير أعيان الناصحين إرشاده ، يأنف أن يستمع لنقد ، ويأبى عليه عناده أن يتحرر من قيود الأخطاء التي كبّلته ، فمن أين تكون له الرونة التي تصرفه عن إصراره ؟ . ومتى ينزع عما هو فيه إلى ما يضمن صلاح أمته وقد رآته لا يكفيه أن يقف من شكاياتها موقفاً سلبيّاً يدعها قائمة بغير علاج ، بل يتوعدّها بمزة نفره ووفرة عذبه ، ثم ينشئ مشيره مروان فهددها بالسيف ؟ . .

وكذلك أصبحت الخطبة مادة جديدة للنقمة على عثمان وزيادة الحقد عليه من حيث أرادها وسيلة للقمع . وراحت الأيام تنجاب عن فورات النفس في أنحاء الدولة . ونشط ابن سبأ وأصحابه فتكاتبوا فيما بينهم وراء الحدود والتخوم . وحضوا على الفتنة . ودعوا إلى تجهيش القوى المناهضة لهذا الحكم ، وبشوا بذور دعوتهم الهدامة فيمن تبعهم ومن لم يتبعهم على السواء . فقد أصبحوا في العيون كلها دعاة إلى بلوغ هدف عام . واستغلوا بأس الناس من إصلاح خليفتهم حتى جعلوهم يؤمنون بأن لا معدي لهم عن الخلاص منه .

ثم ارتدت الأنبياء إلى المدينة بعد حين تحمل ما أوشك أن ينمقد عليه رأى أهل الأمصار . وشعر جيران رسول الله بشبح الخطر بهم أن يجثم على قلب الدولة ثم لا ينهض عنها إلا هن شر . ووسمهم أن يعلموا أن التردد هو الآفة ، وأن البلية في تراخي خليفتهم دون مجابهة الأمور بالحزم الواجب . فأقبلت عليه طائفة منهم كانت لا تزال ترى أن في الوقت بقية للإصلاح فقالت له :

— يا أمير المؤمنين . . أياتيك عن الناس الذي يأتينا .. ؟

فأجابهم بلسان الغافل عن الشر الحاصل :

— لا والله .. ما جاءني إلا السلامة .

فلما أخبروه ، وتبين ما عسى أن يتمخض عنه الأمر ، التفت إليهم قلقاً ،

وقال :

— أنتم شركائي ، وشهود المؤمنين فأشيروا على ..

ثم حمل بالمشورة . فأنفذ إلى البلاد رسلاً يستطلعون له الأخبار ويستكثرون حقائق الأحوال عن كثر ، بعث إلى الكوفة محمد بن مسلمة ، وإلى البصرة أسامة بن زيد ، وإلى الشام عبد الله بن عمر ، وإلى مصر عمار بن ياسر . وبعث غيرهم أيضاً إلى غيرها من البلدان يقابلون الحكام ويحادثون الخاصة ويخالطون العامة ، لعلمهم يستطيعون الوقوف على أسباب هذه الثورة الوشيكة الوقوع .

فمن عجب أن يعود الثلاثة الأول وتعود أيضاً بقية الرسل فيبدو أن ليس في وقاضهم شيء مع ما سبق من ظهور تدمير الناس وغيبتهم على الخليفة في كل مكان ، وأن يلتقوا بعثمان بعد عودتهم ثم يفتشوا إلى المسجد يبلغون من حضرهم من أهل المدينة كأنما كانوا يتكلمون بأسان واحد . قالوا :

« أيها الناس : ما أنكرنا شيئاً ، ولا أنكر أعلام المسلمين ولا عوامهم ، فالأمر أمر المسلمين . وأمرائهم يقسطون بينهم ، ويقومون عليهم .. »

أفكان هذا حقاً رأى الشعوب التي أسخطها حكم عثمان ، أم كان رأى الولاة ؟ أم هي يا ترى سياسة مقررة ؟ أم هي خطة حملهم عليها الخليفة أرادهم بها على حفظ ما استخلصوه في طي السكتان حتى لا يطمع فيه أهل المدينة ولا يكون تدمير الناس بتلك الأمصار إغراء لهؤلاء بالتدمير . . . ؟ هل أراد أمير المؤمنين من سكوتهم أن يوسع لنفسه في التفكير عساه يستطيع تدبير الأمر في جو هادئ قبل أن ينقض عليه مقر الخلافة . . . ؟ قد يؤيد هذا أن رسله أولئك ليسوا بذوى غفلة أو يعوزهم التبصر وفيهم مثل ابن مسلمة الذي كان ثقة لعمر ورقباً على ولاته ، يبعثه إلى القطر الشاكي فيستقصي ثم يأتيه من بعد بنتيجة البحث التي تهيب للخليفة وضع كل أمر في نصايه الصحيح .

من عجب أن يعود ذلك الرقيب فيعلن كرفاقه على الملأ أنه لا إنكار على عثمان ، ولا شكوى من أمير ، ولا مظلمة يود الشعب لو تلمس لها هدالة . وأن تنهى رحلته بتغير ما بدأها به . . . فلقد خرج من المدينة وهو عليم بما اصطخب في نفوس أهل الأمصار من السخط على خليفاتهم وطعنهم فيه . وغادرها وكانت إلى قليل مسرحاً من مسارح ذلك التدمير الذي شمل أقطار الدولة . أفئن خالط الناس غابت عنه شكاياتهم التي كانت فاعمة أمام بصره كالأعلام وهو عنهم بعيد .. ؟

لا ريب أن الإخفاء كان سياسة مقررة وضعها عثمان أو أشار بها مروان وإن جاءتها بتغير هذا صفحات التاريخ . فلم تكن السحب المتجمعة في الأفق

لتخفى على عين غرير فضلا عن عليم خبير . ولم تكن النذر الخطرة بحاجة إلى استكناه أو غوص في أغوار النفوس الساخطة على عثمان وعهده في آن
ولكنها وسيلة — فيما يبدو — أريد بها بث السكينة في حاضرة الدولة عسى أن يستطيع الخليفة أن يحزم أمره . ولعلها خطة حميدة . ولعل القائلين على الأمر أحسنوا إداعائوا في المدينة رضاء الرعية ، سواء أكلن إعلانهم هذا تقريراً لحقيقة حادثة أم وسيلة لحال مرجوة . ولكن رجلاً واحداً أفسد عليهم هذا التدبير أو هم في الواقع الذين أفسدوه . فقد تخلف عمار عن أصحابه ، وطال غيابه بموطن بحثه حتى ظن أنه اغتيل ومكث طويلاً بمصر لا يرفون مصيره ولا يسمعون عنه . ثم جاءهم من ابن أبي سرح واليها خطاب يقول فيه :

« . . إن عماراً قد استماله قوم انقطعوا إليه ، منهم عبد الله بن السوداء . . . »

ولم يخف الساسة النبأ بل أشاعوه . وكان إلقاءه على هيئته هذه مغرباً للناس بالانقسام تجاه ابن ياسر إلى فرقتين . واحدة سارت وظنون رجال الحكم بالمدينة في درب واحد فرمت الرجل بالكيد لعثمان ، وأخرى كانت تعلم للصحابي الجليل قدره ، وتقر بفضله ، وتباعد به عن مواطن الظنة والشبهات ، فأمنت أنه مال إلى حق ولم ينجح لباطل . .

وفي الحق لقد بدا من بعد أن أخرى الطائفتين هي راجحة الرأي . فالرجل وضيء الإسلام ، حرى به ألا تستهويه ضلالة . وهو أيضاً دائم الإخلاص لدينه ، قوى الشعور بواجبه نحو أمته ، شديد الحشية لله . . إنه نفس عمار الذي ألبس أذراع الحديد وطوح به على رمضاء مكة عسى أن يفتنوه عن العقيدة التي دان بها أو يبيهم مبداء بسلامة حياته فأثر الموت على أن يفتنوه . . ولو أن عثمان لم يعرف له تغليب ضميره على كل شهوة لما أرسله أو وثق به ، ولكنه آمن بإخلاصه للهدف العام الذي يرومونه جميعاً وهو صلاح الأمة فلم يتوان عن بعثه . بل غلب في نفسه ما يعرفه من

أمانة الرجل على ما كان بينهما من عداوة قديمة . .

فإذا كان عمار قد اجتمع بابن سبأ أو بهمض أصحابه فلغير تأييدهم كان اجتماعه . ولغير الاتفاق وإيائهم على النهج الذى ينبعونه إزاء الخليفة ، لأن الحيانة ليست من خلق الرجل . ولكنه بنير شك اجتمع بهم ليتعرف آراءهم فى الشيخ ، وليعلم أسباب انتقاضهم عليه ، وليتبين عن كذب مدى النشاط الذى تبذله طائفة من الشعب فى الواقع أشد القوى المعادية لعثمان ، وهو بهذا يبدو مخلصاً لرسائله تمام الإخلاص عاملاً جهده على تأديتها خير أداء ، باذلاً ما فى وسعه لاستكمال أوجه بحثه . وهو إلى هذا رجل كانت له نظرة مخالقة فى أعمال الخليفة ، لا تعرف مطلقاً التعصب له أو مداهنته ، فوسعه أن يسير فى الطريق الصحيح الذى لا بد أن يودى إلى إنجاز الواجب الذى وكله إليه الأمير . . ثم هو بميزته هذه كميل — وقد علم الداء — بأن يعرف مكانه . . ولو أنه كان صنيعاً لابن سبأ لظل مستخفياً بمصر حتى يقدم مع الوفود التى أودت بالشيخ . ولكنه ما لبث أن عاد إلى المدينة يسفر عن رأيه ويدعو للإصلاح علانية كغيره من ذوى الغيرة على الدولة والإسلام .

أجل بدا بلا شك رجحان رأى الذين لم يأخذوا بخطاب ابن أبى سرح على وجهه . ووضح للناس بالمدينة أن شكوى إخوانهم بالبلدان الأخرى جدية بالنصف . بل وضح هذا أيضاً لعثمان وأعوانه بعد أن طالت مداورتهم للأمر وإهمال أخذها بالحزم الواجب ، فكان أن بعث إلى الأمصار كتاباً يقول فيه :

« . . ألا لا يرفع على شىء ولا على أحد من عمالى إلا أعطيته . وليس لى ولعمالى حق قبل الرعية إلا متروك لهم . . لقد رفع إلى أهل المدينة أن أقواما يشتمون وأقواما يضربون . فمن ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم فليأخذ بحقه حيث كان ، منى أو من عمالى . . »

وأردف عثمان كتابه بدهوة إلى أمراء الأمصار يحثهم على المسارعة للاجتماع بحسامهم أن يقولوا ويقول فيعلم أين يكون الخير .

وقال لهم بعد أن عرفوا فيم الاجتماع :

« . . . أنتم وزرائي ونصائحي وأهل ثقتي . وقد صنع الناس ما قد رأيتم ، وطببوا إلى أن أعزل همالي ، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون ، فاجهدوا رأيكم وأشيروا علي . . . »

فأي حال يا ترى من الحرج كان فيه أولئك العمال إذ سمعوا أن عزلهم من ولايتهم كان أول مطلب لرعاياهم ؟ . . . وبأي أنواع المشورة كان الواحد منهم حقيقةً بأن ينصح الخديفة ؟ . . . في لحظة ذكروا رسل هتمان إليهم فوسعهم أن يسارها بالجواب الذي ينطوي على معنى واحد وإن اختلف بيانه :

« يا أمير المؤمنين . . . ألم تبعث ؟ . . . ألم ترجع إليك الخير عن القوم ؟ . . . ألم يرجعوا ولم يشافهم أحد بشيء ؟ . . . لا والله ما صدقوا ! . . . وما هي إلا إذاعة لا يحل الأخذ بها ، ولا الانتهاء إليها . »

واستطاعوا أن ينفضوا بهذا عن رقابهم سيف الإرهاب .

— فأشيروا علي . . .

قال له عبد الله بن عامر :

— رأيي لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك ، وأن تجمرهم في المغازي حتى يذلوا لك ، فلا يكون هم أحدهم إلا نفسه .

فأصدق بها مشورة من محارب ! .

وقال سعيد بن العاص :

— احسم عنك الداء ، واقطع الذي تخاف ، واعمل برأيي نصيب .

— وما هو ؟

— إن لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر .

كأن قد ذكر تلك الضجة التي أثارها عليه الأشتر وصحبه من غلاة

الوطنيين ! . . .

وقال معاوية :

— أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عمالك عن الكفاية لما قبلهم وأنا ضامن لك ما قبل .
 وإنه لرأى الرجل يرى نفسه في عافية فلا يعنيه أن يبحث فيما يكفل العافية لسواه ! . .

وقال ابن أبي سرح :

— إن الناس أهل طمع ، فأعطيهم من هذا المال تعطف قلوبهم عليك .
 ومن أولى بالاعتراف بسيادة المال على النفوس من هذا المشير الذى منحه عثمان ذات يوم خمس أفريقية ؟ . .

كذلك تكلم كل أمير يشجوه . . . ولكن الخليفة لم يجزم برأى ، ولم يقطع بأمر ، بل ألقى عينه إلى ناحية في الجمع . . ها هنا رجل صامت ، لم ينطق إلى الآن بكلمة ، قد ثبت بصره في العشرين واحداً بعد واحد ، ولكن أذنه كانت غائبة عنه . . . طوال الوقت كان لا يكاد أن يفرغ رجل منهم من رأيه حتى يسارع هذا الصامت فيرهف سمعه لا يبعج خارج المكان . . . إن الجدل لا يبنى يأتيه مشوشاً مضطرباً لا تكاد حروفه أن تبين ، ولكنه واضح الدلالة . . . هذه الجموع المزدهرة من الشعب كانت هي الأخرى في شبه جلسة — تماماً كما لى أمرها من هؤلاء الولاة ! ولكن همها يضيئها ، والقلق على مصيرها يملأ قلوبها خشية لأنها شكت ، وجمت أسباب شكواها ، ثم تقدمت بقضيتها إلى حكام هم الخصوم . .

طوال الوقت كان ذلك الرجل معنياً بالجماهير المزدهرة في الخارج ، يكاد أن يسمع مناقشاتهما وإن لم يوصله كلام ، وأن يعرف آراءها الجافية في أولئك الحكام . وكان ذهنه صافياً وإن ازدحمت به الخواطر ، وقلبه هادئاً ثابتاً في قراره لا يكاد أن يلعب به الخوف . بل لعل فيه قد راح يتلون بأطراف بسمة بين فينة وفينة ، صفراء فيها شماتة . . إنه ليس أميراً كهؤلاء . لم يعد أميراً بعد أن نحاء عثمان . ولكن لحظته حانت أخيراً . وجاء الوقت الذى سعى فيه الخليفة إليه ليستهدى به بعد أن أطبقت عليه شركاء

الأحداث . أفأنا له أن يقسو على وآثره لم يصفح عنه ؟ . . .

بل هو رجل لا يستجيب للعواطف إلا بمقدار ما تشبع اثره نفسه . الحقد عنده بحساب ، والحب بحساب والنصح أيضاً بحساب . وهو في كل زمان ومكان لا يبذل منها إلا القدر الذي يضمن له الربح ويجنبه الخسران . . .
وأثاه صوت الخليفة الواهن كأنه من قرار سحيق :
— وأنت يا ابن العاص . . . ما رأيك ؟ .

فالتفت إليه وما زالت تستهوى سممه ضجة الجماهير ، وقال بلمجة فيها الحقد ، وفيها الخبث ، وفيها الشماتة :

— أرى أنك ركبت الناس بما يكرهون ، فاعترم أن تعتدل . فإن أبيت فاعترم أن تعتزل . . . فإن أبيت فاعترم عرماً وامض قدماً . . .
فكانما لم تخف الرنة السكريدية في حديثه عن مسمع عثمان : فصاح به :
— مالك قل فروك ! . . . أهذا الجد منك ؟ . . .

فلم يجب . بل ترك أذنه ثانية تنعم بالأصدااء المنبمثة عن أصوات الصاخبين في الخارج . وهو الآن قد أشبع حقدته وثأر لنفسه من الشيخ الذي نحاه عن مصر وأذهب عنه جاه المنصب . في ظنه أنها دولة أوشكت أن تدول وعهد قاربت شمس الأفول ، ثم يأتي على أثره آخر يستند إلى أعضاء هذا الشعب الثائر . ولقد قال كلمته في صاحب العهد واستطاع أن يسوقها في الثوب الذي لا بد سيروق الجمهور . ولن يلبث إلا قليلاً حتى يتسامع الناس فيكون هو عندهم الرجل الذي لوح بقبضة يده في وجوه الطغاة ! . . .

ولكنه ابن الفابغة ! . وليس هو بابن أمه إن لم يملك في يمينه الأمر ثم يملك في يساره نقيضه ! . . . ليس هو إذن يعمر وذى الوجهين إن لم يراهن في آن واحد على جوادين ، لا يعلم على التحقيق أيهما الخاسر في السباق ولكنه يعلم أن واحداً منهما مكتوب له التفوق في نهاية الشوط بكل تأكيد . . .

لذلك لم يزايل مجلسه . وظل ثابتاً لا يريم . فلما أن انقضى جمع الأمراء

وبقى هو وحده من دونهم ، تقدم بخطى ثابتة لا تمرف الاستحياء فأظهر الولاة
لعثمان وقال في انكسار :

« يا أمير المؤمنين . والله لأنت أعر من ذلك . ولكنى علمت أن بالباب
قوماً قد علموا أنك جمعنا لنشير عليك . وسيبلغ الناس قول كل رجل منا ،
فأردت أن يبلغهم قولى فيثقوا بى فألود إليك خيراً أو أدفع عنك شراً » .
فإن هى إلا مرأاة جبلت عليها طبيعته ولن يلبث أن يهتكها لسانه إذا
تواترت الأيام ..

٢١

فشل مؤتمر المال . فلم يسفر عن تحقيق رغبات الناس . لا ولا أولاهها
وبقى الولاة على أقاليمهم وقد أعاد تثبيتهم فيها عثمان .
ونظر الناس فيما بعد بالأمصار إلى نتائج الاجتماع فهاهم ما انطوت عليه .
إنهم ثانية قد ارتدوا لما قبله . ووقفوا شاخصين إلى موكب الزمن السيار ،
وجنحت حياتهم العامة إلى زاوية من الجود . لكأنه عبثاً كان جهادهم طوال
تلك الأعوام وسع بهم الدائب إلى نوع آخر من العيش الإنسانى الذى تظله
الكرامة . لكأن عثمان وقد تفقت مشكلاتهم أمامه آثر أن بلقاها بهزكتفيه ..
أفهم عند أمير المؤمنين بهذا الحد من الهوان ؟ .

بل أهون شأنًا على نفسه منهم بالأمس ، وأتفه من أن يوسع لهم فى
الإصلاح المنشود ، فقد كذبتهم آمالهم هذه المرة أيضاً وخانتهم بقايا الثقة
التي أودعوها الخليفة . . . عند ما جاءهم دعوته للقيام بموسم الحج — قبل
دعوته الأمراء — ظنوا أن شمس الإنصاف آذنت بزوغ ، أو هكذا
حسب الأكثرون ، ولكنهم بعد قليل أصبحوا فرأوا أعمالهم يتهاون للرحيل ،
فلم تعد هناك حاجة إلى إسراعهم بشكاواهم إلى الخليفة . . كانوا أمام كتابه
لهم فرقتين . واحدة أحسنت الظن فأمنت أن دعوة الأمراء لن تلبث حتى

تسفر عن خير ، وأخرى ملكتها الاسترابة فأيقنت أن عثمان الذي انتقاد دائماً لعماله على البمد لن يسمع من وفود التذمرين وأولئك العمال يحيطون به كالسور ، وهذه وتلك آثروا أن ينتظروا النتائج التي ستبدو غيب الاجتماع .

ولكنهم جميعاً آفتمهم النتائج وهالهم ما انطوت عليه . فلم يكن بها معنى الإصلاح ولم تبق ما كان كما كان ، ولكنها انحدرت بحالهم إلى أسوأ من سوء . ومن عجب أن يأخذ الشيخ برأى ابن طامر المحارب فيأمر بتجمير الناس في البعوث ثم لا يلقى باله إلى رأى ابن أبي سرح بتأليف قلوبهم بالأموال . . . أفنسى الصفة الاقتصادية التي كانت عليها شعوبه ؟ . أغاب عن خاطره أنه ما من شكوى فاضت عن النفوس إلا كان لها من ورائها سبب مادي ؟ . وهل عوامل الانتقاض على حكمه أثارها شيء غير الفوارق الاجتماعية بين الطبقات التي نشأت مرة من التفرقة في التقسيم ، وثانية من كيل الهبات لطائفة دون الآخرين ، وأخرى من حجز النفي عن بعض المستحقين ، ومع ذلك فإن الشيخ بمد انتهاء الاجتماع قد أمر ولاته بتعريم الأعطيات على الناس ليطيعوا ويحتاجوا إليه . . . إنها إذن سياسة حسم الداء بالداء . . . إنها الخطة التي تفتق عنها ذهنه وأذهان مشيريه الدهاة الذين كان هدفهم الإبقاء على صوالج السلطة في أيديهم بأي وسيلة وإن كانت إذلال الشعب التأثير على الفقر ، بالفقر وبالحرمان .

هذه حرب جديدة شنها عليهم عثمان . ليس أداؤها السلاح . ولا التخويف بعزة النفر ووفرة الأنباع . ولا الإرهاب بشدة العقاب وقسوة العذاب . . . ولكنها حرب عدتها المادة ، كان لها مثل طعم المر في أفواه الناس . . . حرب جائحة شنها الشيخ على الأرزاق .

ولكنها فشلت كما فشلت من قبل وسائل عثمان ولم يكتب لها النجاح . . . فلقد أساء بها الخليفة كما دته اختيار الدواء الذي يصلح للداء . . . وكأني بالكوفة غيب انقضاخ مؤتمره قد احتمت كلها بمسجدها حتى ضاق ، وتذاكر الناس شأهم فلقين . . . كأني بيأسهم من إنصاف الشيخ بلغ منتهاه

ذلك اليوم من أيام الجمعة وقد عاد إليهم الأشر من المدينة يحدّثهم بما كان . ولم يكن هناك عقل يتكلم ، بل العاطفة هي التي ملكت نواصي الحديث ، والقنوط البالغ هو الذي حرك أقدام الناس . وكانوا جميعاً أشبه بقاطع أجمة خلت كنانته من السهام ثم بصر بليث هائج يسد عليه منافذ النجاة ، فما أسرع أن امتدت يده بقوسه يدفع بها عن نفسه وهو يعلم أنها في الأغلب قليلة الغناء . . .

ولكن أهل الكوفة كان يحركهم اليأس . فقد غلبوا على أمرهم أخيراً وضاعت عبثاً أعوام وشهور لضوها في الجهاد . وأدعى من هذا كله أن ثقهم في عثمان قد ذهبت هي الأخرى هباء . فلم يبق ثمة أمل في إصلاحه وتغييره طريقه القديم . ولم يعد لهم معدى عن العمل لأنفسهم بأنفسهم ، وأخذ حقهم بأيديهم ممن غصبوه . . .

وكذلك رفعوا القوس يذودون بها وإن علموها توشك أن تكون قليلة الغناء . وانطلقت جموعهم الثائرة تبارح المسجد كأنها عاصفة . حسب الناس أن يثبت عثمان عليهم سعيداً واليه ليلكوا القدرة على التمرد . . . وراحت الأفواج تنطلق إلى خارج البلدة وينضم إليها الأنصار من هنا ومن هناك . وراحت أيضاً تندس فيهم طوائف من أصحاب ابن سبأ دعاة الفتنة يصبون الزيت على النار . . . وخرجوا جميعاً إلى الجرعة بقرب القادسية وقد تزودوا بالسلاح . . .

وقال لهم الأشر مالك بن الحرث وقد تجلجل وجهه بالنبار ، وهو متقلد سيفه :

« والله لا يدخلها علينا ما حملتا سيوفنا ! »

وأقبل أخيراً سعيد . وعجب للقوم وقد سدوا دونه الطريق إلى الكوفة . فلما علم منهم ما أجمعوا الرأي عليه وقف هنيئة ينقل فيهم بصره ، ثم قال باسمه بغير اكتراث وفي صوته رنين ترفع وسخرية :

« إنما كان يكفيكم أن تبعثوا إلى أمير المؤمنين رجلاً وتضعوا لي رجلاً . . . »

وهل يخرج الألف إلى رجل واحد ولهم عقول . . .
وانثنى عنهم يقطع الدرب صوب المدينة .

يا ترى كيف تقبل عثمان هذا العصيان ؟ . . في لحظة واحدة نسي ما كان قد اصطنع لنفسه من البطش وارتد ثانية كعهده ليناً غاية اللين ، متخاذلاً أشد التخاذل ، ضعيفاً مسرفاً في ضعفه . وسمعه أن يخفض رأسه لثوار الكوفة كأنما يقر لهم بحقوقهم في التمرد . . ولكنه بهذا قد هون أمره على الناس قبل أن يهون عندهم أمر سعيه ، وراحت هيئته لتق لا يكاد أن يحتفل به رجل واحد ، وزادت المرأة عليه فيما وراء البلدة حين سرى نبأ الحادث حتى أوشك أن يكون نذيراً بانقضاء سلطانه ، ولم يكن عجباً أن يأتيه من بعد نبأ عن حادث مماثل يقع بناحية أخرى من أقاليم الدولة ، وأن يخلع قوم طاعته هنا أو يخلعها غيرهم هناك ، فقد علم الناس أن يعصوه وأغرامهم بعصيانهم . وهم الآن لا يعرفون له حقاً عليهم ولا رقابة ولا قليلاً من سيادة تردهم إلى مركز التابع من المتبوع ، بل أصبحوا سادة أنفسهم ، أمرهم في أيديهم وشأنهم إليهم ، لا يقرون لمثله بسلطان ، وليس بدعاً أن يصبح الحكم من بعد فوضى تبزء شرادم الثوار حينما تشاء .

أما المدينة فقد استقبلت مؤتمر العمال بأمل وودعتهم بملل ، بل أوشكت أن يسودها توجس وقلق ، وهي تلقى ببصرها من خلال أمهالها إلى المستقبل القريب . لم يسفر للناس عن شيء يهدى مخاوفهم ، أو يرد عنهم خشيتهم على مصيرهم في ظلال هذا الحكم ، بل هو ألقى حجاباً كثيفاً بين الشعب وبين حكامه ، وأيقن بعده كلا الفريقين أن عزته في هدم أخيه .

أجل ؛ أصبحت هكذا الحال ، وما أحسب أمراً ينتظر أن نصيب قصيته العسالة لدى حصمه . وما أحسب عاملاً من عمال عثمان يستطيع أن يفهم أن غلبة الشعب عليه وعزله من منصبه هو نصر له لأنه نصر لشعبه . . . لذلك بات الناس بعد انتهاء المؤتمر بإقرار الولاية على أقاليمهم يكادون أن يفضوا الأكف من إصلاح الحال ، وعادوا يسرون ثانية في دائرة التيه .

ولكن لحظة من أمل خطفت أمام الأبصار في الأفق كأنها خط البرق ،
 فقد دعا الخليفة إليه أصحاب رسول الله ليسألهم المشورة ، فحسب الناس أنه
 لقاء لا يتمخض إلا عن خير ، وتلبثوا ينتظرون راجين ، والتأم الجمع بسعد
 وطلحة والزبير وطائفة أخرى من المهاجرين ، وكان الوقت قد آذن بدخول
 الأصيل ، ومسجد النبي أوشك أن يفرغ من الجوع بعد صلاة العصر حتى لم
 يبق فيه غير نفر قليل . وكان على في ناحية منه ، إلى جواره ابن عباس يحدّثه
 حين أقبل رسول من لدن عثمان يدعو . . .
 والتفت أبو الحسن إلى ابن عمه :

« لم تراه دعاني يا عبد الله . . ألا تنطلق مني ؟ » .

ودخلا حيث اجتمع الصحب بأميرهم . فما إن استقر بهم مكانهم حتى وقف
 عثمان فقال :

« إن ابن أبي معاوية هذا كان غائباً عنكم وعن ما نلت مني وما عاتبتكم
 عليه وما عاتبتموني فيه .. وقد سألتني أن يكلمكم ، وأن يكلمه منكم من أراد .. » .
 فأدار سعد بصره هنيئاً في الحضور كالستنكر . إن هذا الشيخ لا يني
 يتخذ من آله أستاراً يختفي خلفها ويحتجب بها عن قومه . ولو أنه آثر أن
 يلقي الناس بنفسه لكان خيراً له ..

وقال له سعد وهو لا يداري عنه ضيقه بهذا الأجلوب من التفكير :

— وما حسي أن يقال لمعاوية أو يقول إلا ماقلت أو قيل لك ؟

— على ذلكم يتكلم .

وأشار لصاحبه فوقف بينهم . فإذا يا ترى أغراء باتباع تلك اللهجة
 المعاوية حيال أولئك الناس ؟ . . إن معاوية بغير شك رجل فيه حذر ،
 وفيه حفاية بسلامته وسلامه أمارته كفيّلة بأن ترده حريصاً على التماس
 رضا هذا النفر من أعوان رسول الله — هذه البقية الباقية من أهل
 الشورى الذين لن تلبث الخلافة أن تأتي أحدهم طواعية فلا يأمن أمير الشام
 بعدها أن يبقى له أمره . ولكنه مع ذلك تكلم . وعنف في خطابه إيّام

إلى حد كان يحمل معنى التعدي لهم والرغبة في إثارة غضبهم . . بل لقد بلغ من استهاتته بأقذارهم أن لف حديثه بالوعيد والتهديد فقال :

« . . إن وراءكم من إن دفعتموه اليوم أندفع عنكم ، ومن إن فعلتم الذي أنتم فاعلوه دفعكم بأشد من ركنكم وأعد من جمعكم ، ثم استن عليكم بسننكم ورأى أن دم الباقي ليس بممتنع بعد دم الماضي . . »

إن هذا إلا صلف أغرته به نفسه ، واعتزاز بقدره وسطوته عند الخليفة وفي ولايته البعيدة التي اشترى نفوس أهلها بماله وبغيره من الأساليب التي يستجيب لها الضعف البشري وينحضع لإغرائها المحتاح . ولكن علياً أن يقره على إدلاله فصاح به يقطع عليه الحديث :

— كأنك تريد نفسك يا ابن اللخناء ؟ . . لست هنالك !

فأجابه معاوية بلهجة المعانين :

— مهلا عن بنت عمك ، فليست بشر نساك . .

ثم راج يتمم لهم حديث التهديد :

« . . إنا ينظر التابعون إلى السابقين ، والبلدان إلى البلدين . فإن استقاموا استقاموا . . وأيم الله لئن صفت إحدى اليدين على الأخرى لا يقوم السابقون للتابعين ولا البلدان للبلدان . وليس ابن أمركم . ولنقلن الملك من بين أظهركم . فما أنتم في العاس إلا كالشامة السوداء في الثور الأبيض . ولقد رأيتكم نشبتم في الطمن على خليفتمكم . وبطرتهم معيشتكم . وسفهم أحلامكم . ألا فالصبر على بعض المكروه خير من تحمله كله . . »

فأى أثر تركه هذا الرجل في صدور سامعيه ؟ ، ولأى الفايات رمى من وراء تخويفهم ببطشه ؟ ، ويأى حق نصب من نفسه حامياً للخليفة وأولى بمشان أن يكون هو حامى الولاية ؟ ، وهل كانت ياترى نبوءة خالصة ألهمها صاحب الشام حين تحدث لهم عن قتل الملك من مدينة الرسول ؟ .

أحسبه كان جاداً في كل مقال ، يعنيه إلى آخر حرف من حروف كلامه ،

فلم يلق حديثه هبثاً بغير روية أو لغير غاية . ولم يثر فيهم حفاظهم إلا وقد دبر أمره أو أبقن أنه يستطيع تدبيره . ولم يطف بوعيده عليهم إلا وهو عليم بقدرته على إنقاذه .

أما الوعيد فلم تكن هذه أولى الكلمات التي نضحت به بل سبق به ذات يوم لسانه وقد لى بالمدينة عمار بن ياسر وقال له بلمجة الجد الصارم :

« .. إن بالشام مائة ألف فارس ، كل يأخذ العطاء مع مثلهم من أبنائهم وعبدانهم ، لا يعرفون عليا ولا قرابته ، ولا عماراً ولا سابقته ، ولا الزبير ولا صحابته » .

وراح يردد أسماء صحب رسول الله برنة تعريض ثم انثنى إلى أسلوب الإرهاب :

« فإياك يا عمار أن تقع غداً في فتنة تنجلي ، فيقال هذا قاتل عثمان وهذا قاتل علي » .

فكانه بهذا قد علم أنه حقيق بأن يعتمد على قوة جنده إن دعت الحال . إنه على أى حال رجل كبير الأطماع ، قد دأب خلال الأعوام العشرين التي قام فيها بحكم الشام على أن يوطد بها أمره ، ويثبت أقدامه ، ويتخذ حيال أهلها كل ما هو كفيل بأن يجعلهم أطوع إليه من بنائه . وهو قبل هذا له عندهم نفوذ اكتسبه من تلك الصلة القديمة التي نشأت على يدى أمية جده حين تقاه عاشره إلى الشام فراح يؤلف الأقوام بها حوله ليكونوا له عدة على عمه . وهو ثالثه قد خلف على إمرتها أخاه يزيد بن أبي سفيان الذي كان عاملاً لأبي بكر وعمر . ومنذ تلك اللحظة وهو قائم على أمورها ، يتبدل الولاية والعمال في الأقاليم حوله وسلطانها عليها ثابت ، ومكانته بها وطيدة لا تعصف بها غير السياسة . فلما أن ولي عثمان أضاف إلى قوته قوى جديدة بأن ضم إليها بضع ولايات جمعت له حكم الشام بأقاليمها المختلفة . وأصبح مساوية بكل هذا يمتاز على أقرانه من الولاة . فلم تكن له كتبهم صفة الولاية بقدر ما توافرت في إمارته صفات الملك المتوارث الذي دان له

دهراً يوشك أن يبلغ مثل عمر الإسلام في أرض الشام .

علم الرجل رسوخ قدميه بأرضه هذه فوسعه أن يزهي ويقول ليس يرده من زهوه واعتدائه بقوته استحياء واجب عليه نحو خيرة صحب رسول الله ، ولا أقدار لهم كفيلة بأن ترفعهم في عينه كما رفعهم في عيون بقية الناس ، ونسى في تلك الساعة أنهم أكرم على النفوس من أن يتناولهم بمثل تهديده . وإن صاحبه كان هو الأولى بالعقاب والملامة ما دام لم يرم خلافته حق رعاية . ولم يرم كذلك حق شعبة حتى حق أن تميل عنه القلوب .

أما كان معاوية إذن يشق طريقه بأقدام الوثق ، ويبنى صرح مستقبله السياسي وهو جد عليم بأنه وطيد الأساس ؟ . . ما أحسبه إلا قد آمن أن أزمة هُمان سوف لا تنجلي عن خير . . . وما أظنه إلا استشف نتائجها المحتومة وهو بالمدينة لم يبرحها ، بل وهو بعيد عنها لم يدخلها بعد ، ولعله قد استطاع إذ ذاك أن يرخي لأطباعه العنان ، وأن يتركها تنساق أمامه إلى أقصى الحدود . والرجل الطموح لا يبنى يرقى في سلم غاياته بلا انتهاء . . . وكان صاحب الشام ذاك الرجل . وكان كذلك حريصاً بحيد التدبير قبل اختياره الطريق التي تبلغه هدفه ، ولقد دبر لنفسه ، ودبر له أيضاً حسن حظه من قبل حتى اجتمعت في كفه ناحية من الدولة الإسلامية وسيعة ، لا تكاد تنطق قبل أن يشير ، أفئن مد بصره إلى بعيد أفيكون عليه ثمة جناح ؟ .

بل ليس عليه من جناح بعد أن نهيات له قوى من رجال ومال تؤيد طموحه . وبعد أن توفرت لديه أسباب النجاح في الحالة الخلقية التي أصبح الناس عليها في ذلك الحين وقد غلب فيهم سلطان المادة على قوة الروح ، وكان هو خير من يعمل على تغليب ذاك السلطان . وبعد أن ألف السيادة أعواماً — بنفسه وبأهله — كانت أطول من عمر هذه الدولة التي وسعها طموحه ، فما من شك وهذه حاله أن يعمل قدر طاقته على أن يسود الأمة الإسلامية كلها فلا يكاد يحس أنه يعمل لأكثر من توسيع رقعة الأرض التي دانت

له بضم دويلة من هنا إليها ودويلة من هناك .

يمثل هذا العناد النفسى الذى استشعره الرجل من وراء ميزاته استطاع إذن أن يلقى بقية صحب محمد ، وأن يتهمهم ، وأن ييسط أمامهم وعيده
 أما كلماته عن قتل الملك من بين أظهرهم فلملها لم تكن نبوءة ، ولعلها أيضاً لم تكن كلها تهديداً ساقه ليرهب سامعيه هى فى الحق كانت أقرب إلى التهديد منها إلى التهديد — المقدمة التى لن تلبث حتى تنكشف نتائجها عما قليل .
 ما كاد ألا يبقى لمعاوية بالمدينة مقام حتى قال لعثمان :

« يا أمير المؤمنين . . . انطلق مئى إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به . فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا . . . » .

فلم يرض عثمان . ولكن العرض فى ذاته كان حرياً بأن يرفع صاحبه فى عينيه ، ويضعه منه موضع الغيور على الخلافة ، الأمين قبل غيره على سلامة الشيخ . وهو هكذا اقتراح قد تكون له جدواه على عثمان لو قبله ، ولكنه محقق الجدوى على معاوية فى حالتى الرفض والقبول . فما من ريب فى أن نقل الخلافة الإسلامية إلى الشام خطوة لا ثانية لها إلا نقلها إلى كفى معاوية ، سواء عن وصية من الشيخ عند قرب حينه أم عن اختيار متروك إذ ذاك لأهل الشام قبل غيرها من البلدان . أما وقد أبى عثمان أن يأخذ برأى ابن أبى سفيان ، فقد كفى هذا أن يسبق غيره من الولاة فيبدو حامياً لخليفته ، ويبدى المرشحين للخلافة كلهم فى مظهر لا تطيب له نفس عثمان .

ومع ذلك فلم يبرح مكانه حتى استوثق لنفسه . كان حاذقاً إلى الحد الذى يجعله لا يكمل تدبير أمره للظروف فدبره قبل أن يغادر المكان . . . عرض فى البدء على عثمان أن يعده من لدنه بجند يحميه ، فلما أبى استطرد فصور له الخطر المحيى به ، ثم قال :

— . . . فاجمل لى الطلب بدمك إن قتلت . . .

— هذه لك .

نخرج وكأنه ليس الرجل . . . ومر فى طريقه بالمسجد على بضعة من

الصحابة فيهم على وطلحة والزبير . وكان قد ارتدى ثياب سفره وتقلد سيفه ، فلما لمحهم تربث برهة ، وانكأ على قوسه ، ثم راح ثانية يحذرم إن أصفوا إلى الدنيا وطلبوها بالتغالب أن يسلبوها . وبدأ في هذه المرة أكيس منه في سابقتها فألبس وعيده ثوباً ناعماً من الرقة حتى كان كمهده يجمع إلى الشدة لطف الحديث . وانتهى كلامه لهم بأن قال :

« . . . إني قد خلفت فيكم شيخاً ، فاستوصوا به خيراً وكاتفوه . . . »
وتبعته الأعين وهو يبتعد . لم يكن هو حقاً نفس الرجل . . . إنه الآن محوط بهالة من السهادة ، وبطيف من الرحمة حتى أوشك أن يظهر بما لم يكن فيه . . .
وقال على لمن حوله وبصره لم يرتد عن هيكल الراحم الرحيم :
« . . . ما كنت أرى أن في هذا خيراً . . . »

أفعنى أنه لبس لبوساً لا يوائم حاله ؟ . . . من يدوى . . . ولكن الزبير بدا كمن استهوته هيئة صاحب الشام وألقت في قلبه شيئاً من المهابة له ، لأنه أجاب :

« لا والله . . . ما كان قط أعظم في صدرك ولا في صدورنا منه الغداة . . . »

وانطلق معاوية . . . كان حقاً غيرة من قبل . على الأقل لاح هكذا في عيني نفسه بمد عيني الزبير وعيني عثمان . الأطماع التي كانت يتلمع أمانه دائماً عند حد الأفق كادت أن تلمسها أناملته الآن . . . إنه برز إلى الصف الأول بين صحب الخليفة وقام على رأسه . . . وتقدم قريشاً كلها بعد أن جرح ولأء شيوخها لعثمان وفيهم أهل السابقة والشورى وخيرة المهاجرين . . . وأصبح سيد أمراء الدولة وأكثرهم غيرة على سلطان سيده وعلى سلامته . . . ثم جمع إلى هذا كله السبق على أهله جميعاً وقد بات من بينهم المنفرد بولاية دم عثمان . . .

أجل إن الأطماع الآن أوشكت أن تنقبض عليها كفاه . . . وفي طريقه

إلى الشام لعله استذكر هذا وراح يحيله في ذهنه . وانطلق به الراكب إلى مقر إمارته وهو جد سميد . وكلما ألقي عينه على بغلته تحته وهي تحب به استشعر الرضاء والطمأنينة . . ما كان ليحلم أن تسير الأمور بتسل هذا اليسر وهذه السهولة ، وما ظن مطلقاً يوم غادر دمشق أنه سيدخل المدينة بحال ثم يفادرها بغير تلك الحال . لعل نجمه إذن أوشك أن يبرغ ، وأن يعلو لامعاً في سماء الحظوظ حتى يكسف غيره . لعل الزمن أخيراً شاء أن يسير سيره المرفوب وأقبل بمدنحوه يده . لعل نبوءة كعب صدقته ، فكعب كما علمه صادق النبوءات .. ما كان أقرب هذه الذكرى منه ، وما كان أحبها إليه .. إنه لن ينساها . لن يستطيع هذا ولو راض نفسه على النسيان ، ولو مضت أيضاً على قصتها أحقاب . وإنها لجديدة أبداً في ذهنه ، ثابتة لا تكاد ترحه ، تراوده في كل لحظة كلما التقت نظراته على بغلته الشهباء

وانقرجت شفتاه عن رضا واطمئنان ، والراكب يسير ، وموكب أفكاره أيضاً يسير . وكر ذهنه وثيداً إلى الذكرى الحبيبة وإلى القصة العاطرة التي أصبحت الآن رفيقة سفره . ولم يكن اليوم ببعيد . إن هي إلا أيام قلائل تقضت على الساعة السعيدة التي أطلعته . . وإن هو إلا نفس المنظر الذي يحوطه الآن .. ركب كالركب ، وقافلة كقافلة تضرب في لجج الرمل ، ورنه حاد لها صدى في هدوء الصحراء . . كان إذ ذاك في ركاب عثمان العائد بهما إلى المدينة بعد الموسم حين رجز ذلك الحادي الجريء بصوت حنون :

قد علمت ضوامر المطي وضميرات عوج القسي

أن الأمنير بعده على وفي الزبير خلف رضى

وطلحة الحامى لها ولي

وانتفض معاوية . إن شيئاً خشناً كالشوك أوشك أن يمس قلبه ، ولفحة مسمرة كالنار مرت به . ولكن رجلاً بالراكب أفاء عليه في لمة عين هدوءه ، وأسبغ الطمأنينة حين هتف بالراجز في نبرة رصينة :

« كذبت ! . . . »

فاستدار معاوية يلتفت إليه . هذا هو كعب . وهذه أصبعه تشير نحوه . وهذه
كلته الهادئة تتم الحديث :

« الأمير بعده صاحب الشهباء ! »

فكأنما كان لنطقه مثل السحر ، رفع الكف الشائكة عن القلب وأبعد عنه
لسع النار . . على الأثر تغيرت هيئة أمير الشام ، وأشرق وجهه ، والتمت عينه
راضية فرحة وهو يلتقي بها في جلال وهدوء على الدابة التي تخب تحته . . على
بغلته الشهباء ! . .

٢٢

عام انقضى أو أوشك والحال هي الحال . الشكوى باقية ، والأمير ساكن ،
والشعب يكاد أن يحتويه الاضطراب . الشام وحده هو الفارق في الهدوء .
وحاكمه وحده هو التقرير ناعم البال وإن أيقن أن سيده يجلس على بركان .
والكوفة لم يقر قرارها بعد . إنها وإن احتلبت بعض حقها عنوة وهنأت به ،
إلا أنها ظلت بضعة أشهر أخرى تتوقع الزيد . هي حقاً نصبت عليها من ترضاه
وزعت عنها صلف الفتى القرشي سعيد بن العاص . ولكن هذا ليس كل
ما صبت إليه . إن في آمالها بقية تنتظر التحقيق . وفي شرهة المساواة سطوراً
كثيرة طلت مطموسة لم تظهرها براعة عثمان . كم أبلى أهلها في نواحي فارس
وأثخنوا في أراضها ، ثم عادوا وعلى أكتفهم الدسر وفي ركبهم الفنائم من سبي
وأسلاب ، ففازوا منها بنصيب ، وفاز بالانصبه غيرهم من القرشيين الذين لم
يهزوا رجحاً ولم يرفعوا قدماً من مكان لمكان . وكانت مصر أيضاً شاكية ، أبي
حظها أن تهناً بمثل هذا القليل الذي وسع أختها أن تناله ، وظلت مغفولة الصدر
في كنف ابن أبي سرح . وبقيت البصرة هي الأخرى قلقة ، ترقب نافذة العبر
قليلة الحيلة أن تطلع عليها شمس اليوم المأمول . .

ولكن شهوراً طويلة مضت منذ اجتماع العمال لم تسر في ركبها بشرى واحدة بقرب انتهاء فترة القلق والانتظار . الأيام لها على النفوس وقع . والليالي بطيئة راكدة نجر في أعقابها مثيلات لها تعبي الصبر وتوهن التريث . الوقت كله متخاذل ، يزحف كما تزحف سلحفاة . طويل كهينته في عين مسهد طرف نبا به الفراش . شديد الوطأة ثقيل كوقعه على مريض .

كان الزمن هو العدو الذي ضاق به الناس ، وحاصر جلدتهم حتى أوهاه ، وعاش بهم في ظل حياة سقيمة مملولة هي إلى الموت أقرب منها إلى الحياة . ولقد وسعهم في البدء أن يصطبروا ، وأن يتلبثوا به ويلاينوه . ولكن فترة الترقب كانت طويلة العمر ، بدت كأن كانت بغير نهاية . وموالة الانتظار لا تأتي بخلاص وإنما بانتظار جديد . والتريث آفة توشك أن تورث النوم فكفى الشعب الآن ما اقتظر وما نام .

كذلك انتهى رأى إلى وجوب العمل ثانية ، ووجوب الإسراع فيه هذه المرة والحرص على استخلاص نتائج حاسمة منه . إلى هذا انتهى رأى الناس في الأمصار وماهدوا نفوسهم عليه . حتى في الكوفة استطاعوا أن يجدوا أسباباً ، بعضها تقسى والبعض مادي ، دعيتهم لمشاركة إخوانهم الآخرين ، وكانت الرسائل ترد دائماً إليهم فيها علامة التذمر والخطوط التي رسمت لإبرازه ، ثم ترد عنهم مثيلاتها عبر حدودهم لكل الجهات . وكانت طريقة ربط كل بلد بغيره دقيقة غاية الدقة ، منظمة أتم نظام ، قد أشرف عليها أناس وكأوا بهذه الشؤون فأحسنوها . أما رأس الحركة الذي دبر كل الأمر فرجل موهوب ، شديد الذكاء ، مالى الهمة حتى لا ينأى عن غايته أو يغفل عنها لحظة . . . إنه ذلك اليهودي الأسود ابن سبأ . الذي فرع البلاد الإسلامية كلها من الجنوب حتى الشمال ، ثم استقر به قراره بمصر فأقام بها يمهّد لبث عيونه وأنصاره بكل قطر ودرب ودار . هذا الداهية استطاع أن يقرأ خلجات الأنفس فدبر أموره قبل أن تنطلق من عقابها أعمالاً تبدو للأعين أو أقوالاً تلفظها الألسن .

عرف ابن سبأ أن الناس داورهم زمنهم حتى أيسوا من خليفتهم وبرموا
 بإمهاله أكثر مما مدوا له في حبل الإمهال . وأن أفكارهم هفت ثانية إلى
 الأمير تعاود المناذاة بالعدالة . وأنهم موشكون أن . فموا إليه ظلمات دعاهم
 أن يثبوه إياها عامهم السالف فأرجأوا رفعها طمأناً فيما حسبوا أن سيتمخض
 عنه مؤتمر المال . . . عرف هذا فكاد أن يراهم بعين التصور منطلقين من هنا
 أفراداً ومن هناك جماعات ، لا تجمع بينهم وحدة العمل وإن جمعتهم وحدة
 الغاية . يأتون الخليفة متفرقين ثم ينفضون عنه ثانية متفرقين بعد وعد منه
 أو بعد وعيد . أفليست هذه إذن هي اللحظة التي ترقب شيخ السبابة حلولها
 أعواماً ؟ . . هل ثمة فرصة خبر من هذه يوشك أن يسفر عنها الزمان ؟ . .
 أو لم تكن بعد ساعة الصراع التي تربص بها الرجل طويلاً ورتب لها طويلاً
 بغير وني ولا إمهال ؟ . . إنما الأجدى على دعوته ألا يدهمهم يذهبون هكذا ،
 متفرقين ضائعي القوى من التفرق ، إلى الموسم حيث تبتلعهم أفواج الحجيج .
 بل الأجدى على دعوته الهدامة أن يرسم لهم خط السير وساعة التجمع وخطة
 العمل ليفجأوا الشيخ في المدينة قبل أن يبرحها إلى البلدة الحرام .

ما كان أقصر مرمى عين عثمان إذ ذاك وما أشد بعصره كلاله ! ، ليكاد
 ألا يرى لأبعد من قيد يده . إنه غاف عما يحدث خارج نطاق بلدته ، غافل
 عنه ، وحتى ما دار بالمدينة كان يراه بعين سواء . استمار دائماً أبصار حاشيته
 لينظر ، وعقولهم ليفكر ، فلم ير الخطر إلا حيناً رأوه ، ولم يبادره إلا بأكرمهم
 وأيديهم . كل ما يشغل همه اليوم رجل واحد ، واحد فرد من الرجال ملائمة
 سمعه وبصره وآفاق تفكيره . حياته كلها امتلأت به . إن سار لقيه ، وإن
 أصفى سمعه ، وإن تلفت رآه . كأنه الصخرة تسد طريقه ، وكأنه الهزيم
 يؤذي أذنيه . وكأنه وهج النار المشبوبة يبدو له وإن أغمض دونه عينيه . . .
 ألا فما بال هذا الكهل الحسن المظهر لا يكاد أن ينأى عنه . ليوشك أيضاً
 أن يفسد عليه ليااليه كما أفسد أيامه ! ، وإنه ثابت في خاطره أبداً وإن غاب

عن لح طرفه ، كل من بالمدينة ينطق به وينطق عنه . وكل من خارجها أيضاً كما حدثته الأخبار .

إنه فرد واحد ضاقت به حياة عثمان . هو طوائف المتذمرين مجتمعة في شخص ، وعوامل التذمر حية تسير على قدمين ، إنه المارد الذي يوشك أن يهدم عليه صرح حكمه ! ، وكلما استذكر الشيخ الماضي عجب للصورة القديمة التي كان عليها إذ ذاك هذا الغريم . كلما ألم فكره بناحية من نواحي شخصية علي إبان صباه الأول ، وإبان شبابه ، وإبان رجولته ، لم يملك إلا أن يتهم هذه الصورة الجديدة عنه ، التي رسمها له مروان وأعوانه . ليكاد صاحب الأمس أن يكون غير غريم اليوم ، عهده به من قبل عنواناً على المروءة ، سباقاً إلى النجدة ، يسارع بيده ولسانه وقلبه إلى نصرة كل ضعيف مظلوم ، وإن الخليفة لمظلوم تجني عليه قومه . فإذا ياترى أقعد ابن أبي طالب عنه ؟ ، بل ماذا عسى قد دفعه إلى مظاهرة الناس عليه ؟ ، أفهو الآن آثر أن يخلع ثوبه القديم فبدا على غير ما كان ، أم هي صورة شائمة زيفتها حاشية عثمان ؟ .

ولكن الخليفة لا يسمعه اليوم أن يستجيب للماضي أو يهدأ له ، ليس له بعد ذهن خاص ، ولا فكر محرر ، ولا عين ناقدة تنفذ إلى الحقائق التي سترت عنه . إنه أنس إلى طائفة من أهله أمدوه بالعين وبالرأى . إنه لا يرى من الناس إلا أنهم خالفوه . ولكنه لا يرى أن أسباب الخلاف كلها مبعثها منه ، وعلاجها كلها موكول إليه . لقد أراد مشيروه الثقة على الرؤية فرأى ، ثم أرادوه على ألا يعمل فلم يعمل . أجل لقي الفتنة الوشيكة التسمر بالسكون والجود ، ولم يحاول مطلقاً أن يمنع عنها الوقود الذي أرسدها مشبوية . أو لم يحاول حقاً ، بل علم أن أعوانه أشاروا له على ذلك السكهل الخشن المظهر وقالوا : إن هو إلا مؤثر النار ! .

السياسة العثمانية إزاء الفتنة الناشبة كانت مغالطة مرة . في تلك الأيام هذا الشيخ كالنعامة لوت رأسها عن الخطر الداهم ثم حسبت أنه لا خطر

على الإطلاق ! . كذلك فعل عثمان . وأغمض عينيه عن الأحداث حتى نام .
ورضى لنفسه بالخطة التي أشار بها أعوانه والتزموها حيال الخطر النامي فتجاهله
ولم يأخذه بالعلاج الناجع السريع . في اعتقاده أنه لم يكن ثمة خطر من ناحية
الناس لأنه لم يكن وحكامه يقرون بحق الناس في النقد أو إبداء الآراء .
فلما أن جاءه الخلاف من كل صوب ، وتكلم الناس فيه بما يشاءون ، أصبح
يرى أن هناك امراً واحداً يستطيع أن يملك ألسنتهم لأنهم لا يسمعون إلا له .
فإذا تركهم على وشأنهم يتعهدون فقد قصر إذن في حق الخليفة عليه . وإذا
ظاهرهم وأيد عنده مظالمهم فهو الذي يجنى وحده الثمرة التي يوشك أن يتمخض
عنها هذا الخلاف ! .

بهذه النظرة المجيبة كان عثمان يرمق ابن أبي طالب ، ولا يبنى يضع تحتها
كل حركة يأتيتها أو كلمة يسوقها من أجل خير ممنوع يود أن يقيمه أو شر قائم
ينادى بهدمه . ما من مرة مشى فيها إليه إلا سبق إلى ذهن الشيخ أنه رى
إلى كشف ناحية ضعيفة فيه ، وهتك الستر عن نقص كان هو يجهد أن يستره
عن عيون أمته . ولو أن فكر الخليفة استقام حق استقامة ، ونظرته إلى
الأمور كانت فقاذاً بعيدة ، لوسعه أن يفتح صدره للنقد ويقبل عليه ، ولكن
سوء ظنه كان يغلب فيه الحكمة ، والتوجس من المكافة الشعبية التي نعم بها
على بين الناس كان مغرياً له بالحذر منه . ولم يكن على وحده هو المصطفى بنار
النفور التي أججها الشيخ ، ولكنه كان من بين صحابة رسول الله أولاهم
بالاصطلاء لأنه أولاهم بولاية الأمر عند الاقتضاء .

وكذلك عاش على هذه الفترة الصاخبة من عهد عثمان كأمربة يتجاذبها
فرسان ، واحد من جهة وثنان من أخرى . فلم يستطع مطلقاً أن يوفق بين
رغبات الشعب وبين سياسة الأمير ، وأصبح بين إن سكنت متهماً من الأمة
بالتقصير في أداء الواجب الذي وكلته إليه ، وإن تكلم متهماً من الخليفة بمهالة
الناس وتحريضهم عليه ، وليس له للجمع بين الفايقين من سبيل .
لقي ابن عباس معاوية وهو بالمدينة أثناء اجتماع المال ، فأقبل عليه هذا

يقول كاشفاً عن رأى بقية أهله وفيهم عثمان :

« يا ابن عباس ، إنا كنا وإياكم في زمان لا نرجو فيه ثواباً ولا نخاف عقاباً ، وكنا أكثر منكم ، فوالله ما ظلمناكم ولا قهرناكم ولا أخرناكم عن مقام تقدمناه ، حتى بعث الله رسوله منكم فسبق إليه صاحبكم . . . فوالله ما زال يكره شركنا ، ويتغافل به عنا ، حتى ولى الأمر علينا وعليكم . ثم صار الأمر إلينا وإليكم ، فأخذ صاحبنا على صاحبكم لسنه . ثم غير ، فنطق ونطق على لسانه . . . لقد أوقدتم ناراً لا تطفأ بالماء . . . » .

أبالدم إذن استطاع الإطفاء . . . ؟ معاوية وحده يستطيع أن يفسح عن هذا وإن كان في هذا المقام أثر الإخفاء . . . ومع ذلك فهل بغير هذا الخاطر جرت أفكاره تلك اللحظة التي أدل فيها بمكانة قومه وعزتهم قبل ظهور الإسلام ؟ إن هذه السلالة التي أنجبته جذيرة بأن تنسى كل شيء ثم لا تستطيع مطلقاً أن تنسى أن سلالة أخرى بزتها أمام الناس — سلالة جاء منها هاشم وجاء محمد ، وجاء على الذي حسبه اليوم يحاول أن يغلبهم على السيادة التي غلبهم عليها سلفاه .

والتقى إليه ابن عباس بالمرء الهادي المتسامح الذي يزرى بكل تفاخر واعتزاز .
« كنا كما ذكرت ، حتى بعث الله رسوله منا ومنكم ، ثم ولى الأمر علينا وعليكم ، ثم صار الأمر إلينا وإليكم فأخذ صاحبكم على صاحبنا لسنه ، ولما هو أفضل من سنه . . . فوالله ما قلنا إلا ما قال غيرنا ، ولا نطقنا إلا بما نطق به سوانا ، فتركتم الناس جانباً ، وصيرتمونا بين إن أقننا متهمين ، أو نزعنا معتبين . . . وصاحبنا من قد علمتم : والله لا يهجهج متجهج إلا ركه ولا يرد حوضاً إلا أفرطه . » .

لكأنى بهذه الأسيرة لا تنى تشكك في منافسيها وفي رأسهم على الخصوص . ولكأنى بعثمان قيلهم وقد علم فيهم كان الخلاف بينه وبين علي لا يكاد أن تطمئن نفسه إلى علي ، ولا إلى النصيح الذي أولاه إياه . . . إن

سداً هائلاً من سوء الظن وقف بين الرجلين ، وخاطراً بفيضاً لقنه الشيخ افسد عليه أمره ولطخ صورة صاحبه القديم بالآثام . ولقد كان عثمان بتكوينه النفسى وتقدم سنه حقيقاً بأن يعيل عن عقله لظته ، وأن يجنح إلى الوشايات التى لفقها آله ، وأن يجمع وإياهم فى الخشية من على والاضطغان عليه . فلقد كان الوائى والسامع كلاهما من فئة أتاها زمنها بخير حسبت أنها عليه محسودة . وكان ذلك الموشى به من أخرى غمطها الزمن حقها حتى حسب أنها مورتورة . وكان هذا إجماع الراى الذى آمن به الخليفة ودفعه نسبه الأموى قبل أى عامل سواء إلى الإيمان به . . . لكأنى به لم تطب نفسه لأسباب الخلاف التى عرضها عليه على ، ، فأثر أن يستكنه الحقائق من لسان هاشمى سواء عسى أن تبدر فى الحديث بادرة يعرف منها الدوافع الخفية .

قال ذات يوم لابن عباس وهو يقلطف به :

« يا ابن عمى ، إنه لم يبلغنى عنك فى أمرى شيء أحببه ولا أكرهه . على أو لى ، وقد علمت أنك رأيت بعض ما رأى الناس فمنحك عقلك وحلمك من أن تظهر ما أظهروا ، وقد أحببت أن تعلمنى رأيك فيما بينى وبينك فاعتذر .. » .

فما أعجب أن كان الجواب خلاصة رأى على الذى أدلى به إليه من قبل .

قال ابن عباس :

— يا أمير المؤمنين ، إنك قد ابتليتنى بمد العافية ، وأدخلتنى فى الضيق بعد السمة ، ووالله إن رأى لك أن يحل سنك ، ويعرف قدرك وسابقتك . فوالله لو ددت أنك لم تفعل ما فعلت مما ترك الخليفتان قبلك ، فإن كان شيئاً تركاه لما رأيا أنه ليس لها علمت أنه ليس لك كما لم يكن لها ، وإن كان ذلك لها فتركا خيفة أن ينال منهما مثل الذى نيل منك تركته لما تركاه له ، فلم يكونا احق يا كرام نفسيهما منك يا كرام نفسك ..

— فما منعك أن تشير على قبل أن أفعل ما فعلت ؟ .

— وما علمى أنك تفعل ذلك قبل أن تفعل ؟ .

فصمت الشيخ . لا جديد إذن عند الرجل ولا حقيقة خافية كشف عنها حديثه ، وإنما الموقف كما كان . وأسباب الخلاف على عهدنا الأول تلوح كالماء لقاطع الصحراء ، بعيداً عن حد الأفق حتى ليحار أهو سراب خداع أم هو حقاً ماء .. ولقد بدا من بعد أن عثمان أبلى قدميه في ابتغاء السراب ! ..

أجل . أولى الشيخ ظهره للحقائق السافرة وعنى بالتماس غيرها في نفسية على .. وظل هكذا أبداً ، مخطئاً أبداً ، ومتجنباً على هذه النفس الرائقة التي لم يكن لها من هدف إلا صلاح الأمة بصلاح عثمان . ولكن أمير المؤمنين لم ير الماء لأن أهوانه حولوا عنه نظرتة ؛ وأطلقوه يبحث عنه في سبيل مضاد . ووسعه مرة أن يجمع أنفاسه ، وأن يهيب بشجاعة قلبه أن تحمله إلى على يحدثه بشكه فيه .. وكان هذا قد انتهى ركناً بالمسجد بعيداً عن الضوضاء ينفرد فيه بوجهه ، وقد عصب رأسه ؛ وبدأ على ملامحه وهن المريض .

وقال له عثمان بصينة ، قد لا تحمل معنى من المعاني في غير هذا المقام ، وإن أوشكت أن تسوق الآن معنى الشهامة إلى ذهن شاك عليل :

« يا أبا الحسن . ما أدري أشتهى موتك أم أشتهى حياتك ! .. » .

فلمل علياً تلقاء إذ ذاك ينظرة استغراب . ولكنه على أى حال لم يقل شيئاً . بل أنصت في هدوء إلى بقية الحديث .

واستطرد عثمان .

« . . والله لئن مت ما أحب أن أبقى بعدك لغيرك ، لأنى لا أجد منك خلفاً . ولئن بقيت لا أعدم طاعياً يتخذك مسلماً وعضداً ، ويعمدك كهفاً وملجأ ، لا يمنعني منه إلا مكانه منك ومكانك منه .. فأنا منك كالابن العاق من أبيه ، إن مات فجعه ، وإن عاش عقه .. » .

أ كذلك عني الخليفة أن لا لوم عنده لابن أبي طالب ، ولا نقمة لديه منه ؟ .. أهو حقاً قد خلت نفسه من شك فيه ، ومن موجدة لعل هذا الشك أوردته إياها ؟ .. أصفحة على مازالت نقية صافية في نظر عثمان لم تشبها

شوائب الريب التي ولعتها الوشائيات ؟ .. لولا أن الشيخ أضاف على حديثه بقية لحسبنا هذا . ولكنه ما لبث أن أفصح عما انضمت عليه جانحته ، فأردف كلماته اللينة — التي لفها بثوب من الجمالة رقيق شفاف — بهذا الاتهام الصارخ والتحذير العنيف الذي كان له في النفس البريئة النقية وقع أشد من ضربة سيف الاتهام .. قال :

« .. إما سلم فنسلم ، وإما حرب فنحارب . ولا تجمعني بين السماء والأرض .. إنك والله إن قتلتني لا تجد مني خلفاً ، ولئن قتلتك لا أجد منك خلفاً .. ولن يلي أمر هذه الأمة باديء فتنة .. » .

وأطبق الصمت الثقيل على الرجلين . لفترة بدت دهرأً كاملاً لكليهما ، ظل على يرمق صاحبه في سكون . في جبينه بوادر عبسة أخذت تتجمع كما تتجمع سحاب عاصفة في يوم شات . وفي نظرات عينيه التي ارهقها التعب بدا لهب هائج سمره الغضب ، وفي صدره الضخم اضطرب قلبه حتى لأوشك أن يقفز منه .. هيئته توحى بثورة محتاحه . وكيانه العليل العاني انقلب قوة وفتوة . وهيكله الراكد الهامد مشى فيه تحفز ليث .. ولكن هذا كله كان لفترة ، فترة لا تكاد تحسب بالدقائق وإن لاحت دهرأً كاملاً في حساب التوجس والانتظار . ثم مسحت يد السكون ثانية عليه ، وعاد الهدوء يشمله . وانطفأت شعلة النار من ناظريه وتبعثها لمعة نور .. بدا الآن وديعاً كما كان ، رائق النظرة ، تكاد أن تفيض كلماته بالركة لهذا الشيخ القائه عن الحقيقة ، وتمتليء ونة حديثه بالثناء له وهو يقول :

« .. إن فيما تكلمت به لجواباً ، ولكنني عن جوابك مشغول بوجعي . فأنا أقول كما قال العبد الصالح : (فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون) .. » . وبهت عثمان . وتمم مروان على الأثر بكلمات . ولكن علياً أثر أن يغادر المكان . . . لا جدوى بعد من وراء الجواب والعتاب . . . لا نهاية لهذا الأمر كله وقد بلغ اضطغان النفوس عليه غايته . وإنما الجدوى في

البعد عن ميدان هذا الصراع وفي التأني بنفسه عن المد والجزر اللذين يشيرها دائماً عثمان والناس . لعله إن غاب خفت اللفظ عنه ووقف السمع إليه . . إنه ليعلم أن الأمة وثقت به ولن ترضى لها بلسان ناطق بشكاواها إلاه . ولكن غيابها قد يخفف من خلافها نوعاً ، ومن تدميرها نوعاً ، أو في القليل سيقهرها على أن تضم جوانحها على مشاعرها وتصب زمناً على المظالم . وإنه ليعلم أن ضميره المرهف لم يألف الصبر على حيف . وأن قلبه المشغول بالتماس الكمال سيزيد من همه صمت لسانه عن المناداة بالعدالة . ولكن بعده عن المدينة قد يرى عثمان الحال على حقيقتها فيجفع إلى إرضاء الناس .

وكذلك خلف على داره . وخلف جوار محمد وهو حزين مقهور . ولقد كان انصرافه من البلدة عبثاً مرهقاً لأعصابه ، غير أن مكثه ليس خيراً منه . فليس اتهام عثمان بأول ماسمع ولا نأماً إلى سمعه ، وليس بآخر مافي جملة الاتهام أيضاً . . وانطواؤه ببعض ميساهه خارج المدينة فيه إخلاد إلى السكينة نفسه الآن أحوج إليه ..

ومع ذلك فهل نعم بهذا الهدوء طويلاً ؟ . لكأنه رجل ولد والتعب في زمان ومكان . . قل يغز مطلقاً بالقرار ، ولم يعرف مطلقاً راحة الجسم أو راحة البال . بل مضت حياته كلها من بعد حلقات متواترة من الحركة الدائبة والكفاح المرير . . حتى في خلوته تلك كان أيضاً نهياً بين الرعية وبين الأمير ، لآتمضي أيام ثم يجيئه وقد يخرجونه ليكلم عثمان ، ثم لآتمضي آخر حتى يأتيه رسول ليفض أناساً عن دار عثمان . وهو بينهم وبين خليفهم ماض أبداً بالشكاية والوعيد ، والشكايات دائماً بلا نهاية . والوعود دائماً بلا قضاء ، وإنه بعد هذا الموم من كلا الفريقين كأنه يملك وحده أن يكلم الأفواه أو يحقق الشكاة ! . .

ثم جرى الزمن جريه ، وأقبلت الساعة الرهيبة التي جهد الرجل منفرداً لردّها عن الإسلام ، وبذل من لسانه وقلبه وأعصابه ماملكت حتى لا تصبح أمته . . ولكن جهوده راحت مع الريح ، وما هي إلا أيام فلائل ، ثقيلة كأعوام ، حتى ينطلق سيل الأحداث ، قاسياً رهيباً ، يقتلع ما يعترض طريقه من سدود وحدود .

حصاد الفتنة

إنها ليلة في الشتاء قارة ، خاصمتها الرياح ، ومشى البرد في ركبها السارى
تحت عين النجم . كانت باهتة الظلمة وإن أوغل الزمن بالساء ، لكأن لون
الثرى انعكس على صفحة الأفق السوداء فأكسبها لوناً ، وكأن السماء تبسم
من عل للرمال الوسنى ولكنها بسمة لا تحمل خفة الكواكب الزهر ، فيها
صفرة وفيهسا مرارة ، ليست ثنى البهجة وإن غدت بلمحة نور . . . وكان
السكون على الأرض كالسلام وإن أوحى إلى النفس أحياناً التوجس . مهيب
تارة وقارة رهيب .

صفاء كأنه غيوم ، وهدوء كأنه مرسوم . . الجفون مشقة على حذر ،
والقلوب منظوية على اضطراب . . والقاق يكاد أن يشيم في الجو كهذه الحبات
السافية من الرمل كلما حركتها نسمة فارقها النوم . إن شيئاً مجهولاً يزحف مع الظلام ،
خافت النائمة كأنه حية ، لا يننى يسرى مع الليل إلى الصدور فيلمس الأفتدة
بأصابع مشلوجة . إن هائفاً يكاد أن يهمس في آذان القوم ، الرقود منهم
والأيقاظ ، له في أسماعهم رنة نذير . والأولى أغمضوا العيون دونه عاشوا به
في كابوس ، والأولى انتبهوا باتوا منه كمن جاس بظلمل ، فريسة لخوف خفي
لا يعرفون مأتاه .

ليلة صفوها طلاء ، وحشوها بلاء . . قضاها عثمان على هم ، وقضتها معه
نخبة أعوانه وخلاصة مشيريه وعمت خشيتها دار الإمارة كلها والمدينة من
بعد . إنه حدث ليس كمثل حدث ، وفتنة توشك ألا تكون بعدها فتنة .
ليكاد الناس يؤمنون أنها النهاية ، ويكاد الأمير أن يوقن أنها المصير ، عند ما نزل
به رسول ابن أبي سرح منذ زمن قريب ، لم يحسب الشيخ أن الخطر بهذه
القرة . . لم يسيء أبداً الظن في الناس إلى هذا الحد . . لم يوف به حدسه
على مثل هذا التدبير الخطير ، كان دائماً رجلاً سمحاً ، رحيب القلب ، نفسه

لم تعرف السواد ، فظن الناس على شاكته . . ولكنهم بدوا الليلة من معدن مغاير ، طلب العدالة وحده ليس غايتهم ، بل الثأر . . منه هو جاءوا يطلبون القصاص ! . .

وكان الفجر يوشك أن يسفر والرجل جالس يفكر . . إن عماله حقاً لم ينصروه . . إنهم قصرُوا في أداء واجبهم فأساءوا إليه بهذا التقصير وإن تمنوا نصره . خانوه . وهل التقصير هكذا إلا خيانة ؟ . قد كانوا جميعاً أثيرين عنده ، رفمهم على هام الناس ، وقدمهم حين آخر من عداهم من خيرة المسلمين ، وكانت له فيهم ثقة تامة لا يشوبها شك ، وبقتدرتهم إيمان راسخ عميق ، وبمصدقهم في سياسة شؤون الدولة يقين ثابت ، فليته علم قبل اليوم أنه كان مخدوعاً فيهم فنظر إليهم كمنظرة الأمة ، لو أنه سائر الشعوب العام نحوم لكان نحاهم عن مقاعدهم ولكان جنب نفسه هذه الأزمة ، ولكنه ظل متعلقاً بهم أيداً ، رابطاً مصيره بمصائرهم وها هو يرى الآن كيف كانوا أكفاء ! .

أئمة حاكم ، يقدر تبعته ويعلم واجبه حق علمه ، يعرف أن نفراً من رعاياه أرادوا شراً برئيس الدولة ثم لا يهتم بهم ويذرهم عنه ؟ . عبد الله ابن أبي سرح كان ذلكم الحاكم ، علم أن قوماً من المصريين ممن عرفوا بشدة العداء لعثمان دبروا أمرهم فيما بينهم على شرميت فسكت عنهم ، كل ما فعله أن أرسل من لدنه رسولا للخليفة يخبره بنبأهم ، ويقول إنهم أظهروا الرغبة في الحج والعمرة ، ولم يكونوا بضعة تفر يستطاع أن يؤمن جانبهم وإنما كانوا عدة مثات .

وخرج الثوار من مصر بمجموعهم المجيشة ، ومشى في ركابهم زعيم خطير لهم يشيعهم حتى عجزود . . لقد كان سير هذا الزعيم وإياهم خير كاشف عن الغرض الذي اضمروه ، فلم يكن مجهولاً عداؤه لعثمان . ولا حقه البالغ عليه وإن كان قريبه وولى نعمته ، ولكن ابن أبي سرح حاكم لا يعرف تبعته ، ولا يقدر عظم المهمة الملقاة في يديه ، وكان فيما يبدو واهن العزم

شديد التردد . ولو أنه كان في شك من المهمة التي أرادوا الاضطلاع بها لكان شكه وحده موجبا لحذره منهم ونحوطه للأمر قدر وسعه ؛ وللمرء أن يقطع شكه فيهم بيقين ثابت ما دام قد عرفهم من أعداء سيده . ولكنه كان شديد التردد ، يضطرب عند التوازل وتموزه القدرة على الجسم .

وكذلك خرج أولئك وأكثرهم من السبائية ، تحت أنه وعينه ، ومضى في ركبهم محمد بن أبي حذيفة حتى ودعهم بمجرود ، ومضت جموعهم الهاشمية صوب الجزيرة كالسيل المنحدر . . . أما ابن أبي سرح ، فقد كان يعلم أنه مامن شيء يصمم عثمان عنهم لو أنهم أرادوه . . . ليس هناك جيش يحميه ، ولا أعوان أعزاء الجانب يحيطون به عند الخطر ، وليس له جدار منيع بمقامه في المدينة لأن العبدان والموالي فيها ينقمون منه ومع ذلك فحاکم مصر حسب أنه بلغ الحكمة كلها حين أرسل إلى الخليفة يعلمه بالأمر . . . وخرج رسوله في أثر القوم ، واستبق دونهم الطريق إلى المدينة يركب البید إحدى عشرة ليلة طويلة في الشتاء ، لا شيء إلا ليحمل عنه كتابا إلى سيده منتهى ما فيه :

« إن ابن عديس وأصحابه وجهوا نحوه ، وقد خرجوا وهم يظهرون العمرة ، وشيعهم محمد بن أبي حذيفة حتى عجزود . »
وتوجس عثمان ، واضطربت نفسه ، فقد وضح أمامه الأمر كله ، ولم يملك إلا أن قال حين جاءه الرسول :

« يريدون بزعمهم العمرة ؟ . والله ما أراهم يريدونها . . . ولكن الناس قد دخل بهم ، وأسرعوا إلى الفتنة ، وطال عليهم عمرى . . . أما والله لئن فارقتهم ليقمنون أن عمرى كان طال عليهم مكان كل يوم بسنة ، مما يرون من الدماء المسفوكه »

ولعله عجب من هذا الجهد الأتبر الذي تكلفه ابن أبي سرح حيال أولئك الخارجين ، فراح يتناول الأمر بيديه ، ويبادره بالعلاج الذي وسعه . . .
بعث إلى من بمكة يحذره الفتنة التي حسب المصريين يوشكون أن يشوها

فيهم . ثم رد رسول عامل مصر إليها يأمر وإليها أن يتعقب الثائرين .

ولكنها مبادرة كان أوانها قد فات . لقيت تدبيراً ضخماً وخطة محكمة . فلم يذهب المصريون إلى مكة . ولم يستطع ابن أبي سرح رغم مسارعته أن يلحق بهم في الطريق ليردهم عما أرادوه لو أنه شاء ، بل هو في الحق لم يكن قد تهيأً للملاقاة بعدة تخضمتهم . وكان من سوء إدراكه للأمور حتى بدا كأن قد خرج إلى نزهة ! . . . لو أنه تلقى المسألة باحتفال وجد لدبر الأمر قبل خروجه ، ولأعد قوة محبته يستعين بها على رد جموع الثائرين أو مناهضتهم في المدينة إذا سبقوه إلى الخليفة ، ولكنه نسي في هذا الوطن الجدير بالتبصرة والحكمة أنه كان ذات يوم رجل حرب علياً بما يتطلبه الكفاح والجلاد . ومضى في سبيله لا يتعرف مواطيه قدميه ولا ما هو مقبل عليه . . . فلما كان بأيلة فجأته أخبار مروعة : جاءه من مصر نبأ بأن محمد ابن أبي حذيفة قد غلب على البلد واستعجاب الناس له . وجاءه من المدينة نبأ بأن الثوار قد حصروا فيها عمان . وأشكل عليه الأمر . وحرار أشد حيرة وقد نازح همه على الخليفة همه على المنصب المضيق . . . فإذا بلغ به الأمر حد الموازنة والاختيار فإنه اختار أن يترد ثانية إلى مقر إمارته دون الوقوف إلى جوار ههنا ساعة المهنة ! . .

نزل الثائرون قرب المدينة على مبعدة قليل منها ، ذلك اليوم في أعقاب الشتاء . ولم يكونوا زمر المصريين وحدهم ، بل كانوا أخلاطاً منهم ومن البصرة والكوفة ألفت بينهم وحدة الغاية ، وجمعهم دقة التدبير وحسن الغائب للأمر الذي هم بسبيله . واضطربت بخبرهم دار الإمارة . ووجفت قلوب فئة من أهل المدينة الذين طالت عليهم عهود الدعة والسكينة وبعدت عن فواظهم عهود الصراع . ولم يأمنوا أن يقعدوا عزلاً خشية أن يحدث ما يفاجمهم ، فراحوا يلبسون السلاح ويتخذون الأهبة لحماية أنفسهم إذا حزب الأمر . . . هذه فترة لم يمر مثلها بالبلدة منذ أيام أبي بكر حين أحاطت بها جموع مانعي الزكاة . لم تكن مهيأة إذ ذاك للدفاع عن نفسها بعد خروج جيش أسامة

للشام . وكذلك هي الآن . ليست بها حامية . ولا للخليلة قوة حرس خاصة كما استحدث بعض عماله في الأقاليم .

وضرب النازلون خياماً على حدود المدينة : ثلاثة معسكرات قريب بعضها من بعض ، لا تفصل بينها إلا مسيرة ساعات . في المروة نزل أهل البصرة ، وفي الأعوص أهل الكوفة ، وفي ذي خشب عسكر المصريون الذين كانت لهم الكثرة وزعامة قوى الثوار . وتلبثوا جميعاً قليلاً يتشاورون في الخطوة التي يجدر أن يتخذوها بعد ... كرهوا أن يبدأوا أعمالهم بالمدوان والعنف ، أو يدخلوا البلدة على أهلها عنوة وفيها أزواج الفتي وخاصة وأهل بيته ، وآثروا أن يستأذنوا حتى يقابلهم الناس بالمعطف والتقدير ... هم في همومهم لم تكن نية إيذاء الشيخ تعيش في خواطرهم وإن لاح أنها توارت في بضعة رؤوس الكبار لهم حبسوها لحين فرصة . إغما أقبلوا ولهم هدف قوامه حل الخليفة هذه المرة على الرضوخ لرغباتهم واليزول عند مشيتهم . الوعود اليوم أصبحت لا تلقى لديهم السمع بعد أن ألفوها دائماً بلا قضاء . بل أيسوا ونقضوا منها الأكف فجاءوا وفي نيتهم أن يقرروا الشيخ على النزوح عما كان منه أو يعزلوه . ووطدوا العزم على البقاء لا يرحلون حتى تأتيهم منه توبة يتبعها بتحقيق مطالبهم وقدروا أن يستجيب عثمان لهم حين تبدو له القوى التي صفوها له دون أن يطلقوها عليه ...

ومع ذلك فلم يكونوا مجمعي رأيهم على جل واحد يولونه أميراً على المؤمنين إن دعت الحال إلى عزل عثمان . بل كانت أهراؤهم شتى ، تفرقت تظاهر ثلاثة من أصحاب رسول الله هم خير بقية أهل الشورى وأول من تنجبه إليهم الأبصار عند الاختيار ... ولقد رنت إليهم أنظار الثائرين وانطلقت من معسكراتهم على البعد ترمقهم بالإعجاب والتأييد . هوى البصرة مع طلحة ، وهوى الكوفة مع الزبير ، وعلى على التفت قلوب سكان النيل ...

ولم يكن أحد من الثوار قد دخل المدينة ، ولكن الأخبار توارت

فيها بأن القوم قاتلو عثمان . ولم تكن شمة حركة تشي بالفتنة المرقوبة ، ولكن الناس تهيأوا لساعة الصرع أو لساعة الصراع . وكانت الرهبة عملاً الجو وتهيمن عليه . وكانت النفوس نهياً في أيدي قلق الانتظار ، والقلوب تأكلها اللهفة وتكاد أن تسبق الزمن إلى الغد المجهول عسى أن يسفر لها عما يخفيه ...

ثم مضى رسول الليل ، ترك ذا خشب خلفه وسار قدماً إلى دار على . وكانت إذ ذاك جامدة ، يلفها من جوانبها هدوء أقوى من الصمت . وكانت الظلمة سابغة ، بدت لفرط كثافتها كأنها فراغ . وكانت الريح ساكنة سكون الرمل ، وانية لا تستطيع أن تنقل ثامة في تلك الليلة الذاهبة في أعقاب الشتاء ...

وبدا على لطارق الليل ، معلماً بسماته وصفاته ، تكاد بشاشته أن تنطق عنه ، وتلك الهيبة التي جللت عياه تشع سحراً يجذب إليه القلوب وإن أبقى أصحابها على قيد منه لفرط ما يحسون له من رهبة . وتكلم الرسول . وتكلم أيضاً من عساهم قد انطلقوا معه إلى هذا الكهل الذي هوت إليه الأسماك والنواظر وهفت القلوب والخواطر . فما أسرع أن تبدلت البسمة التي داعبت ثغره إلى عبسة انعقدت على جبينه . وإذا كلماته قندقع إليهم حادة صخابة . وإذا الغضب يستغرق كيانه كله فيبدو لهم بأسه . لم يكن بالثائر فيقرهم على الثورة ، ولا بالساعي إلى صولجان الحكم فيتخذهم مطية ، ولكنه طراز وحده في الرجال . لا يقيس الأمور إلا بخلقه ، ولا يستعجيب لغير نداء المثل العليا التي ألزم نهجها من القدم حتى أصبح هو أكلها وأسمائها مثلاً . ولعله في موقفه هذا قد تكشفت لعينيه وسائل العنف التي لا بد سيتخذها الثوار حيال عثمان ذات يوم فحرص على أن يقتل نواتها في نفوسهم قبل أن تنمو . فما كانت الكلمة الطيبة إن نطقها في مثل هذا المقام إلا إغراء لهم على السير في طريقهم الشائك ...

عنف على برسول أهل مصر وهم الذين أقبلوا من ضفاف النيل يحملون

إليه تأييدهم له . وردهم عنه رداً غير جميل . وسفه موقفهم من الخليفة حين ظنوا أنهم جاءوا إلى نصير قوى يحملهم عليه ، وصاحب أولى به أن يظهر فضيتهم التي لا تعدو في نهاية الأمر أن تكون نصراً له ... إن النصر في رأيه هو التعنف . والظفر الذي يأتيه من طريق المصيان خذلان كله وهزيمة نكراء . وما أحسبه في هذا الموطن إلا قد ذكر أمثالا له أوشك إبانها أن يجتمع في كفيه الأمر قبض دونه يديه لأنه رآه مدعاة لتفرقة شمل أمته وفتح ثغرة في صفوفها المرسوسة .

حتى هذه الرسالة السرية أباحها أيضاً - هذا الكتاب الذي بعثه إليه من مصر محمد بن أبي حذيفة - رفض على أن يحسك به أو يظهر على مافيه حيناً امتدت به إليه يد الرسول ... لود طارق الليل إذ ذاك لو لم يعموه في مهمته . لأوشك أن يؤثر بطن الأرض على مكانه الآن أمام هذا الرجل المثالي العجيب . تجمع الدهر كله عليه في لحظة ، وغلبه الخزي حتى جرد جسمه من الحركة ... وحينما استطاع في النهاية أن يبرح موقعه ، كان كأن قد ولد من جديد . ومضت قدماء - كقدمى مولود يدرج في مهده - تصارعان موطنه . وتبدأ بان به ليكون بعيداً عن تلك الدار ... وكانت دهشته تفرمه - العجب من هذا الكهل الذي يأتي أن يأخذ الثمرة المشتهاة إذ قدمت إليه وغيره من الناس يجهد كل همرة ليقطفها وإن قطع من أجلها سبلا شتى مليئة بالدماء والأشلاء ! .

كان هذا الموقف لعل ضربة قاصمة للأهواء والمطامع التي أخذت في ذلك الأوان تلعب بنفوس كثير من قادة الرأي وزعماء المسلمين . فهي سابقة لها أثرها . وخطة للعمل إزاء الثوار رسمها هو ولا يستطيع غيره من كبار الصحابة المرشحين للحكم إلا التزامها بدقة أو يشيروا على أنفسهم لنقط الاتهام بالمساهمة في الفتنة . قطع على الطامعين طريقهم وحصرهم في مكان واحد لا معدى لهم عنه هو مظاهره عثمان ومخالفة أولئك النازلين على حدود المدينة . وأصبح حتماً على كل رجل منهم يرى لنفسه حقاً في أن

بلى الخلافة أن يعزف عنها هذه المرة برغمة . . . كذلك كانت النتائج ، وكذلك وقف الزعماء موقفهم من الثوار فساروا سيرة على ، وردوا عنهم الرسل الذين جاءوهم بفرار ما جاءوا ابن أبي طالب به ، وأصبح طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام ولهما موقفان إزاء أنصارها من الكوفة والبصرة يمثلان موقفه من المصريين .

وسمع عثمان بما كان من على ورسول للثوار يستأذن عليه فارتاح وهذا خاطره . . . وأمر بالرجل فأدخل عليه ، فإذا كتاب معه يشرح له غرضهم الذى جاءوا من أجله ، قالوا فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . . . أما بعد ، فاعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . فإله الله ، ثم الله الله ! . . . إنك على دنيا فاستم إليها معها الآخرة . ولا تلبس نصيبك من الآخرة فلا تسوغ لك الدنيا . . . واعلم أنا والله لله نغضب ، وفي الله نرضى ، وأنا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مصرحة أو ضلالة مبلجة . . . هذه مقاتلتنا لك وقضيتنا إليك ، والله عذيرنا منك . . . والسلام » .

فلم يزد عثمان على أن أمر بالرسول فأخرج من الدار .

غير أن الهدوء الذى اصطنعه الشيخ لم يكن وحده كافياً لاجتياز الأزمة ، بل أن الخطر من ضيوف الضواحي وإن توقف عن الظهور هنيئة حتى يرى القوم خطوة أخرى أجدى على قضيتهم من الركون إلى الأقطاب الثلاثة ومن ترك مهمة التوجيه في أيديهم ، هذا الخطر بدا في لحظة لاحقة أهون شأنًا مما ظهر من سكان المدينة . . . كان عثمان عليا بأحوال حاضرتة وبنفوس أهلها إلى أين تميل ، يعرف أنها اليوم في يد طوائف الموالى والعبدان والعامّة التي أوغر صدرها عليه أنحيازه عنها إلى الأشراف من العرب والقرشيين ، وإنها لقوى كفيلة بأن تنمر له بعد أن زودها وقوف الثوار على أبواب البلدة بزاد

معنوى تستطيع بعده أن تظهر موجدتها على الخليفة ثم تعصف به ، وهى آمنة أن تنف لها تلك الفتة اقليلة التى ما زالت تظهر المطف عليه .

تفكر عثمان هنيهة ، واستعرض الخطر أمام عينيه ثم راح يجهد لإيجاد الوسيلة التى تخرجه منه . . . لا طالة له بقتال القوم أو أخذهم بالشدة الكفيلة بإقرار النظام وإفاعة الأمن والسلام ، إن هو توفرت له العدة والرجال فإن الجراءة لم يتوفر له . . . ولم يكن هيباً يخاف الطعان ، ولكنه كان رجلاً أفسده التسامح حتى ليتحرج أن يقيم صرح أمره على دم ، وكانت الرجفة فى قلبه تسبق الحزم ، واللين يتقدم العزم .

أدار فى خاطره الأمر كله فأبى أن يتخلى عن طبيعته السمحة فيقابل الناس بالعنف الواجب فى أمثال هذه الظروف ، بل آثر أن يعطيهم من نفسه ليناً وتسامحاً ورحمة ، وأن يبذل غاية ما يستطيع طبعه من ترفق ، فلن يلتقى قواهم المهيضة بأمثالها ، ولن يشهر فى وجههم عصا وإن هاجموا بهتاد الحرب وآلة الصراع .

على هذا قرأه ، وانتهى به التفكير إلى ضرورة فضهم عنه راضين ، ولم يكن ميسوراً أن يفوز بثقتهم فيه ، ولا بركونهم إلى كلمة يزوجها بحمل إليهم عزمه على إجابة ما يطلبون . . . إن أكداً من الوعود القديمة تنف حائلاً دون هذه الثقة ، عالماً منها برمته يفصلهم عنه . . . ولكن ساعة المحنة جذيرة بأن تجلو ذهنه وترده صافياً تنعكس عليه الحقائق واضحة بغير إبهام . ولم يكن ثمة من وسيلة تؤيد وعده الجديد وتمهيه قوة ينفذ بها إلى قلوب الناس إلا أن يسوقه إليهم رجل يشقون به ، له شخصية أخاذة وكلمة تقاذه إلى تلك القلوب ، ولقد نثر عثمان ذلك اليوم كنانة الرجال ، وراح يتخير من بينهم أقوام على المهمة وأحرامم بإنجازها على الوجه المطلوب . . . وأنسته اللحظة العصبية هواطته الشخصية ، ووشايات أهله ، فارتد رجلاً آخر يتبلج أمامه نور الحق وهو ينزع الخطأ إلى دار على مستتراً بالليل .

والتقى الرجلان التقى المدفوع إلى الظلم بالصاحب القديم — بالفريم الجديد المظلوم وقال إذ ذاك عثمان :

« يا ابن هم إنه لبس لي مترك . وإن قرابتي قريبة ولي حق عظيم عليك . وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم ، وهم مصبحي . وأنا أعلم أن لك عند الناس قدراً ، وأنهم يسمعون منك . فأنا أحب أن تركب إليهم فتدفعهم عني ، فأني لا أحب أن يدخلوا علي ، فإن في ذلك جرأة وليس معك بذلك غيرهم . . . » .

فتلفت نحوه على يرمقه برهة . إن شيئاً جديداً يلوح في وجه الشيخ . عاطفة جديدة بدت إلى جوار لهفته إلى النصرة كأنها الرغبة المضطربة لإيقاظ عزم يوشك أن تتحدث به عيناها ؟ . .

ولال على وهو يريد أن يستوثق منه :

— علام أردم ؟

— على أن أصير إلى ما أشرت به على ورايت لي ولست أخرج من يدك . ولكنها لم تكن الأولى مع ذلك ، بل سبقتها نوايا طيبة كثيرة طالما أبدتها الخليفة لشعبه ثم عدل عنها بغير ما مسوغ للعدول ولم يكن وعده الجديد هذا بوعدة اليتم . . .

وأثناء على الأثر الرأي السافر الصريح :

— إني قد كنت كلمتك مرة بعد مرة ، فكل ذلك تخرج فتقول ، وتمتد

ثم ترجع . وذلك كله فعل مروان وسعيد وابن عامر ومعاوية أطعمتهم «وعصيتني» — فأني أعصيتهم وأطعمك .

وقبل على أن يركب إلى الثوار فيحدثهم ليرجموا عن الشيخ بعد أن بافت له حرارة التوبة في ألفاظه . وخرج وعمر بن مسلمة ، وطائفة من الأنصار والمهاجرين إلى ذي خشب ليحدث الناس . وأمر الخليفة نقرأ من أصحابه وأهل بيته ليصحبوه . وأمر أيضاً سعد بن أبي وقاص ليكون رسوله إلى عمار ابن ياسر على أن ينضم عمار إلى وفد التوفيق ليكون عوناً له بعد أن كان من

معارضيه .. بدا عثمان في هذا حريصاً على أن يكسب إلى جانبه كل خارج عليه .
ولكنه كذلك بدا معشككا كثير الريب في أصحابه وإن كانوا من الساعين
بالإصلاح بينه وبين غيرهم من مخالفيه فاكاد ينطلق سعد في مهمته حتى
بعت كثير بن الصلت الكندى في أثره ليرى كيف يكون الموقف بين
الرجلين ، وليعلم في خفية مدى إخلاص رسوله للرسالة التي وكلها إليه ، وهل
هو حقاً سيعرض مهادراً له أم يرضه عليه ! . . .

وجلس الرجلان يتحادثان ، ووقف كثير بنجوى من عيونهما متجسسا
يرهف السمع ... قال سعد :

— يا أبا اليقظان ، ألا تخرج فيمن يخرج ؟ .. هذا على يخرج ققم معه
واردد هؤلاء القوم عن إمامك فأني لأحسب أنك لم تركب مركباً هو خير منه ..
وتفكر مزار برهة ، والتقطت أذنه حركة خفيفة خارج داره فارتاب في
الأمر . . . وانطلق خفيفاً إلى تفرقة الباب فإذا عين هناك تقرب فما أسرع أن
مد يده بقضيب من خلال الثغرة ردت ذلك الجاسوس بصرخ وهو يفر من
المكان وخلفه كلمات مزار الهادرة نشيعة :

— يا ابن أم قليل ! . . . أعلی تطلع وتستمتع حديثي ؟ . . . والله لو دريت
لغات عينك !

ثم انثنى غاضباً إلى سعد يقول له

— والله لا أردهم عنه أبداً ...

وفسد الأمر الذي أقبل فيه ابن أبي وقاص . وضاع جهده ، ثم لم يلق
من عثمان غير الريبة والاثم . . .

ولكن علماً نجمع في مهمته الكبرى ، وأثر اللقاء بينه وبين الثاثرين ثمرته
المرجوة . فلم يلبثوا أمام سحر حديثه أن لانوا له ، وصفت قلوبهم على الخليفة .
ولما أن تهيأ على وصحبه للعودة ، أقبل ابن مسعدة على بضعة نفر من زعماء
المصريين يحذروهم الفتنة وينهاهم ثاوية عن عثمان . . . قال .

— ... إن في قتله لاختلافاً عظيماً ، فلا تكونوا أول من يفتحه ،
ولسوف ينزع عن الخصال التي نعتتم منها عليه ، وأنا ضامن لذلك .
قالوا :

— وإن لم ينزع ؟

— فأمركم إليكم .

وقام عنهم ليلحق بوفد التوفيق العائد إلى المدينة ، فهتف به ابن عديس :
— ألا توضحنا يا أبا عبد الرحمن بحاجة ؟

فالتفت إليه وقال ثانية يحضهم على الاستمسك بوعدهم الذي قطعوه
لابن أبي طالب منذ قليل :

— تتق الله وحده لا شريك له ، وترد من قبلك عن إمامه فإنه قد وعدنا

أن يرجع وينزع .

— إني فاعل إن شاء الله . . .

٢

قال على حين عودته لعثمان يبصره بالموقف ، ويشير عليه بالعلاج الذي
يراه حائلاً دون قيام فتنة جديدة بعد أن أنطفت فتنة الصريين :
— يا أمير المؤمنين . . . تكلم كلاماً يسمعه الناس منك ، ويشهدون
عليه ، ويشهد الله على ما في قلبك من الزوع والإثابة . فإن البلاد قد تخضعت
عليك فلا آمن ركباً آخرين يقدمون من الكوفة فتقول : يا على اركب إليهم ،
ولا أقدر أن أركب إليهم ولا أسمع عذراً . . . ويقدم ركب آخرون من البصرة
فتقول : يا على اركب إليهم . . . فإن لم أفعل رأيتني قد قطعت رحلك
واستخففت بحقك .

ثم جاء محمد بن مسلمة على الأثر فقال له هو الآخر يحذره ويبصره :

— . . . الله الله يا عثمان في نفسك ! . . . إن هؤلاء القوم إنما قدموا يريدون

دمك ، وأنت ترى خذلان أصحابك لك ، بل هم يقودون عدوك هلك . .
 فتفكر عثمان . إن الحقائق واضحة أمامه تحدث عن نفسها في جلاء .
 ولقد صدقه إذن على . وصدقه أيضاً ابن مسلمة ، لأن كثيراً من كبار رجال
 المدينة لم يدعوا له يدأ معينة في ساعة المحنة كأن ضياع أمره كان أمنية تجول في
 قلوبهم . . وما أحسبه في هذا المقام إلا استعرض أمام عينيه كيف غاب عن
 نصرته اليوم طلحة والزبير وكثيرون من أعلام الإسلام لولا أن بادر ابن
 أبي طالب فوقف إلى جانبه ثم رد التأثير عنه . .

وقام الشيخ إلى المسجد . أيقن الآن أن وعد اليوم ليس له ما بعده إلا
 القضاء . . وأن نصيحة على جديرة بأن تجنبه كثيراً من المتاعب التي لعلها
 تنتظر فرصتها لتنتلق . وأن كلمات قلائل لينة كفيلة بأن تجمع حوله ثانية
 قلوب أمته وتفتح في حياته السياسية صفحة نقية . . لذلك سارع بعمل بمشورة
 ابن أبي طالب . فوقف على المنبر يخطب الناس خطبته التي أعطاها فيها الحق
 من نفسه ، ويزرع ثائلاً عما سلف منه . . قال :

« . . إني منتنى نفسي وكذبني ، وضل عني رشدي . ولقد سمعت رسول
 الله يقول من زل فليتب ، ومن أخطأ فليتب ، ولا يتمادي في الهلكة ، إن من
 تمادى في الجور كان أبعد من الطريق . . »

ثم رفع يديه ووجهه إلى السماء ، وانطلقت عيناه تجودان بدمعه حتى
 اخضلت به لحيته وهو يتجه بالدعاء إلى الله :

« اللهم إني أتوب إليك ، اللهم إني أتوب إليك ، اللهم إني أتوب إليك » .
 وكان في ابتهاله حرارة ، وفي كلماته صدق ، وعلى قلمات وجهه مسحة من
 الظهر ساحرة أكسبتها الدموع رقة ودت معها قلوب سامعيه أن تخلف
 صدورهم ثم تلتف عليه . . وأجابته العيون من أنحاء المسجد . وجرى الدمع
 بيل كل وجه شهده في موقفه ذاك ، وصفت النفوس للشيخ حتى نسيت كل
 ما سلف منه وذكرت فحسب أنه شيخ هاض جناحه وليس يرى النصرة إلا في
 وحاب الله . .

وأردف من بعد يتم الحديث :

« أيها الناس .. مشي قد نزع وقاب ، وأنا أول من انعط . أستغفر الله مما فعلت وأتوب إليه . فإذا نزلت فليأتني أشرفكم فليروني رأيهم . فوالله لئن ردتني الحق عبداً لأستقن بسنة العبيد ، ولأذان ذلة العبيد ، ولأكون كالمرقوق إن ملك صبر وإن أعتق شكر . فإلى مذهب من الله إلا إليه أيها الناس لا بعجزن عن خياركم أن يدنوا إلى . فوالله لأعطينكم الرضا ، ولأزيدنكم على الرضا ، ولأنحن مروان وذويه ، ولا أحتجب عنكم ولئن أبت يميني لتتابعني شمالي . . »

وتفرج عنه همه حين فرغ من مقاله . وأحس أن القلوب النافرة قد أقبلت تمنو له . ودخل منزله ذلك اليوم وهو راض عن نفسه وشعبه ، لا تكاد تشوب قلبه على الناس شائبة من ضعف أو ريبة . . ثم أمر ببابه أن يفتح حتى يدخل عليه من أراد . .

كذلك كسب الشيخ بهذه الخطبة الرقيقة كسباً جماً لو عرّف كيف يستعين به ، وأوشك أن يثبت له أمره . ولقد تمت بينه وبين فئة من المصريين مقابلة أرضته عنهم وأرضتهم عنه حتى لقد قال :

« ما رأيت والله وفداً في الأرض هم خير لحوياتي من هذا الوفد الذين

قدموا على . . »

وأقرهم على ما طلبوه من خلع واليهم عنهم وتولية محمد بن أبي بكر عليهم ، وإباحة العطاء مستحقيه من المقاتلة دون أهل المدينة الذين لاقى لهم فيه إلا من بقي من أولئك الشيوخ أصحاب رسول الله . وأقروا له هم أيضاً بحقه عليهم ألا يخلعوا طاعته أو يناوئوه . .

غير أن الأهواء الشخصية أبت أن تدع الريح تسير رغبة طيبة . بل شئت أن تثيرها عاصفة هوجاء محتاجة تدمر . فما كان لأولئك النفر الذين ألفوا أن تسير الأمور في طريق مطامعهم أن يدعوها تنحرف عن ذلك الطريق الذي لا جدوى عليهم في غيره ما كان لأولئك الذين نعموا

بالسلطة أعواماً طويلاً ألا يتركوا سولجانها ينفلت من أيديهم ، وأن يخلوا بين
الناس وبين خليفتهم يلقونه ويلقاهم في خير ، ما دام صلاح ما بينهم لن يكون
إلا على حساب تلك الأهواء . . .

نظر مروان وذووه غب هدوء الحال فإذا عثمان راجح . وإذا الشعب أيضاً
راجح . وإذا الخاسر وحده هو مروان وذووه . . . إنهم النبوذون اليوم من كلا
الشعب والأمير . . . إنهم الضحية التي توشك أن تقدم رخيصة على مذبح
هذا الإصلاح ! .

وتربص الرجل الخاسر الذي أمضته مرارة الهزيمة . . تربص مروان ، الذي
جزع من ضياع نفوذه وسلطانه حتى حانت له لحظة موأتية اجتمع فيها بتلك
الشرذمة الجازعة كجزعه من بني أمية ، فانطلق بمجلسهم يوسوس في أذني
عثمان كأنه شيطان . . قال له وهو يحرص على أن يبدو في هيئة المشير
الأمين :

« يا أمير المؤمنين . . اتكلم أم أصمت ؟ »

ولكن نائلة زوج الخليفة كانت أقرب إلى شفافية النفس في تلك الساعة ،
فالهمت أن الشر كل الشر فيما سيتكلم به مروان . . لم تنتظر لحظة واحدة . ولم
تدع لهذا الدساس الطامع فرصة لبث سمومه ، بل بادرت تسد عليه سبيل الكلام . .
صاحت به :

« لا بل أصمت ! . . لأنتم والله قاتلوه وميتموا أطفاله . . إنه قد قل مقالة لا ينبغي

أن يترع عنها . . »

فتار الغضب في جوانح مروان على هذه المرأة التي توشك أن تفسد عليه
تدبيره . وأعماء حتى عن واجب التظاهر بإجلالها في حضرة سيده وولي نعمته
حتى لقد قال :

« وما أنت وذاك ؟ . . فوالله لقد مات أبوك وما يحسن أن يتوضأ ! »

فلا يعجزها النطق الذي لا يعجز في مثل هذا الوطن أمثالها من النساء
وانبرت ترد عليه .

« مهلاً يا مروان عن ذكر أبى إلا بخير . أنخبِر عنه وهو قائب وتكذب عليه ؟ .. أما والله لولا أن أباك عم عثمان وأنه يندله غمه لأخبرتكَ من أمره بما لا أكذب عليه ! .. »

وبهت الرجل . وأصابه الحصر من لسان امرأة .. على أنه ما كاد يخلو إلى الخليفة ثانية حتى راح يتنهداً للوفية التي فوتتها عليه نائلة . . أقبل وهو يصطنع الولاء والإخلاص ويبدو كمن يريد إرضاء الرأى الراجح السديد، فقال :
« بأبى أنت وأمى يا أمير المؤمنين . . والله لوددت أن مقاتلتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع فكنت أول من رضى بها وأعان عليها ، ولكنك قلت ما قلت وقد بلغ الحزام الطبيين ، وخلف السيل الزبى ، وحين أعطى الخطة الدليلة الدليل .. والله لإقامة على خطيئة تسعفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها ! فما زدت هلى أن جرات الناس عليك .. »

فتردد عثمان . ماذا لو كان فيما بسطه صاحبه علائم كثيرة من الصواب ؟ ..
ومس الشيخ المتخاذل في استحياء :

— قد كان من قولى ما كان ، والفائب لا يرد ، ولم آل إلا خيراً ..

— إن الناس قد اجتمعوا يبابك أمثال الجبال . .

— فما شأنهم ؟

— أمت دعوتهم إلى نفسك . فهذا يذكر مظلمة ، وهذا يطلب مالا ،

وهذا يسأل نزع عامل . .

وسكت عنه وإن كانت نظراته ملأى بعمائى التوجيه والإيحاء ..

وقال عثمان بعد قليل :

— .. إنى أستحى أن أردم . . فأخرج أنت إليهم فكلهم .

وكانت هذه هى اللحظة التي ترقبها مروان ، واشتاق أن ينتهز سانحتها

قبل أن تفوت فيضيع من يده كل الأمر ، ويفدو الضحية الرخيصة التي يقدمها

عثمان على مذبح إرضاء رعاياه . .

خرج من الغرفة مزموأً بنصره ولو علم لعرفه نصرأً أهون شأنأً وأمعن في استجلاب الشر من كل هزيمة وخسران . ومضى إلى شرفة الدار يلقى بينصره على الجموع التي ازدخرت بالباب كالعباب . فلما أن وسمه أن يجتر هنيهة شماتته بهم ، ويفرق فهو ملامح وجهه كلها بألوان السخرية والازدراء ، صاح بهم في جفوة وخيلاء :

« ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جثم لنهب ؟ .. شامت الوجوه ! .. آريدون أن تزرعوا ملكنا من أيدينا ؟ .. أغربوا عنا ، فوالله إن رمتونا لنمرن عليكم ما حلا ، ولنحلن بكم مالا يسركم ولا تحمدوا فيه غب رأيكم .. إرجعوا إلى منازلكم فإننا والله غير مغلوبين على ما في أيدينا .. »

وعاد وقد خلف للناس مرارة في النفوس كادت أن تتذوق طعمها الشقاء ، وحقدا على وليه سرعان ما عرف طريقه إلى الهدم وإن نجا من معوله هذا الجهول مروان ، وأصاب ضرباته القاصمة ذلك الشيخ المظلوم عثمان . . . مضى الناس عن الدار حيارى . خاب أملهم وغلبت دهشتهم كل ما سبق من إحسانهم الظن بالأمير . فما يمثل هذه السرعة يمكن أن يكون نقضه الوعود . .

ولكنهم لم يتوبوا إلى نفوسهم من الدهشة الغالبة حتى أحقوتهم ثانية دهشة جديدة أزرت بكل حيرة سابقة وبكل ما تستطيع أن تتنبأ به الخواطر والظنون . فلقد صعد الشيخ إلى المقبر كأنما ليقطع عليهم الشك باليقين ، وراح يخطبهم بأسلوب مشبه وعلى السن الذي صوره له فقال :

« أما بعد أيها الناس ، إن هؤلاء القوم من أهل مصر كان بلنهم من إمامهم أمر فلما تيقنوا أنه باطل ما بلنهم عنه رجعوا إلى بلادهم . . »

فبأي لسان كان يتحدث عثمان ؟ .. ألحسب أن كلماته تلك كفيلة بأن تحجب عن الناس حقائق الحال ؟ .. ولكنه في كل سني حكمه كان مقودا بيد مروان وبقي الزمام كما كان حتى وصل به إلى أسوأ ما تنتهي النهايات . وصاح من أحد جوانب السجد صوت مستنكر يقطع عليه الخطاب .

إنه ابن العاص يهتف به في احتقار شابه الغضب لنفسه قبل الفيرة على صوالح مواظبيه :

— اتق الله يا عثمان . . . إنك ركبت أموراً ودكبتهاها معك ، فتب إلى الله تنب . . .

فقله وجه الشيخ وثار به :

— وإنك ما هنا يا ابن النابغة ؟ . . قلت والله جبتك منذ تركتك من العمل ! . .

ولكن المسألة في عين الناس كانت قد عدت طور الخلاف على الشخصيات وأصبحت جلاداً على شأن عام يأباه عايهم عثمان . فما كادوا يلقفون كلامه حتى ضج المسجد بمن فيه ، وجاءت كلمات الإنكار من كل جانب حتى غرق في لجتها صوت الشيخ الواهن الضعيف .

ولغطت المدينة بما كان . وتحدثت بسقطة الخليفة وحمالة مروان . وانطلق الناس إلى طلي يشكون إليه فأسرع غير مصدق إلى المسجد يريد أن يستوتق . . فلقية هناك عبد الرحمن بن الأسود . .

قال على يسأله وقد عرف أنه يعلم قصة الأمر :

— أحضرت خطبة عثمان ؟ .

— نعم .

— أحضرت مقالة مروان للناس ؟ .

— نعم .

فضرب الرجل كفاً بكف وقال وهو آسف حزين :

« عياذ الله ! . يا المسلمين ! إني إن قعدت في بيتي قال : تركتني

وقرايتي وحق . وإني إن تكلمت فجاء ما يريد لعبي به مروان . . لقد صار

سيقة له يسوقه حيث شاء همد كبر السن وصحبة رسول الله » .

ثم انطلق من فوره مغضباً حتى دخل على عثمان فقال له :

« أما يرضى مروان منك إلا أن يحرفك عن دينك وعقلك ؟ لأنت منه

كجمل الظمينة يقادحيث يسار به ! والله ما مروان بذى رأى في دينه ولا عقله ،
وإني لأراه يوردك ثم لا يصدرك . . وما أنا بمائد بعد مقامى هذا لمعاتبتك .
أفسدت شرفك وغلبت على رأيك » .

وخرج بغير تريث . ودخلت على الأثر نائلة . فإذا زوجها منقبض حزين
كأنما ينزاعه الأسف على ما بدر منه بعد أن تبين سوء المورد الذى قاده إليه
مروان ، وأيقن بالخطر الداهم الذى يوشك أن يحمى به . وقالت المرأة الوفية
الذكية تدلى بالرأى الذى تعلم أنه كفييل بكشف الغمة ورفع الملة :
« قد سمعت قول على لك ، وأنه ليس براجع إليك ، وقد أطمت مروان
يقودك حيث يشاء » .

فألقى ببصره إلى الأرض هنيهة يفكر ، ثم رفعه فبانت لها منه نظرة
مغلوب مهيب ، وهو يحدثها بصوت مازجت فيه نبرات الحيرة لطفة السؤال :
— فما أصنع يا نائلة ؟ .

— تقضى الله ، وتتبع سنة صاحبك ، فإنك متى أطمت مروان قتلك ،
وليس لمروان عند الناس قدر ، ولا هيبة ، ولا محبة . فإنا تركك الناس لمكانه .
وإنما رجع عنك أهل مصر لقول على . فأرسل إليه فاستصلحه ، فإن له عند
الناس قدراً ولا يعصى .

غير أن علياً كان قد بذل للناس من ماء وجهه مع وعود عثمان ما لم تعد
بعده بقية لبذل . فقال للرسول الذى جاء من قبل الخليفة يطلبه :
— قل له ما أنا بداخل ولا عائد ! .

وكأنما كان لمروان عيون بين الشيخ وزوجه تنقل له ما يتساران به . .
مالبت هذا الشيطان أن أسرع إلى الخليفة خشية أن يكون فى استصلاح على
ضياح أمره ، فقال له :

— يا أمير المؤمنين . . إن نائلة بنت القرافصة . . .

فلم يصير عليه عثمان فى هذه المرة ، بل ثار به يقاطعه وقد أيقن من
سوء نيته :

— لا تذكرنها بحرف فأسوى لك وجهك ! ... إنها والله أنصح لي منك ...

على أن نتيجة اللقاء بين علي وبين الرسول قد خيت أمه . وأوشكت أن تذهب بالبقية الباقية التي مازالت تتعلق بها نفسه . وسكت الشيخ على هم . وطوى في قلبه مرارته . وتلبث مضطرباً لا يدرى أين ينشد النصرة ولا النصيحة الرشيدة ، وهذا ابن أبي طالب قد أدار له ظهره . حتى إذا دخل الليل ، ونشر سواده على الكون كالستار ، رأى بقية من أمل تلمع في أفقه . فاستطيع أن يوقن أن علياً يخلّصه أو يتنكر له . . . وانطلق في هدأة المساء يقطع دروب المدينة ، ويسير فيها حائراً مقسراً بالظلمة . وأشرف من بعد على الدار المنشودة . على الجمعة التي لا ريب تنضم على دواء دائه . طرق الباب ودخل على استحياء . واستقبله على هناك بما يحمل به وإن بانت على حياه آثار غضبته الأولى عليه . وراح عثمان يبسط له الموقف ويلقى بعذره ، ويحاول جاهداً أن يستهديه وهو لا يكف من بعد عن بذل الوعد تلو الوعد . . .

ونظر ملياً إليه على . بدا كأن لا جدوى من وراء نصحه فليس الرجل بسيد نفسه . ولا قضاء لوعد بسوقه لأنه لم يعد يملك القضاء . إنما لسانه وحده هو الطليق ثم على فكره وعلى يديه رقباء ! . . . وقال أبو الحسن أخيراً وهو لا يستطيع أن يخدعه :

« أبعد ما تكلمت على منبر رسول الله ، وأعطيت من نفسك ثم دخلت بيتك تخرج مروان إلى الناس يشتتهم على بابك ؟ » .

وبانت عزيمة التصميم في وجهه . وبدا للشيخ أنه اليوم أمام قرار حاسم لا مرد له . وازدخرت في نفسه همومه . وجاورتها أيضاً شكوكه وريبه وهو يذكر ما كان يحدثه به أهله عن علي : « لو شاء لما كلمك أحد » . . . ولكنه الآن لا يشاء . . . وحضرته أيضاً مواقفه منه ، وشدة عليه كلما استهداه . لكن أن كلمات مروان هذه صدقت فيه :

« هكذا يستقبلك وأنت إمامه وسلفه وابن عمه ... فما ظنك بما غاب
عنك عنه ؟ .. »

وأوسعت له الذكرى في الاستراية . وأحس بقلبه تقبضه يد قاسية مدها
خذلانه . فقام عنه متهافتاً يقول :

« خذلتني يا أبا الحسن وجرأت الناس على » .

فالمعجب له ! .. لا يزال دم خطيئته على كفه ثم يلتقي بوزرها على كاهل
سواه ... وأجاب على وهو يشيعه إلى الباب :

« والله إنى لأكثر الناس دفعاً عنك ، ولكنى كلما جئت بك بشىء ، أظنه لك
رضا ، جاء مروان بغيره فسمعت قوله وتركت قولى ... »

فلم ينبس الشيخ ، بل مضى مطرقاً بلا كلام . وغاب هيكله الضاوى من
عينى ابن أبى طالب . ولكنى أحسب تلك العينين قد غامتاً برهة وهما تنظران خلفه
في جوف الليل ...

٣

اضطربت خواطر أهل المدينة ، وقلق بالهم ، وملك نفوسهم بأس جامع
من إصلاح خليفتهم بعد ما سمعوا منه ومن صاحبه مروان . ثم لعلمهم
أوشكوا أن يروا بعيون الخيال بوادر العاصفة التى همت أن تتجمع في أفق
البلدة .

ولم يكونوا يأسون على مصير الشيخ . ولا مالت نفوسهم إلى الرثاء له .
لو أنا عنيينا بإحصاء محبيه إذ ذاك لما جاوزوا عدة الأصابع . ثم لنحسبهم
بضعة من الخاصة لم يربط بينهم وبينه وفاء بل استعبدتهم له الهبات والأفواء ..
أما الإجماع فقد انطوت قلوبهم على النعمة منه . لعلمهم اقتنعوا اليوم بضرورة
مخالفة هذا الخليفة الذى لاح دائماً كالحريص على إغضاب شعبه لحساب
أهله ... لعلمهم رأوا صلاح الحال في تنحيته عن الطريق ليستقيم شأن أمته ..

لعلهم جنحوا لأهواء لهم بتحقيقها رهن بالخلاص منه . . على أى جال ضمت
البلدة زمراً من كل أولئك وهؤلاء تحالفوا عليه .

ولم تخل أيضاً من عيون لأصحاب الثورة بثوها عسى أن تنقل لهم ما يجد
بها من حركات بين حين وحين . فما نزل عثمان عن المنبر بعد أن نقض عهده
حتى انطلق جاز له إلى القوم ، وهو عمرو بن حزم أحد رجال الأنصار . ذهب
ليخبرهم بما كان من عثمان . فما انقضت أيام حتى جاء النبأ بأن المصريين عادوا
ثانية إلى ذى خشب وبعضهم بالسويداء .

أفكان أولئك الثوار قد ارتدوا حقاً عن ضواحي المدينة وركبوا الطريق
إلى بلادهم بعد حديث على وابن مسلمة ، أم هم يا ترى تلبثوا بمكان قريب حتى
يعلموا ما يكون من أمر عثمان ؟ . . . أغلب الظن أنهم ، وقد فقدوا الثقة
في وعوده ، تنظروا ببعض الطريق حتى يأتيهم من ينبئهم بحقيقة الحال .
فإما وفاء من الشيخ وصدق توبة فترحل جموعهم ، وإما نقض كما عودهم
فتكر إليه .

وربع عثمان . واختلط عليه أمره . وألقى يبصره على أصحابه وقد أوشك
الخطر أن يحدق به فما وسعه أن يرسل ثانية إلى على بعد ما سلف منه في حقه .
بل حسب الخبر عند محمد بن مسلمة ، فأرسل إليه عساة أن يكون أرفق به
وأحنى عليه .

قال له :

— يا أبا عبد الرحمن ، هؤلاء القوم قد رجعوا ، فما الرأي ؟

فقلب ابن مسلمة كفيه حيرة وأجاب :

— والله ما أدري . إلا إني أظنهم لم يرجعوا لخير ! .

— فارجع إليهم فارددهم .

فهمتف الرجل مسفكراً :

— لا والله ، ما أنا بفاعل ! .

— ولم يا أبا عبد الرحمن ؟ .

— لأنني ضمنت لهم أموراً تنزع عنها فلم تنزع عن حرف واحد منها . فلا والله ، لا أكذب الله في سنة واحدة مرتين ! .

فسدت أمامه جميع المسالك أو كادت بعد أن أبى عليه هذا الرجل مطلبه . ليس له من سبيل إلى آخر غيره من أصحاب رسول الله . . . فلم ؟ . . . وكيف لم يدر بخاطره أن يلجأ إلى سعد ؟ . . أما زالت نفسه تحمل الشكوك منه ؟ . . وأين ذهب عنه طلحة بن عبيدالله ؟ . . . وفيه سكوتة عن طلب النصرة على يد الزبير ؟ . . . كلاً أطلق المرء لتساؤله العنان ارتد به التساؤل ثانية إلى نقطة البداية ، ووقف حسيماً لا يستطيع أن يرى لهذا كله إلا معنى واحداً ليس له سواء هو أن الشيخ أبقن أن النصرة لا تأتيه من هذا الاتجاه ! . . .

واستمعى الحل على ذهنه المكبوه . وزاد من متاعبه أن أهل الديانة أنفسهم لم يترفقوا به في هذه الهنة النازلة . فقد جاءه من لدنهم كتاب يحتجون به عليه ، ويقسمون فيه ليقتلنه أو يعطيهم ما يلزمه من حق . . . بدوا كأن قد وجدوا ظهيراً لهم عليه بعد هردة الثوار .

وجمع الشيخ مشيريه من أهله وقد عجز أن يجد في غيرهم المشير ، وقال لهم عسى أن يجيئوه بالنصيحة :

— قد صنع القوم ما قد رأيتم ، فما المخرج ؟

فأجابه مروان :

— يا أمير المؤمنين ، مقاربتهم حتى تقوى أمثل من مكابرتهم على القرب . فأعطهم ما سألوك ، وطاولهم ما طاولوك .

— إنهم لن يقبلوا التمليل . وقد كان مني في قدمتهم الأولى ما كان . فمضى أعطهم فمض يسألوني الوفاء به .

— إنما بغوا عليك فلا عهد لهم . . . فأرسل إلى علي أن يردهم عنك ، ويعطيهم ما يرضيهم حتى تأتيك أمدادك . . .

فبش النصيح لا ينطوى إلا على خلف للوعد بعد خلف ! . . . ولكنها

النفسية الأموية التي تستعين دائماً بالغدر والدهان نضحت بها عقوبة مروان ! ..
وأقبل على من بعد يستجيب لدعوة الخليفة وقد علم أنه أصبح في حال توجب
الدفاع عنه . . . حتى إذا استقر المجلس بالرجلين قال عثمان :

— يا أبا الحسن ، إنه قد كان من الناس ما قد رأيت ، وكان مني ما قد
علمت ، ولست آمنهم . على قتلى ، فارددهم عني فإن لهم الله عز وجل أن أعطيهم
من كل ما يكرهون ، وأن أعطيهم الحق من نفسي ومن غيري وإن كان في
ذلك سفك دمي . . . »

قال له مترفقاً وهو يصعده بحقيقة الحال :

— يا أمير المؤمنين ، الناس إلى عدلك أخرج منهم إلى قتلك ، ولكني
أرى قوماً لا يرضون إلا بالرضى . لقد كنت أعطيهم في قدمتهم الأولى عهداً
من الله لترجعن عن جميع ما تقموا منك ، فرددتهم عنك ، ثم لم تف لهم بشيء . . .
فلا تغرنى هذه المرة فإني معطيهم عليك الحق .
— فأعطهم يا أبا الحسن ، فوالله لأفين لهم .

وخرج ابن أبي طالب من لدنه ، فإذا طوائف من الثوار تقبل عليه بمد
أن سعت تلتهمه في كل سبيل وقرأ في وجوههم علام حنق جاثق ، وفي
عيونهم ومضات غضب جبار ، ولكنه لم يعن بمعرفة أسباب الفورة النفسية
التي كانوا يعانونها إذ ذاك بقدر ماضق صدره بنقضهم وعدم له بالارتداد
والرحيل .

قال مستنكراً وقد قاربوه :

— ما ردكم بعد ذهابكم ورجوعكم عن رأيكم ؟

فأجابه متحدث من المصريين :

— أخذنا مع بريد كتاباً بقتلنا .

وسلموه الوثيقة التي عثروا عليها مع خادم للخليفة أوشك أن يجتاز بها

الصحراء إلى مصر لولا أن صادفوه ، وعجب على دون أن ييئس لهم ،
فهذا كتاب عثمان لعاملهم ، يأمره أن يقتل منهم ثلثاً ويحبس آخرين ،

وكانت علامتُ القدر واضحة في الكلمات . وهذا خاتم الشيخ على الكتاب ،
وهذا خادمه أيضاً بعد أن أمسكوا به قبل أن يقطع شوطه ، ويرم لهم
أسوأ مصير .

وتفكر أبو الحسن ملياً في الأمر . . . وأدار بصره بحذر في القوم وفيمن
تراحم حولهم من الناس . . . ها هنا طلحة يحدث نقرا من المصريين . . .
ونعّة الزبير يحدث نقرا من الكوفيين . . . وفي لحظة خاطفة كومض البرق قفز
خاطر إلى ذهن علي ، فهذه ثغرة يستطيع أن ينفذ منها شكه .
قال وهو يحيل عينه في أنصار صاحبيه :

— وأنتم فيم جئتم ؟

فأجابوه :

— لننصر إخواننا هؤلاء ، ونخضعهم .

فأسرع أن صاح بهم وهو يرمق متحدث البصريين بجانب عينه :

— وكيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد

سرتهم مراحل ! .

فبهتوا واستمعى عليهم أن يثبتوا لحجته ، لعلمهم كانوا قد أجموا الرأي على
الوقوف ببعض الطريق بعد أن تظاهروا أمامه أنهم تهيأوا للرحيل . . . لعلمهم
لم يأمنوا أن يتركوا الشيخ قبل أن تبدو لهم بادرة تطمئنهم على إنقاذ وعوده .
لعل بعض عيونهم بالمدينة قد علموا بأمر هذا الكتاب وما انطوى عليه من
الكيد لهم فأبلغهم عنه فكان أن تربصوا بالرسول . . . إن فرضاً من هذه
الفروض يفسر هودة القوم مجتمعين وكان كفيلاً بأن يلقي ضوءاً على القصة
لولا أنهم شاءوا — لأمر من الأمور — أن تظل مجهولة التفاصيل . أما وقد
رآهم على يلودون بالصمت فلم يسعه إلا أن يقول :

— هذا والله أمر أبرم بالمدينة . . .

فأزادوا على أن أجابوه في تبرم وضيق :

— فضعوه على ماشئتم ! . . . لا حاجة لنا في هذا الرجل ، فليعزلنا .

ورأى منهم الجذ والتصميم فراح يحاورهم ، ويعمل جاهداً ليوفق بينهم وبين الشيخ . ولعله راح يعتذر عنه بأنه مظلوم . وأن العدو المائل في سطور الكتاب أولى بأن تلضح به غير نفس عثمان . . لعله قال هذا وكثيراً مثله وهو لا يعلم أنه هو الآن مطية لغدر جديد . .

وقال لهم أخيراً وقد أنس فيهم الميل إلى الاستماع له :
 « . . إنكم إنما طلبتم الحق أيها الناس ، فقد أعطيتهموه . . إن عثمان منصفكم من نفسه ومن غيره ، وراجع عن جميع ما تكرر هون فاقبلوا منه . . »
 فأجابوا وقد لانت نفوسهم ثانية للشيخ :
 « قد قبلنا . فاستوثق لنا منه فإننا والله لا نرضى بقول دون فعل » .
 « على ذلك لكم » .

وتم الاتفاق بين علي وعثمان على أن يجيب هذا مطالب الناس ، ولا يتركها اليوم وعودا لا تساوى حروف الكلام الذى ينطق بها بل ينجزها على الفور ويخرجها إلى حياة الأفعال . . وقال عثمان يستمهل :
 « يا أبا الحسن ، اضرب بيى وبينهم أجلا يكون لى فيه مهلة ، فإنى لا أقدر على رد ما كر هو فى يوم واحد » .

« ما حضر بالمدينة فلا أجل فيه ، وما غاب فأجله وصول أمرك » .
 « فأجلنى فيما بالمدينة ثلاثة أيام . . »
 فكتب له ههداً أجله فيه ثلاثاً على أن يرد كل مظلمة ، ويمزل كل عامل كرهوه . ثم أخذ عليه ميثاق الله أن ينى بوعدده ، وأشهد عليه أناساً من الأنصار والمهاجرين . .

وكف الناس عن الخليفة . واطمأن بال المصريين فمسكروا بذى خشب ينتظرون أن تأتيهم أنباء المدينة بإنماذ العهد . وصفت النفوس كلها ، أو هى تجردت حيناً من أضغائها واتجهت إلى المستقبل متفتحة للرجاء . ولكن فئة قليلة ظلت وحدها طاوية قلوبها على الضغن ، تشحذ همها للكيد وتود لو أسففتها هذه المهلة القصيرة بإنفاذ خططها الغادرة . . . أولئك كانوا بطانة

عثمان وعلى رأسهم مروان مشيره وصاحب الكلمة السموعة لديه . فلتقد سل الرجل سلاح غدره ، ومضى يجيش القوى التي يستعين بها على القصاص من أوائك الذين أرادوا أن يسلبوه سلطانه . كان كل همه أن يحفظ على نفسه وأهل بيته أبهة الحكم والصولة التي حلم بها أجيالا طويلة ذروه من بنى أمية . وماونه في مهمته تفر من أهله لأن قضيته قضيتهم ، ولأنهم خشوا هم أيضاً أن تضيع هيبتهم المكتسبة من تقبض أيديهم على الصولجان .

أما الخليفة فقد ظل مغمض العينين عما يدور حوله كأن الأمر كله لا يعنيه في قليل ولا كثير . وجلس هادئاً يرقب سياسة مروان التي رسمها لفض الأزمة عنه . بل لعله كان مطمئن النفس واثقاً من خطة صاحبه أشد وثوق . أفلم يقاربهم حتى يقوى ويبذل لهم من الوعود ما يسكتهم عنه ؟ ولقد وعدهم فسكنوا ، واتخذ من ابن أبي طالب مطية لهذا السكون . والرأى عنده أنهم لن يلبثوا حتى يتفرقوا عنه كما فعلوا من قبل مرات ومرات . وكان مروان في الحق رجلاً لا يستطيع منصف إلا أن يشهد بحمته إذ ذاك . فقد أوغل في الأخطاء وفي التحدى وهو يحسب القوم أهون من أن يصلوا إليه . وبدا مستصغراً لشأنهم يحمل أميره على التسويف والطل كما يشاء . فمن عجب أن تكون هذه خطة يقره عليها عثمان مع ما انطوت عليه من الغدر وتقص ميثاق الله الذي أخذه الشيخ على نفسه . ولكنهم — فيما حدثه مروان — كانوا قوماً باغين فلا عهد لهم عاينه !!

وانقضت المهلة كما بدأت ، فلا مكروه تغير ، ولا عامل عزل ، ولا حق من حقوق الناس رد عليهم . لم تبدر بادرة من ناحية القصر تحمل الناس على إحسان الظن بساكنيه . ولغطت بالخليفة الألسن أولاً بالمدينة ثم جاوز اللفظ حدودها إلى منازل الثوار . وبات البناء ، الذي جهد على دائماً حتى أقامه ، مهدداً بالانهيار . ولكن مروان ظل مطمئن القلب كما كان ، لا تختلج له جارحة ، بل لعله كان يسخر في ضميره من تلك الجوع التي أغضبها تكث الوعود ، فما لغضبها ذاك من جدوى ولا أثر في تغيير سياسته ما دام قد أعيد

لها العدة وأحاط الدار بطائفة كبيرة من رقيق الخمس هياها وأحسن إعدادها بالسلاح . وإن هي — فوق هذا — إلا أيام حتى تصل الأمدات التي راحت الرسل تستمدّها من البلاد .

وكان النازلون بالضواحي قد أعياهم المظل وأمضهم طول الانتظار . فما هو إلا أن حزموا أمرهم حتى هجموا البلدة بجموعهم المجهزة . وانتشروا في نواحيها يعلّونها بالتهليل والتكبير ، وينادون أهلها أن كفوا أيديكم فتصيحوا آمنين . وهل كانوا بحاجة لهذا النداء وأهل المدينة من علم موقفهم من تصرف عثمان .

كذلك غدت البلدة صاحبة تمج بالجموع التي ملكها التضرع . وأشكل فيها الأمر على الناس فما يتبينون أملا في غد مقبل أو يوم قريب ، وباتوا من سياسة خليفتهم في ظلمة لا بصيص فيها من نور الرجاء ، ولكن الدفعة التي تأسر عادة نفوس أصحاب الثورات لم تأسرهم ، بل راحوا أميل إلى الهدوء والتريث . فما هجموا الشيخ الذي لعبت بهم وهوده ، ولا آذوا صاحبه الذي كان يتحين بهم القرص للإيذاء والنكال ، وإنما حكموا العقل في الأمر ، ومدوا في جبل اضطبارهم ما وسعهم أن يعدوه . ومضوا إلى الرجل الذي كان دائما الصلة بينهم وبين أمير المؤمنين ، وطالبا سكن من حديثهم وسخطهم عليه . . أجل ، فلم يكن لهم مفرع إلا إلى علي فراحوا يلاحقونه في كل مكان ؛ ويستفجزونه أن يني لهم بالوعود التي قطعها باسم عثمان . فما أشده موقفا لابن أبي طالب رمت به الأحداث ، كله حرج ، لا هو به يستطيع أن يقهر هذا على الوفاء ، أو يحمل على الرضا هؤلاء ! .

ومضى الناس إلى محمد بن مسلمة يحدثونه في الأمر وألم بهم الحديث على قصة كتاب عثمان إلى عامل مصر لينكل بهم ، فقال محمد لهم :

« وما يدريك أن عثمان كتب بهذا ؟ »

فأجابوه مستنكرين :

« فيفتات مروان عليه هذا ؟ . . فهذا شر . . فليخرج إذن نفسه من الأمر » .

ثم قالوا له :

« يا أبا عبد الرحمن ، انطلق معنا إليه ، فقد جئنا سعد بن أبي وقاص فأبى وقال لا أدخل في هذا الأمر ، وجئنا غيره فقال كما قال ، فانطلق معنا فقد كلنا عايًا فوعدنا إذا صلى الظهر أن يدخل عليه . . »

ووقفت جموعهم بباب عثمان في الموعد المضروب . ودخل على وابن مسleme على الشيخ فحدثوه :

« إن المصريين يا أمير المؤمنين بالباب ، فأذن لهم . . »

فهمت مروان كأن مرجع الأمر كاه إليه :

« دعنى — جعلت فداك — أكلهم . . »

فما أسرع أن صاح به عثمان :

« فض الله فاك ! . . ما كلامك في هذا الأمر ؟ . . اخرج عنى . . »

وأيقن ابن مسleme أن الكتاب بأمر مروان لأن القدر الذى نضج عنه هو أدنى إلى طبعه وما جبلت عليه نفسه . وأقسم الشيخ أنه ما كتب ولا علم ولا أمر ، فلما بان لهجة الصدق فى كلامه قال على :

« فأدخلهم عليك فليسمعوا عذرک » .

فكأنما استحيى أن يواجههم وهو على ما هو فيه من النكث وقلة الوفاء

بما بذله لهم من وعود ، فأجاب :

« يا أبا الحسن ، إن لى قرابة ورحما ، والله لو كنت فى هذه الحاقة لحملتها

عنك . . اخرج أنت إلى القوم فكلهمم فإنهم يسمعون منك » .

فأبى هذا عليه . حسبته ما فات من بذل ماء وجهه ، فاهم براضين من بعد

بأنف وعد ووعده . ورضخ الشيخ أخيراً وهو كاره لمشيئة على ، فأدخل

عليه الناس ، وطال بينه وبينهم النقاش فى قصة الكتاب ، وفى أحداثه ،

وفى عماله ، وفى تقضه التوبة المرة بعد المرة دون أن يقرن القول بالفعل ،

وعلى وابن مسلمة لا يني الواحد منهما يظاھرہ ویؤید جانبہ مرة بعد أخرى حتى انتهى الحديث بالناس أن جنحوا إلى القهول منه .
وقالوا له :

« .. فإننا لا نمجّل عليك وإن كنّا قد اتهمناك ، فاخلع عنا عمالك الفساق واستعمل علينا من لايتهم على دماننا وأموالنا ، وأردد علينا مظالمنا » .

وأحسبهم بهذا قد فاقوا كل مأمول ، ولكننا لا ندرى أى يد أمسكت بلسان الشيخ فأنحرفت به عن المفروض منه فى هذا المقام إلا أن يكون أحب أن يتحدث إليهم بلسان مروان ! .. أفلم يطلب ذلك الشيطان منذ قليل أن يتحدث عنه إلى القوم ؟ .. فكذلك كان ، وإن نطق لسان عثمان ! ..

قال الشيخ الغافل وقد ركبتة عزة المنصب فأنستبه الحكمة الواجبة فى هذا المقام :

« ما أرانى إذن فى شيء إن كنت أستعمل من هويتهم وأعزل من كرهتهم .. الأمر إذن أمركم ! »

فبهت القوم ، وطار على وصاحبه كيف تأتى لأمر المؤمنين أن يجيء هكذا بمنطق سقيم ، ولكنه على أى حال المنطق الذى يفسر نكث وعوده الكثيرة ومطله المتواصل لما أخذه به نفسه . وهل يشك الآن من يجب أن يتلمس للشيخ المعاذير فى أنه كان دائماً يقول وقد وطن نفسه على كل شيء سوى الوفاء ؟ ..

فما لبث أن أجابه ابن هديس بصوت هادى رهيب .

« والله لتعزلن ، أو لتقتلن ! .. فانظر لنفسك أو دع .. »

ووقع هذا الإنذار كوقع الصاعقة على نفس الصاحبين اللذين جاهدا لإقناذ الشيخ فأبى إلا أن يحرم نفسه ثمرة الجهاد . وراحا يرمقانه حساء أن ينىء إلى الحكمة ، ولكنه كان أسرع من لح عيونهم ما إلى الجواب ، فقال بعناد :

« لأن أقدم فتضرب عنق أحب إلى من أن أخلع قيصاً قصنيه الله .
 « فلسنا إذن بمنصرفين عنك حتى ننزلك ونسجد بك ، ولئن حال دونك
 من معك من قومك وذوى رحمتك لقاتلناهم حتى نخلص إليك فنقتلك أو تلحق
 أرواحنا بالله . . . » .

٤

تلبثوا ينتظرون أن تصل الأمداد لتكون رداء لهم من الناس ، فقد
 ساءت الأمور ، وتربص القوم بالخليفة الدوائر ، وأصبح كل يوم يمر يزيد
 نفرة الخلاف بينهم وبينه .

وكانت الرسل قد مضت بكتب للشيخ إلى الفواحي يستحث أهلها أن
 يسارعوا لنصرته ، ويكونوا عوناً له على عدوه .

قال في كتبه هذه وهو يذكر قصة الكتاب الذي وقع في أيدي الثوار :
 « . . . إنما انتهكت الشر بأهله ، وبدت ضغائن وأهواء على غير إجرام
 ولاثرة فيما مضى إلا إمضاء الكتاب . . . وازدادوا على الله جرأة حتى أغاروا
 علينا في جوار رسول الله وحرمه وأرض الهجرة ، وثابت إليهم الأعراب
 فهم كالأحزاب أيام الأحزاب . . . فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق . . . »

وأرسل إلى معاوية — ولي دمه ! يسئف بمطفه وقوته ، ويلتمس عنده
 العون الذي حسب أنه لا يبطل به . . . فقال :

« . . . إن أهل المدينة قد كفروا ، وأخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة ، فابعث
 إلى من قبلك من مقاتلة أهل الشام على كل صعب وذلول . . . » .

ولكن ابن أبي سفيان كان ذا رأي آخر أمام نصرة الشيخ ، وله شأن في
 البدل إليه يخالف السجدة والاسراع وإن أحس الغيلة تكاد أن تفجأ صاحبه ،
 وإن علم أن القتل يتربص به منذ عام !

أجل . لم يبادر صاحب الشام بالنجدة التي كانت توجبها عليه قرابته

قبل أن توجبها وظيفته • بل اصطنع الأناة بغير موجب لها إلا ما في نفسه من غرض خفي ، وتلبث ساكنًا لأنه — فيما حدثتنا الأسفار — قد كره أن يظهر مخالفة أصحاب الرسول كأنهم قهروه على هذا التريث الرذول ! . . أفكانوا إذن من القوة بحيث يخشاهم ذلك الجبار الذي عهدناه يدل عليهم بصولته ودولته ويخوفهم بعلشه كما شاء التخويف ؟ . . .

ولكنه معاوية فحسب ! ... وإذا ذكر فقد ذكرت معه التدبيرات الخفية والأغراض المستبكة الملتوية ... أما عثمان فقد كان رجلاً سليم الذية شديد صفاء النفس حتى راح ثأمة يستحبه ويشير فيه العطف الذي حسب ألا يلقاه عند سواه ، فبعث كربة أخرى يقول له :

« ... إن القوم طال فيهم مقامي ، واستعجلوا القدر في ... فياغوثاه يا غوثاه ! ... ولا أمير عليك دوني ، فالعجل العجل يا معاوية ، وأدرك ثم أدرك ، ولا أراك تدرك ... »

فكان الجواب أن أعد الرجل قوة أمر عليها يزيد بن أسد القسري ، وقال يأمره وهو يتأهب بجيشه للمسير :

« إذا أتيت ذا خشب فأقم بها ، ولا تتجاوزها ، ولا تقل الشاهد يرى ما لا يرى الغائب فإنني أنا الشاهد وأنت الغائب ... »

فكفاه بهذا أنه كان — وإن أرسل — كأن لم يرسل ! . . فلم تدخل قواته المدينة ، ولم تنجد سيده ، ولم تفرق عنه الثوار لأنه أراد لها موقف الغريب المشاهد دون خطة الولي المجالد ! ...

وكذلك فشل تدبير الأمداد الذي علق عليه مروان كل آماله ، ودفع بمثمان إلى التهلكة في سبيله • ومضت الأيام ثقيلة عليه وعلى سيده ، مظلمة لا يبدو في محاثها رجاء • ومع هذا فقد ظل متشبهاً بالخيط الضئيل الذي بقي له وهو احتمال أن تصل النجدة بين حين وحين • ومضى في غيه معصوب العين لا يحاول أن يعالج الداء بالدواء الحاضر ... وهل كان يوسعه أن يفعل وهذه جموع الناس لا تنى الآن بعد الآن تهتف بالخليفة أن يسلمها مروان ؟ ...

دون الرجل المستبد الأحق دماء الخليفة والله ! . . . فما زال عثمان يراه
جديراً بأن يضمن به ويدخره ويحميه ، ولعل مروءته وحدها هي التي دفعته إلى
هذا الاستمسك الخاطيء . بمشير أثبتت الأحداث أنه ما من مصيبة داهية
إلا حركتها أصابعه . . .

لكم آذات أحداث هذه الفترة العصيبة عليا وأخذت منه ! . . . كلما سار
تبعته الجموع تهتف له وتدعوه أن يفض هذه الأزمة الحازية التي نالت من قدر
الحاكم ومن راحة المحكوم . . . وكلما انطوى على نفسه بداره أقبلوا يخرجونه
ويستحثونه أن يفرج عنهم الضائقة . ولم يكن يملك أن يفعل شيئاً ، ولكنهم
لفرط ما شهدوه يسعى بينهم وبين الخليفة بالتوفيق حسبوه صاحب كلمة مسموعة
لديه . أما عثمان فقد آذاه منهم التفافهم هذا بغريمه ، وحز في نفسه أن يراه معقد
الرجاء وهو ملوم محسور ، وزاد في مرارته ما عسى أن يكون ذووه قد أوغروا
به صدره على ابن أبي طالب من ألوان الوقعة وسط الاتهام .

وقال الناس له :

« فليدفع إلينا مروان حتى نعرف كيف يأمر بقتل رجال من أصحاب
رسول الله وقطع أيديهم بغير حق ، فإن كان عثمان كتب عزلناه ، وإن كان
مروان كتب نظرنا فيما يكون من أمره . . . »

ولكن عثمان آثر أن يصم أذنيه دائماً عن أمثال هذا النداء ، وأحنق موقفه
الناس وأثارهم فأروا أن ينفضوا أكفهم من اللين به . حسبهم ما بذلوا له
من الصبر والأناة . . . وعنفوا عليه في اللقاء والمقال ، وجروا في سيرته بأسوأ
ما تقول السنة . . . ثم أجمعوا على أن لا يدعوه بخير . . .

فلما كان ذات يوم من أيام الجمعة واقتعد المنبر ليخطبهم كدأ به ، لم يلق
منهم الإصغاء الذي عودوه من قبل ، بل لفظوا ، وامتسلات عليه نواحي
المسجد بالضجيج ، وأرادت طائفة أن يذموا العنف الذي هم يوشكون أن
يضمروه فثاروا بها وأخرجوها من حرم الله ، واشتعلت الفتنة فتحاثوا

بالخصباء ، وأصيب عثمان وهو بموقفه ببعض ما تراشق به القوم فصرع وأدخل داره وهو غشيان . .

وعلم على بالنبأ — وكان قد آثر منذ مدة أن يحتجب بعيداً عن الصراع — فأسرع منى داره إلى دار عثمان . ودخل عليه يعودده ويستخبره ما كان . .
قال بنبرة المطوف الملهوف .

« مالك يا أمير المؤمنين ؟ .. »

فما أسرع أن ثار به بنو أمية ... وما أعجبه جزاء ما ناله من هذه الفئة التي دفع عنها كما لم تدفع هي عن نفسها قط ! ..

قالوا له بمنطق واحد كله موجدة واحتقاد :

« أهلكتنا يا علي ، وصنعت هذا الصنيع بأمر المؤمنين . . إنا والله لئن

بلغت الذي تريد لمرن الدنيا عليك ! .. »

فأجال فيهم نظرة حيرى صوبها من بعد إلى الخليفة ، فإذا على وجهه سكون الراضى بما كان . فما كان أقل عرفانه بالجميل إذ ذاك . .

وقام على عن المجلس مغضباً ، ولم ينطق ، بل مضى لتوه إلى داره وفي نفسه مرارة . لكان عثمان نسى هذا الجهد الجبار الذي بذله أبو الحسن ، ثم عاد قلبه سيرته الأولى من البغض له أو الريبة فيه . . كيف يأتري ينكر الشيخ اليد الطولى التي أوشكت أن تقيم ملكه لولا هذه الطفمة الحمقاء من ذويه ؟ . .
أم حسب أن علياً ترك سلاحاً واحداً في جمعبته لم يسله من أجله ؟ . . أم غاب عنه أنه دافع عنه حتى خشى أن يكون قد أسخط ربه لأنه دافع ممن آثر خسر العهد ونكث الوعود ؟ . .

ومع ذلك فلا تتريب على الشيخ الغافل عما يدور حوله وهو ساكن كأن قد أغمضت عيناه . . فما هي المدينة تشور به ، وهامهم الناس يتربصون به ويتحينون كل سائحة للتصاص منه ، وهامهم أولئك أصحابه أجمعين قد سكتوا عن نصرته وقنعوا من موطن الكفاح بعد الأعين المشاهدة دون الألسنة والأ كف لتتضح عنه . . . ومن لم يسكت عن خير فقد حكم

بشر ومضى ينصب من نفسه داعية للثوار ، أو قائداً لهم يسير بهم الجهاد الخليفة والنيل منه . فكثير ألبوا وأعانوا عليه ، وكثير عصمت بهم الأهواء والمطامع حين لامت لهم من بعيد شمس الإمارة . وهل فات عثمان كيف كان موقف طلحة بن عبيد الله منه ؟ .

هذا الرجل من تيم له في الخلافة مطمع قديم يرتد إلى أيام ابن عمه أبي بكر ، وهذه هي الأيام تواتره ، والظروف الرخية عليه الشديدة على خصمه تحالفه ، وها هي الجموع تلتف به بمسد أن أعجزها أن تغري ابن أبي طالب بمنظر الصولجان .

ومع ذلك قعثان ينسى المكروهة تأتيه من كل إنسان ، ثم يسهه أن يقابل إحسان على له بالإساءة إليه لأن بنفسه الأموية ضغناً يرنو إلى بضعة أحقاب ، ولأن أهله الأمويين يربون في قلبه هذا الضغن ، ويتمهدونه بدسائسهم حتى يفرع عوده ويضرب إلى السماء . . . ولقد سمع لهم ، وأخذ مراراً بآرائهم فأبعد علياً عن المدينة لئلا يلتف به الناس ، وأمره أن ينزل خارج المدينة بعيداً عن عواطف القوم . . . ثم لطلباً بمداه أعاده ليدرقهم عنه ، ثم عاد فردده لعلمهم يفسونه فلا يكون ثمة منه كبير خطر على إمارة الأمير .

ولكن الأيام وحدها كفيلة بأن تفتح عيني عثمان . . . فما استطاع الخليفة بعد يوم الحصباء أن يسير بين الناس ، ولا أن يجتمع بهم في مكان . حتى المسجد أصبح حراماً عليه وإن كان مكثه فيه لا يزيد عن لحظات إقامة الصلاة . حرموا عليه كل موقع من مواقع المدينة ولم يبيحوه منها إلا داره . وتركوه محصوراً يكاد لا يملك من حرية الشئ إلا خطوات . ولقد ثقل هذا عليه وبرح به ، ولكنه كان امرأً مصابراً لا يعيبه التسليم بحكم الضرورات . وكان أيضاً شديد الوثوق — كما يبدو — بدهاء مروان وقدره على حل الأشرطة التي انعدت بعنقه وشدت عليه الخناق ؛ فقد ظل حتى نهاية الشوط لا يفرط في مشيره ، واستمسك به في إصرار . وكلما مضى يوم عليه في الحصار زادت الحلقة ضيقاً ، وزاد الثوار إيماناً في الضغط عليه بقدر

ما كان يزيد تأليب المؤلّبين وإثارة المشيرين . وأخذت الأطلاع الشخصية تلعب دورها وتأسر نفوس العامة بكل ما يستعبد النفوس الساذجة التي أضربها طول الحرمان . وكلما مرت فترة من الزمن تفتحت عيننا الشيخ على صورة جديدة بغیضة من صور الأهواء التي عصفت بقلوب فئة من الخاصة ظن من قبل أنها ممتنعة على الأهواء جلس الخليفة يوماً داخل بيته ومعه ضيف يفاخيه ، وكان الناس كدأبهم جموعاً تلغظ خارج باب الدار . فإذا عثمان بهم من مكانه واقفاً ويقول للزائر على حين غرة :

« أفلا اسمعك كلام الناس يا عبد الله ؟ »

وأمسك بيد الرجل يقوده إلى حيث لم يفصل بينهما وبين الجمهور إلا الباب . . . وسرى إلى السمع حديث الناس واضحاً حيناً وحيناً مبهماً مشوش الكلمات . ولكن الضجيج لم يكن يمنع الزائر أن يتبين ما أراده على تبينه عثمان ثم يهتف كالمدحور :

« طلحة بن عبيد الله ؟ . . »

فأجابه الشيخ في ألم بدت آثاره على وجهه كضربات سوط :

« هو والله يا عبد الله . . »

وأصغى الرجل ثانية لما يدور خارج الدار ، فإذا القوم قد استفرقهم الحديث وانتثرت زمرهم ها هنا وهناك ، كل طائفة لها رأى ولها نوع من أنواع البيان . . . وسمهم يتحاورون :

« ما تنتظرون به ؟ . . »

« بل لا تمجلوا به ، فمساء ينزع ويرجع . . . »

ثم استرسل بهم الحوار في مصير الشيخ هكذا بين فرقة المتعجلين وفرقة المتريثين . . .

والتقى عهد الله من بعد نظره في القوم . وراح يحدد البصر في ناحية معلومة لا يتركها . فإذا طلحة بن عبيد الله قد انثنى إليه ابن عديس أحد زعماء ثورة المصريين فتناجيا برهة بصوت خفيض . فلما غاب طلحة عن عين الزائر كان ابن عديس قد عاد ثانية إلى أصحابه يقول :

« أيها الناس ، لا تتركوا أحداً يدخل على عثمان أو يخرج من لدنه . . »
 فما سمعها عثمان حتى حال لونه ، وقال وهو يرفع بصره إلى السماء :
 « هذا ما أمر به طلحة ! . . اللهم اكفني طلحة فإنه حل هؤلاء القوم
 وألبهم على . . والله إنى لأرجو أن يكون منها صمراً ويسفك دمه ، فقد انتهك
 منى ما لا يحل له . . »

ولم يمض قليل وقت بعدها حتى كان هشام مولاه قد انطلق من المدينة
 مستخفياً قدر وسعه حتى خرج من نطاق الثوار . ومضى مسرعاً لا يستأني
 إلى خير ؛ فيها الرجل الذى يدخر دائماً للعلات . . بها على بن أبي طالب قد
 اعتزل الناس حتى لا تمشى عليه ظنون عثمان ، قد خرج اليوم رسول عثمان
 يدعوه . .

وأسرع أبو الحسن يلبي النداء فإنها لحظة حازبة ينسى فيها كل خلاف .
 فما أشرف على الدار حتى هاله ما هى فيه من حصار . فلم يكن قد تركها كذاك .
 ولم يكن الثوار بمثل هذا الطغيان حين غادر المدينة إلى خير ، بل كانوا بها كأهلها
 وأمير المؤمنين حر الحركات حتى ليخرج إليهم ويؤمهم والناس فى الصلاة . .
 وأدار على فى الناس عينا تلهب . ومضى فى بحرهم الزاخر فما وسعهم إلا أن
 يفتحوا الصفوف له ، وجاز حلقهم المضروبة على الدار حتى خلص إلى عثمان .
 وقال له الخليفة المغلوب يشكو ويطلب العون :

« يا أبا الحسن ، إن لى عليك حقوقاً : حق الإسلام ، وحق القرابة ، وحق
 الصهر ، وما جعلت لى فى عنقك من العهد والميثاق . . . فوالله لو لم يكن من
 هذا شيء ثم كنا إنما نحن فى جاهلية لكان عاراً على بنى عبد مناف أن يبتزم
 ملكهم أخو بنى تيم . »

ولم تكن الحال لتخفى على بصيرة على الذى أسرع فقال :
 « أنا على ما ذكرت يا أمير المؤمنين . وسأكفيك . . »
 ثم اثنى خارجاً إلى دار طلحة فلقية قد التف به الناس واجتمعوا له حتى
 غص بهم المكان . . فدعاه إليه ، وقال بغير تمهيد :

« يا طلحة ، ما هذا الأمر الذى وقعت فيه وصنعت بهتان ؟ »
 فرفع الرجل حاجبه كالستغرت ولون ثغره ببسمة دهاء ، ثم أجاب
 فى هدوء :

« يا أبا الحسن ، أبعد أن مس الحزام الطيبين ؟ . »

فلم يترث على . لم ير جدوى من وراء محاورة هذا الواثق من أمره
 وخطره . وقام مسرعا فلقى أسامة بن زيد فصاحبه ، ثم مضى وإياه إلى
 بيت المال ..

كانت النظرة التي ألقاها على الذين امتلأت بهم دار طلحة كفيلة بأن تكشف
 له عن أمور تكاد تجرى فى الخواطر مجرى اليقين . ولم يكن غراً ليشتبه
 عليه الأمر ، بل كان نفاذ البصيرة فى المستغلات والمجاهيل . وكان أيضاً
 عليماً بأولئك العامة ، عارفاً إلى أين تنزلق أقدامهم وأى الأشياء يفسرها على
 الانزلاق . وكان الحرمان وحده باب السر . . الحرمان المر الذى عانوه
 طويلاً وجاهدوه طويلاً لم يتحرروا من قبضته بعد . وكان البذل هو
 مفتاح الباب . ولئن ملك المال أن تفتح له المغاليق ولا يستمضى مطلقاً عليه
 رتاج ...

أفايقن على إذ ذاك ان طلحة قد أوشك أن يملك أرلثك العامة
 المحرومين ؟ ..

الرجل حقاً ثرى ، وليس مقبوض الكف ، بل هو أميل إلى إسباغ
 البذل والسخاء . قد فشت له فاشية من أموال آخذ على بيوتها وخزائنها
 — فيما حدثتنا عائشة — مفاتيح . فهلا إذن كانت سيرته مع القوم الثوار
 خاضعة لجوده المعروف المأثور ..

على أى الحالات موقف القوم اليوم لا يستطيع أن يملكه غير الجود .
 وتقوس الكثرة الغالبة فيهم كانت أولى بأن تسارع إلى استقبال البذل
 بعد أن حرمت أعواماً طويلة إحدى متعنى الحياة . ولم يغب هذا عن تقس
 على التي تعرفت نفسية الجماهير ، ولا عن ذكائه وخاطره اللامح . ولحق

بالبذل اليوم أناس حرموا أفياءهم أو انتقصت عليهم . وأنسب الساعات له . ساعة بلغ فيها التذمر من الحرمان إلى حد الثورة والجموح في العصيان . . بهذا الخطر مضى على إلى بيت المال ، وقال لمن حضره هناك :

« افتحوه . . »

فأرسلوا إلى خازنه . فلما وجدته قد ابطأ عليه ، ضرب الباب فكسره بنفسه ، وراح يفرق ما فيه من الأموال ... وشاع الخبر في المدينة فأقبل الناس عليه من كل ناحية عسى أن يكون لهم في هذه الهبات نصيب . وسمع المجتمعون ببیت طلحة فأخذوا يتسلسلون تباعاً حتى فرغ عليه المجلس ...

وأثمرت الخطة . وفرح عثمان أيما فرح فقد نصر على عزيز قوى عنيد . وتلفت طلحة نخشى أن يفقد مكانته عند عثمان بعد أن أوشك أن يفقدها عند الناس . . . لكأنما حسب الرجل في تلك اللحظة أن تيار الأمور قد تحول إلى غير مجراه ، وريحها جرت بما يخالف هواه ، وأراد أن يكسب إحدى الحسينيين فسارع يدخل للخليفة محاولاً أن ينفى عن نفسه الظنة ، ويعتذر عما قد يساء تأويله منه ...

ولكن عثمان في ساعة نصره المفاجئة أبى أن يلين له ، بل قال بلمهجة الشامت الممرود :

« أجبث تأثبا ؟ .. والله ماجئت إلا مغلوباً ! .. فالله حسيبك يا طلحة .هـ . »

هـ

« لا أصلي بكم والأمام محصور ... »

هذه هي الكلمة التي ألقى بها على في وجوه الثوار حين جاءوه بمرضون الإمامة والخليفة محصور عليه حلقة منهم حالت بينه وبين الخروج للصلاة . وهي بمنزلة بيان رأيه فيهم ، وإنكار تام لوسيلة العنف التي ركبوها لنيل

مبراميهـم ... أفضتـوه الرجل الذي يمنـح كـثـلـهـم للعدوان ولو أرد به حق ؟ .
إعـا دنس الذرائع منبـيـء عن دنس الغايات . والحق لا يستعين مطلقاً بباطل أو
يكون قد خالف ذاته وأقر على نفسه بالبطلان . وهل النور والظلمة يجتمعان ؟ .

كانت معنى في خاطره قبل أن تجرى مبنى على لسانه . ما قصد بنطقها إلى
دلالة الألفاظ ، ولكنها صورة من صور خلقه تنضاف في سجله النقي إلى مثيلات
ومثيلات ... لو علموا إذ ذاك لردوها إلى أختها التي طالعهـم بها عند ما جاءوه
بكتاب ابن أبي حذيفة ، ولأوها تماماً كما رأوا الأخرى ، ولأيقنوا أنهم يـأـزاء
شخصية فريدة ديدنها سمو ، ونهـجـها ترفع ، وهدف حياتها كاه رسم المثل العليا
بعدها لكل حياة .

لم يفتـه أن في الإمامة سمـة سياسية قد يؤخذ عليه أنه استباحها والإمام
محـصور . وأنها مظهر للزعامة الرسمية قيامه بها كـفـيـل بأن يـمـتـبـره البعض سـمـياً
وراء تلك الزعامة . وأن قبوله إياها في هذه الآونة أولى بأن يكون — في
الأذهان والعيون — اعترافاً خفياً بشرعية ابتزازها من الشيخ . . . فإذا سلف
منه في حق الثوار ما هو معروف من مخالفة وإنكار فقد وجب إذن أن يأتي
على الفور عرضهم ويرده دون تمهل في الإباء .

ومضى عنهم وتركهم مقهورين . . . لم يغلبهم بأسه وعدته ، بل غلبهم
إبـاؤـه وأنفته . فلقد حسبوه بحاجة إليهم فوجدوه الغنى عنهم . وجاءوه يمرضون
المجد والسلطان فلمهم أن للنفس المترفة مجداً أخلا وسـلـطـاناً غير محدد ،
دونه ما قدموه وعرضوه . ووقفت حصانة روحه ثابتة أمام زخرف الإغراء .
وكما ذهبوا من قبل يـلـتـمـسون الموافقة عند سواه فكذلك ذهبوا اليوم .
ومضوا إلى طلحة بن عبيد الله يـقـلـدونه الإمامة قـبـلـها فهي بلا ريب خطوة إلى
الأمـام ! .

وبقي عثمان قعيد داره . كآتي به نام وأسلم نفسه للأحلام ! . فلم يحرك

يدا ، ولم يفعل شيئاً ، بل ظل أليف استخذائه وتسليمه ، أسيراً خاضعاً لحاقات مروان يأمل كمثل أمه في وصول الأمداد .

حتى الفرصة التي أتاحها له على حين فرق المال على العامة لم ينهزها الشيخ ، بل تركها تمر دون احتفال وهي الجديرة بأن يفيد منها بعد أن فاءت بها نفوس أكثر الناس إلى الرضاء . وبقي كدأبه الأول ساكناً لا يخطو شبراً واحداً ليقرب من شعبه ، ولا ينطق بكلمة واحدة تصل ما بينه وبين هذه القوى التي أمسكت بالزمام . وغلبه دائماً عناده ، وملكته كبرياؤه . وزاد من استمساكه بموقفه شعور قوى بأنه صاحب حق إلهي في الحكم لا يملك أن يغير فيه إنسان ! . أو لم يكن هو القائل للناس حين طلبوا إليه أن يعزل الأمر :

« اتبرأ من الأمانة . . . لأن تصلبوني أحب إلى من أن أتبرأ من أمر الله وخلافته . . . »

وأخذت السحب الداكنة تتجمع في الأفق فلم تعد المدينة معلمة كمهددها بالهدوء والسكينة . وصار الأمر فيها للجموع المضطربة النفوس والجوانح ، والكلمة النافذة لزعماء الثوار . حكمها عقل الثورة إن كان ثمة عقل يحسك بجراح الثورات . ثم سادتها شريعة الإرهاب حتى منع الناس غيرهم من الكلام والاجتماع . . . حتى طلحة أصبح اليوم سواء بالأمس . وبدأت الجماهير لا ترمقه إلا كما ترمى قناة في أيديها إن شاءت هزتها أو شاءت تركتها معطلة حتى حين . فلقد كان رجلاً — فيما يبدو — جرفه السيل ، لم يؤت القدرة على قيادة الجموع ، وكان منجوع كرامة الإمامة في يوم فقد استطاعوا أن يسلبوه إياها في آخر لأنهم تغير قدره منعهوه ، بل ليكون هو خطوة الانتقال الوثيدة من سلطان سلطان ، فاعادوا من بعد يحرسون على أن يؤمهم في الصلاة بعد أن فازوا بإقراره لهم بشرعية منعها عن عثمان ، بل استوى الآن قيامه بها أو قيام سواء ، فإذا انتهوا إلى هذا فأولي بها إذن العافق وهو زعيم المصريين الذي داف لهيبته طوائف أهل

البصرة والسكوفة وألقت في يديه الزمام .

عقل الثورة هو الذى كان يدبر . وشريعة الإرهاب هى التى سادت
البلدة فى تلك الحقبة العصيبة من تاريخ الإسلام . أما عثمان فقد لاح كمن أعجزه
الهاء وأعياء أن يبادره بأى دواء . وبات لا يعرف له وسيلة يركبها سوى الإخلاء
إلى السكون والإيمان فى الهدوء والركود ... لكأنما فرغت البلدة منه وفرغت
أيضا من داره . لكأنما الأحداث سلبتة القدم واللسان .. وأما مروان
فقد ظل أسير حقه ، كليل البصر فى العواقب والخواتيم . كان شديد الكلف
بنفسه ، بالغ الأثرة ، حربصاً على سلطانه وسلطان ذويه فلم ير مطلقاً أن يسارع
إلى التضحية الوحيدة الكفيلة بتجنيب البلاد ويلات الانقسام ... هذه التضحية
التي لم يكن يملكها سواء أباهما الرجل على دينه وأمته لأن متعة النفوذ — عنده
— غاية لا يعز فى سبيلها إتيان كل محظور ، ويهون دونها انتسلم البلاد
وما يتبع الانقسام من وهن الإسلام .

سدر فى النى وركب غروره ، وأبى أن يقنح عن سلطته وإن علم تنحيه
كفيلاً بأن ينفى الهدوء والحلام ، وراح يصابر الزمن ما وسعة عسى أن تجيئه
لحظة سعيدة بأنباء وصول الأمداد . إن أمله فيها لم يقمده ، وحلمه الهانىء
عنها لا يبنى يراوده فى اليقظة وفى المنام ، وإنه لعل يقين من حضورها ذات يوم
فيشتقى بها لنفسه ، ويقمع عدوه ، ثم يقف على أشلاء أولئك الذين أرادوا هدمه
وهم لقي شائه تحت قدميه ، ممزقين هامدين ، لا يستطيعون دفع بلائه ولا كبريائه .
ولكن الزمن كان عدواً له ولعثمان ، فلم تصل الأمداد ، ولم يسارع أهل
النجدة بالأمصار إليه . بدا أعمال الخليفة الذين هاق عليهم حياته كأن قد حالفوا
الثوار عليه ! ... فلقد أبطأوا ، أو هم لم يقدرُوا هول الخطر المحدق به حق
التقدير ، أو عساهم لم يلقوا استغاثته بمجد واحتفال لأنهم ظنوها أزمة كغيرها

من أزمات كغيرها لن يلبث حتى يجتازها بسلام، أو غلب عليهم ترددهم القديم المهود فأعيانهم أن يتبينوا موقفهم وما عسى يجعل بهم أن يعملوه . فإذا المرء أحسن بهم الظن فهم غير جديرين بمناصبهم ، وإذا حاسبهم فالتزم الجسد في الحساب فهم متهاونون أجزموا في حق وليهم الشيخ ، وإذا قدمنا في خواطرنا ما ساف من مواقفهم لما وسعنا إلا أن نراهم — كمن قبل — حريصين على ما في أيديهم من سلطان ، يؤثرون السلامة لأنفسهم ولتلك الإمارات التي ارتفعوا بها على هام الناس .

أم هم ياترى اختاروا دور المشاهد من بعيد انتظارا لما قد تسفر عنه الأحداث ؟ .. السلامة تنادى بالموازنة بين أمر وأمر ، وبين مغامرة ومغامرة وإن كانت المغامرات لا تستهوى المعنيين بالسلامات . . . ولكن عمال عثمان قهرهم الزمن على الاختيار بين نوعي مغامرة فوجب أن يستمينوا بالحذر عند الاختيار . أعلى عثمان أم على الثوار ؟ .. أى أولئك ياترى ينصرون — بل أى أولئك سوف يعقد له في نهاية الأمر لواء الانتصار ؟ . ما أحسب إلا خواطر من هذه الشاكلة طافت برؤوس ابن عامر ومعاوية وسعيد وهم يقرأون كتب عثمان . وما أراهم إلا تدبروا طويلا ، ثم ترددوا طويلا قبل أن يستقر أحدهم على حل يرضاه . ولكنى أراهم جميعا يسارعوا لإفقاد الشيخ الذى حوصر عشرات الأيام وكان فى استطاعة جيوشهم أن تصل إليه فى أيام قليلات .

ثم دنت اللحظة الفاصلة التى توشك أن تحسم بين عهدين وتسير بيدى النهاية إلى النهاية .. فلقد أسرع الثوار بالأزمة إلى ذروتها ، وجردوا على الأمير أعتى سلاح ينجز الكفاح : منعوه الماء فأصبح ، وهو بداره ، كمن فى متاهة صحراء وإن كان قاطع البيد يستطيع عادة أن يعلل النفس بالسراب دون الشراب ! ..

سلوا على عثمان سيف العطش ، ووقفت جموعهم ببابه تحول بينه وبين من عسى تأخذهم الشفقة فيسمعون إلى بل أوامره بشربة ماء . . . عذيرهم فى هذه

القسوة أن الأيام تصرمت تباعا وهو على عناده ، مسرف فيه ، لا يتقدم إلى وفاق ، ولا يسمع لهم وإن جأروا لديه بالنداء ، ولا تجيبهم لطلب واحد مما طلبوا . وسعوا إليه جاheids أنابا لنصع والملاينة ، وأنا بالمف والمخاشنة . فإذا جاءتهم الأنباء بمد طول اضطبارهم وكفهم عنه بقصة أمداد ترحف هليهم من لدن هماله ، فقد رأوا إذن حقاً عليهم نحو نفوسهم ونحو مرامهم أن يراعوا ثورتهم ويتحصنوا عن أهدافها بكل سلاح .

ويعلم على فيسترجع ويأسى لحال عثمان . ويفيض به الحق أضافاً على الثوار ، ولكنه يفور على أصحاب رسول الله آلاف الأضعاف ، فهذه الفئة المعلمة بين الناس بالهدى والرشاد نامت عن المهنة النازلة بصاحبها وقعدت عنه ، ولم يتقدم منها واحد إلى كفاح ذلك البغى المرذول ، بل لاحوا جميعاً كمن يؤثرون السكوت على تصرف الثوار عن رهبة منهم أو عن مصانعة . وهرب الكثير بأنفسهم من حلبة الصراع لتبعد الظنة عنهم . ومن لم يقم منهم بدور كأدوار هؤلاء فقد شارك أهل الثورة وركب مركبهم إن لم يكن قد ألهم على الشيخ بزخرف الأقوال وبذل المال ...

ولكن علياً أبى عليه قلبه الكبير أن يخلى — كغيره — بين الثوار وبين الخليفة المحصور . وهاله قدر الأداة التي جردها القوم لنضاله . فما كان أى كفاح عند أبى الحسن إلا مبارزة نظيفة بين خصمين ، لاتصح بغير تعادل السلاحين . . . امتثاله لشرعة الفروسية أملى عليه هذا ، أو قل إنها نفسه الكريمة النقية التي رسمت هكذا شريعة الفروسية . . . فلما أن رأى الثوار يححفون ولا يلتزمون الرحمة ، ويجورون في سبيل النصر على مروءة الانسانية ، هب من فوره رجلاً فرداً تظاهره مثله ويؤيده نبهه ، اهناضل وحده كل هذه الآلاف .

كان يعلم أن رجال الحصار تحينوا دائماً أيام غيابه عن المدينة بخير أو بقاء يبيع ليشددوا حلفهم على الأمير . ولكنه لم يكن يملك شيئاً من أمر مكثه أو ذهابه ، بل هو رهين بمشيئة عثمان ، إن شاء نقاه أو شاء إبقاءه . فلقد أبى الشيخ

حتى في أحلك ساعات محنته أن ينزع أصول الشك من قلبه . وظل كعهده
 واجداً على كل شيء ، لا يستطيع أن يتحرر من ذلك الشعور الموروث بالنقمة منه ...
 لكان مر الأعوام عجز عن استئلال ما في صدره أو إخفائه بالنسيان في قرار
 سحيق . لعل شجرة الحقد لا تعرف الحريف ، بل هي مورقة أبداً ، خضراء
 أبداً ، تتجدد أغصانها وتخرج طلعا مع كل صباح ... أفنسى عثمان ياترى
 الجهود الدائبة التي بذلها على من أجله وجاوز فيها كل مأمول من ولى مخالف
 فضلا عن غريم مخالف ؟ بدا هذا من تصرف الشيخ ونعت فعالة عنه . فما زال
 ابن أبي طالب نفس الهاشمي القديم والمنافس الغريم . ولئن ألزمت للظروف
 يوما عثمان على مخالفته فإنها إذن مخالفة ضرورة ، موقوتة بحين ... كذلك ظلمت
 حال الخليفة نحو على بالرغم مما خبره من دأبه على صيانة حكمه المنذر بالانهيار .
 فإن هي إلا حال نفسية لاسلطان للشيخ عليها وليس له إلى إصلاحها سبيل .
 وما دمنا عرفنا إبان سطوته واستتباب أمره شديد الريبة فيه فلسنا إذن ننكر
 عليه ريبة . وهو في إبان محنته وخاطره فريسة سائقة في فم الظنون ...
 وكذلك راح ذهنه الكليل المكدود يراوده على النقيض والتقيض . إذا تخزبت
 عليه الأمور وخاف الناس على نفسه بعث إلى على فأدناه ، وإذا رآهم لانوا له
 وسكتوا عنه رأى في سكونهم هذا مدى سلطان غريمه عليهم نخافه واقتصاه .
 ثم لا يني هكذا يدنيه ويقصيه والرجل صابر لا يبرم به ولا ينقم منه قلبه الكبير
 الكريم . بل يستجيب له في الفنى وفي الدعوة كليهما سواء بسواء ...

استسفره ذات مرة إلى الثوار يردم عنه ويتراضاهم له ، فلما علمهم قد فاءوا
 إلى السكون ، لعب الوهم يعقله وخشى مغبة افتتانهم به مادامت له عندهم هذه
 الكلمة المسموعة من دون الناس ... وأرسل ابن عباس يقول له :

« يا أبا الحسن ، إن أمير المؤمنين يأمرك بالخروج إلى ينبع ... »

فابتسم . ولم يزه على أن قال في هدوء وهو يهيم بالرحيل :

« ما يريد عثمان إلا أن يجعلني جلاً ناضحاً بالغرب. أقبل وأدبر! .. بعث إلى أن أخرج ، ثم بعث إلى أن أقدم ، ثم هو الآن يبعث إلى أن أخرج ... أما والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثماً ... » .

ومع ذلك فلم يحمل ضغنًا ، بل انطلق إلى نصرته سباقًا وقد علم أن الحصر جاوز في الشدة كل حدود ، وأن مرد الأمر فيه لطلحة دون زعماء الشوار الذين اتخذوه ستاراً يدفع عنهم العيون والظنون ، ويضفي على حركتهم سمة الحق الجديرة بها شخصية هذا التيمي صاحب رسول الله . علم هذا كله فجاوز الجموع حتى خلس إليه ، وقال له يهيب بمروءته وأريحيته :

« يا أبا محمد ، نشدتك الله إلا رددت الناس عن عثمان ... » .

فهز الرجل رأسه بإباء ورد في اعتداد

« لا والله . حتى تعطى بنو أمية الحق من أنفسهم .. »

ولكن الساعة لم تنسع للمساومات . وإنما هي مسألة حياة حفظها رهين بأيدي اللحظات قبل الساعات ..

ولم يطل بعلی غياب ، بل أقبل على القوم من بعد تتبعه على الأثر ثلاث قرب تنضح بالماء ، فما بدت لأعين أصحاب الحصار حتى لغطوا ، وشمل الهمس شفاههم ، وملأت الدهشة نواظرهم من هذا التحدى الذى يطالهم به ابن أبى طالب ، ولكنهم تهيّبوا أن يمنعوهم . ومضت أبصارهم تلف بطلحة وتستقر على وجهه كأنها تناجيه أو تستوحيه ...

وأقبل الرجل على على ، متمهلاً كأنه يقسر نفسه على السير ، وراح يرمقه في هدوء وسكون . وتحدث في عينيه إباؤه على صاحبه ما جاء فيه ، ولكنه لم يقل شيئاً . وأخذ الناس يلتثمون عليهما من كل ناحية حتى ضربوا حلقة حولهما ، ثم وقت فئة متأهبة في وجه حامل الماء تسد عليه الطريق ...

فما أسرع أن صاح على بهم صيحة غضب واستنكار وهو يوجه حديثه إلى

ذلك الزعيم :

« أدخلوا عليه الروايا أيها الناس . »

فاستخذى القوم، وانفجرت صفوفهم على كره . وأخذ الغضب من طلحة مأخذه وهو يرى القرب تدخل الدار . ولكنه طوى في نفسه سخطه حتى غادر على المكان .

ولكنها كانت مرة واحدة ، المفاجأة فيها شلت حركة الثوار وظهرت هلياً حتى أنجحت مساه . فلما أن انتفض الأثر الذي خلفته بنفوس القوم راحوا ثانية يحزمون أمرهم ويضيقون حلقة الحصار . . .

ثم عادت الحال إلى ما كانت عليه ، وأصبح عثمان يتلفت فلا يرى قطرة ماء يداره تبل صداه وصدى أهله وفيهم نسوة وأطفال . وأرسل كرة أخرى يستنجد بعلي . فمن عجب أن يكون رسوله إليه هو أحد أبناء الرجل الذي مهد لمقتله وأعان الثوار عليه ! . . لم يكن يستطيع أن يبعث أحد مواليه لأن القوم ضيقوا على الدار ومنعوا كل خارج منها كما منعوا كل داخل إليها ، فكان رسوله هذه المرة ابن جارية له من بني حزم ذهب عنه يطلب المعونة من علي ، ثم انثنى إلى بغية الصحابة ومنهم طلحة ، فأزواج النبي ومنهن عائشة ، عسى أن يستطيع أحدهم أن يبادر إليه . .

ولكن الحلقة كانت اليوم من حديد، وطريق الدار قد سدته كتل متراصة من الثوار لا تريم هن مواقفها . . حتى ابن أبي طالب لم تسعه هيئته عند القوم ، بل أبوا عليه ، وحالوا دونه ودون بغيته ، ووقف يهيب بهم فلا يسمعون له ، وينصحهم فلا يراعون عنه . .

قال لهم عسى أن تنفذ كلماته إلى قلوبهم فتلين :

« يا أيها الناس . . . إن الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين . لا تقطعوا من الرجل المسادة ، فإن الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقى . وما تعرض لكم هذا الرجل فبم تستحاون حصره وقتله ؟ . . » .

فما زادهم حديثه إلا عناداً ، وقالوا له :

« لا والله ولا نعمة عين ! . . لا نتركه يأكل ولا يشرب . . . »

وكان الليل قد مضى إلا أقله ، وظلمة الغلس تلف المكان كله في ستار قاتم

محجب الدار عن الأعين . وتلفت على برهة إلى ناحية بيت هشام لعله يرى أحداً من ساكنيه فيشير إليه بأنه فشل فيما جاء فيه عسى أن يدبروا أمرهم بطريقة أو بثانية ، ولكن الظلام رد طرفه .

وتفكر هنيهة . وجب إذن أن يعلم عثمان أنه صدع بأمره وقام له ثم حيل بينه وبينه حتى لا يركن الشيخ إلى أمل وصوله ساعة بعد ساعة . وحتى لا يذهب باله إلى أنه تخاذل عنه . . . فلما أن أعياء أن يشير لأهل الدار بما أراد ، خلع عمامته ثم طوح بها إليهم لتكون مغنية عن أفصح الإشارات .

وكذلك أفلت زمام الأمر وأصبحت ثورة تنقاد كغيرها لعقل الثورات ، وزاد طغيان أصحابها بقدر زيادة الأنباء بقرب وصول الأمداد ، وعنفوا بكل مخالف وإن أتاهم بنصح أو حضهم بخير ، ولم يمودوا بعد يراعون مكانة أحد أو يحلون قدره ، بل ركبهم الغي حتى اجتروا على أم حبيبة زوج الرسول حين أنت تريد أن تعطف قلوبهم على الشيخ المحصور ليدخلوا إليه المساء ، وضربوا بغلتها حتى ندت بها ، وأوشكت السيدة أن تتردى عن مركبها قتيلة لولا أن تلقفها بعض الناس .

بهذه الروح الجامحة وبأمن منها في الجموح والعصيان كانت تسير الثورة المشبوبة حتى أيقن على أن الشر النازل بات يطرق الباب ، وأن على الخليفة اليوم حقاً حيال نفسه يسبقه آخر حيال أمته ، وكلا الحقين رهين بالآخر متوقف في البدء والنهاية عليه ، كان العلاج في يده وحده ، في يد هذا الشيخ المفيد الذي أبى طوال عشرات الأيام أن يأخذ بمسلاج واحد يحسم سريان الداء ، ولم يكن دواءً عصياً يستحيل عليه ، بل هو في مقدوره وقيد يده ، فلو أراد الجدد في استصلاح الأمر لما أعياء أن يلتمس الخير ، ولوسعه أن يلين مرة لمشيئة الإجماع ، ولا استطاع وهو بميد عن الخطأ كل البعد أن ينحى مروان عنه ، ويخرجه من أمره فيستقيم له الأمر . فما أحسب أحداً من الناس كان يطمع من خليفته في أكثر من هذا الإجراء ، بل أحسبهم به جد قانعين ، وما دام الرجل

الذى كانت أصابعه تحرك أميرهم كما تشاء ، وعلى غير ما يشاءون وتشاء الأمة
 جماء قد أريد له البعد عن السياسة لغير هود ، فإنه إذن قد صالح الحال واستقر
 السلام . ولكن عثمان أبى عليهم مطلبهم وأوطأ رقابهم كرها صاحبه مروان ،
 وراح فى سبيل إبقائه يتخبط فى الوعود دون وفاء أفهو يا ترى قد آمن
 بحسن سياسة مروان فأبى إلا إقراره ؟ . . . أم قد خجل - وهو الأرمحى
 البر بأهله . . . أن يخذله ويقعد عن نصرته فى ساعة محنته . . أم قد أيقن أنه
 مظلوم تجنى عليه الناس ؟ . . لا نراه فى أى هذه الحالات قد التزم الصالح العام
 حين أبقاء ، لأن إجماع الرأى على عزله كان أجدر بأن يلتقى عند عثمان أذنًا
 سميمة ونفساً راضية مطيعة . وما نرى مروان إلا رجلاً أعماه حبه لنفسه حتى
 استمسك بصالحه وإن كان دونه حنف ناصره وانقسام صفوف الإسلام .

تفكر على جاهداً فى الحل الذى يكشف الغمة عن الأمة . فما وسعه أمام
 عناد الشيخ إلا أن يراو فى تفريق الثوار بأية وسيلة من الوسائل عسى أن يتيح
 للخليفة مهلة بعد ذهابهم لإحسان التفكير ، ولم يكن يستطيع إلا أن يشير
 وإن كاد ليعلم أن مشورته ستكون دبر أذن فهم عثمان ، ولكنه رغم هذا رأى
 على نفسه حقاً نحو ضميره قبل أميره ، فهم ليسعى إليه بالرأى فى جمبته التى
 فرغت بعده من ذخر الآراء . . .

هم ليخرج من منفاه فاذا رسول يأتيه فينبئه باشتداد الطعن على عثمان بعد
 أن أبعدته عن المدينة ، فقد اغتشم الزبير وطلحة كدأبهما غيابه فنشطا فى العمل ،
 ورجوا أن يميلا إليهما قلوب الناس . . . ثم قدم إليه الرسول كتاباً من عثمان
 يقول فيه :

« ... أما بعد ؟ فقد بلغ السيل الزبى ، وجاوز الحزام الطبيين . وارتفع أمر
 الناس فى شأنى فوق قدره ، وزعموا أنهم لا يرضون دون دمي ، وطمع من
 لا يدفع عن نفسه .

وإنك لم يفخر عليك كفأخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

وقد كان يقال أكل السبع خير من افتراس الثعلب ... فأقبل على أولى :
 فإن كنت مأكولاً فكن خيراً أكل وإلا فأدركني ولما أمزق »
 فما شاب صفاء نفسه هذا الغمز الذي دسه عثمان في طوايا الكلمات . بل غفره
 ومضى سريماً إلى الدار وفي خاطره أن الساعة لم تعد ساعة توفيق بل ساعة جهاد
 وأن عثمان وقد أبى طريق الموافقة والانتقياد فعليه بطريق الكفاح والجلاد ، وأن
 الثوار اليوم لن يسمعوا لأى كلام ولكنهم قد يذعنون للحسام وانطلق بطائفة
 من أهل بيته قليلة فيهم الحسن والحسين ابناه ، وعبد الله بن جعفر ربيبه
 وابن أخيه ، وقد اعتم بعمامة رسول الله وتقلد سيفه ، وحوله وأمامه مشى أولئك
 الفتية الأنجاد .

وأشرف على جموع الثوار وقد لمت في أكفهم النصال والحراب كأنهم
 في ميدان قتال . وعلم أنهم اليوم لن يوسموا له إلى باب الدار إلا أن يقهرهم
 بسيفه صاغرين ... فهجم سريعاً . وبغت بنفيره آلافهم المجيشة . وبدأت الآن
 منه صورة صادقة لذلك الرجل الذي قال فيه رسول الله إنه جيش وحده في
 سبيل الله . فما أسرع أن فرق القوم أمام هيئته وتفرقوا له . ومضى بينهم غير
 مدافع حتى دخل الدار ..

ولقي عثمان هناك قد أخذ منه الهم مأخذه . كثيباً محزوناً قد أثقله وقر
 الأحداث فراح يمين له الأمر ويهديه إلى ناحية العمل التي لم يعد له إلى
 سواها سبيل ..

وقال له بعد تمهيد قليل :

« يا أمير المؤمنين ، لا أرى القوم إلا قاتليك .. »

فأجاب الشيخ بتهافت واستسلام :

— حسبي الله ونعم الوكيل .

— فرنا فلنقاتل يا أمير المؤمنين .

فرفع الشيخ يديه كأنما ليحول بينه وبين ما يريد ، وقال :

— أنشد الله رجلاً رأى الله حقاً وأقر أن لى عليه حقاً ألا يهريق في

سبى ملء محجمة من دم أو يهريق دمه ..
— يا أمير المؤمنين مرنا .

وأبى عثمان . وأصر على الإباء كما أملت نفسه الرقيقة . فهل علم أن وصول
الأمداد كان كفيلاً بقمع الفتنه دون إداقة دماء ؟ .
وخرج على من لدنه وهو أسيان عليه ، فارغ الجمبة من كل أداة بمقدوره
أن يسخرها في عون الشيخ ، ولكن عثمان التزم دائماً سياسة الإباء ، فأبى كل
العروض المبذولة لإعادة السلام وإقرار النظام ، سواء بطريق القوة أو بطريق
التوفيق ، فلا هو أجاب مطالب الثوار ، ولا هو اعتزال الأمر ، ولا هو قابلهم
بالتقتال قبل أن يقتلوه ..

ولكن علياً لم يرض أن يدع الرجل وشأنه لأنه عهده لا يحسن القيام على
أمر نفسه ، بل بعث إليه ابنه سبطى رسول الله ، وبعض أهله ، ونهراً من
مواليه زودهم بالعدة والسلاح ، وأمرهم أن يلزموا باب الدار فلا يفارقوه
قال للحسن وللحسن ولها يتأهبان للذهاب :

« اذهبا بسيفيكما حتى تقوما على باب عثمان ، فلا تدعا أحداً يصل إليه
بمكره .. »

فصدع الفتیان . وتوجهت هذه الطائفة من بنى هاشم ومواليهم إلى باب
عثمان يترسون بصدورهم دونه ، ويذودون عن الشيخ الضعيف المغلوب ، عن ذلك
الرجل الذى غلبه زردده ووهن عزمه قبل أن تغلبه عدة عدوه وخصمه . وكانوا
بهذا أول من سلوا سيفاً لرد الثوار .

وخجل بضعة من الصعابة من أن يقوم على فيما قعدوا عنه ، فترسموا خطاهم
وبعثوا بأبنائهم كبعث الحسين .. حتى طلعت يمث ابنه ، وحتى الزبير أيضاً
خشية أن يرميا بقلة الروء . فما كانا فى الواقع يريدان قتل عثمان وإن أرادا
نزع ملكه عنه ..

ودخل الحسن من بعد على أمير المؤمنين ، متأهباً بمدته ، وفى يده سيفه ،
وعليه لباس القتال .. وقال له كأنما ينطق بلسان أبيه :

« يا أمير المؤمنين .. إني طوع أمرك فرأى بما شئت .. »

فلم تتغير لهجة الشيخ عنها من قبل ، وأجاب :

« بل اجلس يا ابن أخي في بيتك حتى يأتي الله بأمره .. »

ذاك رأيه الذي التزمه حيال مشورة على حين إرادته على التوسل بالقوة لفض الثوار وإعادة النظام ، تقيد به الشيخ حتى آخر لحظة من عمره ، وأراد أن يلزم به مناصريه .. ولكن الحسن كان قد تلقى الأمر من أبيه فوجبت له الطاعة . وحق عليه أن يدفع عن أبي الدفع عن نفسه وبات منها بمنزلة غريم !!

٦

أجال عثمان بصره فيمن وقفوا ببابه ، كأملي العدة ، مشرعى الأسنة تأهباً لرد الخطر عنه إن كان نعمة حاجة للكفاح ، وراح يستعرض الوجوه النبيلة التي لم تفسدها بعد الأيام ، فكلها مرايا لهذه القلوب الفتية الصافية التي تحنق في صدور هؤلاء الفتية الأجداد .. هذه زهرة هاشم ، نسله الطيب الكريم ، تم عن قدر ذلك الرجل الأول الذي أصبح ذكرى شذية تعطر التاريخ ، وتعيد الآن إلى الأذهان بموقفها النبيل صور نبلة وأريحية . لا قرين إذن له ولا شبيه في النفوس لهذه المروءة التي أنجبتها على الزمن رجالاً تعز في الرجال ، وتقل في الأشياء والأمثال ، وكفى بهم رفعة دونها تطاول الأعتاق والجباب أن كان منهم سبطا رسول الله ..

ثم أدار في عقله خواطره .. ها هو الموسم يقبل ، والناس يتهبأون في المدينة وفي بلاد الإسلام للخروج لبيت الله الحرام . والأمة كلها توشك أن تمضي إلى مقام إبراهيم . والشوق يملأ قلبه أن يسير في طليعة الركب فيزور دار الهجرة ودار دين الفطرة الفويم . ولكنه الآن خاصمه يومه وتبدل قومه . وأصبح من بيته في قيد حديد لا يستطيع معه أن يرحل إلى قريب أو إلى بعيد ..

وأعاد عينه ترمق الفتية ، وتغر بالوجوه النبيلة التي أحاطها غضبها من أجله وجوه أشبال ، وبالعيون النقية التي انمكس في صفائها لهب الغيرة عليه وتلونت نظراتها بإشراقه . وبالأجساد القويمة التي بدت لطرفه رماحاً . . . داره الآن كمرين بدر ، تلك الجنة التي أشرف منها على المعركة رسول الله ، وقام أصحابه حولها يدافعون عنه . . . فيالطوباه اليوم وهو يمرين يذود عنه حفيداً رسول الله . . .

وهفت للذكرى نفسه . وغامت عينه برقائق دموع ، ولكنه سارع فرقاها ليفرغ لما جاء فيه . فما عاد ثمة وقت يجوز أن يضيع .

ونادى بصوت رقيق بين الجميع :

— يا عبد الله . . . يا عبد الله بن عباس .

فانطلق الرجل إليه خفيفاً لسمع منه .

— لبيك يا أمير المؤمنين . . .

— اذهب أنت على الموسم يا عبد الله .

فاعترضه دون إمهال وهو يشير بسن سيفه إلى خارج الدار :

— والله للجهاد هؤلاء يا أمير المؤمنين أحب إلى من الحج .

— بل نشدتك الله أن تنطلق . إني قد استعملت خالد بن العاص بن هشام

على مكة ، وقد بلغ أهلها ما صنع الناس فأنا خائف أن يمنعوه الموقف فيأبى ويقاتلهم في حرم الله وأمنه . فرأيت أن أوليك .

وبث معه بكتاب ليقرأه بالموسم عسى أن يمطف عليه القلوب فيقدم

الناس من مكة ناصرين . وخرج ابن عباس يلتمس علياً لهقبته ويستأذنه في

السفر والقيام بالمهمة الموكولة إليه . والقوم إذ ذاك خارج الدار قد أوهى

جلدهم تواتر الأخبار بوصول الأمداد من الكوفة والبصرة والشام .

كانوا يديرون الأمر في أخلادهم فلا يستطيعون أن يجحدوا حلاً ينقذهم من

النازلة التي أوشكت أن تدهمهم وهم على الوعد الذي قطعه لهم عثمان من زمان

طويل ، وهو على النكت الذي أصر عليه . . . فلقد ظل الشيخ معانداً أبداً

لا يستمع لنصح راشد . ولا لمشورة أمين . ولا يعمل من جانبه لفض هذه الفتنة التي همت أن تسيل فيها الدماء وقاربت أن تفرق أمر الإسلام . بل استكان لتلك الطغمة الخاسرة من ذويه حتى قال علي — ذلك اليوم — فيه :

« ... ما يريد عثمان أن ينصحه أحد . اتخذ بطانة أهل غش ليس منهم أحد إلا قد تسبب بطائفه من الأرض يأكل خراجها ويستذل أهلها ... »
فقال ابن عباس وليس يسه في هذا المقام إلا الاسترحام :

« فلو رأيت أن تقوم دونه يا أبا الحسن ... فإن له رحماً وحقاً . »
فتكلمت الرقة في عيني ابن أبي طالب ، وتكلم الرثاء ... ثم تكلمت معهما قلة الحيلة بعد ما بذل في استصلاح شأن الأمير الذي نكبت معه كل وسيلة .

ومضى عبد الله ، وأوشك أن يخرج من المدينة اليوم كل راغب في زيارة بيت الله الحرام والطواف بالكعبة الفراء ... وعلم عثمان ومن بداره أن عائشة تتأهب هي الأخرى للمسير لمكة فلعله بعث إليها إذ ذاك يريد أن يستأخرها عساها تستطيع أن ترد عنه الثوار . أو لعل أحداً آخر من أهله أراد أن يرمي بهذا السهم الذي لم يبق سواء ... أو لعل مروان نفسه وقد رأى القوم يتحلبون لشر وقد أثارهم نبأ اقتراب الأمداد قد أراد أن يعمل على تسكين الناس حتى تفاجأهم الأمداد ... على أي حال لا نرانا نلبث إلا قليلاً ثم نجد ابن الحكم يستطيع بوسيلة أو بأخرى أن يغادر البيت الذي خربت عليه حلقة الحصار ، فيمضي إلى أم المؤمنين ومعه زيد بن ثابت ، يحاولان معاً أن يحملها على البقاء وعلى تسكين الثوار .

وتصغى السيدة لما يقولان ، وتفسر نفسها على الصمت والسكون حتى يفرغا من الحديث ، ثم لا تستطيع في نهاية الأمر إلا أن تهتف يزيد في لهجة ساخرة مبطنة بالاستنكار .

« وما منعك يا ابن ثابت ولك الأساريق قد أقطعكما عثمان وأعطاك من

بيت المال عشرة آلاف دينار ! ... »

فبهت زيد ولم يرجع عليها بحرف . وحاول مروان من بعده أن يتكلم
فهرته ، وأشارت له بالقيام . .

ونهب الرجل من مجلسها مستاء . وألقى حديثها العنيف بقلبه مرارة
ارتدت خلال حلقه فهمهم بكلام وهو يهيم بالخروج . .
ولكنها سمته بأذن المرأة التي لا يمز عليها سماع الهمسات . . فأسرع
أن صاحت به :

« يا ابن الحكم . . أعلّ تمثل الأشعار ؟ . . قد والله سمعت ما قلت .
أتراني في شك من صاحبك . . والذي نفسى بيده لوددت أنه الآن في غرارة
من غرائر غيظ عليه فألقبه في البحر الأخضر ! . . »

ولكنها حين خرجت فرأت كيف اشتد أمر الثوار خشيتهم على الشيخ
وامتلأت نفسها بالرثاء له إلى جوار سخطها عليه . . فلم تكن لتريد له ذلك
المصير المخوف الذي بات منه على قيد ساعات ، لم تكن تريد أن يراق دمه وإن
جاهدت طويلاً لتخرجه من أمره بعد يقينها بأنه أساء السيرة في الأمة ولم يعطها
حقها عليه . . غير أنها — مع ذلك — لم تستجب لرغبة مروان في البقاء حين
عاد إليها يقول :

« يا أم المؤمنين . . لو أقمت كان أجدر أن يراقبوا الرجل . . »

فأجابت . وهي تحاول أن توائم بين السخط وبين الرثاء :

« أتريد أن يصنع بي كما صنع بأُم حبيبة ، ثم لا أؤد من يعننى ؟ . . »

لا والله ، ولا أعير ، فلست أدري إلى ما يسلم أمر هؤلاء »

ثم رحلت عن البلدة ، كما رحل غيرها من كبار الرجال ليكونوا بعيدين
عن مهد الفتنة . فلا حقا نصرُوا وقاموا فيه ولا باطلا ناهضوا وأعانوا عليه .
ولكنهم فروا من الميدان تهيئاً من الكفاح ، وتركوا الخليفة المهيض الجناح
لا يجسد من يحمي ظهره أو يكفكف عنه ، بل هم في غالب الأحيان كانوا
قد ألبوا عليه من البدء لغاية عامة أو لغرض خاص وفي حسابهم أن تسير
الأمور على ما يشتهون ، فلما أن رأوا زمامها قد أصبح دونهم في أيدي

الثوار تواروا عن الأعين عسى أن تنام عنهم الظنون .

سار بها الركب حتى شارف الصلصل فلقبها هناك ابن عباس وهو يشق طريقه إلى قبلة الإسلام ... وراى لزاما عليه أن يتقدم فيحييها ، فإذا بها قد نسيت رثاءها لحال عثمان ورقبها له حين غادرت المدينة ، وهى طعمة سائفة بأيدي محاصريه ، ونسيت أيضاً استرحام مراون ومازالت كلماته فى سمعها ندية لم تطل عليها الأيام ... وأقبلت على الزائر نوغر صدره على الخليفة ، وبدعوه كسابق عهدهما مع سواء للتأليب عليه .
قالت له مخاطبة :

« يا ابن عباس ... أنشدك الله — فإنك قد أعطيت لسانا إزعيلا — أن تمخذل عن هذا الرجل ، وأن تشكك فيه الناس . فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ، ورفمت لهم المنار . وتحلبوا من البلدان لأمر قد جم ... وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح . فإن يل يسر بسيرة ابن عمه أبي بكر ... »

فما أسرع أن أجابها على الأثر ، كأنه علم خلاصة عرضها فأعد له الجواب من زمان طويل :

« يا أمة ... لوحدث بالرجل خدث مافزع الناس إلا إلى صاحبنا ! ... » واكتفى بهذه الإشارة القصيرة التى تقنى دلالتها عن كل بيان . وأحست بمرارة الخيبة وقد كانت تطمع فى نصرة ابن عباس ووقوفه إلى جوارها للكفاح من أجل الهدف المرموق الذى ترجوه . وبان لها هى المنار ووضح السبيل الذى سوف تسير فيه رغبات الناس ! ... فما هم إذن بناصرى صلاحها ولا بمجهمى رأيهم عليه . وليس المال أداة الترجيح فى هذه الحال ، ولكنها مزايا وصفات دون أثرها الفعال إغراء المال . أفئن دهم الأمر لن يفزع الناس لغير على ؟ ... لغير غريمها القديم الذى لا تملك إلا أن تضيق بسمع اسمه فضلا عن ضيقها به ؟ . لودت فى هذه اللحظة أن تكشف عن دخيلة نفسها نحوه أمام ابن عمه ... وأن

تذهب في إطفاء موجدتها عليه إلى المدى الذي يستطيعه لسان ناطق عن قلب حائق ... فما نسيته قط منحرفاً عن شد أزرها إبان قصة الافك ، ولا منافساً خطراً أراد أن يتزأبها خلافة الإسلام ، ولا شريكاً لها في حب زوجها يأخذ بعض نصيبها من قلبه الجدير بأن تضن به على غيرها من نساء ورجال ... إنها المرأة الخالدة ! .. إنها ذات الطباع والخلال والميول وإن هذبها كساء زوج الرسول ! .. رهل المرأة إلا أهواء ؟ ..

وفي هدوء يخفى مائار بصدرها من الضيق وشعورها بالخلالان ، هتفت ترسم نهاية الحديث ،

« إياها عنك !. إني لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك .. »

وانطلقت بالركب إلى غايته : وانطلق كذلك عبد الله ليتأوى على أهل مكة ومن حضرها من حجيج رسالة عثمان :

«... وجئت نسوة النبي حتى كلمتهن ، فقلت ما تأمرنني ؟ . فكان يؤمر عمرو بن العاص وعبد الله بن قيس ، وتدع معاوية فأعما أمره أمير قبلك ، فإنه مصمح لأرضه راض به جنده . واردد عمرأ فإن جنده راضون به ، وأمره فليصلح أرضه . فكل ذلك فعلت . وإنه اعتدى على ... كتبت إليكم وأصحابي الذين زعموا في الأمر استعجلوا القدر ، ومنموا منى الصلاة ، وحالوا بيني وبين المسجد ، وابزوا ما قدروا عليه بالمدينة .. كتبت إليكم وهم يخبرونني إحدى ثلاث : إما يقيدونني بكل رجل أصبته خطأ أو صواباً غير متروك منه شيء ، وإما أعزل الأمر فيؤمرون آخر غيري ، وإما يرسلون إلى من أطاعهم من الأجناد وأهل المدينة فيأرون من الذي جعل الله لي عليهم من السمع والطاعة . » ومع ذلك فلم يكن الشيخ قد أرضى حقاً الثوار وفعل كما أشاروا عليه ، بل هو أنف أن يخضع لمطالبهم ويستجيب لها ... وحتى عمرو بن العاص لم يكن رده بل بقي بعيداً عن الإمرة التي اختارها له .. ولو أن امرأاً في هذه اللحظة التي قرئت فيها رسالة عثمان استطاع أن يقطع الأطوال والمسافات

في لحظات ، لوسمه أن يرى ابن العاص جالساً بقصره المعجلان بناحية السبع من أرض فلسطين ، بمد أن ألب الناس على عثمان في المدينة ، ومد أن راح يؤلب نفوس من يلتاقم بأى مكان وبشكل مكان ، ومد أن غادره محصوراً بيته بهم به زمر الثوار . . . لو أن امرأ شاهده بمجلسه إذا ذاك لآه شديد اللهفه على مصير الأمير ، لآعن خوف من خطر دام أن ينزل به ، وإعما تمجلا لهذا الخطر أن ينزل . . . يستطلع كل ركب يمر به فيقول :

« من أين قدمتم ؟ »

فإذا جاءه جواب السؤال : « المدينة » قفز قائماً وسأل بلهفه وفضول :

« وما فعل ذاك ؟ »

« تركناه محصوراً شديد الحصار ... »

هنا يطمئن باله ويهدأ خاطره ، ثم يهتف بغبطة ومباهاة :

« أنا أبر عبدالله ! .. قد يضطر العير والمسكواة في النار ... »

ثم لا يمضى به سوى قليل حتى تأتبه الأنباء بمشتهاه ... فما انقضت بضمة أيام فلائل ، حتى جلس هذا الخافد الموتور نفس بمجلسه ، بقصره ذاك ، وقد أحاط به أبناء — محمد وعبد الله — ومهمهم سلامة بن روح الجذامى ، وصريهم إذ ذاك ركب راح عمرو يسأله كمادته حتى جاء الجواب الذى فيه شفاء نفسه :

« قتل ! »

فلعله أوشك على الأثر أن يطلقها صريحة ابتهاج ... ثم قال يفخر بموقفه من

الشيخ ، ذلك الموقف الذى أثمر انتصاره على غريمه بمد طول اصطبار :

« أنا أبو عبد الله ! .. إذ حككت قرحة نكاثتها ! »

وتريث هنية يحدد فيها زهوه ، ثم أردف يقول :

« ... إن كنت لأعرض عليه حتى إنى لأعرض عليه الراعى فى غنمه

براس الجبل ... »

ولقد صدق فيها قال . فلقد فعل ، ولقد ألب المدينة على عثمان ، وألب

صحبته . ومضى يعترض الحاج فيخبرهم بما أحدث الخليفة ويحرضهم عليه ...
صدق ابن العاص وملاً الأرض والقضاء بالدعوة إلى الخلاص من عثمان ...
حتى إذا أينع ثمره ، وقتل الشيخ ، وسالت دماؤه المسفوكة ، قام هو نفسه لا يأخذه
تلوم ولا استحياء ، وقد سل حسامه ليطاف بدم الخليفة المظلوم عثمان ! . .

ولكنها نفس ابن النابغة التي تبيع المحظورات حين تشاء ! وهي صورة
صادقة لكثيرين من معاصريه الذين لا نحسبنا مستطيعين تخيل حال نفوسهم
قبل الإسلام عادت هذه أحوالهم بعد تعاليم الهادية الفراء ... ولعل ما يملأنا
اليوم بالدهشة قد ملأ بعضه إذا ذاك قلب الجذامى ضيف عمرو ... فقد بهت
الرجل حين سمع حديث صاحبه ، وأخذ العجب ، وهتف به في استفكار :

« يا معشر قريش . إنه كان بينكم وبين العرب باب وثيق فكسرتوه ،
فما حكمكم على ذلك ؟ »

فما وجد ابن النابغة من جواب يحضره إلا التمويه والتمسح في الحق فقال :
« أردنا أن نخرج الحق من خاصرة الباطل ، وأن يكون الناس في الحق
شرعاً سواء ... »

أما المدينة فقد باتت بعد خروج عائشة هشيماً جافاً ينتظر الشرر . الناس
فيها على الأهبة ، والقلوب متحفزة ، والسيوف مشرعة .. وكان زيد ابن
ثابت قد راح ينشد في الأنصار ما لم يفز به عند أم المؤمنين . وأطمعه في
مناصرهم إياه أنهم قومه . ولكنهم قعدوا عنه ولم يجيبوه ، بل ركبوه بالسخرية
وعرضوا به . وكان الجواب الذي لقيه منهم تكاد ألفاظه تكون صورة أخرى
من رد عائشة عليه ، كأنهم والسيدة كانوا على اتفاق :

« تريد أن تمنعه ؟ ... فما يملك يا زيد أن تذود عنه وقد أعطاك عشرة
آلاف دينار ، وحدائق من نخل لم ترث عن أبيك بمثل حديقة منها !؟ ... »
أوضح اليوم مدى الخذلان الذي أصابه الشيخ لدى كلا الطائفتين :

المهاجرين والأنصار . وعظمت الفتنة ، واشتد الأمر وإن بقي مروان كدابه ينتظر أن يغير وصول الأمداد أتجاه الريح ...

ولقد جاءت أخيراً لحظة المرقوبة ، اللحظة التي ملأت قلبه ابتهاجاً وتقسه طمأنينة وثقة وردته كسالف عهده رجلاً يستطيع أن يزهى ويتمه على الفاس ... وصلت الأمداد ... جوعهم من الشام في طريقها الآن ، وجوعهم من البصرة تسكاد أن ترى المدينة رأى العين . فقد نزلوا بصرار ولم يمد يفصلهم عنها إلا مسيرة ساعات .. لا تسكاد ليلة واحدة تمضي حتى يكونوا طوع أمره وتصل بنارهم زمر الثوار ! ..

وفرغ الفاس ، وانطلقت جوعهم صوب الدار ، وأحاطوا بها من كل جانب ينادون عثمان وقد ملكهم الغضب عليه . فقصة الأمداد لم تعد شائعة تجول بالخواطر المضطربة وعلى الألسنة اللاغظة ، بل أصبحت حقيقة توشك أن تدمهم ببلاء ..

وانقلت من بينهم شيخ مهيب . طالت به أعوام عمره ، فتقدم الصفوف ، وفادى بصوت رافع جهير :

« يا عثمان ... يا عثمان بن عفان .. »

فأقبل الخليفة على النداء ومعه طائفة من أهله ومواليه . وتطلع من أعلا داره يشرف على القوم ، ويجيل عينه في الجموع الزاخرة تحتسه لا وفاق إذن اليوم ... ذهبت اللحظة التي كان يستطيع فيها أن يسيطر على عواطف الناس ! .. جاوز ركب الأحداث ركب تفكيره وتخلف هو وحده عن الزمن السباق ! .. وتطير . وقمدت عنه ثقته بنفسه وثقته بغيره ، فلم تعد الوجوه التي يطالعها الآن تنبئ عن خير ...

وعاد يسدد بصره إلى حيث جاء الصوت . وتفرس طويلاً في هذا البحر الزاخر من العيون التي أوشكت أن تعرفه بنظرات السخط ، ومن الوجوه التي اكتست نقاب الغضب الفوار . . وتبين أخيراً بينها صاحب النداء ، فهتف بصوت أراد له الثبات فخذله ووشى بسوء ما يعانیه :

« نيار الأسلى ! ... »

أجل نيار ، صاحب رسول الله ، قد أفلقه ما أصاب أمته من اضطراب ،
وخفى عليها الفتنة ، وأوشك أن يرى الفرقة دانية منها تهم أن تمزق
وحدة الإسلام ...

« اتق الله يا عثمان ! »

« فما تريد يا نيار ؟ »

كف عنا وعن نفسك البلاء ، واخلع عنك ما ألبسك الناس ، وقل هذا
أمركم فاختروا له أيها الناس ...

لم تبق وسيلة إذن إلا الاعتزال ؟ ... لبئس ما أشار به الرجل وأشار
الثوار !... ومع ذلك فهل من سبيل إلى اعتزال إمارة يؤمن عثمان أنها أمر له من
عند الله ؟..

وغضب الشيخ . وعز عليه أن يكون شأنه على قومه يمثل هذا الهوان .
وانطلق يجادل صاحبه ويعنف به ؛ ويعنف بالناس في المقال . ومضت لحظات
على التجمع وهو صامت صمت يرى ما سوف يسفر عنه هذا الجدل ...

فإن هي من بعد إلا لحظة خطفت كالبرق ثم اختفت كومضة ، تلفت الفوم
على أثرها مذعورين ، ثم سيطر عليهم وجوم رهيب .

ثم دبت الحياة فيهم بفتة . وأقبل بضعة منهم على صاحبهم المطريح .
يكذبون العيون ويقلبون جسده الهامد مشدوهين ، ولكن نفسه فارقة حقاً .
وانطوى سجله في الدنيا فلم يعد نية نيار ... لشد ما أسرع به حينه ، كأنه
السراج تفخته الريح !... مضى إلى مصيره المحتوم في لحظة ، وانتهى عهده
بالأرض وإن بقي عليها جثمانه ، وانقطع ما بينه وبين الحياة إلا جرحاً ما زال يتنفس
ويلمظ بقايا الحياة ... فهذه دماؤه ما برحت تنزف وتسيل تحت الأقدام تخالط
الحصى والتراب ..

... عادوا إلى الوعي ، وانتبه فيهم وحش الغضب على رائحة الدم المسفوك ؟
إنهم لا يعرفون أي العصابة المجتمة فوق الدار قد أصمأه . لا يذكرون من

منصره إلا أن سهماً لمع في الجو وحجراً ضخمًا قد انقض ثم انطرح الصريع ..
وتحركت جموعهم كوجه صوب الدار . وعلت أصواتهم المتهتجة كأن الأرض
تحتهم أضحت غابة يمج بزئير أسود ...

وبهت عثمان . وتلفت ترمق عينه أهله ومواليه وفيه نظرة حرج ونظرة
إنكار . فما كان يقر هذا القدر أو يرجو أن يتناول الأمر يمثل هذا الأسلوب .
وتصاحت تحتته الجموع تطلب أن يعينها على القاتل ويسلمها إياه . فليس ثمة صراع
يمكن أن يستباح فيه هذا الدم الحرام ، ولا زاد نيار عن إزجاء رأى ظنه يحسم
الشر وينتهي بالفتنة الناشئة إلى أحسن انتهاء ...

وتردد عثمان وهو يصفى إلى الزئير الميجاج . وملكت نفسه رهبة هذه
الفترة العصبية الحرية بأن يفت فيها زمام الجماهير من كل قائد وأمير . ولكنه
عالج هيبة الموقف بإظهار العزم والتوسل بالكبرياء والصلابة . وبقي هادئ الوجه
يحيل طرفه في الناس ثم يرده إلى العصبية الملتفة به لعل أحدها أن يشير عليه .
ولكن أفرادها جميعاً آثروا السكون ، وتركوا الخليفة وحده يواجه الأمر
حسبما يستطيع أن يسعفه جناحه ، ويزوى لسانه .

قال عثمان للجموع برنة قليلة المبالاة فيها مروءة وفيها كبرياء :

لم أكن لأقتل رجلاً نصراني وأنتم تريدون قتلى ...

فسرعان ما تاهب غضبهم كما تلقى زيتاً على النار .

وتأهب الفتية الواقفون بالباب . وأشرعوا الأسفة في وجوه من عسى
ستحدثهم نفوسهم لاقتحام الدار إلى الأمير الشيخ ... وعصف القلق بنفس
عثمان . وسرى منه إلى العصبية الملتفة به وهي توشك أن تلمس الخطر الوشيك
الزول ... ولكن رجلاً منهم كان راضى النفس ، بقى وحده ناعم البال في
هذا العباب المصطخب الفوار ثم انثنى يتسلل من بينهم في هدوء ، وقد
ومض ناظراه بلعة انتصار وأوشكا أن ينأ عما بقلبه من شحنة بالقتيل
وأصحابه الغضاب . وكانت بسمة غامضة تلعب بشفتيه تخفى خلفها كل عاطفة
ثم لا تخفى مطلقاً مطلقاً الاشتفاء ... أفهو ياترى الذي قدر الحساب ثم نقد

فأصاب ؟ ... أ كانت الخطة حقاً من نتاج تديره ؟ ... ألاح له شبح النصر من وراء الأمداد التي باتت على مسيرة ساعات فهان عليه الآن ما كان يخشى من بطش أعدائه مناجزى عثمان ؟ ... أ أراد أن يتمجسل ساعة الجلاء فأوحى لمن ألقى في الميدان بأول سهم ليـسـكون البادية بإرافة دم ؟ ... كلما سار المرء بذمته خلال هذه الفترة استطاع أن يوسع فيه لكل هذه الفروض التي لا تغاير طبيعة مروان . أجل مروان ... فما نحسب غيره كان وراء هذا الغدر وهذا العدوان . وحسبنا حماقته الشهور بها لتقرن به فعلته تلك . وحسبنا الرغبة الملحة التي كانت تسيطر عليه وتدفعه دائماً إلى التزام وسائله الخاصة في الغدر ومجافاة الوفاء . وحسبنا تلك الخشية التي أقضت مضجعه وتركته حليف ثم وهو يرى كيف هدفت ثورة الثوار إلى تجريدته من جاه المنصب وأبهة الحكم ... ليوشك الزمن أن يطالعنا بصور شتى من أسرته الأموية التي لا يقف بها خبث الذرائع والمقدمات دون بلوغها المقاصد والغايات .. ليوشك بين عهد وعهد أن يكشف لنا في سجلهم عن ألوان الغدر تررى بكل إثم ووزر وإذا كلن الأمس قد كشف لنا عن هند ووحشى العبد الحبشى تدفعه ليصمى أسد الإسلام ، فإن اليوم انكشف عن مروان وعتيقة أبي حفصة اليماني يدفعه ليصمى داعية السلام ... ثم لعل الغد لا يمجز من بعد عن مطالعتنا من هذه الصور البغيضة بأمثال وأمثال على تعاقب الأجيال .

٧

ثبت الفتية الواقفون بالباب فلم يرعهم الموقف ، ولم يذهلهم حماس الثوار عن مراسمهم وشكيمتهم ، بل ألفوا بالرماح والسيوف سوراً دونه الختوف ، لا يكاد يقترب منه جمع حتى يتفرق ، ولا تأثر هائج حتى بعيده إلى وعيه خيال حينه . ووقفت الآلاف المهيثة دون اقتحام الدار .

وبدا مروان من قريب ، على وجهه سمات اعتزاز ، وفي عينه نظرات تهاون
وبيده سيف مصلت حديد السنان ، يتيه به ، ويدل بقدره وحسن بلائه كأنما
تحله الحسام ملاك الحمام يوشك أن يفرقه على أخصامه كما يشاء ، ثم راح
يرثجز ويقول :

قد علمت ذات القرون الميل والسف والأنامل الطفول .
أنى أروع أول الرعيل بغاره مثل قطا الشليل .

فأراه هثام حتى سارع إليه يحول بينه وبين ما يريد ، ويجذبه من ردهائه ،
ويناشده ألا يزيد في استعمار النار .

« اجلس يا مروان . »

« يا أمير المؤمنين ... »

« اجلس فلا أراك تخرج . »

« والله لا تقتل ولا يخلص إليك وأنا أسمع الصوت . »

ثم انقلت خفيئاً إلى الباب بعيد ارتجازه ، بنفس اللهجة الساخرة ، وبنفس
النظرة المستهزئة ، وسيفه يكاد أن يمس العيون التي ودت نظراتها المتهبة أن
تحرق كيانه المقيت ، وهو لا يكف عن تحديه إلا حين أخذ يهتف في خيلاء :
« رجل رجل أيها الناس ! . ألا من يهاز ؟ . »

وخطر أمامهم في تيه وتجبر ، فما وسع القوم إلا أن يضيّقوا بصلفه .
وغلبت عليهم الحمية فأنشبوا القتال . واطلقت جرعهم كالسيل المتحدر صوبه
إلى ناحية الباب ، وكان ابن هديس قائماً إلى قريب يسند ظهره بمسجد الرسول
ويشهد الأمر عن كثب ، فما رآه وسمع تحديه حتى أشار يهدوء إلى فتي من
أعوانه وقال :

« قم إلى هذا الرجل يا غلام . »

فاستجاب للأمر شاب طوال مديد القامة ، أسرع فتمنطق بدوعه ، وسل

حسامه ، ثم مضى إلى مروان .

وكأنما رأى عثمان الخطر الذي يجثم وراء هذا التحدي ، والصير القاتم

الذى ينتظره ويبتظر أهل بيته غب البارزة . فلا الناس مردودون إن أصاب صاحبه واحسداً منهم ، بل هم أولى بأن تفيض بهم فورة الغضب وحمة النار فينقلبوا إلى الدار كهمم النار ، ولا هم إن فازوا بمروان غير طامعين بعده في الظفر بمن عداه . هذا خاطر كفيل بأن يحول إذ ذاك بذهن الشيخ فيبصره بموقفه ويرده إلى اصطناع الحذر قدر ما يستطيع . ولقد انكشف له من خلاله مصير ليس محمد معه السكوت فهم يحاول درأه ، ويعمل جاهداً على الخلاص منه قبل استفحال الأمر . ولكن الحمية الروائية — أم الحماقة ؟ — كانت قد تناولت وحدها الزمام ووجدت الناس فيها جسراً للمنف فعبروا عليه . فإذا الموقف في لحظات قليلات يفتكث فيقابل الكيد بالكيد ، والصمام الذى حكم حتى الآن بغضاء الثوار يفسد فلا يحسكها شيء .

الحماقة الروائية أرثت النار النائمة تحت الرماد ، ودفعت الناس في ركاب الأحقاد . . . فما رفع الرجل سيفه في وجه الثوار حتى فتح على نفسه وصحبه باباً للفتنة ليس ثمة من يستطيع أن يسده اليوم ، وانطلقت الجوع إليه مشتعلة النفوس ترأروا وتصخب ... وتنادت من كل جانب نطلب الثأر ، ونطلب قبله الظفر بالشيخ الذى جراً هكذا عليها صاحبه ، وركب حقها — الذى طالما أقر لها به — بباطله الذى أبى إلا الإصرار عليه ... أما عثمان فقد أوشك صوته أن يضيع في ضجة المكان وهو يصيح بمواليه :

« من أحمد سيده فهو حر أيها الناس ... نشدتكم الله ... من أحمد سيفه ... »

ولكن حماسة الجلاد أصمت دونه الآذان ، وراحت طوائفهم تتبع الفتية القلائل الذين وهبوا أسنهم للذود عنه . ولم تحمل النار التي أنشبهها الثوار بالباب وبالسقيفة بين كتيبة الدفاع وبين ما أخذت أنفسهم بالأضلاع به ، بل لعلها كانت سياجاً حائلاً دون الناس وولوج الدار ... ووقف الحسن في اللهيبي المشبوب يضرب بسيفه ، ويشد أزره مصحبه الشبان من أهل بيته

ومواليه وأبناء صحاب رسول الله ، لا ينكثون ، ولا تنبو في أيديهم السيوف ،
وتصايح بهم ثانية عثمان :

« يا الله الله ! .. أنتم في حل من نصرتي ... من كانت عليه طاعة فليمسك
داره ، فإنما يريدني القسوم ... »

ولسكنهم لم يسمعوا له ، واستغرق الكفاح وعيمهم كله ... حتى إذا رأى
الشيخ أن شجاعة الحسن وحسن بلائه اعلمهما أغريا الفتية على الثبات ، أقبل
وقد بدت في عينيه نظرة تقدير وبانت خشيته عليه ينأشده أن يكف ليجنب
أباه رزاه فيه ، فيقول :

« يا ابن أخي ، إن أباك الآن في كرب عظيم ... فأقسمت عليك لما
خرجت ... »

فما ألقى الفتى بالآ إليه ، ولا توقف عن القتال سيفه كأعما كان نذره لرقاب
الثور ! .. ولم يقعد به جرحه عن مواصلة الجلال ، بل هو كان أدعى لإثارة
حماسه ، ولم يلق الخشية في قلبه أن أصيب الحسين وأصيب قنبر خادم أبيه وهما
ذراعاه والذائدان عنه وعن عثمان في آن . بل الدم السائل دعاهم داعيه فلبوا
النداء ... ومضوا غير هيايين في قلب المعركة يختلط في وجوههم العرق بالدماء
وهم من النار التي التفت بهم كأنهم في لاتون .

وعسر على الخليفة أن يحسم القتال الناشب . فما استجاب له إلا نقر من
مواليه آثروا السلامة مع العتق على المناجزة مع الرق ، ومضى مهموماً إلى حجرته
ينوء إلى كتاب الله فيستروح به . وجلس والمصحف بحجره يرتل حتى غاب مع
التنزيل في عالم من الفكر بعيد .

وعسر أيضاً على الثوار أن تفشل حركتهم ، وأن يكون فشلها هكذا
على يد بضعة نفر من الفتيان قربوا صدورهم للأسنة المشرعة فأخطأها ،
وقدموا للموت رقابهم فنكل عنها الموت واجتبتهم الحياة . . . وراحت
الجموع الزاخرة خارج الدار تجمد الأذهان في بلوغ غايتها ، وتفرقت هنا
وهناك طوائف ، بعضها يجالذ الحياة ؛ وآخرون يدبرون وسيلة لإنجاز ملجأوا

فيه ، وثالثة تعلق الأنظار بهذه الصورة الجديدة التي أراد أن يرسمها لهم مروان .

أجل ، كان مروان إذ ذاك قد خرج يصاول ، والتأم سيفه بسيف غريمه الغلام ، وكانت فئة واقفة لا تنشب قتالا قد راحت نلتف بهما للشهد لأيهما سوف ينمقد النصر ، ومعنى الجميع أن يسقط الخصم لمفوض ، وأن ينزف — مع دمه — صلفه من جرح قاتل يصيب قلبه ، وأن تنجاب البارزة عن جسده لقي على الأرض لعل تقوسهم أن تشتني به ، ولكن أمنياتهم هذه كلها ظللها خوف على غلامهم ألا يكون ندا لهذا الشقي وقد رأوه بدل بسيفه كالوائق من قدره وخطره .

وتصاول الحصان ، وحسب الناس أن سيشهدوا مبارزوه تجل في النظائر ، وعلقوا الأنفاس من خشية ومن رجاء ، ولكنها كانت لحظة مضت كلح الطرف تحرك فيم السيفان ثم سقطا ، وسقط بعدها الغريمان .

وبادر الثوار إلى صاحبهم ، فاطمأنوا إذ وجدوه قد أخطأته ضربة مروان فلم تصب إلا من قدمه ، وأسرع بعضهم إلى غريمهم ليشتفوا منه فازعجهم أن سيف فتاهم لم يسلبه حياته وإن قطع بعض عنقه . وانطلق إليه على الأثر رجل منهم رأى السلامة في اقتضائه كل نفس ما زال يتردد فيه .

فسرعان ما أتقذه حسن طالعه كأنما الأقدار أرادت أن تملي له وتبقيه على هذه الأرض حتى يفرغ كل ما في جعبة طغيانه ! . بدت في التو فاطمة ابنة أوس كأنها نبت أطلعت أتناس الشيطان ، ووقفت بهيكلها الذاوي لتحمي الطريق وتدفع عدوه . ثم مالت عليه تجره إلى مأمن وتبتمسد به ، فما كانت حياته تهون عليها وهي ظأره التي ألقته في مهده ثديها فأصبح منها بمشابة ابن .

وصاحت بالرجل الذي هذا خلفها يحاوي أن يدف على الحرج :

« يا ابن رفاعه حسبك ! إن كنت إنما تريد قتل الرجل فإنه قتل ، وإن كنت تريد أن تلعب بلحمه فهذا قبيح . »

فكف يده عنه وفي حسبانها أنها صدقته . وردته عن الشق خديمة
المعجوز . .

غير أن القتال لم يتوقف ، بل تسمر واشتد ، فما صبر رجال عثمان حين
رأوا مروان بادية الأمر يخرج إلى الوطيس ، ولا تريثوا عساء بصيخ لنداء
الخليفة . بل انطلقوا عصابة خلفه يحملون على جموع الثوار ، ومضى في أثره
سميد بن العاص في طائفة تحاول أن تشق حلقة الحصار . وخرج بعدهم المغيرة
ابن الأخنس بن شريق بصول صواتهم . وينضم إليهم بين فترة وثانية من وسمهم
أن يغادروا الدار ليظاهروهم ويرجعوا كفتهم ، فما هي إلا سويمة حتى تفرقوا
في النهار كالقطرات ، واتقوا من شكيمة القوم ما ردهم عنهم فآثروا أن يلوذوا
ثانية بالدار أو يستخفوا بدروب البلدة من الثوار . وبدا الميدان بعد قليل خالياً
إلا من أشلاء فريق منهم ودماء آخرين . . . أما الفتية حاة الباب فلم يبرحوا ،
ولم تكل في أيديهم السيوف ، وإنما ظلوا ينضحون عنه كأنما تعاقدوا بأرواحهم
عليه ، وجرح سبطا رسول الله ، وشج قنبر مولى علي ، وأصيب عبد الله
ابن الزبير ، ثم جرت دماؤهم تحت مواطئ أقدامهم كلون اللهب المشوب فوق
رؤوسهم بالسقيفة ، فلا فرقهم ألسنة النار ، ولا أرهبتهم أسنة الثوار .

وتفكر زعماء الثورة في الأمر وهم يرون هذه الحفنة من حاة الباب ثابتة
لا يفل عزائمها لسع ضرام أو حد حسام . وأوشك اليأس يقعد بهم دون ولوج
الدار ، وأوشك أيضاً أن يعصف بقلوبهم القلق من مصير يجهرل يكاد أن
ينفجأهم بعد قليل ، فما نسوا أن جيش الأمداد في الطريق لا يفصله عنهم
إلا ساعات ، وأن أنباء المعركة دخلت الآن كل بيت وهي حرية من بعد أن
تخرج سراعاً من المدينة فيلقها الجيش وينبرى يناجزهم حتى تذهب ريحهم إلى
غير بقاء ، وما نسوا أيضاً أن خطراً آخر يكاد أن يدهمهم من داخل البلدة
ثاراً لصرعى سيوفهم وجرحاها ، إن قريشاً لن تصبر لهم على إيذائهم رجالها .
وإن بني هاشم قبلها لن يدعوا دماء زهرتهم تجف على الأرض دون أن ينهضوا

لكفاح مريقيها . وإذا ذكرت هاشم فقد ذكر على ووجفت قلوبهم
لذكره ، ثم أيقنوا بانتفاض أمرهم عليهم وضياع ثمرة نصرهم هذا
وثمرة ثورتهم .

أداروا الفكرة في رؤسهم فما رأوا غير البدار إلى اقتحام الدار ليحفظوا
عليهم نتائج الكفاح . ولكن دون الباب فتية كالليوث الغضاب ، وقفوا
يمنعون الخليفة الشيخ من أيدي قدره . وما نحسب عثمان في هذه الآونة وهو
يرتل مصحفه إلا كان هادئ البال إذا ودع أكتفهم مصيره . إنه بسيفهم
في قلعة وإن ولي عنه أكثر أهله ومواليه ، ويصدورهم في جنة حصينة لا يخترقها
أشجع مناجزيه . قد أمن بمجاسه أن يناله سوء وقد سدت السبيل الوحيدة
التي يجتازها الخطر إليه .

ولكن النازلة لا يعيها التماس الأبواب والمسالك إذا فرغ الأجل ولم تعد
فيه بقية لإمهال . . . فمن مأمنه أتى عثمان . تسورت عليه داره عصبة من الثوار
نقذت خلصة من دار جيرانه بنى حزم أولئك الذين كانوا أحياناً يمدونه بالماء
حين تضيق عليه حلقة الحصار . وكان إذ ذاك هادئ البال قد استراح إلى
مصحفه فوضعه بين يديه وراح مع الآيات في عالم روحى بميد عن هرج الناس ،
وبعد عن الحومة باله ، وفي فكره في السطور التي كان يطالعها بعصره ،
وصفت نفسه فما عاد يشغلها هم دنياه ولا هذا الخطر الذي أخذ يزلزل تحتها الدار .
فالوت والحياة إبان صفاء الروح سيان ، بل لعله في هذه الآونة كان جد مشغوف
بالرحيل عن الأرض ، يود لو استطاع تعجل قدره واستباق الزمن إلى اللحظة
التي ستكون مجازاه إلى العالم الأخير ، لشد ما طال عمره فطال به شوقه إلى لقاء
الرسول ! وما أبطأ زمنه اليوم من أداة لهذا اللقاء . . . إن روحه تنهفو إلى محمد
ونحن حينئذ لم نعرف له من قبل هذه الحلاوة ، وإن قلبه ليكاد أن يثب إلى دار
الخلد ويخلف جسده لو استطاع ، وإن سمعه ليستطيع الآن الكلمات القلائل
الرفيقة التي سمعها بحلم ليلة أمس فيستعيدها مشوقاً فتنساب إليه شجبة بغير
صوت لأنها حديث روح لروح . هذه هيثة محمد ، تبدوله فلا يراها بعينه فحسب

وإنما يستشعرها بكل كيانه وقد ملأت عليه مسرى أنفاسه ، لا تقهّب عن
خاطره ولا ناظريه ، بل تلوح له في فضاء حجّرتة ، وعلى صفحات المصحف ،
وفي حينها امتد بصره ، ثم لا يني يسمع منها نفس الدعوة التي أسمته بالأمس
أثناء الحلم :

« . . . افطر عندنا الليلة . . . »

ومضى في التلاوة وقد زاده الصوم رقة وصفاء . يتنقل بين السور والآيات
ولا يكاد أن يلقى نظرة إلى ما يدور في الخارج . وأحس بالشف يقرب منه
وترامى إلى أذنه صوت كلام مضطرب كأنه الهمس أخذ رويداً رويداً يبين
له . . . ولكنه كان مشغولاً عنه بما في يديه . فما كثره ما سمع ولا نال من
هدوئه ، بل طفق صوته يرتل كلام الله .

ووضح الضجيج بعد قليل يختلط بصوت الخطا السائرة في اضطراب ،
وعلت الحركة ، وسادت الردهة خارج الحجرة ضوضاء فيها لغط وفيها وقع
أقدام كلها تنم عن طائفة استطاعت أن تفتح على الشيخ داره وتخلص إليه ،
وكأما يومئذ إلى الخطر الداهم الذي يوشك أن ينقض عليه . ولكنه في هذه
الآونة كان في عالم من صفاء الروح ، القرآن فيه حاديه ، قد سار به أشواطاً
باعدت بينه وبين الناس حتى نسيهم فلم يأبه لما يتقوّه من شرور ، بل كان
هادئ الوجه ، عامر القلب بالطمأنينة وقد بلغ من تلاوته إذ ذاك قول الله :

(. . . الذين قال لهم الناس إن الناس قد جموا لكم فاخشوهم ، فزادهم
إيماناً ، وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل . . .)

ثم بدا من فرجة الباب رويجل كأنه ذئب ، صاغ الله وجهه على هذه
الشاكلة ليكون مرآة صادقة للغدر الذي ينطوى عليه قلب إنسان ، تطلع
بعينيه لما كرتين برهة في الحجرة ، ورعى بنظرة صفراء إلى عثمان ، ثم ارتد
سريعاً كما جاء ، أكان هو يا ترى طليعة الطائفة التي دخلت الدار ؟ .

وقالت لحظة ، وتبعها ثانية كأختها في هدوء . ثم امتلأت على الأثر
الحجرة بالجمع الغدار . . . ولم يرفع عثمان إليهم عينه ، ولم ينح المصحف عن

موقعه من حجره . ولم تصمت شفتاه مطلقاً عن التلاوة بل ظل يردد الآيات في هدوء ، حتى حين تماوروه بالأذى كان كمن غاب عنهم بوعيه وإن حضرهم جسمه . وأقبل بعض نسوة الدار على الضوضاء . وصرخن وقد شهدوا الواقعة فأنجفل عنه العادون . ولكن خلفوه هامد الحركة وقد حسبوا أنه فارق الحياة . ولكنها كانت غشية أفاق منها الشيخ بعد قليل ، فلما فتح عينيه حتى دخل عليه محمد بن أبي بكر . . . في البدء ظن الفتى — وقد سمع الصراخ — أن عثمان قد انطوى من الدنيا سجده . فلما اجتاز باب الحجرة إليه ورآه ممافي ، صاح به وهو لا ينسى موجدته عليه مذ أوشك أن يفرى عامل مصر بالفتك به :

« أما أخراك الله يا نعثل ؟ » .

فابتسم عثمان بسمة مرة ، فقد أوشك في هذه الآونة أن يسمع عائشة

بلسان أخيها ! . . ثم قال يجيب الفتى في هدوء :

« ما أنا بنعثل ، ولكني أمير المؤمنين » .

فابتدره محمد بتهمة ساخرة ، وقال في استنكار :

« فقل أي دين أنت ؟ . . »

« على دين الإسلام » .

« بل بدلت كتاب الله » .

« كتاب الله بيني وبينك » .

ومد بالمصحف يده وهو هادي الوجه فأثار غضب الفتى حتى قفز يتسكك

يلحمته مستهيفاً بشأته ويصيح :

« ما أغنى عنك معاوية ؟ . . وما أغنى عنك مروان ؟ . . وما أغنى عنك

ابن عامر ؟ . . إننا لا يقبل منا يوم القيامة أن نقول : ربنا إنا أطمنا ساداتنا وكبراءنا

فأضلونا السبيل . . »

فما دفعه عثمان ، ولا حرك يده محوه ، بل قال بصوت هادي رقيق وعينه

تبحث نحوه بنظرة عتاب وحنان :

« يا ابن أخى ، دع لحيتى فقد كان أبوك بكرمها ، ووالله لو رآك لكانى ،
ولسأله مكانك منى ... »

فكأنما الزمن قد ارتد بمحمد إلى طفولته وكلمات الشيخ لم تجف على
شفتيه ، انتفض الفتى ، وهزته الرقة التى خاطبه بها عثمان . وبدأ كأن عاد ثانية
إلى محضر أبيه قبل عشرين عاماً ، طفلاً طرى العظام يتهيب بحس أنى بكر ولا يكاد
من حياته أن يصوب إليه بصره ، لاح كأن أباه اليوم قد امتدت عيـنه من
خلال الماضى فرمقته بإنكار ، وتقبت فملته بالزراية الواجبة لكل فعلة تنفلوى
كشلها على إغفال التوقير المفروض على الصغار حيال الكبار ، من خاف الأعوام
مثل أبوبكر فى خاطر ولده فردده كما كان فى حياته ، يستشعر الرهبة والخشية فى
حضرة أبيه ، ويتوقى أن يمد لسانه فضلاً عن كفه بما يثير غضبه عليه ، فى
مثل اللامح فنيت شخصية الفتى القوى الصخاب فى صورة الطفل الحى الهياى
فغاب عن باله كل جبروته ، ومضى عنه اعتداده بنفسه ، ولم يبق منه إلا الطفل
الآثم أمام عيني أبيه وقد كادت أن تنسمرا عليه .

فإن هى إلا تلك الكلمة الرقيقة نطقها عثمان حتى سابت الذكري محمد ابن
أبى بكر كل إرادته ، وجاءت بطفل الماضى على جناحها ، ضعيفاً أخزاه إثمه
فاخفى وجهه فى كففيه عساه ينأى عن نظرات أبيه الغضبي ، ثم أسرع به قدماء
إلى الباب ودفعه يبتدر ، وقلبه من فرط الحزى يكاد أن ينفطر ، ولقى هناك
عصبة بهم أن تخلص إلى الشيخ فتتال منه ما لم تنل ظليعتهم ، فوقف يسد أمامها
المجاز . لقد انقلب الآن غيره . بالأمس ، وارتد آخر يستشعر واجباً جديداً
نحو عثمان . إن ذكرى أبيه حملته رسالة واجبة الأداء نحو هذا الصديق المخذول
فى ساعة المحنة التى عز فيها الناصر وولى الولى الأمين .

جاهد محمد أصحابه ودفعهم عن الباب بعنف أنكره منه وملاً نفسهم
بالمعجب قبل الغضب . ولكنهم ما كانوا ليدعوه بحرمهم عمرة جهادهم وهى
دانية فهد الأنامل . أو يركعوا إلى النصيح الذى محضهم إياه إذ ذاك وإن عرفوه

من قبل ثأراً كثلهم يمتنى بنجاح خطتهم كثل عنايتهم ، ولكن المداورة التي انتهجوها بادی، الأمر حياله لم ترده عن عناده ، بل جعلته أشد مراساً وأصلب شكيمة كأن أبا بكر كان على رأسه إذ ذاك ! .

غالبهم الفتى ما وسعه ، وردهم عن باب الشيخ الذي أقدموا يحملون له الموت فما أغنى غلابه ولا كفاحه ، وما أغنى عنه ندمه أو حياؤه اللذان سددوا تصرفه في هذه الآونة التي كان القدر قد أتم فيها رسم طريقه إلى مصير عثمان ... فقد ظفرت العصبية أخيراً بما شاءت ، وغلبت محمداً على موطن قدميه ، ثم جاوزت الباب إلى الخليفة المستسلم لتقدر الله .

وبدأت في التو المركة التي سادت فيها فوضى الجمهور ، ليس يسيرها عقل ، ولا تمسكها حكمة ، الحيوانية البشرية وحدها هي التي كانت تعمل ، والهمجية الرابضة في نفس الإنسان استتوت مارداً عاتياً يشبع شهوته من الحسد والضغن والانتقام ... لكان كل واحد من أولئك الثلاثة عشر الذين اقتحموا على الشيخ حجرته كان شيطاناً لم يعرف قلبه طعم الرحمة ، ولم يستشعر مطلقاً عاطفة نبيلة جرت في جنبيه ، بل انطلق بهم جميعاً الغل إلى غايته حتى لودوا لو كان منهم مائة كف في كل كفة مائة حربة ، لكل حربة ، مائة ذؤابة يطعنون بها الخليفة الأعزل ! .

كان الشيخ مأدبة لذئاب نفوسهم المهومة ! . أهوى عليه أحدهم بحديدة ، وعاجلة ثان بلكزة من نصل حسامه ، ووجأ ثالث بمشقص في رقوته ... فلما هاض وأوهى قوى لم يمهلوه ، ولم تأخذهم الشفقة بضعفه ، بل أمعنوا في فسوتهم كأن لون الدم الذي أخذت تلفظه جراحه زاد وحشيتهم ، وتعاوروا عليه بكل أداة ملكتها أيديهم ...

ثم جاء رجل قد أفرغ من قلبه الإيمان فتقدم بسيفه إليه ، وضرب المصحف برجله فأطاحه ... وحز الألم في قلب عثمان وقد رأى قرآن الله يتهم هذه المهانة ، وعجز عليه أن يدعه لقي فوق الأرض فجده وسمه ليلقطه . فإن هي إلا

حركة دارها النصل حتى انفصلت الأصابع الراءشة عن كفها ، وسقطت تنفض إلى جوار الكتاب .

والتقى عثمان عينا دامعة على سلاميئة اللقاء ، وعض على شفته من فرط وجعه ، ثم رفع إلى جلاديه وجها يفضح بألمه العميق ، وهمس بصوت خافت لا تكاد أن تلتفه الأسماع وهو يهز أمامهم كفه البتراء :

« أما والله ... إنها لأول يد خطت الفصل ... وكتبت آي القرآن ... » وأقبلت نائلة على الأثر ولهي ، تحاول أن تحجز بين زوجها وبين عداته ، حتى خلصت إليه ... واحتوته في صدرها كطفل وهو يفوء ، وأكبت عليه حين سقط فسترته عنهم ، وجعلت من جسمها درعا تقيه ، ورأت سيفاً يلعب نصله كالشهاب فوق رأسها ويهم أن ينفقض على الشيخ فسارعت بكفها لتلقاه وتدرأ ضربته الصاعقة عن زوجها المهيض ، ولكنها لم تغن شيئاً عنه في النهاية بل لقد اندفعت من الغرفة تولول ويقفوا أثرها خيط من الدم الذي نبع من منابت أصابعها المقطوعة ... ومضت لاتتبين طريقها بعد أن خلفت عثمان هامد الأتقاس ، قد نال جلاده الوطر وإن بقي يتمتع نفسه بالمثلثة كما يشاء ، ويضع السيف في البطن المبقور ، ثم يتكىء بصدره على مقبضه ليغوص فيه النصل كاه ، كأنما أراد أن يسمع قرعة عظام ظهره وهي تنقص تحت وطئه كقطع لحاف .

وقضى الأمر ، وانطوى سجل عثمان .. وبدأت الحجرة بعد قليل فارغة إلا منه إن بقي من جسده الشائه ما يفيء عنه ، وكان الدم لازال دافئاً لما يبرد ، سيالاً يفيض من جراحه ، ويتحدث بلسان صامت عن الهمجية التي لم تستأصل جذورها من النفس البشرية قوة دين وكن نأشئ لم يحف بعد المداد الذي كتبت به تعاليمه ! .. فلقد رقد المصحف بجوار الجثة غير بعيد منها ، عنواناً على السلام الذي أراده الله ورسمه في آياته للإنسانية ، إلى جانب الوحشية التي أبت إلا أن تنفض عنها النفس البشرية ، حتى المصحف المقدس أصابه من عفت الإنسان بلا . ومن كفرانه اعتداء ... ولكنه في صمته كان أبلغ من كل حديث يستطيع

أن يصوغه فاطق مبین ، فلقد حدثت في هذه اللحظة آية لمن أراد التماس العبرة من هذه القصة الفذة في العدوان . . . كان دم الخليفة لا يبي ينبع ويبدأ من جراحه ، وينطلق قليلا قليلا في نفثات كأنتاس النزع ، ويتجمع قطرات تلساقت على صفحة مفتوحة من الكتاب ، حتى إذ غاض النبع ، وجمدت الجراح وجف سيل الدم المراق على الآيات ، بدت هي من تحتها مكسسية لونه ، حمراء قانية كأنها توميء إلى غضب الله الساهر الذي لا ينام ، فتقول بغير لسان في أوضح بيان :

« فسيكفونكم الله وهو السميع العليم »

ونفذ القاتل — وسيفه مازال يقطر من سنامه دم الخليفة الشهيد — فاندفع في غمار الثوار ، على وجهه سمة الذئب المرتوى من دم فريسته ، وفي عينيه بسمة شماته كربة ، وبقلبه قد استراح وحش الغدر وطاب مهده . . . مازال يتفرس في الوجوه المتطلعة نحوه ، ويبحث خطاه بين الجموع ، ويشق طريقه غير مبال بما يثيره في النفوس مظهره المريب إذ يصبح :

« قتل عثمان ! . مضى الرجل أيها الناس ، فأين طلحة بن عبيد الله ؟ »

ولكنه لم ير طلبته ، ولم يستطع أن ينبئه الخبر الذي كان يزجيه كالبحري السارة . . . فقد غاب عن الحومة طلحة ، وانزوى بعيداً حتى لا تلتصق به الشبهات ، ففاته أن يشهد بعينه الثمرة التي طالما تعهد غرسها الخبيث .

. . . وغام ضوء الحجرة مسرح الأساة ، واخذ لون السماء خارجها يتحول دامياً وقد صبغه الشفق ، وكان الأفق البعيد يوشك أن يتلقى الشمس التي أوهنتها رحلة النهار وهي تنزلق نحوه ويبدأ لتخفى وجهها المحزون في نقاب المساء . ثم راحت أطياف تنفذ خلال الشرفة ، خافتة كخفقة السراج الجاف ، وإنساب شمع وان إلى جثمان الطريق يمسه ، ويمر عليه في ترفق كأنه أم حانية مدت كفا لتوقظ وليدها الوسنان ، فلقد طال رقاده ، وأن له أن ينتبه ويتبها لموعده المرفوب مع الرسول الحبيب . . . أليس الغروب قد آذن الآن بانتهاء الصيام ؟ . . .

الامام

كان المساء قد ألقى ظلاله على الدار وامتد يلف ما حولها من رحاب ، وكانت جموع الحصار حيرى ، قد ألفت السلاح ووقفت واجمة تعلق الأبصار بموئل الخليفة الصريع ، كأن قد هالها ما أقدمت عليه ، شملت الرهبة التي غلقت السكان كله ، وعمها الصمت حتى لمسمع تردد الأنفاس .

وكانت الغرفة التي شهدت المصراع ساكنة كأنها قبر وإن وسمها ظهر الأرض ، معتمة وإن طوفت بها أضواء النجم السارية من خلال الهرفة ، لا يبدو شاغلها إلا كأشباح . منذ انجاب ضجيج المعركة لم تمتد لها يد بالتغيير ، بل بقيت كحالها ، في جانب رقد جثمان عثمان ، لف من دمائه في ثوب . وعلى مقربة منه المصحف المضرج ، مازالت إلى جواره سلاميات الأصابع ، مختلطة لا يعلم أيها للشيخ وأيها للزوج الشكلى . والأرض كلها حمراء قانية ، لونها ما سال من جراحه وجراح جلاديه ، فإلى الباب رقدت ثلاث من جثث الثوار دفع أصحابها من حياتهم ضريبة الجريمة ، وقيد خطوات منها بضعة قليلة من موالى عثمان آثروا أن يثأروا لسيدهم فقاتلوا عنه حتى تبعوه إلى المصير المحتوم .

ثم تحركت في الغرفة ظلال حيرى ، انبعثت عن نقر دخولها بغير ضجيج كما تتحرك الأشباح . لكأنما كل حاضر نبا به الآن موطىء قدميه فليس يستقر على أرضها القانية بمكان . الرهبة ملكتهم ، والأسى عصف بقلوبهم فما زالت قوة اضطرابها في جنوبهم تهز كيانهم فتردهم إلى وراء أو تدفعهم إلى أمام . العواطف سيطرت على خطوهم ، والشاعر الجياشة كانت الفؤاد الذى يلعب بالقارب السارى في غمار العباب . والحزن الفاجع غشى عيونهم بدمع كشف على مآقيهم حتى أخفى عنهم المراثيات إلا ما تنقبت به من ضبابه . قد سكتوا إلا همسة ، وصمتوا إلا نفسا غير موصول ، فلا تنبىء عن حياتهم سوى الزفرات التي تتردد عنهم . وألقوا السمع والبصر جميعاً إلى الجثة المسجاة التي غللها فوق وب دمائها دمهم السيال . وألقوا الفؤاد أيضاً إلى ذلك الهوكل المفطرح من

أسى إلى جوار عثمان . وأمسكوا أنفاسهم يرقبونه بإشفاق ، ذلك على قد غلبته
الفجائية وأودى به حزنه فقامت عينه ، وحمد حسه ، وراح في غمرة غشية عاتية
أحالاته صامتاً صمت الموات . . .

ومضت اللحظات بهم كأنها الدهر الخالد . أو كأن الفلك السيار قد توقف
عن دورته فجمد الزمان على حافته جمود الكان . . . وثقت عليهم نفوسهم
حتى غدت شيئاً يحسونه وينوءون تحت وقره ، وتأرجحت أنفاسهم في الجو
تردد ولا تتبدد . كلهم شغلتهم الواقعة وأذهلتهم عن كيانهم . وقاربت بينهم
وبين خمود العدم . وأوشكت أن تميد بهم فتطرحهم كصاحبهم الراقد إلى جوار
جثة الخليفة ، لولا مسكة من شعور أبقّت عليهم فتعلقوا منها بالوعى بما يشبه
الخيوط الرقيق . ولم تزل دماؤهم تسير في عروقهم وانية كأنها تتردد بين التوقف
وبين التدفق ، حتى رأوا علواً يتحرك وينفض عنه غشيته فدبت فيهم الحياة . .

وتبعوه في وجوم وصمت وهو يقهر قدميه على السير . وكان ابناء واقفين
في صميم الشبان ، ناكسي الرؤوس حين جاء الخبر إليهم بمصرع الخليفة . .
فما أشرف عليهم ما حتى سارها إليه ، وخفت اللفظ الدائر على ألسنة القوم . ودار
على بنظرات غضي في وجوه الفتية . وتلهبت عيناه وانعقد ما بين حاجبيه في
عبسة يكاد أن ينبجس منها الدم . . . ثم أهوى بكف على وجه الحسن
وبالأخرى على وجه الحسين . وثار بأصحابهم يلحاهم فانطورا على أنفسهم
لا ينطقون هيبه منه لولا أن انبرى له طلحة يقول :

« مالك يا أبا الحسن تضرب وتشتتم ! . . . »

فصاح ولم تخف سورة غضبه :

« يقتل أمير المؤمنين وهم بالباب ، ولم تقم عليه بينة ولا حجة ؟ »

« لو دفع مروان ما قتل . . . »

فصمت على . إنه لمعلم أن الخطر على الخليفة كان يحتم دائماً خلف أهل

بيته ، أولئك العصبة الأموية التي كان على رأسها مروان . فلقد أساءوا وتوجيه الشيخ ولم يخلصوا له النصيح ، وكانوا أقدر على تجنب الفاجعة لو سلكوا سبيل الرشاد . ولكن صلفهم أعماهم ، ومطامعهم الشخصية أبت عليهم إلا التضحية بكل شيء في سبيل مآربهم . حتى في هذه الأزمة الأخيرة كان في مقدورهم إنقاذ سيدهم ، ولكن حماقة مروان أرثت النار الهامدة في نفوس الثوار ، ولم يكفه أن كانت سياسته من البدء مدعاة لإثارة سخط الناس حتى صار كلامهم الخليفة بإصلاح الأمور يوسوس له فينقض وعوده ويعدل عن الخطوة المثلث التي كانت كفيلة بالتغاف القلوب عليه . فلما أن بلغ الحفق في النفوس مداه ، وأيقن أن القوم غير تاركين عثمان حتى يعزل مشيره الخبيث ، تمجّل بنفسه الخائنة وقد سبق إلى وهمه أنه غالب عليهم ، وموطد سلطانه بقوة السلاح مادامت جيوش الأمداد قد باتت من المدينة على مسيرة ساعات . . .

ولكن تقديره خذله ، وانتهت دولته أسوأ انتهاء ، وبات وأهله لا يستطيعون أن يملكوا لأنفسهم نفعا ولا مضرة . ومن بقت بقلبه بقية جلد استخفى عن عيون الناس بعزل خشية أن يظفروا به فيقتلوه . ثم راحوا يتحينون السوايح للفرار من حاضرة الملك التي شهدت لهم صورا من السيطرة والطفيان ظلت ماثلة في أذهان الشعب الموتور لا تريم .

واختلط الأمر بالمدينة ، وخرج لتوه من أيدي فريش التي قسمتها الأهواء ، فأصبحت مزرقة محولة بعد أن وحدها قصي من أجيال وجعلها كتلة ترهبها العرب فتمنوا لها الجباه . فما بقى منها اليوم قبيل يشعر بشعور أخيه ، أو يمد كفه ليأخذ بناصره ، بل تفرقوا جميعهم أمام القوى المتحدة من أهل الأمصار ، وراحت مظامعهم تتجمع لتأخذ لنفسها السلطان ، وكلما كانوا في حياة عثمان يعملون جهدهم لنزع أمره منه ، فقد راحوا الآن يدا بون على الحيلولة بين السلطة وبين كل من أحسوا أنه بسبيل الفوز بها لئزىة توشك

أن تؤهله للسيادة . ركبهم ثأفيه عصبية الجاهلية ، وغابتهم على حقهم المشترك بين قبائلهم تلك الرغبة الجامحة التي جاشك بنفوس كل فرع منهم للتفرد بالإمرة من بقية الفروع .

وساد الإرهاب بلدة الرسول ، لا يكاد أهلها أن ينبتوا أمام أصحاب الثورة برأى وإن كانوا قد أعاقوهم على فأيتهم ، فلم يكن نعمة في أيديهم سلاح يستطيعون به أن يملكوا الزمام ، ولم يكن بينهم رجل واحد يرضون جميعاً أن يلتفوا عليه بعد الخليفة القليل ، بل مزقت المطامع سم وحدثهم . حتى قوى الأمداد التي جاءت من الشام لنصرة عثمان لم تتحرك حين بلغها مقتل عثمان إلا لترتد على أعقابها كأمر معاوية هائدة إلى الشام ، فقد انتهى الآن واجبها الفعلي ، وأحسن القيام بدور الغائب الذي أرادها عليه إن وقع المصراع تحت سمع وبصرها ، لأنها ما بمثت لتنصر وإنما لتبدو فحسب في ثياب النصير ! ..

ودانت الرقاب لرجال الثورة ، وأصبح الحكم بحاضرة الإسلام في كف العافق أمير المصريين يصرف الأمور ويؤم الناس في الصلاة ، ولم يكن هذا لأنه طمع في الخلافة ، ولكنه أيس من تقليدها رجالاً يرضاه ويرضاه الناس فلقد أباهها على وعزف عنها ، وظل يباعد القوم كلما جاءوا يعرضون البيعة ، ويأوذ بفضاء المدينة بعد أن هجر داره حتى لا يلقوا به ... كان يربأ أن يؤول إليه الأمر على يد الطائفة التي توسلت إلى غايتها بالمعدوان ، فلما أن طال احتجاجه عن الناس تفكرت طائفة من أهل البصرة أن تدلى بالبيعة إلى طلحة ، وأخرى من أهل الكوفة أن تدلى بها إلى الزبير . ومضت كل إلى صاحبها تحاول أن تقدم له هديتها ، ولكن غمرة الحماس كانت قد ولت مع الصباح ، وعادت إلى السيطرة دولة العقل بعد دولة العواطف ، فما إن رأى القوم صاحبهما يضمهما المسجد حتى صاح فيهما من صاح :

«أيها الرجلان .. إنكما وقعتما في أمر عثمان نخلياً إذن عن أنفسكما، ودعها الأمر! ..»

ولعلمها كانت دهوة من خير بخفايا الانقلاب أحب أن يبعد بالخلافة عن كل ذى مطمع ركبت به أهواؤه سبيل الحيف على الخليفة القليل ... ولعلمها من حكيم شاء أن ينهى عهد الطفيان بقطعه الطريق على ذينك اللذين أهما عليه ... ولعلمها من صاحب رأى فى الصاحبين يضمن بالإمرة على كاهيها وهو مؤمن أنهما أهون شأنًا من أن يصلحا لقيادة شعوب الإسلام ... على أى حال لقيت هذه الدعوة عند الجموع المزدخرة بالمسجد ذلك النهار هوى جعلها تتقبلها أحسن القبول . وتردها جادة غير هازلة . وتطلق أحاديثها المتجاوبة فى أبهاء المكان تجبه الرجلين بأشنع اتهام ولا تتخرج أن تلتقى على رأسيهما تبعة قتل عثمان ...

وفزع طلحة فقد رأى الناس يشوبون إلى عقولهم بعد أن انجابت عنهم غمرة العواطف ، ويندمون أشد الندم على ما انتهى إليه مصير الخليفة الشهيد ، ويأسون لحاله أسى ودوا معه لو كانوا استطاعوا التريت به وإمهاله لعله ينزع عما عابوا عليه . وفى كل قاب منهم إذ ذاك نقمة من الزمن الذى جرى بهم شوطة إلى نهاية كريمة تعجلها فى البدء غضبهم ثم أنكرها وعيهم حين لم تعد نمة جدوى من الإنكار ... فزع طلحة من هول الاتهام الموجه إليه وتبين شناعة الصورة التى تجلت منه لأعين المسلمين ، فقام إلى المنبر لعله يستطيع أن يضى ظلالا كثيفة تحجب عن أذهان الناس مامثل فيها من صورته الشوها ...

قال بوضوح لهم حقيقة موقفه من عثمان :

« ... أما بعد ، أيها الناس ، إفا والله ما نقول اليوم إلا ما قلناه أمس . إن عثمان خلط الذنب بالتوبة حتى كرهنا ولايته ، وكرهنا أن نقتله ، وسرنا أن نكفاه ، وقد كثر فيه اللجاج ، وأمره إلى الله . »

وهب الزبير على الأثر يدفع عن نفسه ، ولكنه فى دفاعه كان أحكم من صاحبه ، وأعرف منه بالوسيلة تشغل عنه ظنون الناس لأنه كان أقدر على توجيه انتباههم إلى قضية آثر عندهم من قضية الاتهام ، هى الاستخلاف قال .

« أيها الناس ... إن الله قد رضى لكم الشورى فأذهب بها الهوى ،
وقد تشاورنا فريضنا علياً ، فبايعوه ... » .

وتهاشم القوم ، وتنقلت نظراتهم الدهشة بين الصاحبين ، قد أجمعا إذن
الرأى ، وخرجا من البيعة لمن رأياه أولى بها عند الاختبار فألقا بين تيارات
الأفكار المختلفة التى كانت تتفرق بها آراء أهل الأمصار ، لامدعة الآن إلى
الخلاف بين الكوفة والبصرة ومصر مادام الزعيمان قد دانا فى النهاية وأقرا
بالإمرة للثالث العظيم .

وراح الزبير يتم حديثه عن عثمان والناس بحسبانى يشغلهم عن الإنصات
لخاتمة بيانه جلال ما أزعجى إليهم فى مقدمته .

« ... أما عثمان فأنا أقول فيه إن أمره إلى الله ، وقد أحدث أحدانا ...
والله وليه فيما كان »

ولكن علياً لم يستجب لهم ، وظل مؤثرا الاعتزال ، يرد كل من جاءوه
منهم يعرضون البيعة ، ومضى يوم ، وتبعه آخرو الأمر على ما هو عليه ، لا يستبين
الناس لهم مخرجا من الحرج الذى أصبحوا فيه . وثقل على الثوار أن يسير فى
البلاد نبأ مقتل عثمان ولايسير معه نبأ اختيار خاف له على الأمة فتفسد الأمصار
ويتناحر أصحاب الهوى والأغراض فتفحل عرى الدولة . وكانت الحيل قد
أعيتهم من قبل دون حمل أحد من أصحاب رسول الله المقربين على قبول
الخلافة .

فلقد آثر سعد الحيدة ، وأبى ابن عمر إلا إعتزال السياسية والبعد بنفسه عن
خضمها الصخاب ، ووضح لهم موقف الزبير وصاحبه وما بدا من تهيبها إدخال
أنفسهما فى أمر يرى الناس أنهما جنحوا فى سبيل الفوز به إلى اعدوان . ثقل
على رجال الثورة أن يذهب جدم هذا عبثاً فأجمعوا الرأى على سلوك طريق
العنف والإرهاب ، عساهم به يستطيعون توحيد الكلمة وإنهاء مشكلة الاختيار .
وتنادوا فيما بينهم ، وانطلقت رسالهم بالمدينة إلى كل صوب يجمعون من

يلقون من أصحاب رسول الله ومن كبار المهاجرين والأنصار، ونشطت الرسل فيما طلب إليهم ، وأخذوا تباعاً يعودون بذوى الشأن في البلدة ومنهم من قد أوشك أن يرحلها إلى مكة أو استخفى فيها بمخاطط أو بناحية ... فلما حشدوهم جميعاً في مكان واحد ، وفيهم طلحة وسعد والزبير والكثرة الغالبة من الصحابة قام فيهم متحدث عن المصريين يقول :

«... يا أهل المدينة ، إنكم أهل الشورى ، وأنتم تعقدون الإمامة ، وأمركم عابر على الأمة ، فأنظروا رجلاً تنصبونه ونحن لكم تبع . »
فتهاق الناس من كل جانب :

« على ... على بن طالب ... نحن به راضون . »

« فدوكم ، وإنا لؤجاوكم يومين اثنين ، فوالله لئن لم تفرغوا لفتنان عدأً علياً وطلحة والزبير وأناساً من رجالكم كثيرين ! ... »

وشهد مسجد رسول الله لثالث مرة منذ وفاة محمد تلك الفئة الخالصة القلوب من الشوائب ، الذائدة عن الحق للحق ، تجتمع إعجاز بالدعوة التي أشربتها نفوسهم الصافية، وغلبهم الزمن عليها أعواماً حتى أوشكت أن يحتويها النسيان ، شهد المسجد أولئك نفر من أصحاب محمد الأوفين الذين لم تفسدهم الأهواء والطامع ، يقومون ثلاثة لنصرة القضية التي قاموا فيها ساعة استخلاف أبي بكر، ويوم اختيار عثمان ، ويرفعون أصواتهم في الملأ اليوم يطلبون بها النصف عند كل حريص على إقامة الحق ورفع دعائمه، لم ينقص مر الأعوم من شجاعتهم، ولا إخلاصهم لصاحبهم الذي آمنوا بحقه ومزايده ، ولم يفكّل عنهم واحد من جمعهم القديم إلا من كان التراب قد طواه ، وإنا لنراهم الآن من خلال الماضي كما كانوا من قبل ، لولا أن الزمان جرى بهم أشواطاً طويلة في خريف العمر ، ولكنهم مع ذلك ظلوا ذوى قلوب فتيّة وأرواح قوية قوية . قد التأم جمعهم القديم كسابق عهده لتحقيق هدفهم المرموق ، فيهم عمار ، وأبو الهيثم ، وأبو أيوب

ورفاقة ، ومالك بن المجلان ومن لف لفهم من أصحاب على الغيورين على حقه أشد من غيرته عليه .

التأم جمعهم بالمسجد ذلك النهار كاجتماعهم بفضاء بنى بياضة تلك الليلة الأولى من عهد أبى بكر ، يندارسون الحال ، ويتذاكرون الوسيلة الكفيلة بإعادة الحق القديم إلى صاحبه وصاحبهم صفى حبيبهم رسول الله ، وكانت طوائف من أهل المدينة قد علمت بأمرهم فأقبلت عليهم ، ثم طفقت الجموع من بعد تفد فتمتلىء بها رحبات بيت الله حتى ضاق المكان بمن فيه .
ووقف أخيراً فيهم عمار بقول :

« أيها الأنصار ، قد سار فيكم عثمان بالأمس بما رأيتموه . وأنتم اليوم على شرف من لوقوع في مثله إن لم تنظروا لأنفسكم ، وإن علياً أولى الناس بهذا الأمر ، لفضله وسابقتة » .

فامتلاً المسجد بصوتهم الداوى ينطلق كمن فم رجل واحد :
« رضينا به » .

فالتفت صوب الحشد الزاخر وفيه كثيرون من المهاجرين وقال :
« أيها الناس ، إنا لن نألوكم خيراً وأنفسنا إن شاء الله . وإن علياً من قد علمتم . وما نعرف مكان أحد أحمل لهذا الأمر ولا أولى به » .
فجاءه على الأثر من الجموع الحاشدة الجواب الذى أثلج صدره وطيب خاطره وباله :

« قد رضينا ، وهو عندنا على ما ذكرتم وأفضل » .

فانطلقت طوائفهم إلى على وفيهم الزير وطلحة تقبمها زمر من أهل المدينة ومن رجال الأمصار على السواء . وكان معترلاً بداره فضربوا عليه بابه حتى أخرجوه وهو مستكره . والتفوا عليه من كل جانب يهتفون له ، ويهيبون به أن يقبل بيعتهم ، قالوا له :

« يا أبا الحسن . إن هذا الرجل قد قتل . ولا بد للناس من إمام . ولا نجد

اليوم أحداً أحق بهذا الأمر منك ، لا أقدم سابقة ، ولا أقرب من رسول الله .
فأبى أن يستغل عاطفتهم الكريمة التي دفعتمهم الآن إليه . بل قبض دونهم
كفه ، وأجاب :

« لا تفعلوا ولا أفعل ، فأبى أكون وزيراً خيراً من أن أكون أميراً » .

فمها تفوا به ثانية :

« أنت لنا رضى » .

فهمز لهم رأسه إباء وقال :

« لا حاجة لى فى أمركم أيها الناس . أنا معكم ، فمن اخترتم فقد رضيت به » .

وصاح به من بينهم الأشتر مالك بن الحرث أحد زعماء أهل الكوفة :

« والله تحمدن يدك نبأى بك أو لتعصرن عينك عليها ثلاثة ! » .

فاعلمه حسب أنه بصدد رجل يأسى على ما فات من نصيبه فى هذه الحياة ،

أو يعنى بعرض من عروضها جل أو هان .

ولكن عالياً لم يعجل به ، ولم يستسلم للغضب عليه ، بل قال فى هدوء

يخاطبه ويشرك القوم فى الخطاب .

« دعونى والتمسوا غيرى أيها الناس ، إنا مستقبلون أمراً له وجوه وله

ألوان ، لا تثبت عليه العقول ، ولا تقوم له القلوب » .

وأحس الأشتر على الأثر بسوء ما كان منه . وشعر أنه حيال رجل ليس

كسواه بل من طراز فذ فى الرجال يستقبل الأمر بالنظرة الجادة التى تستطيع

النفاذ إلى أغواره واستكناه خفاياه ، ولئن كانت الخلافة هدفاً له منذ قديم

فإنها لم تكن مطلقاً كل هدفه ، ولم تكن غاية رنا إليها طموحه ، بل هى

وسيلة إلى غايات أعز عليه من السيادة وحكم الناس هى العمل لإعزاز الدين

والسمو بنفوس الناس ، أما مظهرها ، وجاهها الرفيع ، والمجد الذى قد تسبغه

على شاغل مقعدها ، فكلاهما هتات لا تملأ من قب ابن أبى طالب مثل

ما تملأ شعرة .

ورفع الأشر إلى وجهاً يفيض بالإكبار . وراح في توسل يهيب به باسم الإسلام واسم الأمة أن يستجيب لثقة الناس به فيقبل الواجب الذي لا يستطيع غيره اتيام به في هذه الغزالة التي توشك أن تدك صرح الدولة الفتية . . ثم أردف توسله في ختام حديثه بأن قال :

« نشدك الله ، ألا ترى ما نرى ؟ . ألا ترى ما حدث في الإسلام ؟ .
ألا ترى الفتنة ؟ . ألا تخف الله ! . . »

وأنصت القوم من بعد صامتين ، وقد تعلقت عيونهم بشفتي الكهل الذي تجسمت فيه آمال أمته ، وانتهت إليه مشيئتها وقد أشفقوا أن يجيئهم جوابه بغير ما يشتهون . ولكنه قال بعد روية وتفكير :

« قد أجبتكم لما أرى منكم . . . ألا فاعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، وإن تركتموني فإنما أنا كأحدكم ، بل أنا أسمعكم وأطوعكم إن وليتموه أمركم . »

فصاحوا به هاتفين وقد تفرجت منهم الصدور :

« ما نحن بمفارقيك حتى نبأعدك » .

فابتسم لهم ابتسامة رفيقة ، وقال وهو لا ينسى خطئه في التزام مثله العليا حتى في هذه اللحظة التي أجمعوا فيها رأيهم على تقليده إمارتهم :

« إن كان لا بد من ذلك ففي المسجد ، فإن ييمتي لا تكون خفياً ، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين ، وفي ملا وجماعة » .

واتعدوا الغد ، وتفرقوا عنه وكلهم راضى النفس يكاد أن يرى الخير في ركاب المستقبل ، فلما أشرق نهار الجمعة ساروا والشمس إلى قبلة أنظارهم ومهوى عواطفهم ، وطفقت جموعهم تزيد وتتكاثر حول داره حتى غص بها المضاء ، وخرج إليهم فتداكوا عليه تذاك الإبل الهيم على وردها حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً من فرط ازدحامهم عليه وشدة رغبتهم في الخلوص إليه كأنما لم يشاهدوه إلا اليوم . . . ثم انطلقوا وإياه إلى المسجد وأصواتهم لا تكف عن التهلل والتكبير .

وصعد المنبر ، وألقى بصره هنيهة على الجموع الزاخرة التي ضاق بها المكان فوقفت خارجة كأنها البنيان الرصوص ، ورفع صوته بالكلام ، فحبسوا الأنفاس .
قال بصوته الرصين :

« يا أيها الناس .. عن ملأ وإذن ؟ .. إن هذا أمركم ، ليس لأحد فيه حق إلا من أمرتم ، وقد افترقنا بالأمس على أمر ، فإن شئتم قدمت لكم ، وإلا فلا أجد على أحد » .

فزلت الأرض بالهتاف له ، ثم بان جوابهم الصريح كالهزيم :

« نعم .. نحن على ما فارقناك بالأمس » .
« ألا أنى كنت كارهاً لأمركم فأبينتم إلا أن أكون عليكم .. رضيتم ؟ »
« نبأيتك على كتاب الله » .
« اللهم اشهد عليهم » .

فتدافموا إليه كالموج ، يلتفون بالمنبر وقد سبقهم نحوه كبار المهاجرين والأنصار ... كل يرجو أن يكون له شرف البدء بتحيته قبل غيره بسلام الخلافة .

ووقف حبيب بن ذؤيب على كשב منه ، وقد منعه تدافع القوم من الوصول إليه فأثر التريث حتى تبين له فرجة بين الجموع ، وراح يرقب البيعة ، ويتلهى بتصفح الوجوة التي اجتمعت حول المنبر وأصحابها يهيمون أن يعلنوا ولائهم للأمير الجديد . وأخذت نشوة الفرح بقلب الرجل . وطابت نفسه وهو يشهد وحدة قومه بعد تفرق ، لتكاد المدينة كلها أن يحتويها المكان . ولأيوشك ألا ينقص الجمع الزاخر أحد من أصحاب رسول الله . بدت البيعة ذات جلال ، جامعة ، قويمة العمد إذ تستند إلى إرادة الشعب ، فلم يتخلف عنها السادة ولا الجمهور . وقاربت روعة هذا أن تنى عن عصر زاهر سعيد يلتئم فيه شمل الأمة ويعلو شأو الإسلام .

ولكن ابن ذؤيب قد عنه أمه ، وذبلت فرحته ، فإن هي إلا عين رفعها

إلى المنبر حتى غاص قلبه وأوشك أن يكف عن وجيبه ، إن هاتفاً راح يهمس له الآن في أذنيه ، تلك اللحظة التي رأى فيها طلحة يصعد درج المنبر إلى على ، هاتفاً عاتياً ، مدوى الصوت في سمع ضميره أخذ يلح عليه بوسوسته حتى ماملك أن طفق يردد لنفسه في ذهول :

« أخلق بها أن تنكث » .

ثم تاب . فلما أن وقعت عينه على المنبر ثانية ، ورأى هناك يد طلحة تمسك بكف الإمام ، أحسها تعصر قلبه في قبضتها ، وتستنزفه ما بقى فيه من قطرات أمانيه في العصر الزاهر السعيد المأمول ، وقال وقد غلب عليه التطير :

« إنا لله وإنا إليه راجعون ، أول يد بايعت أمير المؤمنين شلاء ؟ . لا يتم إذن هذا الأمر » .

٢

ترك عثمان ترائفاً من العوسج في أيدي خلفه ؟ . . الأهواء تلب بنفوس السادة حتى لا يتفق اثنان فيهم على رأى . والتذمر يأكل قلوب العامة وهم يرون الخاصة قد استلبوهم حقوق المساواة التي أقرها لهم الإسلام ، والفرقة تضرب بين أقطار الدولة حتى ليحسب كل قطراً أنه الجدير بالسيادة دون بقية الأقاليم .. حتى أولئك الذين هيأهم الزمن منذ قديم لقيادة العرب كانوا قد مزقهم المطامع ، وأصبحوا الآن فرقا تعرف بأسرهم بمد أن كانوا كتلة تعرف بقبيلاتهم فترهبها بقية القبائل وتدين لها بالطاعة . فما عادت اليوم ثمة قريش التي عنت لها الجزيرة في الجاهلية وإبان الأيام الأولى من ازدهار الإسلام ، بل غدت بيوتاً محولة لا يؤلف بينها ذلك الهدف القديم الذي استوحته من ماضيها المجيد والتمزقه فسادت به على الرقاب . فلقد صحت أحقادها ثانية . ورجع إلى الحياة ما كان قد نام من أضغان بمضها على بعضها الآخر . وأصبح الرجل منها لا يأخذ نفسه

بانتهاج السياسة العامة لقريش في سيادة العرب بقدر ما يأخذها بانتهاج السبيل الذي يرفع شأن بيته وحده . ثم قد لا يتوانى عن طرح هذه السياسة الجزئية واعتناق أخرى فردية إن ظن هذه كافة له سيادته هو على بقية أهله وذويه . .

كذلك كانت الدولة الإسلامية حين تسلمتها يد ، على . وكذلك كانت النفوس فيها تتقاسمها التوازع والأهواء الشخصية ولا يربط بينها غرض عام ولئن بدا من بعد أن كثيراً من فروع قريش قد اصطلت جيشاً واحداً تناجز الفرع الهاشمي في شخص على ، فلغير مصلحة عامة كان هذا التجمع ، بل كانت جميعها تعمل وفي بالها أن تزيج من طريقها منافسها الخطار الذي لا تستطيع — متفرقة — أن تقدر عليه . فإذا فرغت منه فأيسر اليسر بعد هذا أن يستقيم الأمر لأحدها إن عرف كيف يخضد شوكة بقية لفروع . . .

هذا هو الطابع الذي وسم خطط منافسي على ووجد كتابهم على كثرة ما كان بينهم من اختلاف ، فلقد كان لكل فئة منهم هدفان : واحد عام يسدد خطوها وخطا زميلاتها جميعاً ، وآخر خاص تنفرد وحدها به ، وتعمل جاهدة لبلوغه بغير معونة سواها وإن وطئت في سبيله بقية الأحلاف . فليس عجباً إذن أن ينتظم معاوية والزبير وطالحة وابن العاص وغيرهم من حساد على عقد واحد ، يجمعهم كلهم حرباً عليه كي يكاثروه فيغلبوه ما دامت كل طائفة منهم ستجهد لتكون وحدها المنتصرة في نهاية المطاف . وما نحسب هذه الظاهرة إلا جليلة تمام الجلاء في تصرف الزبير وطالحة الذين نكثا ببيعة الإمام واعتسفا الأسباب للشغب عليه . فاقد واحد بينهما حسدها فقاما في جيش لجب يحاولان انتزاع الأمر من يد على ، وإنهما ليختلفان في الطريق على أيهما تكون له الإمرة بعد الانتصار .

تراث من العوسج خلفه عثمان ! ولكن علياً لم يكن الرجل الذي يرهب الشدائد أو تنقصه القدرة على الكفاح . فنذ اللحظة الأولى نبين

خطر المهمة التي تنتظره . ولم يخف عنه شيء مما في نفوس القوم أو خلف الأحداث . بل استشف الحقيقة كلها فعلم أنه مقبل على أمر له وجوه وألوان لا تثبت عاينه العقول ولا تقوم له القلوب ، يوشك أن يفتتن فيه الناس ويبتغوا شيعاً شتى ، تتناحر فرقتهم ، ويضرب بعضهم بعضاً ، لم يغب هذا عن عين بصيرته ، ولم يكتفه عن أمته بل طالعها به منذ اللحظة التي أدلت فيها إليه بالبيعة حتى لكانما كان يقرأ من كتاب مفتوح وهو يخطب الناس فيقول :

« .. ألا إن بليتكم قد عادت كهيتها يوم بعث الله نبيكم ... والذي بعثه بالحق لتبليبن بليلة ، ولتغربن غربلة ، ولتساطن سوط القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم . وليسبقن سابقون كانوا قصروا ، وليقصرن سابقون كانوا سبقوا . . . والله ما كتمت وشمة ، ولا كذبت كذبة ، ولقد فبئت بهذا المقام وهذا اليوم ... »

ولكنه قرن به واجب لزام عليه أن ينهض به . فليس بعفيه من التبعة أن ينسكل عما وكل إليه وإن استشف النتائج الكفيلة بتشبيط عزمه . . . كلا . فإن هو إلا صاحب رسالة واجبة الأداء في دنياه لا يقاس فيها إخلاصه بالنتائج وإنما بالجهد المبذول في سبيل الوصول إلى الغاية التي من أجلها كافح كفاحه . ولخير له أن يناضل الباطل بلسانه وكفه وسيفه ثم يقع في الميدان من أن يبيع صامتاً دون أن يحرك جارحة ويني بالآمن والسلامة .

كلفه بالحق لذات الحق هو الذي قسره في النهاية على قبول الولاية . فلم يكن يعرف أحداً في الناس أصلح منه لقيادة شعبه ، ولا أقوى على حمل الأمانة التي تصعبها تبعات الحكم على كواهل الحكام ، ولا أعلم منه بمفاذ الطرق التي تؤدي به إلى العدالة الشاملة التي كانت الغاية من رسالة الإسلام . وقد كان هذا الشعور دائماً مفتاح صراحته وشفافية نفسه ، ومركبه إلى غاياته بغير مداورة ولا القواء . . . سئل غيب مقتل عثمان عن رأيه فلم يكتم عن الناس ما يحسه . ولم يحد عن ديدنه في المجاهرة بما يرى في وضوح

لا يتلبس بمجاملة الشيخ القليل أو يتعلق الجماهير العادية عليه وإن كانت إذ ذاك صاحبة الكلمة العليا والجناب المهاب . بل قال :

« . . . أنا جامع لكم أمره : استأثر فأساء الأثرة ، وجزعتم فأسأتم الجزع . والله حكم واقع في المستأثر والجازع . »

وتلك الصراحة السافرة التي ميزت أقواله قد سميت بطابعها أيضاً فعالة . فكما جعلته من البدء يعلن على الملأ حين أرادوا بيعته أنه سيركب بهم ما يعلم ولا يصنى إلى قول قائل أو عتب عاتب ، فكذلك أتبع القول بالفعل حين يابصرون ولم يصبر عليهم بعض يوم حتى يادرهم بما يعلم ، وسار سراعاً إلى الخطوة التي آمن من قديم أنها الأقوم . . .

لم يصبر عليهم سوى بعض يوم تهيأ فيه لإلغاء النظام القائم منذ عهد عمر نحواً من عشرين سنة نحاته الرسوخ في الخواطر كرسوخ الإيمان فلو كان على ثقة من أن عمر ، حين أمر بتقسيم النخبة وفق أقدار الناس وقدمتهم ، قد استجاب لعاطفته أكثر مما استجاب لعقله . وأنه بنحوه ذاك في التقسيم قد استحدث نوعاً من العدالة الخاصة جنح به عن العدالة المطلقة . أما هو فقد أبى اليوم أن يقر السياسة العمرية ويسير عليها كما سار سلفه . لم يصدده عن إباته أن أصبح لها عمر الزمن مثل فداسة العقيدة في بعض الأذهان ، ولا القضية التي لا بد سيثيرها التغيير في قلوب أولئك الفئة التي ميزها بالعطاء عمر وعثمان إنه ليعلم أنهم سادة ، وأن خلفهم زمراً من الأهل والنصران يغضبون لهم ، وأن ملكه الجديد غير وطيد قد تعصف به أية معارضة يشنها عليه القوم . غير أنه وقد آمن أن طوائف الشعب كلها في الحق شرعاً سواء ، لم يروجها لتمييز الخاصة ، بل وضعهم مواضعهم حيثما وضعهم قبله النبي على ذات الدرجة التي تبوأتها العامة . وقام في المسجد ثانی أيام بيعته يدلي برأيه ، وييسط السياسة التي شاء كلفه بالعدالة المطلقة أن تكون قوام عهده وقال :

« . . . أيها الناس . . . إنما أنا رجل منكم ، لي مالكم ، وعلى ما عليكم . »

وإني حاملكم على منهج نبيكم ، ومنفذ فيكم ما أمرت به . . . ألا إن كل قطيعة أقطعها عثمان وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال . . . فإن الحق لا يبطله شيء . ولو وجدته قد تزوج به النساء ، وملك الإماء ، وفرق في البلدان لردته . فإن في المدل سعة ، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق . . . أيها الناس . . . ألا يقولن رجال منكم غداً — قد غمرتهم الدنيا فامتلكوا العقار ، وفجروا الأنهار ، وركبوا الخيل ، واتخذوا الوصائف المرققة — إذا مامنتهم ما كانوا يخوضون فيه وأصرتهم إلى حقوقهم التي يعلمون : « حرمان ابن أبي طالب حقوقنا » . . . ألا وأيما رجل من المهاجرين والأنصار من أصحاب رسول الله يرى أن الفضل له على سواه بصحبته فإن الفضل غداً عند الله ، وثوابه وأجره على الله . . . ألا وأيما رجل استجاب لله ولرسوله فصدق ملتناً ، ودخل ديننا ، واستقبل قبلتنا فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده . فأنتم عباد الله . . . والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، ولا فضل فيه لأحد على أحد ، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء . . . فإذا كان الغد فاغدوا علينا إن شاء الله ، ولا يتخلفن أحد منكم ، عربي ولا عجمي كان من أهل العطاء . . . »

وبهذا الوضوح رسم لهم سياسته القائمة على العدالة الشاملة التي تسع جميع الناس سواء بسواء ، ولا تضع حواجز من المزايا تفرق بينهم أدنى تفرق . وهدم بها ما كان قائماً حتى اليوم من شرعة عمر في التقسيم . بل هو في الحق حقق حلم عمر الذي كان يراوده في أيام عهده الأخيرة لما تبين أن سياسته في توزيع العطاء قد جرت إلى قيام حواجز مالية واجتماعية بين طبقات أمته كانت فيما بعد ذات أثر هدام في بناء الدولة الوطيد . . .

ونشط في إنفاذ ما عزم عليه فصادر ما أقطمه عثمان بمضى آله ورجاله من أراض وأموال . . . وتلقب كل درهم بذل في غير وجهه ولغير مستحقه فأعاده إلى بيت المال . . . وغدا الناس عليه في الوعد كما أمرهم فقال لكتابه ابن أبي رافع :

« ابدأ بالمهاجرين يا عبيد الله ... »

وما زال قائماً معهم يفرق عاينهم أنصبتهم حتى أخذ كل رجل من المسلمين حقه كاملاً غير منقوص من العطاء ، لا فرق فيهم بين كبير وصغير ، ولا بين أصيل ودخيل ، ولا بين سوقة وخاصة ، بل استووا كلهم لديه وإن اختلفوا في الجنس والمقام ، فكذلك جعلهم الله في الشرع سواء .

فمن عجب أن تنكر عليه بعض النفوس هذه الدالة الجديرة بأن تلقى منهم أطيب الثناء ... ولسكنهم كانوا فئة ألفوا أن يتميزوا على الناس وتكون لهم من دون الشعب طبقة رفيعة تزه بالمزايا المادية كما تزه بالمزايا المعنوية التي ورثتها في قطرات الدم الأصيل الذي تمتلئ به خدودهم المزهوة ، فما العرب كقريش ! وما المعجم كالعرب ! وما الدهماء الغموردون كالسادة الأمجاد ذوى الأنساب ... ولقد بلغ من شدة إخلاص هذه الطائفة لتقاليدها الجاهلية أن نسيت أنها وقد اعتنقت الإسلام قد أقربت غيرها من المسلمين بحقوقهم مثلها في التمتع بقوانينه وإن فرقت بينهم وبينها فوارق من اختلاف اللون واللسان ، وغلب عاينها الصلف حتى حسبت أنها إذ تمشى إلى الإمام تبلغه إنكارها هذه السياسة الجديدة فإنه سيبادر مسرعاً إلى استرضائها وإعطاء الأمور على ما تريد .

وكذلك اجتمع له جمع منهم كانوا أحرص على دنياهم ، فلما أن سألهم عما جاءوا فيه ، ألبسوا مطالبهم ثوب النصح ، وراحوا يبدون كمن يخشى عليه الثورة التي توشك أن توجبها سياسته في نفوس من أودت بمزاياهم من علية القوم ... فقال لهم وهو لا يخفى عنهم دهشته وإنكاره لما يطلبون :

(أقامروني أن أطالب النصر بالجور فيمن وليت عليه ؟ . والله ما أطور به ما سمر سمير وما أم نجم في السماء نجماً ! ... لو كان المال لي لسويت بينهم ، فكيف وإنما المال مال الله ؟ ... ألا وإن إعطاء المال في غير حقه تبذير ، وإسراف ، وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة) .

أغاب عن هذه الطائفة إذ ذاك أنها كانت تتشبث بحق موهوم لا سند

له من دين الله أم هم يا ترى غضبوا للدنيا وحرصوا على عروض الحياة ؟
 أم المال كان فتنة طغت على الصفاء الروحي الذي كان قد أوشك الإسلام أن
 يهبهم إياه ؟ . لئن التمسنا لهؤلاء العذر في تخفيفهم على الحق الأبلج وركوبهم
 هوامهم ، فهل ثمة عذر واحد نستطيع التماسه لصاحبي رسول الله — لطلحة
 والزبير — للذين اعانا الدين إبان محنته ، وناضلا عنه حتى انتشرت ألويته في
 الآفاق ، ولم يتوانيا في سبيله عن البذل بالدماء والأموال ، وعرفا قبل غيرها
 أنه شرعة إشار وتضحية وثاموس عدالة وتسوية ؟ . . . لقد يجهد المرء في
 البحث عن الأسباب التي حملتهما على معارضة الإمام في نظام التقسيم الجديد ،
 فلا يستطيع مع إحسان الظن بهما إلا أن يجدها سبباً واحداً ، هو الهوى
 الشخصي ، ذفهما إلى مناجزة على وهو على حقه ، وإلى اعتساف الدواعي التي
 تشغب عليه امره وتضع في سبيله العوائق والمراقيل .

ولكن أمير المؤمنين لم يثر بهما حين جاء يكشفان له عن أولى بوادر
 الخلاف التي أوشكا أن ينشباها في صرح حكمه . . . لاحا كأنما هما أن يشيرا
 عليه مشورة خير ويلقيا أمامه بالعقاب الناعم الذي يرجوان من ورائه استقامة
 الأمر له ، ولكنه كان على بينة من حقيقة المشاعر التي يخفيان . . . قال
 بصوت هادئ يسوق فيه العظة والملام في آن :

« أماما ذكرتما من أمر الأسوة يا إخوانه فإن ذلك أمر لم أحكم أنا فيه
 برأيي ، ولا وليته هوى مني ، بل وجدت — أنا وأنتما — ما جاء به رسول
 الله قد فرغ منه ، فلم أحتج إليكما فيما فرغ من قسمه وأمضى فيه حكمه ، فليس
 لكما والله — ولا لغيركما — عندي في هذا عتبي » .

فلما أوشكا أن يبرحاعنه ، لم يفته أن يزجي إليهما التصح الواجب والحكمة
 البالغة ، وكلاهما يفسح عن موقفهما منه وموقفه منهما أتم إفصاح .

قال وهو يشيئهما إلى الباب :

« ألا رحم الله امرءاً رأى حقاً فأعان عليه ، أو رأى جوراً فرده وكان
 عوناً بالحق على صاحبه ! » .

ومع ذلك فقد مضيا مع الهوى إلى الغاية ، وخرجا من لدنه إلى السادة ورؤوس الناس يحرضانهم عليه ، ويتقنان منه أنه خالف سنة عمر في التقسيم ، كأن عمر حرى بأن يصيب دون رسول الله ! . . . ولقد اقيمت دعوتهما صدى في النفوس الصاغية للدنيا فالتف بهما قوم ميزهم التوزيع العمرى ووضعهم العلوى حينما أرادت شرعة المساواة . . . ووقفوا جميعاً يتحنيون اللحظات عساهم يستطيعون أن يديلوا دولة هذا الرجل الذى لا يأبه فى حكمه بعراقة الأنساب أو مفاخر الأحساب ! . . . والذى نزل بأقذارهم إلى مثل الدرك الذى كانت عليه أقدار الفرس والمصريين ونحوهم من الأجناس الدنيا حتى أمس القريب ! .

ولكنه لم يلق بالآ إلىهم ولا إلى ما لغطوا به ، فقد كانوا أهون عليه من أن يشير بينه وبينهم فتنة على خلاف لم يتعد بعد حيز الدعوة المخافتة التى تحين عن رفع صوتها بين الناس ، وآثر أن يصبر عليهم ، فإن قاءوا إلى الرشد نخير ، وإن لجوا فى النى فليس يمي حقه أن يقوم لباطلهم ، وبحسبه أن ينهض اليوم لنشر رسالة الإسلام بالتمكين لتمامه فى القلوب قبل نشر بنوده وأعلامه فى أقطار الأرض ، وإنه لآخذ بهذه السياسة منذ اللحظة الأولى التى بدأ بها حكمه ، عامل على إقرارها لأنها المبدأ الأسفى الذى بعث الله به رسوله وجعله الوسيلة إلى جمع العالم كله فى دولة ، الأجناس البشرية كافة فى وحدة إنسانية لا تفاوت بين طبقاتها وأفرادها رغم اختلاف الألوان ، إنها العالمية ، قبل أن تتحرك بها السنة الدعاة والمصلحين ، دعا بها محمد بين الناس ، والأخوة الشاملة لجميع الخلق ، رسم خطوطها القرآن وأقامها على عالم مرجو فاضل ، عماده المساواة فى الحقوق والواجبات ، قد جاء اليوم على ينفض عنها ما علق بجوهرها من آفات الأهواء ، وأخذ نفسه بالتمكين لها فى قلوب أنصارها الأولين ليكونوا لها دعاة هادين قدين يمثلهم العليا أقطار الأرض ، فلقد علمه الزمن أن الحياة بلا هدف سام عبث صرذول قآباء كل نفس مشرقة تؤمن بوجودها قبل أن تؤمن بوجود الأديان

ولقد كفى الإسلام هذه النفوس المشرقة مؤونة استقصاء الأهداف المثلى لأنه وضعها تحت بصائرهما صريحة واضحة في غير تلبس ولا إيهام ، وجمعها كلها في كلمة واحدة نمت عنها آيات كتابه ، وبدأت جليلة حتى في شعائره . . . ولعل شمة شعيرة من شعائر الإسلام لا ننطق بالمساواة ولا تدعو إليها بأفصح لسان؟ .. إنا لنلمسها بينة في الصلاة يستوى فيها العزيز والدليل ويتفان موقفاً واحداً بمكان واحد ، ينطقان بنفس الألفاظ ، ويأتیان بنفس الحركات . ونلمسها في الزكاة التي تأخذ من الفنى بعض عروض الحياة لترده على الفقير حتى يشعر كلاهما - وإن باعدت بينهما الأنساب - بشمور الإخاء . ونلمسها في الحج تزدهم بأرضه المقدسة أقدام الرجال والنساء ، فلا يميز بينهم فارق واحد من الفوارق الاجتماعية التي قد عمل لها أهواء الإنسان ، بل نراهم عند القيام بمناسكه حفاة شبه عراة ، لا يسترهم إلا ذات اللباس يستوى فيه كافة الناس ، أردية الأكفان ! . التسوية الحققة هي جماع الإسلام والغاية التي هدفت إليه شعائره وتعاليمه وأتاح لهم جميعاً تكافؤ الفرص في موقفهم أمام الله ، لأفضل لعربي على عجمي ، وللخاصة على عامة ، ولا لأمر سائد على عبد مملوك بل لعل أبلغ مظهر من مظاهر التسوية أن هداهم إلى رب واحد - وكانوا من قبل يتجهون إلى آلهة شتى - لتكون المساواة بين الخلق أجمعين تامة في كلا الروحانيات والماديات .

هذا هو الهدف الأمثل الذي عنى على بإخراجه من حيز الكلمات المنقوشة في الأسفار إلى الحياة العملية ، وأخذ نفسه من البدء بتطبيقه على شعوب دولته المترامية لتكون شعباً واحداً كرجل واحد ، فتنحقق به وحدة العالم الواسع الأطراف .

العالية كانت الغاية التي سعى إليها مهتدياً في طريقة بنواميس الشريعة وبما جبلت عليه طبيعته المنطوية على إنسان كامل يريد أن يطبع على شاكلته كل إنسان ، ولقد عاش عهده كله وهذا رائده ، فكان قوياً كالرمح ، عادلاً

كاليزان ، تستجيب له كل نفس كلفة بالمثل العليا كنفسه ، مؤمنة بحق
الإسانية الفاضلة عليها ، وبحق الأخلاق السلمية ، المتجردة من أوشاب
الأهواء ...

٣

كيف استقبلت قرهش بيعة الإمام ؟ ... ليؤكد أن يبرز وجه الماضي سافرا
من خلال الحاضر . فالحسد هو الحسد . والحق هو الحق . والوسائل الخفية
التي جشت من قبل الحرب بنى هاشم هي ذات الوسائل . ولو كان خلى بين
قرش وبين الأمر لوسمها اصطفاغ الأساليب الكفيلة بإقصاء على عن الحكم
قبل أن يصل إليه ، ولكن الشعب وقف دونها هذه المرة ودون ماتريد ،
ومارس حقه الطبيعي في الدعوة للرجل الذي يرضاه مادام النظام السائد إذ
ذاك قصر حق الانتخاب على أهل المدينة من المهاجرين والأنصار دون بقية
أهل الأمصار ، وتمت البيعة هكذا لعل لأنه كان أولى الناس بها من أعوام
ولأنه كان وحده الجدير بأن تلتف حوله إرادة الأمة الإسلامية بى ضمت من
أجفاس شتى ، آمنت كثرتها العظمى بأن إليه منتهى رجائها ، وعليه تنعقد الآمال
في أن يقودها إلى الأهداف المثلى التي لا ريب ستحقق لها ما تنشده من حياة
كريمة في أكناف الحرية والكرامة والمساواة

أرادت هذه الوفود القادمة من أطراف الدولة فاستجابت لها حاضرة
الإسلام ، وهتفت باسم على فرددت المدينة خلفها المتفاف ، أقبلت كلها
إلى الإمام في زمر متدفقة كالأمواج تدعوه أن يتسلم زمامها ويقودها إلى حيث
يريد ولم تسمح له بمجرد التردد في القبول ، ولم توافقه على
أن يدع قيادة أمورها لغيره ، بل إن الحرية التي مارسها لأول مرة هذا
اليوم في الاختيار سلبته إياها ، إذ أبت عليه أن يكون هو حراً مثلها ، يرفض

البيعة إن شاء . . . قهرته على التسليم لها ، وأجبرته على الرضوخ لمشيئتها لأنها رأت فيه القائد الذي لا يصلح أمر الأمة بسواه .

وكانت قريش في الأيام القلائل السابقة للبيعة جالسة تنظر ، يمنحها الخوف أن تجهر بالرأى الذي تحب أن يصير إليه الإجماع ، ويملاها الأمل في أن تصدف الجماهير عن هذا الذي ظل يراوغها ويتماد عن طريقها لقفوته الإمرة .. فلما أن غلبت عليه إرادة الأمة وحملته على قبول ما تريد ، لم ترقريش بدا من مسaire الشعور العام خشية أن تشير على نفسها ثائرة الشعب ، وسارعت تباع علياً بالخلافة وهي تخفى بقلوبها غير ما تبديه .

ومع ذلك فأحسب أن ثمة طائفة منها ما لبث القدم أن راح ينهش قلبها غب يبعثها للإمام ، وأخذت تنجى باللائمة على أكفها أن امتدت نحوه بتحية الولاء ! . . . لو أنها صبرت لجنببت أنفسها مؤونة نكث العهد الذي لزم رقابها له ، ولكانت إذن حرية بأن تخالفه وتجار بخلافه إن شاءت وهي آمنة اتهام التاريخ . . . ولكن ما غلب على أذهانها من رهبة الجماهير أشاع في قلوبها خوفاً أركبها ما تكره ، وقهرها على البيعة دون بادرة واحدة من الشعب تحمل معنى الإقهار ، وجعلها من بمد تقف موقفاً — إن رضبته هي — فليس يرضاه لها الوفاء ، فما كان على بالرجل الذي يأخذ لنفسه البيعة من امرى أباه عليه وإن كان ذلك الإباء وليد موجدة قديمة أو سوء إدراك للحقائق الأمور . . . ولقد جىء له بابن أبي وقاص وإنه لمتوقف عن الدخول فيما دخلت فيه جماعة المسلمين لغير سبب معقول سوى قوله :

« لا أباع حتى يبايع الناس . . . والله ما عليك منى بأس »

فلم يثربه . بل سمع منه حجته الواهية ثم قال للناس :

« خلوا سبيله . . . »

وأباحه الأمن والطمانينة كمن والاه . . .

وكذلك كان موقفه من عبد الله بن عمر ذلك النهار ، فلم يكرهه على البيعة

بل أخذ موثقته ألا يشغب عليه . وطالبه أن يختار له من بين القوم رجلا يضمن
الترامه هذا الموثق وعدم خلفه . . . وقال له :

« اثنتى بحميل . . . »

فأدار بن عمر عينه لحظة في الجمع الصاخب عليه ، ثم ردها بغير عناء إلى
على تلقى عليه نظرة وسنى . . . وقال بصوت لعله اشتمل نبرة تحذ إلى جوار
قلة المبالاة :

« لا أرى لى حميلا . . . »

فالتهمت عايله موجدة القوم . وضافت صدورهم بموقفه ، فلو شاء لفاء إلى
الحق وله معدى عن تجاوزه بما لقيه من أناة الإمام وترفته به ، ولكنه كان
قد عقد الفية على الخلاف لغير سبب يوجب عليه هذا الخلاف .

وصاح الأشتر وهو بآدى الفيظ وقد رفع فى يده سيفه :

« خل عنى أضرب عنقه يا أمير المؤمنين ! . . »

فاستمسك الإمام جهده ، لقد أبى أن يستجيب للغضب الذى جاش
بصدره ، وداور نفسه ، حتى إذا سل منها سخطها على غريمه وأبدلها مكانه
الصفح عنه . . قال :

« بل دعوه . . . أنا حميله . . . »

وقيل له بعدها عن نفي قلائل من اهل المدينة احتجبوا عن يومته وأبوا
الظهور للناس حتى لا يذموهم إليه . . . فلقد أراد أعوانه أن يأتوا بهم إليه
راضخين مقهورين ليرى فيهم رأيه ويبايعوه ، فذمهم وقال :

« لا حاجة لنا فيمن لا حاجة له فيها . . »

أحسب هذه الصور الشتى من ترفق الإمام بمخالفيه قد تبدت الآن
أمام أعين بضعة من قریش كانت سارعت فبايعته وهى تحنى له غير ما تبديه .
وأحسبهم وقد شهدوها ودوا لو كانوا صورة منها فلم تسبقهم إليه أكنهم
بالولاء . . . أما وقد عاهدوه على الطاعة ، وعقدوا فى رقابهم يمينته ، فقد
يأتوا يعدون اللحظات ويتمجلونها أن تسرع بهم عسى يستطيحون اعتساف

الدواعى التى تحررهم من عهدهم وتردهم إلى الموقف الجدير بهم والذى هم به جديرون وهل ثمة أليق بقريش من مسابقة مشاعرها القديمة على بنى هاشم ، لا ينجو من عنفها سليل هاشمى حتى تربص بسليل بين كل جيل وجيل ؟!

تكتلت إذن الأحقاد العصبية ثانية . وتوحدت بيوتات قريش — المتنافسة فيما بينها — أمام سليل سيدهم القديم . فالغاية اليوم أن تطيح به ثم تفرغ بعده للفتاب على السلطان ، يستوى فى هذا من بايع له ومن قعد عنه ، ومن قام من بداية الأمر يفاجزه ويحرض عليه الناس ، فمن عجب أنهم نسوا جميعاً الدواعى التى تفرقهم عن بعضهم بعض — على كثرتها — وذكروا سبباً واحداً التفوا عليه هو الحسد الذى لم تحرر نفوسهم من برائته بعد . وقاموا يدعون علانية وخفية لفض المسلمين عنه . ويمتسحون العلل الكفيلة بتأييد دعوتهم وترسيخ هواهم فى نفوس القوم ولو بالإهانات والتضليل دون التدعيم والتدليل ، ويتذرعون بكافة الذرائع التى يكون من ورائها بث العوائق والعراقيل فى سبيل الإمام . لا غاية لهم إلا الشعب عليه وإفساد أمره ، وإظهاره للملأ آونة فى مظهر العاجز الضعيف وثانية كالمستغنى بقوة عن كل قوة ، وثالثة كالمشاغل عن إقامة حدود الدين ، وأخرى كالشديد فى غير هوادة والعنيف فى غير لين ، إلى غير هذا وذاك من أوصاف متقاربة ، تضل بين أطرافها المتباعدة أنواع الاتهام ، ثم لاتكون فى رأى الحقيقة إلا حجة له تدفع باتهامها كل أولئك الأخصام .

ثم لاتكاد تنطوى من دورة الزمان إلا أيام حتى يبادر جمعهم إلى الشعب على الإمام لكل فريق منهم طريقة فى النيل منه تختلف والأخريات وإن التقت وإياها فى نهاية المطاف ، فابن أبى وقاص الذى وعد من نفسه إحسان السلوك لم تسكن نفسه وإن سكن جسمه . ولم يضع قلبه وإن أغمد سيفه . بل لاثبت حتى نراه قد أرسل إلى ابن العاص كتاباً يصف الأحداث حسبما

رأى هواء ، ويكشف عن خفايا دخليته ببيانه مالم يكشفه بمنطق لسانه ، قال في الخطاب :

« ... إنك سألتني عن قتل عثمان . فاعلم أنه قتل بسيف سلته عائشة ، وصقله طلحه ، وسمه ابن أبي طالب ، وسكت الزبير وأشار بيده ، وأمسكنا نحن ، ولو شئنا لدفنا عنه » .

هذه الرسالة تلقى ضوءاً على جانب من حلقة الواقع التي حدثت أثناء تلك النازلة التي دهمت الإسلام ، وتسكاد في مجموعها تكون صورة صادقة لموقف قریش . رسمتها ريشة رجل منها يستبعد منه أن يتجنى عليها ويظهرها أمام التاريخ ، ومع ذلك فلسنا نرى فيها إلا تحييفاً ظاهراً على علي ، مرده فيما نحسب إلى تلك العاطفة التي ما فتئت تشور بجوانح سعد وأمثاله ممن جرت في عروقهم الدماء الفرشية . فليست الحقائق السافرة هي وحدها التي أنطقت قلمه وأرسلته يرسم هذه الصورة الفذة لأبطال تلك الحقبة المليئة باصطراع الأهواء . فإنا نرى قریش هي التي سلت السيف وصقلته وسمته ثم دفعت به في نهاية المرحلة الفاصلة إلى أيدي العادين ليضربوا به الضربة التي خجلت هي أن تضربها . وامتلأ نفوسها بالمطامع هو الذي دفع بها إلى ذلك السبيل . وتفرق هذه المطامع بينها هو الذي ضرب بعضها ببعض ، ورددها آخر الأمر إلى فرق تنفازع السيادة وتندرع بكافة الذرائع للفوز بما تريد . وما كانت حين نعمت من عثمان فماله بالغاظية للحق بقدر ما كانت موكولة بتحقيق مراميها من حب السطوة ومظهر السلطان .

ولقد كانت منها فئة قليلة آثرت اعتزال الصراع الناشب بين بقيتها وبين الخليفة القليل . وجلست صامئة ترقب الأحداث التي أخذت تتجمع رويداً رويداً كسحب الغيث قبل حلول أوان العاصفة المحتاجة ... وكان سعد من هذه الفئة المنتظرة ، فعمد يشهد ما يدور حوله ولا يمد يده إلى شيء منه . لقد فاء من نفسه إلى همه فترت بمد طول نشاطه وخذت جذوتها بعد وفرة تسمر . لم يتحرك مطلقاً لنصرة حق أو لدفع باطل ، كأنما الأمر لا يعنيه فلما

بدا له الختام الحزين الذي أسفرت عنه الوقائع ، ملكه القدم على ما سلف منه إلى جوار شعوره بالنقمة على قومه الذين أعانوا بالفعل واللسان على تفويض دولة ابن عفان . وأبى عليه إحساسه القديم ، الذي هو صدى الشاعر القرشية تجاه البيت الهاشمي ، إلا أن يتحيف على علي وإلا فكيف نسبغ هذا الحكم من رجل فعد وأثر السلامة على رجل طالب ناضل وكافح من أجل عثمان كما لم يفعل مطلقاً سواء من الخلفاء والأعوان ؟ أم ترى لسان ابن أبي وقاس أرفع صوتاً وأعلى جرساً من حديث الحقائق الواضحة والواقع الهابت الذي لا يفيد في نقضه وانتقاصه سوق اتهام وإزجاء إيهام ! ؟ .

ولكنه كان واحداً من بين بقية أهل الشورى الباقية في الأحياء ، والتي لم ينس لهم موقفهم من ابن طالب حين كان في مقدورهم ترجيح كفته لو شاءوا السير على المنهج القويم . بل لعله اليوم أرفق بالحق منهم وإن لم يكن الصق به . . . بل هو أقدرهم على امتلاك ناصية مشاعره القرشية حين أفلت منهم زمامها ولم يسمعهم كبجها بعدان . ولقد يكون مرجعه إلى عقدة نفسية غرسها في واعيته فشله مرتين في إحسان القيام بمنصب الحكم اللذين وكلا إليه : مرة في عهد الخطاب وأخرى على أيام عثمان ، ولقد يكون مرجعه إلى غير هذا أو ذاك من أسباب ، ولكنه في الحق لم يسلس القياد لهواه كما فعل أصحابه بل لعله في عين كل منصف يقدر سطوة الدوافع النفسية ولا يفوته إدخالها في الحساب ، لم يستجب لعاطفته إلا بمقدار قد يغفر له ولا يلام عاينه إلا أيسر الملام أما الآخرون فكانوا على النقيض تجمعت فيهما شهوة النفس وشهوة الحس حتى أصبعا على غير ما يجمل بخدينين مثلهما من خيرة صحب رسول الله . مال بهما الهوى القديم وغاب حبهما الدنيا على حبهما الحق ، وهو واضح أمامهما ، مشرق ، سافر الوجه ، لا يخفيه عن أعينهما إلا الكلف الذات كلفاً تمشى به الفواظر وتطمس العقول والبصائر ، ولسنا بهذا نتناول على مقام الشيخين أدنى مطاولة ، ولكننا ثبت الحالة النفسية التي كانت لهما في ذلك الزمان

والتي لم يستطيعا أن يتحررا من قبضتها الحديدية إلا إن استطاع أن يتحرر من خفق فؤاده كائن حتى ثم لا يهجره بعده عامل الحياة ! فقد تأصلت فيهما عاطفة الميل عن علي كما تأصلت في الأسلاف القرشيين من عدة أحقاب وجرت في عروقهم كجري الدماء . ولكنهما بغير شك كانا أدنى مرتبة من صاحبهما سعد بمقدار وأحرص منه على عروض الدنيا . ووسعه هو ما لم يسهما . فحكم عاطفته وبالفهما في إسلاس القياد .

وجرى ابن عمر أيضاً على سياسة ابن أبي وقاص ، فلم يصغ لهواه كل الإصغاء . وجانب الفريقين المختلفين طوال مدة الخلاف وإن كان الأولى بمن هو مثله أن يظهر الحق ويتبعه حيثما يسير . ولكنه هو الآخر صورة قرشية ، فمد عن نصرة الحق لما وجده في جانب ابن أبي طالب ، أفقر آه في قومه أكان يتوانى لحظة عن القيام فيه ..

لقد يمي المرء أن يستقصي أسماء أولئك السادة الذين بادروا علياً بالسيف واللسان يضربونه على حقه بباطلهم ، ويحشدون له صفوفاً من التعلات تغري به جهال الناس ، ولكننا نعلم أن هذه التعلات لم تكن وفقاً على طائفة منهم دون طائفة ، بل اشتركوا جميعاً في صوغها على الشاكلة التي تستهوى ضعاف القلوب . وأن المدينة لم تكن وحدها مباءة أولئك المناوئين ، بل انتشروا بكل مكان كان فيه مقام لنفس مريضة أو لضمير مفلوم ، أو لعل أكبر هذه الباءات وأفسحها رقعة بلاد الشام ، تلك التي غدت مسرحاً . يمثل عليه مأساة هاشم وأمية كرة ثانية : الإمام علي والنهضة معاوية ! ..

{

بالشعب وللشعب .

ما من خطة احتذاها على في حياته السياسية إلا كانت تسير وفق هذا

الشعار . حتى من اللحظة الأولى التي تقلد فيها البيعة وحتى في أحلك ساعات تاريخه القصير ظلمة . . دفعه إلى هذا تكوينه الخلقى وسجايه . ثم ظروف الأحوال التي أحاطت به وسيرته يوماً فيوماً .

هذه حقيقة ثابتة يستطيع المرء أن يستشفها من خلال حياة الإمام . . وإن عرضاً موجزاً لقصته لكفيل بأن يرينا كيف كان للأحداث أثرها البالغ في طبع نفسه بالنزعة الشعبية التي هي صورة صادقة لمشاعر الشعب كالحال في الأصل والخيال . . . ففي طفولته الباكورة لا نحسبه أحسن مطلقاً كما يحس أمثاله من أبناء الأشراف . فقد فتح عينيه على عيش ضيق أوفر كاهل أبى طالب حتى دفعه إلى توزيع أولاده على طائفة من أهله ليحملوا عنه بعض عبئه . وخرج على من دار أبيه إلى دار محمد وإن بقلبه لشعور الطفل الذي لم يرتو بعد من عطف أبويه . وإذا كانت الأيام ما لبثت أن كشفت له عن فيض من حسان الأبوة والأمومة لا يتسع لثله قلبان ، فإنه بداره الجديدة لم يعرف العيش المترفع الذي كانت تحياه السادة في ذلك العصر ، بل هو في أغلب الأحيان كان أدنى إلى حياة الخشونة من أفراد الطبقة الفقيرة ، إذ عاش في كنف رجل لم يلق بالله إلى نعيم دنياه ، وإنما راح يهيئ نفسه وآل بيته لرسالة سامية ارتفعت ألويتها بأيدي المحرومين ، لأنها جاءت لتنشلهم من وهدة الهوان النفسى الذى خلقته الحاجة ، لتكسر الحواجز القائمة بينهم وبين ذوى الثروات وأبناء البيوتات ، ولتقيم للناس عالماً جديداً على أساس مغاير هو صفاء الروح . بعد أن كان عالمهم قائماً على المادة الصماء .

وجلى بعد هذا أن سنى الطفولة طبعته على الفرار الذى شهدناه في صباه وفي بدء شبابه . وأن هذا الدرس الأول كان له في نفسه أثر خالد . فلما سارت به الأيام في طريق العمر أخذت تبدو أمام ناظره عوامل أقدر على تشكيل الخلق من النظرة العابرة التي تلقبها على الدنيا عينا حدث . وبدأت مقومات شخصيته تتجمع مما استخلصه من سيرة محمد قبيل وفي

مستهل الدعوة السماوية . فلقد كان النبي وحده مثله الأهل ، وكانت أعماله كلها هي النبراس الذي سار على ضوئه ، سواء في هذا ما اتصل منها بمظاهر الحياة العادية كالمشي والأكل واللباس وما كان يتم عن اتجاه خلق معين أو نزعة نفسية ذات طابع خاص .

لقد اتسع دائمتاً قلب محمد للرحمة . والرحمة لا تبذل إلا للمحروم . والحرمان كلمة نستطيع أن تشمل كل شقاء بشرية ، فالضعيف حرم القوة والحول ، والمريض حرم نعمة العافية ، والمظلوم حرم حماية العدالة ، وكل أولئك وأمثالهم ألوان من إنسان يحى حياة لم تكتمل لها بعد أركان الإنسانية الصحيحة ، قد سلبه المجتمع بعض حقه عليه . . .

هذه صور حية للحرمان الذي يعيش عادة في وكر الفاقة ويمتص غذاءه من دم انفقير . لا تتمدد مثيلاتها إلا في الطبقات الدنيا التي تؤلف الكثرة الغالبة في كل مجتمع آدمي . ولا تلقى الرحمة إلا من قلب انسعت جوانبه لمشاعر الإنسانية وما انطوت عليه من آلام . واقد عاشر على أرحب قلب أنجبته البشرية ، وعرف آيات صفائه وعطفه . فإذا الرحمة التي أضفاها محمد تجدد لها صدى في قلبه . وإذا الألم لهم يهز كيانه ويملاً نفسه بالأمل في تخفيف ويلاتهم حين يستطيع ، مرة ليستجيب للشعور الكامن في أعماقه ، وأخرى ليضيف إلى مقومات شخصيته دعامة أخرى من خالق الرجل الكامل الذي أصبح له مثلاً أعلى في هذه الحياة .

ثم جاءت رسالة الإسلام . ومضت دعوتها نشق طريقها جاهدة إلى أرواح الناس . وتفتح بها وعى على ، وآمن بها قلبه ، وصفت لها روحه صفاء لم يعد له في غيرها صفاء . فما تكشفت له عن تشريع وتقنين بقدر ما تكشفت عن رحمة سابغة تستوعب كل الرحمت وتتناول الشقوة الإنسانية بالدواء الذي يحسم أدواء البشر في كل زمان ومكان . فإما الدين هدى . والهدى رحمة تمحو ظلمة الجهالة التي رانت على بصيرة الإنسان . والجهالة في نهاية الأمر حرمان من النور الروحي أيما حرمان . . .

جلاء الروح كان الغاية المنشودة في الدعوة المحمدية لأنه الطريق الوحيد إلى إسماعد البشرية . وأيما تشريع نزل به القرآن فهو وسيلة لتنظيم المسائل المنبثقة عنه انبثاق الفروع عن أصل الدوحة . أو هو رياضة دائمة للنفس حتى يتمكن فيها الصفاء كما يمكن الري للبذرة في النماء . وقد حرص الإسلام على أن يرفع ظل الحرمان عن الأرض فدعا إلى التحرر من عبودية الدنيا . . دعا إلى السمو عنها ، والارتفاع بالنفس إلى آفاق يتضاءل فيها جبروت المادة فلا يكون لها ثمة سلطان . بل تنقلب في النهاية مطية طيعة للانسان الكامل الذي نهم أن تصوغه الدعوة الجديدة .

الرسالة السماوية رسمت إذن للناس النهج الأمثل . ونادت بنصوص آياتها وروح معانيها بالتزامه لتصل البشرية إلى الخير المطلق — أو الخير الممكن ما دامت لا تتوفر العصمة لإنسان . وكان جماع مبادئها حرب الحرمان في كافة صوره ، وغايتها هو آثاره عن هذه الدنيا التي أخذ منها مباءة . وما دام الصفاء قد شمل روح البشر فقد أنجحت البصائر ، وصفت الأذهان ، وخلصت النفوس من شوائب الهوى التي هي ركام المادة . وأيسر اليسر بعد هذا أن تتوحد مشاعر الناس من كل جنس وفي كل عصر . فوحدة الشعور هي الخطوة الأولى اللازمة لبناء البشرية على أساس سليم . أو هي في الحق كل الخطوات . والأعمال المنبثقة عن إحساس واحد متسقة بدون ريب ، لا تفاوت بينها ولا اختلاف ، لأنها صادرة عن نبع واحد كما ينفث القلب الدم إلى الجسد ، لا يؤثر عضواً ولا يحرم آخر لأن البلاء في التمييز وفي الحرمان على سواء .

جاء محمد رحمة للناس من لدن رحيم . في يمينه تنزيل يبدد ظلمة الجهالة ، وينير بصائر الخلق للحق . ومن استوعب لب الإسلام ففسد عرفه دعوة صريحة لسيادة الصفاء على النفس الإنسانية ، وتبييناً للأساليب التي تمكن له ، وتنظيماً للأعمال التي تليق عنه . إنه هداية إلى حقيقة الصلة بين الخالق والخلق ، وبين الخلق بعضهم حيال بعض ، وما يتبع هذا كله من حقوق

وواجبات . وهو في مجموعه عرض يشمل كل مشا كل المجتمع البشرى ما بقيت على الأرض حياة إنسان . ويصف لكل منها العلاج الذي تستطاب به .

وما من امرىء عني باستقصاء أصول هذه الأدوية الفاجعة إلا وجدها مشتقة من الرحمة . وهـل ثمة عاطفة أولى منها بتوحيد شعور بني الإنسان ، وأجسدى في النهاية على آحادهم ومجموعهم ماداموا بها وحدها يرون أنفسهم أعضاء في بدن واحد ليس يصح كله إلا بصحة أفراده ؟ .

ما من ريب في أن سعادة البشرية وقف على وحدة الشعور ، وأن هذه الوحدة بدورها وقف على نجلاء الروح الذي هدفت إليه تعاليم الإسلام . ولقد استطالت الأعصر بعد محمد ونوالت على الأرض . وتعددت مآسى البشر وويلاتهم وفق تعارض ما يمتدل بنفوسهم من أهواء ، ثم حفزت البلائ طوائف من دعاة الإصلاح إلى اصطناع الأساليب التي عساها تحسم عن الإنسان ما يقاسيه ، فآزى عقولهم أسفقتهم بوصف حلول تحوم كلها حول ما فصله القرآن . ولقد استيقن على قبل مئات الأعوام جدوى تعاليم الإسلام وتشريعاته في شفاء الشقاء البشرى فكان أحرص الناس على تطبيقها في مجتمعه ، في البدء يبذل الرأى لذوى الأمر ، ومن بعد بقيادة أمته على هذا النهج الأقوم إذ علمه السبيل الوحيد لاستكمال جوانب الإنسانية . ولم يخف اتجاهه هذا عن الميئون من قبل أن يلى السلطان . بل كان بادياً منه هذا الحرص لكل صحبه ولجمهور الناس حتى قال صر فيه إنه أحرص قادة الأمة الإسلامية بأن يحملها على الحق الواضع والمحجة البيضاء .

ولم يكن إيمان على بالرسالة الإسلامية إيمان انقياد وتسليم ، وإنما كان وليد بحث ودراسة عميقة . وإذا كنا في البدء رأينا يبادر إلى اعتناق الدين الجديد وهو في سن لعلها لا تصاحب النضج الفكرى التام ، فإن قسوة التجارب التي مرت بها الدعوة في أعوامها الأولى كانت كافية لتصلل ذهننا كذهنه دل دائماً على التبكير في النضج . وكانت الشاهدة من بعد كفيلة بأن تزيه جدوى الإسلام على النفوس التي تفتحت له — على هذه

الحففات القلائل من الرجال والنساء الذين اعتنقوه فهدبهم إيماناً تهذيب حتى بدوا بين قومهم الجاهليين كما تبدو الزهور النضرة بين الأوحال ! ومع ما لقيت هذه الفئة الصغيرة من نكال وتعذيب ، فإنها استمسكت دائماً بعروة الدين لأنها استغمرت معه سعادة لم تذوق مثل حلاوتها في حياة الرذيلة والأناية وقلة البالالة التي كانت تحيها من قبل . فلا أول مرة أحست بإنسانيتها الكاملة لأنها ربطت هناة كل فرد منها بهناة الآخرين .

نضج تفكير على بالمشاهدة ونضج أيضاً بمباشرة لصاحب أنضج تفكير أتاحت له الحياة في هذا الكون . ثم انطلق على الأيام يشبع ميله إلى نهل الحكمة من نبعها الأول : كتاب الله . فما استظهره كما كان يفعل الرواة والحفاظ ، بل استوعبه استيعاب تأمل واستقصاء . وراح يستشف ما وراء ظاهر النصوص ، وقيس الآية فيه بمثلاتها ليستخلص أهم الأحكام . وبلغ في هذا غاية الشأو حتى أصبح عند أهل زمانه صاحب الرأي الأخير في التفسير ، وصاحب الحكم القاطع في الفقه والشريعة . وبقيت من بعده آراؤه ودراساته أصولاً ثابتة للعلوم الإسلامية في كل الأجيال .

وبقدر إيمانه بكمال الشرائع التي تضمنها الإسلام ، وكفايتها لتنظيم المجتمع الإنساني على أساس سليم ، فكذلك كان إيمانه بسنة الرسول . فإن هي إلا تبع للأصل ، وتفصيل لما أجمله القرآن . وإن طاقة العقول البشرية بعد هذين النبعين المحدودتين ، وجهدها في اصطناع الأساليب التي تستطيع إصلاح العالم لقاصر أيمانها قصور . فائمة أحد أرحم الناس من الله ، ولا شريعة أكمل من شريعته ، ولا علم بأحوال خلقه كمله .

كذلك أخذت نظرة على إلى مجتمعه تفرس من نظراته العميقة إلى لب الدين . وإذا كانت الرحمة هي الوسيلة الوحيدة لتوثيق الصلة بين المجموعة البشرية ، فهي نور يهب المعرفة ، ومعرفة تبصر الإنسان بأوصابه وأوصاب إخوانه من بني الإنسان . وعاطفة نبيلة لاتنبعث إلا عن نبيل وبكل نبيل من الخصال والفعال . وأولى العالم بها مجتمع ضعف شعور أفراد إنسانيتهم

فقلب عليه الحرمان من العلم أو العدالة أو أمثال ذلك من ألوان الحرمان

وطبيعى أن تتعلق رحمة على بأوساط العامة لأنهم أدنى طوائف المجتمعات إلى الحرمان ، فحيثما كانت الفساقة نبتت مآبى البشر ، وحيثما استشرى النقر فسدت المجموعة الإنسانية التى تحتويه ، لا لأن الفقر فى ذاته رذيلة ، ولكن لأنه مظهر من مظاهر فساد خلقى جدير بالكفاح ، هو انعدام العدالة الاجتماعية بين أبناء المجتمع الواحد ، وإن مرد هذا بلا ريب إلى انعدام وحدة الشعور .

على أن الرحمة التى استشعرها على حيال الطبقات الدنيا لم تكن وحدها ما يعلل قلبه ، بل جاورها إعجابه بنبلهم ، وإكباره لما بدت عليه نفوسهم من صفاء . لكان الحاجة صهرت قلوبهم وطهرتها مما يعلق عادة بالقلوب من أدران . . . لكان حسهم أرهفته قسوة الآلام التى أذاقهم إيها المجتمع الظالم وجلت عنه ركام الهوى والمطامع . . . فهذه الفئة المحرومة التى كانت إذ ذاك نقاية الطبقات كانت أول طوائف العرب إلى تقبل الهداية ، وأسرعها إلى تلبية دعوة السماء حين جاءها محمد برسالة الإسلام ، ولقد شهد لها على ألواناً من الإخلاص لم تطف ظلالها بنفوس السادة والأثرياء ، ورآها دائماً أقرب إلى الرسول من برده ، تلتف به ، وتفتديه ماوسمها الفداء ، وتبذل فى سبيل رفع لواء دينه كل ما استطاعته من جهود وتضحيات ، بينما وقف الخاصة يناجزونه وقد حسبوا أنهم قادرون على النيل منه والقضاء على رسالة الهدى والنور .

قد كان لهذه العوامل وأمثالها أثر فعال فى صبغ على بصهفته الشعبية ، وفى توجيهه وجهته إلى أحضان الشعب ، حتى من قبل أن يصلب عوده ويعرف لنفسه حقها فى زعامة الأمة . ثم تلتها من بعد أمور وطدت له إيمانه بالشعب وزادته اقتراباً من الطبقات الفقيرة التى تؤلف الجانب الأكبر منه ، فلقد لقي بعد وفاة محمد عنناً من قومه أبحا عفت ، وغلبته أهواؤهم الجاهلة على حقه الواضح لأنهم تقسوا عليه أن يفوزها شئى مثله بالخلافة ،

وعملوا جاهدين على ابتزاز سلطانه كلما آن له أن يلى هذا السلطان . . وما من مرة مد بصره إلى صفوف مناوئيه إلا شهدها قد انتظمت أبناء الطبقات المربقة وذوى الأحساب والشرف العريض ، يقفون منه كوقفهم من محمد فى أمسهم القريب . . وما من مرة رد طرفه إلى من وقفوا خلفه يظهرونه ويرتجون نصره إلا وجدهم من ذات الفئة المستضعفة التى صهرت نفوسهم نار الحرمان — أولئك الذين سارعوا إلى الهداية ، ونشروا الإسلام باستمساكهم به وثباتهم على عقيدته قبل أن ينصروه بأسنة الحراب ورموا بأوطار الدنيا وآرابها دبر ظهورهم إذ لا غاية لهم من هذه الحياة فى مال أو جاه .

ومضت هذه الفترات التى كرثته فيها الحوادث ، والتى عنت فيها رقاب أولئك السادة لشريعة الحسد والأحقاد ، وانطوت فى الزمن السيار كانطواء الغل فى قلوب أهله . . ثم انتشرت على أثرها صحيفة جديدة من تاريخ الإسلام كانت حرية بأن تكون ألمع صفحاته إذ انتهت مقاليد الأمر إلى أولى الناس به وأصلحهم له بعد رسول الله ، فابغىب عنا حين نستذكر بيعة الإمام ، ونستعرض العوامل التى أدت إليها ، أن نرى كيف كانت مشيئة طبقات العامة هى الغالبة ذلك اليوم ، وكيف قامت دولة على وحكمه على اكتاف جمهرة الشعب الإسلامى فى كل الأقطار وإن كرهت الخاصة وكره الأشراف .

بالشعب وللشعب .

شعار دائم لم يتغير . وعلم ظاهر على سياسة الإمام لم تبدله الأحداث . وخطة واضحة استمدت وحيها من الماضى بتجاربه ومشاهداته ؛ ومن الدين بتماليه وروح آياته ، ومن الحاضر بتبعاته والتزاماته . وبحسبنا أن نصحب أعمال الرجل الذى سوده شعبه لفرف إلى أى مدى كان مخلصاً للبدا الذى اختلط بدمه وأصبح جزءاً من كيانه . . . حتى من أول خطوة حين قوض التقسيم القديم القائم على التفرقة على توزيع الأعطيات على

الطبقات ، ورده إلى نظام المساواة ليقوم صرح للمعدالة الاجتماعية التي استهدفها الاسلام . . . وحتى في ثأني خطوة حين استجاب لشكوى المحكومين من الحكم فراح يعمل على بناء حكم صالح لا يقوم بعير صلاح الحاكم ورضا المحكوم .. وحتى في كل خطوة بعد هذه وتلك سارها إبان عهده القصير الذي اصطلحت عليه الفتن والخلافات ، وغالته المحن والشدائد فلم تصب أيها منى جلال صاحبه ولا من رعاية قلبه واتساعه لأمته ، ولا من صفاء روحه الذي عاش ومات وهو يجهد أن يطبع الناس على غراره النبيل ..

٥

كاد الناس أن يتبينوا في أفق الحاضر سمات الانقلاب الذي يوشك أن يتولى الأوضاع المألوفة ، فما غابت عنهم نظرة الخليفة الجديد ، ولا آراؤه في الحالة القائمة بكافة أركانها في السياسة والاجتماع والاقتصاد . ولا حتى ما تميزت به أخلاقه من نزعة مثالية لا تنهدأ إلى ما كانت عليه الأخلاق العامة من رخاوة حين ذاك . ولأولى بمن كان على شاكلة ألا يصبر يوماً وبمض يوم على هذا الانحراف الخلقى وهو يعلم أن دعامة الأمم الأخلاق .

ولقد بادر الإمام بتنفيذ خطته المثلى في ذات اللحظة التي رقى فيها منبر الخلافة أول أيام عهده . وجأ القوم بسرعة البت في الأمور وحسمها على النسق الذي يؤمن به ويرضاه . ولم يكن ثمة قانون يلزمه سوى تشريع الله وسنة الرسول لأنهما غاية ما تستطيع أن ترقى إليه العقول . فهما نهجه الواضح ، والقيس الذي يضئ أمامه الطريق إلى بلوغ السكال . وهو ينصوصهما والروح التي انطوت عليه جد عليم . ليس ينقصه بحث ولا دراسة ليتبين الوسائل التي تنفع الإصلاح المنشود .

استدشف القوم بشارت الانقلاب الشامل الذي آذن به اختيار على لولاية أمر الدولة الاسلامية واختلفت نظراتهم إليه بين إكبار وإنكار . فلقد

كان جمهور الأمة يتوقع الخير من خلافته لأنه آمن بأن الإمام رئيس أمة قبل أن يكون حاكم دولة . يعنى بشئون الناس كعنايته بشأن أسرة . ويستلهم مصالحهم العام بوصفهم مجموعة بشرية لها مشاعرهما ، ولها حقوق حياله قبل أن يتقاضاها ما عليها من التزامات . وكان الكيان السياسى فى نظر على تيمماً للكيان الإنسانى ، ونتيجة مترتبة عليه . وكانت وحدة الشعور وحدها بين أبناء المجتمع الواحد هى الكفيلة بضمان الوحدة السياسية ، ولن تجد دولة تستطيع أن تبرز وتسود إن لم تسد بين أفرادها شريعة الإخاء .

وبقدرما استقبل العامة عهد الإمام بالترحيب فقد عبت له طبقة الأشراف ، وساء لهم منه أن يبدأ بتقويض الزايا السادية التى كسبوها فى عهدى سلفيه . وبأنزاهم عن المكانة الاجتماعية العليا التى كان التقسيم العمرى أحد مظاهرها . وكفى بهم حنقاً عليه أن قد سوى بينهم — هم السادة ذوى الأحساب — بالدهاء والأوشاب . ووصمهم وإياهم أمامه بمنزلة واحدة كما هم فى حقيقة الأمر أمام الله . .

لا ريب أن مبعث غضب الخاصة على الامام كان نظامه الجديد فى التقسيم ، أو عوده — بأدق تعبير إلى ذات النظام الذى أسننه رسول الله . فلقد استيقنوا أنه خطوة لن تلبث أن تتلوها خطوات تحرمهم بأنفسهم وما كانوا عليه من تقود وجاه . وإذا كانوا قد ارتضوه خليفة وبايعوه على ملا من الناس فمن غير طواعية اختاروه ، بل انقياداً لسطوة الشعور العام . أما وقد افتتت فورة النفوس الآن ، وأوشكوا أن يطمئنوا إلى هدوء الحال ، فخيرهم إذن معقود يث المراقيل فى سبيله . أو على أقل القليل — يئذلهم الجهد للبقاء على بعض الأوضاع التى كانوا يعلمون أن الامام سوف يتناولها بالتغيير . .

بغير هذا لا يساغ فهم موقف المغيرة بن شعبه حيال مشيئة على فى تغيير ولاية عثمان . فلم يكن المغيرة من أنصار الامام . ولم يعلم عنه أنه أضمر له شعور الولاء . بل هو لم يبايع له وإن بايع له كثير غيره من الكارهين .

فمن سبب أن يتكاف — رغم هذا — بذل النصيح لعلى ويبدو كالشير الأمين حين لا تكون المشورة من مثله إلا إغراء مستتراً على ارتكاب الأخطاء . . . قال الداهية وهو يدهن الإمام :

« إن النصيح رخيص ، وأنت بقية الناس ، وإن رأى اليوم تحرز به ما فى غد ، والضياع اليوم تضيع به ما فى غد » .
وأملك برهة ليرى مدى تأثير قوله . فلما رأى علياً جانحاً إلى السكون عاد قاستأنف الحديث :

« . . . إني مشير عليك أن ترسل إلى عمال عثمان بمهودم . أقرر معاوية على عمله . وأقرر ابن طامر على عمله . وأقرر العمال على أعمالهم ، فإنهم يبايعون لك ، ويهدثون البلاد ، ويسكنون الناس » .

فيأدركه الامام برأيه القاطع فى أولئك الولاة :
— والله لو كان ساعة من نهار لاجتهدت فيها رأيت . ولا وليت هؤلاء ، ولا مثلهم يولى .

— .. اكتب إليهم بإثباتهم ، فإذا أنتك يمينهم وطاعة الجنود استبدلت أو تركت .

فجاءه الجواب الحاسم ، الولي به خلق على :
— لا أدهن فى ديني ، ولا أعطى الدنيا فى أمرى .
ولكن الفيرة لم يئأس بعد ، هل حسب أنه مستطيع أن ينفذ بعض مشيئته بشكل من الأشكال . . فقال :

— فإن أبيت فأنزع من شئت وأقرر معاوية ، فإن لمعاوية جرأة ، وهو فى أهل الشام يسمع منه . ولك حجة فى إثباته ، إذ كان صر بن الخطاب قد ولاء . . .

— لا والله . . لا أستعمل معاوية يومين أبداً .
نخرج الفيرة مغلوباً على دهائه .
خير أنه — كغيره من الوصوليين — رأى أن يأخذ بالشمال ما لم يستطع

أخذه باليمين . فما هي إلا ليلة حتى عاد ثانية إلى مجلس الامام يعتذر مما سلف منه بالأمس . ويعلم أن رأيه الذي ناضل عنه طويلاً وأراد به إقرار ولاية عثمان كان بعيداً أيما بعد عن الصواب . . . لقد آثر الداهية أن يبدو في ثياب المؤيد لسياسة أمير المؤمنين وإن لم يكن في صفوف أعوانه ومناصريه ، وكفاه أن يقف موقفاً لا يشير عليه نقمة الامام ولا يبعده عن عطف أعدائه ليستطيع حين تسنح الفرصة أن يكون صديقاً لا تقفل في وجهه أبواب الفريق الغالب ! .

فما كان أرخص دهاءه ، وأفضح رياءه . . . ومع ذلك فقد استمع له على حتى أتم اعتذاره ثم شيعه إلى الباب ببسمة ساخرة فيها رثاء بين للحالة التي قدلت إليها رجولة الرجال . . . وتلاقى الفيرة حين خروجه بابن عباس وقد عاد لقومه من الحج حيث كان أميراً من قبل عثمان . وتبادلا التحية ثم مضى أولهما لشأنه ودخل الثاني على الخليفة الجديد .

وقال ابن عباس ولم يخف عنه أن الداهية الذاهب إنما كان بمجلس الامام لأمر له فيه شأن .

— يا أمير المؤمنين . . ما قال لك هذا الخارج من عندك الآن ؟ . .

قابتم على . وفصل له ما كان .

— يا أمير المؤمنين . . أما في الأولى فقد نصحتك ، وأما في الثانية فقد

خشك . .

— نصحتني ؟ .

— نعم . وإنك لتعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا ، فتى تثبتهم لا يبالوا

بمن ولي هذا الأمر . .

— ويحك يا ابن عباس ! . . إن الذي يلزمني من الحق والمعرفة بمال

عثمان لا يجعلني أولى منهم أحداً أبداً . فإن أقبلوا فذلك خير لهم ، وإن أدبروا

بذلت لهم السيف .

فكأنما لم تلق هذه الكلمات مسمماً لدى الشباب ، لأنه عاد يقول :

— .. أنا أشير عليك بأن تثبت معاوية ، فإذا بايع لك فعلى أن أقلعه من

منزله — .

— لا والله .. لا أعطيه إلا السيف ! .

— يا أمير المؤمنين ، أنت رجل شجاع لست بأرب الحرب . أما سمعت

رسول الله يقول الحرب خدعة ؟

— بلى .

— فوالله لئن أطمعني لأصدرن بهم بعد ورد ولأتركنهم ينظرون في دبر

الأمور لا يعرفون ما كان وجهها في غير نقصان عليك . ولا إثم لك .

فلم يزد على — بعد هذا الرأي العجيب الذي أبداه ابن عباس وكاد أن

يكون صورة من نصيحة الغيرة — لم يزد على أن أجاب بحزم وفي إيجاز :

— يا ابن عباس ، لست من هنيئاتك وهنيآت معاوية في شيء .. تشير

على وأرى ، فإذا عصيتك فأطعني .

— أفعل . إن أيسر مالك هندی الطاعة .

قد كان معاوية وأصحابه من ولاية عثمان أهل دقيا في نظر الناس ، أفكان

على كذلك ياترى في نظر ابن عباس ؟ .. بل التوفيق جانب الشاب الهاشمي

هذه المرة نتيجة لشدة حرصه على توطيد إمرة ابن عمه ، ونتيجة أيضاً للأثر

الذي تركه في نفسه رأى الغيرة الذي كان موسوماً بالدهاء إذ ذاك . وأوشك

الفتى ، مقوداً بهذه المؤثرات ، أن يتخذ من المقاييس الخلقية المنحرفة وسيلة

لقياس أخلاق الامام كأنه أنسى أي طراز من الرجال كان ..

ولكن النهج الواضح الذي اختطه على نفسه لم يكن بحاجة إلى رأى

مشير لايضاحه أو لادخال تعديل عليه هنا أو هناك ، فما كان يصدر في

أعماله إلا عن دستور قويم واحد ، لا يمكن أن يتناوله التحريف ، هو

الدستور الالهى الذى نزل به القرآن وكانت غايته إصلاح المجتمع الانسانى

كله بإصلاح الأخلاق . ومن العيب أن تأخذ الفروع بالعلاج وأنت تدع

الأصل فريسة للداء . وكان الأصل في الدولة الإسلامية أولئك المولاة الذين أشفت البلاد تحت إشرافهم على حافة انهيار روى يوشك أن يكون فاتحة كل انهيار . فما كان حكمهم قائماً إلا على استثارة النزعات النفسية الوضيعة في المحكومين تارة بالترغيب وتارة بالإرهاب ، حتى وصلت بهم الحال إلى سلطان هو الطغيان . فقد ضمهم الشعور بقوة المبادئ السامية والمثل العليا وأوشك على الزمن أن يموت . وإذا فتر هذا الإحساس فإنهم أقرب إلى تضارب الأهواء منهم إلى توحد الغاية ، وانطلق كل في طريقه نحو هدف خاص يشغله عن الهدف الأمثل الذي يجدر أن يلتزمه مجموع الأمة الإسلامية التي أرادها دين الله على قيادة البشرية كلها إليه .

المثل السامية التي دعا إليها القرآن كان أثرها وشيك الزوال إذ ذاك من قلوب الناس . وكان عثمان عن هذا أول المسؤولين . فهو الذي مكن لتفانهم في النفوس بسياسته الرخوة ، وأقام ملكه على اكتاف عمال أهلهم للولاية قرابتهم دون كفايتهم . وكان ضعيف الرقابة عليهم . بل هو في الحق كان يطلق أيديهم في العمل كما يشاءون ، فانتهجوا من الأساليب كل ما يحفظ عليهم سلطانهم ويوفر لهم مظاهر السطوة والجاه ، وإن طرأت هذه الأساليب لب الإسلام ، واتخذوا من بعض رعاياهم أعواناً على البعض ، فقدموا فئة وأخروا ثانية ، وميزوا بالهبات والمناصب رجالاً لا يفوقون بقية الأمة إن سلكوا وإياها في عقد الموازنة ، بل هم أولى بأن يتخلفوا إلى ما وراء الصفوف ، وبعد أن كان العمل وحده هو أساس التفضيل والتقديم ، اصطنع أولئك المولاة أساساً شتى لاجتباء الأعوان : فيها صلة القرابة ، وشرف الأنساب ، والزلفى إليهم بكل طرائق المداينة والرياء . وبعد أن كانت المساواة هي النبع الذي تستقي منه العدالة ، وكان الناس سواء كما وضعهم الله ، أصبحوا في نظرة الحكام طوائف وطبقات ، وبات التمييز لطبقة دون غيرها هو العدالة السائدة . وكذلك نبت الجور على حقوق أغلبية الشعب من أجل تمييز قلة فيه . ولم تعد

هناك حاجة بالولادة لأخذ الأمة جمعاء بشرية المساواة مادام اختيارهم هم أنفسهم للقيام بشئون الولايات لم يكن مرده إلى هذه الشريعة التي لا تعرف المحاباة .

كانت القرائن كلها تدل دلالة بيّنة على انحراف السياسة العامة عن الجادة التي أوضعها الله . وكان كل عمل يستلهم في تفكيره روح الإسلام يرى — دون تردد — وجوب تغيير هذه السياسة . وهدم النظام الفاسد الذي أقامته وأملت له في البقاء . ولم يكن على بعرف هذا فحسب ، بل آمن به تمام الإيمان . وحزم أمره على تجييش كافة قواة الذهنية والمادية لإقامة صرح دولته على ذات الأساس الوطيد الذي انطوت عليه نصوص رسالة السماء . لقد بدا جلياً تعذر التعاون بينه وبين عمال عثمان لاتساع ما بينه وبينهم من هوة فكوية ، ولاختلاف مبدئه ومبادئهم اختلاف النقيض والنقيض . وهل كان بمقدوره أن يكل إليهم إقناذ نهجه الجديد وهو يعلم أنهم لا يؤمنون به ؟ ... وكف يسه أن يأغتهم على سياسة قوامها نبذ الأهواء وإنكار الذات هم الذينة، أشربوا الهوى واستعبدتهم حب القذات ؟ . . فإذا استطاع — رغم هذا — أن يتقبل مشورة النيرة ، وينزل على رأى ابن عباس في إقرار أولئك الولاية مع ما عرفه من كراهة رعاياهم لهم وثوراتهم المتوارة التي انتهت بمقتل عثمان ، أفكان إذن يأمن الا يلتفض عليه أمره بهذا الإقرار في كافة الأقطار ؟ ..

لا حافز غير الحرص على توطيد دعامة الحق دفع علياً إلى الاستمساك برأيه في إقصاء المال الذين ولاهم سلفه . ولا هدف رى إليه سوى إعادة سلطان الأخلاق إلى مكانه في قلوب الناس كما كان على عهد رسول الله . ولئن وجب عليه أن يقصى ابن أبي سرح وابن أبي عامر عن أريكة الحكم استجابة لرغبة المحكومين، فقد وجب أن يقصى قهلهما معاوية وإن دانت لطاعته الشام . فما من ريب في أن هذا الرجل كان لا يستلهم في كل أعماله غير ذاته ومنافسه الشخصية ، وكان لا يتجه إلا حيناً ناداه طموحه ، ولا يتوسل لهدفه إلا بالوسائل التي يراها ذات جدوى في مجتمع رانت عليه الأطماع وغلب فيه

سلطان المادة . ذلك أن الشام كانت أدنى أرض المسلمين إلى الأمبراطورية الرومانية التي اضعفت شوكتها وأخذ كيائها السياسى ينهار نتيجة لانهلال الأخلاق . وكانت بقربها هذا مرتعاً خصباً لكافة الآفات الخلقية التى تصيب النفس الإنسانية . وإذا كان نعمة حاكم إسلامى قد أفاد من وراء هذا الانهلال الخلقى فمعاوية ذلك الحاكم لأنه وجده أداة طيعة يستطيع أن يصل بها إلى السيادة بأيسر مجهود . وما عليه إلا أن يعرف جوانب الضعف فى نفوس رعاياه ثم يستعبدهم بنوع الإغراء الذى يستجيبون له . أما استكمال هذه الجوانب وسد ثغرات النقص الخلقى بالوسائل التى أوضحها الإسلام فذلك كان أبعد عن استعداده وأعسر على نفسه الموكولة بتحقيق أهدافها الشخصية دون التقيد بالتزام سبيل الهدف الإسلامى العام . ولعله من فسوة القدر على الدولة الفتية أن عنت جبهتها ذات يوم لمعاوية . ودانت لحكمه رقاعها المدودة لأنه — وإن نشر ظلها على أقاليم جديدة من الأرض — قد قلص فى نفوس أبنائها سطوة الكمال الخلقى الذى كان الغاية الأولى لدعوة الإسلام ...

على إذن كان منطلق النظرة إلى بعيد . أرسلها تحترق الحاجز إلى المستقبل وتسبق التاريخ قبل أن رسم أحداثه ، وتستشف من هذه الأحداث التى لم تكن قد كتبت بمد صدق رأيه فى الرجال الذين أبى أن يدع فى أيديهم مصائر الأمة الإسلامية ، ومصائر السمو البشرى الذى كان الهدف الأسمى للرسالة الحمديدية . وكانت نظرتة أصدق ما تكون فى معاوية . وكانت سريعة كآثها الفكرة الملهمة لم يموزه لصوغها كثير تدبير . وبقدر ما حوت من الغيرة على مصير الشريعة الهادية فإنها لم تخل من غيرة على مصير الكيان السياسى الذى أصبح هو الآن رجله الأول . فما غاب عنه أن فى إقرار ولاية عثمان ضياع الدولة الناشئة وتفتيت وحدتها . ما دام بقاؤهم فى أعمالهم سيلاقى حتما بثورة رعاياهم عليهم وعليه . وأولى به إذن أن يجاؤهم عن مناصب الحكم ، تلخير الحق ولخير الخلق .

لذلك لم يتلبث أقل القليل ليحسم الأمور ، بل بادر فكتب إلى أمير الشام :

« من عبد الله على أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان .

« أما بعد - فقد علمت إعداري فيكم ، وإعراضي عنكم ، حتى كان ما لا بد منه ، ولا دفع له . والحديث طويل ، والكلام كثير . وقد أهدر ما أدير ، وأقبل ما أقبل . فبايع من قبلك . وأقبل إلى في وفد من أصحابك . . . »

وطوت الدابة رقعة الصحراء بغير إبطاء . وقطعت الطريق من الجنوب المجدب إلى الشمال الأخضر النضير ، ثم اجتازت أسوار دمشق إلى القصر الباذخ . وأجال الراكب عيناً حائرة في الغرف الذي طالعه من كل مكان فائس له شبيه في حاضرة الإسلام ، حتى إذا انفرجت له صفوف الحراس في ثيابهم الأنيقة ، وبأسلحتهم الشاكية البراقة ، قيد من باب الدار إلى ردهات خلص منها إلى قاعة الإمارة . فإذا ثمة بطانة كبيرة من رجال وعبيد . وإذا بصدر المكان وسادات من حرير اتكأ عليها معاوية تحفه مظاهر الجلال والخيلاء ، تعيد هيئته إلى الأذهان ما تسامت به الأذن من ملك الروم .

وقدم الرسول كتاب الإمام . وقض الأمير الخاتم ثم ألقى على السطور نظرة ووجهه جامد لا ينبىء عما بقلبه من شعور . ولكنه إذ غاب القادم عن عينيه بمد قليل ، استطاع أن يتشم في ازدراء . وفي انشاد وهدوء وضع رسالة أمير المؤمنين بجواره . ومد يده فالتقط أخرى كانت غير بعيد ، نشرها تحت بصره ؛ وراح يقرأها وشفته لا تكفان عن ذات البسمة التي لو أنها ظلة المبالاة .

« من عمرو بن العاص ، إلى معاوية بن أبي سفيان :

« أما بعد ... ما كنت صانعاً فاصنع ، إذ قشرك ابن أبي طالب من كل مال تملكه ، كما تقشر عن العصا لحاها ! . . »

وصدق ابن النابغة . فهذه الأخبار قد جاءت بما انتواه على من مصادرة القطائع والأموال التي بعثها عثمان .

الشام غضبي . . . حديث القلوب فيها لوعة ، وحديث الأعين دموع ،
 يوشك رجالها أن يجردوا السيوف ، ويتدفقوا عبر الصحراء كالسيل صوب
 الجنوب . . . ولكن زمام عواطفهم كان بالقصر — في يد الأمير الشحيم ،
 المندحق البطن الواسع البلموم ! . . . فهو وحده يستطيع أن يسير آلة الحقد
 المضخمة التي يؤلفون أجزاءها ، يدفعها إن شاء ويوقفها إن شاء ، أصابعه فيها
 الحركة وفيها السكون ، كأنها أذرع الأخطبوط تتحرك إلى كل جهة وهو
 ثابت في مكانه .

كان تاجر أهواء . كل نزوة نفسية لها في قائمته ثمن معلوم ، وكل هوى
 يلقي في سوقه من الرواج بقدر ما يجره عليه من الريح . يستعرض العواطف
 كما يستعرض السلع ، وينتقى منها أجداها عليه ، ومن وراء أسوار قصره
 المنيف كان يلعب بأحاسيس الناس . ويربط بين قلوبهم وأطماعه كما تربط
 الدهى بأصابع مهرج قابع خلف ستار . . . وكان حاذقاً يجيد التمثيل ، يكاد أن
 يرى الأثر الذي ينشده من الإلهيبه آخذاً سبيله في النفوس ، بالغاً منها
 أعماق أغوارها وإن بقي هو ساكناً إلى وصاداته ، ساجي الطرف ، يشبع نهمه
 من الأطعمة الشهية التي كانت — بعد أطماعه السياسية — أحب هوية إليه
 في الحياة .

أصابعه الماهرة استطاعت أن تحرك الجماهير . وتلعب على أعصابهم حتى
 ملكتهم العواطف الجياشة وأشفت بهم على حافة الجوح . ولم يكن يخشى
 أن يفلت منه الزمام فما للدهى مشيئة سوى مشيئته هو الذي يمسك الخيوط .
 ولم يخش أيضاً فتور المشاعر المشبوبة ، فقد أحسن إمدادها بالوقود . ولن يفتأ
 الناس كل مطلع شمس أن تضطرم في قلوبهم نار اللوعة حين يدخلون مسجد دمشق ،
 ثم تعصف بهم ثورة الغضب حين يبرحون أبوابه ولن يكف شعورهم عن التذبذب

بين هاتين العاطفتين بضع مرات في اليوم بحد الصلوات . فثمة على المنبر مشهد تغل له دماء الرجال ، وتقد نخوتهم . وما دامت فيهم عين نرى فلن تهدأ لهم نائرة قط . فهذه بقايا المأساة التي شهدتها المدينة قائمة أمامهم تتلقفها الأبصار كلما تولت شطر القبلة . إنها شعيرات من لحية عثمان تجمد عليها دمه ، وقيصه قد بدت في ديباجته الدامية تلك الخروق التي تغذت منها أسنة الثوار إلى قلبه وحملت إليه الموت ، وسلاميات أصابع جافة برزت من بين ألفافها كأنها تهيب برجولة أهل الشام أن يبادروا للانتقام ! .

إثارة النزعات النفسية كانت تجارة معاوية سليل التجار ! ... وقد أثارها كما شاء وملأ بها قلوب رعاياه حتى لم يمد نعمة رجل منهم إلا يتحفز للثأر ممن أشعلوا نار الفتنة على عثمان . وبحسبهم أن تطالعهم آثار المأساة في كل ساعة من الليل والنهار لتظل موجدتهم مشبوبة لا يخمد لها ضرام . فما استطاعوا أبدا أن يعرفوا الأسباب الحقيقية للثورة ، ولا مدى المسؤولية التي كانت واقعة على الخليفة تجاه أمنه وأدى نهاؤه في الاضطلاع بها إلى اندلاع لهيب العصيان . ولكنهم ألقوها نظرة عابرة على حادث المصراع كشفت لهم من الناحية السطحية منه - الناحية الحزينة العاطفية التي يبدو من خلالها شيخ واهن ، أمقله العمر ، قد اقتحمت عليه مأمنه فئة باغية لم تأخذها فيه شفقة وراحت تستمتع باعتصار بقايا الحياة من جسده الضعيف .

بذلك القميص الذي مزقته الأسنة ، وبالسلاميات الجافة ، وبالشعيرات اللاصقة بمنبر دمشق استطاع معاوية أن يصل من قلوب رعاياه إلى ما لا تستطيع بلوغه أبلع خطب التحريض وأشدّها حرارة . الآثار الثلاثة كانت باعث غضب جامع محتاج عصف بالنفوس كأنها الخرقة الحمراء حين يلوح بها أمام ثورا ... غير أن حاكم الشام لم يحن من وراء عرضها إثارة سورة الغضب الهاج فحسب ، بل وسمه أن يبدو بها بطلا ماجدا في عيون شعبه لا يقعد عن الثأر لضعيف مظلوم .

بدا في ثوب الدقم على قتلة الخليفة ، الحزين غاية الحزن لمصرعه . ولكنه إلى هذه اللحظة لم يكشف عن خطته ولا عن الطريق الذي يريد أن يوجه فيه نقمة هذه النفوس الغضبي . لم يكن قد أكمل نسج شباكه فأثر انتريث ، غريزته التجارية دلته على أن التمهّل أجدى على أهدافه المريضة وأدعى إلى تحقيقها على الوجه الذي يرتضيه . ولئن لاح سخطه واضحاً على مثيري الفتنة التي سالت فيها دماء عثمان فإنه لم يبين « من » هو أولاهم بتحمل تبعة هذه الدماء المهرقة . واكتفى بأن ظل ينفخ في النار التي أججها بصدور أهل إقليمه . عساه يستطيع — إن أسعفته الظروف — أن يدفعهم عبر الصحراء صوب الجنوب ! .

ثم أخذ رويدا رويدا يتبين السبيل الذي يصل به في نهاية الشوط إلى مراميه . وراحت الأخبار تترى عليه من كل جانب فزيده استمساكاً بأطماعه ، وأملا في فرب تحقيقها على النحو الذي يريد . وكانت عينه دائماً على المدينة . ترقب كل ما يحدث فيها . وعلى الجالس الآن بمسجدها يحاول أن يوجه سياسة الدولة المترامية التي آل حكمها أخيراً إليه . ولم يفته اضطراب الأحوال بالحاضرة الإسلامية غب مقتل عثمان . ولا القوة التي ظلت في أيدي الثوار كالسيف المصلت على الرقاب . فقد بقيت لهم شوكتهم عزيزة مرهوبة بعد أن حققوا بالأسنة ما أعيامهم تحقيقه بالوسائل السلمية . وبات لهم في النفوس رهبة ، إذ ظلوا على اجتماعهم ولم يتفرقوا إلى أمصارهم كما كان المتوقع منهم بعد إنفاذ مشيئتهم . وكان من العبث أن يقهروا على الخروج وهم يملكون من السلاح والعتاد ما لو شاءوا لكرؤا به ثانية على أهل البلدة العزل الآمنين .

ومن حق غالبية الثوار أن تنصفهم أمام التاريخ . فلم يلجئوا إلى الثورة حباً في الفتنة والعصيان ، ولكنهم كانوا في الحقيقة أفراداً أثارهم الظلم الذي وقع على مجتمعهم بأيدي ولاية عثمان وبأسباب نظمه السائدة التي دب إليها الفساد في أخريات أيامه . فلما أن ثقلت عايهم وطأة العنت هبوا يلتصون

عنده الخلاص . وساروا إليه حيث كان محاصرة الدولة يحملون ظلاماتهم عسى أن يرفق بهم وينزع عن سياسة الوعود التتالية التي لا يفرغ لها معين . ولم يكن لهم مطلب قبله سوى أن يوفر لهم الحياة الإنسانية الكريمة التي وعدهم إياها الإسلام . ولكن السبائية انتهزوا الفرصة الساحقة فأشعلوها فتنة مشبوبة تحقق لهم أغراضهم الهدامة وترد الدولة الفتية مزقا محلولة كما كانت قبل الرسالة ، واستطاعوا بأساليبهم الملتوية أن يوجهوا الوفود الساذجة النازحة من البلدان وفق هواهم ، وبتخذوا منها آلة هدم وتقويض . حتى إذا انتهت الفتنة ، ورأوا دماء الخليفة الصريع تبال أيديهم ، خشوا إن هم انقضت عنهم جموع أهل الأمصار أن يسهل تناولهم بالقصاص ، فراحوا يوقعون في روع كل رجل شرك في الثورة أن أمنه رهين بأمنهم ، وسلامته موقوفة على بقائهم في الحياة .

وكذلك تماسكت هذه الوفود ، ووحدت بين أفرادها خشية النهاية كما جمعهم في بادئ الأمر وحدة الغاية ، ووقفوا عن كذب يرقبون نظرة أهل الحاضرة ونظرة الخليفة الجديد فيهم ، وكانت طوائف كثيرة من موالى المدينة وعبدانها قد انحازت إليهم إبان الثورة وظلت بعدها لا تميل عنهم ، بل ساكنتهم معسكراتهم المنتشرة على أطراف البلدة .

على أن اضطراب الأحوال ، وتقلقل الأمن بالمدينة لم تكن وحدها ما يبهج خاطر حاكم الشام ، فقد علم أنها عارض عابر كتلك الاضطرابات التي تجيء عادة في أعقاب الثورات وتهدأ حداثتها على الزمن . وعلم أيضاً أنها عائق — كبقية المراقيل الطارئة — كفيلة أقدام ابن أبي طالب أن تسحقه لو أمهل له في تناولها بمحنكته وتدييره ، ولكنه رأى بشاقب نظره من خلالها أحداثاً شتى تهم أن تسير سيرها وتفسد على الأمير الجديد أمره إن وجدت اليد التي تعرف كيف تحركها وتدفع بها إلى الأمام ، وكان قدر معاوية في عونه ، والظروف إذ ذاك تتواتر وفق رغباته في ذلك الوسط الذي كانت الكلمة العليا فيه للأهواء والمطامع ، حتى لكأنما كل شيء كان

يتحرك بإملائه ، فما عدم قط اليد المحركة وإن لم يدفعها هو إلى الحركة ، ولم
تم عينه البقضى عن تتبع أصابعها التي كانت تعمل دائبة في السر والعلانية من
أول يوم تسم على فيه مقعد الخلافة . وكان الرجل بمجلسه في قصر دمشق
وهو يرقب الحوادث دائم الرضا عن زمانه ، موفور الثقة في المستقبل الحبيب
القريب ، يكاد يتبين حلمه القديم بنفلت من ألفاف الماضي — من قبر أمية
وحفرة ابن حرب — ويشب قائماً على قدميه ينفض ثائر أكتافه . . . ويوم
أناء كتاب عمرو بن العاص ، لمت في أفقه بوارق آمال رأى على أضواؤها كافة
العوامل التي يسمه تجنيدها لتنتقل به نحو النصر ! .

إن نمة رجالا شردتهم الثورة قد ضربوا واجفى القلوب في زوايا الأرض
وما زالوا يحلمون بقبوؤ مراكرهم تحت الشمس ، ونمة آخرون من أقرباء
الخليفة القليل وخلصائه ينقمون اليوم من على قراره بحرمانهم الهبات والقطائع
التي منحهم إياها عثمان ، ونمة طوائف الأشراف والسادة الذين أخذت من
زهوهم شرعة المساواة الشاملة ونزلت بهم إلى صفوف أبناء الشعب ، وهؤلاء
جميعاً ينتظرون ساعتهم ، ويستطيع معاوية أن يلحقهم به ويؤلف منهم كتلة
النصيان التي تناهض الحاكم الشرعى للدولة ، ولم يكن ينقصه لنسج خيوطه
وحبك مؤامراته إلا أن يبدو بطلا أمام التاريخ أو على الأقل بطلا في عين رعاياه
وأعين سواهم من سذج البلاد الإسلامية ليمهدوا له طريقه إلى تحقيق حلمه
القديم في السيادة

كان ينقصه العلم الذي يلتف حوله أنصاره — الفكرة السامية التي
تظهره مناضلاً من أجلها ، بأفلا في سبيلها وحدها الجهد والدم والأموال ،
لا في سبيل منفعة الشخصية أو مآربه الخاص ، ، فما أتبع قط لحركة أن تنجح
إلا إذا هدفت لغرض نبيل أو تظاهرت بأنها قامت تهدف إليه .

وقد وسمه أن يستخلص الغرض الذي يبدو في مسوح النبيل لكل
مفتون بظواهر الأمور لا يعنى بتقصي جواهرها ولا بالغوص إلى ما عساها
تطوى عليه ، وكان هذا الغرض هو الغضبة لعثمان ، والأبى على مصيره ،

وما يتبع هذا وذاك من لزوم السعى للأخذ بثأره والاقتصاص من قاتليه العتاة .
فيه لاح موكولا بمحاربة البغي الذي وقع الشيخ المهيض فريسة لعدوانه ، وكان
هو ولي دم القتيل ، فهو إذن أولى الناس بالانتصاف له ، وإذا كان أقوى أهله
وأبلغهم سطوة ، فإنه أقدرهم على بلوغ هذا الهدف الإنساني النبيل ، وكان في
حاجة إلى معونة الجمهور أكثر من حاجته إلى معونة أصحاب المطامع الذاتية ،
الذين لا بد سيحتويهم وإياه نفس الطريق المؤدية إلى مناجزة الإمام . فلما أثار
في الأول حمية النخوة ، ولوح للآخر بالمنافع المنتظرة ، كان قد استطاع أن
يخضع لأهوائه أنبل المواطف البشرية وأخسها في آن .

من قصر دمشق امتدت عينه ترقب حوادث المدينة فلم يفته منها شيء ،
وإذا كان عمرو بن العاص قد نصب من نفسه هادياً بوضح الأمور له ويدعوه
للمبادرة إلى العمل المنتج الفعال ، فهذه منة لعلها تستحق أن يذكرها سليل
الأمويين بالشكر وعرفان الجليل . ولكننا لا نحسب معاوية إلا مزج الشكر
بالسخرة . وافترت شفتاه عن بسمه ما كرة صفراء لما خفيت عنه نفس صاحبه
القابع هناك بمحدود فلسطين يشم الريح كما تفعل الضبع في وكرها ، إذ ترهف
أنفها لتتعرف إلى أين تدب لتستمتع بأشلاء جيفة ! . . . الوصول الثاني في
الإسلام كان هو الآخر يخضع قلبه وعقله لقواعد الحساب . ولا يبذل الحركة
والكلمة إلا بضمن معلوم ، وإنها لناحية من نفسه مكشوفة بغير شك لعين
معاوية سيد الوصوليين ! .

كأنهما شقي رحي ، أحدهما كفء الآخر ، قد جمع بينهما نفس المحور ،
بل هما جدولان أمحدرا من ذات النبع ، لا يتميز المرء منهما علامة خلاف ،
ولقد بلغ من استمساكهما معاً بشرعة المنافع وتقديعها على ما وضعت الإنسانية
من اعتبارات أدبية ومقاييس خلقية أن قرنا في الصف الأول من عباد
المادة وأسرى الطبيعة الآدمية التي كبلتها قيود الفرائز البدائية ، وكانا
شكليين ، عطف قلبيهما الأهواء الدنيوية ، ومازجت بينهما حتى لاحا في

الناحية النفسية كتوأمين . فما نلوم بمد هذا من رد نسبهما إلى صلب واحد خرجا به إلى هذه الحياة ! . . . وعة صحيفة من صحائف فخور الجاهلية تنتشر عن النابغة أم عمرو كامرأة تلقتها آونة مضاجع الرجال ، فلما خرج ابنها إلى النور تهاست الألسن عن أبيه ، وتاهت حقيقة نسبه بين بضعة نفر من سادة العرب إذ ذاك ، منهم العاص ، ومنهم أبوسفیان . . . ولكن الأم حزمت أمرها على أن تلصق وليدها بأول الرقيقين ، إذ كان أوفر النفر ثروة ، وأسخايم عليها في الاتفاق ، فكأنها بهذا الاختيار قد ضربت لابنها أول مثل في تغليب المادة على أوثق العلاقات ، وإنه لمبدأ رضعه من ثديها ، وظل يدين بناموسه مدى عمره المديد ، حتى غاب جثمانه في التراب ! ..

على أن معاوية رأى في ابن العاص نموذجاً للرجال الذين يؤيدون له فضيقه حين تدعوه الحاجة إلى حشد جيوش الأباطيل . وكان لم يزل بعد في دور الإعداد فادخره إلى ساعته . واكتفى بأن يرقب الحوادث السيارة بقلب الدولة ، ويجهد قدر وسعه للإفادة منها وتحويلها إلى صالحه الخاص . كان شديد الحذر كدأبه ، لا يكشف عن غاياته إلا إذا حان الوقت المرقوب . لذلك لم يبادر الإمام بالخصام حين أتاه كتابه ، بل آثر التريث فلم يستجب لدعوته ولم يجاهره بالعداء . وإنما ظل ساكناً يداور الرسول الذي ينتظر ببلاطه بضعة أشهر دون أن يفوز منه بالرد المطلوب . فلهذا خشي أن هو أظهر الخلاف أن تستقيم الأحوال لعل فيستطيع أن يهدم تحت إمارته الشام فضلاً عن تقويضه صروح آماله العريضة في حكم دولة الإسلام . وبقي رابضاً بقصره يلتق سمه وبصره كليهما على المدينة ويدبر خططه حسبما يأتيه من الأنباء .

ولم يطل به الانتظار فإن الهوى ابتنى عروشاً في قلوب كثيرة سوى قلبه . ولكن خبراً واحداً كان له في نفسه فعل الحمر . أحس على أثره بنشوة فتحت له باب أحلامه على مصراعيه . . . لقد أوشك الزير وطلحة أن يتمردا ويرفما
هلم العصيان . . .

اثنان من أهل الشورى ! . . أئمة من هو خير منهما بين صحب رسول الله ؟ . . . بل الثالث الباقي على قيد الحياة لم يبايع هو الآخر ! . . بل عائشة أيضاً تلك المؤلّبة الأولى ضد عثمان ، النادية بالثورة عايه بصوتها الجهير ، الداعية إلى قتله بكل مكان ، قد أصبحت اليوم تذرف الدمع ، ورأيت باطلا ما رآته حقاً بالأمس ، ثم مضت تسير على رأس فتنة جديدة لن يصلى نارها سوى الإمام ! . .

ماذا فعل على ليبيوء بنقمة هذه الصفوة المختارة من بناء الإسلام ؟ . . . التاريخ لا يعلم . . صحائفه في هذه الناحية بيضاء ، ليس بها نقطة واحدة تشين الخليفة الجديد . ولكن سفر النفوس الناقية كان شديد السواد ، ملأته أحقاد الماضي إلى دفتيه . والناس في كل زمان ومكان هم الناس ، أسرى ماضيهم . تجرهم خلفها الأهواء المنبعثة عنه دون أن ينبنوا إلى أين تسير . .

كل ما بدا من أسى عائشة لمصير عثمان ليس بغير . بل هو أدنى إلى الرقة التي ينطوى عليها قلب المرأة ويتفجر نبعها إذا ما جرحته الملمات . وقد كانت عائشة — فيما يلوح — امرأة فوارة الأحاسيس . لا تعرف القصد في عواطفها ، بل تطلقها إلى أقاصيها . فلما غضبت على عثمان استرسلت على سجيئتها إلى ذروة الغضب فدعت إلى قتله . حتى إذا جاءها نبأ مصيره الفاجع لان قلبها ، وعطفها عليه رحمة دافقة فياضة مسحت غضبها القديم منه ودفعتها إلى المبالغة في الغضب له . وإذا كانت بهذا الشعور الجديد قد استجابت لرفقها كامرأة ، فإن موقفها من علي في ذات اللحظة يبدى أنها وثقة لأنوثتها غاية الوفاء ! قد ملكتها غريزتها الأنثوية حتى انسأقت في حقدتها عليه إلى مدى لم تسيطر عليه حكمة ولم يحده عقل .

لعلها قلبت سفر الماضي ، ذلك اليوم من ذى الحجة ، وركبها المنطلق إلى المدينة قد وقف بالطريق ينتظر أمرها بالسير . والذكريات ماثلة أبدأ لأوامية اليقظي ؟ والمشاعر التي تبعثها تنبثق عنها كما ينبثق النور عن ومض البرق ، سريعاً ، لا تستغرق من الزمن إلا لحظة من لحظة . . . فما إن سمعت

أن البيعة انمقدت لابن أبي طالب حتى حضرها كل ماضيها وانكشف أمام عينيها كلوحة مرسومة . . .

وصاحت بالركب الواقف ودماء وجهها من بفتة الخبر تكاد أن تفيض :
« ردوني ! . . . ردوني ! . . . »

واستدار الركب . وراحت القافلة تضرب في عكس اتجاهها الأول ، عائدة صوب مكة التي لم تكن برحمتها إلا منذ قليل — تماماً كما انطلقت الآن مشاعر السيدة إلى عكس مسلكها السالف . فما أعجب أن تكون أحاسيسها طيبة هكذا في يديها ، تحركها في ذات اللحظة من أقصى النقيض إلى أقصى النقيض ! غير أنها طبيعة أنثوية دافقة ، لا سلطان للمقل على عواطفها الجياشة . وما كانت عائشة لتستطيع أن تملك نفسها في تلك اللحظة إلا أن استطعت أن تمنع بكفيك انحدار سيل . . .

وهتفت وهي حاتقة مغيظة وبصرها يشير إلى السماء ثم ينخفض فيشير إلى الأرض :

« والله ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لابن أبي طالب ! . . . قتل عثمان والله مظلوماً . . . والله لأطلبن بدمه »

فحركت كلماتها فضول من سمعها ، فإذا رجل منهم يقول لها في استنكار :
— ولم ؟ .. فوالله إن أول من أمال حرفه لأنت ! .. ولقد كنت تقولين اقتلوا نعلنا فقد فجر . . .

— إنهم استتابوه ثم قتلوه . وقد قلت وقالوا ، وقولي الأخير خير من قولي الأول .

ولسكنها حجة لا يبررها ما سلف به لسانها في حق عثمان ، كما لا يبررها قصوده عن صائف أهل الأمصار وإصراره على إبقاء ظلاماتهم معلقة بدون علاج . وعائشة ! أنكرت هذا منه وظلت نائمة عليه حتى لقد أبت أن تبقى بالمدينة لتكشف عنه الناس حين حصروه بداره ومنعوه الماء . بل وددت لو ألقته بيدها في البحر لتخلص الأمة من عهده ! وتمضى على الأثر إلى مكة

فلا يمنمها خروجها لأداء واجب ديني مقدس من محاولة التخذيل عن الشيخ
وبث كراهيته في قفوس الحجيج القادمين من كافة الأقطار . ولولا أن أبى
عليها ابن عباس أن يكون لسانها الداعى بدعوتها لشهدت البلدة الحرام
ناحية أخرى من نواحي حقد ها على عثمان . . . ثم راحت وهى بموطن الإحرام
لاتنى تستنبيء كل قادم وتنسم أخبار المدينة بلهفة عسى أن تعلم ما يهدىء
خاطر ها ويجنبها قلق الانتظار . فلما أن ألقى إليها ذات يوم نبأ مكذوب
نم عن انتصار الشيخ على خصومه وقتله المصريين صاحت فى غضب واستنكار:
« . . . أيقتل قوماً جاوا يطلبون الحق وينكرون الظلم ؟ . . . والله
لا نرضى بهذا . . . »

فأكان أعجب غضبها له بعد قليل ! . . . ومع ذلك فهل اقتنعت هى حقاً
أنه تاب ؟ . . . وهل التوبة عن حيف يكفى أن تكون بلفظة لسان دون تغيير
الحواف ؟ . . . وإلى أى مدى نزع عثمان عما أثار عليه سخط عائشة وسخط
الناس ؟ . . . وماذا يارى منها من النهوض لنصرته حين كان فى حاجة إليها
وهى بالمدينة ما دامت قد آمنت بصدق توبته ؟ . . . وكيف وسعها البقاء بمكة
دون أن تستعدى أهلها على الثوار لصالح هذا التائب الذى تركته فى مأزق
لا يرجى له منه خلاص ؟ . . .

لا حاجة لها فى الدفاع اليوم عن عثمان سوى حقد ها على الإمام . فما زالت
تتسا مقروحة منه . وما زالت مشاعر ها ، بكل ما تنضج به النفسية الأنثوية
التي تجمع النقائص ، تزدر بالكره له . فهى امرأة قبل أن تكون عائشة ،
لها خلائق المرأة ، ولها طبيعتها . وهى جاحة الأحاسيس تفقاد لشعورها حتى
غلايتها ولا تملك أن تحمد من غلوائه . وقد زودها الماسخى بذخر من البغض
ادخرته لابن أبى طالب منذ الساعة التي شهدته فيها لا يقف إلى جانبها
حين حاك حولها الألسن الباغية حديث الإفك . وهى أيضاً مشبوبة
الغيرة ككل حواء ، لا تستطيع أن تحرر قلبها من سلطانها القاهر .

وكأية أنثى كان صدرها يجيش بمواطف أمومة مخترنة تنتظر أن يعينها الزمن على إطلاقها لتحبو بها صغيراً تسعد به ، فلم يسعها القدر بتحقيق حلمها الجميل وبقيت طوال الأعوام التي عاشتها زوجاً عاقراً لا تستطيع أن توثق الزوجية برباط من البنوة . لكم ودت لو دفعت إلى محمد طفلاً من دمها ومن صلبه يضمن عليه فيض حنانه ، وتعيش هي على مدى الأحقاب في ذرايه ! . . . ولكنها نعمة حرمتها فأحزنها الحرمان . وما أحسبها إلا كانت تشعر بشيء في صدرها يشبه الحسرة وهي تفعل بصرها فتري زوجها الحبيب يهب رعايته فتاته الزهراء . ويوليها عطفاً كانت تود عائشة لو أولاه طفلة تمتزج في عروقها دماء الزوجين . غير أن خديجة نعمت دونها بهذه الميزة . وعاشت في ذرية محمد بعد الموت إلى نهاية الأبد . خديجة الزوج الأولى ، التي عاشت رسول الله ربع قرن لم تغضبه خلاله مرة ! وتزوجها وهو شاب وهي في طريقها إلى الكهولة فلم يجمع بينها وبين زوجة أخرى ، ولم تسعده امرأة بعدها بمثل ما أسعده ! خديجة هذه تنال من حب محمد ما لم تستطع عائشة نيله وإن كانت فتاة حلوة صغيرة السن ؟ ونهبه من الولد وهي عجوز ما عجزت عنه الجميلة الصغيرة ؟ وتبقى هلى الدوام ماثلة في خاطره بعد موتها لأنها لم تبرح أيداً قلبه ! وما أكثر ما سمعت عائشة رسول الله يذكرها أمامها بعبارات إعزاز كانت تشعر معها أن هذه الغائبة عن وجه الدنيا تستأثر دونها بأكبر نصيب من حب زوجها العظيم . . . ولندع عائشة تفصح بلسانها عن شعورها الحقيقي إذ تقول :

« ما غرت على أحد من نساء النبي ما غرت على خديجة . . . وما رأيتهما ، ولكن كان النبي يذكرها . وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ، ثم يبعثها في صدائق خديجة . فربما قلت له كأنه لم يكن في الدنيا إلا خديجة . . . فيقول إنها كانت . . . وكانت . . . وكان لي منها ولد » .

فهى باقية وإن ذهبت . تعيش اليوم في خاطر محمد كما عاشت بالأمس في دنياه . وتكاد أن تغلغل عليه آفاق فكره لا يشغله عنها وجود عائشة ،

ولا حسنها ، ولا صباها . باقية أبداً في الزهراء الرقيقة ، وفي الحب الأبوى
الكريم الذي يفيض به قلب رسول الله . باقية أيضاً في خلجات نفس عائشة
بقاء شعور الغيرة المجيب الذي لا يني براودها في كل لحظة . وهل آلم على
نفس الزوج الصغيرة من إحساسها بالخوف من امرأة ماتت . . . وضعفها أمام
شبح يطل على بيتها من خلل الماضي ويأتي ظللاً مائة على ماداتها الزوجية . .
الزمن لم يستطع أن يشفيها من هذا الخوف ، أو يحجب عنها صورة ضررتها
الخطرة وراء ستر النسيان . بل قد حالف خديجة ، ومضى يميدها إلى الحياة
مرات ومرات . ويكررها في أحفادها كما كررها في بناتها وأولادها . فإذا
هي صور شتى تطالع عائشة كل يوم ، وتطوف عليها بيتها فتملاً سمعها
وبصرها بعد أن كانت صورة واحدة لشبح يعيش في وهم الذهن . فأى خليط
من الشاعر كان يحتاج نفسها كلما ألفت العين على محمد وهو يداعب أحفاده
ويولبهم حنان قلبه الرحيب ! أهو الغيرة على الزوج الأولى التي صارت اليوم
في أشخاصهم حقيقة تتجدد بعد أن قاربت أن تكون ذكرى ! . أم الحسرة
على حرمانها الولد الذي حلمت أن يكون نسلها من رسول الله تعيش خلاله
على مدى الزمن السيار ! . أم الحقد على غريمها ابن أبي طالب وقد تفرد وحده
بنقل سلالة زوجها الحبيب إلى الأحقاب ! . .

كانت أنثى كأية أنثى ، تسمع لوحى قلبها وتلبى نداءه . فما خالفت طبيعة
المرأة حين غارت ، وحين ملكتها الحسرة ، وحين حقدت . فإن هي إلا
واعيتها التي تكلمت — برغما — وتمحرت ، ودفعتها إلى موقفها العداؤ
للإمام . وإذا نطقت الواعية فلها الكلمة المسموعة ، وضاع صوت العقل
المهادى . الخفيض في ضوضاء الشاعر الصخبية . . .

جاز ركب عائشة دروب مكة فاجتذب إليه الأنظار . وملكته المهشة نفوس الناس حين رأوها تعود ثانية ولما تبرحهم إلا من قليل . فمهدهم بها قد خرجت روم المدينة بمدان قضت عمرتها . ولسكنها الآن قد غيرت وجهتها ، وسار ركبتها والألسن تلعط حوله . ويتحدث كل امرئ بظنه عن السبب الذي عادت من أجله أم المؤمنين . ولم تفصح هي عن شيء . بل جنحت إلى الصمت . وكانت الأعين قد انقبهت إلى الموكب فتبعته الأقدام وسارت خلفه إلى باب المسجد . وأنزلت السيدة بعيرها ، وترجلت ، ثم انطلقت إلى الحجر فاستقرت فيه ، ومن ورائه قامت مخاطب الجموع :

« يا أيها الناس . . »

فألقوا إليها الأسماع . وهل عساها تعود فتخطبهم إلا في أمر خطير عظيم ؟ .
 « . . . إن الفوغاء من أهل الأمصار ، وأهل المياه ، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا أن عاب الفوغاء على هذا المقتول بالأمس الأرب ، واستمال من حدث سنه ، وقد استعمل أسفاهم قبله ، ومواضع من الحمى حماها لهم ، وهي أمور قد سبق بها لا يصلح غيرها ، فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحا لهم . فلما لم يجذوا حجة ولا عذراً خلعوا ، وبادروا بالعدوان ، وقبوا فعلهم عن قولهم ، فسفكروا الدم الحرام ، واستحلوا البلد الحرام ، وأخذوا المال الحرام ، واستحلوا الشهر الحرام . والله لأصبع عثمان خير من طباق الأرض أمثالهم ! . . . فنجاة من اجتمعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ، وبشرد من بعدهم . والله لو أن الذي اعتدوا به عليه كان ذنباً نخلص منه كما نخلص الذهب من خبثه ، أو الثوب من دونه إذا ماصوه كما يماص الثوب بالماء . . . »

ونفرق الناس بعد حديثها هذا شيعاً ، وكان أولى بهم أن تتوحد كلمتهم في هذه المحنة الحازبة التي أصابت الإسلام . فقيم ندعهم اليوم أم المؤمنين ؟

وإلى أية غاية تريد أن تسير بهم ؟ ...؟ لحرب الغوغاء ؟ ...؟ للزحف على المدينة وفيها الأمير الشرعى للبلاد ؟ ...؟ قدأوشكت كلماتها أن تشكك الناس في مسلك على حيال أصحاب الفتنة إن لم تكن قد ألفت فملا ظلالا سوداء على نواياه وهى بعد فى قلب الغيب . وراحت البلدة الحرام — وهى مباءة فريش نطن بالضوضاء حول اسمه طنين الحلية .

وتلقف القوم خطاب عائشة فلا كوه فى أفواههم وخرجوا منه ما شاءوا من أقاويل ، فكذلك وجهتهم كلمات الذائدة اليوم عن دم عثمان . وهل عساهم يستخلصون من حديثها ومن عودتها المفاجئة حين علمت ببيعة ابن أبى طالب إلا أنها — لأمر لا بد بتصل بدعوتها الجديدة من قريب أو من بعيد — قد آثرت أن تتجنبه وتلجأ فى الانتصاف للخليفة الشهيد المظلوم إلى غيره من الناس ...

وكانت مكة إذ ذاك تعج برجال الحكم المهدوم من ولاية عثمان وخلصائه وأقربائه . فأسرت إلى أسماعهم صيحة أم المؤمنين حتى رأوا فيها القشة التى قد تنقذ مجدهم الفريق . وأسرعوا جميعاً إليها . يلتفون حولها ، ويضعون أنفسهم فى خدمة الغرض الذى قامت فيه . ولو أنها دقت نظرتها لوأتهم أجمعين أقبلوا لخدمة مآربهم وإنقاذ سلطانهم القديم أن يضيع . والتحقت بها أيضاً طوائف كثيرة من الأهلين الذين استهوتهم من دعوتها ناحية المروءة فيها ودفاعها عن مظلوم ، واستهوتهم أيضاً شخصية عائشة وما لها من مكانة عالية فى القلوب . وكان بنو أمية لاريب أول من لحقوا بها ، وانضوا تحت رايته . فإن هى إلا ساعات حتى اجتمعت بها رؤوسهم للذين شردتهم الثورة ، فيهم سميد ابن العاص ، والوليد بن عقبة ، ومن كانت مكة موئلاهم فى ذلك الحين ، وهم على شبه يقين أن دولتهم لن تلبث حتى تعود ثانية إلى الحياة .

وانطلق إليها الحضرمى أمير البلدة الحرام من قبل عثمان يسألها ويقول :

« ما ردك يا أم المؤمنين ؟ »

فأجابت وقد ملكتها غلواء عاطفتها حتى ما درت أنها بهذا الجواب

تخالف موقفها الذي وقفته من عثمان من بضعة أيام ، وتنتقل به من النقيض إلى النقيض :

— ردنى أن عثمان قتل مظلوماً .

— فما ترين ؟

— أرى أن الأمر لا يستقيم ولهذا الغوغاء أمر . فاطلبوا بدم عثمان تمزوا الإسلام ...

فما أبرا مظهرها من كلمات في باطنها فتنة مشبوبة . . إنها بها قد هدمت أول دعائم الحكم الشرعى في الدولة بأن اغتصبت حق توجيه الولاية ، وإلقاء الأمر إليهم دون تفويض بهذا ممن له وحده حق التوجيه . واستغلت قدرها عند الناس في امتلاك نصية سلطان ليس لها وليست تقدر عليه . فما أوتيت العلم بأمور السياسة . ولغير هذا أهلها طبعها الحاد الذى يقفز بها دائماً إلى أقاصى الغايات دون إفساح الطريق لحكمة العقل . وكفناها خطأ أن غضبت لفتنة أوشكت أن تخمد فقامت تعالجها بفتنة جديدة لن تلبث أن تتأجج نارها وتندلع ألسنتها المحرقة حتى تعم الدولة الإسلامية كلها وتلهبها بسياطها في كل مكان .

ويعجب المرء لهذه المهمة الفائقة التي راحت عائشة تبذلها لجمع الناس تحت رايتها . ولهذا النشاط البالغ الذى وسعها أن نبديه في هذه الآونة العصيبة ؛ هي التي ظلت طوال عمرها قعيدة دارها تكاد لا تساهم في الحياة العامة بأى نصيب . فما زاد دورها من قبل عن خبرة بالشئون الدينية ترشد بها من أراد علماً ومعرفة . وقد انقضى عليها بعد وفاة رسول الله نحو ربع قرن من الزمان كان أثرها خلاله مجهولاً تماماً عن صحائف التاريخ لولا ما يدر من نعمتها على عثمان في أواخر أعوام عهده . حتى هذه النعمة لم تنفرد بها ولم تثرها وحدها عليه . بل سائرت فيها الشعور العام الذى أجمع عليه جمهور الأمة الإسلامية . أما هذه الدغوة الجريئة الجديدة فقد بدت وثبة عالية إلى النشاط السياسى غير متوقعة منها ، يكاد المرء أن يتساءل معها محيراً :

أكانت ابنة الصديق تقفزها لو أن الجالس على مقعد الخلافة كان رجلاً آخر سوى الإمام ؟ . . .

غير أنها كانت وثبة على أى حال . . . وثبة موفقة في نظر الشاعر التي اضطربت بنفسها على الأمير الجديد ، ذلك الرجل الذي امتلأ قلبها بالبغضاء له وناصبته العدا ، لأنه ذات يوم لم ينصرها على الشبهات التي التفت بها وإن يكن لم يرمها أيضاً بكلمة اتهام . ولكنها طبيعتها الجامحة مع العواطف التي دفنتها إلى هذا الموقف تقودها إليه عوامل شتى من السخط والغيرة والحسرة ، حتى انتهت الفتنة التي أشعلتها بالحوادث إلى أسوأ انتهاء . فما يمكن أن ينسى أثر موقفها في المصير المحزن الذي اختتم به عهد الإمام ، بل اختتم به عهد السلطان الروحي الذي كان يرجى من ورائه كل خير للدولة الإسلامية الناشئة لو كان أجله قد امتد بضع سنين . وهل من ريب في أن فتنها كانت سلاحاً حاداً في أيدي الأهواء والمطامع ، تلقفه بنو أمية وغيرهم من الوصوليين ليلغوا مآربهم ، وقيموا دولة زمنية على أنقاض الحكم المثالي الذي قصد إليه الاسلام ؟ .

كانت دعوتها نداءً عالياً أيقظ في النفوس أهواءها الناعمة ، وكانت أيضاً دعوة إلى التمرد على الحاكم الجديد ، وإلى تهوين شأنه عند رعاياه ، وعند الولاة القاعين على الولايات حينذاك ، فقد لاح طلبها بدم عثمان في بادئ الأمر دعوة إنسانية بريئة ، ولكنه في حقيقته كان خطة سياسية بعيدة الغور تحمل في قاعها الانتقاص من قدر على بوصفه الأمير الأول الذي يجب أن توجه بلسانه أمثال هذه الدعوات ، وعليه دون غيره الانتصاف لكل مظلوم من ظالميه ، وله وحده الكلمة النافذة عند شعبه وعماله . وقيام عائشة بدورها هذا جعل كثيراً من الناس يحسبونها ما قامت قومتها إلا لأن أمير المؤمنين قد أبى أن يبدأ القيام ، أو فترت همته دون إيقاع القصاص بقتلة عثمان ، بل إن منهم من رأوا فيه رجلاً قعد عن نصرة حق وجب أن ينصر لأن له مأرباً من وراء هذا القعود ، وجرت ألسنتهم فيه بالظنون الظالمة حتى أظهروه في أحاديثهم

شربكا للثوار نفع على رأسه مثلهم دماء القتيل ، وكان هذا أرهف سلاح أمدت عائشة به معاوية وأنصاره ، فما زالوا يشهرونه في يد باطلهم حتى نالت الأقدار من على نيلها وغيبته عن ميدان الصراع .

ولم تكن دعوة عائشة ذات أثر فحسب على نفوس ذوي الأطماع الذين رأوا في قيام حكم علوي ما يهدد أحلامهم في النفوذ السياسي ، بل تجاوزتها إلى كل من رنا إلى هدف شخصي ومضى نفسه ينوغه ، وإلى طائفة من ضعاف العزائم الذين لا يثبتون عند رأى ويميلون مع النزعات التضاربية كل ميل ، وإلى السذج الذين يسهويهم في الأفكار المبثوثة زخرف سطحها دون قيمة جوهرها . وإلى المغلوبين على مشيئتهم ممن بايعوا علياً انسياقا مع الرأى العام دون رغبة حقة في تنصيبه للخلافة . . فكل أولئك جرفهم دعوة عائشة في غمارها فانطلقوا معها إلى آخر الشوط ، واستجاب لهم من كانوا على شاكلتهم بغير مكة ، كما سرت أنباء صحيحة أم المؤمنين إلى بلاد الدولة الإسلامية مع الركبان ، وكانت مدينة الرسول أول بلدة صك سمعها صوت الفتنة إذ جاءها على السنة العائدين من زيارة بيت الله الحرام ، فما نشب أن وقع فيها خلاف بين على في ناحية وبين طلحة والزبير في الأخرى ، أدى في النهاية إلى ضياع ما قاما فيه وحاربا عليه من أيديهما ، ووقوعه طعمة سائفة لابن أبي سفيان .

يكاد المرء كلما أجال ذهنه في شأن الصاحبين أن يجزم بأنهما لم يخلصا النية حين بايعا الإمام . هاجقا تقدما إليه صفوف الناس ، وبادرا فسلا عليه بتحية الخلافة قبل أن تمتد إليه كف أخرى ، ولكنها - مع ذلك - لانراهما قولا هذا انسياقا لشعورها الخالص بقدر ما فملاء مجارة للشعور العام . ولقد يبدو أنهما رأيا السلامة في البيعة له ، وخشيا على نفسيهما من غضب الجمهور إن جاهرا بالامتناع ، فأثرا إعلان غير ما يحسان . ولكنها أبطأ خشية معزوة إلى الوهم واضطراب الخيال . وليست إلى الحقيقة التي أثبتتها من

قبل ومن بعد فرائن الأحوال فما علم قط عن علي أنه دفع الناس للتحزب له أثناء الأزمة التي انتهت بمقتل عثمان ، ولا اتخذ دعاء يروجون لتوليته ويأخذون معارضتهم بالعنف كي يناصروه . بل الثابت أنه كان أبعد الزعماء عن ميدان التنافس على السلطان ، وأزهدهم جميعاً في السعى إلى الخلافة ، وأكثرهم اعتزالاً للجواهر التي ظلت بضمه أيام تهتف باسمه ، حتى إذا قهرته على الاستجابة لمشيئتها لم يقبل منها البيعة إلا أن تكون بالمسجد ، على مسمع ومرأى من الخاص والعام ، ليرى الكافة رأيهم فيه قبل أن تسند إليه الإمرة ، راجعاً من وراء هذا أن يوفر حرية الرأي للجميع على السواء ، يؤيده من شاء ويرفضه من شاء . وتمت له بيعته على النحو الذي أراد . فما علمنا أن أحداً خالاه قد أخذ بالعنف الذي يؤخذ به العصاة ، بل تركهم أحراراً وبالغ في الترفق بهم وإن واجهوه بالرفض والإباء .

ومع ذلك فقد لاح أن الندم لم يكف عن الطواف بقلبي طلحة والزبير منذ اللحظة التي أدليا فيها بالبيعة إلى الإمام . فما غادرا المسجد ذلك اليوم حتى تبينا إلى أن مدى غمط كلاهما حق نفسه حين مسحاً بكفيهما على يد الرجل الذي أصبح على الأثر أميراً للمؤمنين . وبدالهما أنهما قدماه بغير موجب وآثراه بأمرهما أولى به . فما سمى سميتهما إلى الخلافة ، ولا نشط كندشاهما في تأليب الناس على عثمان وتحريض الثوار حتى حصروه وقتلوه ، بل قد كانت حياة الخليفة القليل أدنى إلى النجاة لو أنه استمع لرأى على واستجاب لإرشاده . وكانت خطط الصاحبين وتديبرهما لبلوغ السلطان أقرب إلى المشل لو أقره عثمان على قتال الثوار وأخذهم بالعنف قبل اشتداد ضغطهم عليه .

وفي الحق لسنا نرى إلا أن الندم هو أولى الاتصالات وأجدرها بسكنى هاتين النفسين بعد الذي أصاباه من خيبة الرجاء . فقد ذهباً يدأبان لا يتراز سلطان عثمان فما أفادها الدأب . بل سقطت الثمرة المشتهاة في حجر علي وهو ساكن لا يرفع إليها بنانه . وعجيب أن يهدم القدر صروح

أملهما المشهود في اللحظة الأخيرة ، ولكن الأعجب منه أن يتخذ منهما معول هدم . . . منيا النفس طويلا بخلافة يشتركان بها في حكم الدولة الإسلامية المريضة ، أو لعلهما اتفقا على قسمتها دولتين تدين كل منهما لأحدهما وحده ، أو ربما استنبطا نظاماً جديداً من الحكم ادخرا ليووم النصر ، ولكنهما أحالا النصر المرقوب إلى خذلان لم يدر ببال ، ومزقا بكفهم ستر الحلم الجليل ، الذي ظلا طويلا برنوان نحوه ، فأهتكت عن حقيقة شوها طالمتها من خلاله .

كانت فرصة ذهبية ، أتاحها لهما الظروف المواتية في الوقت الحاسم ، فضيماها . كانت فرصة العمر كله ، جاءتهما ذولا وقدم على لم تثبت بمدى درج النبر ... في هذه اللحظة الفاصلة كانا أدنى إلى إمرة المسلمين منه ، وأقرب إليها كما لم يكونا مطلقاً من قبل . وأوشكت أن تنعقد البيعة لأحدهما أو كليهما حين خيرهما ابن أبي طالب بين أن يبايع لهما أو يبايعاه . . . بل قد مد إليهما كفه يكاد أن يحبيهما بتحية الخلافة . وكانت البيعة إذ ذاك حرية أن تتم بيده لو قبلها . حرية أيضاً أن تلقى رضاه الشعب الذي كان يلقي السمع والطاعة إليه . فلو قبلها ...

ولكن الخشية التي نزلت بقلبيهما في تلك اللحظة أضاعت الفرصة ، وفلبت النصر هزيمة ، وما أمر الخذلان ساعة ارتقاب الفوز ! . . الخشية من الجماهير الفتونة بحب على دفعتهما إلى التردد في قبول عرضه السخي الكريم . ثم إلى الإحجام عن قبوله ، ثم إلى رفضه بمنطق اللسان وإعلان غير ما يحسان . وما نحسب طلحة إلا يذكر تلك اللحظة وهو آسف محسور ، ويجيل بذهنه مادار فيها من حديث قصير ونفسه تقطر ندماً .

يقول له على :

« أبسط يدك يا طلحة لأبايعك »

فتندفع الكلمات إلى طرف لسانه بالجواب غير المرقوب :

« بل أنت أحق بها ... أمت أمير المؤمنين فأبسط يدك ... »

فلعله نطق بها دون أن يريد : ولعله لم ينتبه إلى خطرهما على آماله إلا بعد أن انقلب من بين شفتيه وسمعها كأنها آتية من غيرفه ! ... ولكنها كانت قاطعة كالسيف . ما أسرع أن قررت مصيره وقصفت عود أطباعه في الخلافة بعد أن ظل يتعمد بضرته وأزهاده منذ عهد الصديق . ومضت تلك الساعة خاطفة ، لا تستأني ، ولا تهمله ليصلح سقطه لسانه ! .. وراحت حوادثها تهرق كالسهم ، وتتدفق كالسيل المتحدر من شواهد الجبال . ولو استطاع الرجل لجهد ليسترد كلمته ثم يخفيها عن الناس في قرار سحيق ! ... لكنها كانت شيئاً كالحظات العمر ، يذهب إلى غير مآب . يملكها صاحبها مرة واحدة إذا هي هامة الحس خلف شفتيه ، فإذا عرفت اليقظة فإنها كفيلة بأن تملكه على مدى الدهر مرات تزيد وتتجدد يقدر الأسماك التي تستقبلها ، ما دامت قد تحررت من أسر الصمت وسرت مع أنقاسه إلى فضاء الانطلاق .

ما وئت هذه الصورة تبدو لطلحة وزميله وتقصد عليهما صفو الأيام ، وتعكس في نفسيهما ظلالاً قاعة من حسرة هي نتاج الندم المر الذي أصاباه . وهل ألم على المرء من أن يمكن لغريمه في أسباب التفوق عليه ، والفوز دونه بالنجاح المأمول ؟ ..

ولكنهما جاهدتا الحسرة ، وأحالا طاقتهما المستعرة إلى نقمة حاقدة تطوف بالإمام ، وكلتا عادت بهما الذكرى — فما بعد — إلى ذلك اليوم الذي ضيعت فيه كلمة عجلي غرس الأعوام ، راحا يهربان من عتبي النفس ، ويحاولان التأسى على ما فات باعتساف سبب من الأسباب يمزوان إليه ضياع الثمرة للشهوة ... وما كان أكثر تحدثهما بهذا السبب الموهوم ، في كل زمان ومكان ، جهرة وفي الخفاء ، كلما سثلا في قصة البيعة ... كانا دائماً يقولان :

« .. إنا صنعنا ذلك خشية على أنفسنا ، لقد عرفنا أنه لم يكن لينايعنا ! ... »

ولقد سبق إلى يقينهما عقب انعقاد الأمر لعل أنه لن يكون لهما في

عنده شأن معلوم ، ولن يصبحا كبيرى أثر فى توجيهه إلى معالجة الأمور كما يريان ، لأنهما يعرفان اعتداده بقدر نفسه ، وشدة وتوقه فى صدق نظراته ورجاحة رأيه ، وعسير عليهما إذن أن يجدا عنده غير مايلقاه سواهما من أصحاب رسول الله ، فإهو بمنهافت الإرادة فيستعير منهما العزم ، ولا باللبان فيسألها الشجاعة ، ولا بالغر فيطلب منهما المشورة ، وليس ثمة ثغرة فى شخصيته يمكن أن تسدها ميزة يملكها دونه أحد الصاحبين ، بل هو أدنى الناس — بعد محمد — إلى السكال بألوانه العديدة ، وأقربهم إلى التزام منهاجه . . عزفا هذا فى خلقه ، وفى علمه ، وفى سداد رأيه ، وفى كل صفاته ومزاياه ، فعلمنا من أول لحظة أنه مستغن عنهما بما زودته به طبيعته وفطره عليه تكوينه ، وأيقنا بضالة الأثر الذى سيكون لهما فى نظام هو القائم عليه ، وما يتبع هذا من ضعف تقوذهما فى دولته ضعفاً أفصح عنه طلحة فأحسن الإفصاح حين قال :

« مالنا فى هذا الأمر إلا كحسة أنف الكلب ! » .

فهذه مشاهد من تقسيهما تضاف إلى ذلك المشهد القديم الذى يطالما من خلال الماضى وتنطق خطوطه وألوانه بالحسد للإمام ، والغيرة على المكانة التى بلغها بسجاياء وميزاته من قلب محمد وبرز بها على كافة قادة الإسلام . وهى تفسر لنا كل ما يصندر عن هذين الصاحبين من تصرفات كانت فى الواقع صدى لمشاعرهما التى ظلت آوثة محتبسة فى صدريهما من خشية . . فلما أن رأيا من على ترفقاً بمن رفضوا بيعته ، وجاءت على الأثر صيحة عائشة تحمل فى طواياها الانتقاص من قدره ، اتقدت فى قلبيهما جذوة النعمة ، ومضيا يهدفان — علانية وخفية — إلى النيل منه . فإتركا أبدأ موقف التربص به الذى يحتمل جاهداً أن يتصيد له الهنات ، بل راحا ينتهزان كل فرصة حابرة لإظهار معارضتهما له ، التى قصدا فى الواقع أن تكون خطوتيهما إلى العصيان وإعلان الترد عليه . وما تراهما كأنهما مدفوعين بدوافع صادقة تستلزم سياسة الشغب التى اتفهما حيلاله ، ولو أننا

استعرضنا محاور الخلاف بينهما وبينه لم نجد فيها واحداً يدعو إلى الخصام بالكلام فضلاً عن امتشاق الخصام ، ولكنهما سارا كما قادها السخط ، وكما دعمهما الفتنة التي انطلقت من مكة ، فاندفعوا بغير تبصر في سبيل العداء ، حتى لبدو لكل عين أن إفساد أمره عليه كان وحده الغاية التي يبغيان .

على أن من حق الشيخين علينا أن ننصفهما فنقول إنهما ذهبا إلى الإمام يندرانه قبل أن يجاهراه بكل هذا العداء ... أجل قد فعلا . وانطلقا إليه بعد اليهمة يحدثانه بغير استحياء ويكشفان طوية نفسيهما في وضوح وجلاء .. قالاه :

« أتدرى يا أمير المؤمنين علام بايعناك ؟ . . »

فأجابهما بالجواب الذي ليس ثمة سواء :

— على السمع والطاعة وما بايعتم به أبا بكر . .

— كلا ... ولكن بايعناك على أننا شريكك في هذا الأمر ..

شريكان ؟ ... فهذا نوع جديد إذن من المساومة على اقتسام السلطان ! ..

وطبيعي أنه رفض ما عرضاه . وطبيعي أنهما أيضاً ثارا لرفضه الذي

انقطع به كل أمل لهما في السيادة ، فانطلقا يعلنان سخطهما ، ويقولان فيه

بغير تبصر وإن حمل في ألفافه معاني الاتهام لهما دون اتهام الخليفة . . . بل

لعل حديثها ذاك كان خير شهادة منهما بنقاء صحيفة على مما أعلقوه بشوبه

— فيما بعد — من قطرات دماء عثمان ...

... وقف الزبير في حشد من قریش يشكو إليهم عسف الإمام ، وقلة

بره به فقال بصوت ممرور :

« هذا جزاؤنا منه . . . قناله في أمر عثمان حتى أثبتنا عليه الذنب

وسيناله القتل ، وهو جالس في بيته قد كفى الأمر ، فلما نال بنا ما أراد

تجمل دوننا غيرنا ... »

ونفض طلحة على أثره فقال :

« ما اللوم إلا أنا كنا ثلاثة من أهل الشورى . كرهه أحدنا ، وبايعناه
وأعطيناه ما في أيدينا ومنعنا ما في يده ، فأصبحنا قد أخطأنا ما رجونا . . »
وما كان لهما من رجاء بعد أن أبى عليهما هذه الخلافة المشتركة إلا أن يبعثهما
واليين على بعض الأقاليم ! فما زال لهما حزبان بالبصرة والكوفة وشيعة عسى
أن يمسربا بها ذات يوم إلى احتلاب النفوذ كله في الدولة الإسلامية . ولكنه
بعث دونهما ولاية آخرين فحق إذن أن يلحياه ! . .

وشاعت مقالاتهما هذه في الناس حتى بلغت مسامع الإمام . ولعل شيوعها
كان بعض خطبهما عسى أن يغما من ورائه ما كانا يطعمان فيه . ولكن
علياً ظل ثابتاً على رأيه فيهما ولم يزد على أن أرسل إلى ابن عباس يستشير
فيما كان ...

قال له :

— بلغك قول هذين الرجلين ؟

— نعم يا أمير المؤمنين .

— فاذا ترى ؟

« أرى أنهما أحبا الولاية . فوالبصرة الزبير ووالطلحة الكوفة ،
فإنهما ليسا بأقرب إليك من الوليد وابن عامر من عمان . . »

فضحك على وأجاب بهدوء :

« ويحك يا ابن عباس ! . . إن العرافين بهما الرجال والأموال . ومتى
تملكا وقاب الناس استمالا السفية بالطمع ، وضربا الضعيف بالبلاء ، وقويا
على القوى بالسلطان . . ولو كنت مستعملا أحداً لضره ونقمه لاستعملت
معاوية على الشام . . »

٨

الوقت عليهما ثقیل ، لا يكاد يتقاص ظله . فى حسیان الشهور عاشا أحقابا طویلة تحت راية هذا العهد الذى أبغضاه ، وتحت حكم هذا الرجل الذى سادها فى غفلة منهما ودون انتباه . . . وفى حسیان الزمن ما عاشا سوى ليلة أولیلتین كل لحظة فیهما كانت الدهر بطوله .

ولكن اللیلة الواحدة تستطيع أن تتسع لشغب العمر ، وتفیض خلالها نقمة الصدور القروحة فى دفعة . فما يطیقان التریث ولو إلى غد ، ویرمیان بصرهما إلى المستقبل الفسیح أمام كل نفس تتعلق بالفرد القابل بعد أن تودع. الأمس الراحل فیريانه أضیق من ~~كف~~ بخیل . . . بل لعلهما لم یرياه على الإطلاق ، وحسب الشمس سـكـف بعد لحظتهما هذه عن البزوغ . وأن الكون سیسكن ویقف وقفة الأبد . . . وإن فى قلبیهما لسخطا فیاضا ماله حدود ، قد یستغرق الزمن بأكمله إن أطلقاه رويداً رويداً على مدار الأيام . فأولى إذن بهما أن ینقضاه الآن .

الآن ؟ ... إنها السکمة !... وهى الزمن كله وليس بعدها آتات أخرى ولا أزمان ! ... وهى الجمعة التى تتسع لحشد كل ما یحسان ! وهذا شعورها: فى النفوس عذاب ، وفى القلب نار حامية ذات لهب مشبوب . كلما أكلت من القلب ذکت وعلا ضرامها الطاغی فالتهم التبصر وحكمة العقل ، ودفع الصاحبین المعنیین فى الخسومة إلى غمار الخلاف كما یندفع المحروق إلى الخلاء على غیر هدى وإن علم قبل أن تعلق بأذیاله النیران أن لفتح الهواء یسرع به إلى مهاوی الهلاك .

ولم یکن قد فات سوى یومین على البیعة — على العهد الذى ارتبطا به أمام الله وأمام الناس . ومع ذلك فلم یـکـفا عن معارضته والشغب علیه . وأطاعا النفس الحاقدة فى عصیان من وجهت له علیهما الطاعة . بادرا

بالخلاف من أول لحظة ، ولو أتيحت لها الفرصة المواتية لبادراه به أثناء البيمة ... فكأنى بهما — وهو على المنبر — قد أخذاً يده ليقطعها لا ليشدا عليها ويصالحها برهاناً على الولاء .

ولكنها نزوة تملك نفس طلحة ، وأعدت الزبير بمدواها . وسقطة وقع فيها الأول بدافع شهوة الحكم التي نمت بقلبه أعواماً طويلة ، واساق إليها الثاني بدافع حسده للإمام المعروف عنه منذ عهد الشباب ، وبدافع الإغراء أيضاً الذي زينه له ابنه عبد الله — ابن أسماء بنت أبي بكر وريب عائشة أم المؤمنين . فأعجب بها من زمرة تنتهي في النهاية إلى أصل واحد هو أول الخلفاء — أول منازعى على تراث رسول الله — وتتصل به صلة قرى من بعيد ومن قريب ! . هذا حزب من تيم ! ... اجتمع فيه طلحة ابن عم الصديق ، وعائشة ، وأختها أسماء ، وزوج هذه وابنها الزبير وعبد الله . قد ربطت بينهم عصبية الأسرة قبل أن تربط بينهم غاية مشتركة . ثم قرنتهم الموحدة على الإمام في سلك واحد لأنه من بيت يطولهم إن ذكرت مفاخر الجاهلية ، وأجناد الإسلام ثم ألف قلوبهم على منازعته أنه نازعهم ذات يوم سيادة كانت له وابتزها منه شيخهم الأول . ثم لعبت بأحدهم شهوة الحكم حتى رأى نفسه أولى بالإمرة من كل أمير . وجنحت واحدة لوحى قلبها المليء بالفيرة على غريمها القديم . ومال الفتى كميل خالته التي رعته كابنها وقد حرمت الولد فكره مثلها ذلك الغريم ، وهفا إلى المجد إذ كان حفيد خليفة رسول الله وفرع أسرة أصبح لها اليوم في أعين الناس مكان مرموق ، وأطوع المجد إليه هو ما يأتيه من خلال أبيه : ابن ممة محمد وصهر الصديق ، وأحد أصحاب الشورى المرشحين للخلافة ، فهلا يستجيب الزبير لإغراء ولده ، ولدعوته إلى الكفاح من أجل السيطرة إذا دعاه وفي نفسه بضعة من حسد لابن أبي طالب راسبة منذ عهد الشباب .

يقول على :

« ما زال الزبير منا أهل البيت حتى نشأ ابنه المشثوم عبد الله ... »

وقد صدق الإمام . وجاءت الحوادث من بعد فأيدت حديثه . وبدأت خلالها أصبح الفتى توجه الرجل إلى كل خلاف . وتكاد في كثير من الأحيان أن تصفو نفس الأب فيهرع الولد إلى تعكير صفوها بتحريك النزوات التي رسبت وكادت تستقر في القاع لتطفو على الصفحة وتعود ثانية إلى الظهور .

كأما عوامل شخصية تلك التي حملت الزبير وطلحة على مخالفة على وإبداء العداء له ... مشاعر ذات ألوان ، لها على النفوس سطوة عانية ... نعمة أسرة !... وقد استجاب صاحبان لها ، وانساقا أمام التيار النفسي بغير روية يحاولان هدم الإمام وتقويض أمرته تحته . ولغير غاية عامة اطلقنا مسرعين في هذه الطريق المحفوفة بالأغراض والطامع . فكأنما رأت الأهواء على بصائرهما فلم يميزا بين الخطأ وبين الصواب ، بل راحا يعارضان الإمام في كل عمل قام به أو أوشك على إنقاده حين كان يجدر بهما أن يؤيداه ويشدوا أزره . وليس أبلغ في الدلالة على انسياقهما مع الضغن من تحريضهما الناس عليه لما سوى في القسمة وهما يعلمان تمام العلم أنه لم يأت ببدعة من لدنه وإنما أقر نفس النظام الذي سنه رسول الله .

ومع ذلك فقد أغضى كريماً عن هذا الاجترار ، واكتفى بأن قابلهما بحجته القاطنة ومنطقه الدامغ . ولكنهما لم يكفاه عنه ، ولم يقعهما عن دعوة الفرقة والشغب وضوح حقه . بل انطلقا يؤلبان عليه أصحاب الأقياء الممتازة والأعطيات السخية من ذوى الأنساب العريقة — أولئك الذين تقموا منه نسويته إياهم ببقية أبناء الشعب . فهل ترى غاب عنهما أنهم جميعاً كانوا أنصار قضية يخذلها الحق ترضيهم أمام عيون التاريخ في صف الباطل ...

نوشك أن نهم ذكاء الرجائين لو حسبنا فطنتهما إلى هذا الحد من القصور . ونوشك أيضاً أن نعمطهما القدرة على استحداث كل أساليب الفتنة والخلاف التي حذق استحداثها طلحة على أهون تقدير . وتنطق

الحوادث نفسها بغير هذا الافتراض الذى يتقصر من مهارة الشيخين وتشهد لها تبييت النية وإتقان التعبير . فقد كانا أبرع من أن يرميا بسهم واحد ولا يرميان بآخر على أثره حين أرادا إصابة الهدف المطلوب . . . وكل ما جرى فى الفترة القصيرة التى قضياها معه بالمدينة يكاد ينبىء عن سياسة مرسومة جماعها إحكام التصويب وكيال الضربات المتتالية إلى الرجل الذى ناجزاه . فما انطوى من عهده سوى يومين اثنين حتى طالعا بما يكفل - فى وهما - تقويض أمرته . كأنهما استبطئا ألا تنشب عليه الشررة بعد انقضاء فترة كره - طويلة محاطة ! - وهو ما زال فى مقعد الحكم !

يومان اثنان انفضيا على البيعة ، وعلى مجاهرتهم بالولاء للإمام تحت رأى العيون وسمع الآذان فى أقدس موضع تتجه فيه القلوب إلى الله . يومان اثنان فى حساب الزمن ولكنهما فى حساب المشاعر المنبعثة عن الأنفس المليئة بالحقد والضعيفة أطول من الدهر الخالد والأبد الآبد . فإن هو إلا أن حل ثالث نهار بعد بيعته حتى انطلقا إليه ، كأول مرة ، فى ثلة من كبار أهل المدينة وأصحاب الكلمة المسموعة بين الناس . . . انطلقا وفى وقاضهما بذور فتنة جديدة ، الأرض التى تصلح لاستباطها هذه المرة هى نفوس العامة ونفوس الخاصة بهذه البلدة وغيرها على سواء . .

فكانما كان حديثهما صدى لصيحة عائشة بمكة ، يكاد ينقل دھوتها فى أمانة وحرص . . . قالا له ، وشاركهما فى بث مكنون الصدور بقيمة الرغد الأمين الذى رأساه :

« يا هلى . . . إنا قد اشترطنا إقامة الحدود . وهؤلاء القوم قد اشتركوا فى دم هذا الرجل . وأحلوا بأنفسهم . . . »

فبدت له الفتنة الناعمة تنفض عن نفسها غطاء الركود ، وتتحرك على أطراف ألسنتهم ثم تهم بالانطلاق واتسعت حدقتاه كمن بوغت بسلاح يعتد إلى صدره من خلال الظلام . ثم ألقى بصره إلى الخارج : إلى طرقات المدينة التى كانت تعج إذ ذاك بطوائف الثوار من أهل الأمصار ،

وبأصحابهم من موالى البلدة وعبيدها الذين آزرهم أثناء الثورة ، وبالأعراب وأهل المياه الذين انحدروا من أراضيتهم على الحدود وكان لهم في الفتنة نصيب... كل أولئك مشلوا في خاطره تلك اللحظة وإن لم تطف بهم نظرات عينية . ومثل غيرهم كثيرون منهم كانوا قد انبثت معسكراتهم على تخوم المدينة وأقاموا حولها في شبه حصار ...

وكما أغضى عن الخلاف الذى أنشبه الصاحيان عليه بالأمس حين جاءه يمارضانه في السياسة التي رسمها للتقسيم ، فكذلك آثر أن يفضى اليوم ويبدو كأنه يعلم عنهما سلامة الطوية وبعدهما عن إرادة تدبير فتنة جديدة عاتية هوجاء ... وراح يتذرع بالهدوء والصبر وهو يقول :

« يا إخوتاه ... إني لست أجهل ما تعلمون . ولكن ... كيف لي بقوة والقوم المجلبون على حد شوكتهم ، يملكوننا ولا نملكهم ؟ .. »

ومد يده يشير بها إلى ناحية الطرقات والدروب ، وإن بصوته لرنه سخرية وهو يعاود الكلام :

« ... ها هم هؤلاء ... قد ثاوت بهم عبدانكم . والتفت إليهم أعرابكم . وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا ... فهل ترون موضعاً لقدرة على شيء تريدونه ؟ .. »

ورآن الصمت على المجلس هنيهة كأنهم يدبرون في أنفسهم ما قال ، ويستوعبون منطقته الذي لا تنفذ إليه كلمة اعتراض . ولكنه لم يعدم أن يسمع صوتاً من بينهم يقول :

« ... فلو عاقبت قوماً ممن أجاب على عثمان ... »

كأنما أخذ بعض الثوار بالمقاب دون البقية الآخرين فيه علاج الحال ...

وأسرع إليهم بالجواب الصواب ، يبين لهم ثانية حقيقة الداء ويصف أنجع دواء ... قال بلهجة حاسمة ، وصوت تبدو من خلاله نبرات الحزم والتصميم :

« ... إن هؤلاء القوم مادة . والناس من هذا الأمر — إذا حرك —

على أمور : فرقه ترى ماترون ، وفرقه ترى مالاترون ، وفرقه لا ترى هذا ولا ذاك . فاصبروا حتى يهدأ الناس ، وتقع القلوب مواقعها ، وتؤخذ الحقوق مسمحة . فاهدأو عني ، وانظروا ماذا يأتيكم به أمرى . . . ولا تفعلوا فعلة تضعضع قوة ، وتسقط مئة ، وتورث وهذا وذلة . »

على أن هذا الحديث الواضح المبين ، وهذا التحليل الدقيق لموقف الشعب خيال الثوار ، وهذا العرض الأمين لحقيقة الحال ، كلها لم تقنع المخالفين ، ولم تستطع أن تهدئهم عنه . فبالرغم من أن الجمهور كان ينقسم فرقاً بعضها يعطف على رجال الثورة ويرى فيهم مجاهدين خلصوا الأمة من شر مستطير ، وبعضها الآخر يراهم عصاة خارجين على القانون . . . وبالرغم من تجمع قوى الثوار بالمدينة وعلى حدودها الدائية ، وامتلاكهم ناصية الحال فيها بقوة السلاح فوق ما لهم في نفوس أهلها من قوة الرهبة ، وبالرغم من أن الزمن هو الكفيل وحده بنهضة الخواطر المبدلة في كلا الثائرين والأهلين ، ويجمل الفرق المختلفة أدنى إلى تكوين رأى صحيح عن الثورة ورجالها بعيد عن التأثير بالعطف أو بالخوف . . . وبالرغم من هذا كله يبدو أن الوفد لم يستجب لنداء على لهم أن يمهأوه ثم يحكموا بعد قليل على ما يأتى منه . بل والوا الضغط عليه . وظلوا يضغطون عسى أن يقطع في الأمر بقرار ، ويخطو خطوة حاسمة في سبيل تنفذه ما جاءوه فيه وإن كان الوقت لم يمنح بعد للحسم . وإن كان الحسم في غير أوانه كفيلاً بزيادة الموقف تعقيداً واستمصاء على الحلول .

لاح هذا لأنا لا نلبث أن نشهد الإمام في ذات اليوم يخرج إلى المسجد وحوله أولئك الصحاب ، فيقف في الناس يخطبهم ثم يهب بهم في حرارة وابتهاال ، فيقول في ختام الكلام :

« . . . أيها الناس ، برئت الذمة من عبد لم يرجع إلى مواليه . . . أيها الناس ، أخرجوا عنكم الأعراب . . . يا معشر الأعراب الحقوا بمياهم . . . »

فإذا المهمة تسير في أفواه الجاهير ، وإذا البغلة تنين على الوجوه ،

وإذا السبائية يلمحون في الأفق نذراً لا تطمئن نفوسهم إليها . وإن هي إلا لحظة حتى تنادوا من كل جانب ، وأحدثت الأصول والذبول . وأبى أى رجل من الجمع أن يطيع النداء لا فرق في ذلك بين طوائف العبيد أو السبائين أو الأعراب .

فكانها دعوة إلى لم الشمل ، وتكتل القوى التي أراد أن يفرقها أصحاب الوفد وعلى رأسهم طلحة والزبير ! وألقى على نظرة حاتقة على الصاحبين ومن معهما . فهذه هي النتيجة التي خشىها منذ البدء وحاول جاهداً أن يتجنبها ... ومضى غاضباً إلى داره وهؤلاء حلقه يسرون ناكسى الرؤوس كأنما أخزاهم سوء ما أسفرت عنه مشورتهم الهوجاء ... وفي غيظ مكظوم ، وبهدوء قاس تكاد أن تجمد له الدماء في العروق قال لهم وأصبعه تشير إلى الجماهير التي تنكتل في جموع :

« دونكم ثأركم فقتلوه ! ... »

فما تحرك في أفواههم لسان ، بل غلب الحزى عليهم حتى سكنوا في مواقفهم كأنهم ظلال ... وعاد هو ثانية يجيل فيهم عينيه ، ويلقى نظراته الغضبي على وجوههم التي تقطر جموداً . ثم هز رأسه ، وقال بصوت ممرور :

ولو أن قومي طاوعتني سرائهم أمرتهم أمراً يديخ الأعاديا

فكانت ما وجداً مخرجاً لما أصبحا فيه . أو بأصدق تعبير وجداً وسيلة إلى تحقيق مأربهما القديم ... تقدم إليه طلحة وهمس له في هدوء كمن يشير بالدواء الذي يبت الدواء :

« يا أمير المؤمنين . دعني آت البصرة فلا يفجأك إلا وأنا في خيل ... »

وأسرع الزبير يهمس كصاحبه ، وبذات كلماته :

« ... دعني آت الكوفة فلا يفجأك إلا وأنا ... »

البصرة لطلحة ، والكوفة للزبير حيث أعوان كليهما الداعون لها بالخلافة

منذ أيام ؟ ...

ولكن الإمام قال دون تردد وهو يبدى لها غاية ما يستطيع إبداءه من
قلة المبالاة :

« حتى أنظر في ذلك » .

وقطع جوابه عليهما سبيل الأحلام ! . .

٩

قويت شوكة أصحاب الثورة ، وازدادوا اتفاقاً حول أنفسهم ، وحرصاً
على لم قواهم وحشدها بمكان واحد بعد الذي لمسوه من انقلاب الأفكار عليهم
وسيرها في اتجاه عدائي سافر . ولم يكونوا في البدء يوجسون خيفة ولكنهم
اليوم وقد لمحوا نذر النعمة عليهم تتجمع في النفوس وتوشك أن تنطلق
كإعصار ، لم يروا معدى من التزام الحيلة ، وإرهاق حواسهم كلها خوفاً على
سلامتهم العامة . وبقيت جموعهم حيث هي بالمدينة وعلى نخومها ، متراسة
لا تفرح ، لأن هلاكها المحتوم في التفرق .

كان هذا هو الشعور الذي سادهم ، وطبع حركاتهم بالنفور من كل هيئة
نظامية يوشك أن يكون لها سلطان عليهم ، من كل حكومة تستند إلى غير
سواعدهم . . . وفي اليومين السالفين كانت لهم آمال كبار علقوها على الخلافة
العلوية لأنها — في ظنهم — حصاد ثورتهم . ولعل كثيرين منهم حسبوا أن
هذه الدولة الجديدة دولتهم ، وأن علياً يدين لهم بالإمرة التي أفلتت من يديه
بضعة وعشرين عاماً غبرت وكانت موشكة أن تفلت بضعة أخرى قد تمتد إلى
انتهاء عمره لولا الضربة التي وجهوها لعثمان . ولكن هذه الآمال كانت
قصيرة الأجل ، لم يمهلها القدر لتعيش وتثمر ، بل انقضت أعوادها في ذات
الساعة التي بزغت فيها شمس العهد الجديد . وتلفت أصحابها فإذا بالإمام ليس
كما ظنوه ، وإذا أول عمل سياسي يأتيه هو إغفال شأن الثوار ، والانطواء عنهم ،
والضن على زعمائهم بأن يكونوا من أعوانه المختارين لإقامة حكمه أو تدعيمه في
الأمصار .

بدأ هذا حينما أرسل عمالا من لدنه إلى البلاد يخلفون ولاية عثمان فما بث قط برجل شرك في الثورة أو عرف بأنه أيد أصحابها وظاهرهم وإن كان دونهم نقي الذيل لم تعلق به قطرة واحدة من دماء الخليفة الشهيد . ومع ما كان معلوما من ولاء أكثرهم له ، وشغفهم ببذل كل مايسعهم في سبيله ، وإيثارهم إياه على نفوسهم بنغاية ما تطيقه نفس بشرية ، فإنه لم يستعمل أحداً منهم في عمل من أعمال الدولة كأعما تعتمد أن يحول بينهم وبين النفوذ . بل قد كان في سياسته هذه جانحاً إلى الغلو الشديد ، حتى إنه ولي قيس بن سعد إمارة مصر وقبضها عن محمد بن أبي بكر الذي اختاره أهلها وكاد يصبح عاملاً عليها قهيل مصرع عثمان . ولم يكن محمد ممن وقعت على رؤوسهم دماء القتييل ، بل لم تعلق به من هذه الناحية شبهة ، ولم تضطرب حوله الروايات ، وإعلاء ثبتت براءته ثبوتاً قاطعاً بشهادة نائلة . ومع هذا فإن علياً لم يدفع به إلى عمل رسمي يتولاه من قبله . وضمن عليه بالمنصب الذي كان من حقه أن يناله برضاء زعماء الرأي في مصر لأنه رآه ضالماً منذ البدء مع الثوار ، فرأى توليته — في هذه الآونة الحرجة التي تفتحت فيها الأذهان لاستقبال الظنون — كفيلاً بأن تطلق السنة خصوم الإمام بالتقولات الظالمة في نظام يريد له أن يكون فوق الشبهات .

كانت كبرى المسائل الشائكة التي اعترضت سبيل علي من اليوم الأول لخلافته مسألة رجال الثورة المسلحين الجائئين بمدينة الرسول . وقد أجمع الفطر في الأمر وقلبه على وجوهه فوجد من الحكمة إرجاء البت في شأنهم بقرار حاسم خشية أن تنقسم الأمة حيالهم إلى معسكرين : بين مؤيدين ومعارضين ، يجر تناحرهما إلى حرب أهلية قد تودي في التمهيه بقوة الدولة . وما من ريب في أنه توخى بهذا الرأي الصالح العام ، وجنب الإسلام نيران فتنة عاتية كانت حرية بأن تندلع في كل الأمصار ، بل كانت حرية بأن تجمل الطوائف الثائرة تقهض بيد من حديد على صولجان الساطة بالحاضرة الإسلامية في بضعة أيام ما دامت تملك — دون الحكومة الشرعية —

السلاح والعتاد . فمن هذا المصير المخوف كان يحذر طلحة والزبير ، ويدعوها إلى الاصطبار حتى تهدأ النفوس المهلبة ويقر اضطراب الخواطر فلا تستعصى الأزمة . بعدها على الحلول . ولهذا جنح أيضاً إلى الغلو الشديد عند اختياره رجاله ، فلم يستعن في شئونه بأحد من الثوار . وبالغ في اجتنابهم توفياً لمظنات خصومه وأقواياهم المجترئة التي أوشكت أن تنطلق فتسلك ظهلاً في عقد أعداء عمان .

وهكذا أوجس رجال الثورة خيفة من علي ، وباتوا على حذر منه . وضاعف من خوفهم على سلامتهم أن الأنباء راحت تترى بالنكر لهم في كل مكان .. في مكة ، وفي الشام ، وفي مصر أيضاً نبئت فيها نابتهم . وامتدت منها فروعها إلى بقية الأقاليم . حتى طلحة أيضاً تنكر لهم وقاب جلده الأملس .. ولو أن ثمة رجلاً كان يجدر به أن يستمسك بهم ، ويوليهم من صفوه وتأييده لوجب أن يكون طلحة الرئيس المقنع لحركاتهم الثورية ! .. ولكنه اليوم غيره بالأمس قد أفلته الهدف الذي ركبهم إليه ، فراح يلتمس مطية أخرى لعلها تصل به إلى أغراضه من طريق سوى الطريق ! ..

غير طلحة إذن إهابه ، وأبدى لأصدقائه القدامى ما كان يديه من قبل لعنان . ففي جوار الحرم الآن أصدقاء آخرون — مطايا أخرى تعدها له داعيته ! .. هناك عائشة قد استبدلت بعلمها القديم آخر راحت تاف حوله الجموع ، وترفعه عالياً فوق رأسها يرفرف كألسنة النار .. وإذا كانت لا تهتف اليوم صراحة باسم طلحة ، ولا تدعو إلى تنصيبه خليفة للمسلمين يتبوا مقعد غريمها الجديد كما دعت منذ قريب أن يتبوا مقعد غريمها القديم .. إذا كانت قد أكبت الآن صيحتها رنة تفجع على الأمير القليل بعد أن كانت نداء مدوياً للخلاص منه ، فإن الغاية التي لا بد ستنتهي إليها هذه السياسة ذات الوجهين لن تعدو أن تكون ملكاً لقيم يتسهم عرشه رجل لا تحس السيدة التيمية نحوه بمثل البغضاء التي تحسها حيال الإمام .

ولا تنى الأحداث تطالعنا بالأسانيد التي تثبت أن الطالب يدم عمان

ما كان إلا أفصوصة اشترك في صوغها كل منافس لعل ، حاقده عليه قدره وسلطانه . . . فلم تكن فط دعوى جدية ، أو هي في القليل لم تسر في طريقها إلى هدفها الذي رمت إليه . بل تراها في تبدل وتغير بين يوم ويوم حتى تفقد روحها ولا يبقى منها سوى ألفاظ جوفاء . وقد وسعت كل شيء ، ووصلت إلى كثير من الغايات إلا الثأر للشيخ المقتول . ولكنها في عين خصوم الإمام كانت مبدأ أخاذاً يعميهم على حشد الأنصار ، وعلماً خفياً يستهوي بعض النفوس البريئة الكافئة بالمرودة ، وكل النفوس الزائفة المفقونة بنصرة الأباطيل !

ولم تبق دعوة طائشة محصورة بخكة ، بل سرت مع الركبان إلى بلدة الرسول ووجدت بها أذاناً صاغية . وكان أول من استجاب لها بنو أمية وأحلافهم ، فتسللوا واحداً في أثر الآخر وهم يرجون أن يستردوا من ورائها ملكهم المفقود . وتبعهم طوائف شتى من الأشرار القرشيين . أولئك الذين أضافت إمرة على إلى قلوبهم ضغناً جديداً يجاور الأحقاد القديمة . وكانت تدفعهم أيضاً إلى الخروج لمكة خشيتهم جرم الثوار الذين يمثلون على وجه من انوجوه سلطان الطبقة الفقيرة ، واليقظة القومية في الشعوب الدخيلة .

وبدأت رقعة المتاعب تتسع أمام أمير المؤمنين . فقد كانت هذه الهجرة مشكلة لا بد من تفهم عنها ضياع هيبة الدولة عند رجال الثورة ، ولتوشك أن تكون لهم في حاضرة الإسلام الكلمة المسموعة النافذة واليد المحركة للسياسة العامة إن خلا الميدان من العناصر العربية الصميمة التي تشدد من أزره عند الحاجة ، وتضمن تكافؤ الأصلاء والدخلاء إلى حشد معقول . ولو حدثت هذه الهجرة في ظروف عادية لما تبرم بها ، ولو سمى أن يقبلها راضياً لأن جميع طبقات شعبه في نظره سواء . ولكنها وقعت في أعقاب فتنة ، وفي وقت يخشى فيه طغيان الثوار على النظام العام إن رأوا منه الميل إلى كبح جماحهم عند حد محدود ، وإلى بلدة تنهأ هي الأخرى لفتنة إطلاق

حرية الهجرة إليها بغير قيود كأنه وقود جاف يلقى في قلب حريق .

لذلك بادر على إلى حسم الشر قبل استفحاله . فحرم على فريش الخروج وحبسها في أسوار المدينة كما فعل قبله ابن الخطاب . واشتد في هذا الأمر غاية الشدة حرصاً على سلامة الدولة ، وعلى وحدة أمته أن تتمزق . فكانه إذ ذاك عمر قد عاد كرة ثانية إلى الوجود وراح يردد قوله المأثور :

« . . . إني قائم دون شعب الحرة . آخذ بحلّاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا في النار . . »

ولكن قريشاً أبت اليوم إلا أن تضر الخلف للامام، وتبديه كلما وجدت سبيلاً إلى المجاهرة بالمعداء . فما عادت تقف منه موقفها السالف من عمر ، ولا رأت فيه رجلاً يجدر بها طاعته والحرص على إنفاذ مشيئاته ، وإعما ظلت تنظر إليه بنفس عيون أسلافها القدامى ترى فيه هاشماً آخر أولى بها أن تحسده على سطوته الزمنية وقد حسدته من قبل على سطوته الأدبية . لذلك جهدت في استنباط كل وسيلة تؤدي إلى عصيانه . وإلى إهدار هيئته بين رعاياه كما كم يجب الاثبات بأوامره والانهاء عند نواهيهِ . ولم يكن دورها الطبيعي في الدولة الإسلامية كبقية أبناء الأمة من المحكومين . ولكنها كانت ذات كيان خاص له أثره في توجيه السياسة العامة للدولة يكاد سادتها أن يكونوا نوعاً ما من مجلس نيابي أو هيئة استشارية تعاون الخليفة بما تبذل له من آراء كلما دعت الحاجة إلى التماس المشورة . فهي إذ تنتقض على هيئته فإنما يحمل انتقاضها معنى من معاني انتقاض بعض الهيئة الحاكمة على بعضها الآخر ، وتضرب للشعب أسوأ مثل للقمرد على السلطة الشرعية .

ومع ذلك فلم تر حرجاً في إفساد الأمر على الإمام بين كل يوم ويوم . ومضت تسعحدث الأسباب التي تنتقض على هيئته في تقوس أمته ، وتكيل الضربات إلى النظام الرسمي الذي كان يجدر بها معاوته والتكين لسلطانه حرصاً على الصالح العام ، فأخذت تتسلل من المدينة وتلحق بأصحاب الفتنة

التي أرثتها عائشة في ابلدة الحرام . ثم لا تني تبث في الطريق وفي الأسواق دعوة التآليب عليه . ومن مكة التي كانت مركزاً تتفرع الدروب منه إلى الشمال والجنوب انطلق بهتانها إلى بقية البلاد فبني في كل منها عشاً للفتنة .

أما الذين حالت الحوائل دون خروجهم عن الحاضرة الاسلامية فلم يقعدهم عن ثابه قريتهم منه ، بل ملأوا أوقات فراغهم بالطمع عليه والديس له بين الناس يحرفون كله ، ويفسرون مقاصده دائماً بالنقيض ، ويتربصون بأعماله عساً هم يقعون فيها على هنة يحسمونها أمام العيون ، فإذا أعوزهم الكيد له في هذه الناحية راحوا يخالفونه جهرة في أمور جليلة لا يختلف فيها إثنان . وما دام الناس لا يشهدون مجالس النقاش الذي يدور بينه وبين خصومه بل يسمعون فقط بنتائجه وهي في الصيغة التي تروق أولئك الخصوم ، فإن تواتر الخلافات إذن كفيلاً في نهاية الأمر بأن يشكك فيه الجماهير .

كان طلحة دائماً على رأس هذه الفئة التي أصبحت شوكة مسنونة تدمي جنب الإمام . وكان الزبير يقفوه كظله ، ويتبعه إلى حيث يريد . فقد توحدت خطاه الرجلين . واتجها معاً إلى غاية مشتركة لا يبلغانها إلا بعزل على من الخلافة . وهل ثمة غاية هدفاً إليها سوى ابتزاز الحكم من بين يديه واحتجازه لهما معاً يتصور أن مقعده الأثير الخلاب ؟ .

ولكننا إذ نأتي البصر إلى الأحداث لا نشك لحظة واحدة في أن الزبير كان ضحية لأطماع طلحة . وكان أيضاً مطيته . . . فما نحسب صاحب التيمم كان مقاسماً زميله السلطان لو نجحت خططه وآلت إليه مقاليد الخلافة الاسلامية ، بل هو أقرب إلى التفرد بها دونه واحتجازها لنفسه لأن هذا أشكل بطبعه وأدنى لشغفه البالغ بامتلاك نواصي النفوذ . وهل تراه يكافح أعراما طويلة لتحقيق أطماعه ثم يقتسم الثمرة الشهية وآخر في نهاية المطاف ؟ . ونسكاد أيضاً نرى الزبير مغلوباً على رأيه ، قد خرج حشف أفعه على ابن خاله ، وسار خلف طلحة على طريق الشغب وكأنه مسحور ، فما نحسبه نسي كاف صاحبه السلطان . ولئن نسيه فالعهد غير بعيد بكلمات عائشة ودعوتها السافرة

إلى عزل الخليفة القائم على الحكم إذ ذاك وتنصيب قريبها مكانه . وهل مضت سوى أيام قلائل على قولها لابن عباس :

« . . . قد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح ، فإن يل يسر بسيرة ابن عمه أبي بكر . . . »

الزبير بلا ريب مغبون الصفقة . ضياعه في مأدبة السطوة أمر محتوم . . وما تزال كلمات عائشة هذه تذكره بدوره . وترسم لنا صورة منه . ولكنه — فيما يبدو — رضى متهوراً بنصيبه في الفتنة . وفتح بيوارق الآمال التي لوحوا بها أمام عينيه وإن أيقن في صميم قلبه أن ليس له إلى تحقيقها سبيل . ثم انطلق في ركاب طلحة ، مشدوداً إليه بأهواء أسرة ! .

وتمضى الأيام والصاحبان يجهدان في إثارة خلاف جديد مع الامام ، فلا تسعفهما الظروف به ، ولا تدع أعمال ابن أبي طالب ثغرة واحدة ينفذان منها إلى الطامن عليه . وقد لاح لهما في البدء أن معارضتهما إياه في التقسيم بالسوية كفيلة بأن تثير عليه العناصر المريقة ذات النفوذ في الأمة . فاذا بهما اليوم قد رأيا قريشا تفر وتدعهما منفردين في الميدان . . . وكان حتما عليهما - في شرعة الشغب - أن يبدلا من هذا الركود الذي ساد الجو السياسي بالحاضرة ، ويمددا الناس بمادة جديدة للخلاف بينهما وبين الامام تسبح فيها الشائعات والأقاويل فذهبا إليه يجادلانه في أمر لم يتمخض الزمن بعد عن دواعيه . . . ذهبا يعتبان عليه أنه لا يستعين بهما على مشكلاته ولا يشاورهما في أموره وإن علما أن العون والمشورة كليهما رهينان بنشوء مسائل تقتضيها ولم تنشأ بعد ، أو على الأقل نشأ منها ما لم تدع الحاجة علما إلى التماس معونة أحد أو رأي في علاجه . وقد بدا من حديثهما أنهما لا يعنيان أمراً بعينه ولم يحددا مسألة واحدة وجب أن يطلب على رأيهما فيها ثم أهمل في استنباطهما الرأي المطلوب . بل ألقيا إليه العتبي مطلقة بنير تحديد ، وبدون إشارة إلى أمر واحد دفعهما إلى إز جاء هذا العتاب . . . فما سمع مقالتهما حتى بادرها

بالجواب الكفيل بأن يسد عليهما باب التعلات والجدال . . . قال :

« . . . ألا تخبراني أى شئ لكما فيه حق دفعتمكما عنه ؟ . . . وأى قسم استأثرت عليكما به ؟ . . . أم أى حق رفعه إلى أحد من المسلمين ضعفت عنه ؟ أم جهلته ؟ أم أخطأت به ؟ » .

فما أظنهما في هذه اللحظة إلا أدارا الذهن فيما عرفاه من أعماله ثم عاد إليهما الذهن كليلا لا يحمل في وفاضه أمراً واحداً يستطيعان به أن يردا عليه حججه الغلبة . ولعلهما آثرا الصمت ، ولعلهما قد أصاب كايهما الحسر أمامه فلم ينطقا بحرف . ولكنه قرأ من مكنون القاميين ماسترته قسما وجهيهما الصامته . فان هو إلا الهوى قد دفعهما لمثل هذا الموقف . وإن هي إلا المطامع والآراب في ابتزاز الحكم من يديه تسرقهما دائما إلى ممرضته والشغب عليه . وقد ألم حديثه بطرف من هذا ، ولمس لمسات خفيفة مشاعرها نحوه حين عاد يستأنف الكلام :

« . . . والله ما كانت لى في الخلافة رغبة ، ولا في الولاية أربة . ولكنكم دعوتهموني إليها وهاتموني عليها . فلما أفصت إلى نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته ، وما استسن النبي فاقتيته . فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما ولا رأى غيركما . ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخواني المسلمين . ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما . . . »

لم تكن له في الخلافة رغبة ، أفما كانت لهما رغبة فيها دفعتمهما إلى اعتصاف كل هذه التعلات ؟ .

يستجاب السيف . وينهتك السر . وتبدو خفايا النفوس واضحة للأعين بغير حجاب .

مهمارة بن شهاب عامل على الحديد على الكوفة ، ظهر ثانية بمدينة الرسول ولما تمض على خروجه منها إلا فترة وجيزة ، وصار يشق الطريق إلى دار الإمام وإن في وجهه لوجوما ظلل قسماته بلون خذلانه ، وعلى ثوبه غبار رحلته الشاقة المزدوجة التي قطعها بين الحاضرة الإسلامية وبين مقر إمارته دفعة واحدة في الذهاب والعودة ، فقد امتنعت عليه الكوفة ، وحال بينه وبين دخول أرضها نهر رأوا أن ينقضوا أوامر الامام .

ويسير الرجل مهموماً إلى أمير المؤمنين ليحدثه مما لقيه ، فما نسمع طرفاً من حديثه حق نراها عودة كفيلة بإثارة التوجس في الأنفس لأنها تنبئ عن بوادر الانقسام في الدولة ، وبدء هبوط هيبة الخليفة في عيون بعض رعاياه ، واجترائهم على مخالفته والتمرد عليه . . . ثم ما يتبع هذا كله من وجوب العمل الحاسم لحصد شوكة العصاة .

ولكننا أيضاً لا نملك أن نمنع بسمة ساخرة يطيب لها الطواف بشعر كل منصف يحاول أن يستقصى أسباب كل فتنة ، ويرد مظاهرها البادية إلى أصولها الخفية . . . فاذا وسعنا هذا الاستقصاء فانا نوجب لأصابع القدر ، التي نسجت شباك العصيان حول الامام أثناء حكمه ، كيف استطاعت ان تستمد كل خيوط هذه الشباك من مادة واحدة — من غل الأنفس التي أكلتها الأحقاد ؟ . . . لم يعد عصياً على العين المتجردة من الهوى أن ترى في باطن كل امرئ ناجز عليا ، ووقف منه موقف عداء ، قلباً مظلماً كليلة في المشتاء غائرة النجم ! إنما الحسد هو الذي ناجزه ، والضميمة الجامعة والنقمة العمياء . . . وتعدد الخصوم والأعداء ، فلا ترام إلا صوراً شتى لأصل واحد في مختلف الأوضاع ، خلفهم دوافع من الهوى الشخصي يسوقهم — قسراً أو طواعية — إلى محاربة رجل كل جريرته أنه على :

الورث الشرعى للأحقاد والضغائن التى عاشت أزماناً فى صدور مقروحة ،
ولفحت نيرانها هاشمات ذات يوم ، ثم محمداً من بعده ، حتى حسمتها عنه
رحمة الله ! . .

لا أحد ممن عادى الامام كان يبتغى من خصومته نصرة صالح عام ، بل
كانوا يسرون صفين يقود أحدهما الحسد ، وتقود الآخر ضمائر مدخولة ، وما
منهم إلا من زخرت واعيته برواسب قديمة من مشاعر هوجاء لم يسعفها الزمن
بالتنفيس عنها ولم يسعف آباءه ، أو من له تاريخ مشوب بالصحيفة فاضت
سطوره بالموجدة على رسول الله ، وقد جاء يوم على أولئك الواجدين قهروا
فيه على الخضوع للإسلام ، واضطروهم السيف أو اضطرتهم الحاجة إلى الدخول
فيه فأسلسوا قياده لمحمد ، ولكن نفوسهم المدخولة لم تقطهر بل رسبت مواجدها
زماناً فى القاع كأنها النار المخبوءة تحت الرماد .

وكان على هر الشخص الذى ادخروا له نيران الأحقاد . وإنه إذن لطعمة
ميسورة ، فليست له قداسة كقداسة ابن عمه تحميه من حسد الصدور المقروحة
أو غل الضمائر المدخولة ، ولكن الصدفة وحدها أعجز من أن تؤلب عليه هذه
الصور التشابهية من الحصوم ، وتصف جموعهم كلها جيشاً عابثاً يكيد له ، بل
هو التبيت والاتفاق على القدر ، فما من امرئ عاداه إلا نستطيع إذا رددنا
الطرف أعواماً إلى الوراء أن نراء قد عادى الرسول قبله وكاد له . . و عمارة
ابن شهاب رأى هذا أيضاً ذلك اليوم وهو على باب الكوفة بهم أن يدخلها
عاملاً من قبل على ، ولمسه بنفسه حين برزت له حفنة من الرجال يحملون
السيوف ويأبون عليه دخول مقر إمارته . مخالفين بهذا إنفاذ أوامر الامام .

ويرفع عمارة بصره والبلدة بادية له من قريب ، فإذا على رأس القوم
الذين قطعوا طريقه إليها رجل هو الخزى بذاته لو كانت للخزى قدمان .
ولا يستطيع عمارة أن يفعل شيئاً فليس يملك عتاداً ولا رجالاً يضرب بهم
هؤلاء الحصوم ، ولكنه يسمع صامتاً وعيد زعيم القوم إذ يقول :

« ارجع . . . فإن القوم لا يريدون بأمرهم بدلا ، وإن أبيت ضربت عنقك ! . . . »

فيكظم العامل غيظه ، وينطلق راجعاً إلى الحاضرة الإسلامية ليخبر أمير المؤمنين . ولكن الذكريات تنشال على مخيلته كما تراود الآن الخواطر النافذة إلى ما وراء ظواهر الأمور . إنه حقيق بألا يدهش من تصرف ذلك الزعيم ، ومن إعلانه المصيان والتمرد على الآمام لأن عصيانه حلقة تضاف إلى ما سبقها من حلقات ، فالرجل الذي تمرد على محمد إذ كانت في يده رسالة السماء خليق بالتمرد على علي وهو لا يملك برهاناً من السماء ، والنفس الآتعة التي سول لها البهتان أن تتحدث بلسان الله لا يعجزها أن تتحدث بلسان أهل الكوفة ! وليس يبعد عن الأذهان موقف بالأمس لهذا الزعيم الزنيم ، وقفه في حياة محمد ، مدعياً أنه نبي آخر من عند الله ! فإن لم يكن حسده مكانة رسول الله بين الناس ، وتوسله بكافة الأساليب التي قد ترفعه في العيون ، وإن كان أسلوبه هو الافتراء على الله ، وزيف قلبه عن جادة الحق الإلهي إلى الهوى النفسي الممعن في الضلال حتى غاية الحسدود . إن لم يكن هذا كله هو الشاعر المقيته التي دفعته إلى ذلك الموقف البعيد عن كرامة العربي العادي فضلاً عن كرامة مسلم مثله أقر ذات يوم بالإيمان ، فأى الشاعر إذن كانت توجه فيه خطاه ؟ . . .

إنها لعاطفة انبعثت عن أخط الانفعالات في نفس ذلك النبي المزعوم ! في نفس طليحة بن خويلد متنبئ بني أسد ، الذي ارتد عن الإسلام في حياة محمد وادعى نبوة جديدة حين أبي عليه حسده أن يتفرد محمد دونه برسالة السماء ! . . . فذلك الرجل الذي تصدى بسيفه لمهارة بن شهاب ومنعه من دخول قاعدة حكمه ، كان يتحدث بلسان أهل الكوفة بغير تخرج ، وفي سر عجيب لا مثيل له إلا تمده من قبل بلسان الله ! . . . وقد نم هذان الوقفان عن حقيقة قلب طليحة وقدر الإيمان الذي يعيش فيه . كان أشبه شيء بالتربة القاحلة الصلبة ، لا تطلع زرعاً وإن بولغ في تعهدها أزماناً طويلة

بالسقياء . وإذا كان التاريخ يثبتنا أنه ادعى النبوة وارتد بعد إسلامه ، فإن الأولى بنا أن نقول إنه ادعى الإسلام من البدء ، ولم يعرف قلبه طعم الإيمان . ولا يخالف بهذا القول حقيقة الحال ! ..

لقد ذهب طليحة وأشباهه من المتبشرين أمثلة خالدة في تاريخ الافتراء ، ودرست نبوءاتهم صوراً من القدر بالغة الضخامة لأنهم غدروا بالله وناموسه ورسوله فضلاً عن غدرهم بأحلام الناس . ولقد عاد الرجل ثانية إلى الإسلام فما نراه دخله إلا مقهوراً بسيف أبي بكر الذي سله على عنق الردة ، وما زالت بنفسه بقية من الشك في الدين المقتصر وبقية من التمرد مدخرة إلى حين — هو يحدثنا عنهما بذات لسانه حين يجيء إلى عمر مبايماً بمد وفاة الصديق . . . يقول له ابن الخطاب وهو لا ينسى بهتاناً القديم :

— يا خدع ! . . ما بقى من كهانتك ؟

— نفخة أو نفختان بالكير ! . .

ولا يكاد ينطلق الزمن في أبراجه حتى نرى الكذوب طليحة صادقا هذه المرة ، يختص ببقايا إفسكه وحسده على ابن أبي طالب وخلافته بعد أن فشل بالأمس في الكيد لمحمد ورسالته . وإذا هو حين تجيئه الأنباء بقيام حزب الثأر لعثمان يرى الفرصة مواتية لينفخ بكيره — نفخة أو نفختين ! — في رماد الفتنة عساه يؤجج النار على وريث الرسول . .

عاد عمارة بن شهاب إلى المدينة مردوداً عن إمارته . ولكنه لم يكن آخر عامل للإمام دفعه الناس عن دخول قاعدة حكمه بل نرى على أثره سهل بن حنيف قد رده أيضاً فريق من أهل الشام . وتبدو علائم التمرد سافرة لعمى أمير المؤمنين . وتبدو معها سمات الانقسام في صرح الدولة واضحة كأنها الصدوع في البنيان . . فهذه بغير شك الثمار المرة التي أطلعتها صيحة عائشة في وديان البلد الحرام .

تكاد أن تتفق الآراء الصائبة الرشيدة على الحل الوحيد الذي ليس ثمة

سواء لأمثال هذه المحنة وهو وقع الفتنة وقتلها في المهد قبل أن يتم لها النضج .
 وإنه للرأى الذى جال بخاطر على إذ ذاك غير أن الامام كان كعهدنا به رجلاً
 لا يسارع إلى إذكاء نار العداء ، بل يؤثر الهدوء كخطوة أولى فيعمل ولا يهمل .
 ويمد في جبل اللين ما وسمعه عسى أن يتبين مناوئوه سواء السبيل . كان دائماً
 لا يبادر بالضربة حتى ينذر . وقد عزم من البدء على معالجة الحال كما على
 عليه مصلحة أمتة التي أصبحت أمانة في عنقه ، ووفق ما توجه عليه مسئوليته
 أمام الله وأمام الأجيال كرئيس ديني وزمى للدولة . ولكنه رأى لزاماً عليه
 أن يعمل بحذر وحيلة حتى لا يدع في قراره أية ثغرة قد تنفذ منها عناصر
 الشعب من النهازين وأصحاب المطامع والغايات .

وكان أول من حسب حسابهما طلحة ورديفة الزبير ، فأحب أن يشاركاه
 في القرار الذى يتخذه . ذلك لأنه عرفهما لا يرضيهما الرضا ولا يقران حياله
 على حال . بل هما دائماً أقرب إلى الشعب عليه من سواهما وأدنى السادة إلى
 أفئدة الجمهور المفتون عادة بالشخصيات البراقة وهما بدأ بهما أبداً على الشكوى منه
 والضيق بكل تصرفاته دون موجب ، أدعى إلى مخالفته وإثارة الاعتراض عليه
 إن حزم أمره وعالج الموقف الجديد دون أن يشاورهما فيه . ثم لعل أول مادفعه
 إلى إشراكهما في الرأى رغبته في تنقية جو المدينة من الشعب الذى لا بد
 سيثيرانه لو أنه أغفل شأنهما حتى يستطيع أن يجابه مناوئيه في الخارج وهو
 مطمئن إلى التفاف الجبهة الداخلية حوله في حاضرة الدولة .

لذلك أرسل إليهما ليعرض أمامهما المحنة الناشئة كيلا تكون لها عليه
 حجة . وليسألتهما الرأى المدخر الذى يستطيعان بذله . فلما حضرا مجلسه ،
 راح يسطرهما الموقف لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووصفها بما كاد
 أن يجعلها مرئية رأى العين ... ثم أردف فقال :

« ... ان الذى كنت حذرتكم قد وقع يا قوم ... وإن الأمر الذى وقع
 لا يدرك إلا بأمانته . وإنها فتنة كالقار ، كلما سمعت ازدادت واستفارت »

فأى الردود كان حقيقاً بأن تنفر ج عنه شفاه الصاحبين . . . وبأى لسان
بنطلقان ؟ . .

أحسبهما لم يجدا القدرة على الجواب بعد أن تحدثت قبلهما الأحداث .
ولعل خواطرهما جرت سراعاً إلى خارج نطاق الدار . . . ثم بعيداً عن أسوار
المدينة . . ثم إلى بلدة الحرم حيث نزلت عائشة ولحق بها كل مناوىء للإمام
من بنى أمة وأحلافهم ومن تعلق بأذيالهم من ولادة عثمان . . . كانت هناك
مسلحة تامة الجهاز فيها أموال ورجال وسلاح ، فدأخذت أهبتهما للانطلاق
عبر الصحراء على بريق السيوف ، بل سبقتهما دعوة التمرد على الحاكم الشرعى
للبلاد مجللة بنقاب الثأر للخليفة المقتول ، تمهد الطريق أمامها للجيش
المجهزة ، وتفتحهم على الرعايا الوادعين ثقتهم بالإمام قبل أن تفتحهم بلادهم
صفوف الجنود .

أفأسف الرجلان وقد شهدا الآن نتائج هذه الدعوة الهدامة ، أم رأيا فيها
أولى خطواتهما إلى إدراك ما ينبغيان ؟ . . . إنهما على أى حال قد آمنا بصدق
فراصة علي وثقاده نظره إلى عواقب الأمور ، فتكشف لهما اليوم إلى أى مدى
كان محققاً في مخاوفه حين جاءه يريدان قهره على الافتصاص من قتلة عثمان . .
في ذلك اليوم حذرهما مغبة التسرع . وأهاب بهما أن يصبرا حتى يهدأ
الناس ، وألا يجاهرا بدعوة ، الخطر الجاثم وراء بشا لن يصطلى منه الثوار
بقدر ما تصطلى الأمة كافة ويصطلى نظام الاسلام ، وهل فاتهم إذ ذاك أنها
دعوة فرقة ، حرية أن تتشعب حيا لها الآراء وتمزق وحدة الأمة ، ثم تنجاب
آخر الأمر عن حرب أهلية بين أبناء الشعب الواحد تدلّع نيرانها في
كل إقليم ؟

على أنهما الآن لم يدليا إليه بجديد ، ولم يسعفا بالرائى السديد الذى ثارا
من قبل لأنه لم يلتزمه . . . بل قالوا له :

« فأذن لنا أن نخرج من المدينة . فلما أن نكابر ، وإما أن تدعنا . . »
فإلى أى مكان أرادا الخروج ؟ . . . قد يقف المرء وقفة تفكير طويلة

عند هذا الجواب الذى لا يحدد الغرض منه تحديداً واضحاً يكشف عن نواياها
اللاذهان ، ولكنه حين يزن الألفاظ التى ألبست ثوب غموض يراها أدنى
إلى ذلك الغرض القديم الذى انطوى على رغبتهما فى ولاية العراقين وأباه عليهما
الإمام . ولعل هذا هو معلق بذهن على إذ ذاك ورأى معه أن يكفيهما مشقته ،
لأنه ما لبث أن قال :

« . . . سأمسك الأمر ما استمسك . فإذا لم أجِد بداً فآخِر الدَّواء
السكى . . . »

وكذلك آثر أن يمهّل العصاة الذين ردوا عماله عن الكوفة والشام .
واختار اللجوء إلى الوسائل السلمية فكتب إلى أبى موسى وإلى معاوية عسى
أن يظفر منهما بجواب يتضمن نزوعها إلى سبيل السلام .

ولم يلبث أن جاء الرد المرقوب من أبى موسى يعلن فيه طاعته وطاعة
أهل الكوفة — أولئك الذين تحدث بلسانهم منذ أيام طليحة بن خويلد
وأعلن تمردهم . . . ولكن ابن أبى سفيان لم يرسل حرفاً . وظل ضارباً
فى صمته حتى يتبين أى الطريقين أجدى على مطامعه : طريق الوفاق أم طريق
الشقاق .

ثم حانت أخيراً ساعة البت ذات يوم خلال الشهر الثالث لمقتل عثمان . . .
فى غرة ربيع الأول اخترق دروب المدينة راكب نجذب إليه أنظار الناس .
فقد كان معتدلاً على راحلته ، ممدود الرأس إلى أقصى ما يستطيعه عنقه الموطوء ،
لا ينزل بصره إلى المارة أو الجالسين . وكانت يده مرفوعة إلى أعلى ، بها طومار
مختوم بلوح به بين لحظة وأخرى كأنه يشير به انتباه كل متطلع إليه . . . وقد
كان حقاً خليقاً بأن تعلق به العيون ثم تهمس على أثرها الشفة فى دهشة
واستفكار ، ناطقة بالكلمات القليلة المكتوبة عليه :

« من معاوية إلى على » .

من معاوية ؟ . . . بغير هذا اعتاء المال أن يكتبوا إلى الخلفاء . . . بغير
هذه القصة وهذا الاستعلاء . . . ولكن ابن أبى سفيان لا يضيره

أن يدهش الناس ويغضب عاليا ، لأنه قد احتار طريقه وأعلن العصيان . .
 وأدخل رسول التمرد إلى الإمام . وتقدم إليه بالطومار المختوم ففضه ،
 فإن هي إلا نظرة واحدة حتى رفع بصره إلى الشامي يستوضحه الأمر .
 كانت الرسالة في جوفها بيضاء لا تحمل كلمة واحدة . . .

— ماوراءك يا رجل ؟ ...

فتلفت الرجل حوله في حذر ثم قال :

— آمن أنا ؟ ...

— نعم إن الرسل آمنة لا تقتل .

— ورأى أنى تركت قومًا لا يرضون إلا بالقود ..

— ممن ؟

— من خيط تفسك !

فلم يغضب الإمام لهذا الاتهام الظالم ، بل تذرع بالهدوء والترث لسمع
 بقية الحديث وأردف الرجل يقول :

— .. وترك ستين ألف شيخ يبكون تحت قيص عثمان وهو منصوب

لهم قد البسوه منبر دمشق .

— منى يطلبون دم عثمان ؟

— نعم .

— أأست موتورا كثر عثمان ؟ .. اللهم إني أبرأ إليك من دم عثمان .

ولم تعد بقية في الكلام ، فأشار للرسول :

— اخرج .

— وأنا آمن ؟

— وأنت آمن .

ومضى عائدا يجتاز دروب البلدة وإن الناس ليهمون به لولا أن سبقت له

كلمة الإمام بالأمان ..

معاوية أسفر عن دخيلته ، وسدد أولى ضرباته . ولكننا نراها ضربة أصابت الإسلام قبل أن تصيب الإمام . وقضت في النهاية على السلطان الروحي الذي مكنت له العقيدة في القلوب والخواطر . أما الصرح الشامخ الذي وضع محمد نواته ، ورعاه من بعده خلفاؤه الذين ترسموا خطاه ، فقد أوشك أن يصبح ظلًا للماضي ، يطوف به الذهن كما يطوف بالطلل الدارس .

بهذه الضربة افتتح السبيل أمام الأهواء والمطامع ، وكسر القيد الذي كان يحبسها في نطاق ضيق من خشية الله ومبادئ الأخلاق القويمة . وانطلقت الأنانية بغير حاكم تسود النفوس والضمائر ، ويتحكم ناموسها في الأفراد الذين وهنت فيهم سطوة الإيثار والتضحية وحب الحق . فإن هي إلا أعوام حتى نرى الدولة الإسلامية تستند إلى قوى ظاهرية بين مال وعتاد وإرهاب ، بمد أن كانت تستند إلى الإيمان بحقها في هذه الحياة ، وبواجبها الذي يفرض عليها نشر رسالة ترفع البشر من وهدة الطلام ، وبقدرتها الكامنة في قلب كل مواطن — لا في سيفه — على سيادة العالم . ولئن ظلت لها زماناً رقعة الأرض التي أظلمت أعلامها الخفاقة ، فإن بقية من القوة الدافعة التي انبعثت عن قوة الدين في عهده الزاهر هي التي حفظت لها هذه الأرض . وما نلبث كلما تقدم الزمن أن نجد الوهن يسير في عظامها بقدر ابتعادها عن جوهر العقيدة وخصوصها لأهواء النفس . ذلك أن سلطان الروح بدأ يفترق في القلوب حتى دالت أخيراً دولته وأخلى عرشه لسلطان المادة . وما كان لنظام سياسي أن يعيش ويأخذ في النماء إذا لم توطد المثل العليا أركانه ، وتسك ما بينها كما يسك الملاط ما بين أحجار البنيان . . .

إن جريرة معاوية لا تقاس بنتائج عصيانه للإمام وتمرده على خلافته ،

وإنما تقاس بالفتاوى البعيدة التي أصابت صرح الإسلام حتى اليوم . ولسنا نشك في أن الأقدار هي التي شاءت لهذا الدعي أن يشق طريقه . ولكننا نؤمن بأن الدولة الإسلامية كانت حقيقة بأن تبقى على الزمن خالدة ، تنشر أجنحتها حينما أشرقت الشمس لو أنيحي لها أن تعيش كآلتها الأولى خاضعة لناموس الروح . على أن ابن أبي سفيان كان لا يستطيع أن يعيش إلا في جو أطاعه . وقد علم أن عليا رجل مستقيم المنهج ، لا يدين بغير شرعة الله ، ولا يقر للأثنية بالحق في الحياة . بل قد خبره يأخذ نفسه قبل إمرته بتسويد المثل العليا وجعلها الهدف الذي يجب أن يلتزمه كل إنسان مؤمن بإنسانيته ، فهو إذن بعد أن انتهت إليه مقاليد الحكم أحرص على هدفه وأقدر على نصرته . وما دام هذا طابع عهده فليس عمة اختيار لمن يدين بغير هذه المثل إلا أن يختفى أو يعمل على اختفاء هذا المثل من الميدان .

كان الطومار الفارغ الذي قطع الصحراء من الشام هو الدعوة السافرة لأصحاب الفتنة المتآمرين ليرزوا من أوكارهم ويعملوا بالثنية . فقد اطأنت به خواطرم ، وعرفوا أنه عنوان قوة من الرجال والعتاد تربض في الشمال يستطيعون أن يركنوا إليها في شد أزرم إذا أعلنوا هم أيضاً العصيان ، وقد تقووا فعلا بتمرد معاوية ، واستشعروا شجاعة ، كانت تخونهم قبل اليوم تتدفق ثانية في عروقهم كما تتدفق الدماء . وامل المدينة لم تسمع لفظاً من قبل للآثار بالنظام القائم كما سمته في هذه الفترة وكما همست به السنة الحافدين على الإمام . واعلمها لم تشهد هجرة كهجرتهم من جناباتها إذ ذاك وفرارهم منها كلما استطاعوا الفرار . كان أولئك النعميون عباد الذات ينظرون إلى عمرد ابن أبي سفيان كفاتحة عهد جديد ، أن أن يظفروا فيه بتحقيق الأوطار وبلوغ أجدى الغايات .

• • • ثم نرى طلحة بن عبيد الله يبرز ثانية على رأس الصفوف هذه المرة لايسير جدلاً جديداً بغير طائل ، ولا يتصدى لمعارضة كلامية تخونه فيها حجته أمام منطق الإمام . إن الظروف قد تغيرت والريح تسير له رخاء كما يلوح ودوره

اليوم أصبح غيره بالأمس ، حين كان لا يعدو تجسيم الهنات ثم الانتظار .
لم تعد به الآن حاجة للتربص ولا للمكوث فاعداً يشهد مركب الحوادث الذي
أخذ يسبر ، ووجب عليه أن يكون في ركابه أو يضيع .

وجب أن يلحق بموكب النضال ويعمل لمجده ، وهامى عائشة بمكة قد
انتشرت دعوتها ونمت الحركة التي بدأتها منذ أربعة شهور ، وزاد أتباعها حتى
ليسهل أن يكون منهم جيش مرهوب . أماميلها السياسي معروف . وأما
الحليفة المرجو الذي لن تدعو لسواه فليس سواه . فمن البدء كانت داعيته ،
أو ستظل كذلك في قراراتها حتى يتبين لها أن تعاود النداء باسمه مقرونا بلفظ
الخلافة الجليل ؟ .

على أنه لم يعدم شعوراً خفياً يزحف إلى صدره كزحف الحية الرقطاء وهو
يتجه بعينه صوب الشام . هو حقاً فرح بتمرد معاوية على الإمام وعده خطوة
واسمة نحو النصر ، ولكنه مع ذلك كان قلق الخاطر وخياله تطوف به صورة
سليل الأمويين . . فهذا الأمير منافس خطر بغير شك يجب أن يحسب له ألف
حساب . إنه فضلا عن حسن تأهبه بالعتاد والرجال وامتلاكه ناصية رعاياه ،
له في السيادة مطعم قديم . وهو أيضاً ولي دم عثمان الناهض الآن لأخذ الثأر
من كل امرئ شرك فيه . فاذا ذكر دم القتيل لم يذس القاتل ، ولم يذس أعوانه
وإخوانه ، ولم يذس قبلهم من دفعهم بتحريضه إلى ارتكاب الجرم . فهل يستطيع
طلحة أن يخفى عنه كفه الحمراء ؟

نحسبه جاهد ليبعد هذا الخاطر عن ذهنه حتى لا يفسد عليه أمره ،
واكتفى بالفرصة التي أحسها حين علم بتمرد معاوية وإعلانه العصيان على
الإمام . . . إن قوة طائفة في الشمال تؤيد إذن خطته ، وتهب لذات الدعوة
التي استحدثتها عائشة بمكة . . . تهب لمناجزة الخصم المشترك وإدالة سلطانه ،
وتهباً لضربه الضربة التي ينتظرها هذا المتطلع إلى مقفد الحكم وكل متطلع
مثله إلى النفوذ أو إلى إشباع هواه . ويوم يتحقق لطلحة أمل ويخاض الميدان
من خصمه المرهوب ، يهون عليه بمده أمر كل خصم سواه !

أما الآن فقد وجب أن يلحق بموكب الفضال ويعمل لمجده ! . . . وإذا كانت نفسه أكبر عنده من أن يحملها على الفرار فإنه لا يعدم وسيلة أخرى يخرج بها من المدينة ولا تنقص من قدر كبريائه . وأيسر هذه الوسائل ما كان يتعلق بالدين ، لأنه به يستطيع الفوز برضاء الخليفة وإقراره . . . كذلك صحب رديفه الزبير ، وانطلقا مما إلى على يطلبان منه الإذن بالخروج .
قال له :

« إذن لنا يا أمير المؤمنين . . . »

ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي طلبا فيها السماح بمفادرة المدينة ، منذ جاء طومار ابن أبي سفيان ! .
— تريد العمرة .

فرمقهما هنية بنظرة نفاذة ، ثم قال برنة المستريب :

— والله ما العمرة يريدان ! .

-- والله ما تريد إلا العمرة .

— بل القدرة ونكث البيعة ! .

انكشفت له مغاليق القلبين كما ينكشف عن الصحائف غلاف كتاب ، فأى شعور يا ترى اجتاحهما وقد نزلت كلماته عليها كالسان السوط ؟ .

لو ددنا لو كان الزمن لم يطالع على العاصحين تلك الملاحظة ، أو جنبهما الهوان الذي زخرت به ، ولكنها كانت مشيئة نافذة جرت بها يد القدر في سجله ، وكتبت على الزبير وطلحة ما يرجو كل عارف لقدرة أمثالهما من قادة الإسلام لو تنزها عنه . فقد مضى الشيخان يؤيدان قولهما ، ويدفمان عنهما تهمة أمير المؤمنين بأيمان مغالطة هما يعلمان بغير شك أنها قسم حاث . . . ولكن الحلف وحده كان الوسيلة التي تباغهما ما يريدان .

وقال على وما زالت نفسه مترعة بالشك والريبة :

— فأعيدا البيعة لي ثانية . . .

ففعلا دون تردد ؟ وبإيعاء كرة أخرى وهما يعقدان له المواعيق والعهود
بأيمان جديدة . . . ثم مضيا عنه خفيين كائما أتيح لهما الخلاص من نار ،
وانطلقا إلى درب مكة ، وإن بصدر كل منهما آمالا مبسوطة الرقعة كامتداد
الفضاء الفسيح ..

وكانت المديفة إذ ذاك صامته ترقب سير الحوادث ، وتنتظر القرار الذي
لا بد سيتخذه الإمام حيال متمرد الشام . لقد جاءت الأخبار بطاعة أبي موسى
في الكوفة وبيعته وبيعة أهل إقليمه لأمر المؤمنين ، وها هو الزمن يمر ولا
جواب يأتي من قبل معاوية رغم ترفق على به ، ورغم إرساله إليه يعظه ويبصره
ويهيئ به أن يستحب لمشية جماعة المسلمين . . . انقضى الزمن وابن أبي
سفيان موغـل في صمته وموغل في عصيانه ، فدل بهذا على إضماره العداء ،
وانطوائه على نية الخلاف . وإن الناظر إلى سياسة على حيال ولاية عثمان ليعلم
الآن مدى صوابه حين أبي إلامهم وتولية سواهم ممن يؤمنون بعبادته ومثله ،
ويعلم أيضا أنه كان نفاذ البصيرة ، مؤمنا باستجابة الفلاد كلها له لأنه لم يعمل
إلا ما أملاه عليه شعور أهل الأمصار نحو أولئك الولاة . وها هو الزمن قد
أثبت فراسته ، فجاءته الطاعة من كل إقليم . أما الشام فلها وحدها شأن تنفرد
به لأنها في قبضة رجل مفتون بالسلطان ، إقراره عليها — كجزله سواء
بسواء — لن يسفر إلا عن تمردة لأنه لا يرضى بغير احتلاب السلطان الذي
وقع في كف غريمه القديم . ولعله لو أثبتته الإمام في حكم الشام لوسعه أن يبدو
في أنظار الجماهير أقوى منه في حالة العزل ، لأنه يستطيع حينئذ أن يقول للناس
إنه يأبى البيعة لمن ولاه ، ولا يمتيرها إلا ثمنا يشتري به أمير المؤمنين صمته
عن اتهامه بمقتل عثمان ! . .

ولم يبق ثمة أمل في إصلاح الحال برد معاوية عن غيه بوسائل الترفق .
فقد كشف عن وجه الغدر وأسفر عن دخيلة نفسه . وكانت الأخبار تطالع
المدينة بين كل يوم وآخر بتأهبه واستعداداته . وكان أنصار على يترقبون

أمره وينتظرون ما ينجاب عنه تقريره ، والحدس يتراوح بهم بين انتصار سياسة الإهمال أو سياسة القتال . فلما أن انقضى الزمان وركود ، وملكهم الحيرة ، دسوا إليه زياد بن حنظلة عسى أن يعرف لهم حقيقة الخطة التي سينتهجونها في النهاية . فما هو إلا أن دخل عليه زياد وراح يحاول الطواف بحديثه حول الموضوع ، حتى بادره الإمام :

— يا زياد تيسر . . .

— لأى شىء يا أمير المؤمنين ؟

— لغزو الشام !

— بل الرفق والأناء أمثل . . .

« ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بعنسم »

فما جله أمير المؤمنين بقوله :

« متى تجمع القاب الذكى وصارما وأتقا حميا تجتنبك المظالم ! »

ووضح بهذا ما خفى هنيهة عن الأذهان . بانت الخطة التي لم يبق اليوم معدى عن اتخاذها حيال متمرد الشام .

وخرج زياد فاستقبله الناس بالبواب :

— ما وراءك ؟

— السيف يا قوم ؟

على أن ابن أبي سفيان حالفه زمنه ، فيسر له أمره ، وفرش طريقه أمامه بالورود ! . فلم يكد على يطالع أصحابه بما عزم عليه ، حتى امتدت أصابع القدر إلى ذلك العزم فطوته ، وإلى الضربة القاصمة التي كان وشيكا أن يوجهها إلى خصمه فأرجأها . . . ذلك أن القسم الغليظ الذى حلفه طلحة والزبير كان خدعة ، وكان سترا أريد به حجب الغدر الذى يبتاه . . . فقد جاءته أخبار مكة تحمل إليه بداءة « العمرة » التي انتواها الشيخان ! . . . إن النبأ قد صورهما بدعوان الناس إلى الإصلاح .

وقال لأعوانه الذين سألوه :

« . . . ألا إن طلحة والزبير وأم المؤمنين قد تمالأوا على سحق إمارتى ،

ودعوا الناس إلى الإصلاح ، وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم ، وا كف إن كفوا ، وأقتصر على ما بلغني عنهم . . . »

ولكنه في قراراته كان لا يسلم من الشك . ولا يستطيع أن يقصر نفسه على الهدوء ، والاطمئنان . وقد صدق شعوره . فقد جاءت الحقيقة الواضحة بعد قليل ، وعلم أن حزبهم بكّة قد تبعاً للقتال ، وهم بالسير إلى البصرة . . . فإلى أي شيء يسيران إن لم يكونا قد اعزما أموراً أهونها حمل أهلها - مثلهم - على نقض إمرة الإمام ؟ . . .

وهتف على وهو يكاد أن يرى بعينه لهيب الفتنة يعم أقطار الدولة : « إن فعلوا هذا فقد انقطع نظام المسلمين . . . »

وقد فعلوه . وتواترت الكتب والأخبار بما عزموا عليه . ولم يمد في نفسه ظل رينة من حقيقة الموقف الذي اختارته عائشة وصاحبها ، ومسارعهم إلى تقويض بنيان الدولة بهذه الدعوة التي خرجوا بها من حيز القول باللسان إلى المناجزة المسلحة بالسيف والسنان . علم على كل هذا وأيقنه ، ولكن أمراً واحداً لم يكن قد علمه بعد ، وكان إذ ذاك بعيداً عن ظنه . . . ولو استطاع أن ينفذ ببصره إلى مغاليق السر عند الشيخين ، لعرف السبب الحقيقي الذي دفنهما إلى تعجل حربه ، ولرآه ممثلاً في كتاب صغير قطع الصحراء من الشام إلى مكة حتى صار إلى يد الزبير بقرأ فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« لعبد الله الزبير أمير المؤمنين . من معاوية بن أبي سفيان .

سلام على ، أما بعد فإني قد بايعت لك أهل الشام فأجابوا واستوسقوا

كما يستوسق الحلب . فدونك الكوفة والبصرة لا يسبقك إليهما ابن

أبي طالب ، فإنه لا شيء يمد هذين المصريين ، وقد بايعت لطاحه بن عبد الله

من بعد . . . فأظهروا الطاب بدم عمان ، وادعوا الناس إلى ذلك . وليكن

منك الحد الحذر والتشهير . . . فأظفر كما الله وخذل مناوئكما ، والسلام . . . »

(نم الجزء الثاني وبداية الجزء الثالث)



٢٩٢٢٨

هدية الشهيد السيد
السيد عز الدين بحر العلوم
لمكتبة الروضة الحيدرية

توزيع الهيئة العامة للكتاب
القاهرة - بيروت
المجموعة الكاملة . ٤٠ جلد.